



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله
كلية العلوم الإنسانية
قسم التاريخ

جامع القرويين في العهد السعدي والعلمي (ق 16-19م)

مقاربة سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية

رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذة:

أ.د. فلة موساوي القشاعي

إعداد الطالب:

محفوظ سعيداني

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا.	جامعة الجزائر 2	أ.د/ مختار حساني
مقررا.	جامعة الجزائر 2	أ.د/ فلة موساوي القشاعي
عضوا.	جامعة الجزائر 2	د/ رقية شارف
عضوا.	جامعة الجزائر 2	د/ يامنة بحيري
عضوا.	جامعة البويرة	د/ ياسين بودريعة
عضوا.	جامعة خميس مليانة	د/ صباح بعارسية

السنة الجامعية 2019-2020م.

كلمة شكر

قال تعالى: "لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ".

سورة إبراهيم: الآية (07)

لله الشكر والحمد كله على فضله، أن وفقنا وأمدنا بالعون والصبر والإرادة لانجاز هذا العمل المتواضع.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): "لَا يَشْكُرُ اللَّهُ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ"

رواه أحمد وأبو داود والبخاري وصححه الألباني

لذا نتقدم بالشكر الجزيل والفضل الجميل لأستاذتنا الفاضلة الدكتورة: فلة موساوي-
القشاعي على صبرها علينا وتحملها معنا عبء هذا العمل بكل عطف، فتلقنتا كل مرة
ببشاشتها ورحابة صدرها، وغمرتنا بعطفها وحسن استقبالها، وأحاطتنا بتوجيهاتها وأثمن
نصائحها، التي سدّدت خطانا وصوبت أخطأنا.

كما لا أنسى أن أشكر الأستاذ: دريعي محارزي الذي سهر على سلامة هذا العمل لغويا
مع شكري لعمال الرصيد المغربي بالمكتبة الوطنية الجزائرية لتعاونهم وخدماتهم، ولا يفوتني
أن أشكر جزيل الشكر الأساتذة الذين أشرفوا على تقييم هذا العمل من خلال السهر في
قراءاته بغية تحسينه وتنقيحه، فألف شكر لهم جميعا.

الإهداء:

أهدي ثمرة جهدي إلى روح جدي "سعيد سعيداني" تغمدہ اللہ برحمته
وجعل قبره روضة من رياض الجنة
أمين.

المقدمة

المقدمة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وصلي اللهم على سيدنا محمد (ﷺ) المخصوص بجوامع الكلم المبعوث معلما وهاديا للعالمين، وأصحابه نجوم الظلام، الذين اهتموا بهداه وتعلموا في رحاب مدرسته القرآنية السنية، فاقتبسوا أنوارها وضربوا في الأرض ناشرين دعوة النور والعلم، من منابر المساجد والجوامع التي انتشرت في بلاد الإسلام فتثبته في النفس والأرض، فكان الجامع قلب المدينة ومركز عمرانها، فتشابهت المدينة الإسلامية في ذلك شرقا وغربا، ومنها مدينة فاس بالمغرب الأقصى التي احتضنت جامع القرويين، الذي يشع منه نور الإسلام ومنبع للعلم يرتوي منه القاصي والدان، فصار اسمه على كل لسان، فكان هو مقصد الدراسة والتبيان موسوما بـ

"جامع القرويين في العهد السعودي والعلوي (16-19م)

مقاربة سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية.

وخصصنا هذه الدراسة للبحث وتقصي أحداث وتطورات هذا الصرح الكبير الذي طغى اسمه في بلاد المغرب ككل واقترن مع اسم مدينة فاس، فكان من بين المعالم التي يجب الوقوف عندها أثناء الزيارة، لهذه المدينة التاريخية، وحددنا المجال الزمني مابين القرنين 16-19م والذي يشكل الفترة الحديثة في العصور التاريخية ويغطي الدولة السعودية وفترة من الدولة الحالية الحاكمة في المغرب الأقصى وهي الدولة العلوية.

أسباب ودوافع اختيار الموضوع: ومن أسباب اختيار هذا الموضوع ودوافعه أن هذه الدراسة المتواضعة جاءت بعد تشاور مع الأستاذة المشرفة من جهة ومن جهة أخرى لرغبتني الشخصية في التعرف على هذا الصرح الإسلامي الذي طالما سمعت عنه، وهو الأمر الذي كان يجذبني للبحث فيه، كما أن صديقي وزميلي الأستاذ أمير يوسف قد شجعني على دخول غماره وتقديمه للطلبة الجامعيين والعاشقين للتاريخ بصفة عامة، وحتى عند الاحتكاك

بالمكتبات الجزائرية في محاولة الوقوف على دراسة تخص هذا الجانب من الدراسيين الجزائريين نجدها قليلة إن لم نقل منعدمة، رغم أن أشقاءنا المغاربة قد أدلوا دلوهم وأسهبوا فيه.

وأیضا في إطار الخروج من الدراسات القطرية إلى الدراسات الإقليمية والتي تمس وحدة بلاد المغرب، فوجدنا ضالتنا في هذا الصرح الذي أوى إليه الجزائريين كمدرسين وطلبة علم قصد فتح أفق جديدة في مستواهم العلمي، هذا كان لزاما علينا أن نعرف به، من جهة أخرى أن نهتم بجوانب مهمة ترتبط بديننا الإسلامي ومنها المساجد تلك المنابر التي أشاع منها نوره وهدهد وما تشهده حاليا من هجمة شرسة قصد تشويه صورتها لذا اتخذنا كمثال هذا الجامع الذي جمع الشرق بالغرب والمسلم بغيره، في طرح الأفكار وما كان من تطورات على مستوى العالم الإسلامي وما شهدته من مسائل وكيف تعامل معها هذا الأخير.

الدراسات السابقة: أما فيما يخص الدراسات السابقة فإن الدراسات الجزائرية حوله لا تكاد تتفكك أن تكون إشارات عابرة عليه، من خلال التعريف ببعض رجال العلم ورحلاتهم العلمية أثناء تكوين أنفسهم العلمي والديني، أما فيما يخص المغاربة فإنهم كما قلت سابقا قد أسهبوا فيه، وبالتعريف بما كان له من تطور عمراني وتاريخي منذ القدم كابن أبي زرع والجزنائي ومن جاء بعدهما مما جعل الجامع كلما تعرض لجديد تسيل من أجله الأقلام، ك"جذوة الاقتباس" لابن القاضي، وجعل له تأليف مخصصة به ك"الكتاب الذهبي"، الذي جمع فيه مقالات من أساتذة أكاديميين للاحتفال بهذا الصرح الخالد، إلا أن الحظ لم يسعفنا للإطلاع عليه، أما ثاني مرجع خاص به فهو لعبد الهادي التازي تحت عنوان "جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس" وتتبعهما منذ التأسيس إلى ما بعد الاستقلال مع إبراز الأحداث التي رافقت ذلك.

ما أردت أن أضيفه في هذا العمل المتواضع هو ذلك التفاعل الذي أبداه جامع القرويين مع مسائل ونوازل العصرين السعدي والعلوي، لأهمية الأحداث الداخلية والخارجية وتأثيرها على المنطقة في جميع المستويات، بإبراز موقفه منها من خلال ما أصدره رجال القرويين أو

من انتسبوا له، حتى لا نجعل المسجد عبارة عن مكان لأداء الفريضة دون أن يكون له علاقة بما يجري في أرض الواقع، وأخذ صورة حضارية لمدينة فاس وجامعتها من خلال الوقوف على ما أفرزته المدينة سياسيا واجتماعيا-اقتصاديا وحضاريا.

الإشكالية الرئيسية:

تمحورت الإشكالية الرئيسية حول تفاعل جامع القرويين بصفته مؤسسة دينية وعلمية مع مسائل الحياة المطروحة في شكل نوازل في مدينة فاس والمغرب وعلى المستوى العالم الإسلامي خلال العهدين السعدي والعلوي.

الإشكاليات الفرعية:

وقسمنا هذه الإشكالية لعدة تساؤلات فرعية جاءت كما يلي:

- *. من أسس فاس والقرويين؟ وما التطورات العمرانية التي عرفها؟
- *. ما الجديد الذي مس فاس والقرويين في العهدين السعدي والعلوي؟
- *. ما هي المرجعيات التي بنت القرويين نفسها عليها؟ وهل هي جامع أم جامعة؟
- *. هل القرويين مجرد مؤسسة دينية تعليمية؟، أم أنها منتجة لطاقات وأطر ساهمت في نشاطات أخرى؟
- *. لأي حد ساهم الوقف في دعم القرويين؟، وبم تميزت الأوقاف في هذه الفترة وما مدى أهميتها وفعاليتها؟.
- *. ما الإسهامات التي قدمها القرويين على مختلف الأصعدة؟ وهل استجاب لتطلعات سلاطينه؟
- *. كيف تعامل رجال القرويين مع النوازل والمسائل والقضايا المطروحة؟. وبما تميز رجال هذا الصرح في العهدين السعدي والعلوي؟.
- *. ما الدور الحضاري الذي شارك فيه القرويين بمدينة فاس وبالمغرب والمشرق؟.

خطة البحث: وللإجابة على الإشكالية والتساؤلات الفرعية، فإننا عدنا إلى مادة علمية أسعفتنا على بناء خطة عمل احتوت على مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة مذيلة بملاحق وقائمة ببليوغرافيا.

فانطلقنا من المقدمة التي هي عرض شامل لما جاء في هذا البحث بصفة موجزة وعامة ومختصرة، وضمناها دوافع اختيار الموضوع وأسبابه مع الإشكالية والخطة وأهم مصادر المادة التوثيقية.

فمهدنا لهذه الدراسة بقسم أول جاء تحت عنوان جامع القرويين بفاس والتعليم حتى القرن 10هـ/16م وبه أربعة فصول، خصصنا الأول للتعريف بمدينة فاس منذ التأسيس حتى قيام الدولة السعدية، وأهم التطورات الحاصلة في هذه الفترة بإيجاز، ونفس الشيء اتبعناه مع الفصل الثاني في التعريف بجامع القرويين وأهم توسيعاته ومرافقه، أما الفصل الثالث تناولنا فيه مراكز التعليم الأولي بالمغرب الأقصى، مركزين على التعليم في الكتاب والمدارس في الفترة السابقة للعهد السعدي، في حين تطرقنا في الفصل الرابع إلى التعليم العالي بالقرويين حتى ق 10هـ/16م لتعرف على كيفية بناء هذا الصرح لشخصيته العلمية بالمغرب الإسلامي.

أما القسم الثاني فكان موسوما بالقرويين والواقع السياسي (10-13هـ/16-19م) وأفردناه لدراسة التاريخ السياسي لمدينة فاس وجامعها في العهدين السعدي والعلوي، واحتوى على ثلاثة فصول، تناول الأول فاس والقرويين في العهد السعدي متطرقا إلى التعريف بهذه الأسرة، وعلاقتها بفاس والقرويين واتبعنا نفس الخطة في الفصل الثاني الذي جاء تحت عنوان فاس والقرويين في العهد العلوي، في حين الفصل الثالث جاء موسوما بالقرويين والقضايا السياسية القائمة حيث حاولنا إبراز مدى تفاعل القرويين مع القضايا المطروحة على الساحة السياسية في العهدين، مع الوقوف على مساهمة بعض من ملوك الأسرتين في الجانب العلمي باعتبارهم من رجال القرويين.

وخصصنا القسم الثالث المدرج تحت عنوان القرويين والواقع الاجتماعي-الاقتصادي (10-13هـ/16-19م) وبه ثلاثة فصول ناقشنا في الفصل الأول الواقع الاجتماعي-الاقتصادي لفاس بالوقوف على صورة المجتمع الفاسي، والمكانة الاجتماعية والاقتصادية لعلماء القرويين، وتعرفنا على أهم الهيئات المسيرة والمشرفة على جامع القرويين من وظائف إدارية ودينية، أما الفصل الثاني فكان حول الوقف والقرويين، من حيث تعريف الوقف وأهميته الاقتصادية، ومدى مشاركة الأشراف فيه، ووقفنا على بعض مصادر الوقف بالقرويين، وفي الفصل الثالث حاولنا الولوج إلى القرويين والقضايا الاجتماعية والاقتصادية، بالتعرف على ما أفرزه المجتمع من نوازل اجتماعية ومسائل اقتصادية وكيف تعاطى معها العلماء.

أما في القسم الرابع والأخير فجاء تحت عنوان رسالة القرويين الحضارية (10-13هـ/16-19م)، وقد خصصناه لدراسة النشاط العلمي لهذا الصرح في عهد الأشراف وجاء في ثلاثة فصول تطرقنا في الأول إلى الحياة العلمية بالوقوف على عوامل النهضة والدراسة بالقرويين ومؤثراتها، ثم عرجنا في الفصل الثاني على المجالس العلمية ورجالها بالقرويين وذلك بالتعرف على أهم الكراسي والمجالس العلمية بالقرويين وفروعها، وأهم العلماء المبرزين في التدريس فيها، مع إبراز أهم التقاليد العلمية التي كانت سائدة في تلك المرحلة من الزمن وفي الفصل الثالث المعنون بالقرويين والقضايا الدينية والعلمية، فإننا وقفنا أولاً على صلات علماء القرويين بالخارج، وثانياً على أهم القضايا الدينية والفقهية المطروحة بين العلماء في الاستشكالات الجديدة ومواقفهم منها داخليا وخارجيا.

وانتهينا بخاتمة ضمناها أهم الاستنتاجات المتوصل إليها من هذه الدراسة والتي كانت في مجملها حول فاس والقرويين والعلماء في العهدين السعدي والعلوي، وتعاملهم مع القضايا المطروحة في هذه الفترة الحديثة

المنهج المتبع: وفي هذه الدراسة التاريخية اتبعنا منهاجاً حاولنا تطبيقه إلى حد بعيد يعتمد على المنهج التاريخي المدعم بالوصفي والتحليلي، بتتبعنا للأحداث التاريخية كرونولوجياً لإيجاد نسق تاريخي مترابط، للوصول لمقاربة تاريخية يمكن من خلالها إجلاء بعض النتائج

كما حاولنا نقد بعض النظريات وذلك بالعودة إلى المصادر والوثائق والدراسات العلمية المتخصصة.

المادة التوثيقية: إن دراسة تاريخ معلم إسلامي كبير كجامع القرويين المحتضن في فاس يتطلب من الباحث الرجوع إلى مصادر متنوعة من تاريخية وجغرافية وكتب التراجم وغيرها لأن المعلومات التي تناولت هذا الصرح ماثورة في ثناياها، وإخراجها يتطلب الكثير من الوقت والدقة والتمحيص والصبر والمثابرة، لجمعها في مصنف واحد، خاصة إذا كانت مرتبطة بعلاقة بين الجامع والحياة السياسية والاجتماعية-الاقتصادية والعلمية.

رغم أن الفترة الزمنية لموضوع دراستنا، قد أسالت كثيرا من الحبر، وصنف فيها رجال من أهل المنطقة منهم من عاشوا خلال قرون الدراسة وكثير منهم المتأخرون الذين نقلوا عن الأوائل، ومن خصائص المصادر التوثيقية المغربية أنها مختلفة تقدم شتى فروع المعرفة والمعلومات المتنوعة كثيرا ما تكون غير منتظرة، ومن هنا كان لا بد من الاطلاع على المصادر، بالرجوع إلى المؤلفات المختلفة بما فيها مختلف الرسائل الرسمية والوثائق التي تخص العهدين، والمخطوطات المحققة المطبوعة المعاصرة أو المتأخرة عن فترة الدراسة والمؤلفات التاريخية، وكتب التراجم والفهارس والطبقات والأدب والفقه...، ومنها:

ابن أبي زرع في كتابه القرطاس والجزنائي في مصنفه جنى زهرة الأس اللذان استفدنا منهما في تأسيس مدينة فاس والقرويين وأهم التطورات التي عرفها، والافراني في الصفوة والنزهة الحادي، وابن عساكر في دوحته ألفه عام 985هـ/1577م، ذكر فيه شيوخه والفنون التي درسها عليهم وذكر شيوخ ق10هـ/16م، ومخطوط شرح العمل الفاسي لأبي القاسم السجلماسي، والذي أفادنا في تلك المسائل التي دخلت العرف في الحكم عليها من غير المشهور بفاس، ومراة المحاسن ألفه محمد العربي الفاسي عام 1046هـ/1636م زمن خروجه من فاس للتعريف بوالده أبي المحاسن وبه أخبار مهمة تتعلق بالحياة الفكرية في المغرب السعدي وتراجم عن رجالاته.

وكتاب المنتقى المقصور لأحمد بن القاضي، وتناول فيه حياة سلطانه، ومن اجتمع بهم المؤلف في سفره، وأيضاً كتاب درة الحجال في أسماء الرجال ألفه عام 999هـ/1591م وفيه 1522 ترجمة لما يزيد عن ثلاثة قرون من أواخر الق7هـ إلى أوائل القرن 11هـ وعرف فيها علماء المغرب والمشرق والأندلس، وكتاب جذوة الاقتباس ألفه في حوالي 1004هـ/1596م عرف فيها بتاريخ فاس ومحاسنها مترجماً لملوكها وعلمائها وأدبائها سواء الأصليين أو الطارئین منذ تأسيسها عام 192هـ/808م إلى غاية عصره، وتراجمها مرتبة أبجدياً وزمناً حسب الوفيات.

والقادري في كتابه نشر المثنائي (ت1187هـ/1773م) وهو من أشهر الكتب التي تختص بالأعلام المشهورة بالمغرب ويمتد ليشمل العالم الإسلامي في القرنين 11-12هـ، ويلتقط أهم الأحداث البارزة في كل سنة، والناصري (ت1315هـ/1897م) في كتابه الاستقصا وهو أحدث وأكمل تاريخ للمغرب، حيث ناقش جميع الجوانب العامة للمغرب الأقصى وتطوراتها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً وتاريخياً، وغيرها من المصادر التي لا يسع المقام إلى ذكرها كلها.

كما اعتمدنا على عدة مراجع أكاديمية تناولت هذا الموضوع وعلى رأسها كتاب الأستاذ عبد الهادي التازي الموسوم بجامع القرويين المسجد والجامعة، وأفادنا في كل مراحل بحثنا هذا وكتاب الحياة الفكرية بالمغرب لمحمد حجي وكتاب الحياة الأدبية بالمغرب لمحمد الأخضر وتاريخ العمارة لعثمان بن إسماعيل وكتاب تاريخ الأوقاف الإسلامية للأستاذ بنعلة وكتاب دور الوقف في العهد العلوي لبوركة السعيد، وأعداد من مجلة دعوة الحق والكثير مما يطول الإمام به جميعاً وقد استفدنا منهم في جنبات وثنايا هذا العمل المتواضع.

إلى جانب الدراسات العربية والأجنبية المتخصصة من الكتب المبسطة والمقالات المضبوطة، التي تعرضت لهذا الموضوع من مختلف جوانبه القريبة أو البعيدة.

الصعوبات والعراقيل: ومهما اجتهد الباحث فإنه من الصعب الاطلاع والإلمام على كل ما كتب حول الفترة المعالجة للدراسة، فالبحث الأكاديمي هو عمل متواصل، لذا فهو بحاجة

دائمة إلى الإثراء والتنقيح والتصحيح، ومنه فقد تعرضنا إلى عدة صعوبات في ميدان بحثنا هذا والمتمثلة أولا في هيكلة الموضوع المقترح للدراسة وكيفية التحكم فيه، حتى تكون معلوماته متكاملة ومتناسقة فيما بينها، إضافة إلى تشعب وتنوع المادة العلمية اللذان صعبا علينا هيكلة العمل مما أوجد تداخلا دائما، وهنا ظهر دور الأستاذة المشرفة التي لم تبخل علينا بتوجيهاتها ونصائحها حول كيفية التعامل مع المعلومات وإتباع خطة معتمدة على منهجية علمية، ساهمت في تذليل تلك الصعوبات، فلها منا كل الشكر.

كما أننا توجهنا في رحلتنا العلمية إلى المغرب الأقصى في إطار الزيارة الميدانية لجامع القرويين، وكلنا أمل في الحصول على بعض الوثائق التحبسية الخاصة به، ولكننا عدنا صفر اليدين بدون طائل أمام بيروقراطية عالم الإدارة في المغرب العربي، مما أوقعنا في طائلة البحث عن تلك المادة بالعودة إلى الدراسات العلمية الأكاديمية المغربية الصميمة كمادة لنا ننطلق منها، في ظل انتظار تحقيق ما يعرف بالتوأمة بين الجامعات الجزائرية ونظيراتها في المغرب الكبير، ليتسنى للباحث العمل بكل أريحية ودون عقدة أو خلفية، لا نلمسها في كتابات الأوائل، ونحس بها عند الأواخر، واعتمدنا في تسميتنا لمنطقة المغرب الأقصى باسم المغرب للتخصيص، في حين أطلقنا المغرب الإسلامي أو بلاد المغرب للتعميم من طرابلس الغرب للمحيط.

كما لا يفوتني ويسعني أن أتقدم بخالص شكري وتقديري وعرفاني بالجميل إلى أستاذتي الفاضلة الأستاذة الدكتورة فلة موساوي القشاعي التي راعت خطوات هذا العمل في جميع مراحله فكان تشجيعها أكبر عون لي على إتمام هذا العمل في الصورة التي أخرجته فيها كما أشكرها جزيل الشكر على صبرها علينا خلال أطوار انجاز هذا العمل المتواضع.

فإن أصبت فبتوفيق من الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان.

قائمة المختصرات:

تحقيق	تح
تخريج	تخ
ترجمة	تر
تصحيح	تص
تعليق	تع
جزء	ج
حرف	ح
سنة	س
صفحة	ص
ضبط	ض
طبعة	ط
عدد	ع
القرن	ق
مجلد	مج
ورقة	و
A	Année
N	Numéro
P	Page
R. H.T	Revue Hespéris Tamuda
T	Tome
V	Volume

القسم الأول: جامع القرويين بفاس والتعليم حتى ق10هـ/16م

الفصل الأول: مدينة فاس من التأسيس حتى ق10هـ/16م

أولاً: مدينة فاس

ثانياً. التطور السياسي والتاريخي لمدينة فاس

الفصل الثاني: جامع القرويين من التأسيس حتى ق10هـ/16م

أولاً. تأسيس جامع القرويين

ثانياً: مرافق القرويين حتى ق16م

الفصل الثالث: مراكز التعليم الأولي بالمغرب الأقصى حتى ق10هـ/16م

أولاً. المسجد والجامع

ثانياً. الكتاب أو المسجد

ثالثاً. المدارس العلمية

الفصل الرابع: التعليم العالي بالقرويين حتى القرن 10هـ/16م:

أولاً. نشأة جامعة القرويين

ثانياً. نشأة الكراسي العلمية بالقرويين

ثالثاً. الحياة العلمية بالقرويين

القسم الأول: جامع القرويين بفاس والتعليم حتى ق10هـ/16م

تمهيد:

خصص هذا القسم كمدخل للدراسة، فعمدنا فيه إلى التعريف بالتطورات السياسية والعمرانية التي عرفتها فاس وجامع القرويين منذ التأسيس إلى غاية القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، مع التعرّيج على أهم التطورات والتغيرات الحاصلة في التعليم الإسلامي وأهم مؤسساته وصولاً به أيضاً إلى غاية الفترة الحديثة، للوقوف على نوعية العلوم ومدى مساهمة تلك المؤسسات في نشره، وهذا لارتباطها المباشر بموضوع الدراسة كل هذا لأخذ فكرة عامة عن حياة السياسية والعلمية، التي أنتجت جامعة القرويين والمؤسسات التابعة لها بفاس.

الفصل الأول: مدينة فاس من التأسيس حتى ق10هـ/16م:

تمهيد:

إن هذه الدراسة قد اختصت بجامع القرويين، إلا أننا لا يمكن أن نتعرف على هذا الصرح الديني العلمي والتاريخي دون التطرق إلى المدينة التي تحتضن هذا المعلم، لذا ارتأينا قبل التعرف على القرويين أن نقف على تأسيس مدينة فاس التي في حضنها تشع هذه الدرة التي لمع بريقها في المغرب الإسلامي، ليطلال الجهة الغربية للقارة الإفريقية وحتى على العالم الإسلامي، ومنه فإننا عمدنا إلى إدخال هذه المدينة في خضم الأحداث التاريخية، بالموازاة مع القرويين، لذا سنقف على تطورهما العمراني وإسهامهما التاريخي لهذه الفترة.

أولاً: مدينة فاس:

1. تأسيس فاس:

يعود تأسيس هذه المدينة إلى تلك الأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية، وألقت بآثارها على بلاد المغرب، فقد تعددت الروايات التاريخية¹ حول تفاصيل قدوم أفراد من آل البيت الذين سيبنون هذه المدينة، فكل أعطى رواية بما تناسب أذواق الأحداث التاريخية التي ساقها إلا أنها توحدت في فكرتها من حيث السياق العام للأحداث، التي تعود بنا إلى الواقعة الفخ بضواحي مكة التي أوقع فيها الخليفة موسى الهادي العباسي² بآل البيت في يوم التروية

¹. ينظر: - علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط 1972م، ص 15 وما يليها.

- علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة مدينة، تح: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية الرباط 1411هـ-1991م، ص 10 وما يليها

- أحمد بن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج1، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973، ص 16 وما يليها

- Henri Terrasse, Histoire du Maroc, T1, Editions Atlantides, Casablanca 1950, P100.

- Evariste Levi-provençal, La Fondation de Fès, Librairie Larose, Paris 1938, P4.

². الخليفة موسى العباسي: هو أبي محمد موسى الهادي بن محمد بن عبد الله المهدي بن جعفر المنصور، تولى الخلافة بعد والده في محرم 169هـ/785م، ولم تكن مدة حكمه طويلة حيث توفي بالجمعة 16 ربيع الأول 170هـ/786م، ليخلفه هارون الرشيد. (ينظر: أبي الخطاب بن أبي علي حسن بن علي السبط الإمام أبي البسام، كتاب النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، الترجمة والتأليف والنشر، بغداد، ص 35-36).

في يوم السبت 08 ذي الحجة 169هـ/10 جوان 786م، واستشهد فيها الحسين بن علي بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه¹.

حيث تمكن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يفر مع مولاه راشد² من قبضة العباسيين، وهذا يذكرنا بفرار عبد الرحمن الداخل آخر الأمويين من العباسيين إلى الأندلس حيث تمكن من إقامة دولة أجداده بالغرب، فإننا نجد نفس الشيء تقريبا مع إدريس الأول حيث أقام دولته بالمغرب الأقصى، بعد اجتياز أرض الكنانة وقد أسهب بن أبي زرع في هذه المرحلة من الرحلة³، لينزل بطنجة ومنها إلى مدينة ويلي⁴ حيث رحبت به القبائل الأمازيغية وعلى رأسهم إسحاق الأوربي، وبعد ستة أشهر من وصوله تمت مبايعته بيوم الجمعة 04 رمضان 172هـ/06 فيفري 789م⁵.

ومن تلك القبائل التي بايعته أسس جيشا وخرج إلى تامسنا⁶ ففتح شالة⁷ وتادلة⁸ بالوسط إلى أن بلغ أقصى الجنوب بماسة ليصل جهة الشرق إلى تلمسان، فعمل على تكوين دولة توازي الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد، ولكن الخليفة هارون الرشيد⁹ رأى فيه خطرا على دولته فأرسل سليمان بن جرير البجلي المعروف بالشماخ ليقضى عليه¹⁰، واتصل به وعندما

¹ عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، مج 1، ط 2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 2000، ص 43.

² راشد بن منصة الأوربي: اختلف في أصله بين عربي وحبيشي وبربري، امتاز بالشجاعة والحكمة السياسية، دفن بجبل زرهون بالقرب من ضريح إدريس الأول. (ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 18).

³ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 17.

⁴ ويلي: مدينة عتيقة على السفح الجنوبي لجبل زرهون، على بعد 28 كلم شمال مكناس، تعود للحقبة الرومانية وكانت إحدى عواصم يوبا الثاني (23-24م) ملك موريتانيا القديمة، وكانت مقر الحاكم الروماني وأثناءها عرفت بهذا الاسم، خربت على يد الوندال في ق 5م، لتنتعش قليلا بعد دخول الإسلام. (ينظر: الجزنائي، جنى زهرة الأس، ص 12)

⁵ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 20.

⁶ تامسنا: سهل يمتد من وادي أبي الرقراق إلى أم الربيع، وهو سهل الشاوية وما يجاوره، وقد انمى هذا الاسم وبقيت بعض الأسر المغربية منسوبة إليه. (ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 20).

⁷ شالة: اسم لمدينة مغربية مندثرة، على وادي أبي الرقراق، دخلها الفينيقيون ليطورها الرومان، لتخرب من بعدهم تعرضت في الفترة الإسلامية لمحاولات إحياء، وهي منطقة أثرية. (ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 20).

⁸ تادلة: اسم لمنطقة بوسط المغرب، على وادي أم الربيع، جنوبي الخنيفرة، واقعة على الطريق الرباط فاس بمراكش. (ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 20).

⁹ هو أبي جعفر هارون الرشيد بالله بن محمد، بن عبد الله المهدي بن جعفر المنصور، وصلت الدولة العباسية إلى أقصى مجدها وقوتها وعدلها، كان ضليعا في عدة علوم كالآداب، شاعرا قارضا له، وكان يحج سنة ويغزو سنة، ضرب بيد من حديد علي البرامكة، توفي بطوس ببلاد خراسان يوم السبت 30 جمادي الثانية 193هـ/809م. (ينظر: بن الشيخ الإمام أبي علي حسن بن علي السبط الإمام أبي البسام، كتاب التبراس...، المصدر السابق، ص 36-42).

¹⁰ Levi-provençal, Op.cit, P4.

إِثْمَنَهُ قام بتسميمه بقارورة طيب¹، فاقترن اسم الشماخ بكل معاني الوضاعة، واغتيل الإمام في ربيع الثاني 177هـ/ جويلية 793م ودفنه مولاه راشد الذي جدّ في طلب رأس سليمان ولكنه سلم مع جراح إلى بغداد²، لذا اهتم مع المغاربة بالابن الذي كان ببطن الأميرة كنزة زوجة إدريس التي ولدت في يوم الاثنين 3 رجب 177هـ/ 14 أكتوبر 793م ابنا سمي على أبيه³.

فالتف المغاربة حول إدريس الثاني فتعهدوه بالتربية والتنشيف والتدريب وتكفل مولاه راشد بتحفيظه للقرآن وتعليمه السنة والفقه والشعر وأمثال العرب وسير الملوك وسياستها⁴، حتى أنه في سن العاشرة أخذت له البيعة بمدينة ويلي يوم الجمعة 1 ربيع الأول 183هـ/ 15 أفريل 799م⁵، فبايعته زناتة⁶، أوربة⁷، صنهاجة⁸ وغمارة⁹ وسائر القبائل البربرية فقوي عضده بجنده وأشياعه وتوطد ملكه وكبر سلطانه، وفي 189هـ/ 805م وتوافد الناس إلى هذه المدينة حتى اكتظت بساكنيها الوافدين من إفريقية، الأندلس والمشرق (مئات الأسر من بني قيس¹⁰ الأزد¹¹، الخرج¹²، بني يحصب¹³ من الأندلس)¹⁴، فسرّ بهم وقربهم وجعلهم من بطانته

¹. الجزنائي، المصدر السابق، ص 14.

². بن أبي زرع، المصدر السابق، 23-24.

³. Terrasse, Op.cit, T1, P115.

⁴. الجزنائي، المصدر السابق، ص 16.

⁵. Terrasse, Op.cit, T1, P 116.

⁶. زناتة: قبيلة من بني يحيى بن ضريس، من أكبر شعوب البربر، منهم بنو مغراوة، بني يفرن، جراوة، وبنو مريين وبنو عبد الواد، تنضوي تحت زناتة قبائل كثيرة وبطون عديدة، مناطقها في كافة الأقطار المغربية من طرابلس إلى السوس الأقصى. (ينظر: عبد الهادي بن منصور، قبائل المغرب، ج1، المطبعة الملكية، الرباط 1388هـ/ 1968م ص311)

⁷. أوربة: ولد أورب بن برنس، قبائلها كثيرة التعداد منها دقيوسة، رغيوة، نفاسة، لجاية..أراضيها من جبل زرهون إلى جبال الهبط. (ينظر: بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص313-314).

⁸. صنهاجة: هم شعب صنهاجة، من بني صنهاج بن برنس أبي البربر البرانس، وهي شعب كبير منتشر في كافة أقطار المغرب، تزيد قبائلها عن السبعين، من بطونها: أنوغة، بني زروال، هسكورة، بجاية، بطوية، تاركة، جازولة، بني جعد بني خليل.... (ينظر: بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص328-332).

⁹. غمارة: هم مصمودة الشمال، من أشهر شعوب البربر وقبائلهم، سموا باسم والدهم غمار بن مصمود، يمتد موطنهم من ساحل البحر إلى المحيط. (ينظر: بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص325).

¹⁰. القيسية: قبيلة عربية تنسب إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وتتشعب إلى بطون ثلاثة كبيرة: كعب، عمرو وسعد وغلب اسم القيسية على القبائل العدنانية. (ينظر: الجزنائي، المصدر السابق، ص17).

¹¹. الأزد: من أعظم القبائل العربية وأشهرها تنسب إلى الأزد بن الغوث بن نبي بن مالك بن كهلان، من العرب القحطانية. (ينظر: الجزنائي، المصدر السابق، ص17).

¹². الخرج: بطن من الأزد القحطانية، قطنوا يثرب مع الأوس، وسموا أثناء هجرة رسول الله (ﷺ) بالأنصار مع الأوس. (ينظر: الجزنائي، المصدر السابق، ص17).

¹³. يحصب: من بني دهمان إحدى بطون بني عامر بن حمير. (ينظر: الجزنائي، المصدر السابق، ص18).

¹⁴. ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، 27.

فاعتز بهم دون البربر واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدي، فكثر الناس وضاقوا وليلى بهم، فعزم على إنشاء عاصمة جديدة لملكه¹.

ورغم تعدد الروايات المنقولة عن إنشاء مدينة فاس، وطريقة اختيار مكانها وتسميتها لكنها تتفق في مسارها التاريخي على نفس النسق للأحداث، فابن أبي زرع نقل عن أبي القاسم بن حنون في تاريخه المفقود لمدينة فاس² وقد نهل منه كل من الجزنائي في زهرة الآس وابن خلدون في تاريخه العبر وابن القاضي في جذوة الاقتباس وغيرهم، كما نقل مارمول عن الحسن الوزان، وهو الأمر الذي جعلنا نعود إلى ابن أبي زرع في التعرف على مدينة فاس وجامعها الأعظم³.

إن تأسيس فاس يعود إلى إدريس الثاني، مع العلم أن هناك من يرجعها إلى إدريس الأول كبروفنصال⁴، مهما يكن من أسسها فإنه يدعى إدريس، فبعد اكتظاظ وليلى بالوافدين الجدد الفارين من الحكم العباسي وغيرهم من الأندلس وإفريقية⁵، فكان لزاما البحث عن مكان جديد يمكنه احتواء هذا التدفق البشري، وبعد اختبار عدة أمكنة وقع واختار الوزير عمير بن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم، على أرض مغطاة بالأشجار وتحتوي على العيون والأنهار تابعة لزواغة⁶ من زناتة، اشتراها إدريس الثاني منهم سنة 191هـ/807م، ودفع فيها ستة آلاف درهم⁷ لأصحابها، وكتب صك الشراء أبو الحسن عبد الله بن مالك المالكي الأنصاري الخرجي في سنة 191هـ/807م⁸.

¹ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 29.

² التازي، المرجع السابق، مج 1، ص 47.

³ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 10، صورة لمدينة فاس وجامعها، ص 444.

⁴ Levi-provençal, Op.cit, P 8-16.

⁵ روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج1، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1416هـ/1996م ص 55.

⁶ زواغة: بنو سمان بن يحيى إخوة زوارة، ولها عدة بطون منتشرة في أقطار المغرب، ومنهم فرقة بظاهر فاس إليها ينسب سهل زواغة الواقع بينها وبين صفرو وجبل كندر. (ينظر: بن منصور، المرجع السابق، ج1، ص311).

⁷ الدرهم: وحدة نقدية، تساوي أوقية، وفيه عشرة مثاقيل، وينقسم إلى كالأوقية إلى أربع موزونات، وأصبح وحدة صرفية للمغرب الأقصى منذ 1960م. (ينظر: عبد الرحمن ابن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، المطبعة الملكية الرباط 1381هـ/1961م، ص 406).

⁸ الجزنائي، المصدر السابق، ص 19.

وبعد أن تحقق من صلاحية المكان باختبار تربتها وهوائها ورياحها ومائها، وبُعدها عن الصحراء والبحار والجبال الشامخة والسباخ العفنة¹، حتى أن ابن أبي زرع أعطى منافع وخيرات وفضائل وشمائل منطقة فاس كل على حدى²، ومنها قام إدريس الثاني في غرة ربيع الأول 192هـ/04 جانفي 808م بإعلان انطلاق إنشاء مدينته الجديدة بوضع حجر أساسها بضرب أول فأس بها إعلانا عن افتتاح عملية التشييد والبناء، وقبل أن يأخذ بالمعول، رفع يديه إلى السماء وهو يقول « اللهم اجعلها دار علم... » ووضع الحجرة الأولى للمدينة، فكانت أرضا لكثير من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم³.

وكان تخطيطها كنموذج لمدينة إسلامية، احتوت على الغرض المدني من مباني ومنشآت عمرانية مختلفة الوظائف، والغرض العسكري كمنطقة محصنة طبيعيا بموقعها الجغرافي ونواة أي مدينة إسلامية هو المسجد، بحيث يسهل الوصول إليه من مختلف الطرق، فبني جامع الأشياخ⁴ بعدوة الأندلس من ستة بلاطات وأقامه للخطبة ومسجد الأشراف بعدوة القرويين من ثلاثة بلاطات⁵.

2. فاس الإدريسية:

وحتى تأخذ المدينة الجديدة طابعها وروحها فقد خصص إدريس الثاني بالمنطقة الشرقية للوافدين عليه من الأندلس في فاتح ربيع الأول 192هـ/4 جانفي 808م الذين بنو يمينا وشمالا إلى ناحية الكذان ومصمودة والفوارة لغاية الرميطة، فسميت بعدوة الأندلس، وبعدها بنحو عام في 1 ربيع الثاني 193هـ/22 جانفي 809م خصص الجهة الغربية من المدينة لثلاثمائة أسرة وفدت عليه من القيروان فسميت بعدوة القرويين⁶.

¹ .الجزنائي، المصدر السابق، ص 22.

² . ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 33-36.

³ . التازي، المرجع السابق، مج 1، ص 45.

⁴ . جامع الأشياخ: يعرف بجامع الأنوار، واقع بحومة جراوة عند مدخل زنقة سيدي بوجيدة. (ابن القاضي، المصدر السابق ج 1، ص 32).

⁵ . ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 38.

⁶ . ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 38.

كما شجع إدريس الثاني الناس على التعمير وإحياء الأرض فكل من بنى موضعا أو اغترسه قبل أن يتم بناء السور المحيط بالعدوة كان له ملكا، لذا تنافسوا في بناء عاصمتهم وقام الإمام باتخاذ عدوة القرويين كمسكن له ومركز لسرير ملكه في موضع المقرمدة بدار القيطون¹، فساهم ذلك في ازدهارها وحركيتها وتعدد مرافقها²، على حساب عدوة الأندلس وباستقرار تلك الوفود متعددة المشارب أدت لنمو سريع بالمدينة خصوصا ما حمله الأندلسيون من أهل الربض قرطبة، والقيروانيين أهل تونس، فأنتجوا موروث ثقافي أندلسي شامي الأصل وإفريقي مصري عراقي³.

كما شهد اسمها اعتراك كبير ما بين ذاكر لأسطورة الشيخ الراهب الذي لقي إدريس الثاني وإخباره عن قصة المكان الخرب واسمه ساف، والتي سيحييها شخص بمواصفات إدريس فتحقق ذلك، بحيث عندما سئل على تسميتها قام بقلب اسم ساف إلى فاس هذا عند بن أبي زرع⁴، في حين يرجعها الحسن الوزان إلى ساف (أسيف) بالبربرية وهي النهر ومنها اشتق الاسم⁵، ومن أرجع الأمر إلى أداة الحفر التي استعملها إدريس الثاني فأس من ذهب أعطى به إشارة انطلاق بناء مدينته، فكثير استعمال كلمة الفأس فكانت فاس، ومن يرجعها إلى الفأس العملاقة التي وجدت أثناء الحفر فسميت باسمه هذه الروايات التي يوردها ابن القاضي⁶ والجزنائي في سبب تسميتها فاسا⁷، ويضيف ابن أبي زرع على ما سبق قصة الاحتكام لأول من يدخل على مجلسهم، فوفد قوم من الفرس فأخذت اسمهم بنوع من التحوير إلى فاس⁸.

¹ المقرمدة: هي مكان الضريح الإدريسي، ودار القيطون: مازالت تعرف به لليوم، واقعة أمام باب التوميات من ضريح الإدريسي، ملاصقة لجامع الأشراف، وإليها ينتسب الأدارسة القيطونيين. (ينظر: ابن القاضي، المصدر السابق، ص 32).

² Pierre Champion, Le Maroc et ses villes d'art, H.Laurnes-Edition, Paris 1927, P25.

³ جمال أحمد طه، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م) دراسة سياسية وحضارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2001، ص 55-56.

⁴ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 45.

⁵ الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م، ص 219.

⁶ بن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص 36.

⁷ الجزنائي، المصدر السابق، ص 23-24.

⁸ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 45.

كما رأينا سابقا فإن الإمام إدريس الثاني حرص على اختيار المكان الذي تبنى فيه مدينته بالعناية ببعض العناصر كالماء والهواء والحصانة الطبيعية، بإحاطتها بالجبال من ثلاث جهات ما عدا الجنوب، كجبال مديونة ودرن شرقا وزرهون مع زالغ شمالا وغمارة غربا، مع وقوعها في نقطة تقاطع خطوط القوافل التجارية¹، لتدعم المدينة بأنماط التخطيط العمراني في إنشاء المدن الإسلامية من خلال تزويدها بهياكل تعمل على حمايتها وتزيد في تحصينها من أي خطر خارجي داهم، ببناء القلاع والأسوار مع فتح أبواب لزيادة الحيطة والأمن.

وقد ذكر ابن أبي زرع في قرطاسه، سير خط بناء سور المدينة، والأبواب التي فتحت فيه وأسماؤها وما طرأ عليها من تغيير، فكانت انطلاقة سور عدوة القرويين من ناحية عين علون على إثر وفود جماعة من العراق فأنزلهم بها، وفتح أول باب بها في عقبة رأس عين علوان سماه باب إفريقية، ليتوجه بالسور نحو عين دردورة إلى عقبة السعتر حيث فتح باب حصن سعدون، ثم هبط بالسور إلى أغلان حيث أنشأ باب الفرس، لينعطف به وصولا إلى الجرف الفاصل بين العدوتين حيث أقام باب الفصيل الرابط بين العدوتين، ليتوجه السور إلى الوادي ويقيم على ضفته باب الفرج (باب السلسلة)، ليطلع به مع النهر الكبير إلى أسفل القلعة حيث ابن عيون اللصاد نحو الجرف لينشئ باب القلعة ليسيير بالسور لباب إفريقية².

كما ابتداء بسور عدوة الأندلس من جهة القبلة (الجنوب) فبنى باب الفوارة (باب الزيتون بن عطية) جهة سجلماصة، ومنه نحو المخفية متوجها إلى الوادي الكبير وفي البرنخ أقام باب (المخفية) يقابل باب الفرج من عدوة القرويين، ليسيير بالسور على الشيبوبة حيث بنى باب الشيبوبة المقابل للفصيل بالقرويين ليستمر إلى غاية رأس حجر الفرج وبنى باب أبي سفيان جهة بلاد غمارة والريف، ومنها نحو جرواوة حيث أقام باب الكنيسة جهة الشرق المؤدي لحارة المرضى وجهة تلمسان، كما أضاف إدريس الثاني بابا جهة القبلة وسماه باب القبلة

¹. Terrasse, Op.cit, T1, P120-121.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 40-38.

فاحتوت كل عدوة على ستة أبواب، تخترقها العديد من المجاري المائية التي أقيمت عليها الأرحية والبساتين¹، فكان ذلك السور كالسوار في المعصم.

وبعد أن أتم الإمام إدريس بناء المدينة وإحاطتها بالأسوار لحمايتها من نواب الدهر، مع فتح أبواب فيها كمدخل للمدينة على العدوتين²، ظهرت فاس في شكلها الأخير مكونة من عدوتين عدوة الأندلس أسست في 192هـ/808م والقرويين في 193هـ/809م، وبهما أسوق خاصة بالحرف والصنائع، وعلى أساسها أنزل وأقر القبائل كل في ناحيتها ومكانها عربية كانت أو بربرية، فالقبائل القيسية من باب إفريقية إلى القلعة بعدوة القرويين، والأزد بخدمهم فالبحسبيون والفُرس بجوارهم، ونزلت صنهاجة ولواتة ومصمودة كل في جهتها³، وأمرهم بتعمير المنطقة بالغرس، وأنزل اليهود ناحية أعلان حتى باب حصن سعدون، وجعل قواده بعدوة الأندلس، ونزل هو مع مواليه وحشمه والصناع والتجار والسوق بعدوة القرويين⁴.

ليخلفه أبناؤه على سلطة فاس، التي شهدت إضافات عمرانية وحضارية متنوعة⁵ وصلت مع يحيى بن محمد بن إدريس الثاني المتولي في 234هـ/849م لأوجها من حيث البناء والعمران، فوفدت عليه الوفود والقبائل من أوربة، مغيلة، جراوة، هواة...، وبمرور الوقت كثر الناس وابتنوا خارج المدينة، التي اتسعت دائرة عمرانها من كل الجهات باتصال البناء ببعضه، مع إقامة المرافق من الفنادق والحمامات...، فزادت الأحياء والحارات، وفي أيامه بنى مسجدين عرفا باسمي العدوتين أحدهما القرويين والآخر الأندلس⁶.

وغدت العاصمة مقصدا من مختلف الجهات ومن سائر الطبقات، وأضحت مقصدا للوافدين والزيار من أجل العلم، التجارة، الشهرة...، ونافست المدن الكبرى الأخرى ببغداد واشبيلية واحتوت على مباحج الشرق والغرب⁷، فزاحمت بغداد في ق 4هـ/10م، ليصفها

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 41.

² ينظر الملحق الرابع، الوثيقة رقم 31، خريطة عدوتي مدينة فاس البالي، ص 467.

³ Levi-provençal, Op.cit, P 21.

⁴ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 47-48.

⁵ Terrasse, Op.cit, T1, P124.

⁶ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 47.

⁷ التازي، المرجع السابق، مج 1، ص 49.

المراكشي في ق7هـ/13م بقوله: «حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ... فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم. ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب.... ما أظن في الدنيا مدينة كفاس، أكثر مرافق وأوسع معاش وأخصب الجهات....»¹.

كما حددها الوزان جغرافيا في بقوله: "يبدأ إقليم فاس من غرب نهر أبي رقرق، ويمتد شرقا إلى نهر ايناون، وينتهي بينهما شمالا عند نهر سبو، وجنوبا عند صفح الأطلس، وهذا الإقليم عجيب حقا بوفرة حبوبه وثماره ومواشيه"²، وبين مرمول أقسامها بقوله: "فاس أكبر وأجمل مدينة في إفريقيا كلها،... وتنقسم إلى ثلاث مدن جمعت في واحدة... مدينة البليدة الواقعة شرقي النهر...تضم حوالي أربعة آلاف نسمة،.. والمدينة الأخرى المسماة فاس البالي أو عين علو تقع غربي النهر، وتضم ثمانين ألف نسمة،... وفيها جامع القرويين العظيم... والمدينة الثالثة هي فاس الجديدة، التي تضم أكثر من ثمانية آلاف نسمة، تقع منعزلة نوعا ما، بناها يعقوب المنصور ملك بني مرين،... وسماها المدينة البيضاء"³.

لتلقب فاس في بعض الكتابات بأثينا وفلورنس المغرب، ومدينة الفن ومدينة العلم والإيمان⁴ تلكم هي فاس الإدريسية التي أسسها إدريس الثاني في القرن 3هـ/9م، لتشهد هذه المدينة من خلال عدوتها زيادات معتبرة في عهد خلفائه ومن يأتي بعدهم من الدول المتغلبة، التي تنافست عليها، وهذا ما سنتعرف عليه في النقطة الموالية.

¹ أبي محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتني به: صلاح الدين الهواري ط1، المكتبة العصرية صيدا، لبنان 1426هـ/2006م، ص 256-257.

² الوزان، المصدر السابق، ج1، ص207.

³ مرمول كربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، ج2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 1408-1409هـ/1988-1989م، ص144.

⁴ Champion, Op.cit, P21.

ثانيا. التطور السياسي والتاريخي لمدينة فاس:

لقد عرفت مدينة فاس نموا وتوسعا جغرافيا تماشى مع تطور مسيرتها التاريخية بتزايد تعداد سكانها مع التدفق البشري المتوالي عليها، فأضيفت لها مناطق مجاورة المعروفة باسم الأرباض، التي قام الحكام بإحاطتها بأسوار مع فتح أبواب جديدة أضيفت إلى المدينة كلما اقتضى الأمر فأصبحت بمرور الوقت من فاس أصلا، فزيد على فاس الإدريسية بتوسعتها أثناء الزناتيين وفي العهد المرابطي والموحدي لتشهد في العهد المريني قفزة أخرى في مجالها الجغرافي في بناء مدينة فاس الجديدة لتضاهي فاس القديمة وستكون مركز السلطة السياسية والإدارة المركزية للإقليم.

1. في عهد العبيدين والأمويين:

كانت فاس مركزا مهما لأي دولة ناشئة، منذ إقامتها من طرف الأدارسة ومطمعا لكل دولة متوسعة بالمنطقة، لذا فإن أهلها أرادوا الأمن والاستقرار رافضين لكل ما يعكر صفو الحياة بصفة عامة وهذا ما اتفق عليه ابن أبي زرع¹ والجزنائي على أن ساكنيها اجتمعت فيهم عدة شمائل وخصال، مثلا كانوا أقل خلافا على أمرائهم، وأكثر طاعة لحكامهم وولائهم²، وهذا لا يعني أن المدينة لم تثر بالعكس فكل من هدها ثارت عليه حكاما كانوا أو سلاطين، لذا عندما نتتبع مسيرتها السياسية والتاريخية اللاحقة كانت كثيرة الثورات لأسباب سياسية أو اجتماعية أو لرد الظلم وفساد الأوضاع، وهذا ينفي ما ذهب إليه مارمول على جعل أهل المدينة يخنعون لأي منتصر على البادية تفاديا للتخريب³.

كما أن هذه المدينة كانت المحرك لأهم الأحداث السياسية بالمنطقة، وفي هذا الباب نلاحظ أن التطور السياسي والتاريخي للمدينة جعلها تدخل في دوامة مستمرة من الصراعات ضد تلك القوى التي تريد حكمها، رافضة في كثير من المرات التخلي عن النظام القديم والدخول تحت راية الجديد، فناصرت الأدارسة من آل البيت ضد الخوارج الصفرية، فقد

¹. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 36.

². الجزنائي، المصدر السابق، ص 37.

³. مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 145.

وقفت مع كل من علي بن عمر بن إدريس وابن عمه¹ يحيى بن القاسم بن إدريس المعروف بالمقدم الذي تمكن من صد حملة عبد الرزاق الفهري الصفري الخارجي².

كما لفحت فاس واكتوت بنار الصراع الفاطمي الأموي في السيطرة على المغرب، بوقوعها في دوامة مد وجزر بينهما، ساهمت في إنهاء الحكم الإدريسي بها، ليقوم عليها حكم زناتة المتسم بالاضطراب³، فدخلت تحت راية العبيديين بعد عدة مواجهات في 305هـ/917م ليدعم أهل المدينة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الحسني المدعو الحجام في ثورته على ربحان الكتامي، ليغدر موسى ابن أبي العافية بالحسن الذي تمكن من فاس في 313هـ/925م، وأجلى جميع الأدارسة وحصرهم بقلعة حجر النسر بإقليم تطوان قاصدا إبادتهم⁴، ففرقوا شذر مذر.

وبانقراض رياح الأدارسة عن الحكم فإن فاس تقاذفتها أمواج الدولتين العبيدية والأموية بسيوف محلية، فمن ابن العافية الذي لعب على الوترين، ليحول ولاءه في 320هـ/932م إلى الأمويين، فوصلت إليه حملة من المهدية بقيادة حميد بن يصلتين، لتجليه عنها بدخول هذا الأخير وتولية حامد بن حمدان الذي نقل الخطبة من جامع الشرفاء إلى القرويين⁵ ليثور عليه سنة 322هـ/934م أحمد بن بكر الجذامي الموالى لأبي العافية والأمويين، فجهر العبيديون حملة بقيادة ميسور الفتى في 323هـ/935م حاصره مدة ثم صالحه، إلا أن فاس ثارت عليهما وعينت حسن اللواتي عاملا عليها، وحاصرها ميسور سبعة أشهر وصالحته أخيرا بالبيعة لأبي القاسم الشيعي مع الاحتفاظ بالوالي الذي عينوه بأنفسهم⁶.

لتدخل فاس في حكم زناتة، بعد استعادة جيش عبد الناصر لدين الله الأندلسي سيطرته على المغرب، فبايعته فاس وولى عليها محمد بن الخير بن محمد اليفرني ثم الزناتي، وخلفه

¹ إبراهيم حركات، " فاس في ثورة دائمة"، عن مجلة دعوة الحق، ع 5، س 5، رمضان 1381هـ/ فبراير 1962م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص 45.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 79.

³ Terrasse, Op.cit, T1, P143-144.

⁴ Ibid, P166-167.

⁵ ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 37.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 82-85.

عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن سعيد الزناتي الذي أصلح ووسع في جامع القرويين وزاد فيه زيادة كبيرة ، ليدخلها عليه جوهر الصقلي عنوة وألقى القبض على أحمد بن أبي بكر الزناتي، وقتل أشياخها وهدم أسوارها في 20 رمضان 349هـ/13 نوفمبر 960م وقوض الوجود الأموي ودوخ وأثنى بلاد المغرب بالسيف ورد دعوة العبيديين وأفل راجعا للمهدية¹.

وبعد مدّ وجزر عادت لحظيرة الأمويين بغلبة زيري بن عطية الزناتي المغراوي عليها في 375هـ/985م، فكان أول من حكم المغرب منهم ودانت له فاس وصارت دار ملكه في 377هـ/987م، وعندما اتسعت رقعة دولته، عين عاملا لكل من عدوتي فاس، ليدخلها المظفر ابن المنصور الأموي في شوال 387هـ/نوفمبر 997م، وولاه والده على المغرب وقرأ كتاب التولية بمنبر القرويين في آخر ذي القعدة/ 4 ديسمبر².

لنتولاها زناتة من المعز بن زيري بن عطية سنة 393هـ/1002م إلى حمامة بن المعز الزناتي في 422هـ/1031م، ليخلفه ابنه دوناس الذي عظمت فاس في أيامه وكثرت وعمرت أرباضها وقصدها الناس من جميع النواحي والبلاد³، واهتم بالبناء والتشييد فبني المرافق والأسوار على الأرباض، حتى وفاته في شوال 452هـ/نوفمبر 1060م، ليخلفه ابنه عجيسة على عدوة القرويين وقام بإدارة سور جديد فوق باب حصن سعدون بالجوف (الشمال) وفتح فيه بابا سماه باب عجيسة، والفتوح على الأندلس وجدد باب القبلة الذي هدمه والده وسماه باب الفتوح⁴، إلا أن الحرب لم تكد تنطفئ بينهما، حتى استولى الفتوح على مجموع فاس وراح ضحيتها عجيسة⁵.

وازی ذلك الصراع وصول طلائع قوات المرابطين إلى مشارف المدينة، التي تخرى عنها الفتوح لابن عمه المعنصر بن حماد في 457هـ/1065م، ليدخلها يوسف بن تاشفين في

¹. Champion , Op.cit, P 25-26.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 101-108.

³. Terrasse, Op.cit, T1, P 172-173.

⁴. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 42-43.

⁵. حركات، المقال السابق، ص 45.

460هـ/1068م واستخلف عليها عاملا من لمتونة وخرج لبلاد غمارة، ليدخلها تميم بن معنصر بعد قتل عاملها، فحاصرها بن تاشفين في 462هـ/1069م بكل ثقله وشددها عليها وأعمل فيها السيف وقتل فيها مغراوة وبني يفرن ومكناسة، ومن قبائل زناتة¹ خلق كثير حتى امتلأت الأسواق والشوارع بالقتلى ومنهم من قتل بجامع القرويين والأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف رجل ودخلها يوم الخميس 2 جمادي الثانية 462هـ/18 مارس 1070م، وقتل ما يزيد عن 20 ألف رجل لتنتهي بذلك أيام زناتة على حد قول بن أبي زرع².

2. في عهد المرابطين والموحدين:

وبتصارع الأخوين الفتوح وعجيسة عليها، غدت فاس هدفا سهلا للمرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين، الذي فضل عليها مدينة مراكش كعاصمة له، وعلى هذا العهد تم توحيد عدوتي فاس بإزالة الأسوار التي تفصلهما، وجعل عليها سورا واحد، وربطهما بعدة قناطر لتشكلا مدينة واحدة³، وذكرهم الجزنائي بقنطرة أبي طوبة، أبي برقوقة، باب السلسلة الصباغين كهف الوقادين والرميلة⁴، وأمر ببناء المساجد على أطرافها وفي أزقتها وشوارعها وغيرها من المرافق⁵، كما ظهرت مدينة فاس في أبهى حلتها وأوج عطائها ورونقها العمراني المطعم بالتأثير الأندلسي لهذه المرحلة.

ولما ظهرت دعوة الموحدين وتوسعت على يد عبد المؤمن بن علي الذي بويع في يوم الخميس 14 رمضان 526هـ/9 فيفري 1123م بعد وفاة المهدي بسنتين⁶، امتنعت عنه فاس فحاصرها في 540هـ وقطع الماء عنها عن طريق حبسه في سد، ثم أرسله عليها فيما بعد فأغرق قسما منها، وتهدم جراء ذلك دور عديدة بلغت ألفين، ومات كثير من الخلق، وأخيرا

¹. الجزنائي، المصدر السابق، ص 41.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 109-114.

³. Champion, , Op.cit, P 27.

⁴. الجزنائي، المصدر السابق، ص 42.

⁵. Terrasse, Op.cit, T1, P 224-226.

⁶. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 186.

استولى عليها عبد المؤمن وهدم قسما كبيرا من أسوارها¹ وقال لهم: "أنا لا نحتاج إلى سور وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا"، وبقيت على تلك الحال حتى جاء حفيده المنصور وابنه الناصر اللذان أقاما أسوارها من جديد مع زيادة فيها سنة 600هـ/1204م².

وجاء بعد عبد المؤمن خلفاء منهم حفيده يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور الذي بويع له في يوم الاحد 9 ربيع الثاني 580هـ/30 جويلية 1184م، وقد بنى المساجد والمدارس ببلاد المغرب، والمارستانات للمرضى وأجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم³، وولى بعده ابنه محمد الملقب بالناصر لدين الله وقد دخل فاس في 595هـ/1099م وأقام القصبات والأسوار بها⁴، وشهدت فاس في عهدهم حركة علمية زاهرة من خلال الوفود جيئة وذهابا بين المغرب والأندلس⁵.

ليخلفه عمر المرتضى الذي خرج في سنة 653هـ/1255م لقتال أهل فاس التي تحصن بها بنو مرين وانهزم أمام أبي بكر أمير فاس، ليأخذ إدريس الملقب بأبي دبوس آخر ملوك الموحدين من عمه عمر الحكم، وسيدخل من مراكش في صراع خاسر مع يعقوب بن عبد الحق المريني بفاس، فقد طاف المريني برأس غريمه في مدينة فاس في ذي الحجة 667هـ/30 أوت 1269م كما ملك مراكش، وانقرضت بذلك الدولة الموحدية⁶.

وبصفة عامة فإن فاس وصلت إلى أوج عطائها في هذين العهدين المرابطي والموحدي في باب العمارة والرفاهية، ففي سنة 600هـ/1203م كمل سور مدينة فاس بالبناء والتجديد وفتح وتركيب باب الشريعة وفيها سمي باب المحروق⁷، وقدر ابن أبي زرع سكانها بتعداد 89236 دار في عهد الناصر، في حين قدرهم الجزنائي سنة 585هـ/1189م بـ888دار⁸

¹. أبو القاسم الزياني، الروضة السللمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية، مخطوط مصور بمكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ص 20.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 189.

³. Terrasse, Op.cit, T1, P 332-334.

⁴. الجزنائي، المصدر السابق، ص 42-43.

⁵. احمد طه، المرجع السابق، ص 90-107.

⁶. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 258-261.

⁷. الجزنائي، المصدر السابق، ص 42-43.

⁸. نفسه، ص 44-48.

ووصل عدد مساجدها في عهد المنصور وولده الناصر إلى 782 مسجد احتوت على 122 بيت للوضوء وسقاية¹، كما حوّت فاس على 73 حمام و472 رحى حجر داخل أسوارها فقط، و467 فندق للتجارة والمسافرين، و9082 حانوت وقيسارييتين واحدة في كل عدوة و3064 تربية² لطرزة الحياكة³.

وتعددت المهن على ضفتي الوادي الكبير المخترق للمدينة فوجدت دور من صباغين (116 دار) ودباغين (86 دار) وصباغين (و47 دار)، والكوش (135 كوشة للجير) والأفران المعدة لطبخ (1170 للخبز) الغزل وقصابين وغيره إضافة للمعامل (12 دار لسبك للنحاس و11 للزجاج و18 دار للفخار)⁴ و400 مكان لصنع الكاغد⁵، إلا أن جزء كبير من تلك الحرف وغيرها لحقها الخراب إما بسبب المجاعة أو الفتن أيام العادل والمأمون من 618-637هـ/1221-1239م حتى ظهرت الدولة المرينية⁶.

3. في عهد المرينيين والوطاسيين:

وأمام ضعف الموحدين بعد معركة حصن العقاب 609هـ/1212م، وتتفد بعض القبائل البربرية جعلها تعلن عن شق عصا الطاعة والخروج عنهم، فكان المغرب الأقصى من نصيب المرينيين، الذين تمكنوا من دخول فاس في 18 ربيع الثاني 646هـ/ أوت 1248م وإخراج عاملها الموحيدي، وقد حاولت فاس عبثا محاولة إعادة بعث الحكم الموحيدي بكتابة البيعة لعمر المرتضى، والاتفاق مع شريد الفرنجي الذي كان يقود الحرس الخاص بفاس⁷ فنفضوا اتفاقهم في 20 شوال 647هـ/ 26 جانفي 1250م⁸، لكن لم يسعفهم الحاكم الموحيدي فالتجأوا إلى يغمراسن داهية بني زيان المتحين للفرص لضم أطراف المغرب إلى مملكته

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 47.

² التريبة: سوق صغيرة مربعة الشكل يعمل بها بعض الصنائع كالخياطين ونحوهم، ولا تزال موجودة هذه الترابيع بفاس لحد الآن. (بنظر: ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 48).

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 48.

⁴ نفسه، ص 48.

⁵ الجزنائي، المصدر السابق، ص 44.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 49.

⁷ Henri Terrasse, Histoire du Maroc, T2, Editions Atlantides, Casablanca 1950, P8.

⁸ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 294.

فاصطدم مع الأمير أبي بكر المريني في إيسلي حيث دارت معارك كثيرة لم يظفر يغمراسن من المرينيين بطائل¹.

وبذلك جعلها عبد الحق المريني قاعدة وعاصمة لملكه باستقراره بها في 653هـ/1255م فاهتم المرينيون لأمرها بالتعهد بالتجديد والتشييد فوصلت لأقصى مجدها، مثل أمر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 684هـ/1285م بإعادة بناء وإصلاح باب عجيسة الذي درج على السنة الناس بباب الجيسة لتضرره بفعل الزمن، وتجديد السور القبلي جهة عدوة الأندلس من باب الزيتون (الفوارة) إلى باب الفتوح (القبلة) في 681هـ/1282م²، وأيضا تجديد السلطان أبي سعيد لكل من قنطرة أبي طوبة، السلسلة والصباغين في سنة 725هـ/1324م بعد تدميرهم جراء سيل جارف، في حين بقيت قنطرتا كهف الوقادين والرميلة معطلتين، وذكر الجزنائي أن عدد الأبواب المفتوحة في عهده خمسة والباقي مغلق³.

ولما ثار أبو عنان المريني على والده أبي الحسن واستبد بملك المغرب دونه، انقسم أهل فاس في بيعته، فحاصرها مستخدما المنجنيقات، وانتهى باستسلام المدينة للملك الجديد أبي عنان⁴. وللدفاع عن بيضة الإسلام كما فعل سابقوهم من المرابطين والموحدين فإنهم جازوا إلى الأندلس ودخلوا في حروب ضد النصارى وانتصروا عليهم، مثل انتصار الأمير يعقوب بن عبد الحق على ذي نونه (دون نونيودي لارا) في 15 ربيع الأول 674هـ/8-9-1275م وغنم منه عدة أعلام ونواقيس زود جامع القرويين ببعض منها كالأعلام التي علقت والنواقيس التي حولت وأضاءت الجامع، وفي عهد هذا الأمير توسعت المدينة على نطاق جديد خارج عن أسوارها، فظهرت مدينة جديدة تنافس الأولى، تكون كدار ملك خالصة لهم ويخرجون بها من الصدامات المتكررة مع المدينة القديمة ففي 3 شوال 674/21 مارس

¹. حركات، المقال السابق، ص 46.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 42-43.

³. الجزنائي، المصدر السابق، ص 42.

⁴. Champion, Op.cit, P30.

1276م انطلق حفر أساس لبناء هذه المدينة الجديدة على وادي فاس¹، ومنذ هذه الحقبة ستصبح تسمية المدينة الإدريسية تعرف بفاس البالي، أما المدينة المرينية فتعرف بفاس الجديد أو البيضاء ولا تزال باقية إلى اليوم².

تعرفنا سابقا أنه أثناء بناء إدريس الثاني لفاس طلب من الناس تعميرها، فأنزل الناس حسب نشاطهم وحرفهم فكل حرفة في مكان معين وهذا منعا للتدليس والغش والربا فوجدت أسواقا مختصة بنوع معين من السلع دون غيرها، وأنزل أهل الذمة من اليهود جهة إعلان في القيسارية، الذين أوقع بهم المسلمون سنة 674هـ/ 1276م باستباحة دمائهم ومالههم، فتدخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق لكف ذلك، وحول بعضا منهم لسكنى فاس الجديد بموضع الملاح، ومن بقي منهم فيها نجا بنفسه بإعلان إسلامه فسموا بالمهاجرين أو الإسلاميين، فسمح لهم ذلك من الدخول في حرف المسلمين وأسواقهم بالقيسارية وغيرها من أسواق بفاس³.

وفي 720هـ/ 1320م أمر السلطان أبو سعيد ببناء مدرسة بفاس الجديد ونمق بناءها، وفي 721هـ/ 1321م أمر الأمير علي بن أبي سعيد عثمان ببناء مدرسة غربي جامع الأندلس بفاس، فضاهت سابقتها، مزودة بساقية ودار وضوء وفندق للطلبة، وفي 723هـ/ 1323م أمر السلطان أبي سعيد عثمان ببناء مدرسة بجوار جامع القرويين، وحبسوا عليها الرباع والضياح، وأسكنوا وترتبوا الطلبة فيهم، لقراءة القرآن والفقهاء لتدريس العلم، وأجروا عليهم مرتبات ومؤهلات كل شهر⁴.

¹. Henri Bressolette et Jean Delarozière, « Fès-jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XX^{ème} siècle », in R.H.T, Vol.xx-xxi, A1982-83, Imprimerie Nadjah El-Jadida, Casablanca 1983, P245-249.

². نشاط مصطفى، "المرينيون وجامع القرويين"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص28-32.

³. مجهول، قضية المهاجرين المسمون اليوم البلديين، در وتح: محمد فتحة، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2004، ص 55.

⁴. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص411-412.

وكانت نظرة المرينيين لفاس نظرة مختلفة عما كان سابقا من الدول، فقد جعل د. نشاط مصطفى في مقال له حول "المرينيين وجامع القرويين" أن علاقة المرابطين والموحدين بفاس كانت مباركة الأعمال التي يقوم بها أهل البر والإحسان أي كانت أشبه بنظام مدينة الدولة على عكس المرينيين الذين اتخذوها عاصمة لهم، فعملوا على الإشراف الفعلي عن أي حركة أو توسعة تمس المدينة أو الجامع، مما أوجد نوع من الصراع الحضاري المبني على السلطة الشرعية¹.

ويظهر ذلك في موقف السلطة من سكان فاس في الإصلاحات أو بعض الزيادات التي لحقت بجامع القرويين، فقد كانت تتم سابقا دون عرقلة تحت نظر والي المدينة بعد استشارة القاضي أو الإمام، أما في العهد المريني فالسلطة لها حق المراقبة المباشرة على هذه العملية، وانتزعت من شيوخ فاس وفقهائها حرية المبادرة، كقيام والي المدينة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الحدودي بإحداث الباب القبلي للجامع، بعد استشارة القاضي، ولكن عندما رفع الخبر للسلطان أبي يعقوب فإنه أنكر وقبح فعله بإحداث في الجامع ما لم تدع الحاجة إليه أو بالأحرى لم يستأذنه فأمر بسده².

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بجعل التسيير الإداري للجامع تحت إشرافهم الفعلي من خلال تحييد سلطة فقهاء القرويين، خصوصا بعد بناء فاس الجديد مقر ملكهم، فأصبحت فاس المرينية هي المعنية بتعيين هؤلاء الموظفين مع تخصيص مرتبات لهم فتحولوا إلى مجرد موظفين مأجورين لدى السلطة وكل هذا من أجل ضبط مجتمع المدينة والتحكم في السياسة الدينية والتعليمية وحتى الاقتصادية بالبلاد³.

وفي نهاية عهد بني مرين جعل عبد الحق بن سعيد المريني بطانته من بين اليهود انتقاما من الوطاسيين الذين عملوا في بلاطهم كوزراء وحجاب وفي عهده كأوصياء، فنازعه الحكم فقضى عليهم في واقعة الوطاسيين، واتخذ هارون كوزيره وشاوييل حاجبه وقائد

¹. نشاط مصطفى، المقال السابق، ص 25-27.

². نفسه، ص 28-29.

³. Bressolette et Delarozière, Op.cit, P250-253.

الشرطة بفاس الحسين اليهودي، كجامع للمغارم¹، مما جعل سكان فاس يقتلون السلطان عبد الحق المريني مع حاشيته في يوم الجمعة 27 رمضان 869هـ/22 ماي 1465م². وقاموا بمبايعة أبي عبد الله محمد الحفيد الشريف الإدريسي نقيب الأشراف بفاس إلى أن حاصره محمد الشيخ الوطاسي وضيق عليه ودخلها سنة 875هـ/1471م³ وصفا له الجو وأصبح أول ملوك الوطاسيين بالمغرب، وتواصل حكمهم إلى غاية القضاء على آخر فرد منهم في حكم أبي حسون الوطاسي، في الواقعة المعروفة بمسلمة سنة 961هـ/1554م ودخول السلطان محمد الشيخ السعدي لها⁴.

وصاحبت قيام الوطاسيين ظروف دولية اتسمت بالحركة الكبيرة، لذا فقد فتحت عدة جبهات في وقت واحد تقريبا فأولها ذاك الخطر الخارجي الخطير الداهم من السواحل الأيبيرية على الشواطئ المتوسطية والمحيطية، ووضع قدمه في عدة ثغور، والدخول العثماني إلى الجزائر وتونس، واستقلال عدة مناطق داخلية عن الحكم المركزي، نتيجة بيئة ناقمة ومتفككة بفعل الأزمات الناتجة عن المجاعة والأوبئة وقلة الأمن، زاد في تفاقم الوضع الداخلي وشق عصا الطاعة، في ظل حركة تصوف متنامية في الزوايا الشاذلية والجزولية التي وجدت في تلك الظروف الصعبة بيئة صالحة لنموها وانتشارها، فظهر على مسرح الأحداث رجال وأعوان من بين شيوخ الزوايا قاموا بأدوار حاسمة، بدعم التوسع السعدي من الجنوب، فانعدمت الوحدة السياسية تحت الراية الوطاسية، مما جعلهم غير قادرين على فرض سيطرتهم⁵، فمهد لدخول فاس والمغرب في مرحلة جديدة تحت راية السعديين، وهو ما سنتطرق إليه في القسم الموالي من هذه الدراسة.

¹. مجهول، المصدر السابق، ص 59-61.

². أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصاء، تح وتبع: أحمد الناصري، ج4، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص 298-299.

³. Georges Drague, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, T2, J.Peyronnet et Cie. Edition, Paris 1951, P48.

⁴. عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج4، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993م، ص 481.

⁵. مصطفى بنعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العصر السعدي من خلال حوالات تارودانت وفاس، ج1 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1428هـ/2007م، ص 75.

الفصل الثاني: جامع القرويين من التأسيس حتى ق10هـ/16م

تمهيد

شهدت فاس كما رأينا سابقا أحداث سياسية وعسكرية متواترة حسب الدول التي قامت فيها وساهمت كلها في إنمائها عمرانيا وحضاريا حتى تخلد اسمها فيها، إلا أن هناك عهود كانت أكثر خصبا من غيرها، ففي العهد المرابطي والموحدي عاشت مدينة فاس درجة عالية من العمارة والغبطة والرفاهية لم تبلغها مدينة أخرى في المغرب حسب ابن أبي زرع¹، وما ذهب إليه المراكشي في معجبه²، وكان قلب ودرّة وجوهرة هذه المدينة جامع القرويين، الذي عرف نموا وتطورا خلال تعاقب تلك الدول، حتى كانت جل الأملاك بفاس تابعة له راجعة إليه فوفرت له مداخل تكفيه بل وتفيض على باقي المساجد بها، وكان محط أنظار الحكام من خلال الأعمال التوسعية والترميمات لضمان المحافظة على شبابه وسيره الحسن³، فمن أسس هذا الجامع؟ وما هي التطورات التي شهدتها؟.

أولا. تأسيس جامع القرويين:

1. تأسيس القرويين:

اتفقت جميع المصادر ومن ورائها المراجع على أن تأسيس هذا جامع يعود إلى الوافدين من القيروان على فاس، والنازلين بعدوة القرويين، ومنهم أسرة فهرية تلاحق أفرادها بالعدوة في أيام محي الدين يحي الأول، وكان منها الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني الذي وافته المنية بعد وصوله، خلف تركة لابنتيه فاطمة أم البنين ومريم، وكانتا على جانب من العلم والفضل، فعزمتا على تحقيق مشروعين ظلا إلى اليوم.

وهذا بسبب ما عرفته المدينة في أيام الإمام يحي من تدفق بشري، فأصبح جامع الأشياخ والشرفاء لا يسدان حاجة الناس، لذلك أقامتا مسجدين بفاس لأهمية هذا الفعل في بقاء كلمة التوحيد، ولإحياء سنة الله على الأرض وهي عبادته فيها هذا من جهة، وتكون صدقة جارية

¹. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 100 وما بعدها.

². المراكشي، المصدر السابق، ص 256 وما بعدها.

³. التازي، المرجع السابق، مج 1، ص 101.

يثاب عليها الإنسان ما بقيت، للفوز في يوم لا تجد النفس إلا ما عملت حاضر من جهة ثانية، فساهمت مريم ببناء مسجد الأندلس بعدوة الأندلس، في حين أختها فاطمة وقع اختيارها على حقل كان ملكا لرجل من هوراة توارثه أبناؤه من بعده فاشترته بستين أوقية لتكون تلك الأرض مشروع لتأسيس جامع القرويين التي بدأت العمل على تحقيقه وبنائه¹ بعدوة القرويين.

وانطلق المشروع في أول رمضان 245هـ/30نوفمبر859م ونذرت بصيام كشكر لله وتوفيقا لها حتى يتم البناء، رغم أن المصادر والمراجع التي عدنا إليها لم تسعفنا على إعطاء تاريخ لنهاية أشغاله الأولى فالبعض يعيدها لحكم داود بن إدريس وآخر ليحيى بن محمد، غير أن غالبيتها ترجح الأخير منهما²، فجاء تصميمه مربعا على نحو ما عرف في معظم المساجد الأولى، رغم ذلك كان عرضه أكبر من طوله في البداية بحوالي 1600م³.

ويتألف من أربعة بلاطات أفقية (المعروفة باسم الأساكيب) و12 بلاطة عمودية كما زود بصرح في آخره جعلت فيه صومعة، وهو نمط بناء المساجد، وبه أربعة أبواب بابان متسامتان أحدهما في الشرق جهة باب حيون والثاني اتجاه باب الكتبيين غربا والبابان المتبقيان يفتحان جهة الشمال على الصحن³، ويرشح الد.عثمان إسماعيل أن مواد البناء لجامع القرويين كانت من مكان البناء من حجارة وكدان أو حجر الجير والتراب والرمل الأصفر كمواد لبناء الجامع في البداية⁴.

وكانت القرويين محل توسيع وتجميل منذ عهد الأدارسة في القرن التاسع الميلادي إلى أيام الدولة العلوية في الوقت الراهن، ففي العهد الإدريسي توسع على حساب الأرض التي ظلت عارية عن البناء، وكانت تابعة له جهة الشرق والغرب والشمال التي اشترتها فاطمة

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 46.

² عبد الله العمراني، "فاس وجامعتها"، عن مجلة البحث العلمي لجامعة محمد الخامس، ع11-12، ص4، جمادي الأول-شوال 1387هـ/ماي-ديسمبر 1967م، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط 1967م، ص 154.

³ عبد الهادي التازي، "أحد عشر قرنا في القرويين 1"، عن مجلة دعوة الحق، ع9، ص1، شعبان 1377هـ/مارس 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م، ص 27.

⁴ عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج1، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992م، ص 337.

وفي الناحية الشمالية منها يقع بئر القرويين الذي يسميه البئر المغمورة¹، وعلى العهد الإدريسي كانت تقام الخطبة بجامع الشرفاء، وبكثرة العمارات واتصال البناء في أرباض المدينة من سائر الجهات وجرى أمر زناتة بأرض المغرب سنة 307هـ/919م أزيلت الخطبة من جامع الشرفاء لصغره وأقيمت بجامع القرويين لاتساعه وكبره²، ليصبح بذلك تحت إشراف الحكومة كمسجد رسمي يؤدي فيه السلطان صلاة الجمعة³.

لتنطلق مع الحكم الزناتي لفاس توسعة الجامع ففي سنة 322هـ/934م وسع فيه، وهدمت الصومعة القديمة وتم إقامة أخرى في المكان الحالي ليتم ذلك في ربيع الثاني 345هـ/أوت 956م مع تحديث الصحن⁴، وزيد فيه طولاً وعرضاً لاستيعاب أكبر عدد من المصلين واشتملت الزيادة الجديدة على ثلاثة عشر أسكوبا وثمانية عشر بلاطاً⁵، لتكن أهم توسعة في العهد المرابطي التي أوصلت المسجد إلى ما هو عليه اليوم، بالتوسع على المباني المجاورة له، وهي كأقصى اتساع وصله ما بين سنتي 528-538هـ/1134-1144م من بناء خارجي وعمل فني داخلي⁶، فمساحته الحالية لا تزال كما كانت عليه منذ عهد السلطان علي بن يوسف المرابطي، ليسع هذا المسجد الكبير مائتي ألف مصل⁷، يحتوي على ستة عشر أسكوبا أفقية، على واحد وعشرين بلاطاً عمودياً، في حين توالى الدول المتعاقبة على فاس في تحسينه وترميمه وصيانته مع إضافة مرافق جديدة داخله أو بجواره أو تحبيس الرباع لفائدته⁸.

¹. Evariste Levi-provençal, Extraits des Historiens arabes du Maroc, 2^e édition, Librairie coloniale et orientaliste larose, Paris 1929, P22-24.

². عبد العزيز بنعيد الله، "من مظاهر الهندسة المعمارية في المساجد"، عن مجلة دعوة الحق، ع 1، س 6، جمادي الأولى 1382هـ/أكتوبر 1962م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص 8.

³. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 54.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 16، صور عن بعض المرافق الخارجية للقرويين، ص 450.

⁵. عبد الهادي التازي، "أحد عشر قرناً في القرويين 2"، عن مجلة دعوة الحق، ع 11، س 1، شوال 1377هـ/ماي 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958، ص 26.

⁶. Camaille Mauclair et J.F. Bouchor, Fès ville Sainte, Henri Laurens Editeur, Paris 1933, P81-84.

⁷. روم لاند، "جامعة القرويين بفاس"، تعريب محمد الخطيب، عن مجلة دعوة الحق، ع 1، س 2 ربيع الأول 1378هـ/سبتمبر 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م، ص 26.

⁸. Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, p24.

إلا أنه عند نهاية الأسرة المرينية فقد توجه نظر الحكام إليه، لاحتوائه على أحباس توفر أموال كبيرة فاقت أحيانا خزينة الحكومة المركزية لهذه العهود المتردية اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، مما طال نظر الحكام إليها وتوجيهها إلى الإنفاق العام، لذا عندما اختلفت الأحوال فقد قل الإنفاق على الجامع حتى اضطر المشرفون على تسييره إلى التقليل وتكشف من إنارة جوانبه، حتى أن بعض الجهات تداعت وخربت ورغم ذلك ظل محل إيثار وإكبار، فحرص على تزويده بما تدعو الحاجة إليه، ليتنفس من جديد من خلال الأعمال الترميمية¹.

أما سعته فإن التصميم الأول للقرويين كان مربع الشكل، إلا أن تربيعه لم يكن تاما فطوله من شرق إلى غرب 32,25م، وعرضه من الجنوب إلى الشمال 30.53م، فتكون مساحة المسجد أزيد من 984م²، لقد كان يتركب من أربع بلاطات تمتد أفقية من الغرب إلى الشرق، تتصب صومعته بالمكان الذي توجد فيه العنزة² اليوم بمؤخر الصحن القديم الواقع على حدود البلاطات الأربعة الأولى، أما المحراب فقد كان في مقدم البلاط الذي يوجد أمام الثريا الكبرى اليوم، هذه هي القرويين الأولى، في حين بقيت منطقة المجاورة له جهة الشرق والغرب والشمال في عداد الأرض التي اشترتها فاطمة، بيد أنها ظلت عارية عن البناء، وفي الناحية الشمالية منها يقع بئر القرويين³.

لترتفع سعته على العهد المرابطي وتصل المسافة بين شرق القرويين وغربها إلى 81,70م ومن الجنوب إلى الشمال إلى 64,50م، فتكون مساحة المسجد 5270م² تقريبا، وهو نفس المقياس الذي تعطيه التصميمات الحديثة، بإضافة مساحة جامع الجنائز المقدرة بـ200 متر مع إضافة 10 أمتار للركن الغربي الشمالي، تبلغ المساحة نحو 5500م⁴.

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 101.

² العنزة: حاجز من الخشب وهو اصطلاح مغربي يقصد به المحراب الرمزي الذي يقام في الصحن عند نهاية بلاط المحراب ويتخذ الإمام محراب له في زمن الصيف لإقامة الصلاة في الصحن، والعنزة هي الحربة أو اللواء الذي يركزه شيخ القبيلة في الصحراء قبل القيام للصلاة ليحدد موضع المحراب في الفضاء ومقام الإمام من المصلين. (انظر: عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية..، المرجع السابق، ج1، ص 269).

³ التازي، "أحد عشر ... 1"، المقال السابق، ص 27.

⁴ عبد الهادي التازي، "إلى الأستاذ روم لاندو"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، س2، ربيع الثاني 1378هـ/ نوفمبر 1958م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م، ص 77.

أما فيما يخص تعداد المصلين فإذا علمنا أن سعة البلاط الواحد يستوعب أربعة صفوف وفي كل صف 160 شخصا، تلك 640، يضاف إليها 125 بين أساطين البلاط يصل المجموع إلى 765 مصلي في البلاط الواحد، تضرب في عدد البلاطات الستة عشر يكون المجموع 12240 شخصا، مع إسقاط قاعدة الصومعة وبعض الجهات مما لا يمكن أداء الصلاة فيه يبقى حسب صاحب القرطاس أن القرويين تسع 17640 نسمة، وإذا أضفنا ما حول القرويين من رحاب وأسواق، فإنها تسع 22000 تنقص أو تزيد قليلا¹، أما صاحب زهرة الآس فيكتفي بـ 13000²، وهذا تقدير ذهب إليه كثير ممن تحروا الصواب في الحديث عن القرويين، مما جعل التازي يقدرها 12000 نسمة، باستثناء الأستاذ مارتني الذي لم يسمح باحتمال القرويين لأكثر من 5000 شخص، لكن أحدا لم يصل إلى الرقم الذي ذكره الأستاذ روم لاندو بمائتي ألف نسمة³.

2. التوسيعات والزيادات التي عرفها الجامع حتى ق10هـ/16م:

تعرض ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس والجزنائي في جنى زهرة الآس إلى التطورات التي عرفها هذا الجامع من تأسيسه إلى غاية عهدهما، فقد أسس على يد فاطمة بنت محمد الفهري، وهي بنت أحد أثرياء القيروان من تونس، انطلق في حفر أساساته والبناء في يوم السبت من رمضان 245هـ/858م، أي قبل مائة سنة من تأسيس جامع الأزهر بالقاهرة. وتم تحديد سمت قبلته انطلاقا من جامع الشرفاء وبني في أربعة بلاطات من القبلة للجوف في كل بلاط 12 قوس من الشرق إلى الغرب، وجعل محرابه بمقدم البلاط الذي أمام الثريا الكبرى الآن، وجعل بمؤخره صحن تعلوه صومعة حيث العنزة الآن⁴.

وفي العهد الزناتي سنة 307هـ/919م حول الأمير حامد بن حمدان الهمداني عامل عبيد الله الشيعي الخطبة من جامع الشرفاء إلى القرويين، وصنع له منبر من خشب الصنوبر⁵

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، 65-66.

² الجزنائي، المصدر السابق، ص 79.

³ التازي، "إلى الأستاذ روم..."، المقال السابق، ص 77.

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 46.

⁵ نفسه، ص 46.

وبدخول زناتة تحت لواء الأمويين بايعت فاس الناصر لدين الله، الذي ولي عليها أحمد بن أبي بكر الزناتي، الذي وسع الجامع وأصلحه سنة 322هـ/934م بعد إذن السلطان الأموي الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر) (300هـ-359هـ/912م-961م) الذي عرف بشغفه بالمنشآت العمرانية، فقد بنى مدرسة الطب، ومكتبة غرناطة، ودار الروضة، ودار الصناعة¹، يستأذنه في توسعة الجامع وترميمه فوافقه الرأي وشاركه العملية بمده بمال أخماس غنائم الروم².

وزاد فيه أربعة بلاطات جهة الغرب وخمسة شرقه وثلاثة في جوفه على حساب الصحن القديم كما أقام في مؤخره صحنا جديدا احتوى على بلاطين في الشرق وبلاط في الجوف فتوسعت بيت صلاته لتضم واحدا وعشرين بلاطا عموديا من حائط القبلة للصحن، مع سبعة أساكيب أقواسها موازية لحائط القبلة، بدل الأربعة الإدريسية³، وأقام صومعة جديدة بدل القديمة في وسط الجناح الغربي للصحن، وضم مصعدها مائة درجة ودرجة وغشي بابها المواجه للقبلة بالنحاس، في ربيع الثاني 345هـ/أوت 956م، كما جعل في أعلى الصومعة قبة صغيرة ووضع فوقها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد وركب في أعلى الزج سيف الإمام إدريس مؤسس المدينة⁴.

وبنيت تحت القبة المذكورة قبة أكبر منها لجلوس المؤذنين لإشاعة الأذان في أوقاته وكان فيها بيت الراعي منهم لأوقات الليل وانصداع الفجر، وبندائهم يقتدي باقي المؤذنين بصوامع المدينة، وتوجد بالمنارة بلاطة رخام وسط كل منها قائم يستدل بصدود ظله على خطوط بطول أزمان النهار ومرور ساعته وفي عطفات أدراجها سرج زاهرة يمر عليها الليل⁵ كما أضافوا في مؤخر الصحن بلاطا واحدا مرتفعا، فاتسعت قاعة الصلاة طولا وعرضا كما زوده المظفر بن المنصور بن أبي عامر عام 388هـ/998م بمنبر من عود الأبنوس

¹. Champion, Op.cit, P54.

². بنعبد الله، المقال السابق، ص 8.

³. الجزنائي، المصدر السابق، ص 46.

⁴. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 57.

⁵. الجزنائي، المصدر السابق، ص 50.

والعنان، فخطب عليه إلى أيام دولة المرابطين¹، وأقام القبة التي على العنزة، وبنى السقاية والبيلة المستطيلة التي على يسار الخارج من باب الحفافة الجوفية وجلب لها الماء من وادي حسن بأعلى المدينة من ناحية باب الحديد².

وأصبح فيه 21 بلاطة، من الجدار الشرقي للغربي وعلى 13 أسكوب من جدار القبلة للشمال، كما أضيف إليه أربعة أبواب أخرى بابان غربيان في محل باب العدول³ وباب الصالحين (الحاليين) وبابين شرقيين متسامتين للأولين، أولهما في محل باب ابن حيون الحالي والثاني في محل باب السبع لويات، إلى جانب بابين صغيرين شمالي المسجد من جهة الصحن، عرف أحدهما باسم باب الحفافة لتصل مساحة بعد هذه الزيادة إلى 4000م⁴². لقد اشتملت الزيادة الجديدة على نحو من ألفي متر وخمسمائة وستة عشر مترا، وهذه زيادات كبيرة على حد تعبير بعض المؤرخين، غير أن امتلاك القرويين ثلاثة عشر بلاطا: سبعة من الصحن للقبلة، وخمسة في كل من جناحي الصحن، والثالث عشر في مؤخر الصحن ثلاثة عشر بلاطا من الجنوب إلى الشمال وثمانية عشر من الشرق إلى الغرب، ولقد تحول مكان الصومعة في هذا التصميم من مكان العنزة على حيث توجد الآن⁵.

أما في العهد المرابطي عندما غص الجامع بالمصلين رفعوا أصواتهم إلى فقهاء وأشياخ المدينة، الذين توجهوا للفقهاء عبد الله محمد بن داود عند بن أبي زرع الذي انتبذ لعلمية التوسعة بعد مشاورة وإذن أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين (500هـ-537هـ/1106-1142م)، إلا أنه توفي فقام القاضي أبي محمد بن عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي بالمهمة خير القيام في سنة 529هـ/1134م بشراء الأملاك والعقارات المجاورة للجامع جهة

¹. Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P23.

². الجزنائي، المصدر السابق، ص 55.

³. العدول: كان لهم سماط شهير بفاس، مقصورة القاضي، قبالة كان طرف منه وجله قبالة جامع القرويين وفي مجاورتها وبعضها متصل بها، نقلوا بعد ذلك إلى قرب باب الحديد (بالحاء) في محل خاص اتخذ لأجل ذلك في آخر أيام الحماية. (ينظر: عبد السلام بنسودة، "حول أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس"، عن مجلة دعوة الحق، ع1 و2، ص 14، ذو القعدة 1390هـ/ جانفي 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971 ص 131).

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 56.

⁵. التازي، "أحد عشر ... 2"، المقال السابق، ص 26.

القبلة وأغلبها كانت في حيازة اليهود، بأثمان عادلة ومن رفض البيع تم تقويم مكانه وإلزامه بالبيع بفتوى من العلماء اقتداء بعمل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما زاد في المسجد الحرام، فزاد ثلاثة بلاطات¹، لتصبح به عشرة بلاطات كاملة من الصحن إلى القبلة في سنة 533هـ / 1138م².

كما تم تحويل المحراب إلى المكان الذي يوجد فيه اليوم، ودعم بقبة مقربصة أعلى المحراب بنيت بالجص الفاخر ونقشت بورق الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة وركبت بحائط القبلة الشماسات ذات أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه³، وألبست الأبواب صفائح من نحاس أصفر متقن الصنع في عام 533هـ / 1138م⁴، مع بناء منبر جديد عام 538هـ / 1143م الباقي لليوم، من عود الصندل والأبنوس والنارنج والعناب وعظم العاج مع غطاءين من جلد وكتان، وكلف صنعه نحو 3800 دينار فضي⁵، ولكن بن معيشة طالته يد العزل دون أن يتم المشروع، ليولى بعده أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسي الذي تم في عهده ذلك، وأتم المرافق الجديدة المعطلة لعهد سابقه والمتموضعة في مقدمة القبلة لجامع القرويين وهي بناء جامع الجنائز⁶، خروجاً من الخلاف حول نجاسة الآدمي الميت، واتقاء أي شيء يلوث المسجد، فكان ذو شكل مثلث وقد برع فيه النحاتون والفنانون في زخرفته من الداخل وجلبت له سوارى مرمية بتيجانها من الأندلس، وبناء مقصورة الإمام لراحته واستعداده، وبناء مجلس للقاضي داخل هذه المنطقة في 537هـ / 1142م⁷.

ونالت جهة الجنوب الزيادة الأوفر مع جامع الجنائز وحجرة الخطيب ومجلس القاضي وزادوا بذلك ثلاث أساكيب من إحدى وعشرين قوساً معتمدين على نفس الترتيب الإدريسي

¹ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 59-62.

² بنعبد الله، المقال السابق، ص 9.

³ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 62.

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 67-68.

⁵ بنعبد الله، المقال السابق، ص 9.

⁶ Boris Maslow, Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Les Edition d'Art et d'Histoire, Paris 1934, P165-167.

⁷ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 62-63.

والزناتي للمسجد في عدم التساوي بين عدد الأقواس الموجودة غرب البلاطة وشرقها، وكانت المسافة بين السارية والأخرى 3,70م في حين الذي يجاور القبلة فقد بلغ العمق 3,90م وكل جانب من السواري المربعة تبلغ 70سم، وتم تقوية السواري المرابطة من حيث الحجم¹ ويلاحظ الفرق بين البلاطات السبع الزناتية ذات السواري الغليظة والقصيرة والثلاث المرابطة الرشيقة والطويلة، فوصلت مساحة القرويين إلى نصف هكتار².

كما فتحوا أبوابا جديدة للجامع منها بناء الباب الغربي الكبير المفتوح على سماط الموثقين وصرف عليه من مال الأحماس سنة 505هـ/1111م وباب الشماعين سنة 518هـ/1124م، وأضيف للصحن بلاطان جهة الشرق والغرب مع فرش أرضية الصحن وتظليله بشقائق الكتان الغليظة في زمن الصيف عندما ترتفع الحرارة، كما صنعت العنزة في شهر شعبان 524هـ/1129م من ألواح الارز المنقوشة على الأسكوب المطل على الصحن³ فأصبحت القرويين من 16 أسكوبا أفقية، على 21 بلاطا عمودية، هذا هو هيكل القرويين ومن هنا شقت طريقا يكتسب كل مناسبة فيها مرفقا من المرافق، أو ركنا من الأركان أو إصلاحا من الإصلاحات من أي ملك، أو أمير بل وكل واحد كان يحذب عليها⁴.

وتحدث ابن أبي زرع أنه في حدود عام 540هـ/1145م عن تخوف الفقهاء والشيوخ بفاس من انتقاد عبد المؤمن بن علي الموحي لتلك النقوش والزخارف التي كانت تبهر الناظر بفنها وجمالها داخل جامع القرويين، لأن الموحدين ارتكزوا في حياتهم ونظرتهم للعالم بالتعشيف والزهد، وحسب ابن أبي زرع فأنهم اهتموا إلى تغشية تلك النقوش والزخارف المذهبة التي فوق المحراب وتغليفها بالكاغد (الورق) ثم بالجص ثم غسلها بالبياض من طرف عمال مهرة (الحمامون)⁵، ليتداعى ذلك الجص في ق 20م⁶، وهو ما أثبتته مصلحة

¹ ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 68-69.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 66-67.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 63.

⁴ ينظر الملحق الرابع، الوثيقة رقم 32، مخطط معماري نهائي لجامع القرويين، ص 468.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 62.

⁶ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، تح: أحمد الناصري، ج 8، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص 81.

الفنون الجميلة حينما قامت بالحفريات في عام 1372هـ/1952م وأكدت رواية المؤرخ وكشفت عن نقوش رائعة غير أنها لا تحتوي على التوريق الذهبي، وأصناف الأصبغة التي أشار إليها صاحب القرطاس وهي الأزرق والأحمر والمغرة الصفراء، ويظهر أن مزيج الأصباغ كان يحتوي على مَح البيض الذهبي اللون وأن الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق أشعة النور المنعكس من النوافذ¹.

كما أضيف للجامع بناءات جديدة منها الباب الأكبر بسماط الموثقين (العدول) عام 505 هـ/1111م وبخارجه قبة الجص المقربصة عام 617هـ/1209م²، وباب الشماعين عام 518هـ/1318م مع قبتين إحداهما بالداخل من الجص والأخرى من الأرز بالخارج³، كما قام الفقيه أبي محمد يسكر بأمر من الخليفة الناصر الموحي بتوسيع باب الحفاة وتجديده وفتح الباب المقابل لفندق باب حيون من الجهة الشرقية للقرويين وأنشئت البيلة، والخصه ودار الوضوء التي بها خمسة عشر بيتا للوضوء ولكل بيت مصرعان، والبيلة والخصه اللتان بالصحن من صنع الفقيه أبي الحسن بن عبد الله السجلماسي من أهل المعرفة بالبناء والهندسة⁴.

وتم استعمال الأجر في السواري والأقواس، ومعجون الرمل والجير (béton) على الجدران وزود بالبالوعات لصرف ماء الغسل والتنظيف مع فرش الأرض بعد هذه الزيادات بالجامع⁵ فإن جل سواري الجامع تتكون من قطع الأجر وهي مربعة القاعدة مع بعض الأسطوانات الصخرية والرخامية المنقولة من الأندلس مع أكاليلها كأقواس المحراب والسواري الثلاث التي تحمل قبة جامع الجنائز المقربصة وغيرها وعددها قدره ابن أبي زرع في سنة 726هـ/1325م ب 272⁶ والجزنائي في سنة 762هـ/1360م ب 300⁷، ونفس الشيء قاله ابن

¹ بنعبد الله، المقال السابق، ص 9.

² عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة...، المرجع السابق، ج 1، ص 274.

³ ينظر الملحق رقم 16. صور لبعض المرافق الخارجية للقرويين، ص 450.

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 70-73.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 66..

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 65.

⁷ الجزنائي، المصدر السابق، ص 78.

القاضي في ق 10هـ/16م¹ وعلي باي قال أنها أكثر من 300 سارية في ق 13هـ/19م² وغيرهم قدرها بـ 354 سارية، ويقدرها التازي بـ 272 سارية³، والسقف مكون من سطح مرمم على منحدرين متقابلين، مرفوعين بركائز متساندة على بعضها المعروفة بالبرشلة وتحتوي على 467300 قرمودة⁴، وللجامع 18 بابا و 300 سارية عشر منها من حجر ملون وثلاث منها تقع تحت الثريا الكبرى تبصر منها جميع أبواب الجامع و 21 بلاطا و 130 ثرية من النحاس مختلفة الألوان والصناعات والأشكال والهيآت⁵.

في حين تدخل زيادات المرينيين المعمارية كأعمال في المحافظة على هذا الصرح باهتمامهم الداخلي والخارجي باعتباره جامعة إسلامية بالمغرب مع أنهم برزوا في بناء المدارس لاستقبال الطلبة الوافدين إليها، إلا أنهم قاموا بترميم وإصلاح عدة جوانب من القرويين، كترميم الجدار الشرقي سنة 682هـ/1283م وتجديد سائر الأبواب منها باب الخلوة الصالحين، ابن حيون، ابن عمر وفتح بعض النوافذ في أعلى الجدار الشرقي، والجدار الشمالي في سنة 699هـ/1299م مع باب الحفاة والصفر، الخصة وباب الساباط وأعيد فتح نوافذ فوق الساباط، الذي كان يربط المدرسة المصباحية بالقرويين⁶.

وزودوا الجامع بدار متصلة به، موقوفة على الإمام الخطيب، وانتهى العمل منها في ذي القعدة 840هـ/1436م⁷، وأقاموا خزانة المصاحف لصاحبها أبي عنان مفتوحة بجدار القبلة على مصلى القرويين بجانب المحراب⁸ وخزانة بأعلى المستودع احتوت على نفائس

¹. ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 74.

². Ali Bey El-Abbassi, Voyage d'Ali Bey El-Abbassi en Afrique et en Asie, pendant les années (1803-1807), T1, Imprimerie de P.Didot l'ainé, Paris, P 115.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 68.

⁴. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 66.

⁵. بن عبد الله، المقال السابق، ص 10

⁶. عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس (موسوعة لتاريخها المعماري والفكري)، مج 2، ط 2

دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 2000، ص 318-319.

⁷. نفسه، ص 334.

⁸. Maslow, Op.cit, p 173-174.

المخطوطات لمختلف العلوم والفنون الخاصة بالأبدان والأديان والألسن والأذهان، مع وقف أحباس لتقديم جرايات على القائمين عليها في 705هـ/1305م¹.

3. الطراز المعماري والفني للعمارة في المغرب الأقصى:

إن تأسيس فاس هو إعلان عن تأسيس صرح جديد للطراز² المغربي الحقيقي في العمارة مع الفنون المصاحبة لها، فأصبحت دارا للصناعة التي امتزجت فيها قدرة الصانع مع عبقرية الفنان، إلى جانب أنها كانت حيا جامعا دائما للحياة، فتعاقب عليها كبار العلماء والفقهاء والأدباء والأطباء...، فكانت مركز ديني وقاعدة سياسية لتوجيه الأحداث وسوقا تجارية³.

فبفضل تلك الحركية البشرية الدائمة عليها، جعلها مكانا ومحلا لالتقاء عديد الثقافات والممارسات، أدت لمزج كثير من المهارات والفنون التي توصل إليها المشرق والمغرب فأوجد طرازا معماريا، انبثق عن الطراز المعماري الإسلامي في البداية ليصبح طرازا قائما بذاته فيما بعد، نتيجة تأثره بالمشرق والأندلس⁴ الذي أنتج إبداعا فنيا لا يزال جزء منه شاخصا في الأعمال الفنية بالمغرب لحد الساعة.

تميزت عمارة المساجد في عهد الأدارسة بالاستلهام من المشرق كتوجه البلاطات من الشرق نحو الغرب والعقود الموازية للقبلة، حتى أن هذا النوع من العقود الموازية للقبلة تتوافق والعبادة في تنظيم المصلين لصفوفهم، وتبنته بعدهم زناتة، وقد التزمت العمارة المغربية بهذا النمط من العقود المتوازية إلى بداية العهد المرابطي، الذين استخدموا العقود العمودية على

¹. Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P67-68.

². الطراز: من الكلمة الدخيلة في اللغة العربية أصلها فارسي (تراز=طراز) ومعناها الهيئة وفي الملبس يقال طُرز معناها تأنق، الطراز هو ثوب نسيج للسلطان، والمكان الذي تنسج فيه الثياب الجديدة، كما تعني المصنع الحكومي الذي تنسج فيه الثياب المزدانة بالطراز أي الزخرفة التي تزين الثوب المنسوجة أو مطرزة عليه أو المثبتة فوقه، فأقامها السلاطين في قصورهم كمناسج حكومية لعمل تلك الثياب فأسموها دور الطراز، لينتطور المصطلح ليعني النمط أو الأسلوب الفني للعمارة والصناعات التقليدية مثلا. (ينظر: عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية..، المرجع السابق، ج1 ص 156).

³. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية ...، المرجع السابق، ج1، ص 260.

⁴. هنري طيراس، "الفن المعماري في المساجد المغربية عبر العصور"، تر: عبد اللطيف ملين، عن مجلة دعوة الحق، ع1 س6، جمادي الأولى 1382هـ/ أكتوبر 1962م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص 62.

القبلة حتى نهاية العصر المريني، وقد استعمل الأدارسة في عمارتهم العقد المسمى بحدوة الفرس وقد انتشر عند الأغالبة بإفريقيا والأمويين بالأندلس وهو طراز مشرقي¹.

مع منح البلاط المحوري (بلاط المحراب) نوع من السعة الزائدة عن باقي البلاطات، كما أنهم لم يهتموا بالتمائل والتقابل في مساجدهم، الذي يعاكسهم فيه الموحدون ويظهر على عبقرية هندسية مفرطة في تحقيق التقابل والتمائل بكل الأساليب والطرق².

مزج فنانون العهد المرابطي الفن المغربي بالأندلسي، فأنتجوا شكلا معماريا فنيا متميزا لأنهم سيطروا على رقعة جغرافية واسعة من بجاية إلى المحيط ومن الأندلس إلى دواخل الصحراء فأوجدوا نوعا من مد الجسور والتمازج بين الروافد الفكرية والفنية على نطاق واسع، وسمح في هذه المرحلة من انتقال الفنون من الطراز المغربي إلى الطراز المغربي الأندلسي³، فظهر جانبه في العمارة الدينية كالمساجد الفسيحة.

استخدامهم في الجانب المعماري للمساجد الدعائم أو الأكتاف (Piliers) المستطيلة ذات القاعدة السميكة المبنية بالأجر أو بالطين المغطى بالملاط⁴، فكانت على جانب من الضخامة لتلك الأعمدة، مع طول السعة عن العمق في القرويين، وهو شيء جديد لم يعهد في المساجد الأندلسية، ويحمل الكتف أربعة عقود أو أقواس، واهتم المرابطون بالمتانة مقابل الأناقة، فكانت بيوت الصلاة بالمساجد مزدحمة بالأكتاف الثقيلة الراسخة ذات التيجان الملساء، وبالقرويين أكتاف وعقود مفصصة ومستدير وحادة وشبيهة بحدوة الفرس، تزينها فصوص ثلاثية فوق التنسيج، مما يؤلف انتظام الفصوص على نحو صف من العقود الخالصة⁵.

ويشهد بلاط المحراب للقرويين نماذج عن قباب المقربصة ذات الزخارف النباتية والمقربص بالمغرب أو المقرنص بالمشرق ابتكار ابتدعه المرابطون ويعرف أيضا بالدلايات

¹ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج1، ص 297.

² ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 15. بلاط وأسكوب محراب القرويين، ص 449.

³ Champion, Op.cit, P44.

⁴ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 15، صور لأعمدة وأقواس القرويين، ص 449.

⁵ Henri Terrasse, La Mosquée Al-Qarauiyin à Fès, Librairie C.Klincksieck, Paris 1868, P35.

للتميز بين المقربص كعنصر معماري والدلاية كزخرفة معمارية¹، لذا في عهد المرابطين اكتملت هيئة القرويين الحالية، ازدان بلاطها المحوري بقباب مقربصة تعلوها من السطح الخارجي برشلة (السقف منشوري الشكل) عمودية على اتجاه القبلة على جانبيها أسقف هرمية موازية للقبلة متمشية مع أسايب المسجد المرابطي، الذي التزم خطة العقود الموازية التي تبناها العصر الإدريسي في البداية².

ليدعم الفن المعماري في القرن 7هـ/13م بدخول الموحدين للأندلس بظهور صروح بالمغرب مستمدة منها، وكان تأثر الموحدين في تشييد أبنية فسيحة تتميز بالضخامة وحجم الصوامع وصلابتها وهي شاهدة على ذلك وعظم أبوابها المؤدية للمدن، ولعل هذا راجع إلى تأثرهم بقرطبة وضخامة أبنيتها³. وجهاز جامع القرويين بمستودع في العهد الموحي لوضع أمواله من الأحباس وأمانات الناس وكان محصنا بخشب الأرز وبخمس منافيس بصفائح من حديد مقولبة، كما في هذا العهد زود الجامع ببيت للوضوء مع لوازمها، وأقيمت عنزة في عام 688هـ/1289م.

كما استغل السلاطين الأوائل لبني مرين كأبي يوسف يعقوب وأبي يعقوب يوسف المرحلة الأخيرة من الأندلس في إقامة بناءات فخمة واسعة، ذات لمسة جمالية كالمدينة الجديدة التي جعلها منها عاصمة لهما فاس الجديد، فامتاز فنانو هذا القرن بالرسوم الجميلة ذات الصفاء المتأنق المودوع في الصروح المرينية، كأقواس الأبهاء ذات ارتفاع مساو لارتفاع أعمدتها وهذا للحصول على تأنق أكثر هدوءاً، في حين أبقى على نفس الارتفاع في الجدران، مع دقة نسب المساجد وانسجام توزيع المبنى مع الفراغ، وتظهر براعة المعمارين الحقيقية في القباب فهؤلاء لم يتركوا أي شيء للصدفة، بالربط بين القبة أمام المحراب ونصف قبة المحراب نفسه، وهذا النصف أخفض من القبة الأولى، يبين أن أساتذة القرن

¹ . عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج2، ص167-169.

² . Maslow, Op.cit, P8-12.

³ . ليوبولد وتوريس بالباس، الفن المرابطي والموحدي، تر : د. سيد غازي، ط1، توزيع دار المعارف، مصر 1971، ص12.

7هـ/13م كانوا يعرفون كيف يعالجون، بقدر متساو من الصراحة والسهولة، الترتيب الصعب بين الأحجام غير المتساوية¹.

لذا يعتبر طيراس أن الفن المعماري للمغرب ومنه المساجد عرفت مرحلتين رئيسيتين الأولى ما بين القرنين الثاني عشر إلى الخامس عشر، ففي هذه القرون الثلاثة عاش الفن الفاسي في إتحاد وثيق مع الأندلس، ولكن ابتداء من القرن الخامس عشر انفصل عنه ليظهر بحلة جديدة، رغم فقدان تأثر الفن المغربي بالأندلسي، لذا ظل المغرب وحده وفي بعض الأحيان محافظا على أعمال فنية أندلسية².

إلى جانب تلك الزيادات المعمارية والعمرانية فإن القرويين في هذه المرحلة تزود بما يحتاجه من تجهيزات وتقنيات ذلك العصر لتساعده على تحديد الأوقات والمواقيت، فالسلطان يوسف المريني 685هـ/1286م نصب ساعة مائية بالقبة العليا، فيعلم أوقات الليل والنهار كما زود بساعة أخرى في الغرفة المطلة على الصحن على يد المعدل محمد الصنهاجي عام 741هـ/1340م وقد بسط فيها القول الجزائي، وفي أيام أبي عنان 749هـ/1348م زودها بإسطرلاب لمعرفة الوقت، ولمزيد من التحقيق أقيمت ساعات رملية لاختبار الوقت مع إسطرلابات، ولم تكن حكرا على المساجد وإنما تعدها إلى المدارس، فقد زود السلطان أبو عنان عام 758هـ/1356م المدرسة التي أسسها بفاس بساعة مائية، كما جعلت صارية بالصومعة ينشر فيها العلم إيدانا بأوقات الصلاة النهارية ومنار لأوقات الليل³.

أما على مستوى الطراز الفني الجمالي فقد غلب طابع البساطة على جامع القرويين قبل المرابطين، الذين عمدوا لإعطائه روح جمالية، وتميز هذا العهد بسيطرة الزخرفة النباتية ذات البعد الفني المغربي الأندلسي من مراوح النخيلية وأوراق الاكانتس، الموجودة بالبلاط الأوسط وجوف المحراب وأركان القباب بالقرويين⁴، كما اعتمدوا في زخرفة قباب البلاط المحوري

¹. طيراس، المقال السابق، ص 62-63.

². Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 73-74.

³. بنعبد الله، المقال السابق، ص 8-9.

⁴. Maslow, Op.cit, P10-13.

على زخرفة الجص للحزم الملبس بالزجاج الملون، وزخارف جسية لمحراب القرويين المقربص، كما أبدعوا في القباب المجاورة للمحراب المطعمة بالذهب والازورد والاصبغة المختلفة كالأحمر القاني والأزرق الناصع والبنفسجي الغامق مع التفنن في أساليب النقش والوشي والتطريز وتوزيع الضوء والظل¹.

وتأثر الفن المعماري المرابطي بالأندلسي كالزخرفة التي غطت قباب البلاط المحوري للقرويين استعملت فيها زخرفة مشرقية للمقربصات التي أقيمت في سنة 531هـ/1135م عند توسيع الجامع ومصلى الجنائز المتصل به في عهد علي بن يوسف²، الذي عهد للأندلسيين بتزيين جدران القبة المقربصة والمصنوعة من قوالب الجبس المزخرفة بهذا المصلى والعقود المتقاطعة بينها والقاعات المتفتحة بأسلوب قرطبي، وهذا التزاوج بين الزخارف الأندلسية والمشرقية هو الطابع الممثل في ق 6هـ/12م³.

ومن الأمور الجمالية الزخرفة التي تطورت وأثريت بجامع القرويين في العهد المرابطي الخطوط كالخط الكوفي ثم النسخي الذي وشي القباب والمحاريب، وقد اختلفت الكتابات الكوفية بحد ذاتها بجامع القرويين فمنها الخط الكوفي البسيط، والمشجر الذي تتفرع من حروفه فروع الأشجار، والمزهر الذي تتفرع من هامات قوائم حروفه زهيرات، وهناك كتابات تجري فوق أرضية من الزخارف النباتية تنساب أسفل الكتابة في شكل دوائر متصلة متتابعة مع جمال في التوزيع يحقق توازنا وتناسقا في هيئة الكتابة على المساحة المكتوبة حتى تبدو وكأنها لوحة فنية خالصة، وتلك النقوش موضوعات إحداها يتضمن الآيات القرآنية والأدعية الدينية وثانيها يحوي اسم الأمير والصانع وتاريخ الصنع وهو ما يسمى بالنص التأسيسي أو التاريخي⁴.

¹. ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 17، نماذج من فن الزخرفة والخرط والنقش بالقرويين، ص 451.

². Drague, Op.cit, T2, P33.

³. Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 52-53.

⁴. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية..، المرجع السابق، ج2، ص 217.

في حين الموحدين لم يحدثوا في تصميم مساجدهم تغييرات جوهرية بالنسبة لما كانت عليه مساجد أسلافهم إلا أنها امتازت بالتنسيق والسعة في الأبعاد¹، غير أن تلك الزخارف والنقوش طمست بالجبس عند دخول الموحدين إليه يوم الخميس 10 ربيع الأول 540هـ/4 سبتمبر 1145م لزهدهم عن زخرف الدنيا²، وكخطوة جريئة قام بها فقهاء وأشياخ المدينة بإخفائها، وبقيت كذلك لمدة ثمانية قرون مفضلين عنها في إعداد لوحاتهم على الأحمر القاني، والأزرق الناصع والبنفسجي الغامق، واستعمال الخط الكوفي النسخي، وزهور ونباتات³، أشكال هندسية داخل مقرنصات القباب، فظهر ذلك في شكل لوحات مطرزة امتزج فيها رسم الحروف مع النبات في شكل متناسق ومتوازن وحتى في المحاريب الموحدية والأحواز المرتفعة التي تقسم سقوف البلاطات الرئيسية، كما كانت تحلى بها بعض الصوامع وباطن بعض العقود⁴، فكتبت آيات قرآنية، أدعية وعبارات دعائية لتمجيد أصحابها حسب فترة التوسعة والعمل به (الحاكم والصانع)⁵.

لذا فزخرفة هذه المساجد تكشف كثيرا من فن معماري ناتج عن نزعات جديدة، فالفن الموحي كان قد أبعد في المساجد الأولى للدولة، الزخرف المغطي (أي الذي يكسو الجدران والسقوف)، فقام الفنانون الأندلسيون بمراعاة تدين أسيادهم الجدد، بخلق زخرف أكثر توافقا فأنتجوا أثارا رائعة بزخارف واسعة، وفي عهد المرينيين رجع الزخرف المغطي، حيث تنتشر الزخرفة بالجبس المنحوت على القباب الذي ينزل حتى خدود الأعمدة ولا يترك أي فراغ فمساجد القرن 7هـ/13م تتبع على هذا الشكل الزخارف الكثيفة الموزعة توزيعا منظما قويا بأمكنة كبيرة فارغة⁶.

¹. بولد وبالباس، المرجع السابق، ص 21.

². ابن زرع، المصدر السابق، ص 62.

³. Maslow, Op.cit, P6-12.

⁴. بولد وبالباس، المرجع السابق، ص 52.

⁵. Champion, Op.cit, P48.

⁶. طيراس، المقال السابق، ص 63.

والفن المعماري منذ القرن 9هـ/15م، يشهد نوع من الفتور بسبب ما شهدته المنطقة من جسام أحداث وعلى رأسها التكالب المسيحي عليها، وتوجهها نحو سياسة الدفاع عن النفس خصوصاً بعد ضياع الأندلس وتحول التهديد لسواحل المغرب، وبلوغ الدولة المرينية درجة من الضعف، جعلت الوطاسيين وزراءهم، يتصدرون الحكم ويمنحون ويحفظون بعض الحياة لفاس، وشبه سيطرة على شمال المغرب الأقصى¹.

ساهم الأندلسيون الذين هاجروا نحو فاس في ارتقاء وازدهار هذا النوع من الفن، ولهذا فإن أساتذة الفن والصناع المغاربة، نجحوا في إطالة حياة هذا الفن الذي مثل كل حياتهم وفخرهم، رغم الاضطرابات فإن مدينة فاس ظلت كعاصمة وملجأ أرقى التقاليد، فأقبل السلاطين على تجميلها، وإقامة بناءات المخزن فيها²، فورش العمل لم تتوقف، وظلت فاس بوصفها مدينة العلم والتقوى، بحيث لم يبن في أي مكان آخر في المغرب بصفة مستمرة على الشكل الذي كان عليه البناء في فاس³، وما مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء إلا خير دليل على دمج كل تلك العصور في إنجاز تحفة فنية معمارية تحتوي على كل تلك الخصائص الفنية والمعمارية.

¹. Maslow, Op.cit, P X-XIII

². طيراس، المقال السابق، ص 64.

³. Champion, Op.cit, P 62-63.

ثانيا: مرافق القرويين حتى ق16م

لقد تنافس المسلمون في أوجه البر والإحسان في مساجدهم وإعطائها كل أنواع البذل والعطاء حتى تكون أوقر الأماكن وأطهرها وأنظفها، كيف لا وهي بيوت الله عز وجل، فنجد المسلمين يتحرون في الإنفاق عليها من المال الحلال لتعميرها وتأثيثها وتجهيزها وهي سائرة إلى اليوم حتى لا يشعر الوافد إليها بأي حاجة أو نقص وإذا ظهر يتم تداركه من عامة الناس أو خاصتهم، لذا فمسجد القرويين قد لقي نفس الاهتمام فتم تزويده بكل ما يحتاجه في الداخل أو الخارج في أي عصر من العصور ومنها:

1. مرافق خارج الجامع:

ومن بين المرافق الخارجية الرئيسية التي لقيت عناية واهتمام بالغ من طرف الحكام والناس: أ. توفير الماء وتوابعه: ارتبط الدين الإسلامي بالنظافة والطهارة حتى كانت من أهم دعائمه، سواء طهارة النفس أو الجسد، لذا أخذ الماء مجالا هاما في حياة الفرد المسلم وخاصة في بيوت الله، فكان من أهم نقاط اهتمامهم وانشغالهم، فكلما شعروا بالحاجة إلى الماء ساهموا في تزويد المسجد بما يحتاجه، لذا كانت هناك عدة مساهمات في تزويد القرويين بمصدر الماء منذ تأسيسه، حتى أن بعض الإضافات عرفت باسم الدول أو الأفراد الذين أسهموا بها، وكانت كوقف لهم ومنها:

لقد قامت منشئة هذا الجامع بحفر بئر للبناء، شمال المسجد قرب الصحن القديم ليتحول بعدها إلى الوضوء واعتمد عليه المسجد طوال القرون الأولى، ويعرف اليوم بالبئر المغمورة¹ وعندما دخل أبو مروان عبد الملك المظفر مدينة فاس زودها بمصدر جديد للماء قام بجلبه من وادي حسن أحد روافد واد فاس²، وبني عند باب الحفافة بيلة³ مغطاة بالرصاص بطول ستة أمتار، احتوت على مقاعد للوضوء، وينساب منها الماء لساقية

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 48.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 58.

³. البيلة: كلمة أصلها إسباني، وهي تعني الصهريج من الرخام مستطيل ملاصق للأرض. (ينظر: عبد العزيز صالح سالم روائع الفنون الإسلامية في المغرب الأقصى، مركز الكتاب للنشر، القاهرة 2010م، ص 102).

مفروشة بالرخام المشكل بالألوان (الأزرق، الأخضر والأحمر)، يغسل فيها الحفاة¹ واستحدث أيضا ساقية مستطيلة للطهارة، كما أحدث قناة بجانب السقاية للسقي والشرب².

وأدخل المرابطون تحسينات على شبكة الماء في فاس وجامع القرويين، فأنشأوا دارا كبرى للوضوء في 596هـ/1200م وزودوا الجهة الشرقية من الصحن بخصة³ أغنت نهائيا عن البئر، وجلب لها الماء من مكان يعرف بـ جرنيز⁴، بإذن الملك الناصر الموحدي مخترقا لعدة حارات وأسواق لينتهي بها عند سقاية الشباك التي أنشأها عبد الملك المظفر حيث توجد معدة المياه من الرصاص ومنها لمختلف مرافق المسجد⁵.

وبنوا دارا للوضوء جعل فيها 15 بيتا لكل منها مصراعان وفتحت في السقف 21 نافذة لدخول الضوء، مزودة بمصابيح من زجاج تسرج في الليل لدخول الضوء للبيت وإنارة الفناء الخاص بها، وفي كل بيت أنبوب نحاس ينصب فيه الماء من نقيير منحوت في حجرة وجعل في وسط بيت الوضوء بيلة من الحجر الأحمر، وفي وسطها ذراع مجوف ركبت فيه شبه تقاحة من نحاس مموه بالذهب⁶، بها 20 ثقباً ينصب منها الماء إلى البيلة، وأدار المعلمون بهذه البيلة مقاعد لجلوس المتوضئين وجعل بينها وبين البيلة منفذا ينحدر منه الماء المستعمل للوضوء إلى ممر دائر بذلك⁷، وكل هذا من الرخام الأبيض ولضمان سير دار الوضوء شيد بجانبها مصرية خاصة بسكنى القيم على هذه الدار وخصصت له أوقاف تساعد على الاستعانة بها لضمان سير المرفق الجديد⁸.

وأضافوا الخصة الحسنة في 599هـ/1203م التي تقع في الركن الشرقي من صحن القرويين، وبها جزئي بيلة مستطيلة ملتصقة بالجدار، مع فسقية ومجاورة لها، انتهى العمل

¹. Maslow, Op.cit, P 5.

². ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 16، صور عن بعض المرافق الخارجية، ص 450.
³. **الخصة:** تعني مجموع شئئين اثنين: الأنبوب الذي يتفجر منه الماء نحو الأعلى (النافورة) والحوض الذي يتجمع فيه الماء. (ينظر: صالح سالم، المرجع السابق، ص 102).

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 77.

⁵. بن أبي زرع، المصدر السابق، 70-71.

⁶. ابن القاضي، المصدر السابق، ج 1، ص 71.

⁷. بن أبي زرع، المصدر السابق، 64.

⁸. Maslow, Op.cit, P4.

عليها في 21 ذي القعدة 598هـ/12 أوت 1202م، وصنعت البيلة من الرخام الأبيض في شكل مستطيل بحجم أزيد من ستمائة لتر، ويقابل الواقف نحو البيلة شباك من المرمر به ثلاث قطع يحتوي على 124 خاتما ويعرف بشباك المرحوم وأتم في شهر جمادي الثانية 599هـ/فيفري 1203م¹.

وجعل من تحته ألواح رخامية بها خمسة أنابيب يصب منها الماء في البيلة المذكورة وينحدر منها بعد أن تمتلئ في 20 ثقباً جهة الشمال ونفسها على اليمين نحو الفسقية القريبة منها ذات الإبداع الجميل ولقد كانت من نحاس أحمر مموه بالذهب، وقامت على ساق من نحاس أحمر كذلك مموه بالذهب، ومنقوش يرتفع عن الأرض بنحو متر².

ليتزود الجامع في عهد القاضي أبي يعقوب بن أبي يوسف بن عبد الحق سنة 689هـ/1290م عن طريق والي فاس أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الحدودي بجلب الماء إليه من عين جنوب القرويين تعرف بعيون أبي اللصاد³، فوفرت تلك القنوات ما تحتاجه القرويين من مصدر للماء، لجموع المصلين وطلبة العلم وغيرهم.

ب. الصومعة وبرج النفارين: كانت العادة المتبعة خلال القرون الثلاثة الأولى للإسلام تتجنب نصب الصوامع للمساجد بالمرّة، اقتداء بمسجد النبي (ﷺ) ولم يخرج عنها إلا جامع القيروان، ولكن رغم ذلك فقد زودت المساجد بصوامع لرفع الأذان وكمنارات للاهتداء إلى المسجد وجامع القرويين لم يشذ على هذه القاعدة، فكانت له في البناء الأول صومعة غير مرتفعة عند نهاية الصحن القديم⁴.

إلا أن الزناتيين أزالوها وأقاموا أخرى جديدة الحالية عن إثر عملية التوسعة التي عرفها الجامع، وبها مائة درجة ودرجة وجعل بابها جهة القبلة مغطى بالنحاس وانتهى العمل عليها في ربيع الأول 354هـ/965م⁵، وهي كأقدم منارة وكنموذج للصومعة المربعة المستوحاة من

¹ الجزنائي، المصدر السابق، ص 72-73.

² نفسه، ص 73.

³ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 318.

⁴ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم10، ص 444، والوثيقة رقم 16، ص 450، في هذا الباب.

⁵ ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص 53.

شكل الكعبة، وتبلغ سعة المئذنة من جهاتها الأربع أربعة أمتار و95سم، مع سماكة الجدار الواصلة إلى 95سم ويبلغ علوها 26م و75سم¹ وتنتهي بقبة نصف كروية وبها نافذة جهة الشرق تدخل هذه النافذة الضوء للمنار الثاني، كما وضع للصومعة باب جهة القبلة².

كما زودت الصومعة بمرافق وآلات لتسهيل بعض الأعمال المرتبطة بالدين والدنيا، فقد جعل الأمير أبو بكر عند الدرجة 88 بيتا صغيرا يعرف المنار الأول أعدت لمبيت المؤذنين كما جعل عند الدرجة 100 بيتا أصغر يعرف بالمنار الثاني أو القبة العليا، وبه نصبت ساعة ماء³، كما وضعت فيها ساعة رملية وساعات شمسية، وإسطرلابات⁴ وهذا ما جعل جميع مساجد فاس يقتدون بتوقيت صومعة القرويين⁵ وأذانها بالنهار والليل⁶.

وزودها المرينيون على إثر انتصار السلطان أبي يوسف يعقوب على "ذي نونه" بالأندلس يوم السبت 15 ربيع الأول 674هـ/8 سبتمبر 1275م ما غنمه من راياته، التي قام بتعليقها منكسة عليها ليشهدها الحاضر والبادي والرائح والغادي⁷، على صارية من خشب لتدل على وقت الصلاة العلم الأبيض عند الظهرين، وقبل صلاة الجمعة بساعتين يرفع العلم الأزرق ليحول لأبيض مثل سائر الأيام، كما يسرج الفانار ليلا عند العشاءين، وهذا ليستدل بهم من لم يسمع النداء⁸.

وعن صاحب الجذوة أن أبي عنان هو الذي أحدث العلم الأزرق في الصومعة يوم الجمعة وأنه أمر بنصب ساري خشب بأعلى الصومعة ينشر فيه العلم في أوقات الصلاة وفانار فيه سراج أوقات صلاة الليل ليستدل من لم يسمع النداء أو الأذان وقيل في ذلك:

¹. Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 14-15.

². بولد وبالباس، المرجع السابق، ص 25.

³. ابن القاضي، المصدر السابق، ص 54.

⁴. الإسطرلاب: وهو ابتكار إسلامي يحاكي حركة النجوم حول الكرة السماوية ويستعمل في حل كثير من المسائل الفلكية وأغراض الملاحة والمسح، يستخدم لمعرفة الوقت وتحديد مواقيت الصلاة، وبدايات ونهايات فصول السنة. (ينظر: عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج4، ص 400).

⁵. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 12، نفائس القرويين منها ساعة مائية وإسطرلاب، ص 446.

⁶. Champion, Op.cit, P54.

⁷. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 316-318.

⁸. محمد المنتصر بالله الكتاني، فاس عاصمة الإدارة ورسائل أخرى، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002 ص44.

نور به علم الايمان مرتفع *** للمهتدين به للحق ارشاد
ياتون من كل صوب نحوه فلهم *** لديه الرشد اصدار وايراد¹.

لتجدد الصومعة سنة 688هـ / 1289م وألبس بابها بالنحاس الأصفر من مال الأوقاف
وأعشار الروم، لتغدوا صومعة القرويين قدوة لسائر مساجد مدينة فاس²، وعلى أثر تجديد
الصومعة تم بناء غرفة انتقل إليها بيت المراعي للأوقات وجلس المؤذنين والقوامه، عرفت
باسم الغريفة وعوضت القبة العليا وبنيت في الجهة الجنوبية للصومعة فوق بابها مباشرة بعد
25 درجة، مسقفة بقبة ذات أربعة جوانب من البرشلة، نقشَت عليها آيات وكذلك كلمات
تعظيم الله وتطل على الصحن من نافذة ذات قوسين يحملها تاج وسارية رخامية وفي أسفل
النافذة شباك من خشب عن الحمام³.

ودعمت الصومعة بمنارة أخرى نصبت على مقربة منها، وهي منفصلة عن جامع شببيه
بالصومعة بدون قبة وتحمل اسم البرج، اعتاد النفارون في شهر رمضان لتنبية الناس بالوقت
خاصة السحور، به 79 درجة، أقيمت قاعة للموقت في الدرجة 19، ومصريتان معهما حمام
بالدرجة 23 للموقت والنفارين الليلين، وقاعة في الدرجة 35 يستعملها الموقت، وقاعة لراحة
النفارين في الدرجة 53، أما تأسيسها فهناك من يرجعها إلى الموحدين وآخرون للسلطان أبي
عنان المريني عندما سن العَلَم والْفانوس، في حين التازي يعيدها ويرجحها إلى نهاية العهد
المريني في أيام السلطان عبد الحق بن أبي سعيد في حوالي 840هـ / 1436م⁴، فكانت
الصومعة والفنار منارات لرفع أوقات الصلاة أثناء الليل وأطراف النهار.

ت. توسيع الصّحن وتزليجه: من الجوانب المعمارية التي زودت بها المساجد في العالم
الإسلامي، احتوائها على صحن أو بهو يكون خارج بيت الصلاة متصل معها بشبكة من

¹. بن القاضي، المصدر السابق، ص 55.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 322.

³. Maslow, Op.cit, P3.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 327.

الأبواب، وهو تابع للهيكل العام للجامع ميزته يكون غير مغطى ويشرف على عدة مرافق كمدخل بيت الصلاة أو الوضوء أو حتى كمكان لأداء الصلاة في أيام الحر مساء¹.

وعرف صحن القرويين عدة تغيرات منذ تأسيسه، فقد دخل الصحن الأول للعهد الإدريسي في زيادة الزناتيين²، وعند كل توسعة كان القائمون يتحرون الحيط في مصدر المال، مع تعهد والتزام المرمم بالدقة والإتقان في العمل، وبعدم ترك احدوداب أو تقعير في المكان الذي طالته الأشغال كجلب الماء أو توسعة الصحن مثلاً، كتزليج محمد بن صخر لصحن القرويين لتلفه منذ الإصلاحات الثانية للجامع، والتزم ابن صخر ما وعد به قاضي الجماعة فزلجه بالأجر المعروف باسم "البجماط"³ واستوعب ما مقداره 52974 أجورة وزاد القاضي ابن داود في الصحن بلاطين من جهة الشرق ومثلها في الغرب⁴، بعدما تم فرش الصحن سنة 526هـ/1131م، وطلب بن داود بإنشاء شقق كتان نصبت على الصحن كمظلات في كل جمعة لاتقاء الحر عن المصلين⁵.

كما زود الصحن بمجنبات⁶ وملحقات، وهي عناصر تطورت على حدوده، لذا من السهل ملاحظة صغر حجم الصحنون في أبعادها بالنسبة لبيوت الصلاة، ويتناقص حجمها في حالة التوسعة الداخلية، والمجنبات التي شملت أحيانا على بلاط أو أكثر، لتكون فيما بعد مساحة ملحقة لبيت الصلاة، ولذلك تحولت أجزاء من الصحن كمكان مغطى مما جعل الصحنون تكون ضيقة⁷.

وأیضا ففي حالات التوسعة الخارجية تكون على المنطقة اللصيقة والمجاورة للمسجد والمعروفة بالحرم، وبالنسبة للقرويين فالمنطقة القريبة منه خصصت غالبا، الذين لهم صلة

¹ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 13، ص 447، والصورة رقم 16، ص 450، لهذا الباب.

² ابن القاضي، المصدر السابق، ص 53.

³ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 63.

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 66-67.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 63.

⁶ المجنبات: هي الأروقة المحيطة بالصحن وتطلق عليها أسماء مختلفة، غير أن في القرون الأولى تسمية ذلك العنصر الإسلامي في تخطيط المساجد بالمجنبات.(ينظر: عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة...، المرجع السابق، ج2، ص 165).

⁷ Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 13-14.

به من عدول وموثقين، وراقين، كتيبين ومجلدين ودور قضاة وأئمة وموقتتين ومؤذنين، وكانت أبوابه تفتح على شوارع وأزقة مهنيه فأخذت أسماءها من تلك الأنشطة المفتوحة عليها فهذا باب الموثقين، الشماعين، الوراقين (الكتبيين)،... كما أن جزءا كبيرا من الدور كان ولا يزال موقوفا على جامع القرويين، فأخذت أبوابه أسماء تلك الشوارع فهذا باب الشماعين، باب الكتبيين...¹.

ث. **الأبواب الخارجية**²: فتحت بجامع القرويين على ثلاث جهات الشمالية والشرقية والغربية عديد الأبواب الخارجية المفتوحة على عدة دروب وزنقات، وهذا بتعاقب الدول والحاجة إليها في عملية تسهيل الدخول والخروج منه، فاحتوى على ثلاثة أبواب ضخام ذات تنوع واختصاص، اختلف المؤرخون حول عدد أبوابه فابن أبي زرع عدها ب 17 بابا³ والجزنائي ب 18 بابا⁴ والوزان ب 31 بابا وهذا الاختلاف يعود إلى نظرة كل واحد في حساب الأبواب داخل وخارج الجامع، كما أوقفت عليها عقارات، استفاد منها الشخص القائم على فتح وغلق وصيانة الأبواب⁵.

واحتوت الأبواب في الخارج على مقارع معدنية كبيرة، وأقفال داخلية من زكارييم عمودية وأفقية⁶، ومنها أبواب داخلية وأخرى خارجية تشرف على الخارج، ولن نتطرق إلى كل باب على حدى لأن المصادر قد فصلت فيها وفي أماكنها وأهم التطورات التي عرفت في حين نكتفي هنا بالإشارة إليها، من باب التوضيح لا من باب البسط.

والأبواب الشرقية والغربية قديمة، أما الجنوبية (القبلة) والشمالية (الجوف) فحديثة⁷ فمن الجهة الغربية للمسجد عندنا باب الموثقين كباب رئيسي مقابل لتربيعة القراقين أو تربيعة الكرمة ويعرف اليوم بالمركزان ويسمى باب الشهود وبني سنة 505هـ/1112هـ حسب

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 98.

². ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 14، صور لأهم أبواب القرويين، ص 448.

³. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 66.

⁴. الجزنائي، المصدر السابق، ص 77.

⁵. El-Abbassi, Op.cit, T1, P115.

⁶. Maslow, Op.cit, P5.

⁷. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 66.

الجزنائي¹ عليه قبة مقربة خارجة بنيت في 617هـ/1220م وهو أكبر باب بالقرويين ونقشت عليه بسملة وأدعية² وحسب هذه الأوصاف هو اليوم باب بدون اسم عليه فقط موضوع لصاقة كتب عليها باب خاص بالنساء.

وباب الشماعين سمي على السوق الذي يقابله وسمي بباب الشهيد وباب الفخارين، وقد اختلفوا في بنائه فابن أبي زرع إلى 528هـ/1133م، والجزنائي قال في 518هـ/1124م مع ابن القاضي في جذوته وهو الأقرب حسب الأستاذ التازي ثم أدخلت عليه تصليحات كحريق 24 جمادي الثانية 571هـ/8 جانفي 1176م وجدد في جمادي الثانية 600هـ/1203م³، فباب الوراقين ويعرف بباب الكتبيين وفتح في 617هـ/1220م وسمي بباب العدول الصغير، يليه باب الأولياء الغربي لدخول رجال الفضل منه، وباب الصفر الأعلى يعود لعام 531هـ/1136م عرف باسم النطاعين (صناع الجلد) أو القطاعين وسمي بالصفير لأن أحد أبوابه مغطى بالصفير وباب السبطريين (صناع الأحذية)⁴.

ومن الجهة الجنوبية باب الخلفاء لدخول الخلفاء منه قصد الصلاة وهو قريب من مقصورة الإمام حيث ينتظر الخليفة منها شهود صلاة الجمعة وهو الأول الملبس بالصفير في عام 531هـ/1136م⁵، يليه باب مجلس القضاة لوجود مقصورة القاضي سابقا على يسار الداخل من الباب وسمي بباب الكتب ويرجع إلى 538هـ/1143م وتعرض للحرق سنة 646هـ/1151م وتم إصلاحه⁶، يليه باب الفرخة (أي باب المفتاح) وباب السترة وهو مغلق اليوم، وكان مدخل المتخاصمين وأداء اليمين من الرجال والنساء متسترين من عيون الناس⁷.

¹ الجزنائي، المصدر السابق، ص 65.

² ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 67.

³ بن القاضي، المصدر السابق، ص 67.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 94-95.

⁵ نفسه، ص 95.

⁶ الجزنائي، المصدر السابق، ص 77.

⁷ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 96.

ومن الجهة الشرقية باب الخلوة وعرف أولاً بالباب المدرج ثم بالخلوة لقرب زاوية القراء منه ويعود للمرابطين وجدد في عهد المرينيين¹، يليه باب الصالحين الشرقي وسمي بباب السبع لويات²، فباب ابن حيون وجدد سنة 682هـ/1283م³، وهو اليوم لا يحمل أي لافتة تدل على اسمه، ثم باب ابن عمر ويعود للموحدين 576هـ/1180م وجدد في العهد المريني، وبه معدة لتوزيع الماء⁴.

واستعمل المغاربة كلمة الجوف للدلالة على الجهة الشمالية، حيث نجد باب السباط خاصا بالنساء، وباب الخصّة يعود للعهد الزناتي، وباب الأصغر خاص أيضا بالنساء وباب الصفر الشمالي المغشي بالنحاس وسماه الجزنائي باب العميان ويحمل إسم باب الورد⁵ وباب الحفاة وهو بابان خارجي وداخلي فالأول سمي عين الحمام وبعده تأتي البيلة ومنها يأتي الباب الثاني وهو أقدم باب بالجامع يعود لزناتة ووسعه الموحدون⁶. تلك أهم الأبواب الخارجية للجامع في حين تركنا الأبواب الداخلية المعروفة بالرواح في النقطة اللاحقة.

2. مرافق داخل الجامع:

أ. المحراب والقبلة والعنزة: عندما جعلت مكة المكرمة قبلة للمسلمين توجب عليهم في بناء المساجد أن تكون المحارب متوجهة إليها أو متسامتة معها، فيكون جميع المسلمين على سطح المعمور يولون وجوههم إليها، لعبادة الله عز وجل كما أمرهم في كتابه العزيز حيث قال تعالى: "فَلْتَوَلِّيَنَّهُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ"⁷، ومنها كانت المحاريب قبلة المسلمين في الصلاة من أهم ركائز بنائه، لذا تعنى

¹ بن أبي زرع، المصدر السابق، ص66.

² الجزنائي، المصدر السابق، ص77.

³ بن القاضي، المصدر السابق، ص70.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص97.

⁵ الجزنائي، المصدر السابق، ص77-78.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص98.

⁷ سورة البقرة، الآية 144.

بأهمية كبيرة من طرف رجال العلم والحاكم في إقامة سمتها أو جهتها، فمنها يتم تحديد وجهة الجامع¹.

وجامع القرويين أيضا فقد بنى محرابه الأول الأدارسة، وكان يقع في ناصية البلاط حيث تعلوه الثريا الكبرى اليوم، ونصبت قبلة المسجد على سمت القبلة التي خطها الإمام إدريس لمسجد الشرفاء بعد مشورة العلماء والفقهاء، واعتمد الجهة الكبرى المقدرة بـ 180° اتجاه القبلة حيث يكون الإمام بالوسط أي في النقطة 90°، وقد أوثر عن شيوخ القرويين أن التربة التي فرش بها المحراب جلبت من الكعبة².

غير أنه في العهد المرابطي أثناء التوسعة التي مست جنوب القرويين جهة المحراب فإن قاضي الجماعة عبد الحق ابن معيشة قد استرعاه الاهتمام بقبلة الجامع فحولها إلى الجهة الصغرى المقدرة بـ 90° أي السميت يكون على درجة 45° لأن السابقة كان سمت القبلة فيها على درجة 78°، ولكنه اكتفى في النهاية بتقديمه إلى مكانه الحالي في نفس الدرجة عن يمين السميت الحقيقي³، فتقنن العمال في بنائه وزخرفته وتوشحه بأشغال جص من نقوش زهرية ونباتية وهندسية وأخرى كتابية من نسخية وكوفية تأسيسية وقرآنية ودعائية، مع أنماط معمارية⁴.

وعند اعتلاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني أمر ببناء "المدرسة اليعقوبية" لتحل مشكلة الطلبة الأفاقين على القرويين، ونصب قبلتها الأستاذ المعدل أبو عبد الله محمد بن الحباك، ولكن سرعان ما أدرك الناس أن القبلة فيها منحرفة عن جارتها بالقرويين، فجمع السلطان رجال العلم للنظر فيها لكنهم أقروها، فتحول الناس للصلاة في المدرسة لأن قبلتها محكمة، وصار آخرون ينحرفون يسار المحراب على مرأى من المأمومين، وسرعان ما آمن

¹ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11، 12، الخاصة بذلك، ص 445-446.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 49.

³ عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، مج 3، ط 2، دار النشر المعرفة، الرباط 2000، ص 657.

⁴ Maslow, Op.cit, P2.

الناس بالانحراف في الصلاة، حتى ظهر وقف خاص بمن ينادي الناس بانحراف الإمام وحبسه الفقيه الورياغلي (880هـ/1475م) على من ينبه المصلين إلى تعديل الصفوف¹.

ورغم ذلك لم تنته مشكلة المحراب، فقد أثارها من جديد الأستاذ عبد الرحمن التاجوري الطرابلسي على علماء مصر والحجاز في أواخر المرينيين سنة 934هـ/1528م يستفتيهم عن نصب محرابه بالمغرب بين المشرق والمغرب مستقبلاً جهة الجنوب، واتفق طائفة من العلماء على المذاهب الأربعة بوجوب العودة للموقتين في الموضوع لأنهم أدركوا وأعلم بالأدلة، وأن الحديث "ما بين المشرق والمغرب قبلة"² مخصوص ببعض الأقطار كالمدينة واليمن وما عداها فليس مشمول بالحديث، وعليه فليتجه الناس نحو القبلة الشرعية، لكن علماء المشرق أبدوا تحفظهم حول نقض البنیان³، بدون إحداث أي تغيير.

ودعم محراب بيت الصلاة بمحراب إضافي يطل أو يشرف على الصحن عند مدخل البلاط المحوري وعرف باسم العنزة⁴، ويستعمل في زمن الصيف كمحراب للإمام في الصحن وعادة ما تتم زخرفة العنزة المصنوعة من الخشب بشيء من الزخارف نباتية وهندسية وكتابية محفورة ومدهونة⁵، فاحتوى صحن القرويين على عنزة لما دخل المظفر إلى فاس قام بتزيين قبته الداخلية والقبّة الموازية لها على مدخل باب الصفر الموالي لباب الحفافة⁶.

وبسبب تعرضها الدائم لعوامل الطبيعة جعلها تتلف مما يستلزم تجديدها كلما اقتضت الحاجة، ففي عهد المرابطين سنة 524هـ/1119م، والمرينيين الذين قاموا بنزع ألواحها الخشبية القديمة من الأزر، لتحل محلها العنزة المرينية القائمة بموضعها اليوم، وقد أنشأها قاضي الجماعة وخطيب وناظر أحباس القرويين أبو عبد الله ابن أبي الصبر في 1 ذي القعدة 687هـ/27 نوفمبر 1288م أيام السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأنفق عليها من مال

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 658.

². الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، باب ما جاء في ابتداء القبلة، رقم 344، اعتنى به: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ص95.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 658.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 13. صورة داخلية وخارجية لعنزة القرويين، ص 447.

⁵. Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P65.

⁶. Champion, Op.cit, P60.

الأحباس، واستبدلها بألواح من رفيع الخشب وجميل النقش ودقيق الزخرفة، ليكون الفراغ منها في 5 ربيع الأول 689هـ / 18 مارس 1290م، فالجهة الداخلية منها مما يلي قاعة الصلاة محفوظة كما ينبغي، تتكون من قطع متجانسة مزدانة بالنقوش الخشبية المطعمة بآيات قرآنية وأدعية وتكبير وإعلاء كلمة لله¹، وقد وصفها الجزنائي بقوله: " فيها من غرابة الصنعة ونفاسة الصبغة وإتقان الإلصاق ودقة الخרט والنقش وجلالة الإحكاء ما يقضي العجب ويصرح الإعجاز..."².

ب. المنبر: شهد منبر جامع القرويين عدة تغيرات في هذه الفترة التي تعاقب عليها عديد الدول وكل منها أرادت أن تجعل نفسها خادمة للدين من جهة ومخلدة نفسها في هذا الصرح من جهة أخرى، لذا كان هناك عدة منابر³.

وأولها المنبر الفاطمي، بعد عقد الصلح بين يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس وعبد الله المهدي في 305هـ/916م ينص على جعل الخطبة باسمه على المنابر، وفي سنة 307هـ/919م استجاب والي المدينة لرغبة الفقهاء والعلماء في نقل الخطبة للقرويين عوضاً عن مسجد الشرفاء بسبب اتساع الأول وضيق الثاني، فتم صنع منبر من خشب الصنوبر من ست درجات على نحو منبر جامع الأندلس الفاطمي⁴، وبعد ثمانين سنة يدخل عبد الملك المظفر لفاس في شوال 387هـ/4 نوفمبر 997م وقام بتشييد منبر جديد في 388هـ/998م مصنوع من عود الأبنوس والعناب فعرف بالمنبر الأموي⁵.

وفي العهد المرابطي أمر السلطان علي بن يوسف بن تاشفين قاضي القضاة أبا محمد عبد الحق بن معيشة الغرناطي الكنانى بصنع منبر جديد، أتمه الفقيه القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضاء القييسي، وهو مصنوع بفاس من تسع درجات من شجر الأبنوس الصندل النارج والعناب، المطعم برسوم هندسية في غاية الدقة والروعة كالنجوم المثلثة والأشكال

¹ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 64-65.

² الجزنائي، المصدر السابق، ص 73.

³ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 12، نفائس القرويين، ص 446.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 49.

⁵ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 58.

المختلفة ورسوم السعف والجوز والصنوبر وغيرها، وتم دمجها فيما بينها حيث لا يمكن التفريق فيما بينها إلا بالتعمق والتدقيق، كما طرزت ونقشت عليه آيات قرآنية بالعاج بالخط النسخي والكوفي، يصل علوه إلى 3 أمتار و60سم وعرضه 1.90م، وصنعه علامة فاس وأديبها الشيخ أبو يحيى العتاد، وأتمه في شعبان 538هـ/1144م حسب النقش الموجود به في أيام صاحبي الأنيس والآس، ولأهميته حيك له غطاءان أحدهما من جلد الماعز والآخر من نسيج الكتان يزال عنه يوم الجمعة، كما وضع له بيت حسب حجمه يوضع فيها باقي الأسبوع¹، وظل هذا المنبر محل عناية زائدة من طرف الحكام ومحل تنافس رجالات العلم والدين لأهمية منبر القرويين وهو من أروع التحف الإسلامية.

ج. إنارة الجامع: تعددت أشكال وأنواع الثريات بالمغرب الأقصى، وانتشرت خصوصا في العصرين الموحيدي والمريني منها: الثريات، الثريات الناقوسية، الشماعد، المصابيح والسوامر المستعملة في الشوارع والحارات حول المسجد الجامع وبالمدينة، أشرف عليها الوقاد (اللمبجي) مع طاقمه، لذا كانت أدوات الإنارة وتوابعها من أفتال وشموع وزيت وغيرها، على جانب من الأهمية²، فحرص الحكام على توفيرها بل وجلبها من أراضي الجهاد خارج المغرب، كالموحيدين والمرينيين في جلب نواقيس وأجراس حورت وعدلت لتكون ثريات وشمعدانات وكان للقرويين حظه من ذلك³، وهذا كشعار على انتصار الإسلام وبقاء روح الجهاد متقدة، فعمرت بها المساجد، ليزداد بهجة وإشراقا⁴.

وقد ذكر الجزنائي عدد ثريات جامع القرويين التي تسرج فيه بمائة وثلاثين ثرية، جميعها من النحاس ذات الصناعة المختلفة في الحجم والشكل، منها الكبيرة المقدرة بعشرة معلقة بالبلاط الأوسط ومعها نواقيس وباقي الثريات أي مائة وعشرون معلقة في سائر نواحيه وجوانبه وقد ما يسرج منها ألفا مصباح، بحيث يوقد بعضها خلال ليالي السنة، ويكثر

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية..، المرجع السابق، ج2، ص 191.

². Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 57-62.

³. Mslow, Op.cit, P7.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11، صور داخلية للقرويين، ص 445.

منها في شهر رمضان، في حين توقد كلها في ليلة السابع والعشرين منه، كما عدد أنواع تلك المصابيح أو القوارير المستعملة فمنها سبعون صبحية، خمسون عراقية والباقي نابليات (نابولي) وبلديات¹.

وهذا بهدف الإضاءة والزينة وأنس العالم والطالب وتجنب الشك والريبة من الظلمة وهداية الطريق أو السبيل ونزاهة لبيوت الله من وحشة الظلمة، إلى جانب أربعين سرجا وضعت في أماكن معلومة لحرم الجامع فجاءت في شكل دائرة عليه، لتهدى المارة ليلا بجانبه² ومنها سامرة باب سوق العطارين وأخرى بباب دار الصهرج وعلى درب ابن حيون، وباب السبع لويات وبالصفارين وبعقبة السبطريين³ مقابل مقصورة القرويين، وسامرة بزقة صفيرية قبالة باب الخلفاء وبالشماعين وما بينه والطريق المؤدية إلى الحرم الإدريسي⁴.

ونكتفي في هذا الباب بالتعريف بأهم الثريات وأكبرها بجامع القرويين وهي الثريا الكبرى المركبة على تقاطع باب الصالحين المسامت للأولياء في موقع المحراب الزناتي، التي أقامها عبد الملك المظفر عند التوسعة الثانية، وفي ق6هـ/12م أدركها التلف من كثرة استعمالها فنسج الموحدون أخرى على أنقاضها من النحاس والبرونز منسوبة إلى الخليفة الناصر بن عبد الله بن يعقوب عبد المومن، وهي المعلقة بالقبة الخامسة مصنوعة بفاس وهي قائمة إلى اليوم⁵، وكلفت حسب ابن أبي زرع 717 ديناراً فضياً ودرهمين ونصف⁶ (ما يفوق مليوناً فرنك)، وقدر الجزائي عدد قناديلها بـ 520 قنديلاً ويزيد وزنها عن 17.5 قنطاراً وقطرها 125 سم، ولملاها تقريباً 70 لتراً من الزيت⁷.

¹ الجزائي، المصدر السابق، ص 79.

² نفسه، ص 79.

³ السبطريين: (مأخوذة من كلمة إسبانية)، واليوم يعرف عقبة السبطريين المجاورة لجامع القرويين، وجاء في كتاب إزالة الالتباس عن عائلات سكان مدينة فاس ما نصه: "أولا السبطري بضم السين وفتح الباء وكسر الراء - عائلة من أقدم البيوتات بفاس وأصلها من الأندلس"، ورد ذكرها في عدة حوالات حبسية، الأولى مؤرخة بعام خمسة وعشرين وثمانمائة وأخرى عام تسعة وعشرين وتسعمائة، وذكرت أسماء أفراد منهم أحمد ومحمد السبطريان إلى غير ذلك من الأفراد ولا شك أنها عائلة أندلسية فنسبت إليهم. (ينظر: بنسودة، المقال السابق، ص 114).

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 100.

⁵ Maslow, Op.cit, P7.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 66.

⁷ الجزائي، المصدر السابق، ص 69.

معلقة بواسطة ساق احتوى على تاريخ الصنع وصاحب الأمر في بنائها الخليفة أبو عبد الله الموحدي، يتكون هيكل الثريا من مخروط يحتوي على 12 طوق تتفاوت سعته تصاعدياً لتأمين أطراف المعدن من التآكل بسبب لهب الفتائل، فالطوق الأول يحتوي على 54 مسنداً للمصابيح والثاني 49 والثالث 45 ثم 39 وهكذا ليصل مجموعها إلى 127 مسنداً، وزينت بنقوش مزهرة وخطوط متنوعة ما بين الكوفي والنسخي وزخارف مربعة ذوات نجوم وأقواس مفصصة وكذا باقات من السعف والجريد فاحتوت على لوحات رائعة تشمل عبارات دينية "العزة لله" وآيات بيّنات مثل (لقمان 23-36-34)(الحشر 21 حتى 24)¹.

وقد حرصت الدول المتعاقبة في حكم المغرب على السير الحسن لعملية الإنارة داخل المساجد وخارجها، وهذه العملية تحت نظر قاضي المدينة، فكان الوقاد، وطاقمه يباشرون العمل مع العصر، لإيقاد آلاف المصابيح وعشرات الثريات عند الأبواب والبلاطات وعند منعطفات الصومعة ومنارتها، وكانت مصابيحها ما صنع بفاس بمعامل الزجاج ومنها ما جلب من العراق وحتى أوروبا².

د. المقصورة والمستودع: حتى يكون لشخص الإمام أو الخطيب جانب من الخصوصية كمكان يستعد منه للخطبة يوم الجمعة أو الصلاة أو لراحته، وأيضاً محلاً لناظر الأوقاف يحاسب فيها أعوانه، أو استقبال عليّة القوم أو بالإنفراد لبعض الأمور المتسمة بالخصوصية مع الأفراد، وضع له بيت صغير لذلك بجانب المحراب، وبالقرويين فإن هذه المقصورة تتعدى مساحتها خمسة أمتار مسقفة بقبة تحتوي على رفوف المخطوطات يرجع إليها الإمام وكذا مزودة بسقاية رخام مصدرها من بيلة باب الحفافة وللمقصورة باب من جامع الجنائز وآخر للجامع وهي من مشاريع القاضي بن معيشة³.

مع مجلس القاضي الذي أتمهما ابن البيضاء القيسي، وكان على يمين الداخل من باب الخلفاء وكان يوجد بها مكيال وميزان ومقياس، حيث يجلس بعض أعوان القاضي من

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج3، ص 274.

². صالح سالم، المرجع السابق، ص 52.

³. Maslow, Op.cit, P169.

المعروفين بالأمانة والنزاهة¹ للفض في النزاعات المتعلقة بالمكايل والموازين والمقاييس وبها يكون مجلس مفتش الخزانة الكبرى للمخطوطات، يراقب الكتب المعروضة للبيع في المزاد العلني، حتى إذا كان هناك مخطوط نفيس اقتناه للخزانة، أو شبهة في تملك المخطوط².

ومن المشاريع الموحدية بالقرويين إنشاء مستودع للأوقاف في 580هـ/1184م، بسبب ثروة الجامع الضخمة التي نافست خزينة الدولة نفسها³، ومن هنا كانت فكرة بناء "مستودع" أي خزينة تودع فيها تلك الودائع الثمينة، في أيام الفقيه أبي محمد يسكر الجوراني (558-598هـ/1162-1201م) ونصب له بابان أحدهما من الخشب والآخر ملبس بالحديد وفي كل باب ثلاثة أقفال، أسند كل مفتاح لوكيل على حدة، للحديقة والأمانة مع نافذتين للتهوية وبداخله صناديق كبيرة عليها أقفال وثيقة⁴، وهذا المستودع يتواجد حالياً تحت الرواق الذي بنيت فيه مكتبة أبي عنان العلمية في الركن الشمالي الشرقي من الجامع ويسمى الرواق الواقع فوق المخزن بالمستودع مجازاً، ووضعت فيها أوقاف الجامع، حتى الناس من أصحاب المال والتجار وضعوا ودائعهم فيه⁵.

هـ. الأبواب الداخلية: توجد ثلاثة أبواب داخل الجامع تفصل قاعة الصلاة عن صحن مصلى الجنائز وهي أبواب الرواح وتقع في جدار القبلة عن يمين المحراب، فالباب الأول يسمى باب الرواح الأعلى يجاور باب الخفاء، يليه باب الرواح الأوسط، فباب الرواح الأدنى، لهم أربعة مصاريع وكلها منقوشة ومطعمة بآيات وواشي وعبارات دعائية⁶. إلى جانب باب ابن رقية وهي دقف حمر تؤدي لجامع الجنائز وترجع لعهد الموحدين وركبت حسب الأنيس في 617هـ/1220م، إلى جانب ذلك أبواب أخرى منها باب يفصل بين مجلس القضاة وصحن مصلى الجنائز، وباب يفصل الزاوية في مقدمة القبلة عن صحن

¹. Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P65.

². صالح سالم، المرجع السابق، ص 75.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 101.

⁴. الجزنائي، المصدر السابق، ص 70.

⁵. Levi-provençal, Extrait..., Op.cit, P 67.

⁶. Maslow, Op.cit, P 170-172.

الجنائز، وباب يخرج منه الإمام والخطيب على يسار المحراب وهناك باب يفتح على الصومعة وبابان يحميان المستودع (الأوقاف) وباب مخزن الزيت والقنادل وباب مخزن الحصر وأدوات التنظيف¹.

فكل تلك التطورات من توسيعات معمارية واستحداث مرافق داخلية وخارجية في جامع القرويين على مدى تعاقب الدول التي حكمت المغرب من الأدارسة إلى المرينيين، فإنها عمدت على تخليد اسمها في إحدى زواياه، كما سعت تلك الدول إلى المحافظة على هذا الصرح بتعهده بما يحتاج ليحافظ على شبابه وصحته من عوادي الدهر، وهذا يصب في نشر تلك الرسالة التي وجد من أجلها الجامع في البلاد الإسلامية وهذا ما سنحاول التعرف عليه في الفصل الموالي

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 91-93.

الفصل الثالث: مراكز التعليم الأولي بالمغرب الأقصى حتى ق10هـ/16م

تمهيد

إن إعداد الفرد وتكوينه كان محط اهتمام الأمم والدول ولا يزال، وفي الإسلام يعتبر أولوية أنيطت بالمسجد في مرحلته الأولى، ليدعم بالكتاب والمدرسة والزاوية، وهذه المؤسسات كانت تبتث تعليمًا يؤهل الطالب إلى الارتقاء من مؤسسة لأخرى، لوصول إلى تعليم عال بالمفهوم الحالي، وهي طريقة كادت تكون عامة في العالم الإسلامي في فترته الذهبية التي يعبر عنها بالعصور الوسطى وحتى بعدها في الحديثة، ويعتبر المغرب الأقصى نموذجًا شاهدها على تلك المؤسسات في التعليم الإسلامي، التي تنتهي بالطالب في جامعة القرويين والتي شدت إليها الرحال، لذا سنحاول في هذا الفصل دراسة تلك المؤسسات التعليمية ودورها بالمغرب الأقصى، من حيث التأسيس والتنظيم بالإضافة إلى المكتبات.

أولاً. المسجد والجامع:

1. التعريف:

لغة: المسجد لغة محل السجود، وهو من سَجَدَ يَسْجُدُ سَجُودًا، موضع الجبهة على الأرض والمسجد والمسجد الموضع الذي يسجد فيه، فكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد، ليتسع المعنى إلى المكان المتخذ لاجتماع المسلمين لأداء فريضة الصلاة فيه¹، وقال الزركشي: "ولمّا كان السجود أشرف أفعال الصلاة، لقرب العبد من ربه، اشتق اسم المكان منه ف قيل: مسجد ولم يقولوا: مركع، ثم إن العُرف خصص المسجد بالمكان المهيأ للصلوات الخمس حتى يخرج المُصلّي المجتمع فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعطى حكمه"².

¹ أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج3، باب حرف الدال، فصل السين المهملة، مادة سجد دار صادر، بيروت، ص 204-205.

² محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح: الد: أبو الوفا مصطفى المراغي، ط4، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1416هـ/1996م، ص28.

اصطلاحاً: هو المكان الذي أُعِدَّ للصلاة فيه على الدوام، وأصل المسجد شرعاً: كل موضع من الأرض يُسجد لله فيه¹، وفي الصحيحين حديث لجابر، عن النبي (ﷺ): "... وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَظَهْوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، فَلْيُصَلِّ"²، وهذا من خصائص نبينا وأمته، وكان الأنبياء قبله إنما أُبيحت لهم الصلاة في مواضع مخصصة كالبيع والكنائس³.

وقد ثبت في حديث أبي ذرٍّ، عن النبي (ﷺ) أنه قال: "... وَأَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَهُوَ مَسْجِدٌ"⁴، وقال الإمام النووي: "فيه جواز الصلاة في جميع المواضع إلا ما استثناه الشرع من الصلاة: في المقابر، وغيرها من المواضع التي فيها النجاسة: كالمزابل، والمجزرة وكذا ما نُهي عنه لمعنى آخر: فمن ذلك أعطان الإبل، قارعة الطريق والحمام، وغيرها لحديث ورد فيها"⁵.

والجامع هو نعت للمسجد، سمي بذلك لأنه يجمع أهله ولأنه علامة للاجتماع، فيقال: المسجد الجامع، بمعنى: مسجد اليوم الجامع، ويقال للمسجد الذي تُصلى فيه الجمعة، وإن كان صغيراً، لأنه يجمع الناس في وقت معلوم⁶.

وفضل بناء المساجد وعمارتها جاءت فيه نصوص شرعية كثيرة تدل على رفعتها ومكانتها وواجب العناية بها، كقول الله تعالى: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

¹. الزركشي، المصدر السابق، ص27.

². الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب: حدثنا محمد بن سنان، حديث رقم 335، طبعة جديدة مضبوطة ومصححة ومفهرسة، ط1، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1463هـ/2006م، ص92-93.

³. أنظر أيضاً: الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، ج1، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم 521، ط1، تح تص تر: محمد فؤاد عبد الباقي، توزيع دار الكتب العلمية، بيروت 1412هـ/1991م، ص370-371.

⁴. أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج2، كتاب الصلاة، باب أول مسجد وضع في الأرض، تح تق وتع: محي الدين ديب متو، يوسف علي بديوي، أحمد محمد السيد، محمود إبراهيم بزال، ط1، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1417هـ/1996م، ص117.

⁵. الإمام الحافظ مسلم، المصدر السابق، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم 520، ص370.

⁶. الإمام الحافظ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم 520، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ص402.

⁶. ابن منظور، لسان العرب، ج8، باب حرف العين، فصل الجيم، مادة جمع، دار صادر، بيروت، ص55.

الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ¹
وتكون عمارة المساجد ببنائها وإصلاحها وفرشها وإنارتها، وتطظيفها وتطهيرها من الدنس
فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "أمر رسول الله (ﷺ) ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف
وتطيب"².

وتجنب اللغو في الأقوال والأفعال التي لا تليق فيها³، وصونها من المجانين والصبيان
الذين لا يتحرزون من النجاسات، وعن الكافر، وأن تصان عن رفع الأصوات بغير ذكر الله
وكذا عمارتها بالصلاة والذكر والاعتكاف بها، مع الحرص على حضور الجماعات، وتعلم
وتعليم العلوم النافعة، وأعظمها تعلم القرآن وتعليمه⁴، وحمايتها من الزيغ والعناد، وصيانتها
من الضلال والفساد، حتى يكون بيتا خالصا لله، لا يدعى فيه إلا سواه⁵.

وقد حثّ النبي (ﷺ) على بناء المساجد ورغب في ذلك، وذكر ابن حجر رحمه الله أن
قوله (ﷺ): "من بنى مسجداً" وفيه العموم فيدخل فيه الكبير والصغير⁶، وفي رواية أنس
رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) أنه قال: "من بنى لله مسجداً صغيراً أو كبيراً بنى الله له بيتاً
في الجنة"⁷، وفي الصحيحين من حديث عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان رضي
الله عنه يقول عند قول الناس فيه، حين بنى مسجد النبي (ﷺ): "إنكم أكثرتم، وإنني سمعت
رسول الله (ﷺ) يقول: من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة"⁸

¹ سورة التوبة، الآية: 18.

² الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، مختصر سنن ابن داود، ج1، باب اتخاذ المساجد في الدور، تخ وض وتع

وترقيم: محمد صبحي حسن حلاق، ط1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض 1431هـ/2010م، ص 144.

³ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم (النور - يس)، تح: سامي بن محمد سلامة

ج6، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية 1460هـ/1999م، ص62.

⁴ الشيخ عبد الرحمان بن الناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج18، تفسير سورة النور، الآية:

36-38، تح: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحي، ط2، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض 1422هـ/2002م، ص666.

⁵ الرحالي فاروقي، "ابن يوسف والكتبيين"، عن مجلة دعوة الحق، ع1، س6، جمادي الأولى 1382هـ/أكتوبر 1962م

تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص 5.

⁶ الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج2، كتاب الصلاة،

باب من بني مسجد، تح وتع: عادل مرشد وسعيد اللحام، ط1، دار الرسالة العالمية، دمشق 1443هـ/2013م، ص371-

372.

⁷ الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، مجلد1، ط1، كتاب الصلاة، باب ما جاء في فضل بنيان

المسجد، حديث رقم 319، تح وتع: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م، ص352.

⁸ الشيخ الإمام العلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، ج4، باب من بنى

مسجداً، عني بنشره وتص وتع: مجموعة علماء، دار الفكر، ص 211.

وقال النووي: يكون معناه: "بنى له بيتا في الجنة" فضله عما سواه من بيوت الجنة، كفضل المسجد على بيوت الدنيا¹.

فتلك الآيات والأحاديث كانت تدور في عقل فاطمة الفهرية عندما كانت تبحث عن إقامة مشروع لها يفيد المسلمين، ويكون صدقة جارية لها، فعزمت على بناء جامع القرويين كبيت لله في الأرض، طامعة في بناء رب العباد لها بيتا في الجنة، وما أدراك ما بيوت وقصور الجنة التي لا تخطر على عقل ولا بال البشر، فكانت المساجد بيوت الله التي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض²، ولكثرة ما وجد من أحاديث وشروح قد يطول بنا هذا الباب ويتشعب وبهذا نكتفي لتبيان القصد لا غير، والإسلام يأمر المسلمين بإقامة المساجد، وأداء الصلاة فيها جماعة وجمعات، وتعليم كتاب الله الذي هو أصل الإيمان والهداية، وطريق الاستقامة وأساس المعرفة والعزة، لذا سعى الخلف جاهدين في تقفي أثر السلف الذين ساسوا أنفسهم بسياسته، وحكموا الدنيا بشريعته، حتى تقوم الحضارة على أصل أصيل³.

2. دور المسجد والجامع:

تعددت مهام المسجد في الإسلام فالإسلام فإلى جانب الصلاة، كان: نواة للتعليم والتعلم والأعمال الاجتماعية كالقضاء، عقد الاجتماعات العامة، استقبال الوفود وبعثها، الإعلان عن الأوامر والقرارات، وقد تمايزت بعض المساجد بتفضيلها من عند الله ورسوله (ﷺ) فأفضلها على الإطلاق المسجد الحرام بمكة المكرمة، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة ومسجد بيت المقدس بالقدس المحتلة، فقد اختصها الله بمضاعفة الأجر والثواب فيها بالعبادة والهجرة بشد الرحال لها للحج وطلب العلم⁴، غير أن المسجد الحرام والنبوي والأزهر وعمر بن العاص والزيتونة والقرويين وغيرها من مساجد بلاد الإسلام في الشرق والغرب ظلت منذ

¹ الزركشي، المصدر السابق، ص 37.

² الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج2، باب بناء المساجد، تحرير الحافظين:

العراقي وابن حجر، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، ص 7-10.

³ فاروقي، المقال السابق، ص 5.

⁴ نفسه، ص 5.

ظهور الإسلام تلك الأمكنة التي لا يفرق فيها بين العلم والعبادة في أذهان المسلمين وتواريخهم وتراجم رجال الإسلام العلماء والمتعبدين¹.

كان أول مركز لتعليم وتعلم المسلمين بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة في عهد رسول الله (ﷺ)، لتتوسع الدائرة إلى المساجد التي تأسست وانتشرت مع الإسلام، فكان الرسول الأكرم (ﷺ) يعلم أصحابه وهم يعلمون بعضهم على نفس النهج الذي رباهم عليه، لتنتشر هذه الطريقة في رحاب المساجد التي يؤمها الصغير والكبير، فأصبح المسجد مكان لكل طالب يبحث عن علم، ولكل عالم أراد أن يبيت علماً، فتصدر لذلك أفراد معروفون ومتفرغون له تلقوا بالمعلمين، يتحلق حولهم الطلبة في أوقات معينة من اليوم كما تميز التعليم في عهود الإسلام الأولى بنوع من الحرية، فلم يكن مقيد بوقت أو سن، ولا يركز على منهاج محدد إلا ما سنه المعلم لنفسه ولطلابه، وقليلاً ما كان يتدخل ذوي السلطان في توجيهه².

وقد نحا جامع القرويين منحى باقي المساجد، فكان راحة للساجدين، وملجأ للمستضعفين ومجلس للمشاورة، والدراسة، فيهذب ويؤلف، ويعرف ويثقف، والمركز الدائم للترغيب والترهيب والتوجيه، على لسان الخلفاء والخطباء، الذين ارتادوا المنابر، فأوضحوا ببيانهم الخواطر وأذن الله لعباده المؤمنين أن يتوجهوا إليه بالسكينة والوقار، ويرفعوه بذكر الليل والنهار³ فنشر تعاليم الإسلام وعرب به اللسان⁴، وهذا ما جسده جامع القرويين من خلال مسيرته.

كما ساهم في نشر الثقافة التربوية، في الفترة التي كان يمثل فيها نواة المدرسة الأولى التي تعد الفرد المسلم لبناء المجتمع الكبير، فتلقى بها التدريب الأول لتعلم القراءة والكتابة في سن الصبي، قصد تمهيده لتذوق الأدب، والتبحر في المواد العلمية المختلفة، وللمسجد أثر

¹ محمد الحمداوي، "من الحلقات المفقودة في تاريخ المساجد المغربية"، عن مجلة دعوة الحق، ع1، ص6، جمادي الأولى 1382هـ/ أكتوبر 1962م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص21.

² رضا الله إبراهيم الإلغي، "التعليم القرآني"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، ص11، شوال 1387هـ/ جانفي 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص57.

³ فاروقي، المقال السابق، ص5.

⁴ العمراني، المقال السابق، ص160.

قوي في بناء الشخصية الأخلاقية وفق تعاليم الإسلام، الذي تميز بها الفرد المسلم وأصبحت إحدى أبرز مظاهر شخصيته المجسدة في سلوكه، التي تشبع بها في المسجد، فالخطيب كل جمعة يلقي ويحث الناس على وجوب ربط الإيمان بالعمل، ومن يطلع على تاريخ التربية في الإسلام يجد المسجد المنارة التي حملت مشعل الثقافة جيلاً بعد جيل¹.

وللمسجد أثر فعال على نفسية وشعور المسلم، ويظهر حينما يستمع إلى الذكر الحكيم أو لخطبة الخطيب، فذلك الجو الجليل الذي لا يتوفر إلا في تلك اللحظات التي يلجأ إليها المؤمن ليؤدي شعائر الصلاة يوم الجمعة أو فيما عداه من الأيام، وإذا كانت المدرسة مصنع الأفكار والعقول فالمسجد مصنع الأرواح والنفوس أيضاً، يطيبها ويضمّد جراحها فيزيل عنها الصداً ويعيد لها شبابها وحيويتها، لذا فوظيفة المسجد عبر العصور هي إعداد الجيل المسلم وقد حافظ مسجد القرويين، الأزهر والزيتونة... على هذا التكوين².

¹. جمال بغدادي القادري، "الأثر النفسي للمسجد"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، ص6، رجب 1382هـ/ ديسمبر 1962م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م، ص 17.

². بغدادي القادري، المقال السابق، ص 17.

ثانيا. الكتاب أو المسيد:

إن النشاط العلمي الذي قامت به المؤسسات التعليمية ساهم ككل في تكوين ذلك الشخص أو الفرد ذي الميزات التي أراد الإسلام الحنيف أن يبنها في الإنسان، فقد تكاثفت جهود الكتاتيب والمدارس والمساجد من أجل ذلك، فأخذ كل طرف على عاتقه مسؤولية معينة في التكوين لذا نجد المغرب قد تقاسمته في هذه العملية ثلاثة هياكل تعليمية منها الكتاب.

1. تأسيسها:

قلنا سابقا أن المسجد كانت له عدة وظائف، ومنها التعليم، خاصة ما يتعلق بتعليم الصبية، وكثيرا ما يصاحب هؤلاء الضجة التي يقومون بها، وقصد اجتتابها وإبعاد كل ما من شأنه أن يمس بحرمة المسجد، قام المسلمون الأوائل باتخاذ أمكنة بجانب أو بجوار المسجد من أجل تعليم الصبية، فعرفت باسم الكتاب (المكتب) في المشرق والمسيد في المغرب.

واشتق الكتاب من التكتيب وتعليم الكتابة وتعليم القراءة، وهي المهمة المنوطة به، فهو أول مؤسسة تربوية للتعليم في الإسلام ومنطلق مراحل التعليم وظل المكان الرئيسي لتعليم الأطفال طوال القرون الأولى والأخيرة، بحفظ القرآن لأنه ركيزة هذه المرحلة ومفتاح للمراحل اللاحقة في الفهم والاستيعاب والتعبير¹، وأول كتاب كان بجوار المسجد النبوي بحيث كان يعلم فيه بعض الأسرى المتعلمين أطفال المسلمين مقابل عتقهم، وبمرور الزمن انتشرت لتعم سائر البقاع الإسلامية، ووصلت من السعة والعناية درجة عالية أشبه ما يكون بالمدارس النظامية².

ونجد أن بلاد المغرب قد عرفت نفس التطور بعد الفتح الإسلامي ولم يكن بمعزل عنها فرتب الولاة الفقهاء والقراء لتعليم الناشئة على تعاليم الدين والقرآن الكريم، وسهروا على حسن سيرها، وإذا تراخوا عدوا مهملين في دينهم، مما ساعد في انتشارها حيث يغدوا إليها الصبيان

¹. أحمد طه، المرجع السابق، ص 275-276.

². إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 58.

ويعودون منها¹، فكانت أول نقطة ينطلق منها التلميذ لطالب العلم واكتسابه، فقامت بالدور الأول في تعليم الأطفال التعليم الأولي.

حتى أصبح لتعليم الصبية في الكتاب ضوابط وشروط، ساهمت في ظهور المدرسة المغربية عامة والفاسية خاصة المتميزة عن المشرق والأندلس، وإن عدد ما تم تخريجه من العلماء بالقرويين لا يمكن حصرهم في صفحات، وهذا كله بمساهمة كل الجهات الفاعلة في عملية التعليم والتدريس ومنها الكتاب، فقد ساهمت مجهودات هؤلاء المعلمين الذين درسوا وتكونوا بمختلف المراكز العلمية الإسلامية، ببث ما حووه وووعوه للأجيال التي تلتهم، بمنحهم عصارة ما ملكوه واختبروه، وعرف المعلم بالمؤدب صاحب الكفاءة والمقدرة على التعليم².

وانتشرت الكتاتيب في شوارع فاس وأزقتها³، رغم تشكيك لوطورنو في ذلك بقلتها وفقر بعض أهلها⁴، فقد ضمت تلك الكتاتيب التي كانت في بعض الأحيان مختلطة من بنات وبنين وجمعت أبناء الأغنياء والفقراء، حيث يتم الفصل بين الجنسين بعد سن العاشرة، أو لكل منهما كتاب صرف، وكانت تسمى كتاتيب البنات في بعض المدن المغربية "بدار المعلمة" أو "دار الفقيهة" ويتعلمن التطريز والآداب⁵.

2. نشاطها:

كان التحاق الصبي بالكتاب مرتبط بوليه، فكان كل أب يتصرف حسب ما يري، ولكن على العموم فإن سن الخامسة أو بعدها يلتحق بصفوف التعليم، وقد انتقد بعض علماء التربية المسلمين كالعبدري تلك الفوضى في إلحاق الأطفال إلى الكتاتيب في سن دون السابعة واعتبروها أنها عادة لم يكن السلف يقومون بها، وإنما هذا الفعل من أجل تخلص الآباء من إزعاج أبنائهم، والسن التي يبقى فيها المتعلم تطول أو تقصر حسب نجابته

¹. أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب ج8، إخراج جماعة فقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1401هـ/1981م، ص 239-244.

². إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 59.

³. أحمد طه، المرجع السابق، ص 275-276.

⁴. لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص 769-770.

⁵. نفسه، ص 171.

واجتهاده وذكائه فقد تصل إلى العشرين وتقصّر ما دون العاشرة، لذا كان التبكير بالطفل لما له من ملكة في الحفظ ورسوخ المعلومات ومفاخرة¹، وليس كل يصل إلى الحذقة².

فيدفع الولي بابنه للكتاب مع الصبية الجدد في المولد النبوي المتزامن مع بداية السنة الدراسية بفاس في جو من الاحتفال³، حيث يتفق الأب مع المعلم على أجر معلوم يقدمه له عند الحذقة، فيعكف الصبيان في هذه المرحلة على استظهار كتاب الله حتى يحذقوا فيه من تجويد وتلاوة على أحسن وجه، مع أخذهم لمبادئ الدين وقواعد اللغة العربية، والكتابة⁴، فهذه المعرفة الأولية هي التي تمكنهم من الارتقاء إلى مستوى الطلاب.

وقد تحدث الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتابه وصف إفريقيا عن كيفية التعليم بفاس ذاكرة أنه توجد بفاس مائتا مدرسة لتعليم الأطفال، وهي عبارة عن قاعات واسعة داخلها محاطة لجلوس التلاميذ، والمعلم يعلم القراءة والكتابة على ألواح واسعة يكتب التلاميذ فيها جزءا من القرآن الكريم في كل يوم ويسيرون على ذلك فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاثة ويعيدون ختمه مرات عديدة حتى يحفظونه عن ظهر قلب، وأقصى ما يقضون في ذلك سبع سنين، ويتعلمون مع ذلك مبادئ الرسم والنحو⁵.

لذا ففي الكتاب يتعلم الصبي القراءة والكتابة مع تلقين ما تيسر من القرآن، وهذا الأمر اشتركت فيه جميع الكتاب شرقا وغربا، ويضاف إليه بعض المواد حسب مقدرة المعلمين وهمة الآباء، لإنماء ملكة أبنائهم وتقويم أخلاقهم وغرس الفضائل والطباع الأصيلة من

¹ إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 61.

² الحذقة: اصطلاح مغربي يراد به حفظ الولد للقرآن كله أو أجزائه، واعتمادا على حديث مالك المنسوب لرسول الله (ﷺ) أن المعلم إذا وصل بالصبي في التعليم عشر دينارا وأيضاً في التلقين باللوح، مع اختلاف العلماء فيها فمنهم من يرى أنها مقرونة بشرط معلوم، وآخرين يرون بالكتابة على اللوح فله ثمان دراهم وإذا انتهى إلى سورة مريم (النصف) فله اثني عشر دينار، وإذا ختم القرآن الكريم كله فله ستة ما تعارفت عليه البلاد أو جرى الحكم عليه بها، فهذه الجرايات من باب الحذقة للمعلم، وواجبة على المتعلم في تأديتها، تراعى فيها الحالة المادية لوالد الصبي فيؤخذ من الميسور قدره ومن المقتر قدره. (ينظر: أحمد بن أبي جمعة المغراوي، جامع جوامع الاختصار والتبيين فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان تح وتغ: أحمد جلولي البدوي ورايح بونار، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 13-19).

³ محمد المنوني، " المولد النبوي الشريف في المغرب المريني"، عن مجلة دعوة الحق، ع1، ص12، شعبان 1388هـ/ نوفمبر 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 121-122.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 238-241.

⁵ الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 261.

فصاحة ومروءة وعزة نفس، فيأخذ التلميذ من الكتاب: الكتابة والقراءة، الخط، القرآن الكريم الحديث الشريف، أركان الإيمان، قواعد الإسلام، الأخلاق الحميدة، الحساب الشعر اللغة الأخبار والقصص، أما أبناء الخلفاء والأمراء يضاف إليها الفروسية، الرماية، السباحة والخطابة، آداب المجالسة والمخالطة¹، لتهيئتهم للمستقبل.

3. منهج التعليم في الكتاب وطرقه:

ممن كتبوا على التعليم الأولي ببلاد المغرب مثل محمد بن عبد السلام بن سعيد بن حبيب المشهور بابن سحنون (ت256هـ/869م) صاحب "آداب المعلمين"، علي بن محمد القاسبي (ت403هـ/1012م) له "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"² وفي فتاوى الونشريسي صاحب المعيار³، وأحمد بن أبي جمعة المغراوي في كتابه جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان في نهاية القرن 9هـ/15م واشتمل على معلومات هامة حول التعليم المكتبي وأساليبه وواجبات المعلمين والمتعلمين في المجتمع المغربي⁴، ولكن هذا عندما كانت الدول تأخذ بنصائح علمائها العارفين لما يجب أن يكون عليه هذا الجانب المهم في بناء الفرد.

أ. **طرائق التعليم المكتبي:** يعتبر لوطورنو أن أساليب التربية في الكتاب بدائية في نظره ربما لتطورها في بلاده، كما يشكك في مصداقية أن يكون تعليماً أصلاً، جاعله وسيلة لتقوية الذاكرة فقط⁵، متناسياً دور الحفظ في ترسيخ المدارك والعلوم، التي كانت تلقن بعدة طرق منها ما كان يتدرج في التعليم حتى يتوافق مع سن المتعلم وطبعه، ويرجى ما يتعب عقله ويجهد، أي التدرج في التعليم بالانتقال من السهل إلى الأصعب عبر مراحل يتعلم فيها التلميذ أشياء جديدة تنمي ملكته وعقله، وهناك من يعكس العملية ينطلق من الصعب وقد

¹ إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 63.

² محمد بن مسعود الطرنباطي الفاسي، بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، تح: عبد الله رمضان ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط 1429هـ/2008م، ص 17.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص236-259.

⁴ أبي جمعة المغراوي، المصدر السابق، ص 20-50.

⁵ لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص 770.

عاب ابن خلدون هذه الطريقة الأخيرة محتجا أنهم يعلمون المتعلم غايات الفن قبل مبادئه وقد فضل ابن خلدون طريقة المغاربة في التلقين بأنهم بداية يكتفون بحفظ القرآن دون مشاركته مع الحديث أو الفقه أو الشعر أو الأدب، وبعدها يتم إدخال البقية بالتدرج عكس ما كان في الأندلس أو بتونس أو بالمشرق بحيث يخلطون ذلك¹.

ومن الأمور التي استعملها معلمو الكتاتيب العقوبة الجسدية لفرض الهدوء داخل الكتاب والضرب على يد المهملين لواجباتهم والمعاندين بنوع من الشدة، إلا أن هذه التصرفات ليست قاعدة قارة، ولكن العقوبة موجودة باستعمال العصا أو المجلدة على أطراف الأصابع أو أسفل القدمين ما يعرف بالفلكة².

وكان التأديب حسب الفعل فالهروب من المسجد بعشرة أسواط وعلى السب سبعة وعلى الحفظ ثلاثة، ومحل الضرب تحت القدم، ولا يتجاوز إلى البطن والظهر أو يضربه على مراقه (أسفل بطنه) أو مجمع عروق الذكورية فيفسد منه النسل أو يمنعه لقضاء حاجته ويفسد ما حوله من مثانة وعروق³، وفي التأديب هنالك عدة مقولات "من أدب ولده صغيرا قرت عينه به كبيرا" وقال الشاعر (البحر البسيط):

لا تحزننَّ على الصبيانِ إنْ ضُرِبُوا *** فالضرب يبرا ويبقى العلمُ والأدبُ

الضربُ ينفعُهُم والعلمُ يرفعُهُم *** لولا المخافة ما قرؤوا وما كتبوا

لولا المُعلِّمُ كان الناسُ كلُّهُم *** شبه البهائم لا علمٌ ولا أدبُ

وقال آخر (البسيط): علم بنيك صغارا قبل كبرتهم *** إذ ليس ينفع بعد الكبرة الأدب

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت *** ولن تلين إذا قومتها الخشب

وهذا التأديب مع الزجر يكسب الطالب ثبوتا فيما يريد أن يقوله من بحث أو نقل⁴.

¹ إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 63.

² الونشريسي، المصدر السابق، ج 8، ص 250.

³ أبي جمعة المغراوي، المصدر السابق، ص 40.

⁴ نفسه، ص 41.

كما تعرض علماء التربية المسلمون لهذا النوع من العقاب القاسي واستنكروه كابن سينا الغزالي، العبدري وابن خلدون مفضلين طريقة اللين في التأديب، وفي حالة استعمال الشدة فإن العقوبة في حد ذاتها تكون تربية مثل معاقبته كمنعه من اللعب، زجره وحده، وحتى تشجيعه إن أصاب بإكرامه أمام زملائه، وبهذا تكون التربية الصحيحة، كما نصحوا بأهمية لعب الأطفال خلال فترات من أجل إعادة النشاط فكل من الغزالي والعبدري ناديا إلى ذلك¹.

وقال العبدري في هذا الصدد حول أهمية لعب الأطفال وعدم إرهابهم بكثرة العلوم فيقول: "وينبغي أن يؤذن له (الصبي) بعد الفراغ من الكتب أن يلعب لعبا جميلا يسترىح إليه من تعب الأدب، بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعليم دائما يميمت قلبه، ويبطل فكره وذكائه، ويبغض إليه ذلك، وينقص عيشه حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا"².

ب. معلم الكتاب: كان معلمو هذه الكتابات يحضون باحترام زائد في أوساط مجتمعهم وخاصة عند تلامذتهم الذين يبجلونهم كثيرا، فكان المعلم يحرص بنفسه على بقاء هذه الصورة، حتى تطبع على تلامذته، من أخلاق وسلوكيات ومعاملات باعتباره قدوتهم، كما كانوا يطيعونه مثل آبائهم أو أكثر، ومن جهة أخرى فعلى المعلم أن يعطف عليهم كأنهم أبناءه الذين هم من صلبه، فتكون تربيتهم وتعليمهم لوجه الله خالصة³، ويظهر ذلك الاحترام والتبجيل في تلك الكتابات من التراجم التي يتواضع فيها صاحب التأليف لمن علموه أو أخذ عنهم أمور دينه ودنياه.

وقد نقل لنا أبو جمعة المغراوي الرسالة التي تضمنت نصائح قدمها ابن حبيب لمعلم ابنه وفيها شروط المعلم وما يحتاجه المتعلم فقال فيها: "بسم الله، أما بعد: فلتكن أول مؤدب نفسك

¹. الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 250-251.

². محمد المنوني، "لمحات عن سير الرياضة البدنية في التعليم المغربي القديم"، عن مجلة دعوة الحق، ع5-6، ص15، ذو الحجة 1392هـ/ جانفي 1973م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1973، ص 139.

³. أبي جمعة المغراوي، المصدر السابق، ص 64.

فإن عيني معلقة بهم وأعينهم معلقة بك، فالحسن عندهم ما استحسنته، والقبح عندهم ما استقبحته، وعلمهم كتاب الله ولا تكرهم عليه فيملوه، ولا تخرجهم من فن إلى فن حتى يحكموه، فإن ازدحام العلوم مقللة للفهوم، وعلمهم من الشعر عفه ومن الحديث أشرفه، وكن لهم كالطبيب الذي لا يضع الدواء إلا في موضع الداء، وهددهم واضربهم دوني يزدادوا بذلك صلاحا والسلام¹. صدقا لنعم الرسالة وأكمل النصيحة وما أحوجنا إليها في عصرنا اليوم.

ويأخذ المعلمون أجورهم من عدد الصبيان الذين يعلمونهم الحذقة والتي يتفق عليها والي الصبي مع معلم الكتاب في قيمتها وطريقة دفعها سواء بالمشاهرة (أجرة شهرية) أو على أجرة شهور معينة، أو بالمساناة (كل سنة) أو المقاطعة بالاتفاق على مقدار معين من القرآن كالربع، النصف، أو الجميع لوقت معلوم².

وهذا ما أوجد جدلية حول الأجر أو الراتب الذي يتقاضاه المعلم، فهناك من أجازته على المواد غير الدينية مثل الغزالي في حين منعها كثير من العلماء، ورفضوا قبول الهدايا والصلوات التي يتطوع بها الآباء عند العطلة الأسبوعية أو بمناسبة الأعياد أو حفلات الختم...، ويذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أن بعض الأمراء عندما أحدثوا المدارس النظامية وفرضوا الأجور للمعلمين أنكر بعض العلماء ذلك وأقاموا مأتما وقالوا: "كان أرباب الهمم يشتغلون بالعلم لشرفه، ثم تشوف إليه الأخساء" وأصبح حرفة³.

وكل هذا التشدد لخوفهم على الدين من أن تدخله الماديات، كما أفتى بخلافهم الكثير من الفقهاء، إذ قبول الأجر في هذا الشأن لا يتعارض بالضرورة مع مرضاة الله، ولا مع الإخلاص في أداء الواجب الديني، فحتى هذا المعلم مهما كان فهو محتاج إلى ما يسد حاجياته وعياله، فيصون هذا الأجر الثابت نفسه بدل الخروج من خير البقاع والدخول في شر الأسواق، مع العلم أن مصدر المال هو من مؤسسة بيت المال أو الأوقاف، وعلى هذا

¹. أبي جمعة المغراوي، المصدر السابق، ص 39-40.

². الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص 240.

³. مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، تص: محمد شرف الدين يالتقيا ورفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1360/1941م، ص 22.

كثرت الأوقاف في الاسم على أمكنة التعليم سواء مساجد، كتاتيب أو مدارس، يوزع ريعها على المعلمين والمتعلمين والقائمين عليها، وإذا لم تكف تؤخذ بقية النفقات من بيت المال¹.
ج. مكافأة التلاميذ: من الأمور التي ترغب التلاميذ في العلم، تشجيعهم بجوائز أدبية ومادية، وهذه الأخيرة التي كانت منتشرة بالكتاتيب والمدارس وهي من حصيلة الأوقاف وتوزع على من حفظ أو ختم أو أحسن علما، حسب شرط المحبس، كما أن هناك جوائز سلطانية لنجباء التلاميذ وأخرى من أصحاب البر والخير².

ومما شاع من مظاهر الاحتفال أثناء ختمة كتاب الله للصبي، أن يركب المحتفل به على جواد رفيع³ أو يحمل على أكتاف زملائه وهو بأحلى حلة ويحيط به أقرانه ويسير الموكب في أزقة وسط الزغاريد والتهاليل وتنتشر عليه الأزهار وأحيانا الدراهم، إلى جانب الختمة المعروفة بفاس باسم "حبيبنا"، وهي حفلة يدعى إليها المعلم والتلاميذ والأصدقاء والأهل وتقدم لهم الأطعمة والمشروبات تحت وقع الموسيقى، والولد في وسط الدار وبين يديه لوحته مزخرفة ويتلقى الهدايا والتهاني⁴، وكل هذا تشجيعا للصبية الآخرين على حذو منهج المحتفل به هذا من جهة، وترغيب الصبي في العلم من جهة أخرى.

¹. الونشريسي، المصدر السابق، ج8، ص236.

². إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 65-66.

³. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 261.

⁴. لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص 770.

ثالثاً. المدارس العلمية:

1. نشأتها:

إلى جانب الكتاب أسست مراكز للتعليم تعرف بالمدارس، فإذا كان سبب إقامة الكتاب هو لإبعاد لغط الصبيان فإن المدارس أقيمت لنفس السبب تقريبا ولكن بالنسبة لضجيج الكبار هنا، باعتبار أن هؤلاء الصبية في مراحل تعليمهم بعد الكتاب يلتحقون بحلقات الدروس التي تعقد برحاب المساجد، وكانت أصوات الأفواج تتردد في جنبات المساجد مع أصوات المقرئين والعلماء المحاضرين، في أوقات وأمكنة متقاربة، فتحدث ضجة تتنافى ووقار المسجد فاستحدثت المدارس خارج المساجد فانتقل إليها العلماء مع طلابهم، خاصة الذين يهتمون بدراسة مواد معينة على أسلوب مغاير مثل استعمال الأدوات في التعليم، أو الحوار والإنشاد التجارب...، كما زودت هذه المدارس بأقسام داخلية لإيواء الطلبة وأحيانا لسكنى الأساتذة وغير ذلك من المرافق اللازمة لتعداد الطلبة¹.

أ. المدارس في الإسلام: كان ظهور المدارس في العالم الإسلامي في ق 5/11م بداية بمدرسة بغداد على يد الوزير قزام الدين نظام الملك الطوسي الحسن بن علي (ت 480هـ/1087م) وكان وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي لمدة عشر سنوات، ثم وزر لابنه ملكشاه عشرين سنة، وكان محبا للفقهاء والصوفية مكرما لهم مؤثرا، والتي عرفت بالمدرسة النظامية التي شرع فيها سنة 457هـ/1065م وانتهت في 459هـ/1067م، وبنى مدرسة بنيسابور تسمى النظامية ووضع عليها مدرسين²، واقتفى أثره الملوك والأمراء فانتشرت شرقا وغربا، كما تنافسوا في عمارتها وتوقيف الأملاك عليها.

أسس يوسف بن تاشفين مدرسة الصابرين بفاس في نفس القرن، والموحدون أسسوا مدارس نموذجية لتدريس العلوم الضرورية قصد تسيير شؤون الدولة، كمدرسة تعليم فن الملاحة بالرباط، والمدرسة الإدارية بمراكش لتخريج الموظفين من طرف عبد المومن، أما

¹. إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 59.

². الزركشي، المصدر السابق، ص 31-32.

المرينيين فاهتموا بتأسيس العديد من المدارس العلمية التي لا تزال قائمة خاصة بفاس كالسلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الذي بنى العديد منها وأوقف عليها الأملاك وأجرى الجرايات على الطلبة والمعلمين، واقتفى من جاء بعده بأثره فكثرت المدارس وعمرها بالكراسي العلمية ومولوها بالأوقاف¹، خصوصا بجوار جامع القرويين والتي لا تزال شاخصة حتى اليوم.

وكان تخطيط المدرسة في الغالب يشبه تخطيط المساجد بحيث تتوفر على أمكنة العبادة والطهارة، وتزيد باستعدادها الكامل للدراسات المستمرة وإيواء الطلبة المنقطعين لطلب العلم واتسمت بنمط عمرانها المتميز كالمغرب الذي طغى فيه الطراز الأندلسي المغربي وبزخارفها المنمقة المتناسقة في استهواء الطلبة كالمدرسة المصباحية والعنانية بفاس².

ب. دورها في التربية والتعليم: في حين شاع تلقين القرآن سماعا بالمشرق فإن بالمغرب والأندلس شاعت عادة تعلم الكتابة والقراءة في الألواح الخشبية لتمحي ثم تكتب من جديد وكتابة حصة من القرآن على اللوح فإذا حفظت محيت وكتبت أخرى، وهذا رأى فيه المشاركة طريقة منافية لحرمة القرآن، وما زالت هذه الطريقة قائمة في بلاد المغرب، وكان عنصر الحفظ من أهم شروط تعلم المسلمين الأوائل الذين عرفوا بغزارة الحفظ وقوة الذاكرة³.

وهناك من رأى في إنشاء تلك المدارس وبالا على العلم لأنه سيحوّله من مهمة جليلة إلى مجرد توظيف أشخاص مقابل راتب من السلطة الحاكمة كما أورده حاجي خليفة في كشف الظنون⁴، وساند هذا الموقف محمد الأبلبي العبدري أستاذ ابن خلدون ضد بناء المدارس، ولاحظ أن العلم أذهب به بناء المدارس⁵ وأيده تلميذه في ذلك معتبرا الحركة الفكرية أو العلمية بقيام الدول والعمران، مما جعله يحكم على فترته أن العلم فيها كاد ينقطع عن أهل المغرب

¹. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, 220-225.

². Champion, Op.cit, P40-41.

³. إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 64.

⁴. حاجي خليفة، المصدر السابق، مج 1، ص 22.

⁵. محمد السايح، " الفكر المغربي في عصر بني مرين"، عن مجلة دعوة الحق، ع 8-9، ص 6، ذو الحجة-محرم 1383هـ / ماي-جوان 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م، ص 35.

باختلال عمرانه وتناقص دوله، ضاربا المثل بالقيروان وقرطبة حاضرتي المغرب والأندلس بالعلوم والصنائع والأسواق العامرة الزاخرة صاحبتا الحضارة، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا¹.

وسيناصرهم فيما بعد حسن الوزان الذي تحدث عن التعليم الثانوي في المدارس حيث يمكث الطلبة الأفاقون، الذين أصبحوا يعتاشون مما يتصدق عليهم به أهل البلد أو أهل نواحيها في حين كانوا من قبل ذلك يقيمون سبعة أعوام سكنى، أكلا وكسوة وأجرا ولكن حروب أبي سعيد عثمان بن أبي العباس آخر ملوك بني مرين وولده عبد الحق أتت على مداخيل المدارس بينما كان الطلبة في عهد أبي عثمان من أعز الناس وأكثرهم عددا ورزقا، ويضيف أحمد بابا السودانى في نهاية ق 10هـ/16م صورة عن وضع التعليم الذي ذكره أنه أصبح يتعاطاه على الكراسي من لا يحسن العلم، حيث صار ذلك بالتوارث وأيده أحمد المقرئ².

ويكاد توقيت الدراسة لم يتغير مع مرور الوقت في العالم الإسلامي، فهي تنطلق مع الشروق إلى الغروب أو لصلاة العشاء، ويتخللها استراحة الزوال المقدرة بساعة ونصف، مع منح عطلة أسبوعية من ظهر يوم الخميس ويوم الجمعة، وتذكر بعض المصادر أن من سن هذه العطلة هو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد منحهم الخميس والجمعة³ والبعض يرجعها إلى أواخر المائة الهجرية الثامنة، حتى قيل في هذا اليوم:

يوم الخميس يوم بشر وفرح *** وحاجة تقضى ونيل وفرح⁴

أما العطلة السنوية فلم تكن موجودة في البداية وإنما فقط الأعياد الثلاثة الدينية: نحو عشرة أيام في كل عيد، فسميت بالعواشر بالاصطلاح المغاربي⁵.

¹ عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1424هـ/2004م، ص413.

² السايح، المقال السابق، ص 35.

³ بنسودة، المقال السابق، ص 114.

⁴ المنوني، "لمحات عن سير الرياضة..."، المقال السابق، ص 141.

⁵ إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 61.

2. المدارس وتطورها بالمغرب الأقصى:

منذ أن وطأ الإسلام أرض المغرب ككل فقد جعلت المساجد منابر لتعليم المسلمين الدين وما يتعلق به من شعائر، إلا أنه بتطور الأمور والمعطيات مع كثرة التأليف وما كان يصل المغرب من المشرق من تأثيرات عقائدية وحضارية انعكست عليه، ومنها إنشاء المدارس. أنشئت أولى المدارس بفاس في عهد المرابطي بعد ثلاثة أعوام من ظهور المدرسة النظامية، وهي مدرسة الصابرين للمتونة التي بناها يوسف بن تاشفين أثناء دخوله فاس (462هـ/1096م) وقامت بمهمتها من إيواء الطلبة وتعليمهم طيلة أيام الحكم المرابطي، فلما تغلب الموحدون على المدينة (540هـ/1145م) فقد قاوم طلبتها الموحدين واعتصموا بها ولا تزال أطلالها شاخصة لليوم تقريبا من حومة الكغاطين وكانت ملاذا للوافدين عليها للالتزام بها على نفقة الأحباس، وهناك من يقول أن المدرسة اليوم هي مكان ما يعرف بروضة سيدي أبي مدين¹.

في العهد الموحي ازدهرت المعارف بما أنشأوه من معاهد ومدارس خاصة بسلا، مراكش سجلماسة، أغمات، سبتة، طنجة...، كما اتخذوا جامع القرويين مكان لنشر أفكارهم ومذهبهم، وقد أشار الأنيس المطرب إليها وذكر المراكشي صاحب الأعلام استدعاء الإمام ابن رشد إلى مراكش سنة 548هـ/1153م للاستعانة به على ترتيب تلك المدارس، وقد برهن المرابطون والموحدون ومن بعدهم على رغبة التفتح على الحضارة، ولا يدعون أي فرصة دون الاستفادة منها لرفع مستوى البلاد، ومن المراكز الفاسية التي كانت بمثابة مدارس مؤهلة للالتحاق بالقرويين، منها مسجد الأندلس، الأشياخ، الشرفاء، ابن محسود، الطالعة، زقاق الماء، الحوراء...، وتلك الفروع كان لها إمام مشرف وحتى مزودة بكراسي علمية وكذا رفوف من عشرات المجلدات، فكثر بذلك مراكز العلم بفاس²، وكانت العادة المتبعة أن لا ينتصب

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 122.
². نفسه، ص123.

للتدريس بالقرويين إلا من انتهت إليه مهارة الكفاءة والكفاية في العلم والسلوك، تلك الكفاية التي تذاغ من خلال الدروس في تلك الفروع¹.

في هذا الباب حتى النساء لم تهملن فقد جعل لهن مكانا لتزود بالعلم والأحكام والسماع إلى شيوخ العلم، فبعد أن أسس الموحدون المستودع بالركن الشمالي الشرقي، بنو عليه رواقا جعل له مدخلا خاصا به للنساء على مقربة من باب الخصة، ويدخلن منه لبعض المجالس العلمية لبعض النساء².

كما أدرج عبد المومن الموحدي الرياضة البدنية ضمن المواد الدراسية³، وقد ذكرها صاحب كتاب "الحلل الموشية"، أثناء حديثه عن تربية عبد المومن لصغار الطلبة الذين يسمون بالحفاظ، ويقول في هذا: "... وكان يدخلهم في كل يوم جمعة بعد الصلاة في داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة واحدة من المصامدة وغيرهم، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريده، فيأخذهم يوما بتعلم الركوب، ويوما بالرمي بالقوس، ويوما بالعوام في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة... ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة، فتأدبوا بهذه الآداب، تارة بالعطاء وتارة بالأدب⁴."

ليساهم بنو مرين بدورهم وبصورة لافتة في ببناء المدارس الداخلية، مع توقيف الرباع والضياح عليها، فكانوا دولة العلم الذي أطلقه عليهم بعض المؤرخين، وتوازي مع فترة ازدهار سياسي وعمراني وحضاري، لهذه الدولة ما بين السلطان عبد الحق المريني المؤسس وأبي عنان فارس كآخر سلاطين هذه الفترة الزاهية، وهم ستة ملوك انتشر في عهدهم بناء المدارس كسابقة لم تشهد مثلها فاس، فكانوا عصر بناء المدارس التي حملت أسماءهم⁵.

¹. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص224.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص320.

³. المنوني، "لمحات عن سير الرياضة..."، المقال السابق، ص139.

⁴. مؤلف مجهول، كتب الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تج: د.سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م، ص150.

⁵. Champion, Op.cit, P39-40

وهذا أيضا لاستضافة أكبر قدر من طلبة العلم ومن سائر الجهات لأن مدارس الموحدين لم تكن صالحة لنشر مبادئ الدولة المرينية الجديدة، وكان يحق للطلبة الإيواء متى برهنوا على ذلك، بما يحصلون عليه من معارف ومبادئ ضرورية في مختلف العلوم والفنون، وفي بعض الأحيان بسبب الأزمات والظروف كان الطلبة يحصلون على البيت بالشراء وكانت أموال الأوقاف ينعم بها الطلبة والأساتذة وأعوان المدارس، فتم تأسيس مدرسة الحلفاويين¹ (670هـ/1271م) ومدرسة دار المخزن² مدرسة الصهريج³ السبعين⁴ الوادي⁵ كلها في سنة 721هـ/1321م، والطارين⁶ (723هـ/1323م) المصباحية⁷ (745هـ/1344م) العنانية⁸ (755هـ/1354م)⁹.

فتعددت المدارس وزاد عددها وكان لكل مدرسة أستاذان يراجعان مع التلاميذ حتى اعتبر (باديا ليليش) المعروف بعلي باي العباسي فاسا بمثابة أثينا إفريقيا، ووافقه في ذلك

¹ **المدرسة الحلفاوية:** هي أولى مدرسة أسسها المرينيون بناها أبو يوسف يعقوب وعرفت باسم مدرسة الحلفاويين وحملت اسم المدرسة اليعقوبية واليوم تعرف بمدرسة الصفارين، ويتم الولوج إليها عن طريق أسطون ينفذ إلى صحن مستطيل الشكل في وسطه صهريج مربع أحاطت به بيوت الطلبة، احتوت على قاعة التدريس والعبادة ذات شكل مربع وبها محراب مع خلوة كانت مسكنا للإمام محمد بن سليمان الجزولي وهي مدرسة بها صومعة صغيرة وكذلك مدرسة دار المخزن ومدرسة أبي عنان، غير أن دخان سوق الصفارين غير من ملامحها وألوانها واحتوت على خزانة علمية مهمة كما خصص لها أوقاف كثيرة لسد حاجياتها ومتطلبات نفقة طلابها ومجالسها العلمية. (ينظر: التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق مج2، ص 357).

² **مدرسة دار المخزن:** وسميت بمدرسة فاس الجديد، من بين أجمل مدارس ق14م للعاصمة المرينية، أسسها السلطان أبي سعيد المريني في 721هـ، لتتحول في 1844م لمدرسة المهندسين على عهد السلطان العلوي عبد الرحمن بن هشام، وأوقف عليها الرباع والغلال. (Voir : Alfred Bel, Inscriptions arabes de fès, Extrait du journal asiatique (1917-1919), Imprimerie National, Paris, P90-91.)

³ **مدرسة الصهريج:** عرفت بالمدرسة الكبرى، بنت في عهد السلطان أبو سعيد ما بين 721هـ و723هـ، شرق جامع الأندلس، وجاءت في غاية الحسن والجمال. (Voir : Bel, Op.cit, P117-119)

⁴ **مدرسة السبعين:** عرفت باسم المدرسة الصغرى، بناها الأمير أبو الحسن ولي عهد السلطان أبي سعيد المريني ما بين 721هـ-723هـ، وأوقف عليها العقارات، لتسييرها وأمور الطلبة. (Voir : Bel, Op.cit, P124.)

⁵ **مدرسة الوادي:** أنشأها أبو سعيد المريني عام 721هـ، وجدها سليمان العلوي. (ينظر: السايح، المقال السابق، ص 37).

⁶ **المدرسة الطارين:** شيدها السلطان أبو سعيد في 723هـ/1323م، بمنطقة القرويين وسميت على سوق الطارين المقابل لها، فضمنها روائع الفن البديع في الخطوط والنقوش وتركيب الأقواس وتمت بعد سنتين، وشحنها بالموظفين والطلبة والأساتذة، وأوقف عليها عدة أملاك. (ينظر: التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 358-359).

⁷ **المدرسة المصباحية (745هـ):** شيدها السلطان أبو الحسن على بعد خطوات من القرويين سنة 747هـ/1346م، وسميت على أول أستاذتها أبا الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتي (750هـ)، كما سميت بمدرسة الرخام، لاحتوائها على بيلة من المرمر الأبيض في وسط فنائها، المجلوبة من المرية بالأندلس حيث هي الآن ومدخلها يقابل المسمى باب الخصة شمالي القرويين. (Voir : Maclair et Bouchor, Op.cit,P51-53.)

⁸ **المدرسة العنانية:** أنشأها السلطان أبا عنان فعرفت باسمه في سوق القصر الحامل اليوم اسم الطالعة الكبرى، فقد كان تحفة فنية رائعة الجمال والإبداع، وفاقت بتجهيزاتها ما كان بالمدارس الأخرى، بها ساعة مائية منصوبة أمام باب المدرسة بدأ بناؤها في 751هـ/1350م. (Voir : Maclair et Bouchor, Op.cit,P51-53.)

⁹ Champion, Op.cit, P40-45.

الدكتور رينو في كتابه الطب القديم بالمغرب، وأصبحت القرويين ملتقى الأجانب من مختلف الجنسيات كما قال ذلك دوكامبو، وفي حين اعتبر كابريال شارمس في كتاب سفارة إلى المغرب: "أن مدارس فاس كانت طوال مدة مديدة أولى مدارس العالم ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة الغربية التي شاع نورها في اسبانيا فأضاء جوانب أوربا وشجعت الحركة التعليمية تشجيعاً منقطع النظير"¹.

وهناك من يرجع تأسيس تلك المدارس إلى تخفيف المعارضة التي كان يأويها جامع القرويين ضد المرينيين، ويظهر ذلك من خلال موقف علماء فاس بالخصوص عندما انطلق المشروع المدرسي لم يلق ترحيباً كبيراً من جل الفقهاء وأئمة القرويين، كعدم استقبال الفقيه أبي إسحاق بن مطهر الورياغلي للسلطان أبي يوسف يعقوب كتعبير عن الرفض لهذا المشروع المدرسي الجديد، كما أن الفقهاء لم يساهموا في الإشراف أو تدشين ذلك المشروع حتى أنه أوكل بناء المدرسة اليعقوبية للفقيه أبي أمية الدلائي أحد فقهاء المرية، وهدف من وراء هذا المشروع إلى إنشاء نخبة جديدة من الفقهاء، يأخذون على عاتقهم مهمة الدفاع الشرعي عن هذه السلطة، التي لم تحظ بالتركية من طرف بعض الفقهاء القرويين، وتفرقة قوة المعارضة وإفراغها عن طريق تقسيمها على تلك المدارس الجديدة²، ومهما يكن من رأي حول سبب إيجاد هذه المدارس فإن في مرحلة الدراسة أصبحت أهم المراكز العلمية أو الملاحق العلمية التابعة لجامع القرويين باستقبال الطلبة الوافدين والأفاقين عليها، ووضعوا لها شروطاً لانضمام مرتاديه من طلبة وأساتذة، لأنها كانت مرافق للتدريس والإيواء، لتتعداها إلى مدرسة مسجد جامع³ وحي للطلبة.

ونلاحظ حتى تموضع تلك المدارس كان له أهميته فمدرسة الحلفاويين والعطارين والمصباحية تحيط بالقرويين مباشرة والباقية وزعت على بعض فروعها بمدينة فاس، فتم تشييد بجوار جامع الأندلس ثلاث مدارس: الصهريج، السبعين، الوادي وشيدت أخرى بفاس

¹. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 56-64.

². نشاط، المقال السابق، ص 30.

³. Champion, Op.cit, P40-41.

الجديدة بمقربة من قصور بني مرين وهي مدرسة السلطان أبي سعيد ومدرسة السلطان أبي عنان وسط الطريق الرابط بين فاس العتيقة والجديدة، وكانت هذه المدارس كملاحق لجامع القرويين، لتسيير مهام الطلبة، من إقامة وإلقاء للدروس مع استذكارها، وإقامة بعض التجارب، فكان توزيعها الجغرافي منسجم مع وظيفة المدرسة المرينية، وتحقيقاً لأهدافها¹.

كما احتوت هذه المدارس على قاعات مزودة بخزائن تضم عشرات المخطوطات، ولكل مدرسة قيم أو مقدم يتعهد مع أعوانه على شؤون المدرسة من تنظيم، إنارة، توزيع المؤن على الطلبة ومراقبتهم، ومقدم يتبع إدارياً لشيخ القرويين، وغالباً ما يتم اختياره من الطلبة بعد مصادقة قاضي المدينة على ذلك²، وكان الطلبة المقيمون في إحدى المدارس الأربعة عشر يتقاضون خبزة في اليوم وجرت العادة أن يشتري الطالب غرفته في المدرسة وله الحق أن يبيع المفتاح عند انتهاء مدة الدراسة³، كما قام الوطاسيون ببناء مدرسة بجامع باب عجيسة شمالي القرويين، فكانت تلك المدارس كأحياء جامعية⁴.

لقد عمل المرابطون على نشر أفكارهم من خلال مدارسهم ونفس الشيء عند الموحدين في نشر عقيدتهم ومذهبهم الظاهري، فلم يحد المرينيون على ذلك فقد عملوا على إحياء المذهب المالكي المضطهد من سابقهم، من خلال تأسيس المدارس، وأشرفوا على التعليم حسب توجههم الفقهي، وشجعوا الطلبة على الإقامة بعاصمة فاس ليرتو من معين مذهبهم وزادوا في تمكينهم للقرويين فسارعوا للاحتفاظ بما تبقى من تراث الأندلس الذهبي في محافظتهم على معالم الطراز الأندلسي، من خلال تأنيق زخارفه وإيواء خزائنها⁵، فنقلوا الكتب منها إلى المغرب، ويروى أن ثلاثة عشر حملاً من نفائس المخطوطات نقلت إلى فاس⁶ كما آوت الكتب آوت العلماء الواردين على المغرب، ومنهم: ابن الخطيب، وابن خلدون

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج4، ص 193-199.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 357.

³. السايح، المقال السابق، ص 36.

⁴. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 72.

⁵. Champion, Op.cit, P41-47.

⁶. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 363.

وغيرهما من فطاحل الفكر في بلاد المغرب الذين سعوا إلى تحصين الثقافة في الجناح الغربي للعالم الإسلامي¹.

فالمدرسة في عهد بني مرين في ق8هـ/14م مبان متنوعة الأهداف، فحققت أكثر من غرض فهي مركز للتعليم وتكوين الأطر اللازمة للدولة تماشياً مع توجهها، وكمرق اجتماعي من مأوى للطلبة، أو بصفة عامة هي إطار للحياة الدينية والمدنية الكاملة²، تابعة بدورها لجامع القرويين.

¹ السايح، المقال السابق، ص 35.
² عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج4، ص 200-207.

الفصل الرابع: التعليم العالي بالقرويين حتى القرن 10هـ/16م

تمهيد:

بعد التعرف على جامع القرويين من تأسيس وتوسيع وزيادات ومرافق زادت في أبهته والأدوار التي وجدت لها المساجد في العالم الإسلامي ومنه المغربي، والتي منها التعليم والتكوين، لذا أفردنا هنا فصلا خاصا بالجانب التعليمي للقرويين قبل فترة الدراسة حتى تكون كإجلاء لما سبق ورابط لما يلحق، بالوقوف عند الأسئلة التالية: متى نشأت جامعة القرويين؟ ومتى حصلت على شخصيتها العلمية؟ وكيف كانت أجواء الدراسة بها من علم وتعليم؟

أولا. نشأة جامعة القرويين:

1. نشأتها:

ربما يطرح السؤال هل هذا الصرح جامع أم جامعة؟. رغم عدم وجود تاريخ يضبط الدرس بجامعة فاس فلا روض القرطاس ولا جَنَى زهرة الآس يجيبان على هذا السؤال، لذا فتح باب التخمين ويرجعها البعض مثل لوطورنو إلى بداية السعديين بسبب التوسعة في الخزانة على عهد السلطان أحمد المنصور أواخر القرن 16م¹، وهذا ليحرمها من السبق الحضاري في تكوين الجامعات والكليات العالمية، وللإجابة عنه يجب توضيح ما يلي:

أولاً: أن تأسيس مدينة فاس من طرف الأدارسة لم يكن برسم أن تكون معبرا أو متجرا أو مصنعا ولكن لتكون مكانا يعبد فيه الله سبحانه وتعالى ومنازة للعلم تشع بأنوارها على الباقي لذا فدعاء بانيها حقق لها أول شرط جعلها دار علم وفقه²، فوضع القيروانيون الحجر الأساسي لذلك ببناء جامع القرويين بفاس في عام 245هـ/859م، ليكون جامعة لم يتوقف

¹. روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب، بيروت 1996م، ص 654.
². ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص 36.

نشاطها حتى في حالة الترميم والبناء، وحتى أثناء تحول العاصمة لمراكش في 462هـ/ 1034م بالعهد المرابطي ظل القرويين مركز إشعاع علمي¹.

ويذهب الكتاني أن القرويين أسست جامع وجامعة منذ أن بني لليوم، لاجتماع الناس فيه لصلاة الجامعة والجمعة، كما قدم خطبا ودروسا عامة للجميع، مع محاضرات علمية يحضرها الرجال والنساء وحتى الأطفال، ولا يختار لها إلا كبار العلماء وبلغاء الخطباء لتربية الناس وتهذيبهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم².

ثانيا: إنشاء المساجد وبنائها اقتداء بخير البرية سيدنا محمد رسول الله (ﷺ)، ببنائه مسجد المدينة المنورة، ومن جاء بعده وحذا حذوه فيها في البلاد التي وطأ الإسلام فيها قدمه، كعمر بن العاص بجامع عمرو بمصر وعقبة بن نافع بمسجد القيروان بعده الزيتونة عام 116هـ/734م³، وجامع الأموي بدمشق والأدارسة بفاس وبناء القرويين والفاطميين بمصر القاهرة والأزهر الشريف عام 359هـ/969م...، حتى أصبحت من العمران المتزايد الذي قام بنشر مبادئ الدين الإسلامي حيثما حل وانتحل⁴.

ثالثا: جعلت المساجد كما عرفنا سابقا كأماكن لأداء العبادة، ومنطلقا للتعليم، فإن القرويين لم يشذ على هذه العملية فاتخذ مسجدا لإقامة الصلوات ومركزا للتعليم والتثقيف⁵، وأيضا مكانا لمناقشة الشؤون السياسية ومحاكم لتثبيت الحقوق، لذا فالعلماء الأوائل للقرويين أقاموا حلقات العلم والتعليم، وقدموا العلماء الوافدين من المشرق والقيروان والأندلس نشطوه وأثروه فقد كانت حلقات العلم ومجالسه عامرة وحافلة، فوفد عليها الحافظ الثقة الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي (296هـ/908م) وقد استدعاه الأمير أحمد بن القاسم بن إدريس الذي تجمع به رابطة علم والأدب، وكانت شهرته قد وصلت إلى القيروان وبغداد

¹. Fernand Benoit, L'Empire de Fez de Maroc du Nord, Librairie de la Revue Française, Paris 1931, P91-92.

². الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 57-58.

³. محمد العزيز بن عاشور، جامع الزيتونة المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس 1991م، ص 10.

⁴. العمراني، المقال السابق، ص 158.

⁵. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P411.

فكيف بمجلسه بفاس، وفي عهد الإمام يحي الرابع (307هـ/919م) كان يتوفر على عدد من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب¹.

وقد دعم المرينيون الجامع بإنشاء المدارس التي كانت كفروع له لإتتمام مهمته العلمية رغم محاولتهم الإشراف على التعليم، فأصبحت العاصمة فاس مرتعا لمعظم العلماء ورجال الفكر الذين نزلوا عليها في الأيام الأخيرة للأندلس من خلال تلك الهجرات المتتالية²، ما جعل القرويين وريثة لها وتكون مركز إشعاع ثقافي في العالم الإسلامي، بتعدد كراسي العلوم خصوصا المعنتية بالنصوص الدينية حفظا وفهما مع الإيثار للحفظ³، فنجد القرويين قد اشتملت على مواصفات الجامعة من مكتبات كمكتبة أبي عنان وغيرها وأماكن لإيواء الطلبة الأفاقين في المدارس المرينية التابعة لها، مع كثرة الإنتاج العلمي والأدبي والفكري في مختلف الفنون، فهي بذلك حقا أولى الجامعات عالميا، لأنها هي صفاتها اليوم في العالم وهذا الأمر يفند الأطروحات الغربية.

رابعا: أشرف على القرويين زمرة من العلماء والفقهاء ماديًا ومعنويًا، فأحيوا أيامها بالعبادة والذكر والتعليم، وتعهدوا هيكلها بالترميم والإصلاح، لذا استمرت الدراسة بها بدون انقطاع حتى في أيام الإصلاح، ولم تشهد ما شهدته مساجد المشرق من هزات عقائدية وفتن حادة أدت لانقطاع الدراسة⁴، كتعثر القيروان في ق5هـ/11م بتغلب بني هلال وعلى إثرها برز جامع القرويين⁵، فكانت كأول كلية في العالم⁶.

ولم يكن أيضا حظ الزيتونة وافر ففي ق10هـ/16م لم يرحمها الأسبان بعدما كانت ملتقى لعلماء المغرب ومناظرات الحكام فيها، وما أدخله العثمانيون على التعليم بالجامع والأزهر الذي بدأ حياته العلمية منذ 365هـ/975م بعد سقوط بغداد ولم يلبث حتى ركد بظهور دار

¹ يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري في المغرب، ج2، دار لسان العرب، بيروت، ص 425.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 366.

³ عبد الله الجراري، "جامعة القرويين من خلال التاريخ"، عن مجلة دعوة الحق، ع9-10، س9، ربيع الأول والثاني

1386هـ/ جويلية - أوت 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص117.

⁴ العمراني، المقال السابق، ص 158.

⁵ التازي، "أحد عشر قرنا..."، المقال السابق، ص27.

⁶ Champion, Op.cit, P38.

الحكمة في 395هـ/1004م ولم ينج من التقلبات والتدخلات، أما بغداد الذي تحدث ابن جبير سنة 580هـ/1184م عن مدارسها الثلاثين أشهرها النظامية وتحدث ابن سعيد عن دور كتبها فإن ابن بطوطة لما زار بغداد عام 727هـ/1326م لم يجد أثر لتلك المدارس لذلك لم نجد القرويين تتعرض للرجات التي عرفتھا الجامعات أو المعاهد الأخرى في العالم الإسلامي¹، فحافظت على أصالته.

خامسا: اشتمال جامع القرويين على كراسي لتدريس العلوم المختلفة، وإن استلهم هذا التقليد من المشرق، حسبما وصلها من أصداء عن كراسي المعاهد البغدادية، فقد أنشئت لها عدة أوقاف تغذيها ماديا²، فساهم في نشر الدين والعلم والتعريب، وحتى الجامعات الغربية تبنته واستعملت نظام الكراسي³.

وإذا عرفنا أن جامعة بولونية بايطاليا أسست عام 553هـ/1158م والسوربون 597هـ/1200م وأعقبتها أوكسفورد 647هـ/1249م وسلامنكا 641هـ/1243م، فتكون جامعة القرويين قد مضى على تأسيسها عام 245هـ/859م أكثر من مائتي عام⁴، كما صرح المستشرقون والمؤرخون وأساتذة أجانب على قدم هذه الجامعة فمن الأستاذ دلفان، بيير شمبيون⁵ ولوطورنو في فاس⁶ وغيرهم، كلهم اتفقوا على أن فاس وجامعتها القرويين أولى الجامعات عالميا⁷، وبذلك تكون القرويين قد قطعت أشواطاً في بناء وتكوين شخصيتها المتميزة أثناء ظهور تلك الكليات.

وترجع الروايات أن أوائل من أقاموا دروساً بها كوكبة من فطاحل العلماء الذين انتهت إليهم المهارة والرياسة في العلم والسلوك، لأنه سيزرع ما له في صدور الناس عن طريق التدريس لتلك العلوم، كمحمد بن جراح الأنصاري، بالجهة الغربية من الجامع في

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 113.

². العمراني، المقال السابق، ص 770.

³. Terrasse, Histoire, Op.cit, P432-433.

⁴. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 64-65.

⁵. Champion, Op.cit, P 37.

⁶. لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 653.

⁷. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 114.

515هـ/1121م ودرس أحمد بن أحمد بن عبيدة الأنصاري القرطبي (582/1186م) علم الحديث، وتصدر ابن نموي الفاسي (ت614هـ/1217م) للإقراء شرق القرويين، ليتوسع نطاق التدريس إلى مساجد ومدارس كملحقات للقرويين لاحقاً بفاس¹، وبسبب شغف طلبة القرويين بالعلم فكلموا سمعوا بظهور أستاذ جديد إلا وقصدوه، فأنتج ذلك بدوره جماعة من الأئمة الأعلام كالقاضي أبي محمد عبد الحق بن معيشة، بن الملجوم، بن أبي داود، أحمد بن بيضاء... الذين قصدوا مسجد الطالعة لحضور درس بن تومرت².

ليظهر بعدهم فئة أخرى من العلماء كأبي الحسن الصغير (720هـ/1320م)، أبي عمران موسى العبدوسي (780هـ/1378م)، عبد الرحمن الجزولي (788هـ/1386م)، أحمد الزروق (899هـ/1493م) محمد بن قاسم القروي (873هـ/1468م)³ وغيرهم الكثيرين، ممن تتلمذ بعضهم على يد الآخر فكونوا طبقات من العلماء، فكانوا قاعدة للمراحل القادمة في العهدين السعدي والعلوي.

وبذلك يتضح أن القرويين جامع وجامعة أدى الدورين ولا يزال، فيؤدي فيه المسلم فرائضه من صلاة وعلم، فكانت القرويين سبابة للتعليم العالي مثلها مثل الكليات الأوربية⁴، كما أن ما عرفته فاس من تقدم اقتصادي ورقي اجتماعي ارتبط بالعلم والثقافة، ولم يكن هناك من مركز يمثل ذلك إلا القرويين الذي يرجع الفضل إليه في إعلاء شأن البيوت وتدرجها في مدارج الكمال ولهذا كانت فاس مدينة للقرويين في كل ما نالته من حظوة عبر التاريخ، وكان أول جامعة تأسست بعد مخاض عسير في مسيرتها التاريخية، التي نطحت فأوهت فكرة الغربيين التي لا تعتبر القرويين من بين أولى الجامعات في العالم.

¹. أحمد طه، المرجع السابق، ص 274.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 113.

³. Jacques Berque, « Ville et Université. Aperçu sur l'histoire de l'Ecole de Fès », in Revue Historique de droit français et étranger, Librairie du Recueil Sirey, Paris 1949, P57.

⁴. Champion, Op.cit, P 38.

2. العلوم المدرسة بالقرويين:

وللالتحاق بالقرويين وضعت شروط لا يمكن للطالب أن يحضر مجالس العلم، بدون معرفة مسبقة بعدد من الفنون الأولية يأخذها من الكتاب كحفظ القرآن تجويد وتلاوة وأخذ مبادئ الدين، قواعد اللغة، ثم المرحلة الثانية يتوجه إلى المدارس أو المساجد الصغرى القريبة منه وينتهي بعدها إلى مجالس القرويين، لذا ساهم انتشار المساجد بالأزقة ودروب بفاس وغيرها بمئات من المسايد والمساجد ولم يكن هناك سن معينة تؤهل الطالب للتصدي للعلم ولا حتى فترة الدراسة، فهناك من نبغ فتصدر الخطبة على منبر القرويين وهو لم يتجاوز الثامنة عشر سنة مما يبين النشاط الفكري السائد¹، لذا فقيام هذه الجامعة ارتبط بظهور الكراسي العلمية التي نقلت عن المشرق ودرست عليها علوما نقلية وعقلية، وتصدر لها جهازة من العلماء المقيمين والأفاقين.

ومن أهم ما نبغ فيه المغاربة علم القراءات الذي أتقنوه وسيطروا عليه، مع عنايتهم بالفقه المالكي فأصبح مختصر الخليل يعتبر المدونة الجديدة التي يعتمدونها، وقد أدخل مختصر خليل ابن إسحاق المالكي (ت767هـ/1365م) فاس الفقيه محمد بن عمر ابن الفتوح التلمساني (ت818هـ/1415م) بمكناس²، حيث كتب عليه عشرات الشروح والحواشي والتعليقات واستنبطت منه الفتاوى والأحكام مع الاهتمام بباقي العلوم النقلية والعقلية³، واعتمد فيها على حفظ النصوص ولا يقدر من الطلبة والأساتذة من لا يحفظ النصوص، وكان شعارهم: "من لا يحفظ نص فهو لص"⁴، ومنه انقسمت العلوم إلى:

العلوم الشرعية: اتفاق المؤرخين على إقبال الناس على دراسة الكتاب والسنة وما يتبعهما من قرآن ودرجات الحديث، وتأثر القرويين بالمالكية اتخذ جانبا فقهيا خاصا واحتلت زوايا الجامع وازدهر قادة المالكية طيلة أيام المرابطين رغم اعتناء بعض الشيوخ بالمذهب الشافعي

¹. السايح، المقال السابق، ص 36.

². Berque, Op.cit, P75.

³. رابح خدوشي وآخرين، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ج: أ، ج1، منشورات الحضارة، الجزائر 2004م، ص 75.

⁴. السايح، المقال السابق، ص 36.

ولم يكن لهم ذلك إلا مع الموحدين حيث اختفت كتب الفروع، وأصبحت المادة تؤخذ مباشرة من الصحيحين البخاري ومسلم ومن الترميذي والموطأ وأبي داود مع انتشار مذهب التصوف على طريقة الإمام الجنيد التي أتى بها أبو مدين عن شخصية الجيلاني صاحب بغداد، مع توسع دراسة علم الكلام والأصول حتى قدم الناس من الأندلس لتعاطيها من فاس أمثال السالجي¹.

العلوم الأدبية: وفيها النحو واللغة والعروض والبيان والتاريخ والسير وعلوم الفلسفة، وقد تعاطاها طلبة وأساتذة فاس وهذا لارتباطها مع الفهم الجيد والمعرفة للكتاب والسنة من خلال فك أسرار اللغة العربية وآدابها وبلاغتها نثراً وشعراً، لذا احتوت الخزائن على نفائس الكتب الأدبية الواصلة من المشرق، فدرسوا كتاب السيوي، وتخصصوا في اللغة عن الحدب (580هـ/1184م) ورووا الشعر عن أبي العباس الكسرواني وغيرهم².

العلوم البحتية: لارتباط حياة المسلم بالحساب لتسوية حالات الإرث مثلاً، وضبط أوقات للصلاة والصوم، لذا وجه العلماء عنايتهم للأرقام، وبرز منهم في التنجيم (ابن الياسمين) والهندسة، الحسن المراكشي صاحب كتاب المبادئ والغايات في علم الميقات، الطب بظهور مدرسة منذ ق4هـ/10م، كما تحدثت كتب التراجم عن رياضيين، أطباء، صيادلة، كانوا بفاس، وتم الاعتماد في البداية على مؤلفات المشرق في علوم القرآن والحديث والأدب والحساب لتنتقل فيما بعد حركة التأليف الخاصة بالمغاربة، فظهر في العهد المرابطي والموحدي مختصر كتب ابن أبي زمنين لإبراهيم بن جعفر اللواتي (513هـ/1119م) الإعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضي عياض (544هـ/1149م)³ وغيرهما في عدة مجالات وضروب العلم المختلفة.

¹. Berque, Op.cit, P75-77.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 127.
³. نفسه، ص 128-129.

3. مناهج وطرق التدريس:

كانت الدراسة بالقرويين تتسم بنوع من الحرية، فالطالب حر في تلقي ما يشاء من العلوم على من يشاء من الأساتذة، وأيضا الأستاذ حر في تدريس ما يشاء من المواد لمن يقبل عليه من الطلبة، إلا أن هذه الحرية واقعة تحت إشراف قاضي الجماعة، واقتربت بحاجة البلاد للأطر مع المحافظة على هذا العلم أو ذاك من الاندثار¹، لذا تعددت الكراسي وتنوعت بتصدر جهابذة العلماء عليها، متبعين مناهج وطرق في التدريس، متأثرين فيها بالعالم الإسلامي أو نزول علماء منه كالقيروان، الأندلس، فأجادوا وأفادوا بتخلق الطلبة حولهم في مختلف العلوم، حتى أن بعض منهم أصبحت له طريقة من أمثال المشدالي العبدوسي².

ورغم ما شهدته الحركة العلمية في بداية العصر المريني من تهلل في وسائل التعليم والتدريس، فقد تفتقت العبقرية المغربية بنبوغ مفكري المغرب الذين نذكر من أشهرهم على الإطلاق المؤرخ ابن خلدون صاحب المقدمة، والأديب ابن الخطيب الشاعر المثقف والعلامة الحضرمي، والعبدوسي، المشدالي وابن الصباغ وبلغوا القمة في الشروح والحواشي الفقهية، لذا صرف العلماء همتهم لهذا العصر إلى التلخيصات والاختصار، مثل ما كتبه ابن أجروم المختصر الصغير لدراسة النحو العربي كتبسيط واختصار في الأخذ بمختلف المذاهب النحوية³، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر في التعريف بتلك الطرق المنتهجة في أساليب التعليم مثل أسلوب العالمين المشهورين المشدالي والعبدوسي.

أ. منهج المشدالي في التدريس: أما المشدالي الذي عاش في ق 8هـ/14م فهو من أعلام الثقافة العامة والبيداغوجية في المغرب، فقد ذكر الشوكاني في ترجمته لما رحل إلى المشرق أنه ماهر في النحو والصرف والعروض والمنطق والأصول والميقات والحساب والمعاني والبيان والتفسير والحديث والفقه والجبر والمقابلة والهيئة والأوقاف والطب والموسيقى

¹. العمراني، المقال السابق، ص 166.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 127.

³. السايح، المقال السابق، ص 36.

والإسطرلاب، أما طريقة تعليمه فقد ذكر الشوكاني أن له أسلوباً غريباً مبني على العبارة الجزلة الفصيحة، وقد تبرم طلبته من غموض أفكاره وطالبوه أن ينزل في عبارته ليفهموه فقال لهم: "لا تنزلوني إليكم ودعوني أرفيكم إلي"، بعد مدة معينة حددها لهم كان الأمر كما قال¹.

ب. **منهج العبدوسي في التدريس:** كانت له طريقة خاصة في التعليم، ففي دراسته للمدونة يبتدئ بذكر الطبقة الأولى من كبار مالِك، ثم ينزل طبقة طبقة حتى يصل إلى علماء الأقطار من مصر وأفريقية والمغاربة والأندلسيين وأئمة الإسلام وأهل الوثائق والأحكام، أما في التفسير فعندما يقرأ الآية يفتح بما يناسبها من الأحاديث النبوية وأخبار السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ثم بعد ذلك يرجع إلى الآية، وربما يأخذ في نقل الأحاديث فيقول الحديث الأول كذا والثاني كذا إلى المائة، ثم يبتدئ المائة الثانية حتى يختتمها، وكذلك يسلك في النحو مسلك المدونة يبدأ بأصحاب سيبويه ثم الصيرافي وشرح الكتاب وطبقات النحاة².

لتنوُّج رحلة طالب العلم بإجازة وهي بمثابة تصريح بالصلاحية للمهنة العلمية أو لوظيفة كالتدريس، الفتوى والقضاء، وفيها أيضاً تأثر المغاربة بالمشرك فقد أخذوا إجازاتهم عنهم في بغداد، الإسكندرية، وهي تركية لطالب على علمه وكفايته زيادة على اتصاله بأسانيد الرجال الذين أخذ عنهم وبمؤلفاتهم والكتب الغريبة التي يروونها، وكذا الذي أجزى هو بدوره سيصبح مجيزاً أيضاً لعدد من الطلبة الذين درسوا على يده في جامعة القرويين³، فسعى طلبة العلم جاهدين في نيلها جيلاً عن جيل دون انقطاع.

¹. السايح، المقال السابق، ص 38.

². نفسه ص 38.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 125.

ثانيا. نشأة الكراسي العلمية بالقرويين:

عرفت جامعة القرويين في العصر الوسيط، وفرة في عدد الكراسي المخصصة بالجامع وفروعه لكبار الأساتذة، والموقوفة لتدريس أمهات المصنفات في مختلف العلوم، حتى إن ولاية كرسي التدريس تعتبر منصبا ساميا، ولهذا كانت لا تصدر إلا عن السلطان أو ولي عهده خاصة، كما وقفت لهذه الكراسي أوقاف خاصة صادرة عن السلاطين أو الأفراد وتوجد في حوالات القرويين عدة لوائح فيها أوقاف لتلك الكراسي وغيرها¹.

وجلب هذا التقليد على إثر احتكاك المغاربة بمجالس العلم ببغداد فحذوا حذوهم واستعملت الكراسي العلمية بالقرويين لتلقي الطلبة وإسماعهم لإقبالهم عليها، فازدهرت معها حركة نسخ الكتب المتناولة في تلك الحلقات، من تفسير وحديث وفقه وغيرها من العلوم².

1. أهم الكراسي العلمية بالجامعة:

لقد تنامت ظاهرة إنشاء الكراسي الجامعية مع بداية العصر المريني، وهذا ربما يعود لأنهم دولة علم كما أسلفنا، وتوزيعها على المدارس المرينية ومساجد فاس الصغيرة، في حين كلها ترتبط مع القرويين باعتباره الجامعة الأم لتلك الفروع، وهذا كدعم على توسيع نطاق التدريس للطلبة، مع تجند العلماء لتقديم رسالتهم النبيلة³، وبدوام كامل ينطلق بعد صلاة الصبح إلى غاية صلاة العشاء.

كما كانت لهذه الكراسي مواضع خاصة وقارة، حيث تموقعت على طول الجدار الغربي والشرقي للقرويين، وعلى امتداد البلاط الأوسط من المحراب إلى العنزة، وقد أكد ذلك ابن الوزان في كتاب " وصف إفريقية "بقوله: " إنها تمتد على طول جدر المسجد وفي صدره " وقد كان ابن الوزان نفسه يدرس بجامع القرويين في بداية القرن 10هـ/16م⁴، ويقدرها عبد الهادي التازي في كتابه جامع القرويين بأكثر من 140 كرسي، في الجامعة الأم القرويين

¹ محمد المنوني، "كراسي الأساتذة بجامعة القرويين -1"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س9، شوال 1385هـ/ فيفري

1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 91.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 125.

³ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93.

⁴ الكتاني، مدرسة...، المرجع السابق، ص 442.

قدر بـ18 كرسي والباقي مبنوثة على الفروع من مدارس ومساجد صغرى بفاس، وقد درست عليها علوم نقلية وعقلية، وكانت مهوى طلبة العلم الذين تحلقوا حول تلك الكراسي لغرف من معين بحر علوم أساتذتها عبر مختلف المراحل والعقود¹.

والأمر الذي زاد في كثرة الكراسي ورواجها، هي تلك الرباع والضياح الموقفة عليها، ما جعل لبعضها مداخل وفيرة استفاد منها القائمون على التدريس²، وهذه الأوقاف حبسها ملوك وأمراء وحتى أفرادا، لضمان أداء رسالتها من جهة وحب الخير ونيل الثواب في الآخرة من جهة أخرى³، وكانت بعض الكراسي تدرس عدة فنون وأخرى على كتاب معين ومحدد فهناك كراسي للتفسير وأخرى للحديث وثالثة للمختصرات وهكذا...، وأيضا كراسي نسبت لأفراد من مشاهير العلماء ككرسي ابن غازي، والونشريسي، والعبسي، وكراسي وقفية حدد وقت التدريس عليها من منشئها، ويصل لحد تعيين حتى الشخص الذي يتقلدها ومن يأتي من بعده مؤبدا على ذلك⁴.

ومع أن المصادر لا تفصح على فترة تأسيس كل الكراسي بدقة بجامعة القرويين ومن أسسها، فإنها اهتمت بذكر المهمة منها والتي كانت تلقى إقبالا كبيرا، وأيضا من كان لها مداخل وقفية كبيرة حتى تنافس العلماء حولها، فأغنت بعض من هؤلاء المدرسين على طلب السؤال عند أبواب السلاطين، بل ومنهم من وصل لحد رفع شعار الثورة ضد الحكام من أمثال الورياغلي على آخر سلاطين بني مرين الذي استوزر اليهود الذين سطوا على أهل فاس فكانت نهايته القتل مع حاشيته⁵، ومن أهم كراسي التدريس في نهاية عهد المريني والوطاسي نجد:

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 371.

² المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93.

³ الكتاني، مدرسة...، المرجع السابق، ص 441.

⁴ العمراني، المقال السابق، ص 166.

⁵ عبد القادر الخلافي، " الشيخ عبد الرحمن المجذوب"، عن مجلة دعوة الحق، ع9-10، ص11، جمادي الأولى 1388هـ/أوت 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 119.

هناك خمسة كراسي علمية مهمة بجامع القرويين بسبب موقعها والشخصيات العلمية التي تواترت عليها وما خصت به من مال موقوف، حتى كانت بين تلك الكراسي منافسة ومنها: كرسي المحراب المؤسس سنة 651هـ/1253م وظهر نتيجة انصراف بعض أئمة الجامع في أوائل الدولة المرينية بعد صلاة الصبح إلى إحدى زوايا القرويين مع جماعة طلبة لمنحهم دروساً في تفسير القرآن للثعالبي (ت427هـ/1035م) وحلية الأولياء لأبي نُعيم (ت430هـ/1038م) ليتم نقل مكان الدرس للمحراب للفائدة العامة بعد الصلاة حتى طلوع الشمس فاستحسن بنو مرين الأمر فقابلوه بالجراية والتحبيس لما فيه من مصلحة، وأضيف إليه كتاب الأحياء لأبي حامد الغزالي، وأضاف أبو عنان كتاب الشفاء للقاضي عياض¹، وتولاه في آخر الدولة المرينية أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد الله العطار بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المليلي المعروف بالورّاق، واختص بالتاريخ والسير، وكرسي ظهر الصومعة ومعبر عنه بـ "كرسي ما بين باب الشماعين وباب الموثقين"، ومن أساتذته ابن جامع الأنصاري الجياني (546هـ/1151م)، واشترك هذا الكرسي مع كرسي المحراب في العقارات الموقوفة مشاركة متبادلة².

نافس كرسي المحراب كرسي الورياغلي الواقع على يسار الداخل من باب الرواح الأعلى المجاور لباب الخفاء، وأول من ارتبط تاريخه بهذا الكرسي الإمام عبد العزيز الورياغلي الملقب بالصاعقة (880هـ/1475م) واشتهر بالفنون والعلوم³، ليخلفه عليه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني المختاري المكناسي، ليعرف بعدها بكرسي ابن غازي الذي بقي فيه لغاية وفاته في 919هـ/1513م، ليأتي بعده تلميذه محمد بن عبد الواحد الغزال

¹ كتاب الشفاء: المسمى "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى"، تأليف عياض ابن موسى أبو الفضل اليحصبي الأندلسي الأصل ثم السبتي المالكي، ولد سنة 476هـ وتوفي سنة 544هـ (أنظر: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1424هـ/2003م، ص205).

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص372-377.

³ نفسه، ص373.

وأحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن جيدة المديوني الوهراني (ت951هـ/ 1547م)، ودرس به العمدة في الحديث¹ والرسالة القيروانية².

وكرسي مستودع باب الحفاة الواقع على يمين الداخل من باب الحفاة، ويقصده العامة والخاصة، وكانت له شهرة مع كرسي الونشريسي المعروف بكرسي الشيخ الأشقر، وهو على يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون (أو باب سبع لويات) وكذا باب الصالحين الشرقية³، وأنشأه أحمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي وخصص لدراسة الجامع الصحيح البخاري⁴ بشرحه فتح الباري في سنة 847هـ/ 1443م لأنه شرط المحبس، بخط الحافظ محمد بن عبد الله التنسي ومنقولة من خط الشارح الإمام ابن حجر نفسه، ومن هذا الكرسي قبض على الإمام الشهيد عبد الواحد بن أحمد بن يحيى الونشريسي ثم الفاسي، وكان يشرح البخاري بين المغرب والعشاء، وأخرج من الباب المقابل في الجهة الغربية حيث قتل في ليلة الاثنين 27 حجة 955هـ/ 1549م، بعد رفضه خلع بيعة أحمد الوطاسي لصالح السعديين⁵.

إلى جانب مجموعة أخرى من الكراسي المنتشرة في أرجاء القرويين تفاوتت فيما بينها من حيث الصدى والمال، ومنها كرسي ظهر الخصة الواقع في الجهة الشرقية الجنوبية ومن أساتذته ابن نموي الفاسي (614هـ/ 1217م) ثم الرحالة ابن رشيد والشيخ الحاج القاضي ابن البلفيقي (771هـ/ 1369م) وتعددت المواد والكتب الموقوفة عليه، التفسير والصحيحان وغيرهما من الكتب، وكرسي باب الرواح الأدنى عن يمين الداخل إلى جامع الجنائز، وجلس عليه عدة علماء منهم عبد السلام المري وأحمد بن جعفر الكتاني، وكرسي

¹ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 94.

² أبي زيد القيرواني: هو عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن النفزي القيرواني المالكي، الفقيه النظار الحافظ الحجة إمام المالكية، أخذ عن جهايزة المالكية، وأخذ عنه جمع غفير من العلماء الأجلاء، اشتهر بكتاب الرسالة، توفي سنة 386هـ. (أنظر: مخلوف، شجرة النور...، ج1، ص143-144).

³ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص377-379.

⁴ صحيح البخاري: هو الجامع الصحيح المسن المختصر من أمور رسول الله ﷺ، وسننه وأيامه ويسمى بالجامع لجمعه بين الحديث والعقائد والأدب والرقائق والتاريخ والسير والمناقب للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل أبي عبد الله البخاري (256هـ/ 869م). (ينظر: اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 368).

⁵ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 94.

الركن الشمالي الشرقي الموجود على مقربة من باب الخوخة، ودرست عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد في الشتاء¹.

وكرسي باب الصالحين (الأيمن) عن يمين الداخل من باب الصالحين، وقف على قراءة العمدة للعيني (855هـ/1451م) كل يوم خميس²، وكرسي باب الصالحين (الأيسر) على يسار الداخل من الباب السابق، ومن أعيانه الشيخ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم الدكالي المشنترائي الفاسي (ت962هـ/1554م) ودرس عليه بين العشاءين ورسالة ابن أبي زيد ليلا، والترغيب والترهيب للمنذري (656هـ/1258م) بعد الظهر، وكذا العمدة للعيني كل صباح خميس وجمعة وكان يختص بالرسالة والإمام المنجور³ يختص بصحيح مسلم⁴ وكرسي الشماعين وهو على يمين الداخل من هذا الباب الرئيسي، وأقام عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد⁵.

إلى جانب كراسي أخرى عرفت بالفنون العلمية التي درست عليها أو اشتهرت بقراءتها فيها من مثل كرسي المستودع المعروف بكرسي التعديل والتوقيت ويعود للموحدين، وكرسي النحو عن يمين الداخل من باب الكتبيين الجديد (باب السبطين)، وهو وقف على تدريس النحو وكان ببلاط المحراب مجموعة من الكراسي المتقابلة على طوله من المحراب إلى العنزة وكانت لعدة علوم تداول عليها عديد العلماء ومنهم كرسي الثريا الكبرى الواقع على مقربة من تحت الثريا الكبرى بوسط القرويين، ودرست فيه كتب صحيح البخاري، نوادر الأصول في أحاديث الرسول للترمذي (ت295هـ/907م) وغيره، وممن درسوا فيه بعد صلاة العصر الفقيه سيدي محمد الندرومي والفقيه سيدي حدّو حنيش⁶.

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص375-380.

² نفسه، ص375.

³ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص94.

⁴ صحيح مسلم: من كتب السنة للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ/874م) لقي عناية في شرح والمختصرات. (ينظر: اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص368).

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص376.

⁶ نفسه، ص375-381.

وكرسي العنزة وعرف بدروس الفقه، واهتم بتدريس الرسالة مختصر الشيخ¹، ومن علمائه الشيخ منديل بن أجروم (ت772هـ/1370م) درس المقامات بين العشاءين زمن الصيف إلى جانب وجود ثلاثة كراسي ما بين العنزة وخصه العين القديمة وهي كرسي البلاط الأول وكرسي البلاط الثاني وكرسي البلاط الثالث وهو من أقدمها².

تلكم هي ثمانية عشر كرسي الموزعة على جامع القرويين نهاية الفترة المرينية، فمنها ما هو للتفسير ومنها للحديث ولغة وللعظ وأخرى موقوفة عليها كتب معينة ورغم ذلك ظلت تلك الكراسي ملاذا للطلبة يتلقون منها علوما مختلفة بالقرويين.

2. أهم الكراسي العلمية بفروع القرويين وتخصصها:

رأينا سابقا على أن المرينيين كانوا دولة علم، فعمدوا لإنشاء المدارس على ضفاف القرويين وفي أرجاء مدينة فاس، والغرض منها كما قال مصطفى نشاط من أجل مص قوة القرويين المتجالية في علمائها الذين كانوا يشكلون قوة اكتسبوها مع الدول السابقة، لذا رأى المرينيون في ذلك خطرا عليهم فحاولوا تقسيمها بنشرها على تلك المدارس، ليتمكنوا من مراقبة نشاطهم وتقويض قوتهم وإنشاء أجيال من العلماء يكونون موالين لهم³، فتم إيجاد العديد من المجالس العلمية بتلك المدارس وحتى المساجد الصغيرة الموجودة بفاس، وانعكس هذا النشاط العلمي الحثيث كله على القرويين، فغدت تلك المدارس والمساجد كمعاهد تابعة له، تحوي العديد من الكراسي العلمية المنتشرة في خلايا الأزقة وأعماق الدروب⁴.

احتوت تلك المدارس على كراسي علمية درست فيها علوم يتعذر إقامتها بالجامع وعلى رأسها العلوم التجريبية التي تحتاج إلى أدوات ووسائل، فكانت المدارس مرتعا لها، إلى جانب هذا درست أيضا علوما أخرى، ومنها كالفقه والنحو وقد احتوت المدارس المرينية على هذا

¹ المختصر الشيخ خليل أشهر مختصر في الفقه المالكي شرح أكثر من 60 شرحا وترجم بالفرنسية لخليل بن إسحاق المصري توفي سنة 1326هـ/726م. (ينظر: اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 366).

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 381.

³ نشاط، المقال السابق، ص 32.

⁴ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 71.

النوع من الكراسي مثل مدرسة الحفلويين (الصفارين)¹، وبالمدرسة المصباحية أو مدرسة الخصة وكان بها كرسي التهذيب للبرادعي وتعاقب عليه أبو الضياء مصباح بن عبد الله الياصوتي (ت750هـ/1349م)، الإمام أحمد الونشريسي وولده عبد الواحد، وكراسي المدرسة المتوكلية ومنها كرسي للفقهاء وعرف بكرسي التهذيب أيضا أنشأه أبو عنان المريني ورشح للتدريس به الشيخ الحافظ أبو الحسن علي الصرصري يقرئ الفقه وأيضاً الفقيه أبو العباس أحمد الحباك (ت870هـ/1465م)².

وكراسي بالمدرسة المتوكلية ومنها للنحو وتصدره عدة علماء كالعلامة أبي الفتوح التلمساني (ت818هـ/1415م) ألفية مالك، وكرسي آخر للتفسير والحديث بداخل قاعة الصلاة تصدره قاضي القضاة السفير المقري (ت758هـ/1356م) ثم الفقيه سيدي محمد الخديم، وبمدرسة الصهريج للفقهاء والنحو ومجلسها بدأ منذ تأسيسها في 723هـ/1323م ودرس به الأستاذ السفير سيدي إبراهيم التازي (748هـ) درس التهذيب وكان من تلامذة ابن الخطيب³.

وكرسي مدرسة العطارين للفقهاء والنحو بجوار جامع القرويين، وكان كرسيها على يمين المحراب، ودرس عليه الفقه صباحا والنحو بعد صلاة العصر، وشغل فيها الأستاذ محمد بن أحمد الفشتالي (ت777هـ/1375م) لتدريس المدونة، وفي أيام الوطاسيين ابن هارون (910هـ/1504م)، واشتهرت المدرسة بالنحو وتعاقب عليها النحاة مثل الشيخ أبي زيد عبد الرحمن المكودي (801هـ/1398م) والفقيه أحمد بن محمد بن الحاج وتخرج على يده الحافظ أبو الحسن علي بولعراب، محمد بن أبي القاسم بن عمران،...⁴.

وكرسي مدرسة فاس الجديدة للفقهاء والنحو أبتدئ الإقراء فيها منذ 721هـ/1321م، وقد رتب السلطان الفقهاء لتدريس العلم ووضع لهم مرتبات ومؤنا كل شهر، وتصدر فيها أبو

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 385.

². المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93-94.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 386-387.

⁴. نفسه، ص 387.

العباس أحمد بن قاسم الجذامي الفاسي المعروف بالقباب ودرس به كتاب التهذيب لابن البراذعي وكُرسي مدرسة الوادي للفقه والنحو وتصدر الفقه الشيخ ابن هارون يدرس المدونة¹ في حياة شيخه الإمام ابن غازي².

وقد احتوت العديد من المساجد الصغيرة بفاس على كراسي علمية تابعة للقرويين وبالخصوص كراسي التفسير والحديث ، حيث نجد في هذا الصدد كُرسي بمسجد الأيارين وكان على مقربة من جامع القرويين ومدرسة العطارين ومأوى للطلبة وكان التفسير بيد أبي القاسم بن محمد الغماري الفشتالي (ت721هـ/1321م)³، وكُرسي مسجد الارازين وقرأت فيه شهاب الأخبار في الحديث الشريف للقضاعي وشرح الحكم العطائية لابن عباد، وكُرسي مسجد الازدع أو الاصدع وهو أقدم الكراسي الفرعية درس التهذيب لابن البراذعي⁴، كُرسي مسجد باب عجيسة لدراسة الفقه والحديث لقراءة التسهيل والتقريب والآخر لقراءة رسالة ابن أبي زيد⁵.

وكراسي مسجد الأندلس وهو ثاني مركز مهم للتدريس بعد القرويين، وتتاول مختلف العلوم والفنون من خلال عدة كراسي منها الصباحية ككرسي التفسير الواقع في الجانب الغربي من المسجد، وكان محل تنافس العلماء، إلى جانب كُرسي آخر على الجدار الغربي في البلاط الثاني وكان لرسالة ابن أبي زيد فيما بين العشاءين وعرف بكرسي العبسي وهو نسبة لمحمد بن أحمد بن عبد الله العبسي الفاسي المتوفى عام 965هـ/1558م، وكان في مجالسه يعرب القرآن، ويقرأ الألفية، ومختصر خليل، مع القليل من التفسير، ومن الدرر اللوامع⁶.

وأيضاً كُرسي باب المحراب وتصدره في ق 6هـ/12م الشيخ أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف النحوي (ت513هـ/1119م) ، وكانت له عدة أوقاف إلى جانب كُرسي باب مصرية

¹ المدونة: من الكتب المبسطة في الفقه المالكي، لصاحبها سحنون تلميذ مالك وهي أراء مالك الفقهية جمعها ودونها سحنون وهي أم لمختصرات كالتهذيب للبراذعي. (ينظر: اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 364).

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص ، ص 388.

³ نفسه، ص 388.

⁴ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 391.

⁶ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 94.

الخطيب درس فيه كتاب العمدة للمقدسي والموطأ للإمام مالك وهما من أوقاف الشيخ الورياغلي، وأيضاً كرسي بالمستودع وكانت تستفيد نساء البلد منه، تصدره أبو العباس سيدي أحمد المزوار ودرس فيه كتاب الترغيب والترهيب للمنذري¹.

كما يوجد كرسي إلى ظهر العنزة ووقف على قراءة الفقه، ودرست فيه رسالة ابن أبي زيد القيرواني والتفريع والمدونة وعرف بكرسي الونشريسي²، وأيضاً درس عليه الفقيه أبو العباس أحمد بن سيدي الخياط إبراهيم، ومجلس أبي عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن حمامة الأوربي النيجي الفاسي الشهير بالصغير (ت887هـ/1482م)³.

ولكثرتها فحسبنا أن نتعرف ونقف على أهمها وليس كلها وإلا أخرجنا تتبعها عن إطار مبتغانا، وقد قدرها عبد الهادي التازي بـ 122 كرسي مبنوثة في غالبية المدارس والمساجد في مدينة فاس القديم والجديد، وهذا لتدريس مختلف العلوم وعلى رأسها الفقه والحديث والتفسير والنحو حسبما وقف عليها، كما اختصت كتب التفسير والفقه والحديث بالدراسة والتعليم في غالبية الكراسي سواء داخل الجامع أو في فروعه، وبالمجموع ما بين الفروع والجامعة الأم هناك أزيد من 140 كرسي كلها عملت على تثقيف والتعليم.

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 120.

². المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 390-391.

ثالثا. الحياة العلمية بالقرويين:

1. خزانة القرويين وفروعها:

لقد نمت خزانة القرويين على مرّ العصور، فاحتوت على عديد التصانيف تضم مختلف ضروب العلم، إلا أن محتوياتها تبقى مجهولة، خصوصا لأيام الأدارسة وزناتة والمرابطين ومن جاء بعدهم، ولكنها ظلت المكان الذي يتعهده الملوك وغيرهم بالكتب المفيدة والنادرة لها وللمدارس التابعة لها، فتكون قد جمعت الآلاف المؤلفة من الكتب المخطوطة، ولكن قد عاثت بها عوادي الدهر، فانقرضت منها عديد المخطوطات مما ابتليت به الخزائن من سرقة نفائسها أو اندثارها بفعل نخرها من قبل الأرضة وعامل الزمن، لذا لا يوجد إحصاء دقيق حول محتوياتها، إلا أنها بقيت من أحسن وأهم المكتبات بفاس، فزودها السلاطين وغيرهم بالكتب كأبي يوسف يعقوب المريني الذي زودها في 684هـ/1285م بثلاثة عشر حملا من المخطوطات العربية التي حازها من ملك اشبيلية سانشو الرابع¹.

إلى جانب تنافس علماء فاس في اقتناء ونسخ الكتب، كالإمام يحيى الرابع (292-307هـ) الذي قال عنه البكري أنه أحيط بعدد من الوراقين للنسخ، وفي عصر الزناتيين اهتم الناصر بالقرويين من حيث التوسعة والتأثيث وكذا التجهيز بالمادة العلمية من خزائن بغداد الغنية وأيضا قيام المرابطين والموحدين على مذهب ساهم في انتشار بعض الكتب المعينة بين العامة، لذا كان عدد من الوراقين قد وردوا على المغرب من مدينة الشاطبة حيث تخصصوا في صناعة الكاغط الشاطبي²، وذكر الجزنائي أن فاس احتوت على 400 معمل للكاغط وقصدها من كل ناحية أبرع الخطاطين والوراقين³.

وهو ما يفسر تأسيس خزائن علمية بفاس، فبرزت عدة أسماء ممن شغلوا منصب القيم على الخزانة أو المحافظ، والذين يختارون من ذي المكانة والرفعة والعلم، فاحتوت خزانة القرويين على نفائس المخطوطات كنسخة من كتاب الزهد والرقائق لابن المبارك المكتوب

¹. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 363.

². الكتاني، مدرسة...، المرجع السابق، ص 425.

³. الجزنائي، المصدر السابق، ص 44.

في 465هـ / 1072م، اختصار الموطأ للمهدي بن تومرت وغيرها، فوصلت فاس ما لم تصله أي مدينة بالمغرب في عهدها، ولذا كانت لخزانة القرويين حصة الأسد من ذلك¹.

كما ازدهرت الخزائن العلمية في العهد المريني وراجت الخزائن العامة التي يقصدها الطلاب والعلماء على السواء للاستفادة منها، وربما كانت خزانة أبي يوسف المريني بالمدرسة اليعقوبية (الصفارين) 679هـ/1280م هي أول خزانة أسست للعموم ومن أشهرها² ومن المعلوم في تاريخ المغرب أن أبا يوسف المريني اشترط على ملك اشبيلية سانشو الرابع منحه المخطوطات العربية، وحمل منها في 684هـ/1285م إلى القرويين ثلاثة عشر حملا كما جاء في القرطاس³.

وخزانة أبي سعيد وأبي الحسن أما خزانة أبي عنان⁴ التي أسسها سنة 750هـ/1349م وصف كنوزها ابن القاضي في الجذوة حيث قال "فقد زودها بكثير من علوم الأبدان والأديان واللسان والأذهان وغيرها، باختلاف تنوع ضروبها وأجناسها وفقا لابتغاء وجه الله وثوابه"⁵ وقد ضمت خزانة يوسف الموحدي وأصبحت من أهم خزائن العالم الإسلامي كما ضمت إليها كتب السلطان أبي يوسف المريني المجلوبة من الأندلس، كما انشأ مكتبة المصاحف⁶ في نفس السنة⁷، فكانت تلك المكتبات من مكملات التكوين الجامعي بالقرويين والتمتمات في بناء شخصيته.

¹. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 76-77.

². Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P 64.

³. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 363.

⁴. مكتبة أبي عنان العلمية 750هـ: الذي انشأ على الركن الشمالي الشرقي للقرويين خزانة يستفيد منها الطلبة الوافدين على فاس، فكانت قبة من نحو خمسة أمتار ونصف طولا وجعل لها مدخل جهة المستودع وكانت تحتوى على عدد من النفائس والذخائر وما يزال بعضها، وبها كتب نسخة لها وأخرى جلبت من الأندلس، وعهد العاهل المريني بها لأحد العلماء وخصص له جرايات مقابل ذلك. (voir : Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P68).

⁵. الجزنائي، المصدر السابق، ص 76.

⁶. مكتبة المصاحف 750هـ: أسسها أبو عنان قبلة المسجد وسطا بين باب حجرة الخطيب وبين الخوخة التي كانت فيما بعد مدخلا للخزانة الأحمدية، قصد تسهيل تلاوة القرآن وأعد لها قima بجرابة كافية ويعمل على صيانة المصاحف والعناية بها وردها لمواضعها، وبنيت في نفس المكتبة العلمية عرض بابها 1.24م على 2.10م في شهر شوال 750هـ/13 ديسمبر 1349م، وأدت وظيفتها في العصر المريني وما جاء بعده. (voir : Maslow, Op.cit, P173-174).

⁷. الجزنائي، المصدر السابق، ص 76.

2. بناء شخصية القرويين الفكرية:

لقد تمتع القرويين بمكانة سياسية مهمة عن طريق تدخل العلماء بطرق مختلفة أهمها البيعة حيث يكون موقفهم حاسما فيها، كما أن السلطان من جهته أمير المؤمنين وأكبر العلماء فإنه يهتم بشؤون القرويين، لذا فالقرويين العتيقة لم تكن مجرد مؤسسة تعليمية، بل مؤسسة ثقافية تشهد على جزء كبير من تاريخ المغرب، وهذه المؤسسة عرفت عدة أطوار أساسية في بنائها وهي:

الطور الأول: وهو طور النمو والترعرع ويمتد من القرن 4-7هـ / 10-13م، ولم تكن القرويين اكتسبت بعد شخصيتها الثقافية المتميزة، لأن ثقافتها كانت جزء وثيق من الثقافة الإسلامية العربية الوافدة عليها من المشرق وكذا الأندلس¹، أي تعيش تحت تأثيرات ثقافية خارجية.

فكانت هذه المرحلة هي النشأة الأولى للقرويين ومرتبطة إلى حد كبير بالتطور الاجتماعي لمدينة فاس نفسها، لأنها تكونت في وسط بدوي ساعدتها الهجرة الخارجية، المتواصلة من المشرق كالقيروان ومن الشمال كقرطبة بالأندلس، وهذا لإعطاء فاس الصبغة الحضرية لمدينة إسلامية لتلك الفترة، وتحويلها إلى حياة المدينة أكثر فأكثر، فانتشرت وازدهرت التجارة والحرف وأهتم بالعلوم، وبذلك تطورت لتصبح مركز حضاري وثقافي مرتبط بتأثيرات المدن الإسلامية الكبرى آنذاك بالأندلس والمشرق²، وبهذا الارتباط دخل المذهب المالكي عن طريق عدة علماء من المشرق كابن العجوز، ابن جيدة، أبي محمد الأصلي، عيسى بن سعادة... ومن الأندلس ابن مجشون، ابن الاصبغ...، وصاحب ذلك اهتمام الحكام بهذا المذهب كالدولة المرابطين في ق11م رغم الصعوبات التي شهدتها خلال دولة الموحدين فإنه انتشر واستمر³.

¹ محمد العبادي، "دور جامع القرويين في تكوين الشخصية الثقافية المغربية التقليدية"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص 16.

² العمراني، المقال السابق، ص 161.

³ العبادي، المقال السابق، ص 17.

لذا عرف القرويين أفكار المذاهب والتيارات من خلال المناقشات والمناظرات، فتكبد علماءها ومشايخها مختلف ضروب الامتحان والشدائد في سبيل نصره هذا المذهب أو ذاك خصوصا تلك الاصطدامات التي كانت بين الأمويين والفاطميين وقد أصاب نخبة من العلماء أو المشايخ الذين تعرضوا للقمع والتعذيب والنفي وحتى بعد نهاية تلك الفتن، لم يكن هناك مذهب واحد يتفقون عليه، فظلت السياسة مهيمنة على عواطف الذين كانوا يطمحون للوصول للحكم عن طريق تبني رأي أو إبطاله، والمغرب لم ينفصل عن المشرق فكانت تصله آراء وأفكار بواسطة المبعوثين والرسل والحجاج والرحالة وأصحاب الرأي، لذا كانت هناك مزاحمة لعدة مذاهب في المغرب لمذهب السلف، ومنها الخوارج بسبب وضع المغرب في تلك المرحلة، والمعتزلة والشيعة وأبي حنيفة والمذهب الاوزاعي وداود الظاهري وكذا دخول إدريس الذي قدم بمذهب غير كل هذه المذاهب وذلك بنشر كتاب الموطأ للإمام مالك بن انس لرواية إدريس للموطأ عن والده عبد الله الكامل¹.

وناهض كل من المعتزلة والخوارج لتطهير المغرب، فوجد مذهب مالك أرضا خصبة في الانتشار لما يوافق طباعهم وميولهم، وأيضا مناصرة بني أمية لهذا المذهب من الأندلس وهو ما أثار حفيظة الفاطميين، فلم يمض قرن على إنشاء القرويين حتى كان جوهر الصقلي على فاس، فقتل عدد من المالكية وفرض المذهب الشيعي، وأخذ الرهائن ونصب على المحراب أرسادا تدل على الوجود الشيعي بالقرويين².

فكل الحملات التي عرفتها فاس كان لها أثر على القرويين، فقد قام أحد عمال المنصور بن عامر بعد تملك الأمويين على فاس، بفتح موضوع فقهي مع الشيخ أبي جيدة، ظل شاغلا الناس حقبة من الزمن، حول وضعية الأراضي بالمغرب أهي مفتوحة عنوة أم صلحا؟ كما عرفت القرويين محنة ما أصاب الناس من إحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي في العهد المرابطي، كما لقي العديد من العلماء مضايقات في سبيل نصره أبي حامد، بإيعاز من

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 118.

². نفسه، ص 119.

بعض علماء الأندلس، بسبب احتوائه على بعض الأحاديث التي ضعفت وتخوف آخريين منها، لتضمنها أفكار المتكلمين ومذاهب المتصوفة، فهدد علماء المرابطين بما أحدثه الكتاب من ضجة، ومطالبة السلطان علي بن يوسف بن تاشفين بإحراقه، والتوعد بمن وجدت عنده نسخة منه مما أدى إلى اختلاف مواقف العلماء حول الكتاب فأبو الحسن علي بن حرزهم رأى أن الناس غير ملزمة بأيمانها التي أقسمتها على عدم امتلاك الكتاب لأنها مغتصبة فكان صدع بين علماء العدوتين¹.

وبظهور ابن تومرت الذي عاش ثلاث سنوات مع الغزالي في بغداد، ودعا للرجوع للكتاب والسنة، ف جذب إليه عدة علماء من فاس كعبد الحق بن معيشة قاضي فاس ورئيس القرويين حينها، ومنه ظهر علماء ردوا على خصوم الغزالي في القرويين أمثال السلاجي (564هـ/ 1168م) وابن الاشبيلي (567هـ/ 1171م) لنشر العقيدة الأشعرية للرد على المرابطين الذين اتهموا بالتجسيم، لتدخل ميدان السياسة فاتهم المرابطون بالضعف أمام العباسيين لدعاء لهم وإرسال السفراء²، وفي العهد الموحي الذي جدد الدعوة للمذهب الظاهري وتبنيه فكرة عصمة الإمام فأوقع العلماء في محنة، ومنعهم من صعود المنابر لأنهم رفضوها، كما فرضوا عليهم استعمال اللسان البربرية فيها، كما حرقوا عددا من كتب الفقه وضرب المالكية وعملوا على النيل منها³.

إلا أنه في عهد الدولة المرينية عملت على إعادة تثبيت ركائز المذهب المالكي، وكانت القرويين إحدى معاقله، إلى جانب هذا دخول التصوف الذي طغى على بعض العلماء بالاعتقاد في الصلحاء، وإذا تحدث عنهم تحدث بمهابة وخشوع، مع الاعتقاد في الكرامات تحدث الواثق، وتظهر ثقافة القرويين في هذه المرحلة بالموسوعية الجامعة لمختلف العلوم

¹ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 119.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 120-121.

³ العمراني، المقال السابق، ص 176.

النقلية والعقلية من الفقه، الأدب، التصوف... على غرار ما كان في باقي المراكز الأخرى في العالم الإسلامي¹.

الطور الثاني: وهو طور الازدهار يمتد من ق7-9هـ/13-15م، وهي فترة اكتساب الشخصية العلمية المتميزة، فاستحقت عليها اسم مدرسة فاس تميزا لها عن باقي المراكز العلمية الإسلامية في المشرق والأندلس وإفريقية، فشهدت القرويين حركة علمية واسعة النطاق².

وتزامنت مع حكم المرينيين حيث أصبح القرويين أحد معادل المذهب المالكي في العالم الإسلامي، كما تدعم التعليم بالقرويين في هذه المرحلة بعدة مؤسسات أخرى أنشأها المرينيون تحت اسم المدارس، ومن جملتها: الصفارين لأبي يوسف يعقوب، الصهرج لأبي الحسن، العطارين لأبي سعيد، المصباحية لأبي الحسن، البوعنانية لأبي عنان، فكلها ساهمت في تكوين الطابع الثقافي المتميز لمدينة فاس³.

خاصة في الميدان الفقهي وكذا العمل بنظام الصلة⁴، فركز على تعليم وتثبيت الفقه المالكي بالقرويين، وأعتمد على مصدرين أساسيين لدراسته وهما المدونة والرسالة، وكان منهج الدراسة يعتمد على الحفظ ثم الحفظ، فقيمة العالم ومركزه مبنيان على مدى قوة حافظة ذاكرته منها تظهر عارضته في العلوم، ومن النتائج المترتبة على منهجية الحفظ اللجوء إلى المختصرات، لذا تم إدخال مختصر خليل بن إسحاق وتحفة ابن عاصم ودخلا المغرب نهاية ق14م، ومع انتشار استعمال المختصرات ازدادت هيمنة الفقه على الدراسة، في حين همشت بعض الميادين المعرفية، فأنتج هذا الاهتمام بالمختصرات من طرف الفقهاء بتحولهم من فقه الأصول إلى الاهتمام بفقه النوازل، الذي برع فيه علماء القرويين، ومنها تأكدت

¹ العبادي، المقال السابق، ص 18.

² العمراني، المقال السابق، ص 161.

³ Berque, Op.cit, P 71-72.

⁴ نظام الصلة: وهو نوع من الرعاية المادية من الدولة للعلماء وهو من أعمال المرينيين. (انظر: محمد العبادي، المقال السابق ص 18).

ملاح مدرسَة فاس الفقهية¹ وقد جسدها أبو العباس أحمد الونشريسي من خلال إنشاء كتابه الفقهي المعيار.

وبذلك تظهر تلك الشخصية التي اكتسبها جامع القرويين في عهد الدولة المرينية، مع العلم أنه قد أتم كل عناصر مقوماته الشخصية تقريبا خلال عصر المرابطين والموحدين ليجد المرينيون أنفسهم أمام هيئة دينية ودينية قوية سعوا عبثا إلى إضعافها لكن بقيت صامدة في وجههم وخير دليل أن علماء القرويين لم يباركوا عملية بناء المدارس، حتى أن آخر حكامها عبد الحق المريني عندما أحاط نفسه باليهود كحجاب ووزراء فإن الشيخ الورياغلي أحد أقطاب القرويين فإنه قام بالثورة ضده مما أطاح به وجعل فاس والمغرب ككل يدخل مرحلة جديدة تحت حكم الوطاسيين الذين وصلوا في زمن قد تغيرت معالمه².

ومما تقدم نخلص إلى اختلاف بين من كتبوا عن فاس أن مؤسسها الحقيقي بين إدريس الأول والثاني، ولكن اتفقوا على أن الاختيار كان لأسباب إستراتيجية من حصانة للمكان طبيعيا وفرة المياه والغابات ونقاء الهواء وطلتها على السهول، ووسطيتها في طريق التجارة بين جنوب الصحراء وأوروبا.

كثرة الهجرات نحوها من القيروان وقرطبة والمشرق على فترات تاريخية متفاوتة زاد في نمو المدينة وتحويلها من حالتها البدوية إلى الحضرية، بامتزاج ثقافات المغرب مع المشرق فأنتج مجتمعا متميزا أثنى عليه ابن أبي زرع والجزنائي وابن القاضي ومن كتب عن تاريخ فاس ومجتمعها.

بناؤها كان على غرار المدن الإسلامية الأخرى ففاس بنيت كمدينة للعلم والدين وهذا بتحقيق دعاء بانيها، فكانت بذلك مهوى ومقصد لكثير من علماء ومفكري المغرب والمشرق فأثروا الحياة العلمية بفاس في جامعها الأعظم القرويين، فكان منبر إشعاع علمي، وجامعة متميزة بعد أن بنت نفسها على سابقتها.

¹ العبادي، المقال السابق، ص 19.

² الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 87.

اهتمت الدول المتعاقبة على حكم فاس بتوسيعها مع جامع القرويين بحيث كل دولة تركت بصمة لها إما في بناء المدينة أو زيادة في الجامع في أحد مرافقه أو زواياه، فأدى إلى المحافظة على هذا الصرح الثقافي والتاريخي لعقود بل لقرون من الزمن، نتيجة الاهتمام الشديد بالمسجد لارتباطه بالجانب الروحي للفرد المسلم.

احتوى جامع القرويين على عدة كراسي علمية به على جنباته وفي وسطه ومنها نشر العلم في الطلبة المحليين والأفارقة وباقي المجتمع، فازدانت وتزاحمت حلقات العلم بالحضور والأجواء العلمية، وتوسعت لتشمل إقامة كراسي في مدارس وباقي مساجد فاس وكلهم تابعون للجامعة الأم القرويين بمثابة فروع، واهتمت هذه الأخيرة بعلوم الدين من فقه وتفسير وحديث ولواحقه وتوابعه، فكانت مدرسة للمذهب المالكي ومدرسة للإمام البخاري.

الاهتمام بالمذهب المالكي حفظاً ونشراً ورواية ودراية، حتى كانوا من المشاركين فيه من خلال المختصرات والشروح والحواشي على مختلف الكتب الفقهية المالكية وعلى رأسها مختصر الخليل.

وبوصول الوطاسيين للحكم برزت تطورات سياسية وعسكرية جديدة كان عليهم وعلى جامع القرويين مجابهتها، وعلى رأسها الاحتلال الأجنبي للثغور ونكبة الأندلسيين، مع تفتت زمام أمر السلطة السياسية وظهور كيانات وإمارات هي أشبه بالمدينة الدولة، كل هذا هياً الجو لقيام كيان سياسي وديني جديد يواجه ويأخذ على عاتقه تحدي تلك الصعوبات ومواجهة الأخطار وإعادة الوحدة للبلاد فكانت الدولة السعدية ثم العلوية وهذا ما سنتعرض إليه في القسم الموالي.

القسم الثاني: القرويين والواقع السياسي (ق10-13هـ/16-19م)

الفصل الأول: فاس والقرويين في العهد السعدي (10-11هـ/16-17م)

أولاً. الدولة السعدية

ثانياً. السعديون وفاس

ثالثاً : السعديون والقرويين

الفصل الثاني: فاس والقرويين في العهد العلوي: (11-13هـ/17-19م)

أولاً. الدولة العلوية

ثانياً. العلويين وفاس

ثالثاً: العلويين والقرويين

الفصل الثالث: القرويين القضايا السياسية القائمة (10-13هـ/16-19م)

أولاً. القرويين ونصرة الحق

ثانياً. القرويين والنشاط السياسي

ثالثاً. الملوك العلماء لهذه الفترة

القسم الثاني: القرويين والواقع السياسي

(ق10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

بعدما تعرفنا على أهم التطورات التي عاشتها فاس وجامع القرويين قبل فترة الدراسة فإننا في هذا القسم سنحاول القيام بإطلالة على تلك المتغيرات التي عاشها المغرب في العهد السعدي والعلوي، وذلك بمحاولة الإجابة على الأسئلة التالية: طبيعة علاقة الملوك السعديين والعلويين مع فاس والقرويين؟، نظرة هؤلاء الملوك لهذه المدينة وجامعها؟ وموقف جامع القرويين في القضايا السياسية المطروحة من خلال علمائه؟، ومدى تأثيرها عليه؟.

الفصل الأول: فاس والقرويين في العهد السعودي (10-11هـ/16-17م)

تمهيد:

قبل الولوج إلى الجانب السياسي للقرويين علينا أن نتعرف على ما شهده المغرب من أهوال وما عرفته مدينة فاس المحتضنة للقرويين من عواصف في هذه الفترة، باعتبار أن الأحداث السياسية التي عرفت البلاد، كانت تنعكس على الجامع من خلال مواقف رجالاته وحياتهم العامة، فمن الأجدر أن نقف على أهم التطورات السياسية التي مرّ بها المغرب الأقصى في العهدين السعودي والعلوي لكي نربطها بأهم التوجهات السياسية والمواقف التي تبناها الجامع من قضايا العصر وأوامر السلاطين وتصرفاتهم في التسيير.

أولاً. الدولة السعودية:

1. التعريف بالشرفاء السعوديين:

تكاد تتفق الكتابات حول هذه الأسرة العربية التي انتقل أوائها من ينبع النخل بالحجاز بطلب من أهل درعة بجنوب المغرب الأقصى¹، واستقروا بقرية تاكمداد في حدود القرن 12هـ/12م، وممن ذكر عمود نسبهم إلى آل البيت كالمقري في روضة الآس، والافراني في الحادي، وابن القاضي في درة الحجال عندما رفع نسب السلطان أحمد المنصور السعودي بقوله: " ابن أبي عبد الله محمد المهدي بن أبي عبد الله القائم بأمر الله تعالى بن أبي زيد عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن القاسم بن محمد المهدي بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب"²(رضي الله عنه).

¹ محمد الصغير الافراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998، ص39.

² أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمد أبو النوار، ج1 مكتبة دار التراث، القاهرة 1970م، ص106.

وبالرغم من طعن البعض في نسبهم الشريف، إلا أن الزياني أقر في روضته على أن سلطانه محمد الثالث العلوي صرح بأنهم أبناء عمومته¹ ونفس الأمر قاله الناصري في استقصائه²، وسميوا بالزيدانيين، نسبة إلى جدهم زيدان بن أحمد أول من دخل منهم المغرب واشتهروا باسم السعديين نسبة إلى بني سعد بن بكر بن هوزان التي منهم حليلة السعدية مرضعة الرسول (ﷺ)، وهذا قول من يقدر في نسبهم لا غير ومنهم العلويون خلفاؤهم وهناك من يقول بأن الناس سعدوا بهم، فصار هذا الاسم علما عليهم³، ومهما يكن فإن هذا الاسم هو الذي شاع استعماله من طرف المؤلفين والكتاب.

وقد عاش السعديون إلى غاية القرن 10هـ/16م في المغرب حياة علمية ودينية، ولم يظهروا على المسرح السياسي إلا بعد تأزم الوضع في المغرب⁴، نتيجة ما بلغه الغرب الإسلامي نهاية ق15م بداية ق16م من تدهور وانحلال لم يصل إليه سابقا، فدوله شاخت وفلتت منها زمام الأمور فلم يعودوا يتصرفون في حواضرهم، أما الباقي فترك في حكم العدم للزعامات والمشيوخات مع التهديد الخارجي، المملوء بالتعصب الديني، على إثر سقوط آخر معقل بغرناطة⁵.

فكان المغرب الأقصى يقاصي الأمرين في ظل الحكم الوطاسي، من سلطة محدودة بالشمال تقل كلما ابتعدنا عن مدينة فاس لتصير اسمية في مراكش وتركت المناطق ما وراء الأطلس إلى نفسها هملا، فاغتنم الأيبيريون ذلك بغزو الشواطئ المغربية المتوسطية والمحيطية⁶. ولهذا تحالف المرابطون مع الأشراف السعديين وناصروهم في محاربة الأعداء

¹ الزياني، الروضة ...، المخطوط السابق، ص4.

² أحمد بن خالد القاسم الناصري، كتاب الاستقصا، ج5، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص11.

³ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، دار الرشد الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1420هـ/2000م، ص241.

⁴ عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2006، ص50.

⁵ محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب 1396هـ/1976م، ص38.

⁶ نفسه، ص40.

المتحصنين في عدة مدن مغربية ساحلية مثل سوس وحاحة وعبدة ودكالة، وجدوا في تطهيرها منهم كما ساندوهم ضد بني وطاس¹.

2. مراحل تكوين دولتهم:

في الوقت الذي تكالبت على المغرب كل من اسبانيا والبرتغال لاحتلاله على الجهة الشمالية والغربية، فقد احتل الأسبان واد النون وقاموا ببناء حصن سانتا كروز دوماريكينا في 883هـ / 1478م، واحتل البرتغال كل من سبتة 818هـ / 1415م، القصر الصغير 863هـ / 1458م أصيلا وطنجة في 876هـ / 1471م، لتظهر اتفاقيات تفاهم بينهما في احتلال المنطقة كاتفاقية طليطلة 885هـ / 1480م، تورديسيلاس 900هـ / 1494م وسينترا 915هـ / 1509م وتطبيقا لهذه الاتفاقيات احتلت اسبانيا المناطق الواقعة شرق حجر بادس كمليلية في 903هـ / 1497م، غساسة 910هـ / 1504م²، حجر بادس 914هـ / 1508م وباقي السواحل المغربية إلى طرابلس الغرب، والبرتغال احتل الشواطئ الواقعة غرب حجر بادس كمدينة ماسا في 903هـ / 1497م، مازاكان 908هـ / 1502م، آغادير 911هـ / 1505م موكادور 912هـ / 1506م أسفي 914هـ / 1508م، أزمو 919هـ / 1513م³.

إلى جانب وصول الدولة العثمانية إلى المغرب الأوسط وتأسيسها لإيالة الجزائر في 925هـ / 1519م التي امتدت غربا إلى الإمارة الزيانية بتلمسان، فبات المغرب مهدد بالطارئين الجدد على تخومه، وحينها كان محكوما من قبل السلالة الوطاسية التي وصلت إلى درجة متقدمة من الضعف في حكم محمد البرتغالي (1504-1526م) وابنه أحمد (1526-1549) لتختفي مع أبي حسون (1554م)، فأصيب المغرب في عهدها بعدة

¹. الخلافي، المقال السابق، ص 119.

². Terrasse, Histoire, T2, Op.cit, 115-118.

³. Jacques Caillé, La Petite histoire du Maroc, 1^{er} série, Chérifienne d'édition et publicité, Casablanca 1950, P 57-61.

نكبات وأزمات أدت إلى وضع داخلي هش شبيه كما قلنا بالملوك الطوائف بالأندلس المتزامن مع خروج المسلمين من هذه الأخيرة¹.

كل هذه المتغيرات ساعدت على تنظيم حركة في منطقة السوس، بقيام قبائلها بانتداب أحد صلحائها في قيادتهم للجهاد، وهو محمد بن مبارك في آقا الذي اعتذر وزكى لهم الشريف محمد بن عبد الرحمن لهذه المهمة الجليلة، فبايعه شيوخ الزوايا ورؤساء المصامدة وعامة السوسيين كأمر للجهاد في 915هـ/1510م²، فتلقب بالقائم بأمر الله، فدانت له عدة قبائل بالولاء مع تقديم الدعم البشري والمادي اللازم لهذه الحركة³، وإن كان صاحب تاريخ الدولة السعدية وطوريس⁴ يرجع عملية الجهاد إلى تفويض السلطان الوطاسي لهؤلاء الأشراف⁵.

برزت ونمت الدولة السعدية على أساس ديني سياسي، لأنهم يملكون خاصية النسب الشريف المانح لأحقية الحكم الشرعي من بني وطاس، وإسكات أي معارضة بتوحيد صف حركة الجهاد ضد العدو، ومن أفضل من الأشراف في حمل رايته، لذا زكاهم رجال التصوف والصلاح في ظل إكبار المغاربة والتعظيم لهم، وأيضا تقاوم الخطر الأجنبي الذي طال عدة ثغور بالسواحل وبدأ يمد بنظره نحو الدواخل أمام عدم التنسيق في رده⁶.

نشأت دولة الشرفاء الزيدانيين الحسينيين المعروفين بالسعديين على يد محمد بن عبد الرحمن الملقب بالقائم بأمر الله، ونمت مع أبنائه⁷، بقيادة أحمد الأعرج⁸ وأخيه محمد الشيخ⁹ ومن بعدهما، فهزما البرتغال في 948هـ/1541م بأغادير وأجلوه عن أسفي وآزمو في نفس السنة، كما أخرجوه من أصيلا والقصر الكبير في 957هـ/1550م، وكان السقوط المتوالي

¹. Berque, Op.cit, P 83.

² الزباني، الروضة...، المخطوط السابق، ص 30.

³ بن خروف، المرجع السابق، ج 1، ص 50.

⁴ ديبكو دي طوريس، تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ص 33.

⁵ مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارية، ط 1، تح: عبد الرحيم بنجادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش 1994م، ص 13.

⁶ حركات، المرجع السابق، ج 2، ص 243.

⁷ محمد حجي، جولات تاريخية، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995م، ص 205.

⁸ السلطان أحمد الأعرج: ولد 891هـ/1486م وبويع له في 918هـ/1512م، مهد البلاد وعباً الأجناد لرد الثغور المغربية.

(الناصر، المصدر السابق، ج 5، ص 20).

⁹ السلطان محمد الشيخ المهدي: ولد في 896هـ/1490م، لقب بالشيخ (أمغار)، نشأ في عفاف وصيانة، عني بالعلم في صغره، بايعته فاس في 956هـ/1549م، قتل بجبل درن سنة 964هـ/1557م. (الناصر، المصدر السابق، ج 5، ص 27).

لهذه الحصون في يد الجيش المغربي صداه الكبير داخل البلاد وخارجها، هذا الأمر أكسب السعديين شعبية كبيرة على حساب الوطاسيين الذين لم يستطيعوا درء الخطر الداهم عن البلاد¹.

الأمر الذي جعل المغرب الجنوبي والأوسط يندرج تحتهم، خاصة بعد دخول مراكش سنة 931هـ/1524م²، التي كانت نقطة صدام مع الوطاسيين، في عدة مواقع ظفر فيها السعديون كمعركة أنماي في 935هـ/1528م ومعركة بوعقبة في 943هـ/1536م، وهذه الأخيرة التي تدخل فيها علماء فاس لحقن دماء المسلمين بتقسيم البلاد بينهما³ الوطاسيين بالشمال وقاعدتهم فاس والجنوب للسعديين وقاعدتهم مراكش⁴.

وبهذه الهدنة المؤقتة سيظهر النزاع في البيت السعدي بين الأخوين بسبب الحظوة والملك وينتهي بتغلب محمد الشيخ على أخيه أحمد الأعرج في معركة الكاهرا سنة 951هـ/1544م ودخل على إثرها مراكش مزهوا بالنصر وأقام أخاه بتافيلالت جبلا، وهذا سيؤثر على نظرة القبائل السوسية الموالية لهم⁵، فعوض توحيد الجبهة وقاتل العدو يتم الاتفاق معه وهذه كخطوة نحو فك رباط الولاء من جانب تلك القبائل وشيوخ التصوف⁶.

ما فتئت أن تجددت الحرب بين أحمد الوطاسي ومحمد الشيخ المهدي فكانت معركة واد درنة في 952هـ/1545م، انتصر فيها محمد الشيخ وأسر أحمد الوطاسي وابنه أبو بكر، ليتم إطلاق سراحه في 954هـ/1547م بعد منح محمد الشيخ مدينة مكناس، ليتحول نحو فاس وهنا

¹ عبد الحق بنبيس، " الدبلوماسية المغربية في فجر العصر الحديث"، عن مجلة دعوة الحق، ع12، س1، ذو القعدة 1377هـ/ جوان 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م، ص92.

² Drague, Op.cit, T2, P84.

³ Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P84.

⁴ مجهول، تاريخ...، المصدر السابق، ص 14.

⁵ طوريس، المصدر السابق، ص 77-78.

⁶ حركة التصوف: وجدت بيئة صالحة لتنمو وتنتشر، مستغلة الوضع العام الداخلي المتردي والخارجي المنذر بالخطر فظهر رجال من شيوخ الزوايا وحاولوا تغطية العجز السياسي بالمغرب، فأصبح دور هؤلاء الشيوخ من الصوفية لا يقتصر على تلقين الأوراد والأذكار، وإنما يبتون الحماس الديني والحمية الوطنية في نفوس إتباعهم لمقارعة المحتلين فنالوا ثقة العامة بحسن سلوكهم وسعيهم لتأمين السبل وحماية المظلومين وإيواء الفقراء والإفاضة عليهم مما يدخل زواياهم من النذر والهدايا، فأحاط العامة الشيوخ بهالة من القداسة والإكبار واعتقدوا فيهم الكرامات الخارقة حتى أصبحوا في نظرهم يتصرفون بالإرادة ويؤثرون في الأحداث بالهمة والعزيمة، ورغم ابتعادها عن الحقيقة فإن لهذه المعتقدات أثر فعال في إرساء قواعد الامتثال والنظام لكل قيادة ناجحة. (ينظر: حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 43).

تدخل الحقيقة بالخيال الصوفي عند الافراني الذي نسج عملية دخول محمد الشيخ إلى فاس التي رفضت فتح أبوابها، حتى اشتراها من عند الشيخ أبي الرواين بخمسمائة دينار¹، الذي فتحها له في 956هـ/جانفي 1549م وإلقاء القبض على الوطاسي، وأخذ البيعة منها² فكانت النهاية الأولى للدولة الوطاسية، فسارعت بذلك المناطق في الدخول تحت كنفه، وفي 957هـ/1550م دان له كل المغرب تقريبا إلا بعض الجيوب بيد البرتغال (سبتة، طنجة مازاغان) والأسبان (مليلية) والجزائر في الشرق المغربي (غريسيف، وجدة)³.

وفي الوقت الذي كان فيه محمد الشيخ يوحد في المناطق ويرسي قواعد الدولة الجديدة وينعم بالنصر، ويتلقن هو وحاشيته وأفراد عائلته قواعد البروتوكول والمراسم الملكية بالعاصمة، كان أبو حسون الوطاسي الذي فر من قبضته يتجول في اسبانيا، يستغيث بملوكها، ويطلب منهم أن يعينوه على أمره، ولم يجده إلا في الجزائر⁴.

وبإقامة محمد الشيخ لهذه الوحدة توجه بنظره إلى أقرب المناطق القريبة منه فقام بإرسال حملة على مدينة تلمسان سنة 957هـ/1550م فكانت بداية توتر للعلاقات الجزائرية المغربية وكذا مناصرة أبي حسون الوطاسي وإعادته إلى الحكم تحت إشراف صالح رايس في 961هـ/جانفي 1554م، الذي طرد محمد الشيخ من فاس⁵، وكان قد أقام فيها نحو خمس سنوات كانت شديدة الوطأة على أهلها، أراق فيها الكثير من الدماء مثل قتله للشيخ عبد الواحد الونشريسي بغيا وعدوانا، وفرض سلطانه بالقوة على أهلها الذين جافوه وناصبوه العداء متعلقين بأيام الدولة الوطاسية بذكر أيامها بخير، لذا عندما تغلب أبو حسون والجيش العثماني عليه، خرجوا واستقبلوه استقبال الفاتحين⁶، وصور الافراني تلك اللحظات في كتابه النزهة بقوله: "... ولما دخل أبو حسون فاسا، فرح به أهلها فرحا شديدا، وترجل هو عن

¹ الافراني، المصدر السابق، ص 69-77.

² الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 29-30.

³ Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P166-167.

⁴ Drague, Op.cit, T2, P 61.

⁵ بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 58-59.

⁶ عبد القادر الصحرأوي، " اقطعوا رأسه بشاقور " عن مجلة دعوة الحق، ع6، ص1، جمادي الأولى 1377هـ/ديسمبر 1957م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1957، ص42.

فرسه، وصار يعانق الناس كبارا وصغارا، وشريفا ومشروفا، وهو يبكي على ما دهمه وأهل بيته... واستبشر الناس بقدومه وتيمنوا بطلعته...¹.

ولكن ما فتئ يخرج الجيش الجزائري من التراب المغربي، حتى زحف محمد الشيخ بقواته على فاس وقضي على أبي حسون وأنهى الدولة الوطاسية للمرة الثانية، ودخل فاس ثانية في 25 شوال 961هـ / 22 سبتمبر 1554م²، وعامل أهلها معاملة قاسية، بسبب تأييدهم لأبي حسون وفتح المدينة له، فقد ضيق عليهم وطالبهم بتعويض المال الذي أخذه الجزائريون فسفك دم 200 من أثرياء فاس لمحاولتهم إخفاء أموالهم³، ورغم كل هذه الأعمال فإن السلطان محمد الشيخ يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السعدية في المغرب.

وعلى إثر ذلك شعر ببقوته فخالجته نفسه والأحلام بطرد العثمانيين من بلاد المغرب ككل بضرب موعد كان قد قطعه للسلطان العثماني على اللقاء بمصر، فتكاثفت عدة أسباب في تلك الفرقة التي انتهت نهاية مأساوية، منها رفض محمد الشيخ الامتثال لمطالب السلطان العثماني في إطلاق سراح الوطاسي الذي أسره في 952هـ/1545م، كما أن محمد الشيخ كان ينعى السلطان العثماني بسلطان الحوالة بسبب الاعتماد على السفن في النقل⁴، مع دخوله في مناوشات من أجل تلمسان، فكان رد الدولة العثمانية عنيفا بأن طالبت برأسه، فأرسلت فرقة قطعت رأسه بشاقور كما فعل مع الفقيه عبد الوهاب الزقاق⁵، وعرض رأسه على السلطان سليمان القانوني باسطنبول ثم أصدر أمره الكريم أن توضع الرأس في شبكة نحاس وأن تعلق على باب القلعة⁶، ويقول الافراني في نزهة الحادي في ختام حديثه عن أبي عبد

¹ .الافراني، المصدر السابق، ص 73.

² . بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 58-59.

³ .طوريس، المصدر السابق، ص 218.

⁴ .الناصرى، المصدر السابق، ج5، ص 37.

⁵ . عبد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق: هو حفيد الفقيه علي الزقاق صاحب المنظومة المشهورة في الفقه المالكي، خطيب

جامع الأندلس، مدرس وعالم متضلع بفاس. (ينظر: الصراوي، المقال السابق، ص 41.)

⁶ . Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P 172.

الله الشيخ: " وحمل إلى مراكش بغير رأس، فدفن قبله جامع المنصور في قبور الأشراف هنالك، وقبره شهير"¹.

كما أن فترة أبنائه من بعده ما بين السلطان عبد الله الملقب بالغالب (1557-1574) والسلطان أحمد المنصور (1578-1603م) شهدت بناء الدولة وتثبيت أركانها، غير أن السلطان الغالب لم يوفق إلى كسب الرأي العام في المغرب ولا حتى ابنه من بعده ، لأن أخويه عبد المالك² (1576-1578م) وأحمد قاما ينددان بسياسة التحالف مع أعداء الإسلام وجاء محمد المتوكل بن الغالب (1574-1576م) إلى العرش فأمعن في سياسة التحالف مع أوروبا، فعمل الأخوان على رد العرش إليهما فتوجها لطلب المعونة من السلطان العثماني ضد ابن أخيهما، وأقنعه أن بقاءه مكتوف الأيدي حيال هذه الأحداث الخطيرة، سيؤدي حتما إلى ضياع أقاليم المغرب كلها من يد العثمانيين³.

وأمر السلطان بتجهز حملة من الجزائر، ودخلت فاس في 984هـ/مارس 1576م بقيادة رمضان باشا الجزائر (1574-1577م)، والإطاحة بالمتوكل المتحالف مع اسبانيا والبرتغال. الذي التجأ من طنجة إلى حلفائه، حيث أصيب هذا التحالف بضربة في الصميم في معركة وادي المخازن الشهيرة في 1 جمادى الثاني 986هـ/4 أوت 1578م⁴، وفقد فيها الملوك الثلاثة: ملك البرتغال سيباسيتان، وحليفه المتوكل وعبد الملك حياتهم، فسميت بمعركة الملوك الثلاثة⁵.

¹. الافراني، المصدر السابق، ص 93.

². عبد الملك: هو رابع أبناء السلطان السعدي محمد الشيخ المهدي وكنى عبد الملك بأبي مروان ولقب بالغازي والمعتصم بالله، تدرس في مدرسة والده تخرج منها من ضبط وتدبير أمر الدولة، فكان وال على إقليم تافيلالت ليغترب مع أخيه أحمد بالجزائر في عهد أخيهما عبد الله بالمغرب، الأمر الذي ساهم في تكوينه فقد تعلم التركية والإيطالية إضافة إلى الإسبانية، قاد حملة عثمانية ضد ابن أخيه وأخذ منه السلطة في 1576م وتوفي في معركة وادي المخازن أوت 1578م. (ينظر: عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ج3، ط1، دار ابن حزم، بيروت 1430هـ/2010م، ص 1505).

³. Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P 183-184.

⁴. الزباني، الروضة...، المخطوط السابق، ص 35.

⁵. Inconnu, Histoire du Muley Raxid, Roy de Tafilet, Gervais clovzier M.DC.LXX, Paris, P105-107.

على إثر هذه المعركة بويغ للسلطان أحمد¹ المنصور التي تشهد في عهده الدولة السعدية أوج عصورها ومراحلها في الاستقرار والتنظيم، وأعجب بنظم الدولة العثمانية² فحاول تقليدها في بنائه جيشا نظاميا على شاكلة الجيش العثماني، موحد الزى ومجهز بأحدث الأسلحة النارية، وضم أندلسيين وأوروبيين (علوج) وعثمانيين ثم سودانيين، وبقي هذا النظام في المغرب عدة قرون³، كما استحدث مجلس الديوان الذي يعقد يوم الأربعاء للشورى، ويضم أعيان ووجهاء الدولة لمناقشة القضايا والأخطار، ومنهم علماء القرويين، ولتحقيق الأمن تبنى العنف وهو الأمر الذي أراد قاضي فاس الحميدي أن يعاتب السلطان المنصور عليه فكان رده لو لا تلك القسوة ما أمكنك السفر في البلاد مع أصحابك لأيام في أمن ودعة⁴.

وقد ثار على السلطان أحمد المنصور خليفته بفاس وولي عهده ابنه محمد الشيخ المأمون فجهز له حملة لردعه وانتهى الأمر بإلقاء القبض عليه وإيداعه السجن، وحين هم للخروج منها ليعود إلى عاصمة ملكه مراكش، أصيب بالوباء الذي توفي به عام 1012هـ/1603م ولم يكن قد بث بعد في أمر ولاية العهد، لذا انقلبت الأحوال في المغرب وظهرت بوادر الفتنة والاضطراب، فقد قام أهل فاس برياسة قاضي الجماعة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني والفقهاء القاضي أبي الحسن علي بن عمران السلاسي والأستاذ سيدي محمد الشاوي وشيخ النظار أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، بمبايعة زيدان بن المنصور بمجرد ما دفنوا الملك الراحل يوم الاثنين 16 ربيع الأول 1012هـ/1603م⁵.

وكان السلطان المنصور قد اصطحبه معه لفاس ثم استخلفه عليها قبيل وفاته، ولما بلغ الخبر مراكش ثار أهلها ورأوا في تصرف الفاسيين استبدادا بالأمر من دونهم واستخفافا

¹ السلطان أحمد: أصبح سلطانا بعد معركة وادي المخازن، ومنح لقب المنصور، صحب أخاه عبد الملك لخارج المغرب نحو الدولة العثمانية، استعمل كل خبرته ومعارفه في فترة حكمه واهتم بالجيش، فكان عصره أزهى فترات هذه الأسرة.

(voir : Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P191-194.)

² الحسن السايح، " الثقافة المغربية في عصر السعديين"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س7، رجب 1383هـ/ ديسمبر

1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م، ص26.

³ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص47.

⁴ بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص126.

⁵ الافراني، المصدر السابق، ص282.

بشأنهم فبايعوا أبا فارس بن المنصور لأنه كان خليفته الرسمي بحاضرة ملكه، وبدلاً من أن يسعى ذوي المكانة والحكمة في تلافي الأمر وحل المشكل تسرع علماء فاس فأفتوا بوجوب قتال المراكشيين عملاً بحديث: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)¹.

وهو الأمر الذي جعل المغرب يدخل في وضع سياسي تميز بالاضطراب، وشهد دوامة متكررة من الأحداث ولكن باختلاف الشخصيات والأزمان، بحيث أصبح الإخوة ومن بعدهم أبناءهم يتقاتلون على كرسي العرش²، تارة في مواجهات مباشرة وفي أخرى بالاستناد على طرف ثالث، فهذا أبو فاس يستعين بالشيخ المأمون ضد زيدان الذي انهزم وفر إلى تلمسان³.

لتشتعل نار الفتنة بين المتفقيين أبو فارس بمراكش والشيخ المأمون الذي أعلن نفسه ملكاً بفاس⁴، وكانت الهزيمة من نصيب أبي فارس ودخول عبد الله بن الشيخ المأمون لمراكش ليقوم زيدان بطردهما منها بعد ذلك بدعم من الجزائر والقبائل الجنوبية ويفر الشيخ المأمون نحو الأسبان، مما جعل فاس تدخل في دوامة من الحرب بين زيدان وابن أخيه عبد الله بن الشيخ وأبي فارس، انتهت بطرد عامل زيدان وسيطرة عبد الله بن الشيخ وعمه أبي فارس عليها في 07 ربيع الثاني 1018هـ / 1609م، ليكتفي زيدان بمراكش صارفاً نظره عما سواها تاركاً أمر فاس وغيرها لابن أخيه ومنافسيه والثوار، لتدور الدوائر بين عبد الله وعمه الذي خنقه في جمادي الأولى 1018هـ / 1609م فكانت نهاية مأساوية لأبي فارس⁵.

في هذه الظروف يخرج الشيخ المأمون بفكرة اقتطاع العرائش للأسبان كشرط لدعمه في 4 رمضان 1019هـ / 1610م، فقدم سؤالاً إلى علماء فاس طالباً منهم الفتوى، حول اضطرابه

¹. الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، الحديث رقم 1853 اعتني به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض 1998، ص 773.
ينظر أيضاً: الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر، باب لا يصلح إمامان في عصر واحد، الحديث رقم: 16547، ط3، ج8، دار الكتب العلمية، لبنان 2003، ص 248.

². Inconnu, Op.cit, P22-23.

³. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 221.

⁴. محمد حجي، "ملاح عن المغرب العربي وقيام الدولة العلوية -2"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س14، صفر 1391هـ / أفريل 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971، ص164.

⁵. Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P 210.

إلى تسليم قطعة من أرض المسلمين لافتداء أهله من الأسر، هل يجوز أم لا؟، فانقسم علماءها إلى فرق فمنهم من منع هذا جملة وتفصيلا كقيام الشريف أحمد بن إدريس الحسني بالتوجه لمراكز العلم ومجالسه ونادى بالجهاد وإغاثة مسلمي العرائش، ومنهم من خاف وأجاز ذلك تحت غطاء الضرورة كالفقيه محمد بن قاسم ابن القاضي¹، ومن هرب اتقاء للفتنة كالإمام عبد الله محمد الجنان، الإمام أبي العباس أحمد المقرئ، والآخر فضل البوادي كالإمام الحسن الزيادي والإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي وغيرهما².

ليدخل مع الأسبان إلى العرائش بعد إفراغها من أهلها، وعندما وصل الخبر إلى علماء فاس خرج إليه بعض العلماء والأعيان من أمثال أبي القاسم ابن النعيم والشريف أبي إسحاق إبراهيم الصقلي الحسني ومحمد بن قاسم بن القاضي وغيرهم³، فطلب الشيخ المأمون من قائد جند الأسبان أن يضرب بمدافعه إرهابا وإظهارا لقوة الأسبان⁴، كما طلب المأمون من الوافدين عليه بالوقوف لقبطان السفينة «الماركيس دي سان خيرمان»⁵ أثناء نزوله وتحيته فأنكر الناس ذلك، ويظهر في تعرض وفد علماء فاس أثناء عودتهم للسلب والنهب وتجريد من الثياب من عرب الحيانة، فقط أبي النعيم احترم لأنه كان يرتدي زي القاضي⁶.

ورغم ذلك فإن الشيخ المأمون لم يجد الراحة بعدها فقد نزل بالفحص ثم دخل تطوان ليعود من جديد إلى الفحص حيث كان مصيره القتل تحت طائلة فعله من طرف المقدم محمد أبي الليف مع عصبته بفج الفرس في 5 رجب 1022هـ/1613م⁷.

وكنتيجة لما سبق فقد سمح هذا الوضع على ظهور بعض المتممرين الطامعين والواشيين على السلطة فزاد هذا من مضاعفات وخطورة الوضع باستغلال الأعداء الأمر، وعادوا لتهديد

¹ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 238.

² الافراني، المصدر السابق، ص 292-293.

³ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1397هـ/1977م، ص 288.

⁴ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 237.

⁵ عبد اللطيف الخطيب، "الثغور المغربية الأسيرة وجهاد المولى إسماعيل لتحريرها"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، ص7 جمادي الثانية 1383هـ/نوفمبر 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م، ص 49-51.

⁶ الافراني، المصدر السابق، ص 292.

⁷ محمد حجي، "تأملات حول الفترة التي سبقت تأسيس الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص10، ذو القعدة 1386هـ/مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص141.

السواحل من جديد على العرائش، المعمورة ، أصيلا، وظهور حركة العياشي الجهادية ضد الأسبان على النواحي الشمالية بمباركة السلطان زيدان، إلا أن وفاة هذا الأخير في 1037هـ/1627م أسقط ما بقي للسعديين من هيبة في أعين العامة، فانحصر الحكم السعدي خلال ثلاثين سنة الموالية بفاس ومراكش وأحوازهما فقط، في حين تأسست إمارات وتوسعت تحت قيادة المتصوفة الذين استغلوا الوضع لتحقيق مطامحهم في الحكم والرئاسة فأعلنوا خروجهم واستقلالهم تدريجيا بمناطقهم، لتدخل البلاد في مستتقع سياسي أعاد للأذهان صورة ما كانت عليه عشية ضعف الدولة الوطاسية¹.

فنجد فاس يتناوب عليها محمد ابن المأمون ثم عبد الله فعبد الملك الذي قتل في أواخر عام 1036هـ/ 1627م وآخرهم محمد بن زغودة، لتدخل بعدها تحت السيطرة العياشية ثم الدلائية التي كادت أن تتسلق على الحكم أواخر عصر السعديين لولا استعجالها من الرشيد العلوي لتقضي على نفوذها العلمي الذي امتزج بالسياسة وحول أهدافها من هداية إلى سيطرة² فأنهاى أمرها بنهاية مؤسفة، فرحل جل علمائها إلى فاس ثم أجلى بعضهم نحو تلمسان.

أما مراكش فيزحف عليها أبو المحلي في 1019هـ/1610م ويطرد زيدان منها الذي يعتمد على أبي زكريا يحي الحاحي ضده في 1023هـ/1614م، فيعيده إلى مدينته³، ليتناوب على مراكش بعد زيدان كل من ابنه عبد الملك من 1037هـ/1627م إلى 1040هـ/1630م ثم الوليد ابن زيدان إلى غاية 1045هـ/1636م ثم يتولاها محمد الشيخ الصغير إلى غاية 1065هـ/1654م الناجي من مطاردة أخيه السابق، الذي سعى إلى كسب ود الدلائيين⁴ ليقوم ابنه من بعده إلى غاية 1070هـ/1659م بعد قتله من طرف خاله عبد الكريم بن أبي

¹. عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط 1427هـ/2006م ص 328-329.

². Drague, Op.cit, T2, P70-71.

³. محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988، ص 143-144.

⁴. الافراني، المصدر السابق، ص 364.

بكر الشباني المعروف بكروم الحاج¹ ، وبذلك ينتهي آخر فرد من حكام الدولة السعدية علي يد الشبانين، الذي يبني جزء منهم الرشيد العلوي حين يدخل لمراكش.

في حين المناطق المختلفة من البلاد تقاسمها قادة محليون منهم أبو حسون السملالي المعروف بأبي دميعة²، أسس مدينة إيليج ما بين 1613-1614م وجعلها عاصمة إمارته بسط نفوذه على درعة وسجلماصة ما بين 1630-1631م، وتلقب بالسلطان، ودخل في صدام مع الدلائيين، والأشراف العلويين بسبب السياسة القاسية تجاه سكان تافيلالت، وقوض مجاله على سوس محمد بن الشريف في 1640-1641م، ليترك أخوه الرشيد بمدافعه إمارة إيليج في 1081هـ/1670م³.

أما في الشمال وفي ظل تراجع وانحسار القوة المركزية السعدية بالبلاد وتصدعها، قامت زاوية دلاء بجبر الكسر لوزنها الروحي على عدة قبائل⁴، كما كانت مأوى لأهل العلم والدين من الفتن التي طال أمدها لعقود⁵، وتعطلت على إثرها الصلوات والتعليم بالقرويين، فالتجأ العلماء وطلبته للمراكز النائية الآمنة وأمسى التعليم بدوي، في زاويتي دلاء وتمكروت⁶ وأسس محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي⁷ بعد وفاة والده في 1046هـ/1636م، إمارة مستقلة عن نظر السعديين، لتتوسع أفاقه وطموحاته إلى طلب البيعة في 1061هـ/1651م، فبايعه أهل فاس وكتبوها له بالقرويين وتوجهوا بها لزاوية الدلائية حيث قرأت على منبر مسجد⁸.

¹. Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P 183-184.

². كريم، المرجع السابق، ص 329.

³. حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 148-153.

⁴. نفسه، ص 141.

⁵. الأفراني، المصدر السابق، ص 396.

⁶. حجي، جولات...، المرجع السابق، ص 205.

⁷. محمد الحاج: هو أكبر أبناء أبي بكر الدلائي، ولد في الدلاء سنة 997هـ/1588م نشأ على الدرس والتحصيل في الزاوية البكرية مثل أترابه، نال عدة إجازات، وزاد تبحراً في العلم أثناء رحلة الحج عام 1041هـ/31-1632م لما لقّبه من شيوخ. ظهر توجه محمد الحاج السياسي والحربي في عهد أبيه بإرساله في المهمات العسكرية وبوفاة والده عام 1046هـ/1636م بدأت حركته الاستقلالية، ببناء مدينة جديدة لدلاء، وبايعته فاس وكتبت له نص البيعة بجامع القرويين في 1061هـ/1651م.

(ينظر: حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 161-166).

⁸. حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 142.

وبنى عاصمة جديدة لدلاء التي يطلق عليها مجازا باسم الزاوية الدلائية، وأسكن فيها القبائل من سكان الأطلس المتوسط مجاط، آيت يَمور،...، فدان له وسط وغرب وشمال المغرب ليزحف على الجنوب في 1056هـ/1646م للقضاء على منافسه محمد بن الشريف وتمكن من دخول سجلماسة، ليتوسط بينهما أعيان تافيلالت فعقد صلح تم بموجبه تحديد مناطق النفوذ ليفض خاتمه بزمان قصير لغير صالح الدلائيين، بتوسع محمد بن الشريف في الصحراء وتطلعه لامتلاك المناطق الخاضعة لهم على ضفاف نهر ملوية ورباط تازا¹ ليمحو الرشيد نور وعمارة هذه الزاوية عند السيطرة عليها، وحمل محمد الحاج وأولاده وأقاربه ليسكنوا فاس لينفي بعضهم لتلمسان².

أما حركة محمد العياشي ظهرت في كنف دولة زيدان بن أحمد المنصور جهة أزمور الذي ولاه منطقة الفحص، لمجابهة الأسبان الذين أوقع بهم، فطار صيته في الأفق اشتهر بسطوته على الأعداء، فأوجس منه السلطان السعدي تخوفا فأراد الغدر به ففر إلى سلا، حيث أشعل جذوة الجهاد ضد الأعداء فملك زمام الأمور بها مع ضم الرباط الأندلسية³، ليتصل به وفد من علماء فاس في 1047هـ/1638م، للردّ والقضاء على فتنة قبيلتي الحايينة والشراقة⁴ ليسقط صريعا ضد الدلائيين الذين قتلوه في أواخر 1051هـ/1641م⁵.

ونجمل القول كنظرة عامة على المغرب نهاية الأسرة السعدية كانت الخريطة الجغرافية والسياسية موزعة على عدة كيانات السلطان السعدي محمد الشيخ الصغير انحصر نفوذه بمراكش وأطرافها، الدلائيون بالمنطقة الوسطى، المجاهد العياشي بالسهول الشمالية والغربية على الأطلس، أبودميعة بسوس والجنوب المغربي، ثم العلويون بسجلماسة ودرعة⁶.

¹ حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 164-172.

² الافراني، المصدر السابق، ص 405.

³ نفسه، ص 281-382.

⁴ الشراكة أو الشراكة: لقب لعرب بادية تلمسان ومن انضاف إليهم، وسموا بذلك لأنهم قدموا من جهة الشرق بالنسبة للمغرب والعكس، وشكلوا فرق من الجند السعدي والعلوي. (ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 59).

⁵ Terrasse, histoire, T2, Op.cit, P 215-217.

⁶ كريم، المرجع السابق، ص 333.

تلك هي الخريطة السياسية للمغرب الأقصى في نهاية الحكم السعدي المتسم بصراع الإخوة على الحكم، مما سمح بتطاول بعض الزعامات الصوفية قصد الوثوب عليه بإنشاء إمارات مستقلة ومتناحرة فيما بينها، وساهم ذلك التناطح في فتح باب الاعتداء الأجنبي على السواحل وإعادة المغرب إلى ما كان عليه في بداية القرن 10هـ/16م، الذي انعكس على الجانب الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، مما استدعي مرة أخرى البحث عن كيان سياسي جديد يعمل على إعادة توحيد البلاد مرة أخرى والقضاء على الفوضى الداخلية ومجابهة الخطر الخارجي، فحمل ذلك الأشراف العلويين من الجنوب بتفيلالت.

ثانيا. السعديون وفاس:

1. فاس السعدية:

اكتست فاس مكانة هامة لدى حكام الدول المتعاقبة على المغرب منذ العهد الإدريسي فقد كانت العاصمة السياسية والروحية للبلاد وظلت كذلك حتى بعد تحويل العاصمة نحو مدن أخرى كمراكش أو مكناس أو الرباط، وتعود هذه الأهمية إلى احتواء هذه المدينة على أقوى مركز ديني بها وهو جامع القرويين، والذي حافظ على مكانته مع تعاقب الدول لأهميته الشرعية بالنسبة لهم والتأييد السياسي لتلك الأنظمة، ومنه كان الاهتمام بفاس، لذا لا يمكن التحدث عن فاس دون القرويين أو العكس، فهو بمثابة الحديث عن كائن مجهول الهوية، لذا كان لهذا الجامع دور في إسماع صوت فاس¹.

عند بداية ظهور أمر السعديين سعوا إلى عدم إزعاج الوطاسيين في فاس واكتفوا بمراكش التي دخلوها في 931هـ/1524م واتخذوها قاعدة ملكهم، لتصل الأمور لحد الصدام بينهما في 935هـ/1528م، لذا فعلماء القرويين لم يبقوا مكتوفي الأيدي بل تدخلوا في سنة 934هـ/1536م في وقف هذا الصراع الذي راح ضحيته خيرة أبناء المغرب، فبفضل مكانة هذه المدينة ومدى تأثيرها تمكن علماءها من إيجاد اتفاق صلح بين الطرفين كما تم توضيحه سابقا، وهذا إن دل ليدل على مقدار الاحترام الذي يكن لهذه المدينة ورجالها².

ولكن هذا الصلح لم يدم طويلا فنقض في 952هـ/1545م على يد محمد الشيخ المهدي وكانت معركة وادي درنة التي أسر فيها السلطان أحمد الوطاسي، فطلب فداؤه تسليم مدينة مكناس، وأصر على ذلك ليتخذها نقطة ارتكاز لدخول فاس فرضخوا لشرطه، مع خروج عديد المناطق عن الوطاسيين كتطوان، ودبدو وغيرهما، هذا الأمر مهد للسعدي حملته على فاس وطلبها من السلطان الوطاسي، بتسيير حملة في ربيع 1548م، ودارت معركة قرب

¹. Bressolette et Delarozière, Op.cit, P 268-269.

². Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P 84.

فاس في 955هـ/2ماي1548م انهزم فيها السعديون، فأعد حملة أخرى قوامها 30 ألف في أكتوبر 1548م حاصر بها مدينة فاس لمدة طويلة¹.

وعندما كان محمد الشيخ محاصرا لفاس، قيل له أن الأهالي لن يميلوا إليك إلا إذا بايعك الفقيه الإمام عبد الواحد الونشريسي، فبعث إليه من يخاطبه في ذلك، فرد عليه الفقيه: "بيعة هذا السلطان في رقبتي، ولا يجوز لي حلها إلا بموجب شرعي، وهو غير موجود"، ولم يرض السعدي بهذا الجواب²، فزاد هذا أهل فاس تمسكا بطاعة بني وطاس، كما وقف الافراني على أحداث دخول السعديين لفاس ومزج فيها بين اللمسة الصوفية الخرافية مع الحقيقة على أن محمد الشيخ اشترى فاس من عند الشيخ أبي الرواين بمبلغ خمسمائة دينار، ويشعر القارئ بالقناعة والاعتقاد الراسخ للفرد في تلك الفترة بهذه الأمور، وربط الأحداث برجال الحال والوقت من خلال الكرامات، وهذا يدل على مدى الحظوة والسطوة التي كان يشكها هؤلاء الصالحاء، حتى ربطوا بجسام الأحداث بالبلاد، ليزدادوا هيبه وأهمية تاريخية في الحياة اليومية للسكان بالمغرب³.

وأمام تعنت فاس عليهم بالمقابل خضوع عديد المناطق بالجنوب من مراكش، لأسفي والسوس، لم يجد محمد الشيخ بدا في اغتيال الفقيه عبد الواحد الونشريسي⁴ غدرا لرفضه المبايعة، على إثر خروجه من مجلس التدريس بجامعة القرويين، وكان قد رد على قول محمد الشيخ لأهل فاس: إن دخلتها صلحا ملأتها عدلا *** وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلا.

فرد عليه العالم ابن الونشريسي بـ:

كذبت ورب البيت لا تحسن العدلا *** ولا خصك المولى بفضل ولا أولى
وما أنت إلا مسرف ومعانند *** تمثل للجهال بالسمة المثلى.

¹ بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 56.

² الصحراوي، المقال السابق، ص43.

³ الافراني، المصدر السابق، ص69-71.

⁴ عبد الواحد الونشريسي: ابن أبو العباس أحمد الونشريسي، خلف أباه في كرسي المدرسة المصباحية لتدريس المدونة وقد حضر الإمام بن غازي درسه فأعجب به، لصداقة قديمة بين هذا الأخير ووالد عبد الواحد، وقد حلاه المنجور في فهرسته على أنه فقيه صالح وإمام وقته، ورع ومهاب ذا سمت حسن، فصيح العبارة.(ينظر: الافراني، المصدر السابق، ص 97-78).

فحقق عليه وأمر بمن يقتله، فأخذه على حين عندما انتهى من الدرس وهم بالتوجه مع ابنه إلى البيت، مع علمه بأمر تلك العصابة المترصدة لفتك به، ولكنه أسلم أمره لله تعالى فهو حسيبه ومولاه، ويورد صاحب تاريخ الدولة السعدية أن هؤلاء الشرذمة قد رموه بالسهام وهو جالس على كرسيه يدرس¹، في حين قال الافراني انقضوا عليه عند خروجه من باب الشماعين، ليجروه خارجا وأجهزوا عليه عند ذلك الباب في ذي الحجة 955هـ/1548م² فكانت تلك بداية السعديين المتعثرة التي لم يغفرها لهم سكان فاس.

ليدخلها بعد عراك عنيف في سنة 956هـ/1549م³، باستسلام أحمد الوطاسي وتسليم المدينة مع التعهد بعدم إلحاق الأذى بأهلها في شهر جانفي 1549م، ودخل السلطان السعدي منتصرا، وعفا عن أهلها، وأخذ البيعة منهم⁴، التي فكوها بعودة أبي حسون الوطاسي في 961هـ/1554م، ولكن ما فتئ أن عاد إليها وقتل الوطاسي في نفس السنة ولكن هذه المرة السلطان محمد الشيخ لم يغفر لها⁵ ف: "تحكم في أهل فاس بالإذلال والإهانة، وأدى حسائفه فيهم وقهر أهلها بأنواع الأفعال، ونفى أكثرهم للمشرق، وأجلاهم للجبال والبوادي وفعل بهم العجائب من الأفعال ذوات المصائب"⁶، كما طالبهم بتعويض ما أخذه منه الجزائريون عند دخولهم إليها مع أبي حسون، كما قتل كل من شك فيه بمحاولة إخفائه لماله هروبا من التعويض وبلغ عدد القتلى من الأثرياء إلى مائتين⁷.

وقد برر مارمول موقف السلطان محمد الشيخ أثناء معاتبة الفقهاء له في محاربة الوطاسيين على أنهم مسلمون، تذرع بحجة أنهم تركوا الفاحشة منتشرة في فاس نهارا جهارا كما تتبّع العلماء بالقتل، وقد ناصره في ذلك القاضي سيدي موسى بقتل العديد منهم⁸ مثل

¹ مجهول، تاريخ...، المصدر السابق، ص 17-20.

² الافراني، المصدر السابق، ص 77.

³ حركات، " فاس في ثورة..."، المقال سابق، ص 47.

⁴ Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 163.

⁵ بن خروف، المرجع السابق، ج 1، ص 59.

⁶ مجهول، تاريخ...، المصدر السابق، ص 27.

⁷ طوريس، المصدر السابق، ص 218.

⁸ مارمول، المصدر السابق، ج 2، ص 148.

القاضي أبي عبد الله الطرون وأخيه أحمد¹، لذا جعل عاصمته مراكش بدل فاس، هذه المدينة التي لم يشعر فيها بالاطمئنان، ليس خوفا من أهلها الذين تعلقوا بالوطاسيين، ولكن أيضا بسبب قربها من الجزائر².

وفي عهد السلطان المنصور حاولت مراكش سرقة الأضواء من فاس في الناحية العلمية بتحويل كل من برع ونبغ فيها إلى الحضرة المراكشية بطلب من السلطان المنصور، فازدانت مساجدها بخيرة العلماء والفقهاء والمحدثين، فأثر إيجابا على النشاط العلمي بها، كجامع الشرفاء الذي درس به أحمد بابا التنبكتي، لتغدوا مراكش العاصمة السياسية بفضل هذه الحركية، ومنبع العلم في الديار المغربية وسوق المعارف نافقة بها، كما امتازت بحلقات الدرس التي تعقد بشهر رمضان بحيث يتم اختيار مشايخ القراء والأسانيد المبرزين في السبع وحسن الأداء والتلاوة وسرد الجامع الصحيح للبخاري³، فأنتج رحلة للعلماء عرفت برحلة الشتاء والصيف أو الإيلاف من فاس إلى مراكش من أجل الحصول على العطايا والهدايا والمناصب⁴.

ولأهمية فاس فإن ولايتها هم عادة من أهل الأسرة الملكية ويحملون عادة لقب ولي العهد فمن حكم فاس من هؤلاء الأمراء سيرت له سدة الملك، لاحتوائها على جامع القرويين الذي فيه يتم كتابة البيعة وقراءتها، لذا فمن قبله هذا الأخير يولى ومن رفضه يعزل، وكنتيجة لذلك كانت فاس كثيرة التمرد على هؤلاء الحكام بسبب سياستهم، فهذا الأمير محمد الشيخ المأمون ولي عهد السلطان المنصور بسبب أفعاله وسيرته السيئة، فقد شكاه الناس لوالده السلطان الذي نهاه لكف أذاه ولكن دون جدوى، فراوده وقبض عليه وسجنه بمكناس في 1011هـ/1602م ورد المظالم، واستخلف ابنه زيدان عليها، ليتوفى بها بالوباء⁵.

¹. القادري، المصدر السابق، ج1، ص 154.

². Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 169-170.

³. كريم، المرجع السابق، ص 315-316.

⁴. الأفراني، المصدر السابق، ص 268-270.

⁵. نفسه، ص 268-270.

لتعصف ريح الفتن بالمغرب ب وفاة السلطان المنصور وتظهر الشحنة بين الإخوة الأعداء ويخرج الشيخ المأمون على أخيه زيدان من فاس واستبد بالحكم فيها، واستدعى الشيخين الفقيهين المحققين قاضي الجماعة بفاس أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، ولامهما على مبايعة زيدان وفي قولهما أن هذا الأخير أمه حرة وإخوته من الإمام¹، وأراد المكر بهما ولكن أرسلهما مع الجيش إلى مراكش لأبي فارس لينظر في أمرهما، فالقصار توفي في الطريق على مشارف من مراكش، أما القاضي أبو القاسم فقد صفح عنه أبو فارس ورده إلى فاس².

ليولى عبد الله بن الشيخ على فاس واتخذ جنده وبطانته من شراكة، ومنحهم الأراضي المجاورة لفاس فعاثوا فيها فسادا في 1016هـ/1607م، فثار عليهم قائد فاس سليمان بن محمد الشريف الزرهوني الملقب بالأقرع في ربيع 1020هـ/1611م، وأخرج هؤلاء الجند من فاس فمال إليه سكان المدينة وأطاعوه³، وحاول عبد الله بن الشيخ عبثا استرضاء أهل فاس وإصلاح ذات البين مع الجند لغيابه بسلا أثناء الفتنة، فرفض أهل فاس ودارت عدة معارك بينهما أثخن فيها الشراكة تارة، وأحكم السيف في رقاب أهل فاس تارة أخرى⁴.

كما قاتل أهل فاس عبد الله بن الشيخ بسبب سياسته المتهورة من عام 1020هـ إلى غاية 1033هـ/1623م، وعند مقتل أبيه خرج معه سليمان والمربوع للأخذ بثأره، ولكن العامة امتنعت عن ذلك لأن والده تنازل عن العرائش، فاجتمع أهل فاس بجامع القرويين وقرروا رفض رئاسة سليمان والمربوع وتعيين آخرين⁵.

لتدخل فاس على إثرها في دوامة من الفتن والصراعات بين زعماء العدوتين تارة وبين الأحياء نفسها تارة أخرى أو ضد الأمراء والسلطين تارة ثالثة، كتعيين الفاسيين إدريس بن أحمد الجوطي زعيما عليهم، الذي قتله أبو الربيع سليمان، فعمت المدينة الفوضى وانتهت

¹. مجهول، تاريخ الدولة...، المصدر السابق، ص 78.

². Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 210.

³. الافراني، المصدر السابق، ص 338.

⁴. Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 210-211.

⁵. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 264.

بقتل أبي الربيع في 1026هـ/1617م من طرف المربوع، الذي نصب عبد الرحمن الخنادقي حاكما على فاس، ليقوم وزير عبد الله ابن الشيخ القائد أحمد بن عميرة بمحاربة وقتل كل من عبد الرحمن والمربوع سنة 1028هـ/1619م، وأمام هول هذه الأحداث اعترفت فاس بسلطة عبد الله ابن الشيخ، المعروف بسوء السيرة والسريرة¹.

وفي خضم هذه الأحداث المشحونة بالتوتر والقتل، ظهرت دعوة جديدة من عند محمد بن الشيخ المأمون المدعو بزعودة في منطقة الهبط، وهزم أخاه عبد الله ودخل فاس في شعبان 1028هـ/1619م، وقتل عمال أخيه وصادر أملاكهم، ليعيد عليه عبد الله الكرة ويدخل فاس من جديد في رمضان ويعفو عن سكانها، ليتجدد القتال بين عبد الله ومحمد ابني الشيخ المأمون وينتهي بفرار محمد، الذي قتله ابن عمه أحمد بن زيدان المعروف بأحمد الصغير في 1037هـ/1628م غدرا بالقصبة².

وأمام اضطراب أهل فاس في ولائهم لعبد الله، فقد خرج فاس البالي عن طاعته بعد مقتل سليمان والمربوع، ليدخل مستنقع الحرب الأهلية بين عدوتيه، على إثر مقتل القاضي أبي القاسم بن أبي النعيم في يوم الجمعة 5 ذي القعدة 1032هـ/29 سبتمبر 1623م، وبين زعماء العدوتين محمد بن سليمان اللمطي وعلي بن عبد الرحمن وبعد قتل محمد أقيم ابن الأشهب مع ابن عبد الرحمن، فكانت بينهما حروب، فأمست فاس في أيامهم على شيع وفرق ومن بعدهم، وعبر عنها الافراني بعبارة جريئة بليغة فقال: "وتحول جوها من عاطر الأنفاس إلى نتن الأفق"³.

مما جعل المدينة تنغمس في دوامة من الصراع وتعيش الخوف والرعب المستمر، ويعطي الافراني صورة لتلك الحالة بما حدث بجامع القرويين، على إثر هطول المطر تدافع الناس من الصحن إلى الداخل، فظن الباقي أنها هجمة من الشراكة، فخرج الناس من جامع القرويين ليطال الخبر باقي المساجد فمن جامع الأندلس لطالعة وغيره فكانت الهزيمة على

¹. حركات، " فاس في ثورة ..."، المقال سابق، ص 47.

². الافراني، المصدر السابق، ص 342.

³. نفسه، ص 343.

كل مسجد، فهرب الناس من المساجد ساعة الجمعة، وفي حالات كثير تعطلت الصلوات الخمس بالقرويين نتيجة تلك الفتن¹، فضاق أهل فاس بحكم السعديين الذي تراجع وانحصر وأصبح على درجة متقدمة من الضعف، ففضلوا الدخول تحت راية المجاهد العياشي وبعده سلطة محمد الحاج الدلائي².

حكم الدلائيون فاس مدة خمس وعشرين سنة من 1051هـ إلى 1076هـ/1641-1666م وعاشت بين ثورة وسلام مع جيرانها من القبائل خصوصاً الحياينة والشرافة، وكذا بين مدنها برئاسة أسرتي الليريني بعدوة الأندلس وابن الصغير بالقرويين، كما خرجت على حكامها الدلائيين في عديد المرات، فثارت عليهم ما بين 1070-1073هـ/1660-1663م تحت تأثير ثورة خضر غيلان بالشمال، لتعود إلى حكمهم تلقائياً ما بين 1073-1074هـ/1663-1664م، لتعلن انفصالها ما بين 1074-1076هـ/1664-1666م بقيادة القائد اليريدي والي فاس الجديد، بمناصرة صهره أحمد بن صالح الليريني رئيس عدوة الأندلس ومعارضة فاس البالي³.

وبسبب حالات عدم الاستقرار في الولاء سير الدلائيون عليها عدة حملات كحملة الأمير عبد الله بن أحمد الدلائي في رمضان 1072هـ/1662م، وحملة السلطان محمد الحاج في صفر 1074هـ/سبتمبر 1663م ليمهد المناطق ويفرض الأمن، وولى السلطان على عدوة الأندلس أحمد بن صالح الليريني وابن الصغير على عدوة القرويين وأسند القضاء للفقهاء أبي عبد الله المري التلمساني⁴، ليلجأ الفاسيون إلى محمد بن الشريف العلوي في الأخير⁵، لتثور ضد الدلائيين عدة مناطق كسلا والرباط والقصر بقيادة خضر غيلان فكان هذا من وراء

¹. Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 211.

². حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 166.

³. نفسه، ص 243.

⁴. Terrasse, Histoire, T2 , Op.cit, P 216-217.

⁵. حركات، " فاس في ثورة..."، المقال سابق، ص 47.

إضعافها¹، وفسح المجال أمام ظهور الدولة العلوية، هذه من بين معالم فاس السعدية التي سيطرت على حالها كثرة الحروب والفتن وكان القرويين في وسطها.

2. أهم منجزاتهم بها:

بالرغم من أن بعض الدول التي سبقت السعديين جعلت من فاس عاصمة لها، فإن كل دولة حاولت ترك بصماتها فيها، فمن أضاف سورا ومن بنى مدينة ومن أقام صرحا، فإن السعديين لم يطمئنوا فيها، لذا فضلوا عليها مراكش كعاصمة لهم، وربما ذلك يعود لقربها من خطر جارتها الجزائر²، أو لأن السعديين لم يكونوا محل ترحيب فيها بسبب الطريقة التي دخلوا بها بقتلهم أهم رجال العلم فيها، مما جعل هناك نوعا من عدم التقاهم والثقة التامة بين الطرفين رغم جعلهم مراكش عاصمة لدولتهم، إلا أنهم ركزوا جهودهم في السيطرة على هذه المدينة المتمردة عن سلطتهم.

لذا وجهوا جهودهم نحو العمران العسكري بالمدينة، فالمؤسسات العسكرية المشيدة بفاس أكثر ما شيدته هذه الدولة من مؤسسات اجتماعية واقتصادية، فما أنشأوه من قناطر وسدود لا يقارن بالمرحلة السابقة المرينية³، وعرفت العمارة المغربية تطورات جديدة منبثقة عن التطورات الراهنة، وتحول المنطقة لحالة دفاع سواء في العهد الوطاسي أو الشريف⁴.

لتشهد فاس في عهد السلطان المنصور نوعا من الاهتمام بإنجاز عدة مرافق مدنية وأخرى عسكرية، وقد عدد أحمد المقري في روضته أهم تلك الأعمال من بنائه قنطرة وادي أم الربيع السفلي، كما زاد في ربط العدوتين بقنطرة، وإتمامه لقنطرة والده على وادي سبو

¹. حجي، الزاوية الدلانية...، المرجع السابق، ص 244.

². بن خروف، المرجع السابق، ج1، ص 57.

³. أحمد بن القاضي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تح: محمد رزوق، ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط 1986م، ص 42.

⁴. عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج5، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993م، ص 50.

وبناء سور حول المدينة، وتزويدها بالماء ببناء سدين على وادي بوطوبة ولا يزال لحد اليوم وانفق عليها أموال باهظة¹.

أما العمارة العسكرية فقد بني السعديون بفاس حصنين عرفا بالباستيون² عند العامة وهما باستيون باب الفتوح، وباستيون باب الجيسة كقلعتين محصنتين متقابلتين³، فأحدهما التي بدار الرخاء قرب قبة السلاطين والأخرى الذي بجحر القطران قرب زاوية سيدي علي حماموش⁴، وكان الشروع فيهما 22 ربيع الأول 990هـ/15 أفريل 1582م، كما زود السلطان أحمد المنصور ببناء أبراج على أسوار فاس الجديد⁵، وهذه الأسوار المدعمة بالبروج الصالحة لإقامة نظام المدفعية⁶، مستندا في إتمام بنائها على أموال أحباس القرويين⁷ ويرجع الد. عثمان إسماعيل بناء هذين البرجين لحماية المدينة من خطر الهجمات الخارجية ولإضفاء نوع من المهابة لهذه المدينة التاريخية⁸، فلو سلمنا بذلك مع الأستاذ عثمان إسماعيل، فإننا نقول مما يخاف السلطان أحمد المنصور داخليا؟، في حين لا يأبه بالسواحل المهددة فعليا؟، وربما هنا تبرز تلك التسمية التي أطلقها عبد الهادي التازي بقوله: "المدينة المتمردة".

¹. أحمد بن محمد المقرئ، روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ط2 المطبعة الملكية، الرباط 1403هـ/1989م، ص 22-23.

². الباستيون: كلمة لاتينية معناها البرج أو الحصن، وهي مما دخل إلى العامية المغربية من اللغة الإسبانية. (ينظر: العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور، ج3 ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1993م، ص 241).

³. الأفراني، المصدر السابق، ص 245.

⁴. القادري، المصدر السابق، ج1، ص 376.

⁵. Bressolette et Delarozière, Op.cit, P 269.

⁶. السايح، المقال السابق، ص 27.

⁷. مجهول، تاريخ الدولة...، المصدر السابق، ص 63.

⁸. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 60.

ثالثاً : السعديون والقرويين:

حاولت كل الدول المتعاقبة على تخليد اسمها في أهم مركز علمي بفاس، وأيضاً السعديون سعوا إلى ذلك، ومما قاموا به بالقرويين:

1. التحسينات الداخلية:

أ. القبلة في العهد السعدي: من الجوانب التي ظلت ترهق الجامع هي سمت القبلة الذي وضعه إدريس الثاني أثناء بناء جامع الشرفاء، والذي اتخذ كمرجع في وضع قبلة جامع القرويين، وأقر علماء التعديل والقضاة أن قبلة الجامع تزيد عن الحد المسموح به، مما تطالب كل مرة محاولة إصلاحها، فكانت كنازلة أرهقت العلماء في كيفية التعامل معها، وأوجدت جدلاً بينهم، ليتوسع نحو المشرق، وأثيرت هذه المسألة على بلاطات الحكام فسعوا لإيجاد حل لها، فقد عقد السلطان أبو العباس الوطاسي مجلساً حولها، بعد مراسلة الشيخ التاجوري له يستفسره على رأيه في شأن قبلة القرويين، فحولها الأمير على علماء مدينة فاس فعبد الرحمن بن علي سقين، عبد الواحد الونشريسي وهؤلاء من صف التاجوري فسكتوا فكان جواباً لهم، ولم يرتض الشيخ عبد الوهاب الزقاق والشيخ اليستيني السكوت، ورغم ذلك فقد بقيت فكرة التاجوري هي المسيطرة¹.

لنطرح مسألة القبلة من جديد في العهد السعدي في أيام محمد الشيخ الصغير (1636-1654م) في حدود 1060هـ/1650م من أواخر الملوك السعديين، طغى الحديث مجدداً عن مسألة القبلة، فكان هناك اجتماع ضم رجال الفقه ورجال التعديل وأسفر الاجتماع على إقرار "الجهة الصغرى" لتوفر الوسائل المحددة لسمت القبلة، ولكن نقض البنيان مما يرهق كاهل المسجد، فاكتفوا بتكليف المؤذن بعد إقامة الصلاة بترديد انتباه إلى الانحراف ولترسم في المحراب نفسه علامة تحدد الجهة المطلوبة وهو ما كان متعارف عليه بين الناس منذ زمن ولا يزال².

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 658.

². نفسه، ص 659.

ب. **خلوة الأسبوع العليا:** وشيدت بالركن الجنوبي الغربي من المسجد قبالة خلوة الأسبوع السفلى، وكان لها مطلع على يسار الداخل من باب الخلفاء واحتوت على 15 درجة، وبنى الخلوة العليا السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله (1557-1574) في 970هـ/1562م وعرفها ابن القاضي في الجذوة بزواوية الحزابين، وكانت أموالها قد أوقفها عليها منشئها، وكان يختم بها القرآن كل شهر ويقرءون سورة الكهف كل جمعة بعد صلاة العصر، وعددا من الصلاة على النبي (ﷺ) دُبر كل قراءة، وكذا بين العشاءين لليلتي الاثنين والجمعة، ونقش على سواريتها إن تأسيس هذه الخلوة يعود للسلطان أبي فارس عبد العزيز عام 970هـ/1562م وبها أربع غرف¹.

كما عرف هذا المكان بمصرية المفتي حيث انتصب بها بعض المفتين لفض نزاعات العامة، كما كانت ملاذا للفضليات والفتيات من أهل فاس، قصد الاستماع للدروس التي كانت تلقى من أهم كرسي علمي عرفه تاريخ القرويين بالركن الغربي الجنوبي على نحو ما كان في الأروقة الشمالية المطللة على الصحن، وبسبب الإصلاحات المتأخرة أجهزت على الأسبوع الأعلى كحذف الدرج الصاعدة له، وأهمل الأسبوع وهدم ساباطه، لتصبح في الأخير مخزنا للمخطوطات القديمة، وذلك على إثر تنسيق الخزانة العلمية عام 1333هـ/1914م كما تم فتح في جدارها الشمالي نافذة تطل على البلاط العمودي، الممتد من على طول أبواب الجانب الغربي وأخرى على البلاط الأفقي للجامع².

ج. **إنشاء خزانة السعديين العلمية:** أولى السعديون اهتمامهم بذخائر العلم وأماكنه ومحفوظاته فأسس عبد الله الغالب خزانة ابن يوسف بمراكش عام 965هـ/1557م وأوقف عليها نفائس الكتب، كما شحن أيضا مكتبة جامع الشرفاء بمراكش بذخائر التصانيف ليجعلها في مستوى خزانة القرويين³، وكذا فعل الأمير أبو فارس بنا مسجد أبي العباس

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص334-335.

². نفسه، ص335-336.

³. مصطفى بنعلة، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العهد السعدي من خلال حوالات تارودانت وفاس، ج2، ط1 منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية 1428هـ/2007م، ص8.

السبتي وجواره أنشأ خزانة عمرها¹، وما قام به السلطان المنصور وابنه زيدان على الخزانة القرويين بفاس، فخلدا اسميهما، وعملا على كسب علماء القرويين إلى صفهما، فأنشأ الخزائن العلمية، أثناء مراحل استقرار وقوة وازدهار هذه الدولة.

أنجز بالقرويين السلطان أحمد المنصور الخزانة الشهيرة بالسعديين جهة القبلة وعن يسار خزانة المصاحف العنانية في سنة 1010هـ/1601م، على غرار الخزانة العلمية التي أنشأها أبو عنان المريني بالركن الشرقي الجنوبي للقرويين، وكذا للحاجة المتزايدة من طلبه العلم كما اعتبرت كتوسعة احتاج إليها الجامع، ومن يذهب لمنافستها ومباهاتها للخزانة العنانية² وقدرت ذخائرها سنة 1022هـ/1613م بـ 32 ألف مجلد³، وسميت بالخزانة الأحمدية الشريفة نسبة لمنشئها ومنهم من نعتها بالسعدية والإمام المقري يسميها "الخزانة العليا" وجعل للخزانة حرم كان المطالعون يجلسون عنده لمراجعة المخطوطات، وهو يفتح على جامع القرويين بمقربة من خزانة المصاحف العنانية ولا يزال أثرها مشاهدا إلى الآن⁴.

أما القبة المعدة لوضع الكتب وترتيبها، فإنها مربعة الشكل من خمسة أمتار ونصف وعلوها سبعة أمتار، موضوعة بها رفوف خشبية للكتب سقفها من خشب (نوع البرشلة) واحتوت على ثلاثة أنواع من النقوش على الخشب والجبس كما طعمت بكلمات شكر وثناء على الله مثل (ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، ...) وظهر أعلاها من الخارج على شكل هرمي مغطى بالقرميد مع وجود عدة نوافذ لإدخال الضوء والهواء للقبة⁵، ومزودة باب من نحاس مغلق يحتوي على أربعة أقفال، لكل منهم مفتاح موزعان على الأعوان، وذلك قصد زيادة الحيلة والحرس على الخزانة، فإنها تفتح بحضور جميع ولا تغلق إلا بهم جميعا على نهج ما كانوا عليه عند بناء المستودع أيام الدولة الموحدية وعمد السلطان المنصور إلى كراء

¹ .المقري، المصدر السابق، ص 59.

² .ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11، صور داخلية للقرويين، ص 445.

³ .العمراني، المقال السابق، ص 174.

⁴ .التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 341.

⁵ .عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 102.

رباع جامع القرويين التي قبض منها الناظر 80 ألف، وأول ما قام به أصلح وبني القبة الجديدة، كما أوقف فيها من نواذر المخطوطات والكتب بالشراء أو الاستنساخ¹.

كما دعموا الغرفة بإسطرلاب تمّ إنشاؤه سنة 950هـ/1543م، وصنعه المعلمان علي ومحمد ابنا محمد الأزدي المعروف بالفلوس تحت رعاية وإشراف الفلكي محمد الصغير وهو حينه شيخ الفلكين، كما زود السعديون جامع الأندلس بثريا وهي الثريا الرابعة في ق 11هـ/17م كمحاولة لتقليد النماذج القديمة الجميلة، وامتزجت فيها تأثيرات الزخرفة الشرقية بتأثير عثمانى مع زخارف مدبية وزهيرات ذات أربعة أوراق مع عسف النخيل².

2. التحسينات الخارجية:

أ. تعزيز مصدر الماء: تدعمت القرويين بمصدر خامس للماء، لتزويد الخصة الغربية بما تحتاجه من ماء، بعد البئر وإدخال ماء الوادي الذي جلب للسقاية الطويلة التي بناها المظفر بجانب باب الحفافة، وبعد عين كرنيز المجلوبة لدار الوضوء وليلة باب الحفافة الداخلية وسقاية الشباك ثم خصة الحسناء وبعد عيون ابن اللصّاد المجلوبة لباب الحدودي، تدعمت بمصدر آخر لسد حاجياته بإنشاء المعدة موجودة يمين الخارج من سوق الشماعين ويجري منها ماء إلى الخصة الغربية يعود لهذا التاريخ، كما شقت بصحن القرويين ساقية يجري فيها الماء الذي يفضل عن الخصة الغربية، لينزل للمعدة مقابلة ليوزع على بعض الدور المجاورة ولم تتأثر مصادر المياه بجامع القرويين من خلال مسارها التاريخي إلا خلال الجفاف الشامل لمدينة فاس وكذا النضوب الشامل عام 1043هـ/1633م ما عدا هذا لم يحدث أي عطل³.

ب. الخَصّة الشرقية والغربية وقبتهما⁴: الشرقية المعروفة بالخصّة الحسناء، تعود في الأصل إلى الموحدين، ولكن في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي تلفت، فجددها بعد

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 341-342.

². عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، ج5، المرجع السابق، ص 135.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 340.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 16. الخاصة بصور بعض المرافق الخارجية للقرويين، ص 450.

معركة وادي المخازن بإرسال خصة عظيمة جلب رخامها من فرنسا¹، لجامع القرويين مع كرسي من المرمر توضع عليه وزنهما معا مائة قنطار²، واغتتم السلطان الفرصة فبنى فوقها قبة طليت بالذهب الأحمر من الداخل والخارج وهذا في 996هـ/1587م ونقش عليها أبيات شعرية من الداخل والخارج حسب المقرئ، ووشحها من الداخل بالأبيات نفتبس منها:

كهف الملوك أبو العباس أنشأني *** بحر المكارم من معد بن عدنان
حزت المفاخر بالمنصور أجمعها *** ومن علال سنام المجد أرساني
من جاء يشكو الظماً يوماً وقبّلتني *** أغناه ما قد همى من صوب أجفاني³

فهذه الخصة الشرقية من عطاءات السلطان المنصور السعدي للقرويين، كما أن القبة التي عليها من مآثره والشعر الذي يكلل القبة من الخارج جله لأبي العباس الغرديس (ت1020هـ/1611م) منها:

حُسْن سنى منظري يستوقف النَّظْرَا *** وفائق الصنع مني طَرَزَ الطُّرَا
حَبَاب ماء من الدر النثير عَادَا *** وصوب وردي من ذوب اللّجين جرى⁴.

أما فيما يخص الخصة الغربية فقد لمع من الأمراء السعديين الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد الشيخ بن المنصور، سعى لتجميل الجانب الغربي من صحن القرويين بخصة وقبة في 1018هـ/1609م تفوقان من حيث الفن ما كان جده المنصور قام به في الجانب الشرقي⁵ وطرزت القبة بأبيات من شعر زاهرة منها:

يا من ترشّف عذب الماء من الظمّأ *** عليك أقسمت بالأحزاب والنور
تدعو بنصر من لاحت محاسنه *** على الدنا كهلال فوق الديجور
فأخلص له دعوة تمحو إساءة *** بجاه أمّ القرى والبيت والطور⁶.

¹. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P196.

². الافراني، المصدر السابق، ص 245.

³. بن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ص 46.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 337.

⁵. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 129.

⁶. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 338.

وعلى قوس دائرة عن اليمين واليسار ثمان دوائر نقش عليها (بسم الله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله) وعلى جوانبها الخارجية زينت بأبيات شعرية تخلد تفوق الحفيد على الجد ومنها:

بدائي نسخت لما تلت سورا *** من الجمال الذي أبدي بها صوراً

آيات تلك التي قالت مصرحة *** (حُسن سنى منظري يستوقف النَّظراً)

وعلى واجهة الخصة في أعلى المصطبة التي خصصت هناك لملقن الناس نوازل الوضوء حضيت أيضاً بأبيات شعرية، وإذ كانت سواري القبة الشرقية تخلو من الكتابات فإن الغربية امتازت ببعض النقوش التي تحمل أسماء وتواريخ من عهد بني مرين من خلال الساريتين المتقابلتين اللتين تجاوران جدار الصومعة، مثل أبي العلا ابن الخليفة المنصور أبي يوسف عبد الله أبي الحسن علي وبناء هذه القبة تم طمس "التربيعة المقوسة" المغروزة في الجدار الشرقي بالصومعة الحاملة لاسم أحمد بن سعيد الزناتي بتاريخ 345هـ/956م¹.

وقبتان سعديتان قامتتا في وسط الجانبين الضيقين للصحن، وكل قبة ذات ثلاثة أوجه وبكل منها ثلاثة عقود أوسطها أكثر اتساعاً، كل منهما محمول بثمانية سوار في محور الصحن مثل الأروقة الموجودة في القصر الحمراء²، وواجهاتها الخلفية متصلة بالجدارين ويغطي القبتين قرميد أخضر اللون تذكر بقبتي بهو السباع بالقصر الحمراء بغرناطة، ولكنها تقوم على دعائم بدل الأعمدة الرقيقة الموجودة ببهو السباع³.

في حين الفوارق بينهما تميز بين عصرين في البناء، فالقبة الشرقية تخطيطها ونظامها مثل ما اعتمد عليه السعديون في بناء أضرحتهم بمراكش بينما أساليب القبة الغربية متأثرة أكثر بأسلوب المدارس الفاسية في ق8هـ/14م، خاصة مدرسة الصهريج، فإن التوجه نحو الذوق شبيه بالمنشآت الفاسية القديمة والتأثيرات الأوروبية أكثر من الذوق الذي ساد المؤسسات المراكشية⁴.

¹ . التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 339-340.

² . El-Abbassi, Op.cit, T1, P115.

³ . Terrasse, La Mosquée, Op.cit, P70.

⁴ . Ibid, P 71-72.

كما دعا الد. عثمان إسماعيل إلى رفض فكرة تحجر الفن وقلّة الذوق لهذا العهد، بسبب التذرع بقلّة الآثار الباقية والمحصورة في أضرحة السعديين بمراكش، وقبتي الخصتين بصحن جامع القرويين وبعض الخرائب المتبقية من القصر البديع بمراكش، وهذا ما أعاق الدارسين على الوصول إلى حكم على مدى حيوية الفن السعدي¹.

تلك هي أهم المنجزات والتحديثات التي أسهم بها السعديون في جامع القرويين مع المحافظة على الإطار العام للجامع بالمرافق التي اكتسبها في الحقب السابقة، وهذا يعود لإدراك السعديين لأهمية وقوة وفضل هذا الصرح فأولوا عنايتهم به، فإنهم بعد الاهتمام بزاوية الحزاين بالركن الجنوبي الغربي وجهاً نظرهم نحو الصحن للاعتناء به وإعادة الاعتبار له لتحسين صورتهم عند سكان المدينة².

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 89.
². نفسه، ص 130-135.

الفصل الثاني: فاس والقرويين في العهد العلوي: (11-13هـ/17-19م)

تمهيد:

ولإتمام نظرتنا على مدينة فاس وجامعها، نقف أيضا على ما عاشته هذه المدينة وجامعها في العهد العلوي، على نفس النقاط التي عرفناها في الفصل الأول الخاص بالسعديين، من حيث العلاقة والمواقف السياسية في ظل فترة اتسمت هنا بالحركية والتغيرات على المستوى الداخلي والخارجي.

أولا. الدولة العلوية:

1. التعريف بالشرفاء العلويين:

يجمع نسابة العرب والمغرب على أن نسب العلويين بالمغرب، صريح ومتصل برسول الله (ﷺ)، ومن أمتن الأنساب كما صرح به الضعيف¹ والزياني²، والناصر³ ورفع الافراني عمود نسبهم أنهم من أبناء: "الشريف بن علي بن محمد بن علي بن يوسف بن علي الملقب بالشريف ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد بن أبي القاسم ابن الحسن ابن عبد الله ابن أبي محمد ابن عرفة ابن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل ابن القاسم ابن محمد المدعو النفس الزكية ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت رسول الله (ﷺ)".⁴

فأصل سلفهم من ينبع النخل، التي استقر فيها عقب جدهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه والتي اقتطعها له النبي (ﷺ)، فكان أول من دخل منهم المغرب الحسن بن قاسم إلى سجلماسة التي كانت مركزا دينيا وملتقى إستراتيجي هام، ولقب باسم الحسن الداخل وعرف بالعلم والصلاح والورع فأقبلت العامة عليه، وكان دخوله في أواخر ق7هـ/13م وكان ابن

¹ محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، تح وت: الأستاذ أحمد العماري، ط1، نشر دار المآثورات، الرباط 1406هـ/1986م، ص5.

² أبو القاسم الزياني، البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول، تح: الأستاذ رشيد الزاوية، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992، ص29.

³ أحمد بن الناصري، كتاب الاستقصا، ج6، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص11.

⁴ الافراني، المصدر السابق، ص409.

الستين سنة وهناك من يقول أنه دخلها في 664هـ/1265م أي في العهد المريني في دولة أبي زكريا بن عبد الحق ووفاته في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق¹.

وقال الإمام أبو سالم العياشي في رحلته أن الحسن دخل في المائة السابعة، وكان سكناه ينبع النخيل بمدشر يعرف ببني إبراهيم، وقدم بطلب من ركب الحج المغربي للإقامة فيها طلبا لبركة هذا البيت ومن أتوا به من أهل سجلماسة من أولاد البشير وأولاد المتراري وأولاد بن عاقل وأولاد معتصم وصاهر منهم أولاد المتراري، وكانت وفاته مابين سنتي 706-707هـ/1306-1307م².

وترك الحسن ولدا اسمه محمد الذي خلف الحسن سمي جده وهذا بدوره خلف ولدين أحدهما عبد الرحمن المكنى بأبي البركات ومن خلفه أولاد السيد أبي حميد بالقصر الجديد وشرفاء الساكنون ببني زروال وثانيهما علي المعروف بالشريف ومنه تكاثرت فروع المحمديين وقد قام بالتوجه نحو الأندلس للجهاد، وله ولدان محمد ويوسف، فمحمد ترك أربعة أولاد هم الحسن، عبد الله، علي وقاسم ويسمون بأولاد محمد³.

أما يوسف فقد تولى زاوية أبيه بإجماع الناس وكان له تسعة أبناء وهم علي، أحمد، عبد الله الطيب، عبد الواحد مكنى بابي الغيث، وأهم حليلة والباقون الحسن، محمد، الحسين وعبد الرحمن وأهم الطاهرة، والذي يهمننا هو الأول من أبناء السيدة حليلة وهو علي وله ثلاثة أبناء وهم محمد ومحرز وهاشم، فأما محمد له علي الذي أحيا الجهاد بالأندلس وهو من أجداد الأسرة الحاكمة بالمغرب ولهذا الأخير تسعة أبناء هم الشريف، الحفيد، حجاج، محرز مروان، فضيل، أبو زكريا، مبارك وسعيد، ويهمننا الشريف الذي له محمد، الرشيد وإسماعيل⁴ وهم أعمدة الدولة العلوية.

¹. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 13-14.

². الزياتي، المصدر السابق، ص 29.

³. الأفراني، المصدر السابق، ص 415-418.

⁴. نفسه، ص 418-422.

2. مراحل تأسيس دولتهم:

بسبب الوضع العام المتردي في نهاية العهد السعدي كما أشرنا إليه سابقا، والذي أرجع البلاد إلى مرحلة نهاية الوطاسيين وكأنما التاريخ تكرر بشخصيات وأحداث جديدة فقط والتي تنطلق مع محمد¹ بن الشريف العلوي، الذي تمكن من القضاء على السملاليين في تافيلالت ودرعة²، ووقف في وجه الدلائيين فقلص من نفوذهم جنوبي الأطلس قبل أن يفسح المجال لأخيه الرشيد³ الذي سيقضي نهائيا على الإمارات الصوفية بالدلاء إيليج وغيرهما ولتحتل سنة 1081هـ/1670م فتشرق معها من جديد شمس الوحدة والطمانينة على هذه البلاد⁴.

يأتي الافراني في عرض حديثه عن قيام الدولة العلوية بعدة كرامات تكلم بها الأولياء والصلحاء وأهل الوقت عن الظروف والأسباب المساعدة على قيام ملكهم وسن حكمهم كأمر مسلم به، كما حيكت للسعديين من قبلهم، ومن أراد الإطلاع عليها فعليه بكتاب نزهة الحادي، وكان دخول هؤلاء الأشراف لمعترك الحياة السياسية عن طريق خلاف نشب بين أهل تابوعصامت والشريف بن علي، فتحزب هذا الأخير مع أبي الحسن علي بن محمد السملالي، في حين تحالف منافسوه مع زاوية دلاء، وأدى ذلك إلى اتفاق بين الطرفين لحقن دماء المسلمين في 1043هـ/1633م⁵.

ولتسميم الجو بين الشريف والسملالي تقرب أهل تابوعصامت من السملالي وقدموا خدماتهم له، فأوجد ذلك نفرة بين الشريف وصديقه، لتزداد تلك العلاقات سوءا أثناء هجوم محمد بن الشريف على أهل تابوعصامت وغزوهم، ما جعل السملالي يحتال على الشريف

¹ .السلطان محمد: ابن الشريف، وهو أكبر إخوته، كان عالما مقداما، استقل بالأمر في حياة أبيه، وهو زارع نبنة الدولة العلوية، قتل على يد أخيه الرشيد في 1664م. (ينظر: العلامة مولاي إدريس الفضيلى، الدرر البهية في الجواهر النبوية مر: أحمد بن المهدي ومصطفى بن احمد العلويان، ج1، مطبعة فضالة، المحمدية 1999م ص186-187).

² . Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 243-244.

³ .السلطان الرشيد: ولد بسجلماسة في 1040هـ، تولى العرش في ربيع الأول 1075هـ/1664م، توفي بمراكش في 9 ذي الحجة 1082هـ/1672م. (ينظر: عبد الرحمن بن زيدان، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1937م، ص12).

⁴ .حجي، "ملاح عن المغرب..."، المقال السابق، ص 165.

⁵ .الافراني، نزهة الحادي، ص 423.

ويلقي عليه القبض عن طريق عامله بسجلماسة أبي بكر وبعثه إليه سجيناً نحو السوس، وقد افتداه ابنه محمد بن الشريف بالمال الكثير في 1047هـ/1637م¹، الذي بايعه أهل سجلماسة أميراً عليهم لمقاومة أبودميعة عام 1050هـ/1640م، فانطلقت الصفحات الأولى من تاريخ العلويين، فأثبت محمد بن الشريف جدارته عند مواجهته قوات أبودميعة، وانتصر عليها في عدة مواقع، انتهت بإخراجه من سجلماسة ودرعة أواخر 1051هـ/1641م².

كما واجه محمد بن الشريف المد الدلائي الزاحف على المنطقة في 18 ربيع الأول 1056هـ/3 ماي 1646م، وانتهى بإقامة صلح معهم، يسمح من خلاله للدلائيين بإقامة قواعد تمكنهم من التجارة بالصحراء، وبانتشار صيته دعتهم فاس لنجدتها، بعد خلع فاس البالي سنة 1058هـ/1649م البيعة عن الدلائيين ومبايعته، لينقض ذلك الصلح، فدخلها في جمادي الثانية 1059هـ/1649م³.

لتعيد عليه الزاوية الدلائية الكرة وتخرجه منها على إثر هزيمته بدار الرمكة في 11 شعبان 1060هـ/8 أوت 1650م وأرجع فاس لطاعته تحت حكم أبنائه أحمد ومحمد على التوالي من سنة 1060هـ/1650م إلى 1069هـ/1659م، لتخضع بعدها للقائد الريمي الذي نصب نفسه حاكماً مستقلاً عن دلاء في 1072هـ/1661م⁴، وعاد محمد بن الشريف لسجلماسة ودرعة ووجه نفوذه نحو الشرق قصد الوصول للمتوسط من أجل شراء الأسلحة، وعقد مع العثمانيين معاهدة الحدود عام 1064هـ/1654م جاعلة من واد تافنة حداً فاصلاً بينهم⁵.

وبوفاة الشريف بن علي في رمضان 1069هـ/جوان 1659م خرج ابنه الرشيد فاراً من أخيه محمد لمنافسة كانت بينهما وانتقل الرشيد في جبال الأطلس الكبير والمتوسط إلى أن وصل لدلاء وأقام بها أياماً ليخرج منها، وكان قد زارها كطالب وكرسول لأجل فك والده من

¹. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 241.

². Drague, Op.cit, T2, P80-81.

³. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 242.

⁴. محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992، ص105.

⁵. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 30-35.

أسر السملالي¹، ليتوجه نحو فاس ثم تازة وانتهى به المطاف عند ابن مشعل اليهودي الثري في أرض بني يزناسن فاستولى على ما بيده، وبنى بها قوته، وسارع أخوه محمد لمواجهة قوة أخيه المتنامية عند سهل أنكاد غربي وجدة، وسقط فيها محمد صريعا يوم الجمعة 9 محرم 1057هـ/1 أوت 1664م، لينضم جنده إلى الرشيد².

ليتوجه نحو تازة ثم فاس التي حاصرها ودخلها بالقوة وكانت قبل دخوله³، قد تقاسمها الثوار فأصبح ابن صالح بعدوة الأندلس وابن الصغير كبير اللطيين بالقرويين، وأما فاس الجديد فتحت راية الدريدي فاقتحم الرشيد فاس الجديد أولا وقتل عاملها ثم توجه للقديم فأفنى رؤساءها قتلا⁴ وصادر أموالهم، فتمهدت له المدينة صبيحة الاثنين 1 ذي الحجة 1076هـ/3 جوان 1666م واتخذ من فاس الجديد عاصمة له، فقام إليه علماء فاس القديم وأعيانها وفيهم الفقيه الإمام عبد القادر الفاسي وكان رئيسا على عدوة القرويين، وعبد الرحمن بن القاضي، اللذان بايعوه مبايعة عامة وخاصة⁵، ولما تم له ذلك أفاض على العلماء بالمال وغمرهم بجزيل العطاء⁶.

ليتوجه إلى خضر غيلان ويهزمه في 1077هـ/1666م فاستسلمت بلاد الهبط ومنطقة السهول الأطلسية، ليتفرغ للدلائيين الذين طوقهم في الأطلس المتوسط بعزلهم دون الحيلولة إلى الموانئ الأطلسية حيث تجارة الأسلحة، ودخلها بدون قتال باستسلام محمد الحاج وبقي بها من 8 محرم إلى 22 صفر 1079هـ/17 جوان-30 جويلية 1668م استولى على ما فيها من سلاح وخزائن، دواب ومواشي وأمرهم بالرحيل لفاس، وقام بتهديم المدينة⁷.

ليميل على إمارة الشبانات بمراكش الذين تركوا له المدينة لما بلغهم من فتك بأهل الزاوية لينزل منها إلى السوس بعاصمتها إيليغ ويدخلها يوم الأحد 15 صفر 1081هـ/1670م، فعاد

¹. Inconnu, Op.cit, P20-27.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 244-245.

³. Ibid, P 246.

⁴. Caillé, Op.cit, 1^{er} série, P 176-179.

⁵. عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، تح: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992م، ص 131-132.

⁶. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 48.

⁷. Berque, Op.cit,P94.

للمغرب وحدته بعد سبع سنوات من الحروب وهي المدة التي قضاها في الحكم، فحقق أمال الرعية في الوحدة¹، وفي أيامه اعتز العلم والعلماء وعلا شأنهم ونشطت الحركة الفكرية والثقافية، وتوفي بمراكش ليلة الجمعة 10 ذي الحجة 1082هـ/21 مارس 1672م².

ليولى بعده خليفته على فاس إسماعيل³ ليلة الأربعاء 16 ذي الحجة 1082هـ/27 مارس 1672م، التي بايعته، وعقد له البيعة الإمام العالم العلامة عبد القادر بحضرة علمائها من أمثال أبي علي اليوسي، أبي عبد الله بن علي الفيلاي، أحمد بن سعيد المجدي، محمد بن عبد القادر الفاسي، أخيه أبو يزيد، القاضي أبي عبد الله المجاصي والقاضي أبي مدين وأشرافها وأعيانها مع قياد جند أخيه من أهل الريف وأولاد حماسة والأعرصة، وعمره ست وعشرون سنة، في حين بايعت مراكش ابن أخيه أحمد بن محرز، الذي ثار عليه وقتله في أواسط ذي الحجة 1096هـ/نوفمبر 1685م، بعد عدة وقائع بينهما، كما شق عليه أهل فاس عصا الطاعة فحاصروهم خمسة عشر شهرا حتى أذعنوا وخنعوا في 19 رجب 1084هـ/29 أكتوبر 1673م وتمكن من إعادة الهدوء للمغرب بل تعداها للسودان⁴.

في عهد هذه الدولة تم فتح عدة ثغور مغربية من يد الأعداء مثل المهدية في 15 ربيع الثاني 1091هـ/4 ماي 1681م، واسترد طنجة في 1 جمادي الأولى 1095هـ/16 أفريل 1684م من يد الإنجليز⁵، والعرائش في 18 محرم 1101هـ/31 أكتوبر 1689م⁶، وافتك أصيلا في 1102هـ/1690م من يد الأسبان وأمر السلطان بإسكان أهل الريف فيها كما فعل مع العرائش ونهى عن لبس النعال السود وأمر باستبدالها بالصفرة إشارة إلى أهمية الفتح⁷، وأثناء عملية التحرير غنم عدد كبير من الأسرى ذوي المهن والخبرات وفيهم

¹. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P247.

². الأفراني، المصدر السابق، ص 428.

³. السلطان إسماعيل: أبو النصر إسماعيل ابن الشريف، ولد بسوس 1065هـ أو 1058هـ، وهناك من رجح مولده بتافيلالت ببيع له بعد أخيه الرشيد، توفي بمكناسة الزيتون في 28 رجب 1139هـ/مارس 1727م. (ينظر: ابن زيدان، الدرر... المصدر السابق، ص 29).

⁴. الريفي، المصدر السابق، ص 141-143.

⁵. الناصري، المصدر السابق، ج 6، ص 86-92.

⁶. الأفراني، المصدر السابق، ص 432-433.

⁷. الناصري، المصدر السابق، ج 6، ص 104.

الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون بل حتى المنجمين والمهندسين والأطباء، وكان عددهم ينيف على الخمسة والعشرين ألفاً¹، وفشل في استرجاع سبته والبريجة من يد الأسبان لحصانتهما².

وقد استغنى السلطان إسماعيل عن خدمة القبائل التي كانت عادة ما تكون رأس الفتنة فجردها من السلاح، وعوضها بتأسيس جيش مسجل ومنظم عرف بجيش عبيد البخاري³ وجعل قصره مدرسة لتربيته وتدريبه، مع إنشاء شبكة من الحصون والقلاع في أنحاء المغرب، وخاصة قرب القبائل وشحنها بعدد من عبيد البخاري يرأسهم قائد منهم تلقى على كاهله مهمة حفظ الأمن بها، ومؤونة هذا الجيش المرابط من أعشار القبيلة التي ينزل عندها فتوجه الناس للفلاحة وتربية المواشي والاتجار فعمهم الخصب⁴.

لتنقلب الوضعية بعد وفاة السلطان إسماعيل نتيجة تطورات سياسية متسارعة، وأحداث اجتماعية متدركة، مع أزمات اقتصادية خانقة، شبيه بتطورات الدولة السعدية بعد السلطان المنصور، فقد عاش المغرب ما بين 1139هـ-1727م حتى 1171هـ-1757م ثلاثين سنة من الاضطراب⁵، اعتلى فيها عدة مرات سبعة من الملوك الذين غدوا ألعوبة في يد الجيش العبيد تارة والقبائل تارة أخرى، وكانت فتنا يشيب لها الولدان كما عبر عنها المؤرخون.

وغدا السلاطين العلويون دمي في أيدي الجيش من الأودايا والعبيد إلا لم⁶ فبسط الجند نفوذه على السلطانين أحمد الذهبي (1139-1141هـ/1727-1782م) وعبد الله⁷

¹. السايح، المقال السابق، ص 29.

². الأخضر، المرجع السابق، ص 70.

³. لمزيد من التفاصيل ينظر: آخر الفصل من هذا القسم.

⁴. Berque, Op.cit, P 94.

⁵. Chantal De La Véronne, Documents inédites sur l'histoire du Maroc (1726-1728), T1, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris 1975, P10-11.

⁶. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P247.

⁷. السلطان عبد الله: ولد بتافيلالت، في ذي الحجة 1121هـ/فيفري 1710م، بويع له بفاس في 1141هـ/1729م، توفي بها في صفر 1171هـ/نوفمبر 1757م، ودفن بقبور الأشراف بفاس الجديد. (ينظر: ابن زيدان، الدرر.. المصدر السابق، ص52).

(1141-1171هـ/1728-1757م)، حتى نصب هذا الأخير أربع مرات على الحكم¹

فأثرت هذه الوضعية على الواقع الاقتصادي والاجتماعي والعلمي.

وفي ربيع الثاني 1147هـ/1734م قام بخلعه قادة عبيد البخاري وتنصيب أخيه أبي الحسن وتبعهم فاس الجديد، وفي 11 ذي القعدة 1148هـ/23 مارس 1736م أعيدت البيعة للسلطان عبد الله من جديد، ليتنازل عن الحكم لأخيه محمد أعراب بعد ثورته عليه بفاس فبويع يوم 10 جمادي الثانية 1149هـ/15 أكتوبر 1736م بفاس القديم والجديد مع جند العبيد² وكانت أيامه رعب وترهيب، وفشا الاضطراب وكثر الثوار، وغلت الأسعار في جميع الأمصار وسيطر عبد الله على الجنوب من السوس والصحراء ومراكش³.

وغدت البلاد فسيفساء شبيهة بالملوك الطوائف، في رجب 1150هـ/1737م حدث غلاء فاحش وصل الزرع إلى مائة مثقال⁴ لوسق القمح، وبيعت الدار الجيدة بستين إلى ستة وثمانين مثقالا، لشدتها مات خلق كبير بالجوع حتى عجزوا عن دفن موتاهم فرموهم في الأزقة والمزابيل، لتنفرج في ذي الحجة بإغاثة البلاد من الله تعالى بالأمطار فعادت الأسعار إلى سابق عهدها، وحصدت هذه الجائحة عدد كبير من العلماء، ليباع عبيد البخاري أخاه المستضيء بعد خلعه في 1151هـ/1738م وفي دولته زاد الجور والجوع والاضطراب⁵.

ليعزله الجند في 14 ذي القعدة 1152هـ/11 فيفري 1740م ففر إلى سجلماصة ليتولى بعده السلطان عبد الله للمرة الثالثة⁶، فالسلطان محمد بن عبد الله (1171-1204هـ/1757-1789م)⁷، ثم السلطان اليزيد⁸ (1204-1206هـ/1789-1792م) الذي كانت فترته مليئة

¹. الأخضر، المرجع السابق، ص 74.

². الريفي، المصدر السابق، ص 245.

³. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P283.

⁴. **المثقال**: الوحدة كلها سواء كانت فيما يعد أو يكال (يوزن) أو يذرع، والمثقال في النقد خاصة كان يتركب من 10 أوقيات أو دراهم وكل أوقية أو درهم تشمل على 4 موزونات، وكل موزونة على 24 فلس وكل فلس على 12 زلاعي وكل زلاعي على 12 حبة والحب ينقسم إلى كسور يسمى الواحد منها التافه، وهو ما لا يمكن قسمته من الكسور النقدية. (ينظر: عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، المطبعة الملكية، الرباط 1381هـ/1961م، ص 408).

⁵. الريفي، المصدر السابق، ص 246-253.

⁶. نفسه، ص 262.

⁷. الأخضر، المرجع السابق، ص 270-271.

⁸. **السلطان اليزيد**: بن محمد بن عبد الله، لد بمكناسة عام 1134هـ، بويع له بفاس في صفر 1171هـ/نوفمبر 1757م وهو بمراكش، توفي في رجب 1204هـ/أفريل 1790م، ودفن بالرباط. (ينظر: ابن زيدان الدرر...، المصدر السابق، ص 55).

بالثورات، مع التهديد الأسباني لطنجة¹، وقد لقي حتفه وهو يحارب أخاه هشام، ثم السلطان سليمان² (1206-1238هـ / 1792-1823م) وحارب أخويه هشام بالجنوب ومسلمة بالشمال وتخلص منهما، وقضى أيامه في تمهيد البلاد، وبوفاته بمراكش ولي ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام³ نائبه عن فاس على العرش⁴.

السلطان عبد الرحمن بن هشام (1238-1276هـ / 1823-1859م)، ببيع له بالإجماع في فاس، وقضى على ثورة الشراردة والودايا، وإبراهيم يسمور اليزديكي في تافيلالت، وأهم حركة قام بها هو ضم تلمسان له على أثر الاحتلال الفرنسي للجزائر في 1830م وتلا ذلك معركة إيسلي عام 1844م ووقوع معاهدة صلح مع فرنسا على إثرها، لذا في عهده ظهر الخطر الأجنبي من جديد لكن بآلات أكثر فتكا من سابقتها في ظل وضع داخلي ينبئ بتراجع كبير ساهم في تشجيع العدو في وضع رجله فيها⁵، ليدخل المغرب في حياة سياسية جديدة متسمة بالتدخل الأجنبي في الأمور السياسية والاقتصادية الخاصة بالبلاد فأوقعها في فخ الاحتلال.

¹. Caillé, Op.cit, 1^{er} série, P134-137.

². السلطان سليمان: أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل، ولد عام 1180هـ/1767م، ببيع له بفاس في رجب 1206هـ/فيفري 1792م وكتبها العلامة التاودي بن سودة المري، توفي في ربيع الأول 1238هـ/نوفمبر 1822م. (ينظر: ابن زيدان، الدرر...، المصدر السابق، ص 66).

³. السلطان عبد الرحمن بن هشام: ولد عام 1204هـ/1790م، ببيع له بفاس في ربيع الأول 1238هـ، توفي بمكناسة في محرم 1276هـ/أوت 1859م. (ينظر: ابن زيدان، الدرر...، المصدر السابق، ص 78).

⁴. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 307-308.

⁵. الأخضر، المرجع السابق ص 390.

ثانيا. العلويين وفاس:

1. فاس العلوية:

نتيجة الوضع الذي عاشته فاس في نهاية العهد السعودي، من تناحر داخلي بين العدوتين يضاف إليها التدخل العياشي والدلائي وهجومات الأعراب والشراسة وغيرهم، جعل سكان فاس بمجرد ما برز اسم محمد بن الشريف على الساحة، حتى قام أعيانها بالاستنجاد به على إثر انتصاره على السملاليين بدرعة، بخلع أهل فاس البالي سنة 1649م البيعة عن الدلائيين ومبايعة محمد بن الشريف، فدخلها في جمادي الثانية 1059هـ/جوان 1649م وبايعه أهلها وبقي بها حتى أخرجته الزاوية الدلائية، بعد هزيمته بدار الرمكة في 8 أوت 1650م ولم يكن جيش محمد من القوة بحيث يمكنه أن يرد حامية الدلائيين عنها فعادت لحظيرتهم لغاية 1069هـ/1659م¹.

واضطر الفاسيون إلى الانقياد للدلائيين من جديد، ليتقاسمها الثوار بعد ذلك، فأصبح ابن صالح بعدوة الأندلس وابن الصغير كبير اللمطين بالقرويين، وأما فاس الجديد خضعت لقائد الدريدي الذي نصب نفسه حاكما مستقلا عن دلاء في 1073هـ/1662م، ليقوم الرشيد العلوي بإخضاعها بعد جهد، حتى أنهم أصابوه برصاصة في أذنه وهو يحاصرها، فواسطها عن طريق الشيخ أحمد بن عبد الرحمن الفاسي لوزنه فيها، واتفق معه على الدعوة للعلويين وبدخولها أجهز على رؤوسائها قتلا واستغراق ذممهم بشهود ستة وعشرين عالما لتضم أموالهم إلى بيت المال²، وببيع له بها في ذي الحجة 1076هـ/1665م، فأجزل العطاء للعلماء³، وكافأ داعيته أحمد الفاسي بأن أغدق عليه بمنحة عائدات الولي أبي الحسن بن حرزهم بعد انتزاعها من القادريين⁴.

¹. ضريف، المرجع السابق، ص 105.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 246.

³. الناصري، المصدر السابق، ج 6، ص 48.

⁴. حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 252.

ثارت على السلطان إسماعيل في 2 جمادي الأولى 1083هـ/25 أوت 1672م بسبب سوء تصرف خليفته القائد زيدان العامري، حولت دعوتها إلى أحمد بن محرز الذي لبث فيها لأزيد من سنة، فقام بحصارها ونتج عنه غلاء في الأسعار فالخروف بـ40 أوقية¹ والثور شارفت قيمته على ربع دية...، لتظعن في 19 رجب 1084هـ/29 أكتوبر 1673م²، وعندما عزم السلطان على تمليك العبيد رفض علماء فاس الموافقة على ذلك فأصدر السلطان منشورات يوبخهم على تمردهم ويأمر بعزل عدد منهم من وظائفهم³.

شهد المغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل فترة عصيبة، تميزت بالفوضى والفتن والمشاحنة على الملك، أدت إلى اختلال عام في حياة المغرب، حتى أصبح شبیه بأيام السعديين بعد المنصور الذهبي، وكأنما الأحداث نفسها تغيرت تسمية الشخصيات والزمن مع دخول عوامل جديدة في الميدان مثلها جيش عبيد البخاري والأودايا⁴ في العهد العلوي⁵، ففي عهد أحمد الذهبي العلوي نهب جيش الأودايا فاس فثار أهلها لحربهم وحضر السلطان حصارها وأغلقت أبوابها دونه، واستخدم في حصاره الأسلحة المستحدثة يومئذ من مدافع وبنادق، ليعرض السلطان عليهم الصلح تلافياً لسوء المغبة، ليخلع ويولى أخوه السلطان عبد الملك⁶.

ليعاد رفع أحمد الذهبي من جديد للحكم بعد أن فشل أخوه عبد الملك في إقرار السلطة وعاد لحرب فاس لتخلفها عن البيعة ووجود أخيه بها واستحكام العداوة بينهما⁷، وحاول استرضاء الفاسيين بإطلاق سراح من كان بيده من مساجينهم في 1141هـ/1728م، ودخل ممثله إلى فاس يخطب في أهلها ويدعوهم إلى الطاعة فقتلوه، وخرج جماعة من ثوار فاس

¹ الأوقية: وحدة نقدية تساوي 10 مثاقيل، وتنقسم إلى أربع موزونات، وجزء من ستة عشر جزءاً من الرطل، وفي ق 18م تساوي واحد درهم وتنقسم على أربع موزونات، وعشر أوقية = 1 مثقال. (ينظر: الريفي، المصدر السابق، ص 157).

² الريفي، المصدر السابق، ص 153-155.

³ حركات، " فاس في ثورة..."، المقال سابق، ص 47.

⁴ الأودايا: يتألف من ثلاث أقسام: أهل السوس والمغارة والودايا، ويطلق على الجميع أودايا تغليبا، وخدم أهل السوس الدولة السعدية، وكنيتهم الدولة العلوية. (ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج 6، ص 74).

⁵ De La Véronne, Op.cit, T1, P14.

⁶ Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 281-283.

⁷ محمد منصور، "مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع ق 19: كناشة المشاط"، عن متنوعات محمد حجي، ط 1، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص 48.

إلى ناحية البلد، فاستولوا على كثير من مواشي الاودايا وطل حصار أحمد الذهبي لفاس¹ ما يقرب من نصف عام وكانت المدينة خلال ذلك تتلقى قنابل المدافع وحجارة المجانيق حتى سقطت مبان كثيرة منها وعمت المجاعة بسبب انقطاع الموارد الخارجية ثم انعقد الصلح على تأمين أهل البلد وتسليم عبد الملك إلى أخيه بعد أن توثقوا منه حتى لا يناله منه مكروه، ولكنه غدر به وقتله خنقا ليموت أحمد بعده ببضعة أيام².

ليبايع عبد الله لعهدته الأولى في 4 شعبان 1141هـ/4 مارس 1729م، وانقاد إليه أهل فاس في البداية، لتتكرر بطلب السلطان منهم أن يمكنوه من البساتين والقصبتين العتيقة والجديدة أي باستيون باب الفتوح وباب لجيسة التي بناها المنصور السعدي، أما القسبة القديمة تقع خارج باب أبي الجنود التي سماها الجزنائي بقسبة باب الوادي بناها يعقوب المنصور الموحدي³، والقسبة الجديدة التي بناها السلطان الرشيد العلوي، فرفضوا محتجين بحق الملكية، وبأن شروط البيعة لا تتضمن هذا التنازل⁴.

شدد عليهم بالحصار والنيران لتسعة أشهر عرفت فاس من الفتن والفجائع والخوف والجوع ألوانا، فطلبوا الأمان وامتثلوا لما طلب، فعفا عنهم وقال صاحب زهر الأكم: "وقبل بيعتهم رغما على أنوفهم"⁵، وهذا فيه نوع من إشفاء الغليل من عند الكاتب وأيضا كسر تلك النخوة والمكانة التي امتازت بها فاس فهي اليوم محطمة أمام هذا الملك الذي أرغمها بالقبول على شيء هي كارهة له، كما هدم لهم الأسوار وبعض الديار وغرمهم بالمال.

تذهب بعض المصادر أن السلطان عبد الله وضع المغارم الثقيلة على أهل فاس ظنا منه أنه ما أطغاهم إلا المال، ففرض مكوسا على الموازين كميزان سيدي فرج، ميزان قاعة السمن، قاعة الزيت وقدره بثلاثمائة مثقال شهريا⁶، وظلت مفروضة عليهم تلك المغارم حتى

¹. De La Véronne, Op.cit, T1, P47-48.

². الناصري المصدر السابق، ج6، ص 150.

³. الجزنائي، المصدر السابق، ص 43.

⁴. حركات، "فاس في ثورة..."، المقال السابق، ص 48.

⁵. الريفي، المصدر السابق، ص 230.

⁶. عبد العزيز بنعبد الله، فاس منبع إشعاع في القارة الإفريقية، ج2، المطبعة الملكية، الرباط 2001م، ص524.

1145هـ/1732م وأعفى منها الأشراف والطلبة، مما جعل البعض من أهلها يفضل الهجرة والخروج منها نحو البوادي أو للمشرق أو للسودان¹، وكان السلطان عبد الله شديداً على جيش العبيد، فثاروا عليه وولوا أخاه علياً².

وبعد رفع وخفض في الملوك العلويين على يد الجيش، تم الاستقرار على محمد بن عبد الله³ ابن إسماعيل الذي أعاد للمغرب الهدوء والرفاهية⁴، بعد وفاة السلطان عبد الله سارع أهل الحل والعقد بالعاصمة الفاسية إلى مبايعته وعلى رأسهم كبار العلماء كأبي القاسم العميري وأبي حفص الفاسي والشيخ التاودي ابن سودة ومحمد بن قاسم جسوس وأبي مدين الفاسي وهو الذي تولى إنشاء البيعة وكتابتها بيده وذلك يوم الاثنين 25 صفر 1171هـ/7 نوفمبر 1757م، ثم انتخب وفد من العلماء والأعيان وقصدوا مراكش لتقديمها لسلته، فوجدوه بأحواز مراكش قاصداً مدينة فاس فاستقبلهم خير مقتبل وتابع سيره إلى عاصمته⁵.

وهكذا نراه يوجه عنايته بعد مبايعته وقدمه من مراكش إلى فاس بأن أغدق على الفقهاء وأهل المدارس وطلبة العلم بها، وقضى على شوكة الاودايا التي كانت تستقر بفاس الجديد في 1174هـ/1760م، ولإصلاح ما أفسدته فتن ثلاثين سنة، فإنه اهتم بالناحية المالية لبناء قوة عسكرية نظامية، بإحداث ضرائب أو مكوس (معونة)، وقبل إحداثها استفتى علماء فاس سابقى الذكر إلى جانب عبد الرحمن المنجرة وعبد القادر بوخريص⁶، في ذلك فأفتوه بأن للسلطان أن يوظف على الرعية مالا تدفعه ليستخدم به الجند للدفاع عن بيضة الإسلام⁷.

¹. الريفي، المصدر السابق، ص 230.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 283.

³. السلطان محمد بن عبد الله: ولد بمدينة مكناس سنة 1134 هـ، وربى في أحضان جده المولى إسماعيل، وقد اعتنى بتعليمه حج مع جدته السيدة خنثة بنت بكار، وبعد الرجوع من الحجاز تابع تعلمه أخذ عن عبد الله بن إدريس المنجرة، ومنذ صغره ولع بالعلم وأقبل عليه، حتى برع في علومه العقلية والنقلية، ولشدة اهتمامه بالعلم عمل على نشره. (ينظر: محمد الفاسي، "الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص26).

⁴. الفاسي، المقال السابق، ص26.

⁵. أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا، ج7، تح: أحمد الناصري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001، ص9.

⁶. بن عبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 524.

⁷. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص13.

عند ذلك أحدث مكسا على الأبواب والغلال والسلع، إلى جانب مكوس والده السابقة على ميزان قاعة السمن وعلى ميزان قاعة الزيت وغير ذلك، بمعنى أن كل من يبيع شيئا من المواد المجمعول عليها ضريبة يؤدي قدرا من المال لأمين خاص، وكانت تلك المداخل تقدر كل سنة فقدرت بخمسمائة ألف مثقال¹، يتم بيعها من السلطان لأحد المتولين يدفعها مقدما ويكلف هو من يقبضها، وما زاد على القدر المقدر يكون ربحا له وما نقص فهو يخسره واشترى هذا التزام باشا فاس الحاج محمد الصفار في السنة الأولى باثني عشر ألف مثقال ومن بعده ولده العربي².

وكان هذا المكس أو المعونة من أهم الموارد التي أعانت السلطان محمد على عظيم الأعمال التي قام بها، وكان أهمها مكس الدخان، الذي يصرف على الجيش من كسوة وسروج وسلاح وعدة وإقامة وعطايا ومؤونة العسكر، حتى أنه عادل مال المراسي³، وفي عهد السلطان سليمان أسقط تلك المكوس الموظفة على حواضر المغرب من أبواب وأسواق وسلع وغلل وجلد وعشبة دخان⁴، ليفتح بابه من جديد السلطان عبد الرحمان بن هشام ومن جاء بعده فكان وبالا على المغرب⁵.

ولما ثارت فاس في عهد السلطان سليمان كتب إليهم خطابا طويلا ذكر نصه كاملا صاحب الاستقصاء، ومما جاء فيه: "... وأما الفسق فهو عادة وديدن كل من قام في الفتنة وكم مرة رمت قطعه فلم أجد إليه سبيلا، لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات، وإنما أولى عليكم البراني، لأنكم لا تحسدونه وإن أكل وحده... وانظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به واعرضوه على فقهاءكم فمن قال الحق منا، ومن قال الباطل أخذتم بحظكم من الفتن"⁶.

¹. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص13.

². الفاسي، المقال السابق، ص27.

³. بنعبد الله، فاس منبع..، المرجع السابق، ج2، ص525.

⁴. Terrasse, Histoire, T2, Op.cit, P 312.

⁵. الناصري، المصدر السابق، ج8، ص75.

⁶. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص179.

في أواخر عهد السلطان المذكور اعتدي عبيد الاودايا على اليهود في 1235هـ/1820م فنهبوا أموالهم وهتكوا أعراضهم ثم قتلوا منهم عددا كبيرا، وراموا أن يفعلوا مثل ذلك بمسلمي فاس فقاموا عليهم قومة رجل واحد، وعينوا عليهم لجنة تمثل الأقسام الرئيسية من البلد فدبرت أموره حتى غرم الاودايا ما أتلّفوه للسكان مسلمين ويهودا¹، ومن شدة تلك الفتن التي قام بها البربر والعرب والودايا بفاس، أطلقت العنان لقريحة الأدباء شعرا، كقول أبي عبد الله محمد بن ادريس الفاسي:

لم يجد البرابر الغلف بـرا *** شأنه البرُّ في البـدا والبراء
نقضوا العهد خالفوا الأمر والنهـ *** ي إلا أنهم هم السفهاء
وكذا العرب أعربوا عن مساو *** فهم في سَوَى الخروج سواء
نافقوا رافقوا الخبيثين كـفـرا *** همزوا لمزوا فليس بـراء
والودايا جاءوا بـادوء عيب *** داؤهم ما له الزمان دواء
قتلوا سلبوا أخافوا وحافوا *** ما تناهم عن القبيح ثناء
ما رعوا ذمة ولا فعـل ذم *** بل عراهم من الحياء عراء².

2. أهم منجزاتهم بها:

مثل سابقهم عمل العلويون على إثبات حضورهم بالمدينة من خلال إنشاء عدة مرافق وترميم أخرى للمحافظة على هذه المدينة التاريخية، ومما أنجزه العلويون بها من منشآت تعليمية ودينية التي لا زالت شاهدة كالقنطرة التي أمر ببنائها السلطان الرشيد على نهر سبو خارج فاس³ وزودها بأربع أقواس، فجاءت في غاية الحسن والجمال الفني والمعماري، وشرع فيها مع قنطرة الرصيف في 1079هـ/1668م، وقنطرة باب الجديد بفاس⁴.

¹ حركات، " فاس في ثورة..."، المقال السابق، ص 48.

² الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 183.

³ عبد اللطيف خالص، " الإصلاح والتجديد في عهد الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة

1388هـ/ مارس 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 156.

⁴ Champion, Op.cit, P67.

كما شيد القسبة الجديدة داخل فاس القديم لإقامة الفرقة الفيلالية فعرفت بالقسبة الفيلالية وقسبة الشراقة في 1081هـ/1670م المعروفة أيضا بقسبة الخميس وهي واقعة خارج مدينتي فاس الجديد والقديم¹، لإقامة جيش شراكة والذي ألفه من العرب والبربر كجيش منظم موحد، وأغدق عليه بالمرتبات والعطايا²، وقسبة أبي الجنود وأنفق عليها أكثر من ألفي مثقال، كما جدد العديد من المباني المرينية³، وقيام السلطان سليمان بتجديده المدرسة العنانية، وقنطرة الرصيف، وإصلاحه القناطر التي بين مكناس وفاس⁴.

ومما خلفه السلطان الرشيد عند دخوله فاس فإنه أسس خزانة علمية بجامع فاس الجديد وعمرها بنفائس الكتب في 1079هـ/1668م⁵، وبنى مدرسة داخلية لإيواء طلبة القرويين وأقامها إلى جانب المدارس المرينية العتيقة وتعرف بالمدرسة الرشيدية برأس الشراطين جوار مسجد القرويين أقام فيها طلاب من تافيلالت وتازة والمناطق الشرقية وغرب الجزائر⁶، وذكر ابن زيدان بناءها في 1081هـ/1670م وانتهى العمل منها في عهد السلطان إسماعيل في 1089هـ/1678م⁷، واحتوت على ثلاثة طوابق بها 230 بيت لتدعم بنقل علماء الزاوية الدلائية، وباقي زوايا المغرب لفاس ليعملوا على ازدهار العلم فيها⁸.

كما سن لطلاب جامعة القرويين عطلة الربيع كتقليد خاص، بتتصيب أسبوع سمي بسلطان الطلبة، وتشارك السلطة المركزية العليا على الدوام في إقامته بل وفي حضوره وكان السلطان الرشيد والملوك العلويون من بعده⁹ يحرصون على أن تظل العائلة الملكية دائما على صلة بهؤلاء الطلبة الذين ضمتهم القرويين من مختلف جهات المغرب لإحياء تلك الصلة القديمة التي مكنت من الانتصار على الفساد والاضطراب ولقد ظل التاريخ ينقل أن

¹. الريفي، المصدر السابق، ص 139-140.

². Bressolette et Delarozière, Op.cit, P 270.

³. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 178.

⁴. محمد المنتصر الريسوني، "المولى سليمان بين شعراء عصره"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، ص14، ذو الحجة- محرم

1391هـ/ فيفري-مارس 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971، ص 184.

⁵. بن زيدان، الدرر...، المصدر السابق، ص14.

⁶. Maclair et Bouchor, Op.cit, P71-74.

⁷. بن زيدان، الدرر...، المصدر السابق، ص12.

⁸. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 178.

⁹. Maclair et Bouchor, Op.cit, P161-162.

العاقل أو نائبه كان في هذه المناسبة يباسط الطلبة وينزل معهم إلى ميدان الفكاهة والمرح ويلبي طلباتهم¹.

وكما وجه السعديون عنايتهم بمراكش فملوك العلويين منحوا حرصهم إلى مدينة مكناسة انطلاقاً من السلطان إسماعيل الذي شرع منذ 1082هـ/1671م في تشييدها كمفخرة معمارية وفنية جديدة للمغرب بعد توليه مقاليد الحكم بعاميين، مع اتخاذها عاصمة له وتحويل قصبته إلى مدينة عظمى محصنة بالأسوار ذات طابع خاص بقصبات المدن، مثل باب المنصور العلي، باب البرادعيين، باب الخميس²، فنافست فاس بتحول علمائها إليها.

حكم السلطان إسماعيل أكثر من نصف قرن من 1082-1139هـ/1671-1727م الذي جدد صرح ضريح مولاي إدريس الثاني بفاس، من توسعة المسجد وإنشاء منارة وصرح وأقام به الخطبة، مع تسقيف القبة في ذي الحجة 1132هـ/1720م³، ليزيد فيه حفيده السلطان محمد بن عبد الله بناء الباب المواجهة لقبة الضريح الإدريسي فكان أيقونة في الفن والإبداع وفي عهد السلطان عبد الله بني مسجد عرف باسمه بفاس الجديد ومسجد باب الجيسة⁴ ليضيف ابنه السلطان محمد بناء ثلاث أقواس بقنطرة سبو خارج فاس، ورمم ضريحي الشيخ دراس بن إسماعيل وأبي عبد الله التاودي⁵.

وهذان المسجدان بفاس يعتبران نموذجاً جيداً لعمارة المساجد العلوية لهذا العهد⁶، وأنشأ السلطان سليمان مسجد الرصيف، الشراييليين⁷، وكل هذا يؤكد أن سلاطين المغرب أراد كل واحد منهم أن يخلد اسمه بمدينة فاس الثقافية والعلمية بإنشاء أو ترميم جانب من جوانبها.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 1، ص 134-135.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P 264-265.

³. محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3، ط1، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب للنشر والتوزيع، الرباط 1407هـ/1986م، ص242.

⁴. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 208-211.

⁵. العباس بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، مراجعة: عبد الوهاب ابن منصور ج6، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1993م، ص 129.

⁶. هنري طيراس، "الفن المعماري في المساجد المغربية عبر العصور"، تر: عبد اللطيف ملين، عن مجلة دعوة الحق 1962م، ص 65.

⁷. Champion, Op.cit, P 68.

ثالثاً: العلويون والقرويين:

رغم ما قام به السعديون لتنسية رجال القرويين ما اقترفوه ضد أعلامها، بتشبيدهم زاوية القراء أو خلوة الأسبوع العليا فيه، والقبة الشرقية والغربية للصحن والخزانة الأحمدية، فإن دولتهم ظلت قلقة من فاس، وانتهت بأيام عصيبة التي شهدتها المدينة، فعان منها رجال القرويين مما أدى بهم للهجرة بل وحتى تعطيل الدراسة والصلوات في جامع القرويين¹. وهذا الأمر بظهور العلويين وأخذهم زمام الأمور وقضائهم على الحركات التي كانت تهدد البلاد، ولما كان القرويين أول من شعر باضطهاد السعديين من خلال رد رجالها وعلمائها عمد العلويون يحيطون اهتمامهم وعنايتهم به، فاهتموا بالجانب العمراني بترميم زواياه المهددة بالانهيار وإدخال بعض الجديد عليه كالساعات العصرية، فقد شهد البلاط الأوسط عناية شاملة منهم سواء القباب، الثريات أو العنزة أو الغرفة (الموقتين) التي زينت بمختلف الساعات الأوروبية وآلات الحساب، كما شيدت المدارس الداخلية للطلبة، وبنيت محكمة خاصة للقاضي في صميم سباط العدل، أما الصحن فقد حسنه فازداد جمالا وبهاء بالساعات الشمسية والفوارات كما اهتموا بالخزائن العلمية من ترتيب وفهرسة وبناء وذلك من خلال تخليد أسمائهم فيها أو بأحد أركانها².

لقد تبنى المرينيون في تخطيط مساجدهم عمق بيت الصلاة عن طول جدار المحراب وعقود المسجد عمودية على حائط المحراب والتفاف المجنبات حول الحصن، وحذا حذوهم السعديون في تخطيط مساجدهم كبناء مسجد باب دكالة (965هـ/1557م) ومسجد المواسين (970هـ/1562م)، في حين التخطيط العلوي تميز بطول جدار القبلة عن العمق واتجاه العقود في موازاة حائط المحراب وخلو الصحن من المجنبات، وهذا شبيهه بالأصول الأولى للعمارة الإسلامية التي تجلت في عهد الأدارسة فيما يتعلق بتخطيط بيوت الصلاة واتجاه العقود الحاملة للسقف، كمسجد للاعودة (1140هـ/1727م) ومسجد الروا بمكناسة الزيتون

¹. التازي، جامع القرويين ..، المرجع السابق، مج 3، ص 654.

². نفسه، ص 654.

للسلطان محمد بن عبد الله (1762-1790م)¹ ومسجد باب الجيسة بفاس الجديد للسلطان سليمان²، لذا عمل الأشراف العلويون على إحياء التقاليد الإسلامية الأولى للعمارة، المستمدة من المنطلق الأول لتخطيط مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة.

1. التحسينات الداخلية:

أ. تأثيث الغرفة: لقد زود المرينيون الغرفة بساعات مائية ورملية وإسطرلاب والتي غدت في مطلع الدولة العلوية غير صالحة للاستعمال أمام تطور الساعات الآلية التي تتضبط زمانا وتحسن منظرا وتصغر حجما، فاستفاد العلويون في احتكاكهم بالأجانب، فكانت أشهر تلك التحف الساعات العصرية الكبرى وآلات التعديل³، لذا المكان الأفضل لها هي الغرفة مركز الموقتين في منار جامع القرويين، فحضي هذا الأخير بساعة هولندية صنعت عام 1091هـ/1680م والتي أهداها السلطان إسماعيل للقرويين رغم اندثارها بعامل الزمن فقد كانت فريدة من نوعها⁴.

وساعة فرنسية هدية من نفس السلطان حملت على عمودين رخاميين صغيرين يقومان على قاعدة رخامية تم حبسها في منتصف شهر رجب 1125هـ/1713م، وفي هذه الفترة أخذت العلاقات الفرنسية المغربية تستعيد عافيتها بعد صراع دام طويلا بسبب الاستيلاء على 73 حملا من خزانة السلطان زيدان من الدولة السعدية، وساعة لندنية حبست على الغرفة من السلطان عبد الله 1168هـ/1754م، وساعة لندنية أخرى أهداها الملك محمد بن عبد الله (محمد الثالث) إلى منار جامع القرويين في 1177هـ/1763م إلا أن الأيدي عبثت بها⁵.

كما توجد بالغرفة ساعة من صنع لندني وقد حبسها السلطان اليزيد للقرويين عام 1205هـ/1790م، وساعة موجودة قبالة الداخل إلى السطح من باب الغرفة بالقرويين صنعها الفقيه الموقت محمد الحبابي في حوالي سنة 1220هـ/1805م بأمر من السلطان

¹ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 265-266.

² Pierre Khort, En colonne au Maroc, Librairie Académique, Paris 1931, P103-104.

³ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 661.

⁴ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 12، نفائس القرويين، ص 446.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 662.

سليمان¹، كما نصب ساعة لندنية أواخر أيامه في 1234هـ/1818م، وساعة انجليزية مرتبة على توقيت المدينة المنورة زودها الموقتين بإمساكية لعرض المدينة المنورة والساعة من إهداء العربي الدرقاوي دفين غمارة عام 1239هـ/1823م، كما أهدى السلطان عبد الرحمن بن هشام ساعة ذات صنع باريصي صغيرة الحجم كانت عمدة التوقيت لمدة من الزمن وأهديت للقرويين في 1242هـ/1826م، كما تكاثرت الساعات المهداة للقرويين في العهود اللاحقة من فرنسية وإنجليزية، فهناك 13 ساعة تزدان بها غريفة القرويين، ولا يزال بعضهما يشحن كل ثمانية أيام².

إسطرلاب الغريفة: علق بجدار الغريفة إسطرلاب³ قطره 67سم، ويرجعه التازي للعهد المريني، وقد أعجب به الملك محمد بن عبد الله لأنه يتفق على وضع الكواكب وارتفاعها في الأفق، فاستعاره وأرسله إلى باريس قصد صنع أنموذجين منه، أحدها لجامع الأندلس والآخر لجامع فاس الجديد ورد إسطرلاب الغريفة مصحوبا بالساعة اللندنية سابقة الذكر، وتم إرسال الإسطرلاب لفرنسا ما بين (1201هـ/1786م إلى 1204هـ/1789م)، ليتم توجيههم لأماكنهم⁴.

ب. الثريات والإنارة: من التحف المعدنية الثريات العديدة التي أنتجها فنانو العصر العلوي بالإضافة إلى تعهدهم آثار السابقين بالإصلاح والترميم، فهذا السلطان إسماعيل يأمر بإصلاح ثرية الموحدين الشهيرة بجامع القرويين المصنوعة من البرونز وتعود إلى سنة 600هـ/1203م، لتعويض ما فقدته بفعل الزمن وإعادتها لموضعها بعد أن سجل عليها اسمه إلى جانب السلطان أبي عبد الله الناصر الموحدي في سنة 1120هـ/1708م، وهو الأمر الذي درج عليه العلويون في سياستهم نحو العمائر والمنابر والمآثر باختلاف أنواعها

¹ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 387.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 662-663.

³ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 12، نفائس القرويين، ص 446.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 664.

لتدخلها الكهرباء في عهد السلطان محمد بن يوسف (محمد الخامس) ليتم التخلي عن الزيت الذي أضاء القرويين لمدة 11 قرناً¹.

ج. البلاط الأوسط: وتم استحداث شماسيتين لإدخال الضوء في أعلى جهة المحراب، وجاءوا فوق الشماسيات الثلاثة القديمة التي تعود لأيام الموحدين، وهما تتعارضان على اللوحة التي تحمل اسم باني القبة عبد الله بن محمد، كما أنشأوا القبة المضلعة التي تحمل الجرس الأكبر وهي الثالثة جهة العنزة، واحتوت القبة على خطوط هندسية متقنة المقاييس ومن شماسيات وأقواس وتخريم وتطريز، حتى أن الناظر يعدها من القباب القديمة التي بنيت في عصر الازدهار للفن المغربي الأندلسي، كما تم في العهد العلوي الكشف عن الفنون التي احتواها الجامع في العهد المرابطي التي غطاها الموحدون سنة 540هـ/1145م، ففي حدود 1266هـ/1849م وقعت حادثة إثر سقوط قطعة جبس في الصف الثالث تزن نحو ربع قطار يوم الجمعة والإمام يخطب²، ولكن بعد مرور قرن من الزمن في أيام محمد الخامس عام 1372هـ/1952م، وبتعاون وزارة الأوقاف مع مصلحة الآثار تم إمطة اللثام عن لوحات مزخرفة ووصلات مطرزة منقوشة فكان أكبر حدث في جامع القرويين حينها³.

د. أمر القبلة والخزانة العلمية: اهتم العلويون بأمر المحاريب⁴ فالسلطان الرشيد عندما أراد تخطيط مدرسة الشراطين جمع العلماء ليقولوا رأيهم في محرابها حتى لا يقع ما وقع فيه السابقون، ونفس الشيء عندما قرر السلطان إسماعيل تجديد جامع الشرفاء الذي كان أساساً لقبلة القرويين، فقد حقق أمر قبلته الموقت العربي بن أحمد الفاسي وأقر بانحرافها⁵، ولكن بعد إقامة المجلس الشرعي أجمعوا على بقائها مقابل تنبيه المؤذن للمصلين بالانحراف⁶.

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 388.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 656.

³. بنعبد الله، "من مظاهر..."، المقال السابق، ص 9.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11، صور داخلية للقرويين، ص 445.

⁵. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 218-219.

⁶. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 242.

أما خزانة القرويين في العهد العلوي فقد أولى السلطان الرشيد اهتمامه بها فعمل على تنظيمها، وزاد السلطان إسماعيل في ترتيبها كإهداء الكتب وجمع الخطاطين لنسخها واستغل هذا السلطان وقوع بعض الرهائن الأجانب تحت يده وطلب مقابلهم فدية من نفائس الكتب فجعل مقابل 50 أسيرا 5000 كتاب أي 100 على كل واحد، شريطة أن تكون من كتب الإسلام الصحيحة المختارة والمحجوزة في خزائنهم بأشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها فتجمعت بذلك تصانيف وأنواع الدفاتر وأسماء التأليف ما لم يكن في غيرها¹.

وفي العهود اللاحقة فالسلطان عبد الله شحن رفوفها بعدد كبير من الكتب² والسلطان محمد بن عبد الله (محمد الثالث) اهتم بنسخ النادر منها، وجلب أندر المخطوطات من المشرق وزودها كل من الأمير علي بن محمد الثالث في ذي القعدة 1183هـ/1770م وأخيه اليزيد في أوائل شوال 1204هـ/1789م بعدة كتب، ولكثرة تواتر الكتب فقد أمر السلطان سليمان بتوسعة خزانة القرويين وإضافة الخبرة التي كانت بجوارها منسوبة لأولاد الغرديس، وعرفت في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام وابنه محمد ومن جاء بعدهما، عدة ترميمات وتوسيعات، فتم تحويل باب الدخول إليها من داخل بيت الصلاة إلى فتح باب خلفي يدخل منه الآن مطل على ساحة الصفارين، ولها ممر يؤدي لمقصورة الخطيب³.

2. التحسينات الخارجية:

أ. الخصة الوسطى⁴: وجد بصلح القرويين ثلاث خصات إحداها تعود للموحدين وهي الخصة المنصوبة في الجانب الشرقي من صحن المسجد، والثانية لأيام السعديين أضيفت لجانبه الغربي خصة مقابلة للأولى، والثالثة في بداية أيام الدولة العلوية فبعد تفريش الصحن من قبل زوج السلطان الرشيد، زين مركز الصحن بخصة وسطى، في عهد السلطان إسماعيل سنة 1093هـ/1682م⁵.

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 668.

² ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم9. وقف السلطان لكتاب الشمايل على خزانة القرويين في 1156هـ، ص 442.

³ بنعلة، المرجع السابق، ج2، ص 29-33.

⁴ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 16، صور لبعض مرافق القرويين الخارجية، ص 450.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 660.

ب. **المنارة كمرصد:** احتفظت منارة القرويين، منذ تأسيسها على السبق عن سائر مساجد المدينة، وبه سجل يحتوي على شهادة العدول المتطوعين لمراقبة ثبوت الهلال على طوال السنة، ففي يوم 29 من كل شهر عربي يتصل العدول بمنار لرصد الهلال، ليثبتوا شهادتهم في السجل في كلتا الحالتين، وعليه يتخذ القضاة من باب صومعة القرويين مجلسا لهم لاجتماع العدول والموقتين والمعدلين ليعززوا معلوماتهم بالرؤية الشرعية فيجمعوا بين النظر والتطبيق¹.

ج. **العنزة:**² وقد جدد السلطان إسماعيل العلوي عنزة القرويين في حوالي سنة 1089هـ/ 1678م، بعدما دخلها التلف بسبب تعرضها الدائم للظروف الطبيعية، وهي من المرافق التي تحتاج لعناية دائمة لتمديد عمرها، ولاحتوائها على عصارة الفن الإسلامي، فتكررت العناية بصيانتها وترميمها على تواتر الملوك، واحتوى وجهها العنزة بجامع القرويين على وحدات زخرفية وتركيب معماري وأقسام هندسية وعناصر رئيسية، مع تنوع فنون خراط ونقش الخشب³.

رغم تضرر الوجه الخارجي بسبب الطبيعة، فإن الداخلي لا يزال سليما، فجاءت في وحدتين أساسيتين: إحداها سفلية فيها ثلاث حشوات رئيسية مستطيلة ازدانت كل منها بزخارف وفي الوسطى النص التأسيسي، وقسم علوي أيضا انقسم إلى ثلاث وحدات أوسعهم الوسطى وأكثرهم ارتفاعا ينتهي بعقد نصف دائري، ازدانت كلها بزخارف هندسية غطتها أشكال نجمية ذات ستة رؤوس مع تطعيمها بالخط الكوفي والنسخي لكتابة النقوش التأسيسية والدعائية والآيات القرآنية، مع أن تقاسيم الوجه الداخلي يكاد يتماثل مع نظيره الخارجي من حيث الزخارف والحشوات⁴. لتكون محل اعتناء من قبل للملوك المتأخرين⁵.

¹ ابن زيدان، الدرر الفاخرة...، المصدر السابق، ص 32.

² ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 13، صور داخلية وخارجية لعنزة القرويين، ص 447.

³ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، ج 5، المرجع السابق، ص 388.

⁴ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 13، صورة داخلية وخارجية لعنزة القرويين، ص 447.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 659-660.

الفصل الثالث: القرويين والقضايا السياسية القائمة (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

لقد اهتم السلاطين بالعلماء، ووقفوا على مشاغلهم، باعتبارهم نبراس الأمة، والملاذ عند الشدائد لأخذ النصائح والحلول، كما كانوا على جانب مهم في إقرار هؤلاء الملوك من داخل جدران القرويين في كتابة الوثيقة التي تنصّبهم وتقرأ على منبره وتجعل عامة الناس يقرونهم ويوالونهم أو ينفضون من عندهم، فكانوا سلاحا ذا حدين في القضايا التي تطرح وتحت أي غطاء، فمن خلال ما تطرقنا إليه في الفصول السابقة فإن جسامة الأحداث التي مرت بها البلاد عامة وفاس خاصة وهذا لمركزها وقوة جامعها، الذي لم يكن بعيدا مع ورجالاته عن تلك التطورات، وإنما كانت في صلب انشغالاتهم حتى كانوا طرفا فيها إما بالإثبات أو النفي وهذا ما نسعى للوقوف عليه في هذا الفصل، وحسبنا هنا ألاّ نتتبع عورات العلماء وإنما نستجلي من مواقفهم الدروس التي قدموها خلال تلك الأزمان التي عصفت بالبلاد ومحاصها القرويين بحلولها ومرّها.

أولا. القرويين ونصرة الحق:

أول ما أنشئت عليه مدينة فاس هي أن تكون مكانا لعبادة الله وحده ومرتعا للعلم والعلماء لذلك شغل علماء القرويين مكانا مهما في القضايا التي طرحت في الفترة الحديثة، وكانوا منابر للحق ولو على أنفسهم ومنهم من مات عليه، وللمحافظة على مكانتهم العلمية والاجتماعية التي حققوها خلال العهود السابقة¹، وكان رأيهم القول الفصل لأن الرجوع إلى الشرع هو شعار كل الناس في البلاد، مثل ثورة خطيب وإمام القرويين الشيخ عبد العزيز

¹. لطفي بوشنتوف، "صورة عالم من القرن 9هـ/16م رضوان الجنوي من خلال: (تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان)"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص 56.

الورياغلي على السلطان عبد الحق بن أبي سعيد المريني، لتطاول وزيره وحاجبه أدى لسقوط دولته¹، فقول الحق شعار العلماء بالقرويين.

1. في العهد السعدي:

أ. كلمة الحق: قال رسول الله (ﷺ): "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر"²، حديث أخرجه ابن داود والترمذي³ وغيرهما، فمن هذا المنطلق فإن العلماء رأوا في أنفسهم أنهم هم المطالبون بهذه الكلمة أمام ذلك السلطان فلم يخلوا بها في أي زمان ومكان ما انتشر الإسلام وساد، للمحافظة على التوازن بين الرعية والأسياذ.

لقد تدخل علماء القرويين أثناء الصراع الدموي بين السعديين والوطاسيين لردء الشرخ وحقن دماء المسلمين لأنهم إخوة، وإصلاح ذات البين بينهم على إثر معركة مشرع بوعقبة في 1536م وحضر عقد الصلح عدة شخصيات علمية منهم أبو الحسن علي بن هارون المطغري وعبد الواحد الونشريسي الذي أنشأ خطبة بليغة نسج فيها بنود الصلح وشروطه بين الطرفين⁴، فتم تقسيم البلاد بينهما، في ظل عدو يتربص بهم الدوائر على السواحل.

وعندما ساد السعديون على المغرب فقد انتهجوا مع العلماء منطقتين أحدهما يمتاز باللين وخفض الجناح وآخر يمتاز بالقسوة وإظهار مدى جلالة الرجل البدوي⁵، لأن بيعة الملوك كانت من القرويين، فقد سعوا في جعل العلماء مواليين أو على الأقل مسايرة لمخططاتهم وطموحاتهم، فمن أفتى أو تكلم بما لا تهوى أنفسهم من كلمة الحق، رمي في غيابات السجن أو سرعت إليهم يد المنون تلقفتهم ولم يشفع فيهم حتى تعليمهم لهم⁶.

ومن أمثلة ذلك عندما حاول السلطان محمد الشيخ السعدي الوثوب على فاس فإنه اتصل بالفقيه عبد الواحد الونشريسي طلبا لبيعته حتى تتبعه المدينة وتواليه، ولكن الردّ المخيب قد

¹ الخلاقي، المقال السابق، ص 119.

² الإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، سنن أبي داود، ج6، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي حقه وضبطه: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق 1430هـ/2009م، ص400.

³ الترمذي، سنن الترمذي، باب الفتن، رقم 1275، المصدر السابق، ص491.

⁴ الناصري، المصدر السابق، ج4، ص371.

⁵ الصحراوي، المقال السابق، ص43.

⁶ الافراني، المصدر السابق، ص62.

كلف الفقيه حياته، ونفس الفعل يلقاه من خالف توجه السلطان من علماء، كالفقيه قاضي الجماعة عبد الوهاب بن الزقاق والأخوين أحمد ومحمد الطرون الأمويين بفاس، وخطيب مكناسة أبو علي حرزوز وابنه¹، في حين آخرين التزموا الحياد مثل رضوان الجنوي، الذي ارتحل لجبل بني بكار اتقاء للفتنة².

فنتيجة تعطشهم للسلطة كان أول كبش فداء من العلماء الفقيه عبد الواحد الونشريسي الذي ردّ على أبيات كتبها السلطان محمد الشيخ لأهل فاس يقول فيها:

إن دخلتها صلحا ملأتها عدلا*** وإن دخلتها عنوة ملأتها قتلا.

فرد عليه الفقيه ب:

كذبت ورب البيت لا تحسن العدلا*** ولا خصك المولى بفضل ولا أولى
وما أنت إلا مسرف ومعداند*** تمثل للجهال بالسمة المثلى³.

فأمر بقتله، فتم ذلك أمام باب الشماعين بجامع القرويين في ذي الحجة 955هـ/1549م⁴.

ونهج السلطان محمد الشيخ نفس السياسة مع الفقيه الزقاق، بحيث بلغه أن الفقيه كان يميل إلى أبي حسون الوطاسي ويناصره، وأنه كان يرى في خروج السعديين على الدولة المرينية شقا للطاعة وتقريفا لكلمة المسلمين، وكان ينظر للحروب التي يشنونها على أنها حرب غير مشروعة، فلما تم النصر للسلطان السعدي أمر بالقبض عليه، واستدعائه ليتولى محاكمته بنفسه⁵.

¹. الخلادي، المقال السابق، ص 119.

². بوشنتوف، المقال السابق، ص 56.

³. وقد أورد البكري في مغربه تقريبا نفس الأبيات، عندما قام أبو عبيد الله الشيعي بمراسلة أهل المغرب في الدخول تحت طاعته، فكتب في آخر رسالته الأبيات التالية: فإن تستقيموا استقم لصلاحكم*** وإن تعدلوا عني أرى قتلكم عدلا وأعلوا بسيفي قاهرا ليسيوفكم*** وادخلها عنوة وأملوها قتلا.

فأجابه أهل النكور من آل صالح بلسان شاعرهم الملقب بالاحمس بما يلي:

كذبت وبيت الله لا تحسن العدلا*** ولا علم الرحمن من قولك فضلا

فما كنت إلا جاهل منافق*** تمثل للجهال في السنة المثلا

وهمتنا العليا لدين محمد*** وقد جعل الرحمن همتك السفلا.

(ينظر: أبي عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص 95).

⁴. الأفراني، مصدر السابق، ص 77.

⁵. Berque, Op.cit, P81.

وكانت المحاكمة قصيرة، معروفة النتيجة منذ البداية، فقد صدر حكم الإعدام على الفقيه الزقاق قبل أن يقاد إلى مجلس السلطان، وكان الفقيه مسلماً أمره لبارئه، عارفاً أنه ميت لا محالة وأن السلطان لا يستدعيه ليحاكمه، وإنما ليهينه قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام، فلم يتردد ولم يحاول التملص من تهمة، ولم يفكر في الدفاع عن نفسه أو تبرير موقفه، وإنما صمد صمود العارفين، وعرف كيف يجعل من محاكمته محاكمة له ولخصمه السلطان أبي عبد الله الشيخ في وقت واحد، فقال له السلطان اختر بأي شيء تموت؟. فأجاب الفقيه الزقاق: اختر أنت لنفسك؟، فإن المرء مقتول بما قتل به. فصدم السلطان جواب الفقيه وتملكته نوبة غضب، فصاح في المحيطين به من حاشيته وجنوده بقول: "اقطعوا رأسه بشاقور"، فقطع¹.

وقتل الفقيه على بن حرزوز خطيب مكناسة، الذي كان يذكره بالآية التالية: "وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ"²، ولكن مارمول يطرح فكرة يبرر فيها لما استعمل السلطان العنف مع العلماء لأنهم عاتبوه في استعمال القوة ضد الوطاسيين كمسلمين فأجابهم على أنهم تركوا الفاحشة منتشرة في فاس نهاراً جهاراً، وقد ناصره في ذلك القاضي سيدي موسى بقتل العديد وتركهم في العراء دون دفن لنتهشهم الكلاب تنكيلاً بهم³.

لم تفرع علماء القرويين تلك التهديدات ولا الحصون على مدينتهم ولا حتى الموت، أمام إعلاء كلمة الحق فوقفوا ضد المتخاذل من الحكام عند ظهور الأطماع الأجنبية على البلاد فقاموا بإصدار فتاوى وتهيج المشاعر، فبرهنوا على دخولهم للحياة السياسية، مثل الرسالة التي كتبها علماء القرويين ونقلها الناصري كاملة عنده رداً على الأمير محمد بن عبد الله

¹. الصحراوي، المقال السابق، ص38.

². سورة البقرة، الآية: 205-206.

³. مارمول، المصدر السابق، ج2، ص148.

السعدي الذي استتجد بأمر البرتغال ضد بني جلدته وأفتوا بردة من استتصر على المسلمين بالنصارى، الأمر الذي جعل الناس ينقضون عليه في وادي المخازن في أوت 1578م¹. وفي خضم الاضطرابات التي عاشها المغرب بعد وفاة السلطان المنصور السعدي بسبب تناطح أبنائه على الحكم، حيث خرج الشيخ المأمون بخرجة صدمت العلماء والعامّة فقد عمد لتسليم العرائش للأسبان في 1019هـ/1610م، فقابلوه بلبس "النعل السود" كإعلان عن الحداد، وضاعت في هذه الفترة خزانة علمية مهمة وتعرض عدة علماء لمساومة المتنازعين فقتل بعض وفر الآخرون².

ومن النقاط التي تسترعي الانتباه هي أن أهل العلم في هذه المرحلة هما صنفان منهم العلماء والمتصوفة من الصلحاء والأولياء أو فيما يدخل تحت طائفة الصوفية لما أصبح لهم من تأثير قوي على العامة والخاصة، وطغى أحيانا حتى على فئة العلماء أنفسهم، لذا فهي مرحلة صوفية بامتياز فقد طغت هذه السمة في حياة العامة وانصبغت بها، خصوصا في البوادي، ومنح لهم هالة من الكرامات والعجائب والغرائب، وربطوا بجسام الأحداث بالبلاد كالشيخ أبي الرواين والشيخ محمد بن عبد الله الغزواني...³.

فناصر هؤلاء المتصوفة قيام الدولة السعدية بل كانوا إحدى ركائزها، ولكن بمجرد ما أحست أنهم أصبحوا يشكلون عليها خطرا، فسدت العلاقات بينهما، فجر ذلك إلى محن ودسائس فالسلطان محمد الشيخ المهدي قد وصل إلى ما وصل إليه على أكتاف رجال التصوف، وكان على دراية بمدى قوتهم وسطوتهم الروحية على العامة والخاصة، ولكن سياسته العنيفة معهم خاصة الموالين للوطاسيين واتهامهم بإخفاء ذخائر الدولة وأموالها فقام بسجنهم، ونفيهم وغلق زواياهم، أما من ناصرهم فقد ضيق عليهم ثم فرض عليهم وعلى

¹. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 75-81.

². نفسه، ص 366.

³. الافراني، المصدر السابق، ص 69-71.

حقولهم ما فرضه على العامة من ضرائب وخراج، ومن اعترض على ذلك منهم فيأخذها كحجة فيوقفه عند حده مع حرمان بعض الزوايا من مالهم وأملاكهم وذخائرهم¹.

ب. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لقد تحدث مفكرو العصر السعودي وحتى العلوي على تلك التقلبات السياسية التي عرفت البلاد، من الوجهة العامة والعلمية، لذا اختلفت صيغ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باختلاف طبيعة الظروف وشخصية الدعاة، فمنها من وجه إلى الأفراد من الملوك والولاة أو جهة معينة، ومنها ما صرف إلى تكتلات سياسية إلا أن مهمة هؤلاء المصلحين لم تكن سهلة فمن أودي في شخصه والآخر في جسده كالإهانة والسجن وآخر راحت حياته ضحية ذلك².

وعلى ذلك نجد علماء المغرب في ردهم على رسالة المعاتبة من السلطان المخلوع محمد المتوكل الذي اغتر بنجدة البرتغال عندما جاز إليهم في 986هـ/1578م واستصرخهم لإعادته لملكه، فبعدما دحضوا كل أوهامه وبينوا له جوانب الحقيقة التي لا بد منها في ذلك بالأدلة الشرعية والبراهين القطعية على المسائل التي أثارها في رسالته، نصحوا له في الأخير بالعودة على ما هو معول والتوجه إلى الله والتوبة إليه خاتمين بقول: "ودع عنك كلام من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله"³.

كما امتلك العلماء وضعا خاصا يمكن أن نسميه بالحصانة العلمية، لما لهم من دور كبير وخطير بفعل نفوذهم القوي لدى العامة، ويعتبرون كمثلي للعامة لذا نجدهم يدافعون عنهم في مجالس السلاطين، فكان السلاطين يتغاضون على الكثير من أقوالهم ويتقبلون انتقاداتهم مع إقالة العثرات مثل السلطان أحمد المنصور مع شيخه المنجور والعالم الجليل أحمد بابا التتبيكتي، وما قام به رضوان بن عبد الله الجنوي على إثر معركة وادي المخازن في سعيه لإثارة السلطان أحمد والإلحاح عليه بانتهاز الفرصة لشتات البرتغال لاسترداد الثغور من طنجة وسبتة وأصيلا، حتى يتجاوب وتطلعات الرعية، كما راسله مرة أخرى

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 45-46.

². نفسه، ص 217.

³. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 80-81.

يؤاخذه على قبول عملية افتداء أسرى البرتغاليين مقابل المال، في حين الأسرى المسلمين بأيديهم فألح في العمل على فكهم بقدر الجهد¹.

وقد أورد الافراني في نزهته معاتبة القاضي الحميدي لسلطانه أحمد المنصور من مشاهدة أثرت فيه أثناء انتقاله مع عدد من العلماء من فاس إلى مراكش على العادة أثناء الأعياد فاستوقفه ذلك المنظر المتمثل في طابور من الأفراد المسلسلين والمصفدين في الأغلال وفيهم حتى النسوة وإحداهن استحوذت على فكره تلك المرأة التي على باب المخاض، فعندما شكا القاضي ذلك للسلطان غضب منه واعتزله في المجلس، ما جعل القاضي يستلطف سلطانه ويرد على اتهامه بأنه لولا تلك السلاسل ما سلم القاضي ومجموعته أثناء تنقلهم لمدة عشرة أيام في دعة وأمن سالمين، ويرجع صاحب النزهة عدم الإيقاع به لأنه شيخه وزادت شيخوخته فتحمل منه ذلك².

وكان العالم أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي (912-991هـ/1506-1583م) أستاذ السلطان احمد المنصور، يرفض كل العروض المقدمة لتولي وظيف رسمي، حتى لا يقرع أبواب السلاطين من أجل المناصب أو العطايا، مفضلا تعليم الصبيان ونسخ الكتب لعيشه ثائرا على الوضع السياسي والاجتماعي، فكان معارضا لكل أشكال الفساد والظلم في مجتمعه، مما جعله ينسج رسالة إلى السلطان عبد الملك السعدي، ويحثه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع التمسك بالاستقامة والعدل وعدم الطغيان، كما كانت له جرأة ورباطة جأش، في قول الحق حتى في مجلس الأمير محمد المتوكل، واتهامه بعدم الاكتراث بشكاوي الناس وغلق الباب في وجوههم، كما كاتب الملوك، الأمراء، القضاة وكبراء البلد في نفس هذه الأمور³.

ومن العلماء من انكوا بنار الفتنة مثل الفقيهين الصديقين العلامة أحمد المقرئ (ت1041هـ /1632م) الذي خرج مغاضبا لفاس في 1027هـ / 1617م بسبب اتهامه

¹. بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص117-118.

². الافراني، المصدر السابق، ص 158.

³. بوشنتوف، المقال السابق، ص 57-59.

بالميل إلى الشراكة في فسادهم وبغيهم أيام السلطان الشيخ المأمون السعدي وابنه عبد الله¹ ومقتل صديقه الفقيه العالم القاضي أبي القاسم بن أبي النعيم في يوم الجمعة 5 ذي القعدة 1032هـ/ 29 سبتمبر 1623م بعد صلاة الجمعة بغيا وعدوانا، لاتهامه بالميل لعبد الله بن الشيخ المأمون، وهو ما أشعل فتنة بين عدوتي فاس²، وقتل علي بن عبد الرحمن السلاسي لأنه واجه السلطان المأمون الشيخ وطالبه بإعادة مال المسلمين المغصوب من الملوك باسم الوقف، فامتنحه السلطان زيدان بن أحمد السعدي بالسجن في 1017هـ/1608م، ليتوفي في السنة التي تليها مسموما في سجنه³.

ج. الشورى والفتوى: كان السلاطين السعديون يستشيرون العلماء في الأمور الصغيرة والكبيرة التي تهم البلاد والعباد، قبل أن يقدموا على أي خطوة، حتى أن السلطان المنصور اتخذ يوم الأربعاء من كل أسبوع يوم للمشاورة وسماه يوم الديوان تأثرا بالعثمانيين، يجتمع فيه أعيان ورموز الدولة من أجل دراسة القضايا السياسية المطروحة وغيرها من موجبات وجلائل الأمور وعظائم النوازل، وكان العلماء طرفا فعالا في هذا الديوان مثل الفقيه قاضي الجماعة بفاس عبد الواحد الحميدي⁴.

نجد السلطان أحمد المنصور لما همّ باختيار ولي عهده فبعد الاستشارة استشار أهل العلم في ابنه محمد المأمون فعقد له بالبيعة⁵، كما استشارهم عندما همّ أيضا بإرسال رسوله إلى ملك أسكية إسحاق الثاني، فقللوا من تخوفاته بل إنهم استبعدوا أن يطمع النصاري في تلك الغابات التي لا تضم سوى الحيوانات المفترسة والحميات البائية، ولذلك فإنهم ألحوا عليه أن يكتفي بطلب البيعة من الملك إسحاق، ويقنع بالدعاء على منبر مدينة (غاو)⁶، مؤكدين على قضية استغلال المعادن وتحديد الزكاة عليها مع تخصيص العشر لبيت المال في

¹. النجمي، المقال السابق، ص 112.

². الأفراني، المصدر السابق، ص 345.

³. القادري، نشر المثنائي، المصدر السابق، ج 1، ص 148-149.

⁴. الأفراني، المصدر السابق، ص 242-243.

⁵. الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 99.

⁶. Inconnu, Op.cit, P49-57.

مراكش، كما أكدوا على أحقية السلطان بها لأنه أمير المؤمنين وخليفة لهم بدون منازع¹، وقد صيغ ذلك على شكل فتوى عامة وأرسلت إلى الملك أسكية².

د. **الجهاد:** من الأمور التي أسالت الكثير من الحبر وأصدرت عديد الفتاوى وبرز فيها اختلاف في المواقف بين العلماء قضية الجهاد خلال العهد السعدي³، ورفعت الهمم وتحولت حلقات العلم لمنابر لإيقاد شعلة الجهاد ضد العدو ونصرة الثغور، لإعلاء كلمة التوحيد وتلبية لنداء الداعي إلى الاستشهاد في سبيل الله، فمن ابن غازي وتلميذه ابن هارون بالعهد الوطاسي⁴، لشيخ أبي المحاسن الفاسي ومحمد بن رسون العالمي اللذين أبليا البلاء الحسن بوادي المخازن إلى جانب الغوث أبي العباس السبتي، إلى محمد بن إبراهيم وعبد الرحمن بن محمد التمارتي إلى عبد الواحد بن عاشر وعبد الهادي بن طاهر حملا السلاح إلى جانب العياشي ساهموا كلهم في حصار المحتلين وحراسة الثغور⁵.

كما ناهض العلماء الشيخ المأمون السعدي الذي تنازل عن العرائش في 1019هـ/1610م للأسبان بعد خلاصها من البرتغال والمناهضة التي تحولت إلى نداء بالثورة والتجاء الشعب للعلماء وكان للتدخل أثر قوي في الإجهاز على ذكر السعديين⁶.

كما احتوى كتاب الجواهر المختارة لعبد العزيز الزياتي على نماذج من كتابات الفقهاء حول الجهاد والتضارب بين الذين أخلصوا للجهاد والذين انتفعوا من السياسة برفضه وخصوصا عندما قام العياشي بمتابعة كل من تخاذل من ملوك السعديين، فقام أذئاب هؤلاء من الفقهاء بالتشويش على الحركة العياشية لفض الناس عنه، وفيه طرح بعض العلماء خمسة أسئلة على عموم فقهاء المغرب في حدود 1040هـ/1670م ويتعلق الأول منها بحكم

¹ الافراني، المصدر السابق، ص 268-270.

² محمد أحمد الغربي، "حملات السعديين إلى الغرب الإفريقي"، عن مجلة دعوة الحق، ع8-9، ص7، محرم- صفر 1384هـ/ ماي- جوان 1964م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1964، ص 36.

³ Jacques Gagne et Saïd Nejjar, « Le Maroc Sa'dite a travers une étude récente », in R.H.T Vol xx-xxi, A1982-83, imprimerie Najah El-djadida, Casablanca 1983, P363.

⁴ ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، تع: عبد القادر الخلافي، دار المغرب، الرباط 1379هـ/1977م، ص 157.

⁵ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 198.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 445.

تحرير المدن¹ المحتلة من الحصون المشيدة من العدو، والثاني حول أدلة حكم إثباتا أو نفيا والثالث يتوقف الجهاد على وجود الإمام وإذنه أم لا؟ والرابع بحكم بيع الطعام والسلاح للحربيين والخامس بشراء الطعام من الحربيين عند الضرورة؟²، وتصدى لدحضها والرد عليها العديد من علماء العصر كالإمام محمد العربي الفاسي³، والإمام عبد الواحد بن عاشر، والإمام إبراهيم الكلالي بأن مقاتلة العدو لا تتوقف على وجود السلطان، فجماعة المسلمين تقوم مقامه⁴.

كما نصروا المظلوم فقد استصرخ علماء القرويين بأهل النجدة لرد العدوان عن فاس فاستجدوا بالمجاهد العياشي ومحمد الحاج الدلائي لما كثرت اعتداءات قبائل الحيانية وشراكة الذين سلبوا ونهبوا المال والمتاع وتجرؤوا على خطف الأطفال والنساء، كما عزز الفاسيون رسائلهم بفتاوى أصدرها فقهاء الحضرة الإدريسية ومنهم القاضي أحمد الأزموري ومحمد بن سودة ومن العلماء محمد ميارة، حمدون الأبار، عبد السلام بن محمد، علي بن محمد المري، عبد القادر الفاسي الموجبة لقتال الحيانية⁵ في 1051هـ/1641م وأخرى في عام 1062هـ/1651م، لذلك عندما يدخل محمد الحاج فاس سيكافئ هؤلاء الذين استجدوه من العلماء بمناصب ومراتب فأسند القضاء لأحمد الأزموري، والفتيا إلى محمد بن سودة ليصبح في 1057هـ/1647م قاضي مدينة فاس⁶.

2. العهد العلوي:

أ. كلمة الحق: حافظ علماء القرويين على نفس النهج الذي اتبعوه في العهد السعدي وما قبله، فلم يحدوا عن كلمة الحق وإتباع الشرع، ولو على حساب أنفسهم فصبروا على الشدائد

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 215.
² أبي محمد بن عبد العزيز بن الحسن الزياتي، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة، تح: غنية عطوي، ج2، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ تخصص مخطوط عربي، جامعة قسنطينة 2، السنة الجامعية 1433-1434هـ/2012-2013م، ص 57.
³ الناصري، المصدر السابق، ج، ص 280.
⁴ الافراني، نزهة الحادي، ص 383.
⁵ الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 292.
⁶ حجي، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص 226.

وماتوا محتسبين لله، فقد كان الشيخ محمد بن عمر الهشتوكي (ت1089هـ/1686م) صلباً في الحق لا يداري أحداً¹، وهذا الفقيه عبد السلام جسوس مات مقتولاً بسبب امتناعه عن التوقيع على ديوان العبيد²، استغرقت ذمته وطوف به في الأسواق لفدائه فسجن وقتل به في 1120هـ/1708م³، والعلامة الحسن اليوسي الذي يخاف الله ولا يخاف السلطان، وتميز بجرأته الأدبية فقد راسل السلطان إسماعيل وعبر فيها عن أفكاره وملاحظاته وأنشأ رسالة سماها: "ندب الملوك إلى العدل والوقوف مع السنة والشرع" لرده عن فكرة تجريد قبائل الثغور من السلاح⁴.

وعلى إثر ثورة الأمير محمد العالم فقد امتحن فيها العالمان المساوي الذي اتهم بتأييدها وزج به إلى السجن، فشفع فيه بعض العلماء وأبيات كتبها لتلميذه الأمير يبطئه في مشروعه ويمنعه من الثورة على أبيه، فأطلق سراحه⁵، لتتوجه يد السلطان بالبطش على المغسل والمصلي على ابنه الثائر قاضي الجماعة العربي بن أحمد بردلة، وكانت تلك رغبة أو وصية المقتول، فتوعده السلطان فرد عليه برسالة حسنة منها: "أما ما ذكرت أيدك الله من صلاتي على الولد المرحوم مع قبيح ما أتى به فقد ذكر في الحلية وغيرها أن الحسن البصري لما مات الحاج صلى عليه، فقيل له أتصلي عليه وقد علمت شيطنته وفسقه؟ فقال الحسن البصري: أستحي من الله أن أستعظم رحمة الله أن تصل إلى الحاج، فهذا الحاج قد قال بكفره غير واحد، وأجمع السلف على فسقه، فكيف بهذا الولد الشريف الذي هو من بيت شهد الله بطهارة أهله؟" فشفع له السلطان بذلك⁶.

كما كان شيخ الجماعة بفاس الفقيه التاودي بن سودة (ت1209هـ/1794م) يرأسه السلطان محمد بن عبد الله في أمور العلم والملك، ويبث رأيه بكل حرية، كما يرفع الفقيه

¹ أحمد الأمين العمراني، الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله، ج1، مطبعة فضالة، المحمدية 1996، ص 196.

² الريفي، المصدر السابق، ص 196.

³ الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص 85.

⁴ العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 197.

⁵ عبد الله النجمي، "الإفادات والإنشادات لمحمد الصغير الأفراني"، عن متنوعات لمحمد حجي، ط1، نشرت بمناسبة

صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص 108.

⁶ أكنسوس، المصدر السابق، ج1، ص 147-148.

للسلطان المظالم ويدافع عن المظلومين ضد الولاة ويخاطبه بحقوق الضعفاء، ولا يرده عن ذلك راد إلى أن يقضي أغراض الناس¹.

ب. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: كما ظهر في هذه الفترة الحديثة في المغرب الإسلامي قوة الصوفية وتأثيرها الديني والروحي على البادية وحتى المدينة فكانوا في مرتبة العلماء وتارة أكثر، بتأثيرهم حتى على العلماء الذين أصبح تكوينهم يشتمل على الصوفية وأصبحت طرفا سياسيا مهما فإن الملوك والسلاطين السعديين والعلويين قد اعتمدوا عليهم في نصرة قضاياهم، كنصرة أحمد الفاسي للسلطان الرشيد والدعوة للعلويين في دخول فاس² لمكانته ووجاهته وسدادة رأيه ووزنه بها جعل فاس تفتح له بابها فأغدق عليه الرشيد بدوره بمختلف العطايا، وتثبيت أركان دولته إلى جانب الخطيب أبي مدين بن محمد الفاسي (ت1182هـ / 1768م) وهو كاتب بيعة السلطان محمد بن عبد الله (ت1756/1171)³.

وأبو علي اليوسي الذي حضر مجالسه السلطان الرشيد وإسماعيل بعد تحويله من زاوية دلاء إلى فاس وأصبح من علمائها المبرزين في مختلف العلوم، وذاع صيته بالمشرق⁴ حتى قال فيه أبو سالم العياشي:

من فاته الحسن البصري يصحبه **** فليصحب الحسن اليوسي يكفيه⁵.

وكانت بينه وبين السلطان إسماعيل عدة مراسلات أهمها رسالتان لأمه فيهما أشد لوم ومن دون أن يخاف في كلمة الحق لومة لائم أو سطوة وشأوة سلطان، فأنشأ الأولى لما أقدم السلطان على تجريد القبائل من السلاح، بعد تكوينه للجيش النظامي فدعاه لرده⁶، وقد نشرها

¹. العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 211.

². محمد الامري، "رائد السلفية: المولى سليمان"، عن مجلة دعوة الحق، ع5-6، ص13، ربيع الأول 1390هـ/ ماي 1970م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1970، ص 117.

³. أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، المغرب 2002، ص 26-27.

⁴. عبد القادر الصحراري، "على هامش رسائل الحسن اليوسي إلى المولى إسماعيل"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص12 ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م، ص 68.

⁵. الأخضر، المرجع السابق، ص 124.

⁶. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 110.

كل من القادري في مثناه¹ وأكنسوس في جيشه والناصري في استقصائه كاملة، فرأى أكنسوس أن الذي حرك اليوسي لكتابتها هو عدم فهمه للمصلحة الحقيقية²، ولكن الناصري في الاستقصا يرد عليه ويقر ما ذكر سابقا³.

والرسالة الثانية عندما خرج اليوسي للبادية متفرغا للعبادة والتدريس، ولكن السلطان إسماعيل كلف كتابه بأن يكتبوا إليه باسمه، يدعونه إلى العودة لفاس⁴، فرد عليه اليوسي في جواب مطول يعتذر فيه عن ذلك، وفي رسالة أخرى للحسن اليوسي وهي الرسالة المعروفة بعنوان " ندب الملوك إلى العدل " أو " في آداب الملوك"⁵، ولم يكن السلطان إسماعيل يحمى لليوسي ميلا للتصوف، فكان يرد عليه بأن للشريعة ظاهرا للفقهاء وباطنا للصوفية، يكمل أحدهما الآخر، فمن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق⁶.

الجهاد: لقد سعى ملوك الدولة العلوية لإبقاء جذوة الجهاد مشتعلة فنجدهم قد بذلوا الجهد في تحرير الثغور التي احتلها الأعداء وتحريرها ، وكان أهم الأعمال في عهد السلطان إسماعيل فقد طردهم من المهدية في 1091هـ/1681م، وطنجة في 1095هـ/1684م من يد الإنجليز⁷، والعرائش في 110هـ/1689م⁸، وأصيلا في 1102هـ/1690م من يد الأسبان⁹ لتتجدد أكثر في ق13هـ/19م، بعد احتلال فرنسا للجزائر، وتوسعها على الجهة الغربية، مما أعاد إحياء حركة الجهاد من جديد، إمّا بمساعدة الجزائريين تحت أي غطاء، لمنع وصول تلك الجنود الغازية لأرضها، حتى أنها تخلّت عن تلمسان بعدما ضمتها، تجنباً لفتح باب

¹. القادري، نشر المثنائي، ج3، المصدر السابق، ص32-37.

². أكنسوس، المصدر السابق، ج1، ص 138-142.

³. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 110-113.

⁴. أبو المحاسن، "أبو علي اليوسي (3)"، عن مجلة المغرب الجديد، ع 7، س1، رمضان 1354هـ/دجنبر 1935م، مطبعة المهدية، تطوان 1354هـ/1935م، ص 17-29.

⁵. الصحرابي، "على هامش..."، المقال السابق، ص 71-72.

⁶. أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تح: فاطمة خليل القبلي، ج2، ط1

مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1401هـ/1981م، ص397.

⁷. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 86-92.

⁸. الأفراني، المصدر السابق، ص 432-433.

⁹. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 104.

العداء مع فرنسا، وهو الأمر المحتوم فنجد في 1259هـ/1843م ينشد الوزير ابن ادريس نظماً يستتفر به أهل المغرب للجهاد فيقول:

يا أهل مغربنا حق النفير لكم *** إلى الجهاد فما في الحق من غلط

فالشرك من جنابات الشرق جاوركم *** من بعد ما سلم أهل الدين بالشطط¹.

وراسل الأمير عبد القادر علماء فاس برسالة تضمنت عدة أسئلة حول الجهاد، وقد رد عليه التسولي وقد قام بتحقيق ودراسة تلك الأجوبة خاصة بالتسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد الأستاذ عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، فأورد نص السؤال وما تضمنه من مغالط، ورد التسولي وما فيه من مفاتح².

غير أن الصدام بين الطرفين كان بإيسلي في 1260هـ/1844م الذي أظهر الجيش المغربي على حقيقته، فسعى السلطان عبد الرحمن على تحديثه بالخبرة الأوروبية ومن جاء بعده.

¹. الناصري، المصدر السابق، ج8، ص60.

². الإمام التسولي، أجوبة التسولي عن مسائل الأمير عبد القادر في الجهاد، تح: عبد اللطيف أحمد الشيخ محمد صالح، ط1 دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م، ص 99 وما يليها.

ثانيا. القرويين والنشاط السياسي:

هناك ترابط واتصال مباشر بين السياسة والعلم فبه تكون رحابة الأفق وبعد النظر في أي قضية تطرح أو تطرأ، وقد ناقش ابن خلدون هذه الفكرة بجعل مفاهيم العلم والسياسة تختلفان فالأولى ذات صبغة دائمة بخلاف الثانية وقتية، مستدلا بتغير الموقف السياسي باختلاف الشخص والزمان والمكان، واعتبر ابن خلدون زعامة العلماء للسياسة منذ فجر الإسلام قادة الدولة¹، إن تعاليم الإسلام تقضي بعدم فصل الدين عن السياسة فالمسجد منذ الأيام الأولى للإسلام كان قريب من دار الإمارة والخليفة يصلي بالمسلمين وبتركية المنبر تتم بيعة الملوك، وبتجريحه تسقط الدول وعليه تذاع البلاغات الرسمية وقد كان الملوك يهرعون للعلماء في مختلف المناسبات².

1. في العهد السعودي:

ففي العهد السعودي قام علماء القرويين بعدة أدوار ومهام سياسية منها:

أ. السفارة: يعتبر العلماء طبقة مهياة بطبعها لمهمات السفارة، وهذا بسبب نشاطهم ومهامهم في التعليم أو التكوين فمن أستاذ لأخر يكسبهم الانضباط أمام من يتقدمهم بالخبرة والمركز وممارستهم اليومية لآداب المعاملة والمخاطبات وحفظهم لأخبار الماضيين، جعلهم عنصرا مرغوبا فيه للاستئناس أو إصلاح ذات البين عاملا قويا لتكليفهم بهذه المهام، وفي هذه المرحلة كان يرسلهم الملوك والأمراء بحكم أنهم رجال علم ودين يعرفون على ما هم مقدمين عليه، والبت فيه من اتفاقيات ومعاهدات، حتى أن هناك العديد من المسائل ذات الصلة بمصالح الدولة الإسلامية مع دول أخرى تطرح عدة تساؤلات، كانت فتاوى العلماء الذين يواكبون الأحداث يعالجونها كما تقتضيه مصلحة المسلمين العليا، ويضاف أيضا أن البعض منهم يمتازون بصراحتهم وحرصهم على عدم إخفاء الحقائق لتجعل منهم أشخاصا جديرين بالاعتماد على أقوالهم³.

¹. بن خلدون، المصدر السابق، ص 560-561.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 444.

³. نفسه، ص 447.

وهناك عدة علماء قاموا بهذه المهمة وأثبتوا علمهم وكفايتهم وحتى موهبتهم، وقد اتسم هؤلاء السفراء بالنباهة، والنبالة وحسن الإبانة¹ سداد الرأي، حسن الخلق، والمظهر، والتطبيب ولبس النفيس ومعرفة باللغات لأنهم محط أنظار ورمق، وحذق لأنه ربما يقع في مواقف محرجة عليه الخروج منها سالما مظفرا²، فقد اختار السلطان المنصور السعدي في سفارة لأستانة فيها محمد بن علي الفشتالي (ت1031هـ/1621م) وسفارة إلى مراد الثالث فيها الكاتب أبو العباس أحمد بن علي الهوزالي³.

وأرسل السلطان أحمد المنصور الماغوسي في رحلة للمشرق في 987هـ/1579م كسفير للدولة العثمانية لتطبيب النفوس، حيث كتب مبيضة كتابه الإيضاح المبهم ليقدمها له بعد عودته ككتاب تام⁴، والسفير علي التمعروطي صاحب النفحة المسكية في السفارة التركية وكذا ابن القاضي (ت1025هـ/1616م) الذي أرسله في مهمة للمشرق قصد نشر مآثر سلطان الدولة السعدية، والتشهير بأحقيتها في الخلافة، وليس لغرض استكمال تكوينه العلمي فقط، وكذا الدور الذي قام به التمعروطي في اسطنبول قد صرح به علانية في النفحة المسكية⁵ وكذا ابن القاضي في المنتقى⁶، فقد اتفقا على جلف وخشونة الأتراك وليونة ودعة الأشراف، كما أن إنتاج ابن القاضي من رحلته تصنيف موسوعة عن علماء الإسلام، وحتى تكليف الفشتالي بتأليف كتاب مناهل الصفا يدخل في هذا الإطار⁷.

ب. إقامة البيعة: من الأمور الجليلة التي قام بها علماء القرويين هي إنشاء خطبة البيعة وقد عرفها ابن زيدان على أنها عقد يتضمن التزام طاعة السلطان الجديد، يمضيه من بيدهم

¹ . أبي فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح: د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، المغرب، ص66.

² . التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2 ص448.

³ . عبد العزيز بنعيد الله، " الثقافة والعلوم في العصور الحديثة بالمغرب"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص30.

⁴ . أبي جمعة سعيد الماغوسي، إيضاح المبهم من لامية العجم، تح: الد. محمد مسعود جبران، ط1، دار المدار الإسلامي بنغازي 2009م، ص40-45.

⁵ . علي بن محمد التمعروطي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تح: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط 1423هـ/2002م، ص147.

⁶ . بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص846.

⁷ . نفسه، ص47-56.

الحل والعقد ولهم كلمة مسموعة في الأمة، من عمال وقضاة وأمناء وشرفاء وعلماء وعدول وقواد الأجناد ورؤساء الحرف، وكان يكتب عقد البيعة أول بفاس في غالب الأحيان وإذا بويع لملك جديد في غيرها فلا تعتبر بيعته تامة وسلطته شرعية إلا بعد اعتراف فاس به¹.

حيث تقرأ على منبر جامع القرويين، ومن هذا المنطلق كان الملوك يعودون دائماً مهما كانت عواصمهم إلى فاس لعلماء القرويين من أجل طلبها، فهي المكان الرسمي الذي يتوجه إليه كل من يريد الشرعية لحكمه، حتى فاس عادة ما تحتضن الملك بأن يكون والياً أو نائباً فيها، في ظل حكم أبيه أو أخيه، ومن مبتكرات السلطان المنصور في البيعة لولي العهد أن يؤدي المبايعون يمين البيعة أمام كتاب الله وصحيح البخاري².

على إثر وفاة السلطان أحمد المنصور بفاس فقد اجتمع كبارؤها وأهل الحل والعقد فيها على بيعة ابنه زيدان، وممن حضر هذه البيعة قاضي الجماعة أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني والفقهاء القاضي أبو الحسن علي بن عمران السلاسي والأستاذ سيدي محمد الشاوي وشيخ النظار أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار، وقد خطب هذا الأخير في الناس وقدم زيدان للبيعة، وكان ذلك يوم الاثنين 16 ربيع الأول 1012هـ، ثم كتب أهل فاس لمراكش بالمبايعة لزيدان فامتنعوا وبايعوا خليفة السلطان على مراكش ابنه أبي فارس، مما جعل المدينتين تتنازعان البيعة، فتم إصدار فتوى من فاس قاضيتها ومفتيها بالقتال فدار بينهما قتال مرير³.

وبدخول الشيخ المأمون لفاس استدعى الشيخين الفقيهين المحققين قاضي الجماعة بفاس أبي القاسم ابن أبي النعيم الغساني ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار، ولامهما على مبايعة زيدان، وأراد المكر بهما ولكن أرسلهما لأبي فارس بمراكش لينظر في أمرهما فالقصار توفي في الطريق، وعوفى على القاضي أبي القاسم⁴.

¹ ابن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج 1، ص 401.

² نفسه، ص 224.

³ الأفراني، المصدر السابق، ص 282.

⁴ نفسه، ص 282-284.

وقد برهن علماء القرويين على نضج سياسي فقد نسوا معارضتهم والتفوا بالحكم السعودي صفا واحدا لمجابهة المعتدي في معركة وادي المخازن جاعلين المصلحة العليا واجبا فوق كل اعتبار، كما عاد المنصور السعودي في أيام مجده بُدًا من استفتاء علماء القرويين عندما عزم على دخول السودان، متخذًا يوم الأربعاء من كل أسبوع كيوم للمشاورة وسماه يوم الديوان اقتباسًا من عند الدولة العثمانية، يجتمع فيه أعيان ورموز الدولة من أجل دراسة القضايا السياسية المطروحة، وكان العلماء طرف فعال في هذا الديوان¹، فقد كان القاضي أبو محمد سيدي عبد الواحد الحميدي يغيب يوم الأربعاء عن التدريس بجامع القرويين ليحضر ديوان السلطان²، وغالبا ما كان شعار العلماء في المجالس الأميرية إظهار للبراعة وتتوير للجماعة³.

إلى جانب ذلك فقد كان علماء يخرجون لاستقبال الملوك على مشارف مدينة فاس للترحيب بهم، أو لتوديعهم⁴، كما يتوجهون على رأس الوفود التي تقدم التهاني عند المسرات والأفراح ويقدمونهم لطلب العفو والصفح عن المدينة أو لأعيانها أو لمن أخطأ، وكثيرا ما كانت تقبل وفادتهم⁵ وهذا دليل على مكانتهم لدى السلاطين.

ج. قضية الاستنجا بالانصارى وتسليمهم أراضي المسلمين: لقد منح عبد الله بن محمد الشيخ المهدي بادس للأسبان لحماية نفسه من العثمانيين، وحاول ابنه محمد المتوكل الاستصراخ بالملك البرتغالي دون سيبستيان، للعودة للحكم ضد عمه عبد الملك، مقابل منحه بعض السواحل، ونفس الأمر قام به الشيخ المأمون فعملية منح الأراضي للعدو جعلت الناس تنفر من السعديين، مستدلين أن الوطاسيين رغم ضعفهم لم يلجأوا لهذه الوسيلة⁶.

¹. الافراني، المصدر السابق، ص 242-243.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 416.

³. نفسه، ص 438.

⁴. الفشتالي، مناهل الصفا...، المصدر السابق، ص 66.

⁵. الافراني، المصدر السابق، ص 157-159.

⁶. كنون، المرجع السابق، ج3، ص 1513.

وحتى المتوكل أحس بهذا النفور فبعث برسالة إلى أعيان فاس وعلمائها وأشرافها يؤاخذهم في نقض بيعته، وقال إنه لجأ للنصارى عندما انقطع نصره من المسلمين، فأجابه العلماء برد حججه وبطلانها وفندوا دعاويه، وقالوا له أن: "جده الأكبر محمد القائم كان عهد لأولاده أن لا يلي الملك منهم ولا من أولادهم إلا الأكبر فالأكبر، وإن والده الغالب ألغى ذلك، وعهد إليه والآن عاد الحق لمن هو له، وهو عمه عبد الملك أكبرهم بعد أبيه"، وعاد من البرتغال بجيش جرار يترأسه الملك سيبيستان نفسه، مقدر بثمانين ألف جندي، مع مائتي من الأنفاض (المدافع) وغيرها من الآلات فكانت معركة وادي المخازن أو الملوك الثلاثة التي ضرب فيها العلماء بنصيبهم فمن استشهد ومن انتصر على العدو الغاشم في يوم الاثنين جمادي الأول 986هـ/4 أوت 1578م¹.

ليعمق الشيخ المأمون الهوة بين السعديين والمغاربة وعلى رأسهم العلماء، بتنازله للأسبان عن العرائش في 1019هـ/1610م بعد إفراغها من المسلمين، وكان محمد الشيخ قد استفتى علماء فاس في ذلك الموضوع، مما جعل بعض العلماء يضطرون إلى مغادرة فاس استبراء لدينهم والمحافظة على نقاء ذمتهم، ومنهم الإمام أبو عبد الله محمد الجنان، الإمام أبو العباس أحمد المقرئ، الشيخ أبو الحسن الزياني، والشيخ أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي الفاسي الذي توجه إلى القصر الكبير حيث توفي².

ليقوم أخوه السلطان زيدان بعده بالتعامل مع الأسبان ضد المجاهد العياشي، الذي جابه عدة جبهات كان أخطرها جبهة المتفقهة النفعية الموالية للبلاط السعدي لإفساد خطط العياشي فنشروا أن الجهاد لا يجوز إلا مع وجود الإمام وبإذن منه، فاستغلوا الفتنة التي دارت بين العياشي والأندلسيين في الرباط والقصبة، واتهموه بالسعي إلى الحكم، معللين مهادنة السلطان السعدي للنصارى ضرورة اقتضتها الظروف ليمون بواسطة سفنهم الحربية قصبة الرباط المحاصرة، لذا تصدت نخبة من علماء فاس لتلك المزاعم ومنهم أبو المهدي

¹. كنون، المرجع السابق، ج3، ص1514-1519.

². الخلادي، المقال السابق، ص 118.

عيسى السكتاني ومحمد العربي الفاسي الذي أصدر فتوى طويلة في هذا الشأن، وأكد فيها على وجوب الجهاد بحضرة الإمام أو عدمه ومن قال بغير ذلك فهو وخز من الشيطان¹ وبذلك أسكت كل ناعق.

2. العهد العلوي

أ. السفارة: كما في العصور السابقة نجد في العهد العلوي أخذ العلماء على عاتقهم مهمة أداء السفريات والتمثيل الخارجي، لما لهم من مؤهلات تتعدم عند آخرين، باعتبارهم كما قلنا الطبقة المهيأة لهذه المهمات، بسبب تكوينهم وخبرتهم المكتسبة مع الممارسة اليومية لآداب المعاملة والمخاطبات مع حفظهم للأخبار والتاريخ²، فقاموا بتلك المهام خير قيام كرحلة كل من الزياني حيث كتب لنا عن الحياة الثقافية بالأسنانة والوزير الغساني إلى سواحل المتوسط الأوروبية كتب عن إسبانيا، فكان الملوك العلويون يختارون لسفاراتهم السياسية الرسمية الكتاب والأدباء³، الذين ساهموا في إقرار مواقف سياسية وأنتجوا أعمالاً راقية تعتبر اليوم مادة خام، بحيث بينوا فيها مواقفهم وتوجهاتهم وأرائهم وما انطبع في نفسيهم على تلك المناطق التي زاروها والمشاهد التي رأوها فأتوا بكل غريب عجيب.

فقد أرسل السلطان إسماعيل الفقيه العالم عبد الواحد بن محمد أبا عنان إلى الجزائر في سفارة كرسول⁴، كما وجه السلطان الإمام العلامة محمد الطيب القادري مع ابنه عبد الملك للجزائر قصد المهادنة في حدود عام 1103هـ/1691م بعد واقعة المزارع، وصاحبهما الفقيه المشارك المؤرخ أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني الأندلسي وغيرهم من وجوه الدولة، ولكن هذه الوفادة لم تصل لغايتها بسبب نشاط باشا الجزائر⁵.

¹ حجي، الزاوية الدلانية...، المرجع السابق، ص 156-157.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 447.

³ بنعبد الله، "الثقافة والعلوم..."، المقال السابق، ص 30.

⁴ محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3، ط1، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة

الطالب للنشر والتوزيع، الرباط 1407هـ/1986م، ص 67.

⁵ الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 108.

ب. البيعة الشورى والفتوى: اعتمد السلطان محمد بن الشريف (محمد الأول) على مساندة العلماء الذين ظلوا مصابيح الأمة، كما تلقى مبايعة منهم حوالي 400 عالم¹، وبويع إسماعيل بعد موت أخيه الرشيد سنة 1082هـ/1671م، ونافسه أحمد بن محرز في مراكز عليها، فاستمسك أهل فاس بقول الشيخ القصار المانح البيعة لمن له العصبية، حتى لا تؤدي للحرب والفتنة، فاستقل إسماعيل بها²، وحضر بيعته جماعة من العلماء الذين كان لهم نفوذ علمي في توجيه دواليب الحكم ببلاد المغرب، ومن أعظمهم شأنًا وأقواهم جاها أبو علي اليوسي وأبو محمد عبد القادر الفاسي³، كما نصحوا له عند استقرار دولته بفتح باب الجهاد لاسترداد الثغور وحتى الأندلس⁴.

وبعد وفاة السلطان إسماعيل نجد أن جند العبيد وغيرهم قد تنتمروا على السلاطين في التولية والعزل واعتمدوا في ذلك على علماء وفقهاء فاس في إعداد البيعة لمن يرضونه من الملوك فوق هؤلاء الآخرين كالعوبة في يد الجند، في حين علق العلماء بينهم لبحتهم على خير العباد والبلاد، فسعوا من جهتهم جاهدين لتجنيب البلاد الفتن، التي كانت جارفة في كثير من الأحيان لتدوم لسنين بين الأخوة ومن ورائهم الجند، فالاختيار للجند والبيعة لعلماء فاس⁵.

كما أن جامع القرويين كان مكان لإعلاء البيعة فإننا نجد أثناء تلك الفتن التي عصفت بالمغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل ودخول أبنائه من بعده في الصراع فيما بينهم بدعم من الجيش العبيد والقبائل، ليجد هؤلاء السلاطين طريقهم لأسوار فاس لفتح أبوابها أو إرغامها على ذلك، مما يوجد دائما انقسامًا داخليًا في المدينة بين المعارض والمؤيد، كالاختلاف الذي وقع فيه علماء فاس بعد خلعه ببيعة السلطان أحمد الذهبي وإعلان بيعة أخيه عبد

¹ العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 275.

² عبد الرحمن بن زيدان، المنزع اللطيف في مخايف المولى إسماعيل ابن الشريف، تح: عبد الهادي التازي، ط1 مطبعة إديال، الدار البيضاء 1413هـ/1993م، ص 151.

³ محمد بن عبد العزيز الدباغ، "رحلة سفارية إلى إسبانيا في عهد المولى إسماعيل"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص12، ذو الحجة 1388هـ/مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م، ص 147.

⁴ بن زيدان، المنزع اللطيف...، المصدر السابق، ص 109.

⁵ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص296-321.

الملك سنة 1140هـ/1727م، ثم أعاد الجيش البيعة للأول وخلع الثاني، الذي فر إلى فاس التي أقرت بيعته، مما جعل السلطان أحمد يحاصرها في 2 محرم 1141هـ/1728م، ولما اشتد عليهم الحصار اختلف أهل فاس في موقفهم من عبد الملك، فاللمطيون ساندوا الفقيه ميارة الذي أفتى بعدم خلع عبد الملك، بينما ساند الأندلسيون الفقيه أحمد بن مبارك اللمطي الذي أفتى بخلعه، وتمكن الأندلسيون من إقناع اللمطين، فخذلوه في الأخير كما قال صاحب زهر الأكم: "باعوه بابخس ثمن" ليكون موتهما متقاربا فالأول بالمرض والثاني مخنوق¹.

وأیضا أثناء تنافس المستضيء مع عبد الله حول الحكم، فإن بعض من أشرف وطلبة فاس حاولوا نصره عبد الله بإعلاء اسمه من منبر القرويين بعد صلاة الجمعة في 1159هـ/1746م، إلا أن الخبر سرى في العامة مما جعلها تحتاط بإدخال ثلاثمائة رجل إلى داخل الجامع مقلدين أسلحتهم والإمام يخطب إرهابا لمن يتهايا لنصرة عبد الله، فلم يقدر أي أحد على النطق بذلك²، وحتى عندما دخلت تحت راية السلطان عبد الله أراد بعض من فاس النصر للمستضيء على منابر فاس في 1160هـ/1747م³.

وفي عهد محمد بن عبد الله كان العلماء طرف مهم وأساسي ابتداء من البيعة وحضورها واستفتائهم ومشاورتهم في أمور العلم والملك، فعندما ضبط مداخل الدولة ورآها ضئيلة شاورهم حول جواز فرض بعض الضرائب الجديدة إضافة إلى ما كان قد وظفه أبوه من قبل فأجازوا له ذلك شريطة ألا يكون للسلطان مال في الخزينة، فأضاف مكوس على الأبواب والغلال والسلع، وأفتاه في ذلك كل من الشيخ التاودي بن سودة ومحمد بن قاسم بن جسوس وعمر الفاسي وعبد الرحمن المنجرة وعبد القادر بوخريص وغيرهم، وصرفها في تقوية الجيش والعمران، وكان مبلغ السلطان من وراء هذه المشورة تجنب القيل والقال، ليسقطها السلطان سليمان بعده⁴.

¹ الريفي، المصدر السابق، ص 222-225.
² محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج4، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب للنشر والتوزيع، الرباط 1407هـ/1986م، ص63.
³ نفسه ص114.
⁴ بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 524-525.

كما استفتاهم في إجلاء أهل الرباط سنة 1187هـ/1773م على أنها بلد مخزني، فأفتاه في ذلك كثير من العلماء إلا البعض ومنهم السيد التاودي بن الطالب بن سودة الفاسي وحاج علماء فاس أن إخراج أهل الرباط بهذه الحجة فإنه مخرجكم من فاس ويحتج عليكم بأن بانيها هو المولى إدريس، فعزله السلطان عن الإمامة ونزع ما له من مال الخطبة وأقعه في داره، وأطلق السلطان يد العبيد على الرباط لسكناها، فنهبوا ليعفي عنها بعد استشفاع أهلها¹.

وفي عهد عبد الرحمن بن هشام نشطت الحركة العلمية، وتجلت في ميدان الإفتاء، نظرا للتطورات التي جرت باحتلال الجزائر، كما وضعت الدولة يدها على مال الأوقاف لتقوية الجيش وإمداد المقاومة الجزائرية، فأجمع رجال الإفتاء على أن النصوص الشرعية لا تتأهض إطلاقا التصرف في أموال المحبسين متى كان الهدف هو السعي لحماية الجماعة الإسلامية ذاتها، لهذا استخدم العلماء مداركهم ومعارفهم مسترشدين بروح النصوص ومعانيها لا بألفاظها ومبانيها².

ج. قضية جمع العبيد وعلماء القرويين:

إن قضية "عبيد البخاري" قد حررت فيها عشرات المراسلات ودونت حولها التأليف والفتاوى التي كان منها ما وجه إلى علماء الأزهر الشريف بمصر³، وتعود هذه القضية إلى عهد السلطان إسماعيل العلوي الذي أراد التخلص من نفوذ وتتمر القبائل المشكلة لقوته بإحياء جيش مبدد كان قد شكله السلطان أحمد المنصور السعدي سابقا، وشتته ابنه من بعده فكلف السلطان العلوي كاتبه القاضي محمد بن العياشي وعينه قاضي القضاة، وألحق له وكيل الملك وهو الباشا محمد بن قاسم الملقب بعليلش⁴.

¹. العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 220-221.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 728-729.

³. عبد الهادي التازي، "القبائل العربية بالمغرب" عن مجلة مجمع اللغة العربية، ج84، ماي1999م، مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة 1999م، ص 188.

⁴. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 80-81.

الذي خرج للأسواق والحواضر والبوادي على من يريد خدمة السلطان من العبيد حرا أو عبدا كان مقابل امتيازات، فجمع خمسة آلاف سمي بعبيد الزنقة، ليقوم بعدها عيليش بقبض العبيد والأحرار جبرا وتعديا وضمهم للجيش الذي وصل إلى سبعين ألفا، فعرف الجمع الثاني بعبيد البخاري، وألحقه بمشرع الرملة، كما ألحق بدار السلطان نحو عشرة آلاف من الذكور وعشرين ألفا من الإناث¹، وجلب من السودان في حملاته كسنة 1089هـ/1678م²، واهتم بتربيتهم وتكوينهم وإخلاصهم في الولاء بأداء يمين على صحيح البخاري³، ليستغني عن القبائل ويجردها من السلاح، لاستثبات الأمن.

فإن تطور هذه المسألة بالتدرج ففي البداية تم جمع العبيد بشرائهم برسوم عدلية من أصحابهم من المدن والحواضر، لتتوسع على القبائل بجمع ما عندها بأمر من السلطان ليدرجوا جبرا في ديوان الجندية، وحتى لا تكون هناك معارضة فقد راسل السلطان علماء المشرق والمغرب في ذلك، فجاءه الرد من بعضهم بجواز ذلك⁴، وهو الأمر الذي فتح الباب للاجتهاد، في تحرير رسائل الاستفتاء حول أصحاب "الجلد الأحمر" أي الأرقاء وحمل موقف العلماء الذين خالفوه فيه، على أنه مجرد معارضة لا تستند لأساس قوي، خصوصا بعد أن وافقه على ذلك بعض العلماء، وسكت عنه بعضهم الآخر، فلم يؤيد ولم يعارض⁵.

فألف محمد العربي بردلة "إفشاء القواعد المذهبية والأقوال المرضية في إبطال النحلة العيليشية التي أشاعها الملحد في الأقطار المغربية" ورفعها إلى السلطان وعليها توقيعه مع توقيع علماء فاس منهم محمد بن أحمد الحاج ومحمد بن أحمد ميارة (الحفيد) وعبد السلام جسوس وعاضدهم أحمد بن محمد بن ناجي الفيلاي (ت1122هـ/1710م) والطاهر بن الحسن بن مسعود فتاوى برفض هذا الاسترقاق⁶.

¹. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج4، ص220-221.

². الناصري، المصدر السابق، ج6، ص82.

³. عبد الله الجراري، "أبو النصر المولى إسماعيل"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص10، ذو القعدة 1386هـ/مارس

1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص131.

⁴. الناصري، المصدر السابق، ج6، ص114.

⁵. Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P256-257.

⁶. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص141.

وفي 9 ذي الحجة 1108هـ/29 ماي 1697م أرسل كتابا على فاس يوبخ العلماء والقاضي ويلزمهم بالموافقة على تملك العبيد الذي بالديوان¹، وفي 12 محرم 1110هـ/20 جويلية 1698م قام القائد عبد الله الروسي بالأمر الخاص بتمليك أعيان فاس، وفي 18 منه اجتمع العلماء والفقهاء مع القائد بالقرويين وأجمعوا رأيهم على محاولة عدول السلطان عن رأيه بالمشاورة، فشرع القائد في تنفيذ زمام الحراطين²، ولكن في 14 ربيع الأول/19 سبتمبر جاء العفو عن ذلك³.

ليرسل السلطان في 16 جمادي الأولى لنفس السنة بكتاب يوبخ فقهاء فاس على مسألة الحراطين ويدعمه بآخر في 24 منه إلا أنه قرأ بزاوية القلقليين، لتصل في 2 جمادي الثانية براءة من عند السلطان يمدح فيها العامة ويذم العلماء، ليخرج محمد عليلش من فاس بدون أن يحقق غايته في شأن الحراطين⁴، وفي 1120هـ/1708م تجددت محنة ديوان العبيد مع العلماء حيث طالب السلطان العلوي من فقهاء فاس أن يوقعوا على ديوان العبيد، فمن وقع ذلك نجا ومن خالف وامتنع فقد نكل به⁵ وعلى رأسهم الفقيه عبد السلام جسوس الذي أظهر صلابة في الدين وورع تام، فاستغرقت ذمته ولقي ألوانا وضروبا من التعذيب ليأمر بقتله في السجن في 1121هـ/1709م وقيل كان مقتله بتحريض من قاسم عليلش⁶.

كما عارض أبو الحسن اليوسي السلطان إسماعيل تجريد القبائل من السلاح ودعاه لرد ما أخذ خصوصا على الثغور⁷ ورفضه للاسترقاق وناصره تلميذه محمد المسناوي ومحمد بن زكري وغيرهم⁸، غير أن السلطان مشى في مسعاه بتكوين جيش منهم، وسيكون وبالا على البلاد من بعده بإدخالها في دوامة الفتن لمدة تزيد عن ثلاثين سنة في تسيير دواليب الحكم.

¹ . القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص79.

² . الحراطين: ومعناه العتيق، وأصله الحر الثاني، كأن الحر الأصلي حر أول، وهذا العتيق حر ثان، ثم كثر استعماله على الألسنة، فقليل الحراطيني، على ضرب التخفيف. (ينظر: الناصري، المصدر السابق، ج6، ص82).

³ . القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص116.

⁴ . نفسه، ص117.

⁵ . الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص85.

⁶ . الناصري، المصدر السابق، ج6، ص119-120.

⁷ . الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص133.

⁸ . العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص141.

ثالثا. الملوك العلماء لهذه الفترة:

ملوك المغرب إما أنهم من طلاب القرويين ثم من علمائه، وإما ممن لازم علماء القرويين مستتصحا ومستهديا ومتأديبا، فزاروا وعادوا العلماء في بيوتهم وحضروا مجالسهم وشيوعوهم¹ لذا أنجبت البلاد ملوكا متمكنين من الجانب الديني والعلمي والعسكري والسياسي، بفضل تكوينهم وتنشئتهم على تحمل جسام الأمور، من مختلف العلوم والفنون، فقد كان الموحدون يعلمون طلبتهم، تعلم الفروسية والقتال، مما أوجد ملوكا حافظين لكتاب الله والدواوين والنوادر والإفادات والإشادات حتى غدت كمعالم على بعض منهم في الحقبين السعدية والعلوية فكان منهم العالم والمؤلف والمشارك والمتصدر للفتوى، ومنه أطلقنا تسمية الملوك العلماء وهذا ما نسعى لتوضيحه في هذا الفرع.

1. العهد السعدي:

تكاد تتفق المصادر والمراجع التي تحدثت عن الدولة السعدية على أنها دار علم قبل أن تكون دار سياسة وحكم، وبذلك إذا بحثنا وفتشنا في حياة كل سلطان نجد أن أولهم محمد بن عبد الرحمن كان فقيهه، إمام ومؤذن، وأثناء أدائه لفريضة الحج اصطحب معه ولديه، كما ذكرت المصادر وكتب التراجم نشأة وتكوين هؤلاء السلاطين علميا:

السلطان أحمد الأعرج: (891-951هـ) المجاهد الفاتح، شن غارات على العدو الاسباني والبرتغالي المتمركز في السواحل المغربية في ق10هـ/16م، فكان عالما مدرسا في القرويين قبل الملك، وكان ذا كرسي راتب فيه لتدريس العلم².

السلطان محمد الشيخ المهدي: فقد تمتع بعدة صفات جعلت منه رجل دولة، فكان متمرسا على الحرب، مقداما، ذا شخصية قوية، كثير الأمل، إلى جانب ذلك كان متين الثقافة والعلم³ فتعلم على يد كبار العلماء في المغرب ومنهم الإمام العلامة المحقق أبو عبد الله محمد ابن أحمد اليستيني، وكان حافظا لكتاب الله، وما تضاف إليه من معارف في الفقه والفرائض

¹. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 78.

². نفسه، ص 79.

³. الصراوي، "اقطعوا رأسه..."، المقال السابق، ص 43.

وفي اللغة...، فيحفظ ديوان المتنبي على ظهر قلب مع حفظ الدواوين الشعرية وصحيح البخاري ومسلم، ويذكر الافراني أنه كان دائم الإنشاد لبيت أبو العلاء المعري: الناس كالناس والأيام واحدة***والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبا¹.

وكان من بين الفقهاء البارزين يرد ويصوب أحكام القضاة².

السلطان عبد الله: الملقب بالغالب بالله، قد حلاه الافراني أنه كان صالحا لا سلطانا، وأثناء حملته الفاشلة على تلمسان سنة 1560م رجع منها ومعه عدة علماء نحو المغرب، وقام بإسناد التعليم والإفتاء والخطابة إليهم، وأعطاهم مناصب راقية، وقد ساهم في هذه المرحلة علماء من الجزائر خاصة من تلمسان في تنشيط المراكز الثقافية في التاريخ السعدي الأول وقد استوزر عبد الله الغالب ابن أخيه محمد بن عبد القادر، صاحب الباع الطويل في العلم فكان فقيها مقتدرا³.

السلطان أحمد المنصور: ويعتبر من أبرز الملوك العلماء في الأسرة السعدية فكان خبيرا وضليعا في فنون الشعر، السير، التاريخ، النحو، البلاغة والبيان، المنطق، التفسير، الحديث الحساب والهندسة، وتعلم على يد مؤدب أولاد الملوك الأستاذ أبي عبد الله محمد بن يوسف الدرعي وبعده الفقيه الأصولي أبي الربيع سليمان بن إبراهيم، وأخذ الرسالة على يد الفقيه أبي عمران موسى الروداني، وأيضا قرأها سردا ودراية على أبي العباس المنجور وأبي فارس عبد العزيز بن إبراهيم مع علم الحساب⁴.

وتعلم العربية على نحوي زمانه أبي العباس أحمد القدومي وأصول الدين على الإمام أبي العباس المنجور وسمع عليه مؤلفات السنوسي وحاشيته على الكبرى وشرحه الكبير والصغير على ملخص المقاصد لابن زكري، وسمع عليه الخرجية ومختصر السعد على التلخيص وكفاية ابن الحاجب في النحو والشمسية في المنطق، وجمع الجوامع لابن السبكي وأخذ الفقه

¹. الافراني، المصدر السابق، ص 62.

². العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

³. الافراني، المصدر السابق، ص 100-111.

⁴. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 79.

عن الحميدي والمنجور والإمام مفتي فاس أبي زكريا يحيى السراج¹، وأجازه الإمام البكري بمصر إجازة عامة في 4 ربيع الثاني 992هـ بإمضاء محمد بن أبي الحسن الصديقي سبط آل الحسن وكذا أجازه بدر الدين القرافي إجازة عامة، فقد رتب السلطان المنصور مجالس للعلم في أوقات محددة، لا يتخلف عنها، لمدارس ومذاكرة شيوخ العلم لأهم العلوم، فكان عالما لدرجة الاجتهاد².

وكما سعى بعض السلاطين بالمساهمة في حركة التأليف أو حث عليها وهذا لتدوين مآثرهم وأعمالهم³، فهذا السلطان أحمد المنصور يطلب من وزيره عبد العزيز الفشتالي بتأليف مصنف عن المغرب للرد والتصحيح عما جاء في الكتاب الذي تلقاه من المؤرخ التركي مصطفى بن حسن الحسني الجنابي النسخة تحت عنوان "العليم الزاخر، في أحوال الأوائل والأواخر، أجمع ما جمع في دول الملوك"، فكتب إليه وشكره على هديته القيمة ووصله بـ 1500 أوقية ذهباً، وطلب منه ألا ينشر الكتاب إلا بعد تصحيحه على ضوء ما سيصله في كتاب تاريخ الدولة السعدية: «مناهل الصفا» الذي كلف بإنجازه عميد الكتاب في بلاطه⁴.

كما وظف السلطان أحمد المنصور أبا جمعة سعيد الماغوسي المراكشي لشرح "لامية العرب للشنفرى" بعد شرحه "لامية العجم"، وقد سماها "إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب" وأهداها له، وبعد عودته من سفريته نحو اسطنبول قدم له في حدود 990هـ/1582م كتاب "الإيضاح المبهم" وكتاب "نظم فرائد الغرر في سلك فصول الدرر" الذي أعطاه عليه ألف أوقية دون مال المراتب والكسا الفاخرة آخر كل سنة⁵.

ليطلب بعدها السلطان منه شرح كتاب "درر السمط في أخبار أو مناقب السبط" لابن الأَبَّار إن هذا العمل يندرج كإحياء للمذهب الشيعي بالمغرب، ولكن هناك من يرى أن

¹. القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج1، ص 104-105.

². الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 119-120.

³. بروفنصال، المرجع السابق، ص 48.

⁴. محمد حجي، "مصادر تاريخ المغرب: مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفاء"، عن مجلة دعوة الحق، ع8، ص 9، صفر

1386هـ/جوان 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 70.

⁵. سعيد الماغوسي، المصدر السابق، ص 22-45.

السلطان كان يسعى من ورائه لتهديد الدولة العثمانية، بمد الصلة بالمشرق بفارس، وهذا حتى يتركه وشأنه ويأمن جانبه من جيرانه، لأن من جاء بعده لم يأبه لا بالشيعية ولا بالتشيع ولربما هذا الكتاب لا يعدو إلا جس نبض لمواقف وقرارات للدولة العثمانية تجاه العاهل المغربي، وقد أجزى الماغوسي بآلاف من أواق الذهب الإبريز مع جرايات سنية لشرح هذا كتاب¹.

كما اتصف بعض هؤلاء السلاطين السعديين بخفض الجناح للعلماء لمعرفةهم بمدى المسؤولية الملقاة على عاتقهم لذا كانوا كثيرا ما يتقبلون انتقاداتهم ويتجاوزون عنها ويقولون عثراتهم مثل السلطان أحمد المنصور مع شيوخه كالمنجور² ورضوان بن عبد الله الجنوبي الذي انتقد السلطان على قبول المال في الفداء عوض المطالبة بإطلاق سراح أسرى المسلمين بعد معركة وادي المخازن 1578م³، وملامة القاضي عبد الواحد الحميدي، بل حتى أنهم تعصبوا لهم فعلى إثر مقتل القاضي أبي النعيم الغساني من طرف الغوغاء بفاس فإن السلطان المتوكل جهز حملة لتأديبهم في 1034هـ⁴.

2. العهد العلوي:

وفي ظل الدولة العلوية أغصنت شجرة المعارف وأينعت ثمارها، وتفتحت أكمائها إذ كان لملوكها شغف كبير بالعلم، ومحبة خاصة في أهله:

السلطان الرشيد: عند دخوله فاس وجهه للأستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي الفاسي يستقدمه فاعتذر لملازمته البيت لكبر سنه، فأتاه السلطان لاستشارته فيمن يوليه بفاس من حاكم وقاض ومحتسب وناظر، فتعذر عن تقليد أي مترشح للحاكم، أما القاضي فأشار على حمدون المزوار، والمحتسب عبد القادر المركني الفلالي والناظر العدل مسعود الشامي، فنفذ السلطان ما أشار به الأستاذ عبد الرحمن بن القاضي، الذي ترى له أنه أخطأ في تقدير

¹. سعيد الماغوسي، المصدر السابق، ص 62.

². بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 117.

³. نفسه، ص 118.

⁴. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج 1، ص 264.

شخص القاضي فردّ استشارته حوله على السلطان لأن القاضي المزور أخذ يحكم بغير المشهور محابة في أصهاره ، وأصحابه التجار وغيرهم، واقترح عليه تولية من هو غريب الدار ، لا قرابة له ولا أصهار ، فذكر له المجاصي الغياثي فولاه القضاء بفاس¹.

وكانت له عناية كبرى بدراسة الكتاب العزيز والسنة النبوية فلقد أنشأ السلطان الرشيد على الرغم مما كان يعترضه من مشاكل سياسية في الداخل والخارج مدرسته برأس الشراطين وأنشأ خزانته بمسجد فاس الجديد²، وحضر مجالس العلماء في القرويين وزارهم في مدارسهم الخاصة، وناقشهم في أدق المسائل، كما كان يستشير رجال العلم في شؤون الدولة للأخذ برأيهم³، حتى أنه في إحدى المرات أرسل في طلب الشيخ أبي علي اليوسي ليحضر لقصره ليقراً عليه فامتنع الشيخ وقال: "العلم يؤتى ولا يأتي"، فاستجاب السلطان وحضر دروسه بالقرويين وكان من المهتمين بها⁴.

وخلق السلطان الرشيد نوعاً من التنافس المحمود بين العلماء ظهرت نتائجه في تقوية الحركة الفكرية، وزادت الحركة الثقافية نشاطاً في المغرب وفي فاس خصوصاً عند دخول جهابذة العلماء من دلاء للقرويين، ولم تلبث أن قامت بين علماء الحاضرة والبادية الوافدة منافسة حادة كانت خيراً وبركة في تقدم العلوم وازدهارها، إلى جانب تحسن المستوى الاقتصادي والمعيشي بالمغرب بعودة الأمن والاستقرار مما يسر بداية هذه النهضة، مما جعل اليوسي يعبر في رسالة للسلطان إسماعيل على ما أنجزه السلطان الرشيد في إعلاء منارة العلم وإكرام العلماء وأغدق عليهم في فاس حتى فضح من قبله وأتعب من بعده، ولو طالبت مدته لجاءه علماء كل بلد⁵.

¹. الطنجي، المقال السابق، ص 23-24.

². Champion, Op.cit, P52.

³. الرحالي الفاروقي، "الدولة العلوية وعنايتها بالثقافة العامة ومجالس التفسير والحديث"، عن مجلة دعوة الحق، ع 4، ص 12، ذو الحجة 1389هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م، ص 9.

⁴. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 80.

⁵. الأخضر، المرجع السابق، ص 68-69.

السلطان إسماعيل بن الشريف: يعتبر عهده من بين أوسع المراحل وأزهارها في الدولة العلوية الحديثة، فقد اتسعت المعارف وتعددت مشاريعها وتدفقت ينابيعها فعمت البادية والحاضرة وانتصر حزب العلماء وازدهر ومن مظاهر العناية بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله (ﷺ)، أنه أمر بقراءة الحديث والإنصات يوم الجمعة بعد خروج الخطيب وجلسه على المنبر في سنة 1120هـ¹، وأقام ختم الإمام أبي عبد الله المجاصي تفسير القرآن الكريم بقصره الخاص، واستدعى العلماء لحضوره وبعد الفراغ منه أفاض على ضيوفه الأعلام ما لذ وطاب، حتى صب السلطان بنفسه الماء على أيدي ضيوفه من العلماء، وتولى توزيع الجوائز عليهم²، كما وصل العلماء الذين يختمون الكتب بالعطايا والهدايا السنية، كختم مختصر الخليل للعلامة محمد المشاط، وحث على حضور هذه المجالس³، كما سعى في إقناع علماء القرويين بضرورة الشعور بأن عليهم أن يعتبروا أنفسهم وقفا على أرض المغرب كلها، فجعل من القرويين جامعة متحركة لا يجد فيها الفاسي حرجا في الالتحاق بمكناسة ولا المراكشي تعباً في العمل بوجدة⁴.

وقد اهتم هذا السلطان الذي طالت مدة حكمه من سنة 1083هـ/1672م إلى سنة 1139هـ/1727م لأكثر من نصف قرن، المتسم بشخصيته الفذة والعزيمة القوية والمواقف الشديدة بأمر الأحباس لرغبته في نشر العلم الديني والدنيوي فحث علماء فاس على تلقيه واستشارته لهم في مهمات الدولة، وهذه المساعي تتطلب العناية بهذه المؤسسة التي تسند أمور الدين وتضمن استمرار الإقبال على تعلمه والقيام على وظائفه⁵، ولتدينه فقد كان يدعو الرهبان بإيالة المغرب للمناظرة بحضرته على أن يقتعوا بدين الإسلام المبني على المنطق والحجة ولم يكتف بهذا بل كاتب رؤساء دول من أوروبا كفرنسا وإنجلترا⁶، يحاججهم

¹. بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام...، المصدر السابق، ج3، ص 64.

². القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج2، ص357.

³. بن زيدان، المنزع اللطيف...، المصدر السابق، ص 79.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، ج3، ص 717.

⁵. بن زيدان، المنزع اللطيف...، المصدر السابق، ص105-106.

⁶. Caillé, Op.cit, 1^{er} série, P 233-236.

في أحقية دين الإسلام ويدعوهم إليه عسى أن يهديهم الله لإجابة دعوته وما عليه إلا البلاغ في سنة 1109هـ/1698م¹.

وكانت لديه نسخة ممتازة من صحيح البخاري كتب عليها أسماء العبيد الذين اتخذهم جيشا وبطانة فقال لهم: "أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله (ﷺ) وشريعته المجموعة في هذا الكتاب فكل ما أمر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه"، فعاهدوه على ذلك وأمرهم بالاحتفاظ بهذه النسخة، وأن يحملوها عند ركوبهم، ويقدموها أمام حروبهم ومن ثم سموا عبيد البخاري وجرى عليهم لقب البواخر، وفي إطار تدجينه للزوايا فقد جعل كل الزوايا مقرها بفاس لفصلها عن مصادر دعمها المادي وقنوات بقائها².

السلطان محمد بن عبد الله: فقد اتصف والده بأنه عالم متضلع ومؤلف رصين³، ورتب لابنه السلطان محمد بن عبد الله أساتذة أكفاء تلقى دروسه العلمية على يديهم، فكانت مجالسه العلمية لا تخلوا منهم، كالعلامة أبي عبد الله محمد بن الإمام بن الإمام عبد الله الغربي (ت1177هـ/1763م) والفقهاء العلامة المحقق أبي عبد الله محمد المسير السلاوي، الفقيه الدراكة أبي عبد الله محمد الكامل الرشيد، الفقيه العلامة أبي زيد عبد الرحمن المدعو "بوخريص"، وكانوا من خواص مجلسه، يسردون الحديث ويخوضون في معانيه ويؤلفون له⁴. فبقي ذلك دأبه وعادته في مصاحبة العلماء ومجالستهم طوال حياته⁵، فكان عالما محدثا وهو أول ملك علوي محدث، كما أنه أول من أسس المجالس الحديثية⁶، في عصر العلويين⁷.

¹ بن زيدان، المنزح اللطيف...، المصدر السابق، ص 178-783.

² ضريف، المرجع السابق، ص 133.

³ السعيد بوركية، دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في العهد الدولة العلوية، ج1، مطبعة فضالة، المغرب، 1417هـ/1996م، ص 308.

⁴ الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 89.

⁵ كنون، المرجع السابق، ج3، ص 1525.

⁶ المجالس الحديثية: قاصدا بها إحياء سنة ملوك الإسلام، ورتب لها السلطان محمد الثالث أوقات محددة للقاء ودراسة ومناقشة العلماء في الحديث، وكانت على مجلسان أحدهما يومي وثانيهما عام يعقد بعد صلاة الجمعة بمقصورة الإمام فيذاكرهم في الحديث والفقه ومعانيه، ويؤلفون له. (العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 168).

⁷ العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 145.

في عصره استكمل العلم نصابه، وتعاطى الطالب أسبابه فأصلح نظام التعليم وأحب العلماء وحضهم على نشر العلم، واستقدمهم لحضرته، وانتقى منهم طائفة لمجلسه وكان على رأسهم الشيخ التاودي بن سودة الذي بلغ من النفوذ إذ ذاك ما لم يبلغه غيره واتخذ لذلك أوقاتا مضبوطة، وعين من يثق بعربيته للسرد في المجالس المعقودة، واستجلب من المشرق مساند الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة و الشافعي وأحمد رحمهم الله تعالى، لإعادة مكانة الحديث في الفقه¹، وهو أول من وضع قانونا للتعليم بالمغرب ونشر موارد على العموم والخصوص سنة 1203هـ/1788م².

كما نقل صاحب الإتحاف نص الرسالة التي راسل بها علماء المشرق بمصر لإطلاعهم على الإجراءات التي قام بها طالبا منهم الإشارة عليه، راجيا للوصول إلى وحدة نظر في العالم الإسلامي³، وحصر دراسة العلوم الشرعية في القرآن والسنة والمناقشة في توضيح المتن وصحة الحديث المروي، مبعدا بذلك كل جدل منطقي أو عقدي، كما شن حملة شعواء على البدع، داعيا غير يائس إلى الرجوع للسنة والتقيد بمبادئ الإسلام الحق، وناصر مذهب السلف وتغلب على بعض الفرق الضالة بالمغرب كالعكاكزة واليوسفية⁴.

وليوضح السلطان محمد بن عبد الله توجهه العقائدي فقد صرح أنه مالكي المذهب حنبلي العقيدة، نابذا بذلك الأشعرية المنتشرة بالمغرب، بسبب المجادلات العقدية التي يحتوي عليها هذا المذهب، والتي اعتبرها الملك بدعة مستقبحة في الدين، لذا أمر فقهاء عصره بالالتزام بهذه التعليمات، وعقد معهم اجتماعات متعددة مخصصة للمباحثات والمناقشات الفقهية تضم جهابذة العلماء من أمثال عبد الرحمن المنجرة الفاسي، محمد التاودي الفاسي، محمد بن عثمان الشريف التادلي، الشيخ الطاهر السلاوي⁵.

¹. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 89-90.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 722.

³. عبد الرحمن بن زيدان بن محمد السجلماسي، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، ج3، ط1

مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1429هـ/2008م، ص 251.

⁴. الأخضر، المرجع السابق، ص 273.

⁵. نفسه، ص 273-274.

والنظر في أحكام المسائل والقوانين الفقهية، التي طغت عليها في هذه المرحلة التفرعات والنظريات المذهبية، وأقوال الفقهاء ومداركهم في الفتوى والتشريع، فضاعت الحقوق وفسد أمر القضاء والتوثيق ما بين الولوج في حبل الخلافات الفقهية والأقوال الضعيفة وبين التلاعب بالعقود، فقام السلطان برد الفقهاء إلى جادة الصواب بإصدار تعليمات من الضروري الالتزام بالجادة والأخذ بلب الفقه وعدم الميل مع الشذوذ والمذاهب المرجوحة ومنع الفتوى من كتب المتأخرين التي لا سند لها، إلا تلميحات المتفقيين وأبحاث المتتطين ونص بالخصوص على كتب الأجاهرة، وعلى رأسهم الشيخ علي الأجهوري من متأخري فقهاء مصر وتلاميذته كالزرقاني والخرشي وكانت هذه الكتب تحظى بتقدير كبير من علماء المغرب، فمنع الرجوع إليها أو الاعتماد عليها إلا فيما وافق قول العلماء الأقدمين¹.

ملزما القضاة بتحرير رسمين في حكم كل قضية، احدهما للمحكوم له ليكون حجة له والثاني للمحكوم عليه حتى يكون حكم عليه بالمشهور، ويشهد على ذلك عدول، مهددا بمعاينة المخالفين سواء كان مفتيا أو قاضيا، وشدد أيضا على العدول أو الموثقين في تحرير شهاداتهم والتحري فيها ما أمكن، كما أمر بعدم الأخذ بشهاداتهم في كثير من المسائل التي تلوح عليها إمارات البطلان ويحوم حولها الشك إلا بعد موافقة القاضي، لما كان يظهر على الشهود من استهتار بحقوق الناس والمقايضة عليها كما اهتم بالأحوال الشخصية كعقد الزواج بالفاطرة، وعدم الحكم بالطلاق إلا بعد التحري من وقوعه فعلا مما يهدف إلى صيانة العلاقات الزوجية من التلاعب والمحافظة على بناء الأسرة من الانهيار²، كما اشتغل بالجمع والتأليف واعتكف على دراسة دواوين الحديث فألف في الموضوع كتاب الفتوحات الإلهية الصغرى والكبرى وكتاب الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد³.

السلطان أبو الربيع سليمان: أما نجله عالم الدولة ففي بداية حياته انقطع لتلقي العلم على يد نخبة من الأساتذة والعلماء، أحاطه بهم والده الذي لن تخف عليه مخايل النجابة المبكرة

¹. بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام ...، المصدر السابق، ج6، ص 121.

². نفسه، ص 122-123.

³. الفاروقي، المقال السابق، ص 10.

في ولده، واستعداده العلمي الكبير، في هذه السن المبكرة، نجد سلمياني يهتم بالتأليف ويشجع عليه، ويرسم للعلماء مناهجه، ويراجع أعمالهم بنفسه أولاً بأول، وهي في طريق الإنجاز، مثل متابعة تأليف الترجمان المعرب لأبي القاسم الزياني، حتى أن البيعة التي حررها علماء القرويين للسلطان سليمان، بعد وفاة أخيه اليزيد، وجاء فيها من وصفه: "... فتى نشأ في عفة وصيانة، ومروءة وديانة، وعكوف على تحصيل العلم الشريف..."¹.

وشجع على ازدهار الحركة العلمية، بأفعاله وأقواله، فقد زار المحدث أبا زكريا يحيى بن المهدي بن طالب الشفشاوني (ت 1229هـ/ 1813م)²، وعاد أبا محمد عبد القادر بن شقرون في مرضه وحضر جنازته وحشره بيده في قبره³ كما عاد قاضي الجماعة بفاس أبا العباس أحمد بن التاودي بن سودة واستدعاه العلامة الشيخ حمدون بن الحاج السلمي لداره فأجاب⁴ حتى أنه ألف كتابه "عناية أولي المجد، بذكر آل الفاسي بن الجد" تحية وإكراماً لذكرى أستاذه العالم السيد محمد بن عبد السلام الفاسي⁵، ويغدق عليهم بالصلوات ويحضهم على تعاطي العلم ونشره بالتدريس والتأليف في مختلف الفنون⁶، فنفتت في عهده سوق العلم وراجت بضاعة الأدب، وبرز فيه علماء كبار وقد ذكر عبد الرحمان بن زيدان في كتابه "العز والصولة" قائمة أسماء العلماء المنقطعين لتدريس العلم بمدينة فاس، على عهد المولى سليمان، وعدهم بنحو خمسمائة عالم⁷.

ومنهم، أبو العلاء إدريس البدراوي مؤلف كتاب "التوضيح والبيان" في القراءات، ومحمد اليازغي ألف كتاب "الفتح الكامل في توضيح الشامل" وأنه كتب منه خمسة أجزاء، وعاجلته المنية قبل أن يتممه، فكلف المولى سليمان القاضي أبو الحسن علي التسولي بإتمامه، فجاء

¹. الصحراري، " المولى سليمان بن محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص 56.

². ابن زيدان، الدرر الفاخرة.. المصدر السابق، ص 72.

³. السلطان المولى سليمان العلوي، عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد، تح: د. خالد بن أحمد صقلي، ط1، دار الأمان، الرباط 1440هـ/ 2019م، ص 5.

⁴. ابن زيدان، الدرر الفاخرة.. المصدر السابق، ص 72-73.

⁵. السلطان سليمان العلوي، المصدر السابق، ص 5.

⁶. الفاروقي، المقال السابق، ص 10.

⁷. عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج2، المطبعة الملكية، الرباط 1382هـ/ 1962م، ص 168-176.

في تسعة أجزاء، كما كلف كل من: أحمد بن سودة، عبد القادر بن شقرون، محمد بنيس والطيب بن كيران بشرح الأربعين حديثا النووية¹. كما أمر قبله أبوه بشرح مشارف الأنوار للإمام الصنعاني، فشرح منه الشيخ التاودلي الثلث الأول والشيخ بوخريص الثلث الثاني والشيخ إدريس العراقي الثلث الثالث².

وكانت المجالس الحديثية في أيامه من أفخم المجالس وأبعدها أثرا يحضرها طائفة من فحول العلماء باختلاف مشاربهم علما وفنا أصولا وفروعا، وشارك فيها الملك بغزارة علمه وحسن ملكته، وحضر مجالسه الشيخ محمد أبوراس الوهراني وأشاد بمجلس الشيخ بن كيران ومن اعتنائه بالسنة النبوية لما وصله خبر عثور الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري على نسخة فريدة من صحيح البخاري بخط الحافظ الصدي بطرابلس الغرب، وجه لصاحبها الطرابلسي ألف ريال³ لبيعها إليه، فأجابه بنقلها لحضرته بمجرد نهاية حرب جارتيه، وكانت له مساهمة في الرد على البدع برسائلته المشهورة التي حذر فيها الناس من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة وخطبته البديعة التي أذيعت بالمنابر يوم الجمعة⁴.

وقد كان يرى في الانشغال ببعض الشروح والحواشي التي أقرها والده بالقرويين من شأنها أن تشذ الفكر وتنمي طاقة المناقشة لدى الطلاب، وأقر مختصر الخليل بعد أن أوقفه أبوه ورأى فيه أسلوب يساعد على اختراق الغوامض اعتنى بمختصر ابن الحاجب، نادي مع والده بالعودة إلى السلفية، واستلم رسائل الوهابية التي وصلت لفاس بعد تولى آل سعود على الحرمين الشريفين، فجمع علماء القرويين لمدارسة الآراء الوافدة مع السفارة الحجازية وتصدر أبا الفيض حمدون وابن كيران وسليمان الحوات في الرد عليها⁵، كما بعث ولده

¹ بن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج2، ص 58.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 748.

³ الريال: من الوحدات النقدية التي كانت متداولة بالمغرب، وهو الريال الاسباني (بومدفع) المنقسم إلى خمس (بسيطات) وينقسم إلى نصف وربع وفيه عشرة دراهم (حسينيا) وعشرون (قرشا) ومائة صولدي أو كوردة وخمسمائة سنتيم. (ينظر: ابن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج 1، ص 407).

⁴ الفاروقي، المقال السابق، ص 10.

⁵ محمد منصور، "الحركة الوهابية وردود الفعل المغاربية"، عن الإصلاح والمجتمع المغربي، أيام دراسية 20-23 افريل 1983م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1983م، ص 184-186.

إبراهيم على رأس وفد كان فيه الفقيه العباس ابن الكيران، محمد العربي الساحلي، بن جعفر الحسني الرتبي... سنة 1226هـ / 1811م، وطلب منهم تجلي صحة الأمر بسبب ما وصل المغرب من آراء وأفكار وأقوال حولها، وقد نالت أجوبة آل سعود استحسان السلطان سليمان فجعل يحذر من الصوفية والتغالي فيها والتوسل بالأضرحة¹.

وطبق بالمغرب بعض تعاليم الوهابية الصارمة، كمنع زيارة القبور وإقامة المواسم للصالحين فكان له مجموعة من الفقهاء يسهرون على تنفيذ تعليماته منهم ابن شقرون الفاسي، محمد بن عثمان المكناسي، الطيب بن كيران، محمد الرهوني، حمدون بن الحاج، محمد بن عبد السلام بن ناصر²، فكان هو الآخر يمهد لسلفية نقية بعيدة في جوهرها عن كل الأساطير والتلبيسات وما يرمي إلى الشعوذة والتمويه³ وقال فيه الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي(ت: 1266-1850):

دلائل فضل الله فينا تترحم *** وإن غفلت عنها طوائف نــــــــــــــــوم
ومن أكبر النعمة ولأية من له *** علينا وفينا حكمة وتحكــــــــــــــــم
ولما أراد الله إظهار سره *** جرى الأمر في الإظهار من حيث يعلم
ألم تغتنم وقت المساء وغدوة *** بدا الوقف في التفسير آية وأعلموا ولم يكن⁴.
واشتغل بتأليف فوضع شرحا في الفقه لكتاب الخرشي الذي يشرح فيه مختصر الشيخ خليل وله كتاب صغير عنوانه "إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع"، ورسالة صغيرة عنوانها "جواز التجمير بالقسط في رمضان"، (القسط بضم القاف أي عود البخور) والتجمير بالقسط معناه التبخر بالعود، وغيرها مما هو منسوب إليه⁵.

السلطان عبد الرحمن بن هشام: كان على شاكلة عمه، كثير الزيارة لجامعة القرويين حضر مجالسها وناقش أعلامها محاولا إيجاد الحلول المناسبة لها، وكان يزور الفقهاء بنفسه

¹. Berque, Op.cit, P100.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, P430.

³. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 158.

⁴. الجراري، " العلويون في..."، المقال السابق، ص 127.

⁵. الصحراوي، " المولى سليمان..."، المقال السابق، ص 60-62.

في تواضع كامل متقصيا أخبارهم الصحية والمادية، ويحضر حفلات ختم الدروس العلمية ويختلط بجمهور الطلبة، ففي 24 شعبان 1200هـ/22 فيفري 1797م حضر لخدمة شيخه الطيب بن كيران لتفسير القرآن الكريم بزاوية ابن رحمون بزقاق الحجر بفاس¹.

وشارك في المجالس الحديثية على عهد هذا السلطان كل من العلامة محمد بن الطاهر العلوي الحسني المراكشي، والعلامة التهامي بن حماد ابن عبد الرحمن المطيري المكناسي والعلامة عبد القادر بن أحمد الكوهن والعلامة العباس بن محمد بن كيران قاضي مكناس والعلامة المهدي بن سودة، وحضر المجلس من القطر الجزائري العلامة عبد القادر بن عبد الله المشرفي المعسكري وكان كثيرا ما يحضر الدروس الحديثية التي تتعد بالمساجد الكبرى كدرس العلامة أحمد بن محمد بن الطاهر الأزدي المراكشي الذي كان يدرس صحيح الإمام البخاري بالضريح الغزواني، ونشطت في عهده الحركة العلمية، من خلال الإفتاء بسبب التطورات التي جرت بالمنطقة².

ويعد السلطان عبد الرحمن ثاني مصلح للتعليم بجامعة القرويين بعد جده السلطان محمد بن عبد الله، فقد وجه خطابا ملكيا إلى شيخ القرويين وقاضي القضاة المولى عبد الهادي في 12 محرم 1261هـ/21 جانفي 1845م، وأثبتته ابن زيدان في كتابه الدرر الفاخرة وقد شرح فيه سبب الإصلاح وقواعده، فأمر السلطان بالتقصير إن المقصود هو حصول الفهم والإفادة مع التقصير في الدرس وخفته فلا يتجاوز ساعة³، يمتاز هذا الخطاب بالفعالية والآنية ويدل على إدراك عميق وسليم وذلك للحالة التي أصبح عليها التدريس في القرويين أمام خطر داهم على الحدود الشرقية والشمالية ذات التقنيات المتقدمة خصوصا بعد أن اختبرها في واقعة إيسلي في 1260هـ/1844م حيث أظهر الوجه الحقيقي لقوة المغرب الأقصى⁴.

¹. الأخضر، المرجع السابق، ص 276.

². الفاروقي، المقال السابق، ص 10.

³. ابن زيدان، الدرر الفاخرة...، المصدر السابق، ص 80-81.

⁴. الناصري، المصدر السابق، ج 8، ص 64-65.

أيضا فقد أولى العلويون عنايتهم للدروس التفسيرية والحديثية التي تعقد مجالسها بالقصر وبرئاسة الملك في كل من رجب وشعبان وبالأخص في رمضان ويحضر هذه المجالس العلماء والأعيان فتسرد الأحاديث بصوت حسن رخم وإذا رأى الملك المناقشة في حديث من الأحاديث المسرودة أدلى كل واحد من العلماء برأيه ونظره، وقد يمتد الجدل فيجعل الملك حدا لذلك بإنهاء المناقشة والرجوع إلى متابعة سرد الحديث الشريف وهكذا كان الأمر جاريا لدى ملوك المغرب، حيث كان العلماء يعرضون دروسهم في هذا الظرف الخاص¹.

لقد أغدق المخزن على العلماء بصلاته وعطائه علاوة على ما كان لهم من أوقاف أو وصايا ينتفعون بها، وقد كان وزير المالية يشرف على تكريم الفقهاء وإرضاء رغباتهم وهذا العطاء لضمان بقاء هؤلاء العلماء والفقهاء متفرغين لواجباتهم، كما أصدر سلاطين المغرب ظهائر كبار العلماء كأوسمة فكرية رفيعة وهذا ما أكسب هؤلاء العلماء مكانة وقوة في المعارف وتضلعتهم وتمكنهم فيها حتى كان قاضي فاس هو الذي يرجع إليه أمر سائر قضاة المغرب².

ومن خلال هذا العرض يتضح أن علماء القرويين كانوا حاضرين في كافة التحركات السياسية التي عرفت البلاد في العهدين السعدي والعلوي، وكانوا كطرف مهم فيها، وأدوا مهمتهم بكل أمانة بل هناك من دفع حياته ثمن إعلاء كلمة الحق وعدم الحياد عن الشرع فكان هؤلاء العلماء على قدر من المسؤولية الملقاة على عاتقهم، فنصحوا الحكام وأرشدوا الأمة وتحلوا بمواقف راسخة شامخة.

حافظ السعديون والعلويون على القرويين من الاندثار فعمدوا إلى ترميم ما تصدع فيه فالسلطان أحمد المنصور وحفيده اهتما بخصتي الصحن وبنيا عليهما قبة رفيعة، والعلويون اهتموا بالداخل والخارج مثل السلطان إسماعيل أعاد الثريا الكبرى ونقش اسمه إلى جانب السلطان الموحدي وهذه زوجة السلطان الرشيد تفرش الصحن من مالها المقدم كصداق لها

¹. الفاروقي، المقال السابق، ص 8.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 734.

وإضافة آلات جديدة ومتطورة بمقاييس تلك الفترة من ساعات وإسطرلابات، وكل هذا يظهر اهتمام هؤلاء السلاطين بالقرويين، فسعوا بذلك إلى المحافظة على صرح القرويين وتقديم ما يحتاجه من ترميم ودعم مالي، لذا كان إشغالهم هو الإبقاء على الجامع يتنفس لأمد طويل ولا يزال.

رغم أن السعديين جعلوا من مراكش عاصمة لهم والعلويين من مكناسة الزيتون ولكن رغم ذلك فإن فاس كانت محل نظرهم وعنايتهم إما بالبناء أو الترميم في كلا العهدين كإقامة المنشآت العسكرية والمدنية من قلاع وحصون كالسلطان المنصور باني باستيون والقصبات وكذا السلطان الرشيد، وهذا لتأمين هذه المدينة الثائرة مركز البيعة.

كان علماء القرويين حصنا ودرعا وملاذا للسلاطين في أمور السياسة فكانت كلمتهم فصل الخطاب في قول الحق والدفاع عنه فالسلطان أحمد المنصور وما موقف كل من أبي نعيم الجنوي والحميدي حول سياسته الداخلية والخارجية، وما قام به الشيخ المأمون السعدي في تسليم العرائش، وهبة الشجاعة للعلماء في إجلاء وجه الحق، وكذا في العهد العلوي فإن العلماء وقفوا في وجه سياسة سلاطينهم وتجلت في عهد السلطان إسماعيل وتمليكه للعبيد فكل من جسوس واليوسي قد نصحا له.

الاتصال الدائم للملوك السعديين والعلويين بالعلماء حيثما حلوا أو ارتحلوا، كما جالسوهم في مجالس علمية وحديثية رفيعة دعا إليها خيره علماء المغرب وعلى رأسهم علماء وفقهاء فاس بالضبط رجال القرويين، فاتخذوهم مستشارين وأساتذة ومن الملوك من قربهم لدرجة الزمالة لا السيادة، فتواضع هؤلاء الملوك للعلماء في المعاملة بالمباشطة وحتى خدمتهم بأنفسهم فمن المنصور السعدي لإسماعيل ومحمد بن عبد الله وسليمان العلويين وغيرهم الكثير. كل من الأسرة السعدية والعلوية كانتا أسرة علم للتحول نحو السياسة، فضمتا خيرة الرجال من الملوك العلماء فالسلطان الشيخ المهدي أو أحمد المنصور، زيدان السعديين... والسلطان إسماعيل أو عبد الله أو محمد الثالث أو سليمان العلويين.... كانوا كلهم علماء وملوك كتبوا أسماءهم من ذهب.

القسم الثالث: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس والقرويين

(10-13هـ/16-19م)

الفصل الأول: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس (10-13هـ/16-19م)

أولاً. الجانب الاجتماعي

ثانياً. الحياة الاقتصادية

ثالثاً. الهيكلة العامة لإدارة وتسيير بالقرويين

الفصل الثاني: الوقف والقرويين: (10-13هـ/16-19م)

أولاً. الوقف

ثانياً. الشرفاء والوقف

ثالثاً. الوقف والقرويين

الفصل الثالث: القرويين والقضايا الاجتماعية والاقتصادية (10-13هـ/16-19م)

أولاً: النوازل الاجتماعية

ثانياً: المسائل الاقتصادية

القسم الثالث: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس والقرويين

(10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

خصصنا هذا القسم للوقوف على علاقات المجتمع الفاسي، التي أفرزها ذلك التطور الاجتماعي والاقتصادي لمدينة فاس، الذي أنتج بدوره مجتمعا مركبا من عدة فئات تخدم بعضها البعض اقتصاديا، في نسق متجانس منذ أجيال عدة خلت، مبرزين مكانة العلماء في هذا المجتمع الفاسي وبالمغرب ككل، وما كان لهم وما عليهم في بعض جوانب حياتهم اليومية والعلمية محاولين الإجابة على التساؤلات التالية: ما التركيبة الاجتماعية لمجتمع فاس في العهد الحديث؟، ما خصائص ومميزات فئة علماء وفقهاء القرويين في المجتمع الفاسي؟. ما موقف العلماء من النوازل والمسائل الاجتماعية والاقتصادية؟. وما موقفهم من بعض العادات والتقاليد؟. ومدى مساهمتهم في بناء المجتمع الفاسي؟.

الفصل الأول: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

ارتبط الجانب الاجتماعي والاقتصادي للمغرب بصفة عامة وفاس بصفة خاصة بالقرويين وهذا يرجع إلى تلك الحركية الاجتماعية، وما تؤسس له من نوازل ومساائل ومشاكل يفرزها المجتمع من خلال مسيرته التاريخية وكذا في مرحلة بنائه وتطوره ونموه من عادات وتقاليد موروثة ومكتسبة، فهذه النوازل الطارئة، كثيرا ما أرقت عقول الناس فتجد طريقها لهذا الجامع، فيطرحونها على علماء القرويين، ومن هذا المنطلق كانت الأهمية بمكان أن نتعرف على الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمدينة فاس وما كان يطرحه من نوازل لعلماء القرويين خلال الفترة الحديثة التي اتسمت بجسام الأحداث الاجتماعية والاقتصادية.

أولا. الجانب الاجتماعي:

رأينا في بداية القسم الأول المخصص لبناء فاس ونموها كيف كان ترتيب القبائل النازلة عليها، ومن انضاف إليهم من دفعات بشرية متعاقبة بمرور الزمن، حاملة معها عدة ثقافات وعادات وتقاليد وحتى معتقدات، ساهمت في تكوين لوحة المجتمع الفاسي على هذه المرحلة وتجعل من مدينة فاس وغيرها مملوءة بالنشاطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والحضارية.

1. المجتمع الفاسي:

أ.تطوره: احتوى المجتمع الفاسي خلال مراحل نموه على عدة عناصر مختلفة، وقد طغى عليها العنصر البربري، لدخوله مع الدول المتعاقبة من زناتة إلى المرينيين، كقبائل صنهاجة زناتة، مصمودة ولواتة في مختلف أنحائها، ومن المناطق المجاورة التلية والصحراوية كلمطة، نفزاوة، مطغرة، مغيلة وغيرهم، وفي العهد الموحي حصر تعيين أئمة فاس وخطبائها على العنصر البربري لأغراض سياسية، والعرب دخلوها مع الهجرات الأولى من

إفريقية والأندلس والمشرق، من قيسية وأزدية ومدلج وغيرهم في عهد إدريس الثاني والموحدين استقدموا القبائل العربية الحربية من رياح وحشم وعدي فكانوا من العدنانية والقحطانية¹.

كما وفدت عليها هجرات كانت من المدن الحضرية كالقيروان والأندلس والتي لها جليل الفضل في تحضر فاس وتطور مجتمعتها، بما أدخلوه إليها من علم وأدب وطرب، كدفعة القيروانيين الفارين من الهلاليين في سنة 449هـ/1057م²، والهجرات الأندلسية المتوالية منذ ق6هـ/12م وأهمها في 897/1492م و1018هـ/1609م³، وسرعان ما اندمجوا مع المجتمع الفاسي وأصبحوا من ركانه، وأسسوا لأنفسهم عائلات أندلسية كبرى كعائلة الدباغ هاجرت إلى فاس في 690هـ/1291م من غرناطة، ابن عاشر والسراج في 750هـ/1349م، ابن سودة المري في 754هـ/1353م، الفاسي ابن الجد الفهري في 880هـ/1475م من مالقة القادري في 890هـ/1485م من وادي آش، ابن الحاج في 1020هـ/1611م، بردلة، البزار البيطار، ابن شقرون...⁴.

كما شهد المغرب ومنه فاس استقرار الأشراف الذين كانوا على صنفين جدد ومنهم من قدم من الشمال كالسبتيون (الصقليون، الحسينيون)، والقادمين من المشرق واستقروا بالجنوب كالسعديين والعلويين، والتقليديين من الأدارسة الذين ذابوا في المجتمع، ليتم إحياء ظهورهم على إثر الانطلاق بالاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف في منتصف ق7هـ/13م لأول مرة في تاريخ الغرب الإسلامي، من طرف بني العزفي حكام سبتة، فنالوا الحظوة مع الحكام بالإكرام والمصاهرة، ففوق نفوذهم في العهد المريني وبعد⁵.

وتدعمت المنطقة قبيل وصول السعديين لسدة الحكم، بأسر وهرانية وتلمسانية وقبائل برمتها من أعراب الجزائر الفارة من وجه العثمانيين واستقرت بسهول سايس وحوض سبو

¹. أحمد طه، المرجع السابق، ص 154-158.

². بن القاضي، جذوة...، المصدر السابق، ج1، ص 38.

³. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 228.

⁴. علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005م، ص 390.

⁵. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 1987م، ص 84-85.

ودعيت بالشراكة، لقدمها من جهة الشرق، وكونت أحد الأركان المهمة في الجيش السعودي وكذا نزوح العناصر الأندلسية على إثر القرارات التعسفية الإسبانية كقرار 22 جمادي الثانية 1018هـ/22 سبتمبر 1609م القاضي بطرد الموريسكيين من شبه جزيرة إيبيريا، فعمرُوا عديد المدن، واشتغلوا بالتعليم، التطبيب ومختلف الحرف والصناعات وتقلدوا الوظائف في البلاد والجيش كما نشطوا الزراعة وجددوا طرق الري والغرس¹.

وشهد المجتمع الفاسي حركية خلال القرن 10هـ/16م نتيجة ذلك التدفق البشري عليه واستقرار هؤلاء الوافدين بأفكارهم ونزعاتهم وثقافتهم، ومنهم العلماء بتلاميذهم فأثروا على السلوك العلمي عند المغاربة كابي إسحاق الشاطبي وابن عاصم الغرناطي وأبي عبد الله المواق... وغيرهم، كما ساهم ذلك التدفق في انقراض البيوت العلمية الفاسية التي اشتهرت قبل القرن 11هـ/17م مثل آل المكودي والونشريسي، السراج، المواق، الزقاق² وآل ابن القاضي، وآل ابن إبراهيم المشنترائيون³...، وظهرت أخرى ذات جذور أندلسية أو منتمية لأقلية من أمثال آل الفاسي الفهري، بن سودة، جسوس، ميارة... وغيرهم⁴، وهذا ما نلاحظه من خلال الأعلام الذين يظهرون في هذه المرحلة تقريبا كلهم من أصول أندلسية.

لتمتزج في الفترة السعدية كل تلك العناصر السكانية المتنوعة من أندلسية ومغربية... وبتعاقب الأجيال تجاوزوا التباينات في الطباع والعادات، فذابت تيارات حضارية مختلفة تركية أندلسية أوروبية سودانية مغربية مشكلة حياة أهل الحضر⁵، وتجلت في طراز البناء الأندلسي من نقش على الحجر والجبس والفسقيات المائية، كما ظهرت عادات ذات طابع أندلسي وعثماني في نظام اللباس، الترقيم والتطريز والأطعمة أو التقاليد المتبعة في الحفلات والولائم والأعراس⁶، فانتشرت عادة اللباس الأبيض الأندلسي في الصيف والمآتم، ووضع

¹ حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 52.

² العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 11.

³ السعيد بوركية، " دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد السعديين"، عن مجلة دعوة الحق، ع 300، ربيع الأول - ربيع الثاني 1414هـ / سبتمبر - أكتوبر 1993، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1993، ص 100.

⁴ العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 11.

⁵ Gagne et Nejjar, Op.cit, P351.

⁶ السايح، " الثقافة المغربية ..."، المقال السابق، ص 27.

رجال المخزن والعلماء والتجار على رؤوسهم القلنسوة الحمراء ذات الحاشية الزرقاء الأندلسية، كما فرشت الدور المغربية بالزرابي التركية والأرائك الاسطنبولية المستديرة¹.

ب. التركيبة الاجتماعية لفاس:

جمعت مدينة فاس في العهد السعدي والعلوي داخل أسوارها فئات متباينة من سكان شكلوا طبقات اجتماعية متعددة ومتميزة ارتبطت في توزيعها بالتفاوت الاجتماعي والاقتصادي² ففي قمة الهرم الاجتماعي الطبقة الحاكمة للمدينة فمن يوضع على إدارة فاس يجب أن يكون ذا أهمية إما ابن السلطان أو أخيه أو أحد أقاربه، ويكون غالبا وليا للعهد³ ويحاط بحاشية من كبار رجال المخزن من كتاب وحجاب وقادة عسكريين وعلماء وأعيان وتمتعت هذه الفئة بنوع من الحصانة، استوطن أفرادها فاس الجديد مركز الإدارة⁴.

وطبقة العلماء هم من حضر المدينة وضمت رجال العلم بالمدينة من شرفاء، فقهاء قضاة ومدرسين⁵، وقدموا مساعدة لرجال الحكومة باستناد الملوك على دعائمهم في الحكم والاستعانة بهم لإرضاء العامة⁶، وقد تولى هؤلاء العلماء في الغالب وظائف كالقضاء الفتوى، الإمامة، الخطابة، التدريس والتوثيق من عقود الزواج والطلاق وتحرير الشهادات والاستشارة... مما جعل البعض منهم يعيش حياة ثرية والآخر كريمة وثالث زاهدا⁷، وفضل هؤلاء العلماء سكنى المناطق الهادئة والأمنة من فاس⁸ بأحياء أقل ازدحاما وكثافة مثل حي سبع لويات والدوح والمعادي بعدوة القرويين⁹.

¹. حجي، الحركة الفكرية... المرجع السابق، ج1، ص 53.

². بن القاضي، المنتقى المقصور...، المصدر السابق، ص 45.

³. نفسه، ص 116-117.

⁴. نفسه، ص 45.

⁵. Gagne et Nejjar, Op.cit, P358.

⁶. Berque, « Ville... », Op.cit, P81-82.

⁷. إبراهيم حركات، "نظم الحكم في العهد الوطاسيين"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، ص8، شعبان 1384هـ/ديسمبر

1964م، صدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1964م، ص 65.

⁸. Benoit, Op.cit, P107.

⁹. Champion, Op.cit, P82.

وأيضاً الطبقة البرجوازية الحضرية التي تضم أرباب الحرف وكبار التجار، فكون هؤلاء طبقة اجتماعية عبر عنها بالطبقة البرجوازية الناشئة وهذا بفضل ازدهار أعمال التجارة الداخلية والخارجية وتشجيع السلاطين لها، فتكدست بيدهم الأموال¹.

أما الطبقة العامة فشكّلت قاعدة الهرم الاجتماعي من عامة الناس الذين يكدحون من أجل لقمة العيش والحياة الكريمة، وهم الأغلبية الساحقة المشكلة من عديد القبائل المستقرة والطارئة عليها²، كما ضمت هذه الطبقة عدد كبير من الصناع وأصحاب الحرف، منتظمة ومضبوطة في شكل طوائف حرفية ومهنية³ منتشرة عبر مختلف أرجاء المدينة⁴.

إلى جانب طبقة أهل الذمة من يهود والذين امتهنوا عدة حرف وصنائع، كصناعة القنادل زخرفة المعادن، الحلي وغيرها⁵، وتميزوا بلباسهم الخاص، كما أخرج عدد كبير منهم في العهد المريني نحو فاس الجديد إلى حي الملاح الخاص بهم⁶ وقدرهم على باي في ق19م بنحو ألفين عائلة⁷، وأيضاً الأجانب من أسرى وغيرهم وضعوا في حي خاص بهم⁸ تلك هي الصورة العامة لفاس والمدن المغربية الكبرى خلال العهدين السعدي والعلوي.

ج. فاس في صراع دائم:

تجمع المصادر والمراجع التي تناولت مدينة فاس من حيث تطورها العمراني والسياسي وحتى الاجتماعي على أن إدريس الثاني بانيها قد جعلها من عدوتين سبقت إحداهما الأخرى فكانت عدوة الأندلس ثم القرويين⁹، وكانت كل منهما تنسب إلى الفئة الغالبة فيها، كما جعل إدريس الثاني مكان وسرير إقامته وحكمه بعدوة القرويين التي سكنها مع حشمه، دون الجند

¹. عبد اللطيف خالص، " الإصلاح والتجديد في عهد الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 155.

². Benoit, Op.cit, P112-116.

³. بن القاضي، المنتقى المقصور .. المصدر السابق، ص 45.

⁴. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 18، صور من حرف فاس، ص 452.

⁵. De la Véronne, Vie de Moulay, Op.cit, P68.

⁶. Jacques Caillé, La Petite histoire du Maroc, 2série, Chérifienne d'édition et publicité, Casablanca 1950, P 63

⁷. El-Abbassi, Op.cit, T1, P 137.

⁸. De la Véronne, Vie de Moulay, Op.cit, P 70-71.

⁹. بن أبي زرع، المصدر السابق، ص 47-48.

الذين اتخذ لهم من عدوة الأندلس محلا لهم¹، وكان لهذا الأمر أهميته فأعطت المكانة للقرويين على حساب الأندلس²، فرغبت الإقامة بالقرويين وجعلت الأندلس محلا للضياع والبساتين التي كان جزءا منها موقوف على أهم جامع بالقرويين.

أما الأمر الآخر الذي ربما يكون أوجد هذا التصدع، هو جعل العدوتين تقريبا مستقلتين عن بعضهما، خصوصا إذا علمنا أن إدريس الثاني قد ضرب على كل منهما بسور³، وهو الأمر الذي جعلهما يدخلان في منافسة بينهما حول السيطرة على المدينة ويظهر ذلك من خلال الصراع الذي أوقده الفاطميون مع الأمويين حول المغرب، ليتعمق مع زناتة بإقامة حاكم على كل عدوة، مما أوجد حربا بين العدوتين وجسدها ذلك الصراع بين الأخوين عجيصة والفتوح⁴ مما جعل المرابطين والموحدين يعمدون إلى توحيدها إما ببناء الجسور أو إحاطتها بسور واحد لتكون مدينة واحدة⁵.

إلا أن جهودهما لم تصل إلى غايتها فقد ظل الصراع قائما بين العدوتين وهو ما يفسر خروج المرينيين من دائرة ذلك الصراع بإقامة مدينة جديدة على مقربة من العدوتين وتكون سرير حكمهم، فأضحت المدينة مشكلة من فاس البالي المؤلف من عدوتي الأندلس والقرويين وفاس الجديدة الملقبة بالبيضاء سرير الحكم⁶، فزاد ذلك في دائرة الصراع بينهم بانحياز الأطراف أو تفرقها.

لتكون فاس في القرن 10هـ/16م على العهد السعدي تتكون من مدينتين رئيسيتين فاس القديم (البالي) والجديد (المدينة البيضاء)⁷ وفي هذه الأخيرة توجد قصبة القصر الملكي

¹. ابن القاضي، جذوة..، المصدر السابق، ج1، ص 38.

². Champion, Op.cit, P25.

³. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 38-40.

⁴. نفسه، ص 42-43.

⁵. Terrasse, Op.cit, T1, P 224-226.

⁶. Bressolette et Delarozière, Op.cit, P245-249.

⁷. ينظر الملحق الرابع، الوثيقة رقم 30، خريطة أسام مدينة فاس، ص 466.

ومنازل كبار القوم والمتاجر والديوانة، واحتوى فاس البالي المتكون من العدوتين الإدريسييتين على ثمانية عشر حياً¹ توزعت على النحو التالي:

*. عدوة الأندلس: وتشمل الأحياء الستة الواقعة شرقي نهر بوخرارب وهي المخفية، سيدي العواد، الأقواس، الكزيرة، درب الشيخ والكدان.

*. عدوة القرويين: وانقسمت على نفسها لشقين جهة اللطيين والأندلسيين:

فجهة الأندلسيين وتشمل أحياء جنوبي وغربي عدوة القرويين وفيها العيون، رأس الجنان القلقلين، القطانين، كرنيز والطالعة.

أما جهة اللطيين: التي تشمل ستة أحياء شمالي شرقي لنفس العدوة وهي الصاغة، البليدة فندق اليهود، زقاق الرمان، الشرايليين وسويقة ابن الصافي².

وفي عهد السلطان إسماعيل العلوي كان على كل مدينة قائد³، ووصل عدد حومات مدينة فاس البالي إلى أربع وعشرين حومة مقسمة بين العدوتين ففي جهة عدوة القرويين باللطيين ثمان حومات وبالأندلس عشر حومات أما على جهة عدوة الأندلس فست حومات⁴.

فهذه التقسيمات أدخلت فاس البالي في صراع مرير، بين أقسامه الثلاثة تارة وبين المدينتين تارة أخرى، لتتوحد أو تنقسم ضد المخزن تارة ثالثة، وكل ذلك الصراع قد غذته مجريات الأحداث بفاس والمغرب من أواخر القرن 16م حتى ق19م، أما الأمر الذي أثر كثيراً على المدينة وكان سبباً في التناحر والانحيازات والمناصرات، هي تلك الحزازات التي ظهرت داخل المدينة بين من هو أصيلي والآخر دخيل، وبين من إسلامه أصيل والآخر حديث وبين هذا شريف والآخر مشروف، وكل هذا له أثره في المواقف السياسية للمدينة لذا جعل سلاطين المغرب ولاية العهد عليها حتى يتمرسوا بها⁵.

¹ ينظر الملحق الرابع، الوثيقة رقم 31، خريطة لأحياء عدوتي فاس البالي، ص 467.

² لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص 181.

³ بن زيدان، المنزع اللطيف...، المصدر السابق، ص 148.

⁴ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج4، ص 230.

⁵ حركات، "نظم الحكم..."، المقال السابق، ص 65.

كل هذا أعطى لفاس صورة سياسية مضطربة، بسبب تلك التقسيمات الناجمة عن حساسيات اجتماعية وسياسية، أدخلتها في دوامة من الاغتيالات والاضطرابات نتيجة تدهور الوضع خصوصا بعد وفاة السلطانين أحمد المنصور السعدي 1012هـ/1603م، وإسماعيل العلوي في 1140هـ/1727م، بين أفراد ساكنيها باغتيالات سياسية، شخصية بين اللطيين والأندلسيين، وبين عدوتي القرويين والأندلس وبين المدينتين وبين أهل فاس والمخزن.

كخلاف بين أهل فاس وجند الشراكة والحيانة والأودايا وكانت حرب سجال بينهم في العهدين السعدي والعلوي ليضاف إليهم جيش العبيد، وأي مصدر تتاولها إلا وانتبه لهذا الأمر، وراح ضحيتها عدة شخصيات من الجانبين ما بين 1018هـ/1609م و1029هـ/1619م¹، لتندلع بين عدوتي القرويين ما بين 1035هـ/1625م و1062هـ/1651م²، حتى أخلت حوانيت وفقد الأمن لشدة العداوة³، وهو الأمر الذي جعل الأخذ بالتأثر متأجج في نفوس الرجال، وانتظار وتحين الفرص لرد الصاع صاعين، والوقوع تحت حياة المباغطة والتربق والحيلة والحذر الدائم.

انعكس هذا بدوره على المحيط الفاسي في تعطيل الشعائر الدينية كالصلاة بمسجد القرويين لعدة أيام، عدم القيام بصلاة التراويح وليلة القدر برمضان، لتجرف معها حتى العلماء كقتل اللطيين لأبي النعيم الغساني سنة 1032هـ/1622م، فقتل منهم 1500 شخص، وكانت سببا في صراع دام قرابة عام بين اللطيين والأندلسيين، كما أزعج قبله أحمد المقرئ للمشرق⁴، وقد بث القادري في مؤلفه نشر المثنائي العديد من الصور حول تلك الاختلالات وعدم التوازن الذي أصاب المدينة ويبقى معها حتى العهد العلوي المتأخر.

وحتى مع الملوك الأشراف ظهر ذلك الموقف المضطرب بين الولاء ونقضه، فكثيرا ما كانت تشق عصا الطاعة وتحول بيعتها من ملك للآخر حسبما تقتضيه المصلحة مع

¹. القادري، نشر المثنائي....، المصدر السابق، ج1، ص219-232.

². محمد بن الطيب القادري، نشر المثنائي لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج2، ط1، تح: محمد جحي، أحمد التوفيق، مكتبة الطالب لنشر والتوزيع، الرباط 1402هـ/1982م، ص51-64.

³. نفسه، ص265.

⁴. نفسه، ص255-290.

الأسرتين السعدية والعلوية، ما يجعلها تقع تحت طائلة الحصار يطول ويقصر ما بين شهور أو سنوات، مدعما بالأسلحة الثقيلة كالمدافع، مع إطلاق يد القبائل المخزنية الموالية لتخريب الزروع وقطع الضروع وإضرار النار في الجذوع والفروع، كحملة السلطان أحمد بن زيدان مع الحياينة في 1045هـ/1635م¹.

وزادت تلك الحملات في العهد العلوي بالخصوص بتحكم الجيش في التولية والعزل كحصار أحمد الذهبي في 1139هـ/1727م، وحملة عبد الله في 1141هـ/1728م²... بحيث يكاد كل سلطان إلا وحاصرها، مما أوجد حياة يومية صعبة تعلوها غلاء الأسعار تارة وفقدان المؤن تارة أخرى، ومن أراد البسط فيها فالقادري في نشره والريفي في زهره عندهما استفاضة، وكل هذا يعطي لنا صورة عن عدم استقرار فاس في هذه العهود التي عرفت كثير من الاضطراب التي انعكست على حالة جامعها ورجالها.

د. جامع القرويين في حياة أهل فاس:

احتل جامع القرويين مكانة مهمة لأهل فاس، فكانت له مشاركات فعالة فإلى جانب أنه مكان لإقامة الصلوات، كان يرتاده السلاطين للاستشارة أو أداء صلاة الجمعة حين ينزلون عليها، ويقدم إمامه في صلاة العيد وخطبتها خارج فاس القرويين بباب الفتوح، وللجامع الخطوة في الأعياد والمناسبات الدينية³، كما أنه ملتقى للمستفتين في مختلف القضايا خصوصا في مدينة ذات حركية اقتصادية وسياسية وثقافية، ومقصدا للمستسقين في فترات الجفاف بتلاوة القرآن وصحيح البخاري بالقرويين، والإلاح بإقامة صلاتها لمرات عدة طلبا وطمعا في الله أن يسقي البلاد والعباد⁴، ومنها أراضي أوقاف القرويين التي تدر عليه دخلا مهما، فبوفرة المحصود يحصل المقصود⁵.

¹ . القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج 2، ص336.

² . الريفي، المصدر السابق، ص 222-229.

³ . القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج 4، ص182.

⁴ . القادري، نشر المثنائي... المصدر السابق، ج 2، ص119.

⁵ . نفسه، ص223.

ومما كان قائماً بجامع القرويين في الفترة الحديثة تعليق العلم الأبيض والأزرق على الصارية بصومعته نهاراً مع إسراج الفانر المجاور له ليلاً، وهذا ليستدل بهم من لم يسمع النداء¹، كما يتعاقب على صومعته خلال ساعات الليل عشرة نفارين يرددون بعض الأذكار ولما كانوا يتتابعون بنفس الترتيب، فإن المرضى يعرفون الساعة بمجرد سماع أصواتهم² وكان آخرهم يرفع مشعل الفجر، ليقندي به باقي مساجد المدينة، ومن مجريات الاحتفال بالمولد النبوي كان الجامع ينطلق قبل شهرين من يوم المولد بإقراء شرح قصيدة البوصري في مدح النبي (ﷺ) والمعروفة بالبردة³، وفي ليلة الاحتفال يتم قراءة الهمزية للبوصري طوال الليل، لتفتح المساجد وهي مضاءة للمصلين⁴.

وأيضاً من الأمور التي كانت تجعل الأنظار تتوجه إلى جامع القرويين الإعلان عن بداية ونهاية شهر رمضان، بحيث يقوم الموقتين باعتلاء المنار المحاذي للقرويين عند الغروب ليشهدوا على بداية أو نهاية أي شهر باستعمال الآلات المتاحة، وبمجرد رؤية هلال رمضان يخبرون القاضي الذي يأمر بطلقة مدفعية لإطلاع الناس على الحدث⁵.

وتأخذ مدينة فاس حلة جديدة في هذا الشهر مثل باقي المدن الإسلامية، بتغير نمط حياتها كلياً، فيظهر المسحرون الذين ينبئون الناس باقتراب موعد الإمساك بالقرع على الأبواب وتصحبه بعض السلوكات الاجتماعية في تأخر الناس في النوم، وصرف البعض جزء من الليل أو كله للقاءات والمسامرات، لتغفو المدينة بعد صلاة الفجر، حتى لتبدو في الصباح مهجورة بشوارعها الخالية، ليعود إليها نشاطها حتى تعج بالحركة ويستمر ذلك إلى

¹ محمد المنتصر بالله الكتاني، فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002م ص44.

² لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص877.

³ البردة للإمام البوصيري: (ت 694هـ) "المسماة بالكواكب الدرية في مدح خير البرية" من نظم محمد بن سعيد شرف الدين أبي عبد الله، وبها 162 بيتاً ولقيت عدة شروح. (أنظر: حاجي، كشف...، مج2، ص1331).

⁴ لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص852.

⁵ نفسه، ص842.

ما قبل الأذان، كما يجتهد فيه الناس بالعبادة وقراءة القرآن وإقامة صلاة التراويح ويحتفل فيه بليلة القدر ويتم ختان الأطفال وزيارة الأقارب والأصدقاء وغيرها من الصور¹.

وكان للعلماء حضور قوي في هذا الشهر ففي مدينة فاس تعطى للمساجد الطليعة بمضاعفة إنارتها الليلية² وتطغى عليها دروس نهائية في الوعظ وغيرها، حتى أنه في العهد الوطاسي سن الإمام ابن غازي في هذا الشهر عادة إسماع صحيح البخاري من أوله إلى آخره³، واتخذ مقرا لهذه الدراسة مقصورة الخطيب من جامع القرويين، ليمتد بعدها هذا العمل كعادة في كثير من مدن المغرب وأريافه، في المساجد والرباطات وبلاطات الملوك⁴.

أما حظ المرأة من القرويين فرغم التقاليد الاجتماعية المفروضة على المرأة في هذه الفترة⁵ فقد شاركت الرجل في عدة مجالات منذ المراحل الأولى للدولة الإسلامية ولا تزال فخرجت لتتعلم وتتقنه فاشتهرت نساء فضليات، ويكفي أن المرأة الفاسية كان لها وجود وحضور دائمين وأسهمت بعلمها ومالها، وخير دليل أن أعظم مسجد بفاس كان إنشاءه أولا بفضل الله سبحانه وتعالى ثم إلى تلك المرأة الفاضلة التي وهبت مالها لإنشائه كصدقة جارية عليها إلى يوم الدين، ومنه تم تثقيف عدة سيدات متطلعات⁶.

وكان لهن مكان لأداء فريضة الصلاة بالمسجد من خلال بيت النساء بجامع القرويين وأعد لهن مكان مناسب بالصحن يؤدين فيه شعائرهن، كما خصص لهن بابان بالجامع⁷ ومواقع خاصة ساعدت لحضور المرأة والاستماع مباشرة من كبار المشايخ مثل مبنى الأسبوع الأعلى أو مصرية المفتي لها مدخل خاص من جامع الجنائز وتشرف على أهم

¹ محمد المنوني، "ملاحم عن الحياة المغربية في رمضان"، عن مجلة دعوة الحق، ع9، س14، شوال 1391هـ/ نوفمبر 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971، ص 136-137.

² El-Abbassi, Op.cit, T1, P 167.

³ لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص658.

⁴ المنوني، المقال السابق، ص 136.

⁵ Benoit, Op.cit, P84-86.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 443.

⁷ Chantale de la Véronne, Vie de Moulay Ismâ'il, Roi de Fès et de Maroc, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1974, P 42.

كرسي علمي بالقرويين¹، ومستودع بن عباد الخاص المشرف على كرسي ظهر خصّة العين²، وشاركت الرجل في العلم والتعلم والتعليم وتقديم الآراء في بعض القضايا، وهذا ما سجلته النوازل الحديثية في العهد العلوي ومن أشهرهن الأميرة العالمة الحاجة خناثة صاحبة التعاليق على الحافظ بن حجر والتي حاجت علماء المشرق وصرح بذلك الشيخ عبد القادر الفاسي (ت1091هـ/1680م)³.

2. المركز الاجتماعي لعلماء القرويين:

أ. مكانة العلماء: لقد نقل الكتاني في كتابه فاس عاصمة الأدارسة قول علي بن ميمون في ق10هـ/16م عن علماء فاس فقال: "ما رأيت في سائر مدن المغرب...مثل فاس وعلمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل، وغزر الحفظ لنصوص إمامهم الإمام مالك وحفظ سائر العلوم..."⁴، فهذا الوصف الموجز والبليغ في حق علماء فاس، يجعلهم الروح التي تحرك جسد جامع القرويين بنشاطهم في زواياه واعتلاء منابرهم وإيماء مصليه، ووجب أن نتوسع في التعريف أكثر بهذه الطبقة.

هذه الفئة المهمة بالمجتمع الفاسي نشطت سياسيا فمن داخل جامع القرويين تكتب وتقرأ بيعة تولية السلاطين، لذا تميزوا بقوة الشخصية ويذكر أكنسوس أن السلطان الرشيد عندما بعث في طلب أحد علماء عصره وهو الحسن اليوسي ليقرأ معه بعض الكتب امتنع وأجابه: "العلم يؤتى ولا يأتي"، فأصبح السلطان يتردد عليه وهذا يمثل تلك الهمة التي تعرف للعلم حقه وقدره⁵، فمن يفعل هذا الآن ويعيد للعلم وأهله مكانتهما؟، وتصدروا اجتماعيا واقتصاديا

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 443.

². نفسه، ص 444.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 730.

⁴. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص40.

⁵. أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، ج1، تح: أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1336هـ/1918م، ص 117.

الفتوى في النوازل العارضة في حياة البلاد والعباد وتوجيه الرأي العام¹، لذا كافأهم السلاطين بما يعرف بظواهر التوقير والاحترام.

وهذا لرفع مكانتهم عن العامة، وإسقاط المطالب وتكاليف والوظائف المخزنية عنهم² وتنزيههم عن المسألة أو تباعة من التبعات جلت أم قلت³، فكانت كوثيقة حصانة دبلوماسية مع منحهم امتيازات وعطايا مادية وهبات الملكية، فحرصوا على تجديدها وعمل بها إلى غاية الاستقلال، وكانت هذه الظواهر لبعض العلماء وجميع الأشراف لذا وضع دفتر لإحصائهم⁴، ولمنزلة هؤلاء العلماء فإنه كانت لكل أسرة غنية عالما تتخذة صديقا لها فتعلن وتسر له لتحظى بتوجيهاته وإرشاداته⁵.

وقد تميز علماء القرويين بلباس الجامعي الخاص بهم، وهو كشعار في ذلك يمس المذهب والعقيدة وأيضا يخص المظهر، وأصبح من تقاليدها التي يجب على الدول المتعاقبة احترامها بدقة، لذا نرى العلماء يقبلون جميعهم على البياض وأهمها البرنس الأبيض الذي عدّ لباسا جامعيًا ومن مميزات العلماء، وسنه السلطان أبو يوسف يعقوب المريني يوم الأحد 20 شعبان 684هـ/20 أكتوبر 1285م، فكان علما لهم عكس علماء المشرق الذين تبنوا اللون الأسود، ودعمه الدخول الأندلسي، فتأنق العلماء بوضع قلنسوة حمراء ذات حاشية زرقاء أندلسية على رؤوسهم⁶.

وقد عبر الجزنائي على ما كان يلبسه العلماء فقال: "كسوة تشتمل على برنس وبدن كلاهما أبيض من صوف، وإحرام للتردية، ومنديل للتعمم، ودراعتين وقبطية وشواشية"⁷، حتى وصلت الدرجة إلى أن من يرتديه منهم يعتبر بمثابة حصانة تكسب صاحبها هبة واحترام

¹. Gagne et Nejjar, Op.cit, P 358.

². الإمام أبي المواهب الحسن بن مسعود اليوسي، القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم، تح وت: حميد حماني، ط1، مطبعة شالة، الرباط 1419هـ/1998م، ص 23.

³. ابن زيدان، المنزع اللطيف...، المصدر السابق، ص 120.

⁴. اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 24.

⁵. Jacques Berque, Ulémas, fondateurs, insurges du Maghreb XVII^e siècle, Editions Sindbad, Paris 1982, P 227-229.

⁶. حجي، الحركة الفكرية... المرجع السابق، ج1، ص 53.

⁷. الجزنائي، المصدر السابق، ص 63.

وتحميه من أي اعتداء¹، فهذا القاضي بن أبي النعيم لم ينجّه من سطوة الأعراب سوى لباسه الذي أوضح أنه القاضي عند عودته من زيارته للشيخ المأمون أثناء تسليم العرائش للأسبان في 1019هـ/1610م.

ومن الصفات والسلوكات التي تميزوا بها داخل فاس، بأنهم يظهرون في الشوارع بصورة تبجلها مسحة الوقار والتواضع في المشي، فيسيرون بتّودة دون أن يلتفتوا يمينا أو يسارا، وإذا مرّوا بشخص عادي أو صاحب دكان...، فيلزم هؤلاء الانحناء أو محاولة تقبيل اليد أو على الأقل لمس الكساء، وتقضي الآداب بعدم ظهورهم في الأسواق أو المقاهي أو الحمامات العامة²، فهم بذلك يعيشون في أجواء اجتماعية دينية مميزة، في حين يعطي روم لاندو أحكام شديدة القسوة حول علماء القرويين، فيعتبرهم طبقة تعيش حياة غريبة، ولا يظهرون بمظهر القائد المفكر، مكتفين بكتب القرون الوسطى، وعليه فأفكارهم محافظة لا تقبل التجديد، وهم لا يسايرون العالم إلا بصعوبة³، وتقريبا نفس الشيء عند لوطورنو⁴ هذه نظرة الغربي المتميزة على كل ما له علاقة بالإسلام.

كما تأنقوا في اللباس للخروج للمجالس العلمية كالمسناوي واليوسي عند لقائه بالسلطين⁵ وغيرهم، ولا تكتمل تلك الزينة إلا باستعمال الأطايب فتعطروا بها وتباروا فيها كالعود القماري، مع جواز تهاديه تعبيرا عن حسن القصد ولطف المعشر⁶.

ب. من الألقاب العلمية والدينية:

لقد وشحت كتب التراجم أسماء أساتذة القرويين وغيرهم بالألقاب تجعل القارئ يتساءل على مغزاها، ويتباري هؤلاء العلماء فيها وتكثر وتقل حسب كل صاحب ترجمة، وتنوعت بين ألقاب دينية وعلمية وصوفية فازدانت كتب ابن القاضي والقادري والكتاني وغيرهم بها، وتلك

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 439.

² عبد الله كنون، ذكريات مشاهير، المرجع السابق، ج1، ص 607.

³ روم لاندو، "جامعة القرويين بفاس"، تعريب محمد الخطيب، عن مجلة دعوة الحق، ع1، س2، ربيع الأول 1378هـ/

سبتمبر 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م، ص 27-28.

⁴ لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 665-666.

⁵ اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 459.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 439.

الألقاب التي تصبح صفات على أصحابها، ويحرص هؤلاء المترجمون لشيوخهم على توشيحهم بها وإقرارها عليهم من دينية كالإمام، المحدث، الشيخ، الفقيه، الحافظ، الثقة الراوي، الخطيب...، وعلمية كالعالم، العلامة، الحيسوبي، الفرائضي، المشارك...، صوفية كالعارف، الولي، الزاهد، الورع...

ولكثرتها لم يسعنا المقام في حصرها وشرحها كلها وإنما حسبنا الإشارة إليها والوقوف على بعض منها، فكانت هذه الألقاب في البداية متصلة بأهل الحديث لتتوسع إلى غيرهم ومنها لقب الإمام وهو أسمى الألقاب الدينية والمدنية، وكانوا يطلقونه على المتمكن في علم الحديث بحيث لا يعلى عليه فيه، وأصبح فيه قدوة يحتذى ومرجعا يحتج به كالإمام مالك والبخاري وأحمد بن حنبل، ثم أصبح هذا اللقب يمنح لكل عالم مبرز في علمه¹.

أما لقب المحدث فإنه يطلق على العالم المختص بدراسة الحديث متنا وإسنادا، يقول تاج الدين السبكي إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة وسمع الكتب الستة ومسند الإمام ابن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني²، ومن زاد بالتوسع والضبط في أهل الرواية والدراية فذاك هو الحافظ³ من أسمى الدرجات عند المحدثين، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، ويعتبر المسند أدنى مراتب المحدثين وأقل درجاتهم وألقابهم⁴، وأطلق على من توسع في الرواية وحصل الكثير من المساند والفهارس واتصل بها عن أئمة المشرق والمغرب من أهل هذا الشأن⁵.

ويطلق على من حفظ سند الحديث بالعالم الذي يعلم المتن والإسناد جميعا، كما يكون الحافظ الكامل، والفقيه الذي يعرف المتن ولا يعرف الإسناد، والراوي الذي يعرف المتن ولا

¹ الشريف تقي الدين الهلالي، "عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1667، ص32.

² نفسه، ص33.

³ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيكات والمسلسلات، اعتني به: إحسان عباس، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، ص76.

⁴ تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص32.

⁵ بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ص71.

يعرف الإسناد¹، قال عنها اليوسي في القانون تطلق عبارة الحافظ من كان ظاهرة من التحصيل أي سعة الملكة وهو العلم، لكثرة ما جمع في تصنيفه أو درسه من العلم، والنقول الكثيرة والمسائل الغريبة، لذا يعتمد تارة على ما في صدره من حفظ وتارة ما جمعه من الدواوين الكثيرة التي اطلع عليها فله فضل المطالعة والممارسة، وللوقوف على كل غريب مع مكابدة الترتيب وحسن الترصيف، وإلا كان حاله السلخ من الدواوين الكثيرة فقط بحيث لا فضل له كما قيل:

إنما الصولى شيخ *** أعلم الناس خزانة

أرسلناه بعلم *** طلبا منه الإبانة

قال ياغلماں هاتوا *** رزمة العلم الفلانة

والعالم لفظ مشتق من العلم، لذا من له علم فيجب أن يكون عالما، والعلم مأخوذ بحصول الملكة المبينة على الإدراك، والعالم من له علم في فن معين، وقد يكون له بعض من فقه نحو، كلام، يضاف إلى فنه لذا يذهب العلماء إلى ذلك بتسميته بتلك الفنون فيقال: متكلم فقيه، نحوي، وقد جرى اصطلاح المتأخرين فيمن جمع الفنون المختلفة أن يقال له علامة². أما لقب الثقة له معنيان عدل ضابط أي حديثه صحيح مقبول وعدل فقط لم يكن حديثه مقبول، فالضبط شرط في قبول حديث الراوي والعدالة وحدها لا تكفي³ وتثبت عدالة الراوي بإسلامه وعلمه، فهو عدل حتى يتبين خلافه بظهور جرح فيه⁴. والثقة في القول والضابط في النقل⁵، ومن الألقاب القاضي، المدرس، المفتي الخطيب، الواعظ، المحقق، المحرر... ومن الألقاب الصوفية التي حملها العلماء بالقرويين مثل لقب العابد ويغلب على حامله العمل الصالح قولاً وفعلاً، والزاهد من ترك الدنيا وملذاتها، والعارف من عرف بالعبودية والقيام بين يدي الله بلا علاقة⁶.

¹ بن عبد الكبير الكتاني، المصدر السابق، ص 72.

² اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 322-326.

³ معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الديباجة في علم الحديث، ط1، دار الكوثر، القاهرة 2009م، ص 10.

⁴ نفسه، ص 59-60.

⁵ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 99.

⁶ اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 200.

ومن الملاحظ أن تلك الألقاب غالبيتها متصلة بالجانب الديني لأن التكوين في هذه الفترة كان مبنيًا عليها فهي سمة العصر، فتلكم قليل من الألقاب التي حملها العلماء في هذه الفترة من التاريخ وقد ذكرت في كتب التراجم كما قلنا العديد منها فازها العلماء بتمكنهم وتضلّعهم في مختلف الفنون من العلوم التي خولت لهم الحصول عليها بكل جدارة.

ج. علاقات العلماء فيما بينهم: ربطت العلماء فيما بينهم علاقات تميزت بين الود والخلاف والصداقة والمنافسة، لارتباط هذا الأمر بطبيعة النفس البشرية التي ابتليت بذلك، فاحتوى بعض من العلماء بنارها، وليس غرضنا تتبع عوراتهم وهفواتهم للقدح فيها، لأن لحومهم مسمومة كما في الأثر، بقدر ما نحاول إجلاء صورة، فاحتوت دفف الكتب العديد من المنافسات التي كانت بين العلماء، وهذا التنافس تارة من أجل التمتع بالامتيازات وأخرى للوصول للمناصب، وعلى إثر ذلك تم التضحية بخيرة الأفراد أحيانًا.

وقد تطرق الافراني في حديثه عن شيخه الهبطي والامتحان الذي وقع فيه من وراء جدال أثاره أبو علي الخروبي الطرابلسي، ليجد تصادمًا وتجادبًا بين علماء فاس، فتحيز اليستيني مع عصبته وتلميذه السلطان محمد الشيخ ضد الهبطي، فأقاموا له محاكمة شكلية حاك أدوارها اليستيني، جعلت الهبطي يمضى على ما اتفق عليه السلطان وأستاذه، فحمل الافراني سبب وفاة شيخه لليستيني¹.

والمنافسة الكبيرة بين القاضي الفقيه العالم عبد الواحد بن أحمد الحميدي وعدة علماء من فاس بسبب عدم إتباعه الشرع، والحكم حسب هواه مما جعله يكسب ثروة كبيرة²، مع العديد من الخصوم كالشيخ المنجور الذي قدمه في إحدى المرات السلطان أحمد المنصور ليؤمهم في الصلاة، وعندما همّ بدخول المحراب منعه الحميدي، فقال له السلطان دعه فقد قدمه علمه، فرد عليه: "لأن قدمه علمه فقد أخره نسبه" وذلك قدحا في انتمائه العرقي إلى اليهود

¹. بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 104.
². نفسه، ص 104.

الذين أسلموا في فاس وأطلق عليهم اسم الإسلاميين، البلديين والمهاجرين (يعني التاركين لدينهم)¹.

ومنافسته مع أحمد بن علي الأزموري الذي وصفه بالجهل مع شيخه، كما هجاه عبد الرحمن بن إبراهيم المشنترائي عندما توفي سنة 1003هـ/1594م بقوله:

تولى الحميدي وأحزابه *** وأيام دولتهم الغاوية
ومات وخفت موازينه *** وصار إلى أمه الهاوية

وقال اليوسي في باب التنافس: "وليس ببدع فما زال هذا الجنس يتحاملون على من توسموا فيه شفوفا عليهم أو مزاحمة في رفعة أو حظ"، واستدل عن ذلك ببيت لأبي الأسود الدؤلي:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها *** حسداً وبغياً إنه لدميم²

وقد دخل هذا الأخير في خلاف ظاهر مع كل من محمد بن الحسن المجاصي³ وعبد الملك بن محمد التاجموعي (ت. 1118هـ/6-1707م) حول قضية العكاكزة التي أنزلها كفتوى عليهم السلطان الرشيد، واختلفت الفتاوى الصادرة حولها⁴، وكانت كمشاجرة علمية ومناظرة فقهية أظهرت الخلافات الخفية التي كانت ناشبة بين هؤلاء الأعلام، وسوء الفهم أيضا أدى إلى المشاحنة والمباغضة كلامية بين اليوسي وبعض الأطراف كقاضي الجماعة العربي بن أحمد بردلة وأحمد بن الحاج الفاسي لتخلفهم عن مجلسه فأنشد وقال:

ما أنصفت فاس ولا أعلامها *** ولا عرفوا جلالة منصبي

لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا *** راعي السنين إلى الغمام الصيب

وأجابه عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي:

بل أنصفت فاس ومن إنصافها *** أبدا سقوط المدعي والمعجب

¹. الافراني، نزهة الحادي، المصدر السابق، ص 260-270.

². نفسه، ص 295.

³. محمد بن الحسن المجاصي: القاضي الفقيه العلامة المدرس المفتي الخطيب الواعظ المحقق المحرر الحافظ، ولي القضاء بفاس في 1079هـ، ثم خطبة القرويين في 1084هـ، ليعزل عنها في 1088هـ، ليتوجه نحو التدريس بالقرويين ليولي قضاء مكناسة حتى توفي بها في 4 ربيع الأول 1103هـ. (ينظر: محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب (1101-1120هـ)، ج 5، ط 1 دار الغرب الإسلامي، بيروت 1417هـ/1996م، ص 1823).

⁴. النجمي، المقال السابق، ص 97.

تتفي الدجاجل عاجلا أو آجلا *** منها فهي طريدة من يثرب.¹
ليعتذر بعدها الحسن اليوسي في كتابه المحاضرات على البيتين اللذين هجا فيهما من تأخر
على مجلسه من أهل فاس، بقوله: " لكن للنفس فرطات، ولا بد لها أحيانا من سقطات"².
ونفس الشيء تعرض له الشيخ محمد المسناوي الدلائي، عندما همّ بالجلوس على كرسي
التدريس وجد قصاصة كتب عليها البيت التالي:

وكنتم أرى زيدا كما قيل سيذا *** إذا إنه عبد الفقاه واللاهزم

فعندما استوى على كرسيه استرجل بنظمه وأجابهم فقال:

أيا من رمانى باليراعة واختفى *** ولم يتعرض للقنا والصوارم

هلم إلى الميدان إن كنت فارسا *** لتتظر من عبد الفقاه واللاهزم³.

وكذلك ما كان بين القاضي العربي بن عبد السلام بن إبراهيم بردلة والمفتي عبد الواحد
بن محمد بن أبي عنان، من مشاحنة حول تولي مناصب الخطبة والإمامة بالقرويين، فاعتتم
الأخير ما قام به بردلة من تحويل سارية بالقرويين، فسعى لدى السلطان إسماعيل في عزله
بإنشاء وثيقة ممضي فيها خمسة وسبعون رجلا كشهادة لفيف ضد بردلة على أنه مريض
بعدم حبس الاستبراء فتم عزله، وتولية المفتي مكانه في خطبه⁴.

ليتصعد الأمر في عهد السلطان سليمان بين القاضي أبي الفضل عباس بن أحمد
التاودي المفتي أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الدكالي في قضية الأشراف، التي انتهت إلى
السلطان المذكور فأخر المفتي عن الفتوى فتعصب جماعة من المدرسين وطلبة العلم ضد
القاضي ورفعوا رسما وقصيدة للسلطان إلا أنه لم يأبه بها على أساس أنها منافسة بين
الأقران، مما جعل الأمر يتصعد إلى محاولة قتل انتهت بعزل القاضي وتولية آخر في عهد
السلطان عبد الرحمن بن هشام⁵.

¹ النجمي، المقال السابق، ص 95-99.

² محمد بن عبد السلام بن عبد الرحمن السائح، المنتخبات العبقريّة، المطبعة الرسمية، الرباط 1920م، ص 53.

³ كنون، المرجع السابق، ج 1، ص 607.

⁴ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج 2، ص 312.

⁵ الناصري، المصدر السابق، ج 7، ص 184-185.

هذا لا يعني أنه لم تكن هناك صداقات بين العلماء ومودة بينهم بالعكس فنجد من الأمثلة الكثير ولكن نأتي على بعض منها على سبيل الاستشهاد، مثل توسط الشيخ رضوان الجنوي عند المعتصم لفك أسر السجين الفقيه عبد الواحد بن أحمد الحميدي¹، كما تدخل أيضا عدة مرات لصالح أحمد بن عبد الرحمن سقين عندما تم اغتصاب بستانه الذي يعتاش منه من طرف قائد قواد الأمير²، وكذا الصداقة التي ربطت أحمد المقري مع أبي النعيم وظهرت في المجلس العلمي المشترك بينهما، والصداقة الدراسة بين أكنسوس وابن إدريس. كما وصلت العلاقات لدرجة سامية من التقدير بربط علاقات اجتماعية كالمصاهرة مثل الشيخ أبي النعيم رضوان زوج ابنته من تلميذه عبد الواحد المخلوفي الذي لازمه طويلا³ وصاهر الشيخ يحيى السراج تلميذه الفقيه محمد بن عبد الحليم الحضري السبتي⁴، والبعض أدخل نفعا ماديا أو قدرا ومستقبلا حافلا، فهذا أبو القاسم الزياتي الذي أوصي على أكنسوس وابن إدريس فأصبحا من رجال البلاط في العهد السلیماني والذي يليه.

د. العلماء والجوائح والفتن:

من الأمور التي أثرت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية تلك الجوائح والفتن التي ضربت المغرب، فأتت على العام والخاص، كظهور الخطر الخارجي على السواحل واحتلاله لعدة ثغور، فحركات تلك الهجمة نخبة من العلماء فمنهم من قام بالمرابطة وحمل السلاح مع طلبته، ومن شحذ هم الناس للجهاد تأليفا ومجالسا، كنداء الشيخ أبي العباس أحمد بن إدريس العمراني، فانصرف علماء القرويين للحرب على حساب الدرس، لتمتد هذه الحرب يدها إلى مداخل أوقاف القرويين لتجهيز الأساطيل والكتائب وتشديد الحصون⁵ فأعطى العلماء أعظم صورة ومثال فيها في رد العدو ومطارته، كأبي المحاسن الفاسي،...

¹ .الافراني، المصدر السابق، ص 258.

² .بوشنتوف، المقال السابق، ص 58.

³ .القادري، نشر المثاني، المصدر السابق، ج 1، ص 39.

⁴ .نفسه، ص 174.

⁵ .التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 2، ص 442.

ويضاف إلى ذلك الأوبئة والجوائح التي لم يسلم منها رجال القرويين حيث حصدت جمعا كبيرا منهم، فما بين ق16-17م ضربت العديد من الأوبئة قطاعون سنة 1006هـ/1579م الذي قال فيه صاحب الفوائد الجمة أن أهل فاس صبروا وسلموا أمرهم لربهم¹، لتتوالى الكوارث والفتن الماحقة خاصة بعد 1012هـ/1603م على إثر وفاة السلطان المنصور موبوءا²، وحصيلة طاعون سنة 1089هـ/1678م الذي راح ضحيته العديد من الفقهاء كالفقيه العالم محمد العربي بن محمد بن محمد بن أبي عنان، والفقيه سعيد السوسي، الفقيه عبد الرحمن بن محمد الصداري، الفقيه عبد المالك الدراوي...³.

وقد عبر د. محمد منصور على حالة المغرب نهاية ق18م بداية ق19م من خلال الكناشة عاد إليها لصاحبها ابن حلام الذي تتبع وتصور لنا الواقع الاجتماعي والاقتصادي المضطرب بالمغرب بسبب الأزمات السياسية ووطأة الأوبئة كطواعن 1798م حتى 1820م التي أتت على نسبة هامة من السكان ومنهم العلماء⁴، فولى السلطان سليمان على القضاء والشهادة من الشباب، فرأت فاس في القاضي العباس بن سودة أنه من الأحداث، بالرغم من سنه البالغ 29 سنة أثناء التولية في 1819م⁵، وهذا ربما يعود لتلك الموجات التي حصدت العديد من رجال العلم، إلى جانب سياسة السلطان الرامية إلى تجديد المجتمع بتخليصه مما هو غارق فيه من أفكار بعيدة عن الدين بتأسيس نخبة جديدة تكون عون له.

فأدى ذلك لنكسة ثقافية حقيقية بالمغرب، لفقدان حلقة من حلقات الوصل بين الأجيال فوصلت المنطقة في بداية ق13هـ/19م إلى مرحلة لا رجعة من حيث الأفكار المنتشرة في الأوساط العامة، مع تناقص تعداد العلماء وأيضا ارتفاع نسبة من هم موالون للصوفية أكثر من الوسطية، حتى سمي الاستعمار الفرنسي هذا الجامع بالبيت المظلم.

¹ أبي زيد عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق: اليزيد الراضي، ط2، دار الكتب العلمية بيروت 1428هـ/2007م، ص110.

² كريم، المرجع السابق، ص298.

³ القادري، نشر المثاني، ج2، المصدر السابق، ص247-251.

⁴ محمد منصور، "مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع ق19: كناشة المشاط"، عن متنوعات محمد حجي، ط1، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص49.

⁵ نفسه، ص50.

ثانيا. الحياة الاقتصادية:

يعتبر الجانب الاقتصادي مرتبطا مباشرة بالوضع الاجتماعي، لأنه نتيجة له من خلال النشاط الذي يمارسه الفرد سواء بمفرده أو وسط جماعة في جو من المنافسة بين الأنشطة الواحدة أو حتى بين التركيبة الأثنية، إلى جانب ذلك الاحتكاك عن طريق البيع والشراء تنتج عنه نزاعات وخصومات تصل لحد المشاجرات بين الأطراف بسبب إخلال أحدهم في بنود البيع أو الشراء أو ما دون ذلك، مما يجعلها كنوازل تتوجه إلى علماء القرويين للرد عنها وإيجاد حل شرعي ومخرج لها.

1. الواقع الاقتصادي بفاس:

أ. النشاط الاقتصادي: منذ بداية تأسيس مدينة فاس، قام إدريس الثاني بإنزال القبائل في أماكن مخصصة لهم، وجعل لكل حي نشاط وسوق خاصا به، لا يمكنه أن يتعدّها إلى حرفة أو نشاط آخر، لقطع دابر الفتن داخل المدينة بين تلك المهن والحرف، فتوزع الناس داخلها على هذا الأساس، ووضع على رأس كل حرفة أو مهنة شخص منهم يعرف بالأمين المقدم، العريف أو الرئيس يكون تعيينه من قبل القاضي، ومن مهامه فك النزاعات بين أهل الصنعة الواحدة الخاضعة لنظره، ويساعد الدولة في كشف أساليب الغش والتدليس للصناع لذا يتعين أن يكون من أهل الحذق في مهمته، فوفرت منتجات للمدينة¹.

احتوت فاس على مئات المشاغل والمعامل فقد قدرت في عهد الخليفة الموحي الناصر ما تعداده 3064 موضعا للحياكة لوفرة الكتان والقطن والصوف، وأنتجت عدة أنواع من شقق القماش باختلاف مصادره، واستخدمت في تغطية صحن جامع القرويين، ودور الغزل وصلت إلى 141 دار، التي تنوع معها قماش الملابس ما بين قطني، كتاني... وانتشار صباغة لتلوين الأقمشة كالأرجواني والقرمزي...².

¹. El-Abbassi, Op.cit, T1, P124.

². الجزنائي، المصدر السابق، ص 44.

إلى جانب مهن وحرف أخرى كحرفة النجارة التي أنتجت عدة لوازم للدور والمساجد وغيرها من أعمدة الأسقف، نوافذ، أبواب، منابر وأثاث برعت فيه أنامل النقاش فأنتجوا تحفا فنية مليئة بالزخرفة¹، كما طليت تلك المصنوعات الخشبية بالقصدير والأصباغ الملونة كالأسقف الخشبية، والأبواب المغشية بالنحاس الأصفر، والمنابر بالعاج وال نارنج والعناب...، وأصناف الخشب²، وهي نماذج كلها نجدها شاخصة في جامع القرويين بفاس عبر مرّ الدول المتعاقبة عليه التي تركت بصماتها في هيكله الخارجي ورونقه الداخلي الراقي³.

واستخراج الفضة والحديد والنحاس حتى كان بها 12 دارا لتلك الصناعة أنتجت أسواقا للحدادين الذين ساهموا بمنتجاتهم في سد حاجيات السكان اليومية، من مسامير وزكاريوم ومفاصل للأبواب وأقفال، أدوات الخياطة فتنوعت بين المدنية والعسكرية⁴، كمد قنوات المياه والرصاص للقواديس الخاصة بالبيلات والخصات وتلبيس الصهاريج، والنحاس في صناعة الخصات والأنابيب التي تصب الماء، وما أدخله الوافدون عليها عبر مختلف الحقب وخاصة من الأندلس والشرق من تقنيات وطباع وعادات أثرت الحياة الاقتصادية في العهد السعدي⁵، وكلها تحتوي على اللمسة الفنية التي كان يملكها حرفي وفني ذلك العصر.

حتى أن ابن أبي زرع والجزنائي قدرا عدد الأجر الذي دخل في إعادة ترميم صحن المسجد إلى ما يربو عن 52 ألف حجرة آجر⁶ مصنوعة محليا في فاس من خلال معاملها التي وصلت إلى 188 معمل للفخار وكذا الصناعات الزجاجية التي اشتهرت بها وعددها 11 معملا، فبرعوا في صناعة أشكال وأحجام مختلفة من الزجاج ذات الألوان المتعددة، ومنه ما ركب في الشماسيات أو قوارير الزجاج المسرجة للإنارة⁷ وصنع القنادل وأفاريز وثريات

¹ ينظر الملحق الثاني، مختلف الصور المعبرة عن براعة وإبداع حرفي ومهني فاس، ص ص 444-454 .

² أحمد طه، المرجع السابق، ص 215.

³ ينظر الملحق الثاني، صورتان رقم 12، 17. الخاصتان بذلك ص 446-451 .

⁴ الجزنائي، المصدر السابق، ص 44.

⁵ حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 52.

⁶ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 36.

⁷ الجزنائي، المصدر السابق، ص 44.

الإنارة لداخل الجامع¹، وحافظ الفاسيون على هذه المهن والحرف من خلال عمليات الترميم التي طالت الجامع منذ نشأته فتعهدوا بإبقائه دائما حلة معمارية جميلة متراسة واحتوى على تجهيزات تم صنعها في فترات مختلفة حسب تعاقب الدول، وهذا لميزة مشرفة له ولفاس فاجتمعت فيه عصارة كل الحقب سواء داخل الجامع أو خارجه.

ب. **الأسواق بفاس:** وتطرقنا سابقا أن عند تأسيس فاس تم تقسيمها إلى أسواق ذات حرف ومهن متخصصة، مضبوطة في معاملاتها بالشرع²، ومراكزها عرفت بالقيسارية التي تضم عددا من الأسواق المتخصصة، ففي 523هـ/1138م كانت تمتد من رأس عقبة الخرازين حيث سوق الثياب والقرافين للبقالين وغيرها³، ويورد ابن أبي زرع على وجود قيسارييتين إحداهما بعدوة الأندلس والأخرى بالقرويين، لتصل عدد الحوانيت بفاس إلى 9082 حانوت⁴ وقد فصل فيها الوزن في وصفه في ق 9هـ/15م واصفا إياها بالمدينة الصغيرة التي تحيط بها الأسوار وتضم خمسة عشر حيا، اثنان مخصصان لصناعة أحذية أعيان البلد، وحيان آخران لتجارة الأقمشة الحريرية، إلى آخره من الأحياء التي اختصت بنوع معين من المنتجات التسويقية⁵.

ليأتي بعده مارمول بنصف قرن يؤكد ذلك وأضاف عليه حي لبيع القماش البالي وأغطية الرأس والزرابي الفخمة من كل الأحجام والأنواع، وعددا من الدكاكين لبيع الضفائر والأزرار⁶ ونفس الشيء عند علي باي العباسي في ق 19م⁷، ومن خلال أسواقها هي اليوم مدينة أقرب للمتاهة ولكن وسط الدكاكين، وزائرها لا يدري من أي جهة دخل وإلى أي نقطة سيخرج وكيف يعود لنقطته الأولى إلا إذا كان مسلحا بدليل فاسي، عكس قصبة الجزائر أو تونس.

¹. أحمد طه، المرجع السابق، ص 218.

². كريم، المرجع السابق، ص 262.

³. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج 5، ص 410.

⁴. ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 48.

⁵. الوزن، المصدر السابق، ج 1، ص 240-241.

⁶. مارمول، المصدر السابق، ج 2، ص 148-149.

⁷. El-Abbassi, Op.cit, T1, P124.

وبروج التجارة بفاس ظهرت طبقة غنية من التجار، استغلتها السلطة الحاكمة في تمويل مشاريعها مثل حملة السلطان المنصور على بلاد السودان، فزادت الثروة بتنوع المنتجات الوافدة من السودان¹، ودفع الملك عبد الملك في 983هـ/1575م تكاليف الحملة الجزائرية مقدر بأربعمائة أوقية استلفها من كبراء فاس وأعطاهم مبلغ خمسمائة ألف²، ولكن الأمر المهم في كل هذا العرض هو أن جزء كبير من تلك الأسواق ومحلاتها بفاس هي عقارات موقوفة أو محبسة لجهات خيرية، وأهمها تابعة لجامع القرويين، لذا فإنها وفرت دخل مادي لأصحابها الذين اكتروها وللجهة المحبسة، فكان القرويين من بين المؤسسات الأكثر ثروة بفاس وطرح جزء منها على علماء الجامعة.

2. المركز الاقتصادي لعلماء القرويين:

أ. الموارد المالية والإنعامات: إن حزم الملوك السعديين والعلويين في المحافظة على الأوقاف من الضياع، القصد منه الحفاظ على الهياكل الدينية ومن يسيرها ويشرف عليها وهم غالبيتهم في زمرة العلماء، ومنه حتى لا تشعر هذه الفئة الاجتماعية من حرج السؤال فقد خصصت لها أسهم من تلك الأوقاف لسد الحاجة، وجعلوا سكنى الأساتذة مجانية بالمدارس³ أو بالعقارات المحبسة وخصهم الملوك بأسمى العطايا، ومنحهم مرتبات منتظمة وجرايات في المناسبات والأعياد الشرعية والزيارات⁴، وتباروا في ذلك فمنح السعديون المئات وفي عهد المنصور الآلاف، وكذا العلويون كالرشيد وإسماعيل وغيرهم الكثيرين الذين سعوا لكي يهتم العلماء بنشر رسالتهم ويكفوهم مد اليد⁵.

وهذا السلطان محمد بن عبد الله يهب لجماعة من علماء فاس مائة مثقال لكل واحد منهم بواسطة قائدها محمد الصفار وهم القاضي عبد الله بن العربي بوخريس (ت1188هـ) ومحمد

¹. El-Abbassi, Op.cit, T1, P 125.

². الافراني، نزهة الحادي...، المصدر السابق، ص 125-126.

³. Gagne et Nejjar, Op.cit, P 358.

⁴. بن زيدان، العز والصولة، المصدر السابق، ج2، ص 163.

⁵. Terrasse, Histoire, T2, Op.cit, P296.

التاودي بن سودة (ت1209هـ) وعمر الفاسي (ت1188هـ) وإدريس العراقي (ت1183هـ) وغيرهم من علماء فاس، كما خصص للأخير منهم مبلغ خمسمائة درهم سنوياً¹.

وقد أورد الونشريسي في معياره، كيفية تقسيم أموال الأوقاف وتوزيعها على مستحقيها فبعد جمع المداخل الكرائية الشهرية والسنوية والمعاوضات، تجمع كلها في وثيقة عدلية مختومة لتصبح واحدة ومنها يمنح لكل حقه²، في حين حسن الوزان قسمها إلى رواتب قارة للقباض وكتاب وأعوانه ورواتب مختلفة حسب الإيرادات بالنسبة للمساعدين وهي في جملتها 5%³ ووصلت مداخل القباض الشهرية إلى 7.6 أوقية⁴.

وقد كثرت اجتهادات المغاربة في العهد السعودي وبعده، بتنوع مسائل العمل، حتى دخلت الفقه في النوازل وجمع عبد الرحمن الفاسي نهاية القرن 11هـ/17م عدداً وافراً من تلك الاجتهادات في كتابه "العمل الفاسي"، وحسب السجلماسي شارح العمل فإنه أورد كيفية أداء الرواتب الخاصة بمسيرى أحباس جامع القرويين⁵، بأخذ الناظر خمس المبلغ المجموع شهرياً المقدر تقريباً بـ20%، ويطرحه على نفسه ومساعديه من قباض وفراض والكاتب المكلف بالزمام الأكبر والشهود، كل حسب قدره في هذا العمل⁶، أما الباقي والمقدر بـ80% فيصرف في مصالح الحبس، من ترميم تصليح ودفع ما خصص للعلماء منه سواء وقف الكراسي أو الكتب المدروسة أو الخاصة بجامع القرويين وموظفيه⁷.

وقد أورد ابن زيدان فيما كان يتحصل عليه العلماء من مرتب وإنعامات سنوية من خزينة الدولة أو من الأحباس إما مشاهرة أو مسانهة أو عند رأس كل ستة أشهر، فالمسانهة يمنح لهم ثور وثلاث قلال زيتا، ووسق من القمح الجيد، وكسوة فيها كساء وبرنس وقميص وقفطان

¹ العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 290-291.

² أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ج7، إخراج جماعة فقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1401هـ/1981م، ص 302.

³ الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 225.

⁴ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 508.

⁵ محمد بن القاسم السجلماسي، شرح العمل الفاسي، مخطوط مصور بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات تحت رقم 5288ت 3/1131 بالرباط، و 21.

⁶ Berque, Ulémas., Op.cit, P226.

⁷ ينظر الملحق الثالث، جدول رقم 29 يوضح قنوات صرف مال احباس القرويين، ص 464.

ملفا وفرجية وعمامة، ونصف هذه قيمة يأخذها رأس كل ستة أشهر، وكان دفع الثور والقمح غالبا عند الحصاد، والكسوة في الشتاء، وإذا حدث تراخي فيتم التعجيل في دفع ما تأخر لهم¹ إلى جانب ذلك فقد تمتعوا بحق السكن مجانا لإلزاميتهم البقاء في فاس، كما أورد ذلك الحرشاوي أحد علماء الجزائر الذين درسوا في فاس في القرن التاسع عشر².

ب. رواتب الأساتذة: وكانت مرتبات المدرسين بجامع القرويين مختلفة حسب المواد المدرسة، وقد أشار الوزان أن بعض العلوم لا يتولاها إلا أهل الاختصاص المتضلعين ويتقاضون عن دروسهم مبالغ مالية عالية³، كمدرسي القفه من "ابن الحاجب"، "الفرعي" "مختصر خليل"، وكان أساتذتها من الطبقة الأولى الملقبين بالعلماء الكبار الذين لهم الحق في الحصول على كرسي، ومرتبات متوسطة لتدريس العلوم كالمنطق وعلم الفرائض والنحو والصرف والعقائد...، وهناك مواد ذات رواتب منخفضة كالنحو من مادة التصريف والأجرومية، ومنحت للأساتذة الجدد⁴.

كما أنه لم تسعفنا المصادر والمراجع التي عدنا إليها على إعطاء عدد يضبط الأساتذة الذين درسوا بجامعة القرويين مع فروعها، باعتبار أن بعضهم شغل أكثر من كرسي ولمدة غير محدودة، ولكن تبقى دائما تلك الإحصائيات تقريبية فهناك من يقدرهم بـ40 أستاذ⁵ ويوصلهم آخر إلى 150 في أوج عطائها، ليعود ويخفضهم إلى 32 أستاذ في فترة ركودها⁶، وهم على خمس درجات لكل درجة راتبها وعطاياها، ففي الأعياد الثلاثة يتقاضى أستاذ الدرجة الأولى 4 ريالات والثانية 3 ريالات والثالثة 2 والرابعة ريال مع الخامسة⁷.

ويجعل بنعبد الله مرتبات الأساتذة في ق19م من المخزن متراوحة بين خمس عشرة أوقية ومائتي مثقال في الشهر، إلى جانب تقاضيتهم أجورا من الأوقاف ضمن وظائف الخطابة والإمامة وقراءة الحزب وبعض الكراسي، ليصل بعضهم إلى ألف مثقال شهريا، بالإضافة

¹ عبد الرحمن بن زيدان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج 2، المطبعة الملكية، الرباط 1382هـ/1962م، ص 163.

² السايح، " الفكر المغربي ..."، المقال السابق، ص 35.

³ الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 224.

⁴ لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 664.

⁵ Champion, Op.cit, P 38.

⁶ Benoit, Op.cit, P92.

⁷ لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 662.

إلى هدايا المخزن وخلع السلطان بمناسبة الأعياد¹، فكان السلطان محمد بن عبد الله يقدم الصلوات للطلبة والمؤذنين والقراء والأئمة عند كل عيد².

وكان راتب إمام جامع القرويين وخطيبه يفوق ما سواه، فقد تقاضى في 1037هـ/1627م مبلغ 30 أوقية³، ليصل في نصف الثاني من 19م إلى مابين ثمانين إلى مائة ريال شهريا في الصيف، ومن أربعين إلى خمسين ريال في الشتاء من مداخيل الأحباس الموقوفة عليه⁴ فنلاحظ أنها تراجعت بدرجة كبيرة أما الرواتب العينية كالقمح فأستاذ الدرجة الأولى له 90 مد والثانية 60 مد والثالثة 45 مد والرابعة 30 مد والخامسة 15 مد⁵.

وعليه يمكن القول أن أساتذة القرويين في العهدين السعدي والعلوي، قد عاشوا في رخاء وسعة، حتى بنو الدور الفخمة وامتلكوا الجنات والحقول وقدموا الهبات السنوية للطلبة والفقراء وظهر عليهم الثراء مما امتلكته أسرهم، حسبما أشار إليه الأفراني على بنت القاضي عبد الواحد الحميدي⁶، ولكن هذه ليست قاعدة قارة، فقد تراجعت بشكل كبير في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام، وكل هذا خدمة للدين والإنسان والسلطان وحفظ الأوطان.

¹ بن عبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 639.

² بن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام...، المصدر السابق، ج6، ص 129.

³ ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم7. ظهير لسلطان بن زغودة السعدي حول احباس إمام القرويين، ص 440.

⁴ لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 840.

⁵ نفسه، ص 662.

⁶ الأفراني، المصدر السابق، ص 183.

ثالثاً. الهيكلية العامة لإدارة وتسيير القرويين

ولتسيير القرويين وضعت هيكلية إدارية تشرف على السير الحسن له في إطار أنه مؤسسة أو بالأحرى جامعة إسلامية والتي ينزل فيها الطلبة للتزود بمختلف العلوم، ومن هذه الهيكلية:

1. القائمون بالوظائف الإدارية:

احتوى القرويين على عدة أجهزة تديرها هيئة فاعلة داخله ارتبطت تسميتها بوظائف دينية ذات صلاحيات إدارية وشملت أئمة، مؤذنين، موقتين، خطباء، علماء، فقهاء، مفتيين مستشارين نظار، وكلاء ومشرفين وتمثلت في الهيئات التالية:

أ. **هيئة الإدارية:** وهي الهيئة التي أشرفت على الجامع وضمت القضاة والنظار وأعوانهم: * **رئيس الجامعة:** أسندت رئاسة أكبر مركز علمي، لقاضي جماعة فاس وهو إمام الفقهاء وشيخ الجماعة وقيوم العلماء بالمغرب¹، وتشتمل هذه الرئاسة النواحي: الدينية، التعليمية والمالية للجامع، ومنح له بيت على مقربة منه، وهو من موظفي الدولة، حتى أن أحداث الجامعة لا تؤرخ إلا بأيام القضاة²، وهذا المنصب في العهد السعدي لا يتولاه إلا أكابر الفقهاء بظهير سلطاني³، ويختار بعدة شروط كالورع، سعة الثقافة⁴، غير أن هذه القاعدة ليست قارة فقد يشذ عنها أحيانا بأن يضاف شرط الغنى حتى لا يمد بصره كما قاله ابن القاضي في تولية القضاة من غير العلماء⁵.

ومن مهامه الإشراف على الأحباس لحرمتها الدينية، فالظواهر التي يصدرها الملوك تراعي هذا الجانب كظهير تعيين أبي العباس القاسم بن سودة (ت1004هـ/1595م) والقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم (ت1032هـ/1622م) من طرف السلطان أحمد المنصور⁶، فتمتع القاضي بتعيين النظار والعدول ومراقبهم، كما يصادق على الميزانية

¹. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص313.

². نفسه، ص 132.

³. حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 117.

⁴. بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 90.

⁵. ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج1، ص167.

⁶. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 53-54.

ويرشح الأساتذة للكراسي العلمية ويعين الأئمة والخطباء، فيرعى شؤونهم ويوزع الأوقاف عليهم حسب مؤهلاتهم¹، كما يعتبر القاضي أحد أعضاء هيئة التدريس بالقرويين².

*. القيم: وللتسيير الحسن لبعض المرافق وجد منصب تحت اسم القيم، الذي ارتبط بعدة مناصب، فكل مدرسة قيم يضبط أحوالها وينظم الدراسة وقبول طلبتها، وقيم الدراسة وقيم الفن، وقيم الكتاب وقيم المذهب مثل الإمام المشنترائي (962هـ/1554م) قيم على الرسالة السراج (1007هـ/1598م) قيم على مختصر خليل، وقيم الخزانة³.

هذا الأخير الذي عرف باسم محافظ الخزانة، وقد اختير من صف العلماء ذوي الكفاءة والدراية والنزاهة والأمانة والإطلاع الواسع والتضلع في العلم واللغة والأدب⁴، وما تزخر به المكتبات المغربية عامة والقرويين خاصة⁵ يعود الفضل فيه إلى جهود هؤلاء العلماء الذين اعتنوا بالتراث، وحافظوا عليه، ومنهم: محمد بن أحمد الفاسي، محمد الطيب بن عبد السلام القادري، محمد بن التهامي الوزاني...⁶.

ومن مهام القيم ضبط وتنظيم شامل لمحتويات الخزانة والمناولة، وترتيب وتصنيف حسب الموضوعات أو العلوم، مع وضع فهرس مصنفة، ويقتني الكتب الناقصة، كما يشرف على تصحيح الكتب وتقييد الفوائد بهوامشها وفق خطى متعارف عليها، والإعارة لزوار ومرتدي المكتبة للمطالعة أو للمكتبات الأخرى، ويتم تسجيل اسم المستعير واسم المؤلف في سجل خاص⁷، في حين كانت ممنوعة على اليهود والأجانب، وكان قيم خزانة القرويين يراقب

¹ بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 658.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 132.

³ نفسه، ص 440.

⁴ محمد شوقي بينين، "وظيفة القيم في تاريخ الخزانة المغربية"، عن في النهضة والتراكم دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة إلى الأستاذ محمد منوني، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 1986م، ص 364.

⁵ ينظر الملحق الثاني، الوثيقة رقم 11. الخاصة بذلك، ص 445.

⁶ بينين، المقال السابق، ص 366.

⁷ أبي عيسى المهدي الوزاني، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، ج8، صححه: الأستاذ عمر بن عباد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1419/1998م، ص 330.

الزمام في آخر رمضان من كل سنة، ويتحوز الكتب المهداة والموصى بها للخزانة، بحضور عدلين وشهود من الأعيان، وقد تذكر الوقفية اسم القيم الذي تحوز الوقف¹.

ب.هيئة نظارة أوقاف القرويين: وخصصت هذه الهيئة كجهاز للتسيير المالي للجامع بالتصرف في الرباع من كراء وجمع مال الحبس وأوجه صرفه، فقام عليها مجموعة من الموظفين وهم:

*. ناظر أوقاف القرويين: وهو الشخص المتولي تسيير الأحباس مباشرة، وكان اختياره بشروط محددة كالالتصاف بالعدالة الظاهرة والكفاية في ملء المنصب والاستقامة²، مع الثقافة الفقهية والتدرج في المناصب المخزنية للحصول على ثقته، وأحيانا يتم إسقاط شرط العلم لتتدخل الخبرة³، ويتم اختيارهم من العدول، وتعيينهم يكون من السلطان أو القضاة، مع تثبيتهم بظهير سلطاني⁴.

ومن مهامهم التكفل بالنظر في مداخيل أحباس الجامع بمسك دفتر حساباته، ومتتبع لبعض الموظفين كالإنارة ليلا وحراسة الأبواب والمؤذنين وتقديم أجور الموظفين وغيرهم والبحث وإعادة الأحباس المغصوبة، مع التصرف في البيع والشراء والمعاوضة مع القاضي⁵.

*. الأعوان والمساعدين: ولتحصيل مال الأحباس كان للنظار جهاز إداري مكون من قباض وكتاب ومساعدين وأعوان يستعين بهم داخل المدينة وخارجها لجمعه، وإلى عدول لتوثيقه وأوجه صرفه، وقد أسهب الونشريسي في معياره والحسن الوزان في وصفه وصاحب العمل الفاسي وشارحه السجلماسي في التعريف بهم وما يتقاضونه وما يجمعونه من مال لجامع القرويين الذي قدرت وارداته اليومية بـ 200 دكة (1 دكة=12 فرنك و 17 سنتيما)، حيث يفيض بماله على مساجد فاس لأنه الجامع الأم⁶، وأهم الأعوان نجد:

¹. العمراني، المقال السابق، ص 174.

². القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج 1، ص 70.

³. ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج 1، ص 93.

⁴. بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 95.

⁵. ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 21، حول مسألة المعاوضة ومباشرتها، ص 456.

⁶. الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 225.

*.القباض: وظيفة مهمة يعينهم النظار بتوفر شروط كالدين، الثقة والأمانة، حتى أنهم حملوا اسم الأمين، مهمتهم جرد وتسجيل حسابات مداخيل ومصاريف الأحباس، وتقديمها للنظار بمحضر عدول مع الاتصال بمختلف الجهات المعنية بالحبس لتحديد طريقة الأداء والإصلاح وغيرها، كما يقدمون جرد كامل للحسابات أثناء انتقال النظارة من أحد لآخر منذ توليه، ولكل قابض ثمانية كتاب وستة مساعدين يستخلصون ثمن الكراء بالمدينة، وحوالي عشرين عون مكلف بالخروج للضواحي والأرياف¹.

*.العدول:(الانتصاب للشهادة) تولية هذا المنصب كان بيد القضاة يرخسون لمن عرف بالعدالة، والنزاهة مع البصيرة، ومعرفة علم الوثائق ولديه حظ في اللغة وعلم الفرائض والعدد ويعينون بظهير سلطاني²، وكان لكل عدلان دكان في سماط العدول، بإجمالي ثمانين دكانا كلها مجاورة لجامع القرويين، الأمر الذي سهل على العلماء الانتقال منها إلى مجالس تدريسهم بالجامعة أو المدارس التابعة لها³.

والعدول هم وحدهم لهم حق أداء الشهادة، فكانوا كشهود شرعيين ومساعدين للقاضي فيوثقون رسوم النظارة من محبسات ووصايا وعقود المعاوضة والكراء والشراء، وتزويد القاضي بالمعطيات التي يبني عليها قراره، ولا تصبح تلك الرسوم نافذة أو رسمية إلا بعد إمضائها من طرف العدلين ومصادقة القاضي عليها⁴، وهو ما يعرف بالإكمال أو الخطاب وباعتبار أن غالبية العدول من العلماء فإنهم استعملوا القلم الفاسي في تشفير العقود والوثائق لمنع التزوير⁵، وقد تقاضى هؤلاء العدول أجورا من الزبائن حسب أهمية ما يحررون لهم من وثائق، بيوع، أنكحة، مواريث وغيرها وهي مبنية على المكارمة لا ضابط لها، فقد كفتهم لعيش حياة الكفاف والعفاف⁶.

¹. بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 116.

². نفسه، ص 103-104.

³. حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 118.

⁴. Berque, « Ville..., Op.cit, P 72.

⁵. محمد الفاسي، "حساب القلم الفاسي"، عن مجلة مجمع اللغة العربية، ج62، مؤتمر الدورة الرابعة والخمسين، رمضان

1408-ماي1988، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1408هـ/1988م، ص 258.

⁶. حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 118.

*. **ناظر النظار:** وبسبب تطاول هؤلاء الوكلاء على الأحباس والتحايل فيها، عمد السلاطين العلويون إلى إنشاء منصب جديد لمراقبتهم ومحاسبتهم على أوجه صرف الأحباس فقام السلطان إسماعيل العلوي بإيجاد منصب ناظر النظار، ولا يختار له إلا شديد الشكيمة في الدين، لا يبالي بالخلق في مضايق الحق، يعدل في القسمة، لذا تقلدها القضاة أنفسهم من أمثال: أبي شامة محمد بن إبراهيم المشنترائي الدكالي، الإمام أبي عبد الله القصار القيسي عبد الوهاب بن أبي حامد العربي بن أبي المحاسن الفاسي والشيخ العربي بردلة الفاسي، ومن حمدت سيرته جدد له فيها، مثل الظهير الذي أصدره السلطان عبد الله يجدد للسيد بلقاسم المسطاسي هذه النظارة ويوصيه أن يكون مثالا لسائر النظار¹.

*. **أرباب أو شيوخ البصر والمعرفة: (الأمناء)** هذا جهاز مؤقت ينشأ لتقديم المساعدة التي يحتاج إليها القاضي في أي مسألة متعلقة بوقف أحباس القرويين أو بنائه الداخلي أو الخارجي، فكانوا أهل خبرة ومعرفة اكتسبوها من نشاطهم المهني والحرفي²، وقد عددها عبد القادر زمامة في مقالاته حول الحرف التي توجد بمدينة فاس بـ 218 حرفة³، إلا أن عبد السلام بنسودة رد عليه في مقال آخر، يراجع فيه بحيث أوضح أن الأول وقع في عدة زلات للقلم كما لا يشاطره في تعريفاته لتلك الحرف والمهن بمدينة فاس، فمنها ما زاد فيها ومنها من صححها مع التعليق، ورغم ذلك فقد عرفنا بأهم الحرف الباقية بهذه المدينة التي ترأسها الأمناء، من تجار، فلاحين، بنائين...⁴، وكانوا كهيئة استشارية مؤقتة للقاضي فيما يخص إصلاح، تقييم، هدم، تقدير...⁵.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 705.
². عبد السلام بن سودة، "حول أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، ص15، صفر 1392هـ/أفريل 1972م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1972م، ص 131.
³. عبد القادر زمامة، "أسماء الحرف المعروفة بمدينة فاس"، عن مجلة اللسان العربي، مج 4، يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية، الرباط، ص 92.
⁴. عبد القادر زمامة، "أسماء الحرف المعروفة بمدينة فاس (2)"، عن مجلة اللسان العربي، مج 7، ج1، ع ذو القعدة 1389 هـ/يناير 1970م، يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية، الرباط 1389 هـ/ 1970م ص 313.
⁵. بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 112.

*. **الوقاد أو اللَّمْبَجِي:** أشرف الوقاد على طاقم عمل مكون من أعوان، وضعت تحت تصرفه كميات وافرة من الزيت والفتائل والآلات، ومنح له بيت قريب من الجامع مع جرايات مهمة، ينطلق عمله مع العصر بتحضير كل ما يلزمه، لإنارة آلاف الثريات¹ بالأبواب والبلاطات وعند منعطفات وعددت الثريات بـ133 ثريا نحاسية وتسرج كلها في أيام الأعياد²، ولا تزال بجامع القرويين غرفة مستطيلة ذات باب معقود، كانت مخصصة لحفظ أنواع الزيوت المستخدمة في إنارة المصابيح والثريات التابعة للجامع³.

البواب: فتحت بجامع القرويين عديد الأبواب عبر تواتر الدول، ولإضافة نوع من الحماية والصيانة لهذا المكان المقدس، فقد أوقفت على الأبواب عقارات، بحيث ينعم الشخص المختص بصيانة الأبواب وفتحها وإغلاقها بحسب الحاجة⁴، كما كان تحت تصرفه مصرية للسكنى بالسقاطين⁵، وتقاضى أربعة دنانير شهريا⁶.

2. القائمون بالوظائف الدينية والتعليم:

أ. **المفتي:** يعتبر من أسمى الوظائف، ويتولاه من حاز المروءة والدين⁷، ووجه له السلاطين عناية واهتمام فائق فمن طرأ فيه أو ظهر منه ما يخالف يعزل ويعاقب⁸، لذا يعين المفتي بظهير ملكي⁹، وكان القاضي يرقى إلى مرتبة مفتي، مثلما حدث لعبد الواحد الونشريسي الذي رقي بعد وفاة شيخه علي بن هارون كمفتي عام 951هـ/1545م بعد 18 سنة كقاضي جماعة¹⁰، وهناك من شيوخ الجماعة من ولى الفتوى مباشرة كالإمام محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني ولاه محمد الشيخ السعدي يحي السراج ومحمد القصار¹¹.

¹ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11، صور داخلية للقرويين، ص 445.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 80.

³ صالح سالم، روائع الفنون الإسلامية...، المرجع السابق، ص 54.

⁴ زمامة، "أسماء الحرف..."، مج4، المقال السابق، ص 94.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج1، ص 91-102.

⁶ لوطورنو، المرجع السابق، ج1، ص 842.

⁷ بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 626.

⁸ بن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج2، ص 55.

⁹ مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 146.

¹⁰ حجي، الحركة الفكرية...، ج1، المرجع السابق، ص 116.

¹¹ بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 627-628.

إلى جانب الفتوى في النوازل والمسائل، فقد تصدروا التدريس في الكراسي العلمية بالقرويين وغيره من المعاهد التابعة له، فأجادوا وأفادوا، وتلقوا على ذلك أجرا كبيرا من أوقاف الكراسي أو الكتب وأحباس القرويين، كما قاموا بالنظر على أوقاف الضعفاء والمساكين بفاس¹.

ب. **الأساتذة:** ومن رجال العلم من تركزت حياته في أداء رسالة التدريس والتعليم بالقرويين وغيرها من معاهده، وكان توظيفهم يتم بعد أن يشتهر الشخص بعلمه في إحدى زوايا الجامع فيرفع طلبه للسلطان، الذي يأمر قاضي المدينة بترشيحه ليكون في طاقم التدريس ليتسلم على إثرها مبلغا معيناً من ناظر الأوقاف²، أو من مال الوقف المخصص للكراسي العلمية³. في حين بعض الأساتذة زالوا عدة وظائف للاستعانة بها على ضروريات حياتهم، مثل القضاء، الحسبية، الإفتاء، الوعظ الديني، التعليم القرآني، الأذان، النسخ، الانتصاب للشهادة أو الكتابة بأحد الإدارات⁴، ومن مارس نشاط تجاري كالشيخ محمد ميارة⁵.

ج. **تولي الخطابة والإمامة:** من الوظائف ذات الأهمية لأن الخطابة والإمامة بالقرويين تمكن صاحبها الجاه والنفوذ، لدوره الديني والسياسي ودخله المادي، حتى تنافس العلماء حوله كبردلة وأبو عنان، وتمتع الأئمة والخطباء بالسكنى المجانية في دور المحسبة ولخطباء المساجد زيادة على ذلك بيت خاص في المسجد يسمى (مصرية الخطيب)، يتخذونه كمكتب للمطالعة واستقبال العموم أو لإلقاء الدروس على خواص الطلبة⁶، وتولى إمام القرويين النظر في أحباس الفقراء وتوزيعها⁷، ففي العهد العلوي ولوا وحصروا الخطابة في آل الفاسي لمدة طويلة من الزمن من 1180-1328/1761-1910م بجامع القرويين⁸.

¹. Gagne et Nejjar, Op.cit, P358.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 438.

³. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 227.

⁴. روم لاند، المقال السابق، ص 27.

⁵. محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفرائي، صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر، ط1، تح: عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء 1425هـ/2004م، ص 251.

⁶. Gagne et Nejjar, Op.cit, P358.

⁷. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 223.

⁸. العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 32.

د. الوراقفة: اتسع مفهومها في هذه الفترة لتشمل جميع فنون الكتابة من النساخة، الخطاظة الزخرفة، التصحيح والمقابلة، والتفسير وغيرها، ذات الخطوط المتعددة من مغربية أندلسية مشرقية¹، وقيدت بضوابط وآداب وقد تطرق اليوسي في كتابه "القانون" إليها بالشرح والتفصيل من النسخ إلى التجليد وما يعترضه بينهما²، لأن كثرة الأخطاء في النسخ تفقد الناسخ قيمته فيصبح كل ناسخ ماسخ³، حتى ضربت عليها الأمثال مثل "على وجه الكتاب تأنبأس الجلة"⁴، وأيضا: "اكتب وقابل أو اطرح في المزابل"⁵.

وقيل أن العلم ينبع من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها⁶، نتيجة الإقبال عليه لذا ازدهرت نساخة الكتب وزاولها علماء ومدرسين واعتاشوا منها، تورعا عن مال الأوقاف أو عزوفا عن المناصب الرسمية، وكان العلماء لا ينسخون إلا أمهات الكتب، في مادة تخصصهم، فالمقرئ ينسخ المصاحف، والمحدث ينسخ كتب الصحاح، والفقيه المختصرات كابن الحاجب والخليل، والطبيب كتب الطب والنحوي شروح ألفية ابن مالك وهكذا، وتتافس الأغنياء والميسورون في اقتنائها، لتأسيس خزائن خاصة لهم⁷.

هـ. المؤذنون والموقتون: كان لمؤذني جامع القرويين مكانة خاصة في العهد السعدي والعلوي حيث تم إعفاؤهم من جميع الوظائف المخزنية والتكاليف السلطانية (الضرائب) وهذا وفق العادة المعروفة لهم على الدوام⁸، وأورد الونشريسي سؤالا رد عليه الشيخ مصباح اليالصوتي الخاص بأجرة مؤذن يقوم بعدة أعمال داخل المسجد فهل له أجرة على ذلك، وبعد إطلاع القاضي والخطيب على الجواب أقرأ ما جاء فيه برسم عدلي، وتكليف ناظر الأحباس بدفع مبلغ من مال كأجرة للمؤذن مقابل ما يقوم به من دور كموقت وأول من يرفع الأذان

¹ عمر أفا ومحمد المغراوي، الخط المغربي تاريخ وواقع وأفاق، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1428هـ/2007م، ص57.

² اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 439-442.

³ بنعللة، المرجع السابق، ج2، ص106.

⁴ بنسودة، المقال السابق، ص 115.

⁵ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص 427.

⁶ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 40.

⁷ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 121.

⁸ بنعللة، المرجع السابق، ج1، ص 170-173.

ليقتدي به مؤذنو كافة مساجد المدينة، مع حرصه مع الوقاد على إخراج كل من يحاول أن يبيت في الجامع بعد صلاة العشاء، أو يحاول سرقة ما فيه من أشياء كالثرثيات أو المصابيح الزجاجية أو الحصير وغيرها، مع ملازمة الجامع نهارا وليلا لمراقبة من يفعل أي منكر أو فساد به ليمنعه، ويتعهد الجامع بالكنس والخياطة الحصير، فأعطي له خمسة دراهم فضية صغيرة يومية للأذان ودرهمان على التوقيت وأربعة دراهم على قيامه بتلك الأعمال للأخرى¹.

ي. الطلبة: أما الطلبة فإنهم خلفوا أساتذتهم في مختلف المناصب والوظائف الدينية والعلمية والمخزنية، فانطبعوا بخصال وطبائع أساتذتهم فكانوا على شاكلتهم، وكتب التراجم والفهارس خير دليل على قوة العارضة والتكوين، وتكاثر عددهم في العهد السعدي والعلوي ولا يمكن حصرهم في أسطر، فنقلوا ما حووه من مختلف العلوم للأجيال التي جاءت بعدهم²، فكانوا حلقة في السلسلة الذهبية التي تربطهم بأساتذتهم وهم وتلاميذتهم بخير الأنام³.

وكانت سكنى الطلبة الأفاقين بالحواضر تحت إشراف الناظر وفق قوانين مقررة، فلا يسمح للنساء بالسكنى فيها، مع من يخشى عليه الفتنة، ويشترط في الطالب الساكن أن يفرغ جهده في الدرس والتحصيل بملازمة حضور مجالس الدرس بها، ويفقد كل طالب حق السكن إذ تجاوز عشر سنوات دون نجاحه، وتوزيع البيوت على الطلبة يراعي الناظر فيه ما يضمن راحتهم ومصالح المدرسة والمصلين والدارسين، فتكون بيوت الصدارة للعلماء العزب والمتقدمين من الطلبة، والبيوت المضيئة للنساخ وأهل الحضر في الطابق العلوي والبدوي في السفلي وإبعاد أصحاب الأصوات المرتفعة عن قاعة الصلاة والدراسة⁴.

وكان لكل مدرسة مرينية أو علوية مرتديها من الأفاقين، فمدرسة الصفارين لأهل سوس وزرهون وبني زروال، ومدرسة العطارين لطنجة والعرائش والقصر وباب عجيسة لجباله

¹. الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 508.

². Champion, Op.cit, P38.

³. ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 20. صورة للطلبة متوجهين للدراسة بالقرويين، ص 454.

⁴. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 127.

والمصباحية لمراكش والحوز ودكالة...، ومدرسة الشراطين للجزائريين والفيلايين وأهل الريف¹، وكان ينفق على الطلبة من مداخل الأوقاف الخاصة بالمدارس وهي كثيرة من دكاكين ودور وأخبية وأرحية وحمامات وغيرها بفاس²، ويتولى أمرها نظار وقضاة³، فيقدمون للطلبة الخبز يوميا مع منحهم مبالغ مالية يستعينون بها في أيامهم، إلا أنه على العموم لم تكن هناك قاعدة قارة يسير عليها المشرفون كل حسب اجتهاده⁴.

وكان يتخرج الطلبة بإجازة بعد امتحان معين يعقد أحيانا بالجامعة، بحضور الأساتذة والطلبة، فيلقي كل أستاذ على الطالب النهائي بضعة أسئلة في مختلف العلوم، فإذا وفق في إجاباته صار عالما رسميا ويصبح من علماء الطبقة الرابعة⁵، لذا فإن الوزراء كانوا يختارون كتابهم من طلبة جامع القرويين فهذا الزياني الوزير المتقاعد في عهد السلطان سليمان يزكي كل من أبي عبد الله ابن إدريس وأكنسوس لأدبهما وشعرهما ونثرهما لوظائف الدولة، فالتحق أكنسوس ببلاط السلطان سليمان كاتباً قديراً وهو في ريعان شبابه⁶، فكانت القرويين مركز تكوين أطر الدولة التي تحتاجها، وكل هذا بفضل أوقافه وأساتذته الذين نشروا رسالته في الأفاق ولا تزال.

¹. Benoit, Op.cit, P96-98.

². ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 27، حول أوقاف المدارس، ص 462.

³. الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 125.

⁴. Gagne et Nejjar, Op.cit, P 358-359.

⁵. العمراني، المقال السابق، ص 173.

⁶. عبد القادر زمامة، "مفارقات ومقارنات بين مؤرخي الدولة العلوية: الزياني وأكنسوس"، عن مجلة دعوة الحق، ع4 س10، ذو القعدة 1386هـ/مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص 123.

الفصل الثاني: القرويين والوقف (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

من الأمور الاجتماعية الخالدة في الدين الإسلامي نظام الوقف، الذي أوجد مع بداية الدولة الإسلامية، كعمل يقوم به الإنسان لطلب منفعة ومصلحة الغير في الدنيا، محتسبا الثواب في الآخرة بالفوز بالجنان، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في هذا الفصل الخاص بالوقف والقرويين بالمغرب ما بين التيسير والتعسير.

أولاً. الوقف:

1. تعريفه:

لغة: الوقف في اللغة معناه المنع والحبس، والحُبْسُ ما وُقِفَ، وَحَبَسَ مُحَبَّسٌ وَحَبِيسٌ¹ والفرق بين عبارتي الوقف والحبس إنما هو فقط النطق اللفظي، في حين معناهما واحد².
اصطلاحاً: قال ابن منظور عن الأزهري: "الحُبْسُ جمع الحَبِيس، يقع على كل شيء، وقفه صاحبه وقفا محرماً لا يورث ولا يباع من أرض ونخل وكرم ومستغل، يحبس أصله وقفا مؤبداً وتسبل ثمرته تقرباً إلى الله عز وجل"³، وقد قال النبي (ﷺ) لعمر في نخل له أراد أن يتقرب بصدقته إلى الله عز وجل فقال له: "حَبَسِ الْأَصْلَ وَسَبَلَ الثَّمَرَةَ" أي اجعله وقفاً حُبساً ومعنى تحبسه ألا يباع ولا يوهب ولكن يترك أصله ويجعل ثمره في سُبُل الخير⁴.
فالوقف هو تسبيل منفعة شيء مدة وجوده لصالح مستفيد يمكن أن يكون شخصاً أو أشخاصاً أو مؤسسة دينية أو اجتماعية تخدم المصلحة العامة كالمساجد والملاجئ والمدارس والمستشفيات والأسوار، ويكون ذلك على وجه التأييد بغية التقرب إلى الله تعالى، مع منع بيع ذلك الشيء أو رهنه أو هبه أو نقله بالميراث⁵.

¹ ابن منظور، المصدر السابق، مادة حبس، ص 44-45.

² بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 49.

³ ابن منظور، المصدر السابق، مادة حبس، ص 44-45.

⁴ نفسه، ص 45.

⁵ الإمام محمد أبو زهرة، محاضرات في الوقف، ط 2، دار الفكر العربي، القاهرة 1972م، ص 39.

وعليه فقد ابتدأ الوقف في عهد رسول الله (ﷺ)، وعهد صحابته ثم من بعدهم من الأمم الإسلامية متتابعاً إلى اليوم، وأخرج البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول عليه السلام قال: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"¹، وزاد ابن ماجة: "ومصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته"² وفسروا الصدقة الجارية بالوقف³.

ورغم عدم ورود نص صريح في القرآن الكريم يتحدث عن شرعية الوقف، إلا أن هناك كثير من الآيات تحت على الصدقة والإنفاق في سبيل الله وفي وجوه البر والإحسان، وعلى سبيل المثال الآية الكريمة قال تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"⁴ وأيضاً نجد في سورة البقرة في الآية 3، 276، 254، 280، وفي سورة آل عمران الآية 92 115 وفي سورة الزلزلة الآية 7... وغيرها من السور الحاثّة على البر والصدقة.

فهذه السنّة التي أراد بها رسول الله (ﷺ) أن تكون ميزة خاصة لا تنقطع أبداً، وهي ميزة لا توجد في سائر الصدقات، وهناك عدة دوافع لإقامة مثل هذه الأعمال الخيرية وعلى رأسها الدافع الديني طلباً للثواب والأجر في الآخرة، وشعور الفرد بالمسؤولية أمام جماعة المسلمين أو مجتمعه أو لضمان مورد مالي لذريته من بعده أو ما عرف بالوقف المعقب وحتى للمحافظة على بقاء هذه السنة حية جيلاً بعد آخر كعمل إنساني⁵.

¹ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، باب بر الوالدين بعد موتهما، ط4، مكتبة الدليل، المملكة العربية السعودية 1418هـ/1997م، ص 45.

² الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة، سنن ابن ماجة، ج1، باب ثواب معلم الناس الخير، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص 88-89.

³ عبد الله الجراري، "الأوقاف الإسلامية ونظامها بالمغرب في عهد الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، ص 9 رمضان 1385هـ/ جانفي 1966م، صدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 93.

⁴ سورة البقرة، الآية رقم 261.

⁵ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 55.

وبهذا ضمنت تلك الأوقاف بقاء العمارة والمنشآت كالمساجد والمدارس والمستشفيات... ودوام مباشرتها بالإصلاح والترميم لتظل قائمة صالحة الاستغلال والإنفاق على الوجوه المحبسة عليها، كما أن إصلاحها يكون على نفس النمط والأسلوب الأصلي من حيث طراز البناء والزخرفة، بناء على ما اشترطته وثائق التحبيس، وهذا من وصف دقيق للمبنى المحبس وموقعها وموردها وأوجه إنفاقها، فحفوظ على استمرارية أساليب بعض المهن والحرف، وازدهار تقاليد الموروثة، من خلال جماعات ومدارس الصناعات والحرفيين التقليديين بمفهومنا الحالي¹.

ولا يكون الوقف تاما إذا لم تراعى فيه أركانه والمتمثلة أولا في الشخص الواقف أن يكون كامل شروط السلامة العقلية، وثانيا الشيء الموقوف من عقار كأرض أو بناية أو غيرهما وثالثا المرجع أو الجهة التي يتم الوقف عليها أو الطرف المستفيد من هذا الربح ويكون شخصا أو جماعة أو مؤسسة دينية ثقافية اجتماعية... ورابعا الصيغة التي أقيم عليها هذا الوقف كقوله حبست أرضي أو داري على أولادي أو على الفقراء أو غير ذلك مع صحة النية²، فلا يمكن التصرف فيها في البيع والشراء بعد ذلك، أي تخرج من يد صاحبها إلى الجهة التي وقفت عليها بالاستفادة منه.

2. أنواعه:

الأوقاف في المغرب تنقسم إلى قسمين :

أ. الوقف الخيري العام:

يوقف لأول الأمر على جهة بر وإحسان، وهو على نوعين الأول وقف عام ينتفع به العامة كالوقف الديني على المساجد والزوايا والاجتماعي على الأسوار والمارستانات والفقراء والمساكين والأسرى وقضاء الديون، والثاني وقف خاص أو معين تنتفع به جهة معينة كالخزانات، المساجد، الكراسي العلمية، المحاريب...³.

¹. عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج1، ص 124-125.

². بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 56.

³. ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 2، 3، ص 435-436، والملحق الثالث الوثيقة رقم 28، ص 463، حول ذلك.

فكان الوقف الديني أكثره على المساجد والزوايا بسبب دورهما في الميدان الديني والاجتماعي والثقافي وحتى السياسي في العهد السعودي والعلوي، رغم ما عرفته أوقاف المساجد قبيل قيام السعوديين من تراجع، بسبب الفتن وما نتج عنها من تخريب ونقص في الإنتاج، مع تطاول يد الحكام إليها على سبيل السلف دون إرجاعه لسد عجز بيت المال غير أنها بعد استقرار الأمر في يد السعوديين ومن بعدهم العلويين ستنعش المساجد نتيجة تنافس الملوك والأمراء وعامة الناس في تعميرها بوقف الممتلكات العقارية عليها¹.

من أجل تمتين عرى الدين في البلاد، قام الملوك والأمراء ببناء المساجد بالمدن الكبرى رجالا ونساء كمسجد الجامع الكبير بتارودانت في عهد السلطان محمد الشيخ السعودي، وجامع دكالة بمراكش أنشأته أم السلطان أحمد المنصور سنة 995هـ/1587م، دون أن ننسى اهتمامهم بالقرويين بفاس فتم توقيف رباع من أراضي فلاحية وحوانيت ومشغل ومعامل وأرحية²، لإعانتها ماديا لتلافي تدهورها وتلاشيها، فعمرت المساجد وكثرت حلقات التدريس فانتعشت الحركة العلمية بجامعة القرويين، التي قصدتها الطلبة من كل حذب وصوب، للكرع من معين العلوم الإسلامية³ فساهمت في تخريج عدد لا يمكن حصره في بضعة أوراق من خيرة وجهابذة العلماء لكل فترة وزمن.

كما زاحمت ونشطت في هذه الفترة الأوقاف الخاصة بالزوايا لامتداد نشاطها وتكاثر أعدادها من شاذلية وجزولية وغيرهما، وكان حضورها قويا في قيام الدولة السعودية، وحتى عشية انهيارها، ومارست النشاط السياسي والتعليمي على حد سواء كمناطق للجهاد ومراكز إشعاع علمي ومثلتها الزاوية الدلائية والناصرية في العهد السعودي، والزاوية الفاسية وغيرها بالعهد العلوي، وهو الأمر الذي ساهم في نشر الفكر التصوفي، الذي دخل في برامج التدريس في جامع القرويين، كدور علماء الزاوية الدلائية في نهاية العهد السعودي وبداية

¹. بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 203-205.

². ينظر الملحق الثالث، الوثيقتين رقم 22، 23. خاصيتين باحباس القرويين بفاس، ص 457-458.

³. مجهول، "الأوقاف.. وأقسامها وتنظيمها ودورها قديما وحديثا"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س9، رمضان 1385هـ/جانفي 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 23.

العهد العلوي¹ فكانت لها أوقاف كثيرة من عقارات وحيوانات في مختلف البلاد وقد وضع محمد حجي في دراسته للزاوية الدلائية ودورها، ذلك النشاط والأوقاف والأعمال الخيرية الاجتماعية والثقافية حتى مثلت برجالها نهضة فكرية وعلمية للعهد الأولى للدولة العلوية². كما أقيمت في هذا الباب أوقاف على الفقراء والمساكين، وكان النظر فيها تحت إشراف خطباء وأئمة جامع القرويين بتعيين من السلطان مثل الفقيه المفتي وخطيب القرويين يحي السراج (ت. 1008هـ/1599م) ولاء السلطان المنصور السعدي، كما تولاه القاضي محمد بن قاسم القصار (ت. 1012هـ/1603م)³، وفي 1037هـ/1627م أسندت لخطيب القرويين في عهد السلطان محمد زغودة بن المأمون السعدي⁴. وتتوعد هذه الأوقاف الواقعة داخل وخارج فاس من محلات تجارية وفنادق وحمامات وغلاة فلاحية...⁵، وتم استثمارها عن طرق الكراء⁶.

*. الوقف الخيري الثقافي:

اهتم المغاربة حكاما وأفرادا بالوقف على المدارس لدورها التعليمي المرتبط بالجانب الديني⁷ وعرفت حركة المدارس في العهد المريني حركية ونشاطا كبيرين، صاحبهما تحبب عقارات كثيرة عليها⁸، غطت نفقات كل طالب لمدة سبع سنوات، إلا أنها أصبحت تقريبا أثر بعد عين في ق 10هـ/16م حيث وصف الحسن الوزان حال التعليم والمتعلم بالتأخر ولم يبق للطالب إلا حق السكن مع أجر بسيط للأستاذ، نتيجة التخريب الذي طال أوقاف المدارس والمعاهد العلمية، باستيلاء السلاطين المتأخرين عليها من بني مرين ووطاس عن طريق السلف الذي لم يقض⁹، مما قلل الرغبة في طلب العلم وتقديمه، نتيجة صعوبة تنفيذ شروط

¹ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 211-213.

² حجي، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص 68.

³ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 225.

⁴ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 146.

⁵ ينظر الملحق الأول، الوثيقتين رقم 2، 4، الخاصتين بأكرية القرويين، ص 435-436.

⁶ ينظر الملحق الثالث، الوثيقتين رقم 22، 23، لأسماء المحلات والجنان والأراضي المحبسة للقرويين، ص 457-458.

⁷ ينظر الملحق الثالث الوثيقة رقم 24، الخاصة بأوقاف بعض المدارس الفاسية، ص 459.

⁸ Bel, Op.cit, P117-119

⁹ الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 227.

المحبس وتحول بعضها للسكنى¹، وباستقرار الأمر للسعديين ثم العلويين فقد تداركوا عددا من أوقافها التي كادت أن تضيع فردوها لأصولها².

*. **الوقف الخيري المعين:** (الخاص) وهي أوقاف خصصت لجهة أو شخص وهذا لأهمية تلك الجهات أو الأشخاص في المجتمع، وشملت الخزانات، الكراسي العلمية، المحراب وبعض مواضع المسجد، الخطيب...، كوقف المصاحف والتصانيف المرتبطة بالقرآن الكريم على الخزانات العلمية بالمساجد.

وكان حظ خزانة القرويين أوفر فزودت بكم من الكتب المهداة من السلاطين والأمراء وعامة الناس بتواتر الدول على المغرب، وفي العهد السعدي زاد في ذلك بإنشاء الخزائن نتيجة دخول كميات كبيرة من الكتب من الأندلس والمشرق، مع وفرة المؤلفات المغربية والوقف عليها، فالفقيه ابن غازي (ت 918هـ/1512م) حبس كتاب "إتحاف ذوي الذكاء والمعرفة" وهو شرح على التهذيب للبرادعية ثمانية أسفار في 917هـ/1511م على خزانة القرويين³.

أما الوقف على الكراسي العلمية التي أقامها الملوك والأفراد، فيرجع لاتساع مجال العلوم في العصر المريني الذي أدى لبروز عدد كبير من الكراسي العلمية والوعظ المعروفة باسم التوريق⁴، وتصدرها كبار الأساتذة في مختلف المساجد وخاصة القرويين⁵، وهو تقليد منقول عن المشرق، ورصدت أوقاف مختلفة على الكراسي العلمية (عقارات، كتب،...)، وأنفقت العقارات منها على الأساتذة الذين يقومون بالتدريس عليها⁶.

انتشرت الأوقاف على الكراسي في العهد السعدي والعلوي بشكل واسع، وضمنت تلك الكراسي لأصحابها الحظوة والجاه والمال، خصوصا إذا تعددت الكراسي لدى الأستاذ

¹ .الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 42-86.

² .بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 256.

³ .نفسه، ص 260-262.

⁴ .التوريق، الورق: تستعملان في اللهجة المغربية الدارجة، وفي الكتابة أيضا في غير معناهما الفصيح، إذا يقصد بهما الوعظ والترغيب والترهيب في المساجد على كراسي وفقية خاصة، ومعلوم أن الوراق لغة هو الذي يكتب على الورق التي هي في الأصل جلود رقاق وحرفته الوراق، أما التوريق فهو مصدر ورقت الشجرة أخرجت ورقها. (ينظر: محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني، ج4، ص 67).

⁵ .الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 223-224.

⁶ .ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 28. حول أوقاف الكراسي العلمية، ص 463.

وإيراداتها لم تكن متشابهة ولا متقاربة بل تزيد ضعفاً أو أضعافاً عن بعضها، وتصدرها بأمر سلطاني كتولية أبي القاسم بن أبي النعيم (ت1032هـ/1622م)، ومحمد القاسم بن القصار (1012هـ/1603م) وأبي القاسم بن سودة المري (ت1004هـ/1595م) ولأهم السلطان المنصور السعدي، ومحمد التاودي ابن سودة ولأه السلطان علي بن إسماعيل العلوي عام1167هـ/1754م¹، وأبو الفيض حمدون ابن الحاج السلمي (ت1232هـ/1817م) ولأه السلطان سليمان²، فكانت أوقاف كل كرسي على حدى، الكرسي الثريا خاص بالتوريق والكرسي النحو وكرسي التفسير للثعالبي، صحيح البخاري...³.

وهناك وقف على مواضع معينة بجامع القرويين أطلق عليها اسم أوقاف بدون كراسي في السواري والزوايا وهو تقليد موجود بمصر والشام، وفي جامع القرويين ساريتان لتجويد القرآن إحداهما كان الشيخ يعيش (ت980هـ/1572م) يقوم عليها، والثانية على يمين العنزة لها وقف أنشأه أحمد الشاوي (ت1014هـ/1605م) وعين عليها أحمد بن علي شعيب (ت1015هـ/1606م) للتجويد بوقف ستة فدادين ولا استمرار هذا الوقف اشترط المحبس توفر القائم عليه على نفس شروط سابقه الوارد اسمه في الوقف⁴، فتم التحبيس على الأسبوع الأعلى والأسبوع الأسفل وعلى جملة الأشخاص الذين يتلون القرآن بباب المحراب وبباب الرواح الوسطى وبظهر الصومعة وظهر خصة العين وبالمستودع الأوسط وقرب باب الصالحين وظهر عنزة القرويين وتحت الثريا الكبرى على من يقوم بتكتيب المبتدئين من كبار السن⁵.

ووجد وقف خاص بالخطيب، وهذا لملازمة هذا الأخير لأوقات الصلاة الخمس، ونتيجة قلة دخله رصدت له أوقاف خاصة بخطيب جامع القرويين بفاس حسب ظهير سعدي للسلطان محمد زغودة بن المأمون بن المنصور، وهذا دليل على قيمة هذا الخطيب الذي كان

¹ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93-94.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 378-379.

³ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 54.

⁴ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 277.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 709.

السلطان يحضر جمعته عندما يكون بفاس، بتحبيس مداشر كاملة، وسهر السلاطين على تنفيذ هذه الأحباس والحد من المزاحمة التي يتعرض لها الخطيب من أعوان المخزن¹، إلى جانب أوقاف خصصت للموقت والمؤذنين الأربعين وقوام الليل في منار جامع القرويين².

ب. الوقف الخاص أو الوقف المعقب :

وهو الوقف الأهلي أو الذري، نوع من الأوقاف الخاصة بمرجع، يقوم الواقف بوقف ممتلكاته بمختلف أنواعها عقارا أو منقولا على أبنائه وأعقابهم وخلفهم ما تناسلوا، يتفيدون من المداخل دون تملكها أو تملكها، فهي بذلك لا تباع ولا تورث ولا ترهن³، هذا النوع من الأملاك المحبسة على أشخاص معينين، ولا يكون الحق لمصلحة الأوقاف العامة في التمتع بها واستثمارها إلا بعد انقراض آخر شخص من الأشخاص الذين حبس لفائدتهم ذلك العقار أو الوقف⁴.

ويعرف الونشريسي في معياره العقب في العرف من لم يصل بينه وبين المعقب أنثى، فإن فصل فليس الحفيد بعقب، في حين عقب الذكور هو من لم يفصل بينه وبين عقب العقب أنثى⁵، أي أن كل ذكر أو أنثى يحول بينه وبين الشخص المعقب أنثى ليس بولد لذلك الشخص ولا يعقب له، فالطبقة الأولى تستفيد من الجنسين ولكن بعدهم أبناء وبنات البنات لا يستفيدون منه⁶، وجاء في شرح مختصر المواق قال عبد الملك: "إذا قال: حُبِسَ على ولدي ثم على عقبه فلا شيء للعقب حتى يموت الولد بخلاف لو قال: على ولدي وعقبه قال الباجي لأن "ثم" للترتيب وأما "الواو" فهي للجمع فاقتضت التشريك"⁷.

ومثله في حاشية بناني وحاصله: إن شرك المحبس الأولاد والأعقاب في الحبس بـ "الواو" فيستفيد به الأعقاب، وإن رتبهم ولم يشركهم فيختص به الورثة حتى ينقضوا، وهو الأمر

¹ ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 7، نص ظهير السلطاني لمحمد زغودة سنة 1037هـ، ص 440.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 709.

³ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 156.

⁴ مجهول، "الأوقاف.."، المقال السابق، ص 24.

⁵ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 347.

⁶ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 161.

⁷ المهدي الوزاني، المصدر السابق، ج8، ص 456.

الذي أورده أيضا المهدي الوزاني¹ في معياره الجديد في رد العلامة السجلماسي شارح العمل على نفس النازلة بما جاء عند الونشريسي في معياره²، وأنشأ السلطان محمد الشيخ إلى آخر الملوك السعديين أوقافا معقبة للاستفادة داخل الأسرة الحاكمة من خراج بعض الأراضي التي زعموا أنها فتحت عنوة من أجل الحد من كل محاولة لاسترجاعها وزادوا عليها تحريم الفروع النسوية منها، واتبعهم باقي الرعية فيها من حرمان المرأة من الوقف المعقب³.

ويعود ظهور هذا النوع إلى نقطتين: أولاها ما اتصل بالسياسة المخزنية التي تعتبر أن مجموع الأراضي المغربية مفتوحة عنوة فهي ملحقة ببيت مال المسلمين، فحتى يأمنوا عوادي الزمن حاولوا إحاطتها بضمانات شرعية، بالوقف المعقب وتقويت الفرصة على الحكام بذلك⁴ وثانيها خاص بعموم الناس في الحفاظ على الميراث الأسري بعدم جريان أحكام الميراث عليه ويبقى محبسا عليهم، والخوف من المصادرة والحجز⁵.

كما جرى العمل به في فاس أن يحبس بعض من الناس عقاراتهم على الذكور دون الإناث قديما وحديثا وقد كره ذلك في المدونة وغيرها، إلا أنه جرى عليه الموثقون فعقودها ونفذت⁶ وقد كثر استعماله في العهد السعدي كملاذ من الحكام المتسلطين على حقوق الغير لنظرتهم للأرض على أنها لهم بحكمها فتحت عنوة⁷، ونجد الدولة العلوية اجتهدت في تنظيم الأوقاف، فجعلوا النظر فيها من اختصاص القضاة الشرعيين فكان فسير النظر الأحباس تحت إشراف ومسؤولية القضاة⁸.

¹ أبو عيسى محمد المهدي بن محمد الوزاني الفاسي : ولد بوزان وبها نشأ، انتقل إلى فاس وأخذ عن أبي عبد الله ابن المدني كنون، وأبي عيسى بن سودة، وأبي العباس بن سودة، وجعفر الكتاني وغيرهم . من مصنفاته : "المعيار الجديد"، و"المنح السامية في الأجوبة الفقهية"، وشرحان على العمل الفاسي، وحاشية على لامية الزقاق، والفرق بين الطلاق الرجعي والبالئن. (ينظر: محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، ج 1 ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص 539).

² المهدي الوزاني ، المصدر السابق، ج8، ص 314.

³ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 49.

⁴ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص 470.

⁵ نفسه، ص 49.

⁶ المهدي الوزاني ، المصدر السابق، ج8، ص 328.

⁷ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 177.

⁸ مجهول، "الأوقاف.."، المقال السابق، ص 24.

3. تطور الوقف بالمغرب الأقصى:

سارع السلف الصالح إلى الاهتداء بهدى الرسول (ﷺ) والاحتذاء بحذو الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين، في الإكثار من التحبيس في وجوه البر والتضامن الإنساني فحبسوا على المساجد، ومن نشطوا فيهم كأئمة الدين والمبلغين للدعوة الإسلامية الشارحين لأسرارها ومراميتها، كما حبسوا على كراسي العلم التي ظهرت في المساجد والمعاهد، وعلى تنبيه المصلين لتعديل الصفوف، إلى جانب التحبيس على المرضى والمعوزين وإنارة الدروب والحارات المظلمة تجنباً للسابلة من آفات الطرق وأخطارها، بل إن هذا الشعور الإنساني المرهف قد دفع بهم إلى الرفق بالحيوانات فأوقفوا عقارات على معالجة بعضها والبرور بها وفي مدن الرباط وسلا وفاس ومراكش مثلاً خير شاهد على ذلك.

لقد تفنن المغاربة في أنواع التحبيس مع دواعي الخير والإحسان فإن الدول التي تعاقبت على دفة الحكم جعلت الحفاظ على الأحباس وإحاطتها بهالة من الإكبار والتقديس، فازدهرت شؤونها بشكل كبير في عهد الدولتين الموحدية والمرينية، وجاءت الدولة السعدية وخصوصاً العلوية لتبذل قصارى جهدها في تنظيم الأوقاف وتبصيرها على حقوقها ومصالحها واستثمار ثروتها، وكان ملوكها يعتبرون النظر في شؤون الأحباس من اختصاص قضاة الشرع دون غيرهم تقديراً من جانبهم لحرمتها وحرصاً على سلامتها¹.

حتى كانت مدينة فاس وجل مرافقها من أحباس المساجد المقدرة بأكثر من سبعمائة وعلى رأسها جامع القرويين، من سقايات وحمامات وأراحي وأفران ودور وفنادق وحوانيت وقيساريات ودور الصناعة وأفران ومعامل الفخار والكاغد، لتأتي بعده أوقاف المارستانات والمدارس والمكتبات حسبما أورده ابن أبي زرع في القرطاس² والمراكشي في المعجب³

¹. مجهول، " تاريخ الوقف في الإسلام واهتمام العلويين به"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، ص9، رمضان 1385هـ/ جانفي 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 8.

². ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 48-49.

³. المراكشي، المصدر السابق، ص 257.

والجزنائي في زهرة الآس¹ والوزان في الوصف² ومارمول في إفريقيا³ ولوطورنو في فاس قبل الحماية⁴.

وهذا كله يرجع إلى تعاقب الدول عليها واهتمامهم بالوقف فمن الأدارسة إلى الأمويين للمرابطين فالموحدين اهتموا كلهم بالوقف على المساجد حتى أنه في عهد الموحدين بسبب ثروة جامع القرويين التي نافست خزانة الدولة نفسها الأمر الذي جعل مسؤولي الأحباس يفكرون في وسائل لحماية هذه الثروة، ومن هنا ظهرت فكرة المستودع الذي بني في عهد القاضي الفقيه محمد يسكر الجورائي (558-598هـ/1163-1201م) لوضع مال الأحباس والوثائق المتصلة بها في سنة 580هـ/1184م⁵.

ليأتي بعدهم المرينيون الذين ساهموا وشجعوا بدورهم الوقف لضمان بقائهم، فانكبوا على بناء المدارس وتوقيف العقارات والمنقولات عليها كالكتب، فكانت كملاحق لجامعة القرويين بل وخصصوا جزء مما غنموه بالأندلس للوقف، لتفيض الأوقاف على المارستانات والرفق بالحيوان، بل وصلت في عهد السلطان أبي يعقوب (656-685هـ/1258-1286م) ليوجه جزءا منها للحرمين الشريفين ومسجد الأقصى، ففاض دخل أوقاف المساجد ليجد طريقه لجهات أخرى، فأصبح الوقف ذا وجهة اجتماعية إلى جانب الدينية⁶.

ولكن ما أصاب هذه الدولة بعد السلطان أبي عنان (752-759هـ/1351-1358م) من تراجع وانحيار أدى إلى ثورة بفاس في 869هـ/1465م على آخر حكامهم عبد الحق بن أبي سعيد (832-869هـ/1428-1465م) نتيجة سياسته المتهورة، فانعكس ذلك على الوقف بتراجع مداخله وتحويل أملاكه للخواص في ظل تلك الفوضى والفتن، وقد عبر الونشريسي في نوازل معياره⁷ والوزان في وصفه عن تلك الحالة التي آلت إليها أوقاف

¹ الجزنائي، المصدر السابق، ص 67-68.

² الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 221-225.

³ مرمول، المصدر السابق، ج 2، ص 147-149.

⁴ لوطورنو، المرجع السابق، ج 1، ص 458.

⁵ بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 65.

⁶ نفسه، ص 66-68.

⁷ الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 86-93.

القرويين من تراجع¹، باستحواذ النظار وتحويل أوجه صرف مداخيلها، لتصل لحد الإلتفاف بالهدم وسوء الاستغلال، واستغل المكثرون للوقف الوضع المضطرب برفضهم دفع الكراء والبعض الآخر رفض الخروج منها لبخس أثمان الكراء²، بل ورأوا فيها ملكا لهم بالتقادم.

ومن التشريعات الخاصة بالوقف على هذه المرحلة جعل أحباس مختلف مساجد مدينة فاس في سجل واحد، ومنه يأخذ كل مسجد ما يحتاجه فتداخلت الأوقاف مع بعضها القوي بالضعيف، فظهرت على إثره الحوالات الحبسية مع الوطاسيين وهي دفاتر سجلت أملاك الأحباس ومستفادها ونفقاتها³، ويرجع الد. بنعلة في دراسته أن أقدم حوالة تعود إلى العهد المريني لسنة 893هـ/1488م ثم 904هـ/1498م، وقد اشتملت تلك الحوالات على الموقوفات وكيفية تنمية الوقف بإتباع عدة طرق كالتعاقد، الشراكة بين الأحباس والخواص والكراء والمعاوضة (كالدور بالحوانيت) والأوامر السلطانية المتعلقة بالوقف والإشارة ما للمساجد والمدارس والزوايا من موقوفات وواجبات كراء الفنادق والحمامات والطواحين والأراحي والأفران وجرى لأهم الحوانيت مع أسماء مكتريها والمعاوضات وأثمان الغلال وأسماء القباض المكلفين بجمع المداخل⁴.

كما تناول الحكام على الأوقاف بالبيع لحاجتهم للمال والتعود بإعادة شرائها لإعادتها لأصلها لكن دون جدوى بسبب تدهور الوضع، ومنهم من وثب عليها بالسطو كاستيلاء أبي حسون الوطاسي على مال الأحباس وقدمه للجند الجزائري والمقدر بألف أوقية، ويعتبر هذا السطو كعادة ألفها الملوك وعمالهم الذين استحوذوا على الأحباس وضموها لبيت مال المسلمين دون إذن⁵، مما جعل الفقيه أبا الفضل الوليدي يدعو إلى اتخاذ الحذر من التعامل المالي مع الدولة المرينية من خلال كتابه "الحلال والحرام"⁶.

¹ .الوزان، المصدر السابق، ج1، ص227.

² .الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص151-156.

- ينظر أيضا الصفحات التالية: 46، 129، 134، 178، 198، 199، 238، 239، 272.

³ .بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص80-83.

⁴ .ينظر الملحق الثالث، الوثائق من رقم 21 إلى 28، حول هذا الموضوع، ص 456-463.

⁵ .بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص78-83.

⁶ .نشاط مصطفى، المقال السابق، ص36.

ثانياً. الشرفاء والوقف:

يدخل في باب الهبات والعطايا التي يهبها المسلم ويخرجها من ماله الخاص لينفق ريعها ويصرف عائدها فيما يتعلق بإقامة الشعائر الدينية من بناء المساجد وتشييدها وإصلاحها وتوظيف القائمين الدينيين عليها وتحفيظ كتاب الله تعالى وغيرها من وجوه البر والإحسان لذا كان للأشراف سهم في هذا الباب.

1. السعديون والوقف:

قلنا سابقاً أن أوقاف المساجد بفاس قبل قيام السعديين عرفت مرحلة عصيبة من تاريخها حيث قلت مداخيلها لكثرة المشاكل والاضطرابات السياسية نهاية العهد المريني وما نتج عنها من تطاول يد الحكام إليها واستيلاء المكتربين عليها، ولكن بصفاء الجو للسعديين بالمغرب اهتموا ببناء المساجد وأوقفوا عليها الرباع والضياع، كما أحيوا المدرسة منها¹.

أنشأ السعديون المساجد بالمدن كالجامع الكبير بالمحمدية الذي بناه السلطان محمد الشيخ وبناء جامع دكالة بمراكش من طرف أم السلطان أحمد المنصور مسعودة الوزكيطية سنة 995هـ/1587م وأوقفت عليه عديد الأراضي الفلاحية والمحلات التجارية من حوانيت وفنادق ومشغل ومعامل لعصر الشمع وغيرها²، وبنو خلوة الأسبوع العليا بالركن الجنوبي الغربي من مسجد القرويين في عهد السلطان عبد الله الغالب بالله (1557-1574م) في 970هـ/1562م، وعرفها ابن القاضي في الجذوة بزاوية الحزابين، وكانت أموالها من أحباسها، فيختم بها القرآن كل شهر ويقرأون سورة الكهف كل جمعة بعد صلاة العصر وعدداً من الصلاة على النبي (ﷺ) دُبر كل قراءة، وبين العشاءين لليلة الاثنين والجمعة³.

إذا تتبعنا المساجد التي أقامها السعديون أو ما أنجزوه بها مع أوقافها لربما أخرجنا ذلك عن غايتنا، لذلك فقد وفرت تلك الأوقاف في العهد السعدي للمساجد دخل مهم ساهم بقسط كبير في استمرارها كمؤسسة دينية تعليمية، وقد أحصت حوالة 998هـ/1589م عدد

¹. بنقلة، المرجع السابق، ج1، ص 201-203.

². نفسه، ص 205-206.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 334-335.

العقارات المحبسة بـ 1460 وقف داخل وخارج فاس من حوانيت وجنان وعرصات تابعة للقرويين¹ لتفويض مداخلها ليس على المساجد فقط وإنما تعدتها لتعمير المدينة على إثر السيل الكبير الذي ضرب فاس في جويلية 1009هـ/1588م في عهد السلطان أحمد المنصور، وتجديد سد الوادي الأمر الذي أطلق قريحة الأدباء شعرا كأبي العباس المقري في ظل الفرحة العامة لنفوس الناس².

كما زود السلطان أحمد المنصور خزانته بالقرويين بالكتب من مراكش وفاس انطلاقا من أواسط رمضان 1001هـ/1592م حسب الدراسة التي قام بها الد. بنعلة حول الوقف وهو كأقدم تاريخ في ذلك، وقدر عددها بـ 175 كتاب، لم يبق منها سوى ستة كتب حسب نفس الدراسة، فقد وقف عليها في سنة 1008هـ/1599م سبعة وثلاثون كتابا وفي 1009هـ/1600م ستة وعشرين كتابا وفي 1010هـ/1601م اثني عشر كتابا، وهذه فترة رخاء دولة المنصور التي استغنت بذهب السودان، وفي 1011هـ/1602م وقف سبعة وخمسين كتابا أثناء تواجده بفاس، ومنها كتابان للعالم أحمد المنجور الأول: "مختصر نظم الفوائد ومبدي الفرائد في شرح محصل المقاصد"، والثاني: "حاشية على العقيدة الكبرى للسنوسي"، كما وقف ابنه زيدان اثني عشر كتابا على الخزانة العليا سنة 1018هـ/1609م³.

وبسبب الفتن والاضطرابات التي حدثت بعد وفاة السلطان المنصور السعدي بين أبنائه وأحفاده على سدة العرش، أدخل البلاد في مستنقع الحرب، فانعكس هذا سلبا على الأوقاف وأعادها إلى مرحلة نهاية الوطاسيين، من نهب واستيلاء عليها ومداخلها، مما جعل العلويين يجهدون في إعادتها، كما فعل السعديون قبلهم أثناء عزهم.

2. العلويون والوقف:

لقد ورث العلويون ما خلفه السعديون ومن كان قبلهم من دول، فكانوا كامتداد للعهود السابقة فوجهوا عنايتهم بالوقف من إصلاح وتنظيم، فضمنت استمراريته في أداء رسالته في

¹. ينظر الملحق الثالث الوثيقتين رقم 22 و25. خاصتين بذلك، ص 457-460.

². القادري، نشر المثاني ...، المصدر السابق، ج1، ص 79.

³. بنعلة، المرجع السابق، ج2، ص 87-90.

الحياة المجتمعية والثقافية، من خلال نشاط العلماء وتوسع مجالسهم في العلم ونشره، فبرز نخبة من العلماء الأفذاذ، فاهتم أول الملوك العلويين محمد الشريف (1050-1075هـ/ 1640-1664م) بالأوقاف الخاصة بالقرويين، فجمعها في عدة حوالات¹.

وعند دخول السلطان الرشيد (1075-1082هـ/ 1664-1672م) لفاس واستشارته للأستاذ أبي زيد عبد الرحمن بن القاضي الفاسي فيمن يوليه النظارة اقترح عليه مسعود الشامي² الذي امتنع عن تقلدها في البداية فسجن سبعة أشهر، ولما ضاق به الأمر أجاب على شرط ألا يتعرض له قاض ولا وال، لأن الأحباس كلها حازها اللصوص والأشراف أيام الفتنة حتى كادت أن تتأصل كلها واشتغل بالبحث عنها واستظهارها ومن أتهم ببيع أو أرض أو جنان أو دكان يحوز ما عنده من الرباع فما ظهر رسمه رده وما وجد مغصوبا أو لا رسم عنده علم أنه مغصوب فيحوزه للحبس حتى رد الأوقاف كلها وزاد عليها ما وجد مغصوبا من الوقف أو غيره³.

فسعى السلطان الرشيد لجمع شعث الأوقاف بعد شتاتها، فاستفاد منها العلم والعلماء والطلبة⁴ سواء بفاس ومساجدها الكبرى والصغرى، أو بالزوايا كالفاسية بالقلقلين والناصرية بتمكروت والدلائية بدلاء⁵، وبإعادة الأوقاف المغتصبة من أحباس القرويين في الفترات السابقة، عن طريق الناظر مسعود الشامي الذي جمعها في حوالة لسنة 1075هـ/ 1664م أحيي السلطان سجل الأوقاف المندرس في المغرب الأقصى، بسبب الفتن من العهد المريني إلى نهاية العهد السعدي، فشوهت تلك السجلات بالتقليص والمسح، فضاع جزء وأهمل الآخر فتم إعادة تلك الأملاك المحبسة لمصدرها الأول لجامع القرويين⁶.

¹ ينظر الملحق الأول الوثيقتين رقم 1، 4. خاصتين بذلك، ص 434-437.

² محمد الطنجي، "موقف ملوك الدولة العلوية وفخرها المولى إسماعيل"، عن مجلة دعوة الحق، ع7، ص6، ذو القعدة 1382هـ/أفريل 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م، ص 23.

³ نفسه، ص 24.

⁴ ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 8، نص تحبيس السلطان الرشيد لكتاب العمدة للقرويين، ص 441.

⁵ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 186.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 704.

وأمر السلطان إسماعيل بضم سائر أوقاف المساجد إلى أوقاف القرويين، وذلك حينما رأى كثرة الأوقاف بالبلاد وخشي عليها الضياع والنسيان والغصب، والسرقة¹، فأصدر أمره إلى النظار في كل جهة من الجهات بإحصاء الأوقاف وتسجيلها في دفاتر خاصة تكون كوثائق قانونية وتاريخية بين أيدي الأجيال القادمة كي يتعرفوا منها أملاك الأحباس، ومقاصد المحبس²، وجمعها ونظمها القائد أبو عبد الله الروسي، في حوالة سميت «بالحوالة الإسماعيلية»³.

أدى ذلك إلى جدل بين كبار العلماء كالشيخ عبد القادر الفاسي (ت1091هـ/1680م) وقد كان نظر السلطان بضم الأوقاف تحت غطاء واحد قصد حراستها وجمعها في هيئة يقوم عليها الناظر والشهود حتى لا تمسها يد السنون بالتغيير، وتتحول عن مقصدها إلى ملكيات خاصة، كما قام السلطان إسماعيل بتدريس سجلات الأوقاف على أساسين، أحدهما ما تمخض لجانب القرويين والعلماء والطلبة والسير المالي للجامع من حيث إنارته وسقيه وفرشه، وثانيهما ما تمخض من أعمال البر والإحسان، بما يمكن أن يدرج في أوقاف "المارستان"⁴.

فقسم الرباع وميزها بين ما يكفي لسير القرويين في حوالة خاصة، وما يفضل عنها يصرف في المشاريع الأخرى في حوالة بعنوان أوقاف المارستان، وعدت الدولة الحوالة الأولى بمنزلة وثيقة تضم أيضا التزامات الملوك والمسؤولين فيما يمس التبرعات والعطاءات الموجهة مثلا إلى الديار المقدسة، وأصبح كراء الرباع بالمزايدة العلنية وليس بالاتصال المباشر بين المؤجرين والقابضين⁵.

وجاء في حوالة تازة الجامعة المكتوبة في عهد السلطان إسماعيل بتاريخ 1116هـ/1704م الثناء على السيد محمد القيسي الفاسي نظار الأوقاف العامة، بما قام به في

¹ الطنجي، المقال السابق، ص 23.

² الجراي، "الأوقاف الإسلامية ونظامها.."، المقال السابق، ص 95.

³ بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 209-210.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 704.

⁵ نفسه، ص 704-705.

الإيالة المغربية وتسند النظر في عموم الأحباس بعد القيسي إلى السيد بلقاسم المسطاسي الذي كان بمنزلة وزيرها ينظر في جميع مصالحها بأمر من السلطان إسماعيل، وقد جدد السلطان عبد الله بن إسماعيل للناظر العام ما كان عليه من الولاية العامة على أمور الأحباس، بنص ظهير مؤرخ بمنتصف جمادى الثانية 1143هـ/ديسمبر 1730م¹، فتأسست بذلك النظارة العامة للأوقاف «الوزارة الحبسية»².

وعندما تولى السلطان محمد بن عبد الله أخذ جميع الأوقاف وجعلها في يد ناظر واحد وتبعه في ذلك السلطان عبد الرحمن بن هشام فقلل عدد النظار وجعل في كل مركز من المراكز ناظرا أو ناظرين على الأوقاف العمومية، سعيًا في لَمِّ شعثها وحرصًا على حراستها³ وخاصة عندما أصبحت تشاع عملية معاوضة أملاك الأوقاف بغيرها من الأملاك الخاصة فأصدر أوامره الصارمة بمنع المعاوضة في الوقف، وكلف القضاة والولاة على الخصوص بمنعها منعًا باتًا، فتقرر ذلك في حياته بفاس عاصمة الشمال⁴.

كما قام بها قبله السلطان سليمان الذي أمر بإحصاء سائر الرباع المتروكة أو المجهولة بفاس، وجمعها في حوالة سنة 1219هـ/1804م فجاءت من أجمل الحوالات الوقفية للقرويين، وأدقها لتدعى بالحوالة السليمانية على يد ناظره الحاج عبد النبي بنيس، وقد اعتمدت هذه الحوالة على حوالة تعود إلى سنة 994هـ/1586م واهتمت بالتمييز بين ما خصص للقرويين وما للمارستانات، وتطرقت للكراسي العلمية وكل ما يتعلق بها بدور الوقف في الحياة الثقافية والاجتماعية⁵، حتى لا يرقى إليها مطمع من النظار عن طريق التبديل أو العزل أو الوفاة⁶.

¹ الطنجي، المقال السابق، ص 25.

² الشيخ محمد المكي الناصري، الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المغرب 1412هـ/1992م، ص 17.

³ الجارري، "الأوقاف الإسلامية ونظامها .."، المقال السابق، ص 95.

⁴ مجهول، "تاريخ الوقف ..."، المقال السابق، ص 9.

⁵ ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 1، الحوالة السليمانية 1219هـ، ص 434.

⁶ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 2، ص 455.

النظرة العامة التي كان ملوك الدولة العلوية يطبقونها كمن قبلهم من ملوك الدول السابقة هي اعتبار الأوقاف الإسلامية تراثا خاصا لجماعة المسلمين، ورصد مداخيلها وأوقافها للقيام بشعائر الإسلام، وتعليم الدين وما إليه من معارف ومواساة البؤساء والغرباء فكان دخلها يصرف في المساجد والمدارس والملاجئ والمارستانات وأحيانا على تحصين الثغور وإنارة الدروب، وتنظيف الشوارع وتوزيع المياه وكانوا يأذنون بالإنفاق من أحباس جهة على جهة أخرى متى كانت المصلحة تقتضي ذلك، وهكذا استمر ملوك الدولة العلوية يراعون الأوقاف ويعيرونها اهتمامهم الخاص دفاعا عن قداستها واسترجاع ما اغتصب أو يغصب من أملاكها وعقاراتها¹.

3. الحوالات الحبسية²:

أصدر السلاطين العهد السعدي والعلوي أوامر للنظار بإحصاء الأملاك الوقفية وتدوينها في سجلات خاصة عرفت بالحوالات الحبسية³، وهي سجلات ودفاتر خاصة ورسمية، تدون فيها شؤون الأوقاف ونصوص إثبات ملكيات المحبسين لموقوفاتهم ومقاصدهم، وسميت بالحوالات لأنها حولت إليها الوثائق الفردية وضمت في ديوان شامل لها⁴، أو من الحول أي العام لأنها تجدد كل سنة، في أكثر الظروف التي مرت بها القرويين، لذا سائر الحوالات يتم تهيئتها في ذي الحجة لتكون جاهزة في غرة محرم⁵، فبقيت الحوالات مصونة وغاية المحبسين مطبقة دون تبديل أو تغيير كوثيقة قانونية وتاريخية جيلا عن جيل⁶.

ففي العهد العلوي كانت أول حوالة لمحمد الأول عرفت بالمحمدية في 1052هـ/1642م وحوالة 1058هـ/1648م تشتمل على زمام الأكرية عن إذن الناظر الفقيه أبي محمد عبد الوهاب بن العربي الفاسي، وثالثة في عام 1059هـ/1649م ومكتوبة على رق الغزال، وهو

¹. الجراري، "الأوقاف الإسلامية ونظامها.."، المقال السابق، ص 95.

². ينظر الملحق الأول، الوثائق رقم 1، 2، 4. كنماذج عن الحوالات الحبسية، ص 434-437.

³. مجهول، "تاريخ الوقف..."، المقال السابق، ص 9.

⁴. المكي الناصري، الاحباس الإسلامية...، المرجع السابق، ص 17.

⁵. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 2، ص 459-460.

⁶. المكي الناصري، الاحباس الإسلامية...، المرجع السابق، ص 17.

يدل على استرجاع المدينة لهدوئها بعد الفتنة بنهاية السعديين¹، وفي عهد الرشيد كتبت عدة حوالات كسنة 1079هـ/1668م، وحوالة 1080هـ/1669م، وحملت في طياتها ما يشير لدور الوقف في الحياة العلمية والثقافية من كراسي وخزانات، فاستفاد أهل العلم من مداخل الأوقاف من مرتب ومؤن وغيرها، باستثناء من كان يتعفف من أخذ مال الأوقاف².

وفي عهد السلطان إسماعيل نظمها القائد أبو عبد الله الروسي، في حوالة سميت «بالحوالة الإسماعيلية» التي وقعت في سبعين وأربعمائة صفحة، واشتملت موقوفاتها على: الطعام للضعفاء والمساكين، إعانة الفقهاء والمدرسين، والأئمة والمؤذنين والخطباء والوعاظ وقراء الأحزاب وتعليم الصبيان وتكتيب المبتدئين وتنبيه المصلين لتعديل الصفوف بجامع القرويين والأسرى والمرابطين والمجاهدين بالثغور وغيرهم من الجهات³، ولأول مرة تكتب على نسختين زيادة للاحتياط، كما فوض النظر في الوقف أحيانا للقاضي وأحيانا للمفتي وفصلت الحوالة الإسماعيلية بين الرباع الموقوفة على القرويين والموقوفة على المارستان⁴.

كما تضم الحوالة العبدلوية لائحة لأسماء المخطوطات المهداة للقرويين في 22 رجب 1156هـ/10 سبتمبر 1743م، وحوالة محمد بن عبد الله (محمد الثالث) احتفظت بنمط الحوالة الإسماعيلية وأضاف فيها ما يستدعي الحاجة كالتزاماته للحرمين الشريفين وأهل الحجاز ومصر والإسكندرية والشيخ أحمد الزروق بمصراته وحوالة 1219هـ/1804م السليمانية من أجملها وأدقها، فاعتنى بالأوقاف اعتناء فائقا، كما اهتمت هذه الحوالة بالتمييز ما للقرويين وللمارستان⁵.

ثم حوالة 1245هـ/1830م للسلطان عبد الرحمن فهي جمعت ما سبق من الحوالات الإسماعيلية والسليمانية، فكانت الحوالة العبد الرحمانية الجامعة المانعة للأوقاف من الاندثار والضياع وصونا لها من الذوبان في أملاك الخواص، وأضيف فيها المساجد والزوايا الحديثة

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 705.

² بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 163-189.

³ ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 3، الخاصة بالوقف على الأسرى والمساكين، ص 436.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 706.

⁵ نفسه، ص 707.

وقد جمعت على يد القاضي عبد الهادي الحسني العلوي والناظر علال الشامي، ورتب فيها المساجد مع التنبيه على ما فيها من كتب وكراسي علمية وأوقافها، ونبه على مختلف العرصات الصالحة الموقوفة لها ولغيرها، وعرض العقارات الخربة لبعدها عن العمران كما هو الحال في باب الفتوح وباب المسافرين وغيرها بمدينة فاس، وغيرها من الجنات ومساحاتها خوفا من ضياعها كما نبه على المكاتب (المسايد) المعدة لتعليم الصبيان والأمر الذي جاءت به هذه الحوالة تجسيد أمر سلطاني المانع للمعاوضة في الأوقاف لتزايد هذه الظاهرة ومنعها منعا كلياً باتا لتجنب الوقوع في بعض التلاعب¹.

وقد حفظت الحوالات الوقفية عددا كبيرا جدا من مختلف أنواع العقارات بلغت حوالي أربعة آلاف في داخل فاس وحدها، وبلغت في عهد السلطان إسماعيل 3456 بقعة وفي عهد السلطان سليمان 3199 بقعة ولذلك أصبحت مضرباً للمثل فإذا أراد أحد أن يطلب الرضى من الله على أحد يقول: "الرضي عليك حبس ما تحبس على القرويين والأندلس" بمعنى عدد ما حبس على الجامعين²، فكل هذه الإجراءات التي اتخذها السلاطين في باب الأحباس بالعاصمة فاس غايته المحافظة على هذه المؤسسة الإسلامية وإحاطتها بسياس من الحصانة والإجراءات الإدارية والتشريعية التي تضمن استمرار أدائها لمهمتها الإسلامية السامية.

¹. بوركية، المرجع السابق، ج2، ص 374-375.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 709-711.

ثالثا. الوقف بالقرويين:

1. تطور أوقاف جامع القرويين:

حرص القائمون على جامع القرويين بجعله منبرا نقيا بمنع دخول أية أموال حرام فيه ويظهر في حيطتهم من أي بادرة خيرية تكون موجهة للمسجد، سواء ترميم أو فرش أو توسيع بضرورة التعرف على مصدر المال، بالسؤال عنه وجهاته القادم منها، وهو الأمر الذي درج عليه القائمون على الجامع منذ البداية، حتى لا يتركوه يشكو بلسان الحال الذي هو أفصح المقال، لذا بذل أهل الخير والعطاء فيه بالأوقاف، حتى غدت ميزانيته تنافس ميزانية الدولة ذاتها، بل أن الدولة لجأت إليه يوم الجوائح والصعاب، وفاضت أوقافه على سائر المساجد الموجودة بفاس لتشمل المسجد الأقصى والحرمين الشريفين وغيرهم¹.

وهذه الثروة التي امتلكها جامع القرويين تعود إلى مراحل نمو فاس ذاتها، حتى أضحت جل مرافق مدينة فاس في حيازة جامع القرويين من سقايات وحمامات وأراحي ودور وفنادق وحوانيت وقيساريات وأفران ومعامل...، حسبما أورده ابن أبي زرع والجزنائي² والوزان غير أنه دخلها الضعف فقد ذكر صاحب جذوة الاقتباس أن كثيرا من أوقاف المساجد أدخلها أهل فاس منافعهم وحسبوها من أموالهم في أيام المرابطين فردوها لأصولها وتم استخلاص 80 ألف دينار كدخل من تلك المباني والغلال في مدينة فاس³.

لذا وجد الموحدون أنفسهم أمام ثروة هائلة للقرويين، بسبب زيادة المرابطين في القرويين ورد الأحباس لأصلها مع زيادة تحبيس عليه، وغير أن عوادي ودوائر الزمن قد لعبت بأحباسه من جفاف وفتن خاصة في ق 7/هـ 13م حيث قلت الموارد والإنفاق على الجامع⁴ ويكفي أن نعلم أن في فاس وحدها أحصى في زمن المنصور ومحمد الناصر الموحدين 785 مسجدا و42 دارا للوضوء و80 سقاية عمومية و43 حماما... وكلها حبسية⁵.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 455.

². الجزنائي، المصدر السابق، ص 33.

³. بنعبد الله، "من مظاهر..."، المقال السابق، ص 12.

⁴. نفسه، ص 11.

⁵. الجزنائي، المصدر السابق، ص 33.

لذا بظهور المرينيين وجدوا عدد كبير من الأوقاف كان عليهم إنفاذها لصالح الجامع باعتباره مركز لتكوين الأنصار، فأنثروا أوقافه من خلال الأملاك والرباع في مختلف جهات المدينة ويورد الجزنائي أن غلاة أوقاف الجامع تصل أحيانا إلى 10 آلاف دينار فضية والرباع التي حبست في عهد السلطان أبي يعقوب كفندق الشماعين الفخم بفاس، كما أن التبرع بالخير ظل يغدق على الجامع بما يحتاجه وهذا حسب قدرة واستطاعة كل فرد متبرع فمنهم الصناع التجار، العلماء، الفقهاء...¹.

كما أنشئت المدارس الداخلية للطلاب وخصص لها أوقاف خاصة خارجة عن مداخل القرويين، ونقشوا تلك الموقوفات على رخامات مغروزة بجدران تلك المدارس، ومن البقاع الموقوفة الفنادق والتربيعات والمصانع والبيوت والأفرنة والأرحية المنتشرة في أحياء المدينة فإذا قمنا بجرد تلك الموقوفات على ما هو داخل لجامع القرويين يمكننا أن نتصور مقدار المبالغ المالية المحصلة له، وماذا كان عليه سجل الأوقاف لتلك العهود²، لتتعدى عملية وقف الأملاك والعقارات لجوانب أخرى من أواني مكسرة، تزويج المقلين، الأسرى لدى العدو مارستان وتجديدها، وغيرها من جوانب الحياة³.

ولكن ما عاشته فاس نهاية الحكم المريني جعل الوطاسيين يقومون بخطوة جريئة، وهي جمع ودمج جميع أوقاف المساجد ونظارتها تحت راية جامع القرويين⁴، وهذا قصد استقطاب موارده وحصرها في إدارة القرويين، وبمقتضاها أصبحت سائر الأوقاف إلى الجامع الأعظم وعلى الناظر أن يستخلص المقبوض كله ليسير سائر المساجد بفاس وقد أستند في هذا العمل إلى فتوى الإمام العبدوسي (ت955هـ/1548م)، كما أحدث الإصلاح ترتيبات جديدة

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 456.

². بنعبد الله، "من مظاهر..."، المقال السابق، ص 11.

³. علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، اعتنى بنشره: الشيخ محمد بن أبي شنب، مطبعة جول كربونل، الجزائر، 1339هـ/1929م، ص100.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 453.

كتنظيم الأجور للقائمين على الأحباس وجمعها، من ناظر وشهود وكتاب وهذا ما أشار إليه الونشريسي وصار العمل بعدها¹.

وقد أحدثت الفتوى زوبعة كبيرة من الجدل ولكنه لم يؤثر على أصحاب القرار الذين مضوا في تنفيذ الإصلاح، وهكذا جعلت سائر المساجد تحت إدارة مركزية واحدة، وكلف الناظر في الإشراف على جميع واردات الجامع ويساعده أعوان، لتطرح بعدها على مساجد فاس والفائض على بعض المصالح العامة بالمدينة، ولأغراض أخرى وعمل به في العهد السعودي الذي اتسعت دائرة الأوقاف فيه بشكل كبير فإن الميسورين من مراكش كانوا يحبسون عقاراتهم على القرويين رغم البعد فأصبح هذا الجامع من أعظم المؤسسات الحبسية في العصر السعودي²، مما جعل السلطان المنصور يستعين بها في مشاريعه، ولكن البلاد دخلت بعد وفاته في أزمة داخلية كادت أن تأتي على بقية التنظيمات الوقفية³.

ويورد القادري ما كان يعانيه النظار أثناء أداء مهامهم باصطدامهم ببعض المتلصصة على الأوقاف، الذين كانوا من الرجال النافذين بالمدينة من رؤساء الرماة بفاس، فأخذوا أحسن العقارات المدرة بأثمان بخصة، فتعذر على النظار خوض المواجهة معهم، وأعطى صورة عن مجهودات الناظر محمد بن أحمد الفاسي (ت. 1179هـ/1765م)، الذي تولى أمورها بالقبض والصرف واعتنى بها، رغم الدخل الذي حازه هؤلاء المتنمرون، فإن ما بقي لصرفه على مصالح جميع مساجد فاس قدره القادري بـ خمسة وعشرين مثقالا في كل شهر، دون أجرة الناظر والعدول والقباض، وأي حبس تداعى أو في طريقه يسهر على الناظر وأتباعه فيمن يصلحه، ساعيا لرد الأوقاف إلى أصولها، وقال القادري إن إصلاحه للأوقاف كان في زمن قد فسد وضعه، لذا فمواجهته للتيار الجارف بصدر عار جعله يتخلى عن هذا المنصب، ليتوجه إلى الاهتمام بزاوية أجداده بالقلقلين⁴.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 459.

². ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 19، صور من المحلات الحبسية على القرويين، ص 453.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 458-459.

⁴. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج4، ص 165-166.

وهي تقريبا صورة عامة عاشتها أحباس القرويين في العهدين السعدي والعلوي أمام هؤلاء النافذين الذين تلصصوا عليها لخدمة أغراضهم بالسطو على أموالها أو استغلالها لصالحهم الخاص، فكانت تلك النقطة دائما تؤرق نظار الأحباس.

2. مداخل جامع القرويين:

عرفت مدينة فاس بنشاطها الاقتصادي بمختلف أشكاله، مما أدى لقيام نظام النقابات المهنية والحرفية، فلكل حرفة أو مهنة عريف، وهو صاحب المعرفة أو الأمين مهمته فض النزاعات داخل حرفته أو مهنته وحكمه نافذ فيهم¹، وتموقت تلك الحرف والمهن حسب الرفعة والوضاعة، فكان أشرفها بالقرب من جامع القرويين، فيشغل العدول حوالي 80 دكانا وبعضها لصيق وبعضها الآخر مقابل له وفي كل دكان عدلان ، وإلى الغرب نحو 30 من الكتبيين وقد فصل فيهم التازي في كتابه جامع القرويين والحسن الوزان في وصف إفريقيا وإلى الجنوب بائعو الأحذية يشغلون 150 دكانا، وغير بعيد عنهم دكاكين الخزائين الذين يشغلون نحو 50 دكان².

وإلى الشرق من الجامع باعة الأواني النحاس، وبالجهة الغربية يوجد باعة الفواكه في نحو 50 دكانا، وبعدهم الشماعون، وغيرها من الحرف التي تأخذ في الابتعاد عن الجامع من بيع الزهور واللبانين والقطانين وصانعي الجلود وبائعي الملح والجبس والأواني الخزفية...³ ونفس الأمر نجده عند مارمول⁴، وأسعار كراء تلك المحلات والسكنات ترتفع كلما اقتربنا من الجامع.

كان جزء كبير من محلات وبنائات وأراضي بمدينة فاس محبسة، ورباع مسجلة وموثقة في زمامات خاصة بها بيد النظار تسجل فيها ما يتعلق بالحبس والقائم عليه ومختلف المداخل وأوجه نفقتها، وقد أحصت حوالة 998هـ/1589م عدد الحوانيت المحبسة على

¹ بن سودة، المقال السابق، ص 131.

² الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 233-234.

³ ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 19، صور لبعض المحلات الموقوفة على القرويين، ص 453.

⁴ مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 150-152.

جامع القرويين بـ 1376 حانوت¹، ما يجعل غالبية محلات فاس في ملك القرويين، وهذا ما قاله الحسن الوزان السابق للسعديين²، وتقع بعدوة القرويين في المنطقة اللطمية، أي أن أندلس القرويين كانت للسكنى، وتطورت البنايات التجارية والمعامل بالأحياء القريبة من باب الجيسة، الطالعة، القيسارية وبالوادي أي قرب الأبواب لانفتاحها على البادية وإنشاء الأسواق، وكان الكراء الشهري ما بين أوقية إلى ثلاث أي بمتوسط أوقيتين، وقد وفرت بعضها سنة 962هـ/1554م دخلا شهريا قدر بـ 605 أوقية³، في حين وفرت الحوانيت لسنة 998هـ/1589م ما يقارب شهريا من 2460 أوقية أي 246 مثقال⁴.

وتعددت الحرف الممارسة بالحوانيت المحبسة على القرويين أهمها الأحذية الشعبية 150 حانوت، الأسرجة 10 حوانيت، بيع الفواكه 50 حانوت، أدوات للفرسان 40 حانوت، صناعة الأواني 30 حانوت، وكذا الفنادق التي درت المال الكبير على القرويين كفندق الشماعين في 963هـ/1555م بـ 35 أوقية والشراطين 19...⁵، وبها حسب الوزان 200 فندق ذات إتيقان وجمال وفساحة ومكونة غالبيتها من ثلاثة طوابق⁶، وهذا التعداد الكبير للحوانيت والفنادق يعود للحركة التجارية المربوطة بالطرق التجارية المتوقفة بدورها على مدى الاستقرار والأمن، لذا عملت الدول المتعاقبة والمتلاحقة على فرضه لتسهيل المواصلات فوصلت بتجارها شمالا وجنوبا وشرقا، مع بناء القناطر وحفر الآبار⁷.

وكانت الأراضي المحبسة على جامع القرويين تكتري سنويا، ومداخلها تتراوح ما بين 40 أوقية كأدنى قيمة و130 أوقية لأعلاها سنة 961هـ/1554م وهي تختلف حسب المساحة والقدرة الإنتاجية، ثم تأتي الحمامات في المرتبة الثالثة من حيث قيمة الكراء التي تصل لـ

¹ ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 22، حول الحوانيت المحبسة على القرويين في 998هـ، ص 457.

² الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 227.

³ ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 24، حول مداخل بعض العقارات المحبسة على القرويين، ص 459.

⁴ بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 409.

⁵ ينظر الملحق الثالث، الوثيقتين رقم 23، 24. حول مداخل القرويين، ص 458-459.

⁶ الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 231.

⁷ بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 412.

50 أوقية في الشهر¹، وأكد الوزان تبعيتها للمساجد إلى جانب مائة حمام وأربعمائة طاحونة جلها تابعة للقرويين وكراؤها بمتقالين لكل رحي²، وتوظيف عشرين ألف عامل وهي ثاني صناعة بالعهد السعدي بعد النسيج، وغيرها من الأراحي المكترة ما بين ثلاث إلى ست أوقيات في الشهر، والأفران ومداخيل أكرية الدور والمصريات والأطرزة بأقل من أوقية شهريا³.

وفي أرجاء المدينة كانت هناك مساحات فلاحية قليلة السكان خصوصا بالجنوب الغربي والشمال الشرقي لمدينة فاس وقال الوزان أنها احتوت على بساتين منمقة بأروقة وصهاريج غاية في الجمال⁴، والبستان المسقي عبر عليه باللسان المغربي بالعرصة ودونه جنان⁵، وقد أحصى الدكتور بنعلة تلك الجنان المحبسة على جامع القرويين داخل المدينة بأسمائها وغلاتها في القرن 10هـ/16م والمقدرة بستة عشر جنان منها الوادي، الزيات، البطحاء الرقادة، وبالجهة الجنوبية الغربية حي العيون، القلقليين، وشمالا الطالعة والشرابليين وفي الشرق البليدة وغيرها من الجنان ذات الغلال الصيفية والخريفية⁶، لتصل بفاس إلى 141 جنان داخل المدينة وتقع أغلبها جهة الرميطة، العيون...، والعرصات الواقعة بقرب الأبواب عددها واحد وثمانون، أما خارج فاس فهي مقسمة بين ملك الأحباس والخواص وعددها مائة عرصة، وأنتجت تلك الأراضي الفلاحية المحبسة غلال متنوعة من فواكه: تفاح، خوخ، تين وغيرها من الفواكه والخضر والأزهار وأوراق التوت، وكان هذا النشاط مرتبطا ومتأثرا بالعوامل الطبيعية والبشرية وحتى التقنية⁷.

¹. Berque, Ulémas..., Op.cit, p 226.

². الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 229-233.

³. ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 23، حول مداخيل الحمامات والأرحية والأراضي المحبسة على القرويين، ص 458.

⁴. الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 248.

⁵. روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1416هـ/1996م ص 696.

⁶. لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 694.

⁷. بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 456-461.

أما خارج مدينة فاس وأحوازا بساتين وغابات تابعة للقرويين جهة صفروا بوادي بوفكرون ومنحدر وادي الملاح والوادي الصغير المحادي للأسوار شمالا إلى غاية عين زليطن، حيث انتشرت غابات الزيتون التي امتلك القرويين ثمان وعشرين غابة وهو من أكبر ملاك لأشجار الزيتون في ناحية فاس، ويحتل المرتبة الأولى مع الحبوب، ويدخل في عدة صناعات كالصابون الذي ازدهر إنتاجه في القرن 10هـ/16م وبعده¹.

كما امتلك عام 998هـ/1589م تسعة وعشرين جنان وإحدى وثلاثين غابة زيتون وسبع وعشرين أرض حراثة، كان استغلالها يتم بطريقة مباشرة خصوصا على الأوقاف المعينة أو الخاصة لمن عين لها وقبض مالها المستفيدون، وسادت الأملاك الفلاحية المحبسة حبسا عاما، فكانت الأرض تكتري مقابل أجر سنوية يجمعها القباض لتتنفق على المؤسسات التي وقفت عليها، تحت رعاية النظار والقضاة المكلفين بالأحباس، وبيع غلاتها يتم عن طريق تقرير أهل البصر والمعرفة وزمامات بيع الغلال، فعند الشروع في بيع الغلال التابعة للأحباس يكلف القاضي أهل البصر والمعرفة من معاينة تلك الغلال الفلاحية ووضع تقرير شامل لها ليقوم القاضي بالموافقة في الأخير².

وبعد تحديد ثمن بيع الغلال الفلاحية التابعة للأحباس عن طريق تقرير الخبراء الفلاحين تأتي عملية إدراج أسماء المشتري لهذه الغلال بواسطة السمسرة العمومية، وتدرج تلك اللوائح الأسماء في زمامات وتقيد فيه كل حيثيات البيع والشراء، ما فيه وعليه بوجه التدقيق من التزام الشاري وتاريخه وتوقيع العدول³.

من خلال هذه النظرة على أحباس القرويين الفلاحية فقد كانت مضبوطة بصورة تجعل استغلال تلك الأحباس لأقصى حد لتعكس على الحياة العامة، فهي تشغل عددا كبيرا من سكان فاس وغيرها من مختلف الفئات والجهات، بفتح باب الاسترزاق لمن يستغل هذه الأحباس فعليا سواء بالكراء أو الشراكة، ومن يشرف على تلك الأحباس الموقوفة ويسهر

¹. Berque, Ulémas..., Op.cit, p 226.

². ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 5، تقرير أهل البصر في تحديد أثمان غلة الزيتون، ص 438.

³. بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 428.

على بقائها وديمومتها، والجهات التي وقفت عليها تلك الأحباس سواء للجامع أو العلماء أو الأئمة وغيرهم، فساهمت تلك الأوقاف في تحريك العجلة الاقتصادية بمدينة فاس بفتح باب الشغل (فلاحة أو تجارة) وتوفير مواد أولية (غذائية أو صناعية). وكل هذا زاد في تضخيم الثروة المالية للقرويين، حتى أنها نافست ميزانية الدولة، لتصل لحد الإقراض كعام 961هـ/ 1554م في عهد أبي حسون الوطاسي لما دخل فاس بالجيش الجزائري، وأيضا استعانة السلطان المنصور بها في بناء الباستيونات بفاس الجديد لولوعه بالبناء¹ وما هدمه السيل بفاس عام 1009هـ/ 1588م².

يظهر من المدخول اليومي للأحباس التي يصل في بعض الأحيان لأزيد من سبعمائة أوقية أو سبعين مثقالا فإنه كان يصرف في حينه، وتوجه كما قلنا إلى الجهات الموقوف عليها ولتجهيز المؤسسات الحبسية بكل ما تحتاجه من منابر، زيت الإنارة، الحصر، أدوات التوقيت وكتب للخرانات ويذكر بنعلة حول حوالات تارودانت التي وضحت في وثيقة وقفية مؤرخة عام 991هـ/ 1583م مقياس الحصر وثنمها والمواد المستعملة فيها وصانعها، كما يتوجه بالفائض من مال الأحباس لشراء العقارات الجديدة من أراضٍ فلاحية ومحال تجارية وغيرها لتحبس على أهم المساجد³.

ومما جرى العمل به بفاس وأمضى عليه عمل القضاة أن أحباس المساجد حددت مدة كرائها للأرض بأربع سنوات والدار بسنة، أما الكراء لمدة طويلة تصل إلى أربعين أو خمسين سنة أو حتى أكثر من ذلك، فهي مفسوخة سواء وقع الكراء نقدا أو لا، وهذا خوفا من تحويل أصلها الحبسي إلى ملك خاص بفعل التقادم عن طريق البيع بالمبلغ الرمزي، لأن الكراء بهذه المدة الطويلة معناه بيعها⁴.

¹. مجهول، تاريخ...، المصدر السابق، ص 63.

². القادري، المصدر السابق، ج 1، ص 83.

³. بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 476-483.

⁴. المهدي الوزاني، المصدر السابق، ج 8، ص 352-356.

وباعتبار أن عددا كبيرا من أحباس القرويين هي غلال الأراضي الفلاحية، فإن هذه الأخيرة كانت عرضة لعدة جوائح وأوبئة وعلى رأسها الجفاف مثلما حدث ما بين 960هـ/1553م و1015هـ/1606م، وما بين 1213هـ/1798م و1236هـ/1820م¹ فسنين قحط قد أثرت على الجنان التابعة لأوقاف القرويين، كيف يتعامل القائمون مع الأمر؟.

وهنا يتدخل أهل الخبرة والبصر من الفلاحين بتكليفهم من القاضي بالتوجه إلى تلك الأوقاف ومعاينتها وتقديم تقرير عنها، وقد أوضح الد. بنعلة الدرجات التي كان يقيس بها هؤلاء الخبراء تلك الأراضي المعرضة للجائحة على مقاييس تحدد بها نسبة ما يدفعه المكثري أو يعفى من الدفع، على سلم من سبع درجات أدناها الجنان الذي لم يتضرر تصاعديا إلى من فقد كل غلته وبينهما من بقي النصف، الثلث، الربع، الخمس والسبع².
يوثقون ذلك في جدولٍ مقسم لخانات مرتبة حسب سلم درجة التضرر، بذكر اسم البستان أو الجنان في خانة ونسبة درجة تضرره في خانة مناسبة³، وتحكمت في هذه النسب الخاصة بالجنات شدة الجفاف من خفته، ويقدم أهل البصر التقرير لقاضي الجماعة للموافقة عليه فيوقع ويختتم بعد إشهاد وتحقق⁴، وهذا الغرض منه هل المكثري للوقف يدفع ما عليه من كراء أو لا؟، وهنا نجد الونشريسي أورد في المعيار من أجوبة الفقيه عيسى بن علال بسبب رفض المكثرين أداء ما عليهم من مال الكراء للناظر نتيجة الجفاف، وحول من يتقدم لتقدير تلك الجائحة هل هم أهل البصر من الفلاحين أم العدول؟ ومتى يكون ذلك في الربيع أم في الصيف؟.

ففي الأولى لا بد من وقوع الجفاف وتقديره بالنصف بشهادة الخبراء وإلا فرض الكراء والثانية في الصيف لا الربيع حيث تستوي الغلة وتنضج، وقال: "...الكراء لازم للمكثري إلا

¹. منصور، "مصدر جديد.." مقال سابق، ص 50-54.

². بنعلة، المرجع السابق، ج 2، ص 220.

³. ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 6. تقرير أهل البصر عن جياحة أصابت جنات محبسة على القرويين، ص 439.

⁴. بنعلة، المرجع السابق، ج 2، ص 221-222.

أن يشهد عدلان من أهل المعرفة سبب نقصان الغلة عن القدر الوسط من المعتاد قلة المطر...¹.

كما أثرت الفتن بشكل كبير على الأوقاف، حيث اختفى كثير من العقارات واستولى عليها المستغلون والنظار، لتتحول تحت عدة صيغ إلى أملاك خاصة، وما بقي تعرض للتفريط والتخريب، لذا فإن السعديين عندما أخذوا زمام الأمور عملوا على إعادتها، لتضيق من جديد بعد ما عشته البلاد من فتن وأهوال، وهذا ما تؤكد الرسالة التي أرسلها السلطان محمد بزغودة لأحد خدامه بفاس والتي يبين فيها انقطاع منفعة المدشر المحبسة على خطيب القرويين وإمامها بانخفاض كبير في راتبه الشهري الذي يأخذه منها في 1037هـ/1627م ومحاولة الوثوب على أحباس المساكين والفقراء²، لذا قام العلويون بعد ذهاب ربح السعديين، بالبحث عنها وإعادتها لأصولها بمصادرة الأملاك التي لا يتوفر أصحابها على رسوم تملك واعتبروها مغتصبة وأرجعوها في حياة أوقاف القرويين كالسلطان الرشيد، إسماعيل وسليمان³.

3. أوقاف الكراسي العلمية والمواضع والجهات:

من بين الأوقاف التي كانت تابعة للقرويين تلك الأحباس المعينة على جهات بعينها من كراسٍ وكتب ومواضع، وقد وفرت مداخل مهمة لأصحابها الذين استفادوا منها، وهذا لاستمرارية الجامع في تقديم ما عليه من رسالة حضارية، ببث تلك العلوم في محيطه الاجتماعي من خلال كراسي هذا المسجد، كما وجدت أوقاف كثيرة على المدرسين والطلبة الخطباء، الوعاظ والأئمة، والمؤذنين وقراء القرآن والأحزاب صباح مساء والقيمين على التنظيف والفرش، وغيرها من المرافق التي تساعد على أداء العبادة في سهولة ويسر⁴ ونموذجاً يحتذى به في باب الإحسان وبر.

¹. الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 330-331.

². ينظر الملحق الأول الوثيقة رقم 7، رسالة السلطان محمد زغودة الخاصة بذلك، ص 440.

³. بنعلة، المرجع السابق، ج 2، ص 240.

⁴. الجراي، "الأوقاف الإسلامية ونظامها.."، المقال السابق، ص 93.

فإلى جانب تمتع كل من الإمام والخطيب بالسكنى المجانية من الدور المحبسة¹، كما تتكفل الأحباس بتجهيز محكمة القاضي والمرافق التابعة له للسكنى بها، وتختار من بين أهم الدور في المدينة، وكل ذلك بظهير سلطاني²، والموقتين والمؤذنين والنظار والوكلاء والحراس والمتعهدين... أصبح لكل واحد منهم بيتا يركن له كأنما ملكه وأصبح له أجر معين إلى جانب عطايا ووصايا للأبناء³.

كما أن هناك أوقافا خاصة أنشئت لمواضع معينة لجامع القرويين ومعهده، وهذا تقليد وجد بمصر والشام، بالجامع الأموي بدمشق وجامع عمرو بن العاص بالقاهرة، وعرف لجامعة القرويين ثمانية مواضع: سبعة بجامع القرويين، وواحد بجامع الأندلس: ستة منها لتجويد القرآن الكريم باللسان، واثنان لتدريس الرسالة القيروانية، وهذا تفصيلها:

ففي جامع القرويين نجد على سارية لم يعين موقعها لتجويد القرآن الكريم ومن أساتذتها سيد يعيش (ت 980هـ/1572م)، كان يوجد عندها للطلبة، سارية أخرى وهي الواقعة يمين العنزة أنشأ وقفها الشيخ الجليل أحمد بن محمد الشاوي (ت 1014هـ/1605م) وقد عين المحبس لهذا الوقف الأستاذ أحمد بن علي بن شعيب الفاسي (ت 1015هـ/1616م)، ومن يأتي بعده أرضا بـ"المطة"، ولم ينقطع عن الإقراء وهو في سن عالية لأن صوته مبين للحروف والحركات وإفرازا للكلمات⁴.

ووضحت "الحالة السليمانية" أحباس هذه السارية وهي الأراضي الموقوفة منها 2.5 هكتار بعين العرب وقرابة نصف هكتار في كل من ابن فيلو الصغير وبالدوائر وركية العلك والغرس والكوشة (يحتوي على حراثة أربعة أزواج) أوقفت على الشيخ أحمد بن شعيب، من زوال الشمس إلى المساء، عدا يوم الخميس والجمعة، وبعد موته فلمن يخلفه حبسا مؤبدا⁵.

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 119.

² بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 478.

³ الوزان، المصدر السابق، ج 1، ص 224-229.

⁴ محمد المنوني، "أوقاف بدون كرسي على مواضع معينة بجامعي القرويين والأندلس"، عن مجلة دعوة الحق، ع 6-7 س 9، ذو الحجة-محرم 1386هـ/أفريل-ماي 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م، ص 117.

⁵ المنوني، "أوقاف بدون كرسي..."، المقال السابق، ص 118.

ودرس للطلبة في عنزة القرويين من طلوع الشمس إلى ضحوة النهار كل من أبي العلاء إدريس بن محمد بن أحمد المنجرة التلمساني ثم الفاسي (ت 22 محرم 1137هـ/1724م)، وابنه أبي زيد عبد الرحمن، وفي صدر جامع القرويين حيث مجلس لم يحدد مكانه، وأستاذه أبو محمد عبد الله بن محمد المدعو ابن يخلف الأنصاري الأندلسي ثم الفاسي (ت 1162هـ/1749م)¹، ويقول التازي أنها كانت أيضا لتكتيب المبتدئين من المتقدمين في السن ومن أحباسها دار بزقة الجياد وداران بفران الكلاعي..² وفي ظهر الصومعة وبها كان يعلم أبو العلاء إدريس بن عبد الله ابن عبد القادر الحسني الإدريسي الودغيري الملقب بالبدرابي (ت الأربعاء 16 محرم 1257هـ/1841م)³.

إلى جانب سارية لتدريس الرسالة القيروانية لم يعين موقعها بهذا الجامع، وقد تعاقب عليها محمد بن قاسم بن علي بن عبد الرحمن ابن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي (ت 961هـ/1554م)، وولده أبو عبد الله (ت 965هـ/1558م)، وموضع آخر لتدريس الرسالة القيروانية وكان بالمستودع الذي عن يسار الداخل للقرويين من باب الكتبيين، والظاهر أنه يقصد البقعة المرتفعة يسارا لصف هذا الباب، وقد تولى التدريس بهذا الموضع جماعة منهم محمد بن حمدون الشدید الأندلسي ثم الفاسي (ت 1110هـ/1698م)، وولده أحمد (ت حوالي 1170هـ/1756م)، وحفيده الذي لم يحدد تاريخ وفاته، وعبد الكريم بن علي الزهني اليازغي (ت 1199هـ/1785م)، نفذه له السلطان محمد الثالث العلوي لما أهمل سابقه التدريس بهذا الموضع، وفي جامع الأندلس به أوقاف على سارية الأستاذ محمد الصغير دون أن يحدد موقعها، وكانت للقراءات السبع⁴.

إلى جانب مواضع أخرى ذكرتها الحوالات الوقفية التي حفظت عددا كبيرا جدا من مختلف أنواع العقارات بلغت حوالي أربعة آلاف في داخل فاس وحدها، وكان منها ما هو

¹. المنوني، "أوقاف بدون كرسي..."، المقال السابق، ص 118.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 711.

³. المنوني، "أوقاف بدون كرسي..."، المقال السابق، ص 118.

⁴. نفسه، ص 119.

محبس على المواضع كالعقار المحبس على الأسبوع الأعلى وأخرى للأسبوع الأسفل وهي تقيدات لجملة من الرباع المختلفة منها ما حبس على الذين يتلون القرآن بباب المحراب وبباب الرواح الوسطى وظهر خصة العين وقرب باب الصالحين وتحت الثريا الكبرى ورباع أخرى خصصت لمن يقوم على تكتيب المبتدئين من المتقدمين في السن، ورباع جعلت للموقت والمؤذنين الأربعين وقَّوم الليل في منار جامع القرويين¹.

وأوقاف الكراسي العلمية لكل كرسي على حدة، كالكرسي القريب من الثريا الكبرى الذي كان للوعظ والإرشاد والكرسي الخاص بالنحو القريب من مصرية المفتي وكرسي خاص بالتفسير للثعالبي بجوار باب الرواح العليا، وكرسي الفقه المقارن بالقرب من باب الصالحين وكرسي تدريس صحيح البخاري على قول الحافظ ابن حجر في مستودع ابن عباد...الخ². تلك بعض أوجه صرف للأوقاف القرويين المعينة أو الخاصة على الكراسي أو المواضع المتصلة بالجانب التعليمي بجامعة فاس.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 709.
². ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 28، حول أوقاف الكراسي العلمية، ص 463.

الفصل الثالث: القرويين والقضايا الاجتماعية والاقتصادية (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

لقد تناول العلماء القضايا والنوازل الاجتماعية والاقتصادية فمن المعيار اللونشريسي (914هـ/1508م) إلى نوازل عبد القادر بن علي الفاسي (1091هـ/1680م) ونوازل محمد بن الحسن المجاصي قاضي فاس (1103هـ/1691م) ونوازل محمد بن أحمد الكماد (1116هـ/1705م) ونوازل محمد التاودي بن طالب بن سودة لنوازل المعيار الجديد للمهدي بن محمد الوزاني (1342هـ/1923م)¹ فقد عالجوا قضايا تناولها سابقوهم بالفتوى، فأثبتوها وزادوا عليها من أقوال وأراء علماء وفقهاء ومحدثين متقدمين ومعاصرين حسب تواترهم. ورتبوا موسوعاتهم الفقهية على نسق ونهج سلفهم، في التدرج في طرح نوازلها وفتاويها وما فيها، مقسمة من حيث التبويب والتفصيل من عبادات ومعاملات وسلوكات، وأخذنا في هذا الفصل تلك النوازل التي كان لها صدى، وأسالت حبر الفقهاء في بسط آرائهم وأفكارهم ومواقفهم حولها ودائما انطلاقا من ضوابط الشرع وحدوده.

أولا: النوازل الاجتماعية:

غلب على الثقافة المغربية الاتجاه العملي أكثر من غيره، وهذا راجع إلى طبيعة الشعب وميوله الفطرية، ثم إن المغرب بلاد فلاحية وتجارة ومعاملات باختلاف أنواعها، وهذا النشاط الاقتصادي يخلق بالضرورة لونا من الثقافة يطابقه ويتجاوب معه، فلا جرم إذا رأينا الفقه يزدهر بصورة خاصة ويحتل المقام الأول من بين العلوم التي تدرس في المعاهد والمساجد والنوازل الفقهية، كما لا يخفى أنه لا يقع تكاثرها إلا حيث يأخذ النشاط الإنساني مظهره الأقوى² فمسائل الحياة اليومية يحولها العلماء إلى نوازل فقهية يجيبون عليها من مصدر

¹ بنعبد الله، فاس منبع ...، المرجع السابق، ج2، ص 629.

² محمد زنيبر، " نحو تحديد محتوى ثقافتنا القومية (الثورة والجمود) -2- "، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س6، شعبان 1382هـ/ جانفي 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م، ص 37.

التشريع الإسلامي، في هذا الإطار فإننا نتطرق إلى أهم القضايا التي شغلت بال علماء القرويين لمدة من الزمن لنقف على أهمها كنماذج ومنها:

1. مسألة الطائفية: (المهاجرون، الأشراف، الأندلسيون)

في سياق حديثنا عن تكوين المجتمع الفاسي وتطوره، عرجنا على تلك الهجرات التي عرفتھا المنطقة ومنها فاس من دخول وافدين جدد من أندلسيين وجزائريين وتونسيين ويهود، مما أوجد تركيبة سكانية طفت على سطحها منافسة، شغلت بال العلماء ورجال الفكر بسبب الطائفية التي أثّرت في الأوساط الفاسية كمشكلة النسب ودوره في المجتمع بصفة عامة شغل هذا الأمر حيزا كبيرا من حركة الإصلاح بالمغرب وبالأخص بفاس طيلة مراحلہ التاريخية، فكانت مشكلة الأنساب سببا في إثارة عدة مناقشات لم تكن أقل نزاعا من مشكلة الطائفية بل استتكر عدة علماء نظرية النسب ذات الأثر الخطير في سير الأحداث بالمغرب وبالأخص في العواصم ذات النفوذ العلمي حتى كاد الإسلام في المغرب أن يعود إلى نظام الطبقات حيث يصبح المجتمع فريسة الحقد وتكاد تقتصر الحرفة والوظيفة على طائفة دون أخرى¹.

ومن بين الحزازات التي كادت أن تعصف بالمجتمع الفاسي تلك التفرقة التي قامت بين من أطلق عليهم اسم الإسلاميين أو المهاجرين من اليهود حديثي الإسلام وتواترهم فيه، مع أهل فاس حول بعض حرف أرادوا منافستهم فيها بالممارسة، ووصلت لحد الصدام بين الطرفين وقد تحزب الفاسيون على الإسلاميين سنة 934هـ/1528م في عهد أحمد الوطاسي (932-956هـ / 1526-1546م) وفي عهدي محمد الشيخ المأمون بن المنصور وابنه عبد الله عند مطلع ق 17/11م وأخرى في عهد الدلائيين²، ولكل طرف رسومه القديمة وفتاويه مع خواتم وعلامات لعدد من أمراء المغرب وسلاطينه وأكثرها لأهل فاس، ونقل القادري ما

¹ السايح، " الثقافة المغربية ..."، المقال السابق، ص 23.

² بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص 352.

نص عليه ابن الحاج على أن ذا الصناعات الدنية ليس كفؤا لمن هو من أهل المروءة والصنائع الجليلة نقله عن ابن عرفة¹.

إلا أن هؤلاء راموا الخروج عن طورهم والترقي من الحرف الخاملة إلى الحرف العالية، ما أدى إلى وقائع بين الطرفين من أجل إخراجهم من الحرف بالقيسارية التي كانت حكرا على الفاسين فزاحمهم فيها الإسلاميون فدافع كل طرف بما لديه من أحكام وإثباتات نصية وشرعية من خلال فتاوى العلماء للحكام، ولكن ذلك لم يمنع من طفو تلك الحساسية حول النسب لدرجة أنهم قالوا فيهم: "لا تأمنهم ولو طال إسلامهم".

فقام رجال العلم والفقهاء من الإسلاميين ورأوا أن نظام مجتمعهم غير مبني على التعاليم الإسلامية، فكانوا كجبهة معارضة ضد الميز الطبقي ودافعوا بحمية عن المساواة الإسلامية في صورتها الحقيقية، وقد كانت فكرة النسب ذائعة بصورة مخيفة في هذه الفترة الحديثة ويكفي أن نذكر هنا ما قاله القاضي الحميدي عن الإمام المنجور في إمامة المصلين للسلطان المنصور: «إن كان قدمه علمه فقد أخره نسبه»².

في حين القادري يحاول التوفيق بين الطرفين بوجوب التسوية بين المسلمين في كل الحقوق وحتى العناية بهم جبرا لخواطرهم حتى يرضوا، مع حرية مخالطتهم بالمصاهرة وغيرها، ومن جهة أخرى يحث القادري ذلك الإسلامي بعدم الكراهية والتعصب لأهل فاس كما وافق ما ذهب إليه الشيخ أبو عبد الله ميارة الجد في تأليفه نصيحة المغتربين على أنه اشتمل على حق وصدق، مع بعض التحامل ويلتمس له العذر في ذلك بسبب إغضابه من جهلة زمانه الذين كانوا شديدين على حديثي الإسلام، وكان يأمل أن تكون معاملتهم بمقتضى أخوة وإيمان الإسلام مستدلا بعدد الآيات والأحاديث في هذا الباب³.

وكانت الأهواء السياسية تستفيد من ذلك كثيرا، وقد بلغت الأزمة بين أهل فاس والمهاجرين مبلغها في أواخر العصر السعودي فقد انحاز الأندلسيون لأهل فاس واللمطيون

¹. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 344.

². الأفراني، نزهة الحادي...، المصدر السابق، ص 260.

³. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 344-345.

للمهاجرين في عدوة القرويين، وكان من ضحاياها القاضي المشهور أبو النعيم الغساني الذي قتل بحكمه لصالح الأندلسيين¹، وتعود أسباب الجريمة بمطالبة عبد الله اللطين بتجهيز ثلاثة آلاف رجل لمقاتلة عمه زيدان فشق عليهم ذلك، فطلبوا من القاضي ابن أبي النعيم أن يكلم السلطان المذكور في إعفائهم فسعى القاضي لهم، ولكن السلطان لم يسعفه في طلبه لأنهم من شيعة عمه، فاتهموا القاضي بالميل إليه لأن القاضي أندلسي والأندلسيون من أشياع السلطان فاتفقوا على الغدر به، واغتالوه انتقاما منه، في ذي القعدة 1032هـ / 1623م فأنقم منهم السلطان بأن أحرق وخرب جميع قراهم ومداشرهم وقطع جميع أشجارهم، فكان الصراع بين اللطين والأندلسيين بعدوة القرويين سجالا أسالت كثيرا من الحبر فيما سجلته المصادر كالأستقصا وخصوصا أهل التراجم كالقادري وعبر عن ذلك الصراع الشاعر عثمان اليوسي بقوله:

هذا وقد كان بفاس فرقتان *** ملتهم واحدة لا ملتــان
قد لقبت أحدهما المهاجرين *** أخراهما تدعى الحضور الفاخرين
وهذه تزعم وصف السؤدد *** وتدعى المجد بلا مستــدد
وهذه دعوى بلا برهــان *** كلتاهما كفارسي رهــان².

ويعتبر ابن زكري أشهر من تولى المعارضة في عصره وقد أیده عدد من علماء وقته كالشيخ أحمد بناني مؤلف "تحلية الآذان والإسماع" وكتاب "الوجد المغربي"، وكانت الأحاديث التي ساقها ابن زكري للدفاع عن نظريته كحديث: "من دخل الدين فهو من العرب" سببا في دخول رجال الحديث للمعمعة كأبي العلاء العراقي الذي أيد ابن زكري من الوجهة الحديثية³. ووازی ذلك خلاف آخر أقدم أتعب أهل فاس بين الأصلي والدخيل، ويعود إلى الهجرة الأندلسية، هؤلاء الأندلسيون الذين تمركزوا بفاس منذ التأسيس واستأثروا بالثروة والعلم فيها

¹. القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج1، ص255-259.

². حسن السائح، "مجتمع فاس في القرن الحادي عشر الهجري"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، س11، رمضان 1387هـ/

ديسمبر 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص99.

³. السايح، "الثقافة المغربية..."، المقال السابق، ص24-26.

ولا ينافسهم إلا الشرفاء الأصليون من أحفاد إدريس كالجوطين والعمرانيين والصقليين والعراقيين والقادريين، حتى أنهم وصلوا لحد التفاخر فإذا انتسب أحد منهم ذكر المدينة الأندلسية التي خرج منها جده فأصبح فلان غرناطي، وذاك اشبيلي أو مالقي والآخر أندلسي، مما جعل طبقة من العلماء تتكر ذلك عليهم وتصفه بالتعصب والجهل بالتاريخ والانتساب لظنهم أن الأندلس لم يسكنها غير الأوس والخزرج، متعامين عن الأخلاط من الأجناس التي امتزجت بها¹

ليضاف إليهم هؤلاء الوافدون على إثر محنة الأندلس بعد الجلاء الأخير، فتوزعوا في البلاد وساحوا في الأرض، فحلوا بمختلف المدن المغربية كالرباط وسلا وتطوان وفاس وتلمسان ووهران والجزائر وتونس، وكان نصيب المغرب منهم وافرا، بل أن المنصور السعدي عندما فتح السودان ألف منهم جيشا جرارا أمرهم بالمقام هناك في ضواحي البلاد السودانية تثبيتا لسلطانه، فكانت هجرتهم من جزيرتهم لأسباب دينية، سياسية، اجتماعية واقتصادية².

وباستقرارهم بالمغرب لاحظ فيهم المغاربة أخلاق العجم سواء في عوائدهم أو في لغتهم حيث تحدثوا بالإسبانية، وكل هذا كان سببا في حدوث نفرة بينهم وبين المغاربة، غير أننا لا ننكر أثرهم العظيم في حفظ الصناعة والملاحة الأندلسية ومساهماتهم بدور خطير في الجهاد البحري، حتى أنه لم يمض على مكوثهم بالمغرب إلا قليلا حتى ظهر أثرهم جليا في الحياة الاجتماعية المغربية وفي الأدب بامتيازهم برقة وصفاء والقدرة على مزج العاطفة بالطبيعة³.

ليتجاوزوه إلى الفن المعماري فبنوا ما يذكرهم ببلادهم، وحملوا معهم الموسيقى الأندلسية بطباعها المختلفة وأساليبهم في الري والفلاحة وفنونها فلقموا الأشجار وتقننوا في تنظيم الحدائق، فكانت لهم اليد الطولى في الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى حملوا أهل البلاد وقطعوا أرزاقهم، وكان لا يستعمل بلدي إذا ما وجد أندلسي، لحملهم خلاصة تجاربهم⁴.

¹. حجي، الحركة الفكرية..، المرجع السابق، ج1، ص 273.

². السايح، " الثقافة المغربية ..."، المقال السابق، ص 24-26.

³. حركات، المرجع السابق، ج2، ص 365.

⁴. السايح، " الثقافة المغربية ..."، المقال السابق، ص 24-26.

إلى جانب الفئتين السابقتين كانت طبقة أخرى في المجتمع هي طبقة الأشراف أو طبقة آل البيت وكان لهؤلاء نفوذ قوي في المجتمع الذي ظل مخلصا لهم، وانطلق مع المرينيين ليعمق مع السعديين والعلويين بإقامة احتفال بالمولد النبوي الشريف، وكونوا طبقة خاصة حظيت بامتيازات مادية وأدبية، كإسقاط المكوس والضرائب عنهم، حتى كان أهل فاس يستشفعون بهم عند السلاطين أثناء الخروج عن طاعتهم¹.

كما أعدق عليهم السلاطين بالمال أثناء زيارتهم لفاس وأضرحتها وأعانوهم أثناء المساعبة بالمؤن حبوبا وأموالا، فكانوا في عز ومنعة مع توقيير واحترام بحيث لا تطالهم ما يطال أهل فاس من المغرم وغيره من المطالب²، مما جعل العامة تتكد عليهم لامتيازاتهم ولمواقفهم السياسية، وطفا الكره والعداء بين أهل البيت والعوام سنة 1148هـ/1736م أثناء الصراع بين السلطانين عبد الله وعلي العلويين فالأشراف مع عبد الله والعامة مع علي بسبب المغارم التي فرضها الأول وخففها الثاني، ليتصعد الأمر إلى حد الصدام بين الطرفين ويقع قتلى بين الجانبين فيقوم السلطان المستضيء بصلح حذر بينهما في 1151هـ/1738م³ غير أن الخلاف تواصل حتى ما بعد 1170/1757م حسب القادري في مثناه⁴.

ووصلت أهمية النسب الشريف إلى تدوينه وإحصاء أهله لتقادي اختلاط بمن يدخله من منتهزين أو بما يخرج منه من منتسبين، وطبيعي أن تقابل هذه الطبقة من الأشراف، طبقة من عامة الناس كما يسميهم علماء النسب، وطبقة من ضعفاء النسب الذين كانوا يسمون في مدينة فاس بالمتشرفة⁵، كما حرص بعض من هؤلاء الشرفاء عند مناداتهم من طرف العامة على أن يسبق أسماءهم لقب سيدي أو مولاي، وقد يثور أحدهم إذا نودي باسمه مجردا⁶.

¹. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 1987م، ص 90-110.

². القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 370-380.

³. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج4، ص 15.

⁴. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 380.

⁵. السائح، "مجتمع فاس..."، المقال السابق، ص 99.

⁶. محمد بن أحمد اشماعو، المجتمع المغربي، مطبعة الرسالة، الرباط 1980م، ص 19.

ولذلك لا عجب أن يتصدر أحد علماء فاس وهو الشيخ ابن زكري لكتابة مؤلف يحلل دعاوي الأشراف وما خصوا به من مزايا، وأعطى للأشراف قيمتهم الدينية وما يفرض لهم من احترام وناصره في ذلك العلامة السيد أحمد بن عبد السلام بناني المتوفى في (ت1234هـ/ 1819م) بكتاب الوجد المغربي بنصرة العلامة ابن زكري، ورد عليه مؤلف نتيجة الاعتصار من دسائس الانتصار، وألف الصحرابي كتابا في الرد على من قال شرف العلم أفضل من شرف النسب¹.

وقد ألف الشريف الجزائري محمد ابن المشري (1224هـ/1809م) كتابا في الرد على ابن زكري وأنصاره وسماه: "نصرة الشرفاء في الرد على أهل الجفا"، للتعريف على ما لآل البيت من حقوق، وكل هذا يدل على مدى الصراع بين الذين اعتمدوا النسب، والذين لا يعتمدونه. وقد اقتضى ذلك أن يتخصص في كل أسرة من يؤرخ أمجادها ليحافظ على شجرتها ولذلك كتب كثيرة تختص في تراجم أعيان القبيلة الواحدة ككتاب الحل الممدودة في مآثر بني سودة لسليمان الحوات، والروضة المقصودة، بل إن هذا الصراع العائلي الذي اقتضى قصر الحرف على طائفة دون أخرى أدى إلى هذا المظهر من الشرف والمجد الذي يعتز به فريق من الناس، وهذا الرضى وهذه القناعة التي يلجأ إليها الفريق الآخر.

وهذا فصل من فصول ذلك الصراع الطائفي بين طبقات المجتمع الفاسي، ومن شدة تجذر فكرة التنافس بينهم حول الأصالة بفاس للتمتع بالامتيازات فإنها دخلت حتى في المثل الشعبي المغربي، فعند التفاضل يقولون: "القرويين سبقت الأندلس"، وفي التنافس على الأصالة والأقدمية في استيطان فاس والانتساب إليها يقولون: "حتى واحد ما خرج من خصّة القرويين"، أي أنهم كلهم وافدون عليها...

2. مسألة التصوف والطرقية:

انطلقت الحركة الصوفية بالمغرب من زيارة قبور الصحابة والتابعين الذين رافقوا عقبة بن نافع في فتوحاته كرباط شاعر المعروف بسيدي شكير بأحواز مراكش، وإلى غاية ق6هـ/

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 721.

12م كان التصوف مطبوعا بالبساطة ولم يكونوا يختلفون عن العامة إلا بكثرة العبادة وتلاوة القرآن وسرد المأثور من الأدعية والأذكار، ولم يكن لبس الخرق والمركعة صفة لازمة للصوفي في المغرب، إذ ارتبط بالزهد عن متاع الدنيا وكانت الرابطات أماكن للعلم وتلاوة القرآن والجهاد¹.

ولكن الفكر الصوفي ما لبث أن تشعب وتسرب إليه الانحراف والشذوذ بعد ق8هـ/14م على إثر انتشار الطرقية، واندساس الأدعياء في الزوايا والرابطات، فانتحل الكثير المذهب الصوفي، للوصول إلى الأغراض الدنيوية عن طريق الشعوذة والتدليس على العوام، فأصبح لها هالة من الشكليات المستحدثة²، فاضطروا لأعمال تستميل القلوب لأنها مجلوبة على استحسان الغريب، فتجري على يده من خوارق شيطانية، أو تمنح لذة نفسية، فيظنها فتوحات وأسباب الوصول مع اعتقاده أن المقام العجيب لا يدركه إلا بالأمر الغريب، والعبادة في صورتها ووجودها لا تفيد المقصود إلا بإضافات داخلية في جهل وانقياد لوهم وعدم التثبت والفهم³.

فظهرت حركات إصلاحية نادت بالعودة إلى الأصول الأولى للإسلام، كردات فعل على الوضع المتدهور لتجاوز هذه الحالة، بحثا عن أسبابها وإيجاد حلول لها⁴، وفي هذا الإطار فقد اشتهر في القرن 9هـ/15م أبو العباس أحمد بن أحمد الشهير بالشيخ زروق الإمام ناقد بكتابه "عدة المريد الصادق" وعلل انتشار المبتدعة والأدعياء بنقص الإيمان والجهل بأصول الطريقة والاعتقاد أن الشريعة خلاف الحقيقة، وحب الرياسة وأن الفقه وأصوله من شروط التصوف فلا تصوف إلا بفقه⁵، كما له كتاب "قواعد التصوف" الذي يعد الحجة في هذا

¹ بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 108-109.

² نفسه، ص 110.

³ الشيخ أحمد الزروق، عدة المريد الصادق، تح: الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، ط1، دار ابن حزم، بيروت 1427هـ/2006م، ص 45-47.

⁴ محمد الفلاح العلوي، "القرويين وأصول السلفية بالمغرب، محمد كنون أنموذجا"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص 71.

⁵ الزروق، المصدر السابق، ص 45-47.

الباب لاحتوائه على آراء جردها من كتابه الأول وأودعها في القواعد¹، فشملت دعوته العلماء والصوفية، فأطلق عليه محتسب العلماء والأولياء²، فتحول التصوف من تجربة وذوق ومشاهدة إلى شعوذة وتضليل ليصلوا إلى أسوء حال.

وتنامي حضور الأولياء والصلحاء مع التكاليف الأجنبية، بملئهم الفراغ بالبوادي، في حين المدن سيطر عليها العلماء، لاتصالهم الدائم بالمساجد والمدارس وحلقات العلم والقضاء والإفتاء، كما كانوا وسطاء بين الناس والمخزن، فقام الصلحاء مقامهم بالبوادي فاعتنوا بالتدريس وتكوين الأتباع وإحلال الأمن والمرابطة بالشغور والجهاد فاكسبوا ثقة الناس وجذبوا فكرة الصوفية بالمجتمع ليمتد من البادية للمدينة³.

وبانتشار الشعوذة الصوفية جعل التفكير الخرافي يسيطر على روح العصر، فمن إيمان أعمى بالسحر إلى اعتقاد جازم في الخوارق إلى تسليم مطلق بسيطرة القوى الخفية، وتأثيرها على سلوك الإنسان وفاعليته، فانطبعت الفترة الحديثة بسيطرة التفكير الخرافي، ودعمتها تلك المواسم ومواضع الخير، فلبس وتوسم هؤلاء المبتدعة بزي الفقر ولكنهم حبوا الحقيقة بالغشاة وزال عن الناس لباس الورع، فهاموا في كل طريق واجتمع الطلبة وحتى الفقهاء على المتصوفة الذين يلبسون الرقع، ويتطوفون بالسبحات⁴.

كل ذلك أነع وازدهر في ق 10هـ/16م بظهور فرق ضالة تسلك منهاجا خاصا تتعصب له وتعتقد أن من تمسك به نجا ومن خرج عنه ضل السبيل، وهذا التماذي مرده لجهل العامة فنخرت جسد المجتمع المغربي وأشاعت في بعض أجزائه الفوضى والفساد، وأبعدته عن الاستقامة والفكر السليم، وتمادت في انحرافها عن الدين تماما وثار ضدها العلماء والعامة

¹ أحمد بن أحمد البرنسي المغربي الشهير بالزروق، قواعد التصوف، ض وتع: محمود بيروتي، ط1، 1424هـ/2004م ص 115.

² الفلاح العلوي، "المقال السابق، ص 71.

³ عثمانى المنصوري، "الانتصار للتصوف ولتمصوفة الشمال من خلال دوحة الناشر لابن عساكر"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة المحمدية 1996م، ص 175.

⁴ بن القاضي، المنتقى المقصور .. المصدر السابق، ص 113.

والحكام لما عاينوه من زيغ وفساد مثل الطائفة اليوسفية¹ المنسوبة طعنا لسيدي أحمد بن يوسف الملياني، والعكازية² والأندلسية³ التي قتلت غدرا أحمد الصغير أحد تلاميذ المنجور الذي شنعها⁴.

حتى أصبح لكل ولي أو ضريح رجل صالح مدفون بفاس مهمة منوطة به فيتوجهون إليه بالزيارة والطلب لتصل للشفاعة فهذا سيدي بوغالب والي الحلاقين، وسيدي بوجيدة والي النساجين وحامي النساء، وسيدي عبد الدائم يؤمن انقياد الأزواج، وسيدي حنين الفاسي يهدئ صراخ الصبيان وسيدي ابن حرزهم والي الطلبة...، فتكاد تكون لكل مهنة والي يرعاها ويتعهدوه بالزيارة وإطعام الطعام في مواسم معينة⁵، ضف إليها بعض المعتقدات الفاسدة كالحروز والسحر وغيرها مما تعلق بأذيال الصوفية المشعوذة.

والالتجاء إليهم عند الخوف من المكروه، وخاصة المطاردين من طرف الدولة، حتى أطلقوا على الأضرحة وما جاورها اسم الحرم، والاعتقاد بقضاء الحاجات والمصالح عند هؤلاء الأولياء أو الأضرحة في الاستشفاء، طلبا للبركة، الأولاد، الاستسقاء... فقدموا لهم القرابين⁶. فكانت الصوفية والطرقية من بين أهم سمات العصر السعدي وما بعده، من القمة

¹ اليوسفية: أسسها أحمد بن عبد الله المنزولي تلميذ الشيخ أحمد بن يوسف ووصل بطريقه إلى حد إدعاء النبوة ومن مبادئهم، إنكار نبوة رسول الله محمد ﷺ، وادعوا بوجود كتاب لهم سمي "ابن رياش" بدل القرآن، تركهم للصلاة والصيام إلا عند الضرورة (التقية) لتستتر مع المسلمين، اعتقادهم حلية أكل الميتة والخنزير وحرمة أكل أضحية العيد، اعتقادهم بحلية دماء وأموال غيرهم من المسلمين. (ينظر: بن عساكر، دوحة...، المصدر السابق، ص 124).

² العكازون: يعيدونهم إلى المهدي بن تومرت وسميوا بذلك لأن ابن تومرت في مستهل القرن السادس هجري لا يأخذ معه من متاع الدنيا في جولاته الكبرى سوى عكاز وركوة فاعتقد قومه وأنصاره عصمته، من أفكارهم التي حملوها كفروا المسلمين، ولا يصلون خلفهم ومن لا يؤمن بالمهدي بن تومرت كافر ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ومن لم يعلم أثنى عشر بابا من التوحيد فهو كافر، ينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم، ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو ماجوسي، وشاع أمرهم في العهد المريني، وقد استتابهم أبي عبد الله بن عطية فتأبوا، لذا بقي المصامدة على وفائهم للمهدي بن تومرت سرا، كما قامت ثورات ضد المرينيين وحتى في عهد السعديين وامتنت القبائل نفيس من المصامدة على الحركة الصوفية في القرن العاشر هجري وأغلقت أبوابها في وجهها، كما راجت فكرة المهداوية في العصر السعدي حتى أنهم استعملوها كالسلطان محمد الشيخ المهدي، وفي القرن الحادي عشر عرفت عدة حركات سياسية اعتماد المهدوية كابي المحلي. (ينظر: احمد بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 119).

³ الأندلسية: تنسب إلى محمد الأندلسي، الذي قتله السلطان السعدي محمد بن عبد الله، ومن تعاليمها الاجتهاد في الأحكام الشرعية وعدم تقليد مالك أو غيره من الفقهاء، إنكار مشروعية الدعاء دبر الصلاة إذ خرج وقتها، استنكار ذكر النبي ﷺ مع الله تعالى في الشهادة وغيرها. (ينظر، ابن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج2، ص 35).

⁴ أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، ج2، ط1، مكتبة دار التراث، القاهرة 1391-1971، ص 37.

⁵ لوطورنو، المرجع السابق، ج1، 675-680.

⁶ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص 121.

للقاعدة في ظل واقع علمي متردي بالنسبة للعامة والناس على دين ملوكهم، فالملوك السعديون والعلويون حتى يثبتوا قواعد حكمهم فإنهم في بعض الأحيان جاروا العامة، بتشديد الأضرحة الفخمة على قبور الصالحين وزيارتها وتقديم الذبائح لها وإقامة المواسم مع إكرام ذريتهم بظواهر الإعفاء من التكاليف المخزنية مع جمع الفتوحات والزيارات والغدق بالعطايا¹ فهذه الصورة التصوفية المبنية على التقديس والتعظيم لهؤلاء الأولياء لحد الاستشفاع والاستنجاد بهم²، تبين المعاصي الواقع فيها العامة بسبب تفشي الجهل.

ساهم في نشوء منافسة بين فئة العلماء والصلحاء، فإن عددا من العلماء لم يهضموا تصدي الصلحاء لمسائل العلم واعتبروهم أحدثوا بدعا سيئة في الدين بإدعائهم الحصول على كرامات وخوارق وهالة اصطنعوها لأنفسهم، رأى فيها العلماء لا محل لها في الكتاب والسنة³، لذا برز المصلح الشيخ عبد الله الهبطي الذي اعتبر مجددا بفضل ما قام به من جهود لإصلاح المجتمع وقمع البدع والمعاصي المرتبطة بالجهل⁴.

حتى أن في هذه المرحلة طغى على أهل العلم التصوف ومن لم يمل منهم قلبا وقالبا كان لا بد عليه أن يظهر هذا الميل، مداراة من نفسه لما صار لهؤلاء الطرق من صولة وجولة وعظيم النفوذ⁵، ولقوة هذه الحركة فإنها نشرت شذراتها في المصنفات في أخبار الصوفية وحياة الزهاد، في كتب التاريخ والتراجم والمناقب والفهارس والرحلات⁶، فابن القاضي يعظم أبا جيدة صاحب الكرامات والدعاء المستجاب عند قبره⁷، ونفس الشيء عند أحمد بن محمد بن محمد بن عاشر⁸، فطغى على التأليف في هذه الفترة وما بعدها تلك الهالات

¹ الناصري، المصدر السابق، ج6، ص 141.

² بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 106.

³ المنصوري، "الانتصار للتصوف.."، المقال السابق، ص 175.

⁴ الفلاح العلوي، المقال السابق، ص 72.

⁵ كنون، المرجع السابق، ج1، ص 552.

⁶ بن القاضي، المنتقى المقصور ..، المصدر السابق، ص 108.

⁷ بن القاضي، جذوة ...، المصدر السابق، ج1، ص 107.

⁸ نفسه، ص 153.

والمقامات والأحوال والمكاشفات والغيبيات والكرامات، فمن ابن عساكر للافراني فالقادي
فالكتاني وغيرهم.

ويذهب العمراني أن في بداية الدولة العلوية أعادت للفقهاء مكانتهم التي تراجعت في
العصر السعدي، بسبب سطوة المتصوفة والأولياء على منصب الفقهاء لدى الدولة
والمجتمع، لذا ساند 400 عالم للحركة العلوية في فجر نشأتها¹.

فقد هاجم محمد الصباغ البعيلي (ت 1076هـ/1665م) البدع بتأليف تحت عنوان: "كشف
قناع الالتباس، عن بعض ما تضمنته بدع مدينة فاس"، ومحمد بن سعيد المرغيتي (ت
1085هـ/1771م) وله رسالة في الأمر بالمعروف، والشيخ اليوسي (ت 1102هـ/1690م)
له فتوى في العاكزة، ومحمد العربي بردلة (ت 1133هـ/1720م) له "إفشاء القواعد المذهبية
والأقوال المرضية، في إبطال النحلة العليشية"²، وانتصر لمذهب السلف تلميذه الشيخ أبو
عبد الله محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (ت 1136هـ/1723م) الذي دافع عن العقيدة
الحنبلية في كتابه: "جهد المقل القاصر في نصرة الشيخ عبد القادر"³، كما يذكر الافراني
موقف شيخه حين استفتاه فيما يقوم به هؤلاء شيوخ الطريقة في أمر دعواهم للولاية
لتقصدهم العامة وتتمرغ في تربتهم لضمان حمايتهم، فأجابه شيخه المسناوي على أن كل
ذلك بدعة شنيعة لا طائل تحتها وضرب له مثل الطبيب الذي يداوي مرضاه بدواء واحد رغم
اختلافهم في الداء، ولو تبينوا لأجزموا على كذبه وقلة معرفته، فكَذلك أولئك الذين انتصبوا
للدعوة فإنهم يلقنون شيئاً واحداً لكل وارد عليهم⁴.

وهذا التقرير يوضح ما آلت إليه الحالة العقدية والنفسية للمجتمع في تلك الفترة، إذ عرفنا
أن هذا الشيخ سليل الزاوية الدلائية التي كانت تقود النفوس والفهوم ردحا من الزمن، كما
يعطينا صورة عن تلك الظواهر التي شاعت عن عصر التصوف الذي أدرك غروبه وأفوله

¹. العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 275.

². نفسه، ص 143.

³. الفلاح العلوي، المقال السابق، ص 72.

⁴. النجمي، المقال السابق، ص 101-102.

والمبنية على تمويه العامة من قبل أدعياء التصوف، وهو يمثل مرحلة انحطاط العلم والتصوف وترك علم الظاهر والباطن في حالة لا يحسد عليها، لذا انكب بعض العلماء من أمثال الافراني على الكتابة والاهتمام بالتصنيف في الأدب والتاريخ والتراجم كمجال للتعبير عن القضايا الثقافية والفكرية الكبرى لعصره، فقد اقتفى أثر أحمد المقري في عنايته بإحياء التراث الأندلسي، فصنف "المسك السهل"¹.

لنجد الحالة تتفاقم خلال القرنين 12-13هـ/18-19م، مما استدعى إلى إصلاح أحوال الرعية، فنجد الشيخ محمد بن قاسم بن جسوس (ت1182هـ/1768م) يدعو للتمسك بالكتاب والسنة وترك البدع وإتباع مذهب السلف الصالح، وعاضده في ذلك الشيخ إدريس بن محمد العراقي (ت1183هـ/1769م) الذي ألف كتاب رفع الالتباس، فيما ورد في القيام للناس² كما ثبت صاحب الإتحاف نصيحة السلطان محمد بن عبد الله وعلل أسباب ذلك الفساد إلى الجهل الذي عم فانعكس في التساهل على الشعائر والسلوكات اليومية للرعية حتى أوصل بها لحد الشرك ومظاهره، وأقر جملة من الأعمال الإصلاحية في رسالة وجهها للقضاة سنة 1203هـ/1788م، يأمرهم فيها بالعود إلى الشرع في جميع المعاملات والسلوكات³.

وكما وجه رسالة أخرى للعمال والقضاة يحض فيها على مراعاة الاقتصاد في تنظيم وإطعام الطعام بمناسبة الأفراح، كما وجه للأمة نصيحة يحذر فيها من الخروج عن مناهج الشرع في دينهم ودنياهم كالتعامل بالربا والتساهل في أمر الزنا والتغاضي عما يفسد الأنكحة، متوعدا المخالفين⁴، وفد ألف محمد بن أحمد اليعقوبي الأدوزي (ت1206هـ/1791م) رسالة في النكاح ونبه على المفاسد الواقعة، كما حذر محمد الطيب بن كيران (ت1227هـ/1812م) من الزنا⁵.

¹ النجمي، المقال السابق، ص 103.

² العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 144.

³ ابن زيدان، إتحاف...، المصدر السابق، ج3، ص 253-263.

⁴ نفسه، ص 261-263.

⁵ العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 145.

وفي أواسط القرن 12هـ/18م سيطرت بالحجاز الحركة السلفية بقيادة محمد بن عبد الوهاب ونادى إليها آل سعود، التي يرجع لها الفضل في تصفية العقيدة الإسلامية من الشوائب ومحاربة الجامدين، في الوقت الذي راجت بالمغرب الأفكار الجامدة والتقليد الضارب أطنايه والطرق ذات الصولة، وأما العامة فقد كانت في بحر مظلم من الاعتقادات الفاسدة حتى أن الحركة التي قام بها السلطان محمد بن عبد الله أصبحت أثر بعد عين، ليخلفه السلطان سليمان (1180-1238هـ/1766-1822م) المحسوب من علماء القرويين باعتباره أحد ملازمي سوازي هذا الجامع الذي بويح به، ومتضلعا في عدة علوم، فقد شأنه ما رأى عليه أمتة من إتباع المضلين والمشعوذين من رجال الطرق، مبتعدين عن روح الدين الحنيف فقام يدعو إلى الإصلاح¹، مع وصول أصداء الحركة السلفية، فألف خطبة ألقيت على المنابر من بنان أفكاره تبين توجهه السلفي الإصلاحي بالمغرب وتصدى فيها لهؤلاء المبتدعة، فكانت من العوامل التي اذكت روح الإصلاح فيمن قيضهم الله للقيام بهذه الحركة².

ولإنجاح مسعاه والوصول لهدفه فإنه ولى على القضاء والشهادة من فئة الشباب، كابي العباس بن سودة على فاس، التي نظرت إليه على أنه من الأحداث ورفضته لحدثة سنة البالغ تسع وعشرين سنة أثناء توليته في 1235هـ/1819م³، إلى جانب تطبيق بعض تعاليم الصارمة كمنع زيارة القبور وإقامة المواسم للصالحين، التي اجتمع فيها للغناء بالشطح مع التصفيق والاجتماع للبيات وحضور النساء والأحداث وتغيير أحكام الشرع بالبدع وغيرها من أوصاف الرذيلة فسعى لإبطالها⁴، بمجموعة من الفقهاء يسهرون على تنفيذ تعليماته منهم

¹. محمد الفاسي، "السلفية وآثارها في النهضة الإسلامية"، عن مجلة دعوة الحق، ع8، س2، ذي القعدة 1378هـ/ ماي 1959م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1959م، ص 15.

². Terrasse, Histoire, Op.cit, T2, p430-431.

³. منصور، المقال السابق، ص 50.

⁴. الناصري، المصدر السابق، ص 158.

ابن شقرون الفاسي، محمد بن عثمان المكناسي، الطيب بن كيران، محمد الرهوني، حمدون بن الحاج، محمد بن عبد السلام بن ناصر¹.

وكذا السلطان عبد الرحمن بن هشام، وعلماء جامع القرويين الذين ساهموا في إحياء الفكر الإصلاحية بالاعتماد على تأثير التجارب السلفية قصد كسر موجة الفكر التقليدي الذي اتصفت به ثقافة علماء القرويين بصورة عامة²، ولمواصلة ما قام به السلاطين فقد تم تأليف عدة كتب في هذا الباب مثل تأليف محمد بن أحمد الرهوني (ت1230هـ/1814م) صاحب "التحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة"، وعبد السلام بن عبد الله حركات (ت1230هـ/1814م) له "مذاكرة الفضلاء المشاهير في ذكر وجوب تغيير المناكير"³ الشيخ أحمد بن عبد السلام بناني (ت1234هـ/1818م) تأليفا في الرد على بعض الطوائف التي ظهرت بالمغرب في عصره سماه : «المعيار المعرب عن فضيحة الطائفة التي أحدثت أمرا بالمغرب» واهتم المؤلف في كتابه بنقد الطوائف وذكر حركة الفتاوى الفقهية التي تعرب عن حملة العلماء والفقهاء ضد الطائفية كفتوى العلامة القباب ضد اتخاذ شيخ في طرق الصوفية وفتوى عبد العزيز القيرواني الفاسي ضد الطرقية والطائفية⁴.

كما ألف أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت1239هـ/1823م) كتابا مفيدا جدا عن الطائفية سماه: "المزايا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا"، وتعرض للبدع والرد عليها وعما يجب على العلماء من دعوة الناس إلى تركها وتعليمهم أحكام الدين مستدلا بعدة أحاديث وقد وافق السلطان سليمان في أمره لتغيير المناكير⁵، كما رد فيه على ابن عمه أبي الحسن علي بن يوسف بن الشيخ محمد الدرعي الذي دعم نظام الزوايا في ذلك الإقليم⁶، وأيضا أبو القاسم الزياني (ت1249هـ/1833م) له الدرة الفائقة في الرد على أهل البدع والزنادقة

¹ .الأخضر، المرجع السابق، ص 277.

² .الفلاح العلوي، المقال السابق، ص 72.

³ .العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 145.

⁴ .السايع، "الثقافة المغربية..."، المقال السابق، ص 24-25.

⁵ .محمد بن عبد السلام الناصري، المزايا فيما أحدث من البدع بأمر الزوايا، تح: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1424هـ/2002م، ص 64 وما بعدها.

⁶ .السايع، "الثقافة المغربية..."، المقال السابق، ص 24-25.

وكشف الأسرار في الرد على أهل البدع الأشرار¹، وشن المؤرخ الناصري مؤلف الاستقصاء حملة شعواء على الطوائف وأرباب الزوايا في كتابه الاستقصا المشهور متحدثا بحمية عن هذه الحركة وأهدافها وخطرها².

وللفقيه عمر الرجراجي كتاب في الموضوع نفسه يحمل اسم "إداية من تولى من غير الرب المولى"، تحدث عنه الإمام المنجور في المنهاج، والفقيه محمد بن الحسن الحجوي (ت1376هـ/1956م) بين أثار تلك العهود التي شاعت فيها البدعة، وتحجر العلم في الفقه على المختصرات وأهمها مختصر الخليل وما نتج عنه من تردي³، وفي كتب التراجم المغربية تعثر على عدة علماء لم يصنفوا تأليفا في هذا الموضوع على أنهم استتبعوا هذه الحركة ووقفوا منها موقف الخصم العنيد كأبي العباس مولاي أحمد الشاهد ابن مولاي التهامي حيث ناضل ضد فكرة الطائفية التي تزعمها والده كما في النشر⁴.

¹. العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 146.

². الناصري، الاستقصا...، المصدر السابق، ج1، ص 204-206.

³. محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، ج4، مطبعة إدارة المعارف، الرباط 1340 ص 79.

⁴. السايح، "الثقافة المغربية..."، المقال السابق، ص 24-25.

ثانيا: المسائل الاقتصادية:

وكما قلنا سابقا فإن من الجوانب الاجتماعية التي تحدث عنها مفكرو العصر السعدي والعلوي من الناحية العلمية كثير من المسائل كالعادات داخل المجتمع، واختلفت صيغ تصحيحها باختلاف طبيعة الظروف وشخصية العلماء، فمنها من وجه إلى الأفراد أو جمهور معين لمدينة أو قرية، أو لفرق مذهبية قصد إرشادهم لطريق السوي¹، رغم ما لقيه العلماء من جراء ذلك، ومن تلك المسائل اخترنا منها:

1. قضية البلديين: (المهاجرون، الإسلاميون)

تعتبر قضية البلديين من النوازل التي أرقت العلماء بالقرويين، بسبب تلك المشاحنة التي دامت عدة أجيال بين موقدة وخامدة، حتى اكتوى العلماء بنارها، والتي أدخلناها سابقا في مشكلة النسب، ويحلو للمغاربة تسميتها بقضية البلديين، وهم من اليهود الذين أسلموا. وتعود أصول هذه النازلة الاقتصادية إلى مرحلة بناء فاس ذاتها، حينما أنزل إدريس الثاني الناس منازلهم، فأنزل أهل الذمة من اليهود جهة إعلان في القيسارية، الذين أوقع بهم المسلمون في عهد الدولة المرينية سنة 674هـ/1275م باستباحة دمائهم ومالهم، مما جعل السلطان أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق يكف الناس عنهم، وحول بعضا منهم لسكنى فاس الجديد² ومن بقي فيه نجا بنفسه بإعلان إسلامه فسموا بالمهاجرين واسم الإسلاميين على سبيل اللمز والتعيير³، وهو الأمر الذي جعلهم يدخلون في حرف المسلمين وأسواقهم بالقيسارية وغيرها من الأسواق بفاس⁴.

وبسبب الشك الدائم للفاسيين في معاملات هؤلاء الإسلاميين، فقد اتهموهم بالغش والمكر والتدليس في معاملات البيع والشراء، ما أدى إلى ظهور نازلة لا يوجد لها نص شرعي فتعددت الدعاوي عليهم من أهل المدينة وأريافها وظهرت الخصومات، التي دخلت على

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 217.

² مجهول، قضية المهاجرين...، المصدر السابق، ص 55.

³ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص 344.

⁴ Mohammed Kenbib, "the Mallah society, Jewish community life in Sherifien Morocco", in R.H.T, Vol. xxxiii, A 1995, Imprimerie Najah El-jadida, Casablanca 1995, P 138.

قضاة فاس، فنهوهم عن ذلك بدون جدوى، ليتعداهم إلى الأمراء أيضا، فاستشار السلطان أبو يوسف يعقوب العلماء فأمرؤا بإخراجهم من تلك الحرف والتجارة بالقيسارية والأسواق وتحويلهم إلى حرف تكون فيها الخديعة أقل، فأخرجهم وأمرهم بحرفة الصرافة وأدوات لتهيئة الصوف والحجامة والجزارة والبقالة، مع وضع محتسب يراقب الوزن والكيل لمنع التدليس¹.

هدأت المدينة بذلك حتى نهاية عهد بني مرين في دولة عبد الحق بن سعيد المريني الذي جعل بطانته من اليهود كوزيره هارون وحاجبه شاوويل وقائد الشرطة بفاس الحسين اليهودي لجمع المغارم منها، فطلب منه الإسلاميون إعادة فتح أسواقهم بالقيسارية، فاشترط هدية ثمينة كل عيد تقدم للسلطان فأدى طلبهم، ولكنهم في العام الموالي حاولوا إدراج حرفي وتجار القيسارية من غيرهم، وكل من رفض أخرج منها لانحياز قائد الشرطة اليهودي لهم². كما حاولوا شراء حق الجلوس³ من ناظر الأحباس، الذي امتنع ولكن تحت ضغط قائد الشرطة من السلطان مقابل المال طلب من الناظر بيع سائر الحوانيت بفاس محبسا منها لهم، فأثار حفيظة علماء فاس وسكانها وعلى رأسهم الورياغلي فقتلوا السلطان وحاشيته ليتوقف الأمر إلى غاية الوطاسيين في عهد أحمد بن محمد البرتغالي⁴.

وظهر الخلاف بينهما في 934هـ/1527م عندما أراد إسلامي يدعى أحمد بن إبراهيم بن يحيى المكناسي من استغلال حانوت للثياب في القبة الكبرى بقيسارية فاس، فاعترض على ذلك التجار، ورفعوا أمرهم للأمير أحمد الوطاسي (932-956هـ/1526-1549م) مستندين إلى وثيقة تقدر هذا المكان مانعة على المهاجرين الاعتمار بها مهما كان الأمر ولأي زمان، فكلف أحمد الوطاسي وزيره محمد مسعود بتتبع هذه القضية والفصل فيها بعد توجيه نسخة من تلك الوثيقة إلى علماء فاس يستفتيهم في النازلة، وقد تلقى الوطاسي فيها سبعة

¹. مجهول، قضية المهاجرين...، المصدر السابق، ص 56-58.

². نفسه، ص 59-61.

³. ينظر حولها في نقطة الوقف الموالية، ص 307.

⁴. مجهول، قضية المهاجرين...، المصدر السابق، ص 59-63.

عشر جوابا، وتصدر أجوبة الفاسيين فتوى الفقيه أحمد بن محمد الحباك (ت938هـ/1531م) وهي تبطل مزاعم التجار اعتمادا على صريح الكتاب والسنة¹.

وأفتى فيها قاضي الجماعة بفاس ومفتيها عبد الواحد الونشريسي بتأكيد فتوى الحباك وناصرهما كل من محمد اليستيني، عبد الوهاب الزقاق، علي بن هارون المطغري، محمد بن جيدة الوهراني، مؤكدين حكم الإسلام بالمساواة بين جميع معتقيه، وفتوى الفقيه الخطيب أبي علي حرزوز من مكناس، الذي تباحث في قضية سوق البز في فاس مع فقهاء المدينة نزولا عند طلب الوزير، وأكدوا فيها بطلان دعوى تجار فاس وفساد شهادة وثيقتهم وكذا أفتى عالم الجزائر محمد بن علي الخروبي، ووافق ما ذهب إليه المفتيون السابقون وأن الفاسيين أحدثوا في الدين ما ليس فيه، وبسبب تلك الفتاوى الكاشفة لبطلان دعاوي تجار فاس أصدر حكام فاس بالسماح للإسلاميين بالدخول إلى جميع الأسواق لذلك أصدر الوزير محمد مسعود مرسوم في أواخر صفر 934هـ/1527م².

لعين أحمد الوطاسي على أمكاس فاس المنجور الإسلامي الذي يدفع 20 ألف دينار كل سنة، فطلب منه المهاجرون تعمير القيسارية بفاس مقابل 1000 دينار كل سنة فاستشار الأمير في ذلك فكان لهم الأمر، فحدث نفس الأمر كما سبق في جمع المبلغ من يهود وفاسيين، فمن أعطى تركوه ومن رفض أخرجه المنجور ويضع إسلاميا بدله، فكانت وطأتهم أشد، ولكن قام السلطان باستغراق المنجور الإسلامي فقلت شوكتهم³.

ودخل محمد الشيخ فاس وقبض على أحمد الوطاسي، فقام الفاسيون بإعلام السلطان الجديد بما كان للمهاجرين وما فرض في حقهم من سابق عهد وما هم عليه ساعته، فقام السلطان بإحضار المهاجرين فقدموا ما لديهم من جواز لما هم عليه، فتأمل ما بيدي الفريقين، فوجد من قال بالمنع أكثر من المنح، فأعادهم إلى ما أمر به أبو يوسف يعقوب المريني، مرجعا ذلك إلى البطانة عبد الحق المريني وأحمد الوطاسي من يهود الحسين وعبد الرحمن

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 274-275.

². نفسه، ص 276-278.

³. Levi-provençal, Extraits..., Op.cit, P 83.

المنجور، ومكثوا على ذلك حتى تولية خليفة السلطان أحمد المنصور على فاس وهو الشيخ المأمون وكان معه الفقيه العلامة الإسلامي أبو العباس أحمد المنجور، فقاموا بالاتصال به للعودة إلى القيسارية، فأمر المأمون بإحضار الطرفين لتقصي الحقائق، مع الأسئلة والأجوبة والفتاوى المانحة والمناعة¹.

فرأى المنع، وكان الشيخ القصار أفتى بتعمير الأسواق فيمن يؤتمن، وإذ ظهر عنه غش يمنع وحده مع شروط صارمة في ممارسة الحرفة سنة 991هـ/1583م²، ولما علم المأمون بجواب القصار مع إلحاح المنجور، أصدر ظهيرا في شهر جمادي الثانية 1010هـ/1601م وقيد فيه الحوانيت بالقبة الكبرى والصغرى والسماط، مع تعاطى الحياكة ونسج البز وثياب الحرير وغيرها ممن يصنعون الملابس وجعل النشاط التجاري حر بين كل المسلمين والمساواة بينهم، فأباح لهم تعميرها حتى توفي³، ليولي الأمر لابنه السلطان عبد الله، وكثرت الشكاوى بعدم أمانتهم وخديعتهم ومكرهم ورباهم، ولدرجته في العلم أخرجهم من تلك الحرف والأسواق وأمرهم أن يعودوا إلى ما أمر به السلطان المريني أبو يوسف، بفتوى من القاضي ابن أبي النعيم الغساني فكانت سببا في مقتله فيما بعد⁴.

وبقي الأمر على ذلك حتى عهد أخيه عبد الملك بن المأمون الشيخ، وبسبب تناحر الحكام السعديين، ذهبت ريحهم لتدخل فاس وأعمالها تحت راية الزاوية الدلائية بقيادة محمد الحاج الذي ولى عليها القائد أبا بكر التلمي⁵ وولى القضاء الفقيه محمد بن محمد بن أبي القاسم بن سودة، فاتصل المهاجرون به وطلبوا منه منحهم الإذن من الأمير محمد الحاج مقابل خراج سنوي ومنحهم العمارة بالقيسارية فاس والأسواق والحرف الرفيعة بها، فلما أرسل الهدية أفتى لهم بذلك⁶.

¹ مجهول، قضية المهاجرين...، المصدر السابق، ص 66-68.

² نفسه، ص 69.

³ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 278.

⁴ السائح، "مجتمع فاس..."، المقال السابق، ص 100.

⁵ مجهول، قضية المهاجرين...، المصدر السابق، ص 72-73.

⁶ حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 242.

غير أن الدلائل منعه من إباحتها لهم وطلب من القائد أن يوقف ما عزم عليه القاضي والمهاجرون مما جعل غليان في فاس عندما سمعوا بما يريد أن يقدم عليه القاضي فمنعوه وأعطلوه عن العمل أيما كما حاولوا إهانته، ففشل سعي المهاجرين، وفي هذه المرة قد سلت السيوف وحطمت الدكاكين ونهبت البضاعة، ووصل الأمر لحد خطير من الاختلاف والاحتقان، فالتجأ الحاكم أبو بكر التملي إلى الفقهاء للاستفتاء ولكن لم يجد عندهم الجواب الصريح فمنهم من صمت ومنهم من أجاب باقتضاب وإبهام، إلا محمد بن أحمد الأبار الذي أقر بالتسوية في الإسلام بين جميع معتقيه معتمدا على أدلة شرعية وسانده ميارة في كتابه الذي رد فيه على مقولة العامة: "لا تأمنهم ولو طال إسلامهم"¹.

فاستغاثوا بالفقيه سيدي محمد بن أحمد ميارة وشكوا له أمرهم فانتصر لهم في 1641م وألف كتابا سماه: "نصيحة المغترين وكفاية المضطرين بالفرقة بين المسلمين، بما لم ينزله رب العالمين، ولا خبر به الصادق الأمين، ولا ثبت عن الخلفاء المهتدين"، واستند ميارة في الرد على من قالوا بالمنع باستشهاده على كل مسألة بإحالة إلى مرجع كإسناد، وذلك من مواقف متقاربة لأحد علماء فاس في القرن 10-11هـ/16-17م الذين لقيوا تقديرا واحتراما كبيرين في فاس وحفظت لهم الذاكرة بالمكانة المرموقة وهم: العالم محمد الخروبي، العالم محمد الحباك، العالم عبد الواحد الونشريسي والعالم علي بن هارون والعالم أحمد بن يحيى والعالم عبد الرحمن الوقاد والعالم أبو علي الحسن بن حرزوز².

وميارة حاول عبثا التصدي وانتقاد عادات تعارف ودرج عليها المجتمع الفاسي حتى أصبحت لها شبه قدسية، فقد نالته من ذلك أنواع من ردود الفعل المعنوية والمادية، من طعن ولعن وشتم، وظهرت العداوة والقطيعة وعملوا على إهانته وحتى إذايته، فقد أخذوا تأليفه وطافوا به في الأسواق، وسخروا منه في نواديهم هادفين من ورائه الحط من قدره والتقليل من

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 280-379.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, P 368.

شأنه، كما هددوه في نفسه¹، فراسل ميارة السلطان محمد الحاج الدلائي لكف أذى أهل فاس فأجابه محمد الطيب الدلائي عن إذن عمه السلطان محمد الحاج برسالتين بعثهما إلى فاس مشيدا بالكتاب ومؤلفه، فوجه الأولى لميارة والثانية إلى العالمين محمد الصقلي ومحمد العمراني وقد أشارت الرسالة إلى طلب تأييدهما ومناصرة ميارة بين خاصة وعامة أهل فاس².

إلا أن رد الطبقة الارستقراطية الفاسية كان عنيفا على موقف الدلائي، ففر ميارة إلى زاوية دلاء قصد الحماية، لكنها لم تمنع من وصول الأصدقاء السلبية والتعقيبات الجارحة التي خلفها الكتاب، وألفه في وقت امتلأ بالاضطراب بعد وفاة السلطان أحمد المنصور³، كما قرظ كتابه كل من محمد بن عبد الواحد العوفي ومحمد الطيب الدلائي، وأيدا ما ذهب إليه صاحب التأليف بالتسوية بين جميع المسلمين في الإسلام⁴، لذا فهذا التعصب ظهر في وسط العلماء والتجار، فالعلماء الذين عرف أصلهم اليهودي ولو تعدد أجدادهم المسلمون بحيث لا يولون المناصب العالية الشرعية كالقضاء، الفتيا، الإمامة الخطابة، مهما علا كعبهم في العلم واشتهر ورعهم وذاع مثل رضوان الجنوي، أحمد المنجور، محمد ميارة⁵.

وبقي الأمر كذلك حتى ملك المغرب السلطان الرشيد، فاستغاثوا به فسأل عن النازلة وأصلها فأخبر، فأذن لهم في تعمير الأسواق بسبب توسط القائد ابن الأحول المهاجري واستعمله السلطان الرشيد كقائد على فاس، بعد قتله لرؤوساء فاس 1076هـ/1666م فاستعانوا بابن الأحول، الذي هابه الفاسيون فلم يقدروا على التبليغ⁶، وبسبب كثرة شكاية الفاسيين لهم فقد ظهر للسلطان ما يدعو إلى وضع علامة مميزة على أبواب من غش وخدع منهم للحيلة وأعطى صاحب تأليف قضية المهاجرين عدة نماذج عن كيفية غش وخداع

¹ لطفي بوشنتوف، "قضية (الإسلاميين) في كتاب (نصيحة المغترين) لمحمد ميارة الانتصار لفئة وانتفاء"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص 217-218.

² حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق ج1، ص 178-197.

³ بوشنتوف، المقال السابق، ص 217-218.

⁴ حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق ج1، ص 178-197.

⁵ نفسه، ص 274.

⁶ مجهول، قضية المهاجرين ...، المصدر السابق، ص 77-79.

ومكر المهاجرين سواء حقيقة أو تحاملا فإنهم نسجوا خيوط عدة أحداث لشخصيات منهم كالبناني مع الأعرابي وابن زكور مع عصاه بالمسجد بالقرويين وابن تطاري الخراز وقصته في كتابة لفظ الجلالة داخل النعال التي يبييها¹.

وكما قلنا فإن السلطان الرشيد أقر المهاجرين باعتماد الأسواق والحرف، وولى على فاس أخاه الأمير إسماعيل، فأطلق عليهم لفظ آخر البلديين²، وفي عهده أراد أهل فاس القيام على المهاجرين بإخراجهم، فقدم المهاجرون للأمير كتاب محمد بن أحمد ميارة، وذكر فيها أجوبة عن الإباحة، ولذلك أقرهم على ما أقرهم عليه أخوه الرشيد، على شرط المحافظة على العلامة، وهي حمل: "العَلَّاق" بالكلخة من ذراع لتميزهم وأخذ الحيطه منهم، ومن ثبت باقتراف فعل يتم إخراجهم من السوق والحرفة، كما جرى عليه عمل علماء فاس وفقهائها، ولما وقف الشيخ الإمام عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي على الكتاب ميارة، وقام بتمحيصه أصدر تأليفا يرد فيه ويدحض على ما ذهب إليه ميارة وقال بالمنع مرتكزا على جواب 52 عالم من أهل الدراية والولاية أجمعوا بالمنع، ومستندا بشواهد وقياسات من الكتاب والسنة وأقوال العلماء³.

ليستقر القول على عدم المنع ولكن من ظهر عليه الغش، خديعة، مكر أو معاملة ربا يخرج من الحرفة والسوق، وربما هذا ما كانت ترضى به فاس، وبقي المهاجرون يحملون الغلاقات بالكلخة من ذراع إلى غاية وفاة السلطان إسماعيل واضطربت أحوال فاس والمغرب ككل وساد في المدينة الظلم والنهب وولي على فاس من ليس بأهل لها، عندئذ أسقطوا حمل الغلاقات بالكلخة وحملوها بالعصا كغيرهم، بدون أن ينازعهم أحد في ذلك⁴.

فكانت هذه النازلة من النوازل الشائكة والحساسة بفاس واستمرت لعهود طويلة دون إيجاد مخرج مشرف لها.

¹. مجهول، قضية المهاجرين ...، المصدر السابق، ص 81-91.

². بوشنتوف، "قضية (الإسلاميين)..."، المقال السابق، ص 201-202.

³. مجهول، قضية المهاجرين ...، المصدر السابق، ص 92-94.

⁴. نفسه، ص 95-96.

2. قضية الوقف:

اعتمد بفاس على تنمية الأوقاف الخاصة بالقرويين عن طريق التعاقد والشراكة بين الأحماس والخواص والكراء والمعاوضة، ويشرف الناظر في تنمية الوقف على الكراء ومدته فالأرض أربع سنوات وديار والحوانيت سنة واحدة، والأراضي المحبسة على الأشخاص المعينين كالخطيب أو الإمام ما بين سنة إلى ثلاث، ويتم إثبات ذلك في العقود¹، في حين كراء الوقف لمدة طويلة اختلفوا فيه بين متشبت بأصل الوقف ومن يسهر على بقاء المكتري وكلاهما خوفا من تضرر الوقف أو الأصل².

وارتبطت أسعار العقارات بالفصول الشتاء والصيف، فرأوا أن كراءها يكون بعقد يعمر المدة كلها في وقت الكساد والرواج أي ضمان مداخيل قارة للأوقاف مع بقاء المكتري في محله ولا يتعرض للخروج إذ غلا السوق وارتفعت الأكرية، ومنها أجازوا هذه العقود في الأحماس أصلا وفي أملاك الناس إلحاقا³.

فعرفت مدة الكراء جدلا وتطورا في استغلال الوقف أو الأصل، فمن قال بمدة قصيرة لا تزيد على أربع سنين خوفا من تحول الحبس ليد المكتري، في حين يمدّها آخر لعشرين سنة كصاحب العمل الفاسي الذي شرحه السجلماسي وهذا للمحافظة على أصل الوقف من التخريب والضياع باهتمام المكتري به، ليتحول فيما بعد إلى صيغة جديدة وهي التنازل عنه للمكتري، عن طريق حق الجلسة⁴.

والجلسة وهي عقد كراء مقابل مبلغ معلوم يقع على المحلات التجارية والمعامل، وذلك بتجهيز المحل من صاحب حق الجلسة بالمعدات اللازمة، ويبقى ساريا لعقد لا تنتهي بمهلة إلا إذا خرج صاحب الجلسة من تلقاء نفسه أو أخل بأحد شروطه، وإن حدد مدة فإنه يمدد

¹. Jacques Berque, Essai sur la méthode juridique Maghrébine, Imprimer par Macel le Forestier, Rabat 1944, P 37-38.

². محمد بن القاسم السجلماسي، شرح العمل الفاسي، مخطوط مصور بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات تحت رقم 5288 ت 3/1131 بالرباط، المغرب الأقصى، ورقة 9.

³. عمر بن عبد الكريم الجيدي، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومها لدى علماء المغرب، مطبعة فضالة المحمدية المغرب 1982م، ص 474.

⁴. المهدي الوزاني، المصدر السابق، ج8، ص 354-355.

تلقائيا ليصل إلى ما يعرف بالكراء على التبقية، فيصبح المكتري شريك لصاحب الملك أو مع الناظر على الحبس¹، فالجلسة هي شراء البقاء والإقامة بالدكان أو العقار على الدوام والاستمرار ولا يحق لصاحب الأصل إخراج المكتري وكأنه ملك الأصل دائما، فالمكتري له حق المنفعة وتصل لحد التوريث أو الهبة أو الشراء².

بهذه الكيفية بقي للناظر حل وحيد البحث عن كار يتكلف بنفقات تجهيز الملك المحبس وفي المقابل يرفع الناظر مدة الكراء ويخفض له من الثمن، وأمام عجز مداخل الأحماس فإن الناظر لا يمكنه أن ينهي الفترة المحددة للكراء أمام ما قام به المكتري في العقار المحبس حتى إيجاد كاري آخر يطرح نفسه، وبذلك مددت فترة إقامة المكتري، فيتحول بذلك نحو التأييد مع التبقية في شكل جلسة (على الدور والحوانيت) أو جزاء (على الأراضي)³ ويقول صاحب العمل الفاسي:

هكذا الجلسة والجزاء *** جرى على التبقية القضاء⁴

وبتحول حق الجلسة إلى التأييد والتبقية، يلزم كلا الطرفين الاتفاق في تسيير العقار بدون تفرد أحد برأيه دون الآخر، كما لا يلزم أي طرف الآخر بما يراه من الكراء، كتحكم أحدهما في الآخر كرفع اليد مثلا، مع وجوب المكتري في دفع ثمن الكراء لرب الأصل سواء انتفع به أم لا، وغيرها من الأمور غير المنصوص عنها في الفقه وغير الجارية على القواعد المقررة وإنما هي عرف مصطلح عليه، وقد وقف العلماء منها على اختلاف فمن منعها بالجملة وحرمها ومن اعتبرها محدثة⁵.

وقد استفاد من ذلك اليهود منذ أواخر العهد المريني بوصولهم لتسيير رقاب سكان فاس بعد إعلان إسلامهم فتحصلوا على امتيازات واسعة أهمها احتكار التجارة في أسواق فاس بإرغام ناظر الأحماس على بيع جلسات الحوانيت للمهاجرين، إذا علمنا أن الحاجب ورئيس

¹ المهدي الوزاني، المصدر السابق، ج8، ص 355-357.

² بن عبد الكريم الجيدي، المرجع السابق، ص 468.

³ Berque, Essai..., Op.cit, P 83.

⁴ السجلماسي، المخطوط السابق، و 43.

⁵ بن عبد الكريم الجيدي، المرجع السابق، ص 470.

الشرطة يهوديان أصلاً، ووزراء المريني الذين كسبوا ثقة وتأيد سلطانهم عبد الحق، الذي نظر في البيع دخلاً مادياً مهماً هو في حاجته¹.

فكان هؤلاء التجار من العوامل لقيام الجلسة وحق المنفعة المكتسب على التأيد الذي يأخذ صورة: الجلسة، جزاء، الخلو والزينة والمفتاح، وهم شيء واحد كما صرح به أبو العباس الرهوني²، فشاع استعمال ذلك بين الناس ودخلت العرف، فأضحت الجلسة من العادات السيئة والقبيحة التي اعتادها الناس بفاس، غايتها الاستيلاء على المداخل الوقفية للمساجد والمدارس والمؤسسات الخيرية³.

والزينة نسخت لفظة الجلسة وحلت محلها والتعبير بالمفتاح اصطلاحاً للمتأخرين ولا يزال لليوم، ومسألة المفتاح قد استمرت بالمغرب والمشرق من المائة التاسعة للهجرة إلى الآن والأمر في طياته أن المكثري يمكنه أن يتصرف في العقار الذي اكتره بصيغة المفتاح إذا غلا الثمن في حق التصرف ببيع المفتاح دون استشارة الأصل.

وموقف العلماء من الجلسة وقفوا مواقف مختلفة فمنهم من منعها جملة وتفصيلاً مشدد التنكير على عاقيدها لأنها لا أصل لها في الشرع بسبب تشاكي الناس بظلمها، ومنهم القاضي الحميدي والسراج في ق 16م وبداية 17م وغيرهما من علماء العصر، وحاولوا الحد من خطورتها إلا أنهم لم يجدوا الإرادة السياسية حاضرة، والشيخ ميارة الذي ذكر أن الجلسة هي وسيلة منعها الشرع⁴، ويضيف عبد الواحد بن عاشر (1041هـ/1631م) أن الجلسة ليس لها قاعدة شرعية، وأشار الجلاي إليها على أنها من الأشياء التي أحدثها أهل الجور وعبر عنها المسناوي في كلامه أنها مما غص به الناس قديماً وحديثاً لتحكم العوائد على القواعد وغلبة العامة على الخاصة مع جهل منهم⁵، ونفس الشيء عبر عنه صاحب العمل الفاسي عبد الرحمن وشارحه السجلماسي في الأبيات التالية:

¹. بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 351.

². بن عبد الكريم الجيدي، المرجع السابق، ص 474.

³. بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 355.

⁴. بن عبد الكريم الجيدي، المرجع السابق، ص 475.

⁵. Berque, « Ville..., Op.cit, P 94.

الجلسة التي جرت بفاس *** لدى الحوانيت بلا التباس.

ليس لها في الشرع أصل *** يعلم ولا قياس قاله من يفهم

ففعّلها وبيعها حرام *** عند الجميع قاله الأعلام¹.

اعتبرها محمد بن أحمد التماق (ت1150هـ/1737م) من العرف وأجازها مطلقاً، ليتواصل الخلاف في العصر العلوي، فأصحاب التحريم ارتكزوا على ما فيها من مقاصد فاسدة ناتجة كاستيلاء المستأجر وذويه على الوقف بالتقادم، ومن أجازوا ارتكزوا على استجابتها للأحباس وتزليل على النظائر عناء التفكير في طريقة استغلالها واعتبروها أحسن الطرق، والعمل على تطهيرها شرعياً من طرف القضاة، أي ضمان مداخل قارة للأوقاف مع بقاء المكتري في محله دون تهديد، حسبما نقله المهدي الوزاني عن لسان الفقيه محمد بن عبد الصادي في النوازل الكبرى².

إذا ارتبطت الجلسة ببراء بمختلف الدور والدكاكين فإن الجزء ارتبط ببراء الأرض قصد البناء أو الغرس أو الزراعة، وجرى في أرض الأحباس على التبقية، وإن لم ينص عليها شرعاً، فكان لصاحب الجزء أن يبيع ويهب ويورث عنه، ويتم تجديد العقود دورياً، بحيث يقوم أهل الاختصاص الأمناء سنوياً أو شهرياً بالتقويم، وهو لازم على الناظر صاحب الجزء في قبوله، وشهدت تطورات فمن كراء لمنفعة لتبقية، وبهذا تكون أقرب للبيع من الكراء لأن المكتري صار كمالك الأصل، وبهذه الصيغة وكأن الأرض لها مالكان على الدوام الأصلي والنفعي الباقي وبذلك تصبح الجلسة والجزء شيئاً واحداً³.

وأيضاً من طرق استغلال الأحباس المعاوضة أو المناقلة أو الاستبدال، وفي الأحباس من الوسائل المهمة التي سلكها المسؤولون على التسيير الإداري لتنمية الوقف وتطويره⁴ وعرفها السجلмасي في شرحه بقوله: "فيصير الربع المحبس بيد آخر ملكاً مسرحاً ويصير

¹ السجلмасي، المخطوط السابق، و 43.

² المهدي الوزاني، المصدر السابق، ج8، ص 405-406.

³ بن عبد الكريم الحيدري، المرجع السابق، ص 476.

⁴ ينظر الملحق الثالث، الوثيقة رقم 21، بعض الأوقاف المعوضة مباشرة بفاس، ص 456.

الربع المأخوذ عنه عوضا عنه حبسا مكانه"، وقيدوها بشروط أن يكون الحبس خرابا لا يصلح ولا يرجى عودته للحالة الأولى وبذلك انعدمت وانقرضت منفعته، أو الخوف من الهدم وقال الفاسي في عمله: كذا المعاوضة ربع الحبس***على شروط أسست للمؤتسي¹. وهي على نوعين مباشرة تعويض الحبس بجهة أنفع وأغبط منه وغير المباشرة وتتم على عمليتين بيع ملك الحبس لشراء آخر جديد محله²، والمعاوضة ضربت شرطا مهما في الوقف أنه "لا يباع" ما فتح جدلا بين العلماء فمنهم من منع كالكفسي وأيده ابن سلمون وابن ماجشون واستندوا لقول مالك المانع لبيع الأصول المحبسة وإن خربت، ونقل الونشريسي في معياره عن الفقيه الإمام أبي القاسم التازغيدي في مسألة معاوضة بيع دار محبسة على القرويين بعدم الجواز بذلك لأن منفعتها لم تنقطع، كما أنها من الأحباس التي يمكن إصلاحها وتقويمها من غلتها، وقد وافق في ذلك اللخمي³.

ومن أباح كابن لب والحفار في ق 11هـ/17م بعد ثبوت الخراب للقاضي وبيع بمزاد علني وبثمن مناسب لشراء آخر، ويوافق بنعلة بينهم يقوله إذا كان المنع هو القاعدة فإن المنح هو الاستثناء، وفي حالتي البيع والشراء يكلف القاضي أهل البصر والمعرفة للنظر في الملك المعوض والملك المعوض به لتتم المعاوضة على تقريرهم ثم شهادة العدول في المعاوضة حتى لا تقع الخصومات بين الناس لتأتي موافقة القاضي وكانت المعاوضة تضمن الغبطة والسداد والصلاح والمصلحة⁴، والجدول المدرج يؤكد أن عملية المعاوضة المباشرة وغير المباشرة كانت واقعة، فقد أشرف القاضي عبد الواحد الحميدي على عدة معاوضات بمدينة فاس⁵.

وقد أفتى جماعة من علماء فاس بجواز بيع الحبس المؤبد على إثر مجاعة 1150هـ/ 1737م، وكان قد رد على هذه المسألة محمد بن محمد البكري الدلائي (ت1146هـ / 1733م)

¹ السجلماسي، المخطوط السابق، و10.

² بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص364.

³ الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص209-210.

⁴ بنعلة، المرجع السابق، ج1، ص365-369.

⁵ ينظر الملحق الثالث الوثيقة رقم21، الخاصة بالمعاوضة، ص456.

بكتاب بعنوان "القول المنثور ببيع الحبس في المسغبة ليس بمشهور"، وعاضده فيما بعد عمر الفاسي (ت1188هـ/1774م) الذي ألف: "لواء النصر في الرد على أبناء العصر" معتبرا أن علماء فاس قد انتقلوا من مذهبهم إلى المذهب الحنبلي¹.

كما برز في العهد السعودي بالخصوص سطوة الملوك والأمراء ومخزنهم على عقارات بيت مال وتحويلها إلى أوقاف خاصة بهم، فعرفوا بمستغريقي الذمة²، وقد ذكر الونشريسي في معياره عدة نوازل في الملوك الذين وقفوا أراضي بيت المال اقتطعوها من عمالهم وأوقفوها على أنفسهم، وبين فيها أن العلماء اتفقوا على عدم نفاذ ذلك الوقف وتحريمه وجعل أصحابه من مستغريقي الذمة³، وهو الأمر الذي جعل بعض العلماء يرون فيهم أكلهم لمال الحرام انطلاقا من ملكهم الأول السلطان محمد الشيخ إلى آخرهم، حتى أنهم رفضوا لقاءهم مثل الشيخ عبد الوارث بن عبد الله الياصلوتي (ت971هـ/1654م) الذي استدعاه السلطان للقائه في 956هـ/1549م فتخلف ولم يحضر⁴.

ونفس الشيء فعله رضوان الجنوبي مع السلطان أحمد المنصور الذي رفض القمح الذي أرسله له، وأبي المحاسن الفاسي الذي رفض مال جهل صاحبه من خدام المخزن، وفرقا ما حصلا عليه على الفقراء والمساكين⁵، وموقف الشيخ أحمد بن موسى الجزولي عندما نزل مراكش لما استدعاه السلطان عبد الله الغالب لطعام أعده له فرفض، وقال: "من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يوما ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة"⁶.

وتصادمت مواقف العلماء في فتاويهم حول أوقاف الملوك والأمراء على صحتها من عدمها، وتحدث عنها فقهاء المغرب، وظهرت في نوازل ابن عبد السميع (ت1080هـ/1669م) الذي منعها لإهمال القضاة لها وكذا محمد بن ناصر الدرعي (ت1087هـ/1676م)

¹. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص140-144.

². مستغريقي الذمة: هم الملوك والأمراء والولاة والعمال المشتغلين بخدمة المخزن والجباة وأهل الاستطالة في الأموال والاستبداد بها. (ينظر: بنعلة، المرجع السابق، ج2، ص142).

³. الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص305-310.

⁴. بنعلة، المرجع السابق، ج2، ص170.

⁵. نفسه، ص170.

⁶. الافراني، نزهة الحادي...، المصدر السابق، ص103.

يؤكد استغراق ذمة الملوك السعديين بوقفهم أراضي بيت مال المسلمين على أنفسهم لمدة مائة سنة باعتبارها فتحت عنوة، أما العلمي (ت1127هـ/1715م) فقد أورد نازلة على فقيه عاصر السعديين عن طريق المفتي علي بن عمران السلاي (ت1018هـ/1609م) التي تبين سكوت العلماء والفقهاء على مدى تجاوز الملوك لأملاك بيت المال التي حبسها المأمون بن المنصور على خطيب الجامع، فطالبه الفقيه بإرجاع الأملاك التي أوقفها فكانت جرأته سببا في قتله من طرف السلطان زيدان بن المنصور في عام 1018هـ/1609م باعتبار أن جل ماله حرام¹، وجمعها وأكدها المهدي الوزاني (ت1342هـ/1923م) المتأخر في معياره الجديد.

وتذبذبت فتاوى الفقهاء في تحديد الشخص المسؤول عن استرجاع أحباس مستغرقى الذمة أهو الإمام أم السلطان أم القاضي، وطرح هذا السؤال الشيخ المفتي محمد بن ناصر الدرعي وهذا بسبب طول مدة الوقف أدى إلى صعوبة استرجاع الأراضي الموقوفة على أبناء الملوك، فسلطة القاضي لا تصل لمجابهة أسياده، وتحويلها لأصلها، وقد سجل هؤلاء الملوك السعديون انطلاقا من عهد السلطان محمد الشيخ إلى آخر ملوك دولتهم، عن طريق القضاة رغم علمهم بمخالفة الشريعة، ومن الفقهاء من أحلوا هذا النوع من التحبيسات وسعوا لإجازتها شريطة وجود مرجع الجهة الخيرية كالمسجد، المدرسة، المستشفى...².

مستندين على ما ذهب إليه مفتي فاس الفقيه القباب عن ابن رشد وأورده صاحب المعيار³ وسار عليه فقهاء فاس في العهد السعودي، كأبي المهدي عيسى بن أبي الحسن المدعو علال الذي اعتبر حبس مستغرقى الذمة نافذا، إذا كان على الفقراء والمساكين أو على أوجه الخير والبر للمصلحة العامة، وأيضا القباب أن أحباس مستغرقى الذمة تجوز إذا كانت من مصالح المسلمين⁴.

¹. بنعلة، المرجع السابق، ج 2، ص 173.

². نفسه، ص 174-175.

³. الونشريسي، المصدر السابق، ج 7، ص 294.

⁴. نفسه، ص 175.

وهذه الوضعية راجعة لتردي الوضع العام وفساد الأجهزة الإدارية مع ضعف الجهاز الإفتائي وبذلك تجاوز السعديون الجانب الديني بـسريان أوقافهم رغم بطلانها، ومن وافقهم بحثوا على مخارج شرعية، ومن شهر بالكلام على السلاطين السعديين كان جزاؤه معروف كالقاضي علي بن عمران السلالي الذي سمه السلطان زيدان بن المنصور، ونفس المصير لقيه محمد بن عرضون الشفشاوني¹.

ومما تقدم نستخلص أن علماء القرويين احتلوا بين الملوك والناس مقام متميز، فإليهم تتقرب الملوك وتتلمذ ويتعهدونهم بالزيارة والخضوع، فنصائحهم حكم، وصيحتهم حرب، كل من حاد أو انحاز عن طريقه أطيح من عرشه، فعاشوا حياة العفاف والكفاف، مع حفظ الكرامة. ووفرت الاحباس موارد مادية كانت خير عون للعلماء على أداء رسالتهم، فحفظت ماء وجههم وكرامتهم، كما أغنت بعضهم عن التطارح أمام أبواب السلاطين، وساهمت أحباس القرويين في المحافظة على هذا الصرح وعلى باقي مساجد فاس.

كما سیرت جامعة القرويين بهیئة إدارية اهتمت بالتسيير واستثمار مصادره المالية المتأتية من الأحباس، وأخرى بيداغوجية تدريسية اهتمت بتكوين أجيال متلاحقة فبثت فيها علوما راسخة في النفوس والعقول، وسمحت بتكوين الإطارات التي يحتاجها المخزن وغيره. وبذلك فإن القرويين ومن ورائه العلماء قد كانوا على قدر المسؤولية لمواجهة تلك التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المغرب عامة وفاس خاصة، فأبدوا على نضج ووعي علمي كبير ومساهمة علمية وفقهية قيمة في إبراز تعامل العلماء مع النوازل والمسائل التي ترد إليهم ويعطوا فيها حكم الشرع والاجتهاد في تلك النوازل الجديدة فكان ملاذا لسكان فاس في إقرار أي نازلة والعمل من خلال الفتوى الصادرة منه وخير دليل قضية النسب وما اصطلح عليه بقضية البلديين التي أبلى فيها علماء فاس جهدهم من أجل إقرار السلم والتعايش داخل المدينة برد الحقوق وإقامة الشرع الحنيف الذي لا يقصي أي أحد ويعطى صورة على هذه الشريعة الغراء.

¹. بنعلة، المرجع السابق، ج 2، ص 176-177.

القسم الرابع: رسالة القرويين الحضارية والروحية (10-13هـ/16-19م)

الفصل الأول: الحياة العلمية على عهد الشرفاء (10-13هـ/16-19م)

أولاً. النهضة العلمية

ثانياً: الدراسة بالقرويين

ثالثاً. مؤثرات الحياة العلمية

الفصل الثاني: المجالس العلمية ورجالها بالقرويين (10-13هـ/16-19م)

أولاً. الكراسي والمجالس العلمية بالقرويين وتخصصها

ثانياً. رجال العلم في عهد الشرفاء

ثالثاً. التقاليد العلمية

الفصل الثالث: القرويين والقضايا العلمية والدينية (10-13هـ/16-19م)

أولاً. صلات علماء القرويين بالخارج

ثانياً. القرويين والقضايا العلمية والفقهية المطروحة

القسم الرابع: رسالة القرويين الحضارية والروحية (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

شهدت الحياة العلمية للقرويين في الفترة الحديثة تطورات مهمة أعادت الحياة للحركة العلمية نشاطها بالمغرب بعد فتور دام مدة من الزمن بين نهاية العهد المريني وبداية العهد السعدي لتتواصل للعهد العلوي، والسمة البارزة فيها تمثلت في مواصلة الحياة العلمية لنشاطها رغم الأوضاع السياسية المتردية، فبرز جهابذة من العلماء نبغوا في عدة فنون من ضروب العلوم، التي بثوها في صدور الأجيال المتتلمذة على أيدهم فتوارثوها، وهذا ما سنحاول التعرف عليه في هذا القسم.

الفصل الأول: الحياة العلمية على عهد الشرفاء (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

ارتبط العرش في المغرب الأقصى بمدى اهتمام الحكام بأمور الدين وحمل راية الإسلام والذود عن مبادئه، ونشر تعاليمه وصيانتها، وحرصهم على أخلاقه وشمائله، لذا قامت الدول في المغرب بقدر تحمسها لذلك، وسقطت بقدر فتورها عنها، ابتداء من مولى إدريس إلى اليوم، فجميع الملوك تجد فيهم صلابة في الدين، وحرصا شديدا على نشره وشد عضده¹ فكانت القرويين ركنا مهما تتجاوب مع تلك الأحداث والتطورات التي عاصرتها، وشهدتها فاس والمغرب فازدهرت الحركة العلمية لهذه العهود وارتبطت بالجانب الديني لحد كبير.

أولا. النهضة العلمية:

1. عوامل قيامها:

ارتبطت الحركة العلمية بالقرويين بعدة عوامل أساسية نجملها في النقاط التالية:

أ. العامل السياسي: ساهم الوضع السياسي للمغرب في الفترة الحديثة على ازدهار أو تراجع الحياة العلمية، من استقرار أو اضطراب، فشهدت تراجعا في نهاية دولة بني مرين نتيجة التهديد الخارجي والتناحر الداخلي، واستيلاء حكامها على أموال الأوقاف²، وتحول العلماء والطلبة إلى الجهاد والمرابطة كعبد الله الورياغلي³ ومحمد بن غازي⁴.

لتنهض من جديد في العهد السعدي لتخفق راية العلم عاليا، لكون رجالها من أهل العلم انطلقا بمحمد القائم بأمر الله الذي اشتغل بالتدريس، ومحمد الشيخ المهدي أديب يحفظ ديوان

¹. عبد القادر حسن، "العرش المغربي والدعوة الإسلامية"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، ص3، 29 ربيع الثاني 1379هـ/ فاتح نوفمبر 1959م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1959م، ص14.

². محمد حجي، "تجديد الدراسة بالقرويين أيام السعديين"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص40.

³. ابن عساكر، المصدر السابق، ص30.

⁴. حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص54.

المتنبى، أحمد المنصور، وزيدان بن أحمد،... كلهم ذو كعب عال، وزاد في شيوعها تعدد المراكز الثقافية في الحواضر في فاس إنشاء المكتبة الأحمدية بالقرويين ومراكش العاصمة والمحمدية (تارودانت)، والبوادي من دلاء... فتكاثر العلماء والطلبة أيام الدولة السعدية¹.

لذلك اعتبر محمد المختار السوسي في كتابه سوس العالمية أن بذور النهضة كانت موجودة بسوس قبل الدولة السعدية، فعند قيامها كان الأدب وحبه قد رسخ في أدمغة رجالها، الذين حاولوا صبغه فيما بعد على كافة المغرب الأقصى، حتى حضيت السوس في عهدهم بمكانة خاصة²، ليتسع الأفق الثقافي ويشمل الطرب والموسيقى الأندلسية والإنشاد كالموشحات بمناسبة المولد النبوي الشريف وغيره³.

وحتى في أيام إدبارها لم يعدم العلماء والمتعلمون، نتيجة تدهور الوضع السياسي فإن الحياة العلمية ازدهرت في بعض المراكز الآمنة بتحول العلماء وطلبتهم إليها، فخرجت الحركة العلمية من فاس متوجهة إلى البادية⁴، فبرزت الزوايا الكبرى كدلاء في الأطلس المتوسط والناصرية بدرعة والعايشية في الأطلس الكبير كمراكز علم وتصفوف تستقطب العلماء⁵ وسنجد حتى بعد تهديم الزاوية الدلائية في بداية العهد العلوي فإن العلماء والطلبة الذين آموها حولوا قبلتهم نحو فاس لعقد مجالسهم العلمية⁶.

وبسبب الأمن والاستقرار فقد تمازجت تلك الدفعات من رجال العلم وشكلت داخل المجتمع المغربي حلقة من حلقاته المتعاقبة بأجيالها بتكوين مدرسة محلية متميزة في شتى ميادين المعرفة⁷، وأبقى على شعلة تلك الحركة دائما متقدة، فمن الحواضر للبوادي لتعود إلى المدن من جديد مع بداية العلويين، ويبقى دائما جامع القرويين بفاس مركز عصب لها⁸.

¹ حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 56.

² محمد المختار السنوسي، سوس العالمية، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب الأقصى 1380هـ/1960م، ص 61.

³ Gagne et Nejjar, Op.cit, P 351.

⁴ النجمي، المقال السابق، ص 86.

⁵ Gagne et Nejjar, Op.cit, P 352.

⁶ النجمي، المقال السابق، ص 86.

⁷ حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 209.

⁸ الأخضر، المرجع السابق، ص 66-68.

كما استرجع السلاطين الأشراف أهم أداة استعملت في الحركة العلمية، وهي الأوقاف التي طالتها يد النهب والإهمال كالسلطان أحمد السعدي والرشيد العلوي، فردوها لأصولها وزادوا فيها، خدمة للعلم والعلماء وخصوصا العلماء بالهبات السخية، حتى قال الشيخ أحمد المنجور أن الملوك السعديين أنفقوا على العلماء بالمئات وخص السلطان المنصور أنه ينفق بالآلاف وكذا اليوسي في السلطان الرشيد الذي أنفق بالمئات حتى أنه فضح من قبله وأتعب من بعده، وغيره من السلاطين العلويين الذين كانوا على شاكلته، ما ساهم في ازدهار مختلف المراكز العلمية الحضرية والقروية¹.

ب. **العامل العلمي:** لقد خلفت الدول المتعاقبة على المغرب رصيذا ثقافيا وعلميا وافرا كان الأرضية التي انطلقت منها الحركة العلمية في الفترة الحديثة، مع إضافة ودمج ما حمله الأندلسيون من حضارتهم البائدة من ترسبات ثقافية عشية هجرتهم إلى فاس، فكانت تلك القنوات تصب كلها في وعاء واحد، إقامة قاعدة صلبة تبنى عليها نهضة علمية، واحتوت الخزائن على مختلف العلوم النقلية والعقلية، وعلى رأسها خزينة القرويين كما دعمت في العهدين السعدي والعلوي بما تحتاجه من توسعة ومصنفات استقدمت من الشرق والغرب².

كما أحدثت تلك الهجرات تغييرات مهمة في الهيئة التدريسية بالمغرب وفي المواد الدراسية وأساليبها، كظهور أسر علمية أندلسية وحتى تلمسانية، كانت محط اهتمام السلطان والعالم والطالب، فدرسوا بالمسجد والقصر والمدرسة، فعرفت القرويين تدعيم شخصيتها العلمية ببناء مرجعيات لها نظريا وتأسيس مبادئها المنهجية، من تلك المخلفات مع اتصالهم بالمشرق وفي نفس الوقت عرفت الاجتهاد الفكري الذي غلب عليه التقليد في البحث، رغم محاولات الإصلاح العلوي³.

ازدهرت الحركة العلمية في مدينة فاس وازدانت بعدة علماء، رغم أن هذه الحركة كانت تضعف هنا بينما تقوى هنالك، ولكن عناصرها الثقافية ظلت نفسها من علماء، ففي العهد

¹. حجي، "تجديد الدراسة بالقرويين.."، المقال السابق، ص 41-42.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, P 351.

³. العبادي، المقال السابق، ص 16.

السعدي من فاس لمراكش وفي آخره بالبوادي بدلاء والناصرية وفي العلوي من دلاء لفاس لمكناس إلا أن فاس وجامعتها احتلت مركز الصدارة والإشعاع وظلت مرجعا علميا في كل وقت، كما تشابهت في كلا العهدين مناهج التدريس في مختلف المراكز العلمية من حيث الكتب المدرسة وطرق تدريسها في حلقات العلم عما كان يجري بالقرويين¹.

وظهرت عدة مدارس كمدرسة الفقه الذي شغف به المغاربة، وامتازت بما يعرف بالعمل² الفاسي المنقول من الأندلس، وجمع قضاياه عبد الرحمن الفاسي في كتابه الشهير العمل الفاسي الذي شرحه السجلماسي، ومدرسة القراءات المازجة بين خصائص القراءة المغربية والأندلسية، وانتقلت هذه المدرسة رواية ودراية وتأليفا بين القراء جيلا بعد جيل دون انقطاع³ وبرز فيها بن غازي ومحمد بن العدي الأندلسي⁴، ومدرسة الحديث امتازت بالسند والمتن والضبط مع الرواية، كعبد الرحمن سقين الذي تخرج عليه عديد الحفاظ بالمغرب كعبد الله بن علي بن طاهر الحسني السجلماسي، وأحمد المقري، قصد ربط السلسلة الذهبية ورفعها لمصدرها خير البرية (ﷺ)⁵.

ج. هجرة العلماء: على إثر الهجرة الأندلسية في ق10هـ/16م دخل جملة من علمائها بتلاميذهم بأفكارهم ونزعاتهم وثقافتهم، ما أدى لتحول وانقراض البيوت العلمية الفاسية التي اشتهرت قبل القرن 11هـ/17م مثل آل المكودي والونشريسي، السراج، المواق، الزقاق... وظهرت أخرى ذات جذور أندلسية أو منتمية لأقلية من أمثال آل الفاسي الفهري، بن سودة جسوس، ميارة... وغيرهم⁶، ونزوح طائفة من علماء الجزائر وتونس للمغرب تحت عدة

¹ . بنعبد الله، " الثقافة والعلوم ...، المقال السابق، ص 28.

² . العمل: عند الفقهاء يعنى العدول عن القول المشهور أو الراجح في بعض المسائل المذهبية إلى القول الضعيف فيها، مراعاة لمصلحة الأمة. (ينظر: حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 210).

³ . Gagne et Nejjar, Op.cit, P 351.

⁴ . المنجور، المصدر السابق، ص 66-67.

⁵ . حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 209-210.

⁶ . العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 11.

مؤثرات من احتلال إسباني أو ضغط عثماني¹، خصوصا من تلمسان كابن جلال وشقرون،... واستقروا بفاس ومراكش وتارودانت وغيرها من المراكز الثقافية المغربية. ساهمت تلك الهجرات الوافدة على فاس من إنعاش نهضة علمية ساد فيها جو التنافس العلمي، فكان حقيقة معبرا عن حركية علمية مست مختلف جوانب الحياة، وما أدخلته معها من علوم وتقنيات كحركة ترجمة استفادت منها فاس والقرويين على حد سواء، فأعطوا نفسا جديدا للقرويين بعد أن عانى فترة من الاضطرابات التي راح ضحيتها خيرة العلماء، كما أن هؤلاء العلماء الوفدين تصدروا التدريس فخرجوا عدد كبيرا من العلماء حسب طبقاتهم واتصالهم بهم أو بشيوخهم، فأدخلوا مفاهيم جديدة وعقلية متفتحة وأساليب تعليمية، كونت عناصر مغربية صميمة برزت في عدة ميادين، كالإمام الهبطي السماتي (930هـ/1524م) صاحب وقف القرآن المشهور المعمول به للآن، والشيخ عبد الرحمن سقين (ت956هـ/1549م) شيخ المحدثين².

وكذا في العهد العلوي عندما تم إزعاج علماء دلاء نحو فاس فإنهم بعد استقرارهم سرعان ما احتلوا منابرهم واشتغلوا بالتدريس في المساجد والمدارس يعقدون المجالس العلمية لإفادة الطلبة، وكان فيهم المحدثون، الفقهاء، المتصوفة والأدباء المشاركون في كثير من هذه الفنون، كمحمد المرباط الدلائي، محمد الشاذلي الدلائي، أحمد بن المسناوي، أحمد بن الشاذلي الحسن اليوسي...، وتخرج على أيديهم جم غفير من العلماء³.

إلا أن تلك الحركة العلمية ستشهد في بعض المرات تراجعا وتدهورا إما سياسيا أو عسكريا بسبب العرش وحروبه وإما طبيعيا بسبب الكوارث وما انجر عنها من فقدان لخيرة العلماء وحتى علميا بسبب ذلك التقليد الأعمى أمام غلق باب الاجتهاد، والاعتماد على المختصرات والشروح والحواشي في التدريس، مما فتح باب الإصلاح في جامعة القرويين.

¹. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 254.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, P 351-352.

³. حجي، الزاوية الدلائية...، المرجع السابق، ص 263-264.

2. الحركة الإصلاحية بالقرويين:

تطرقنا في القسم الأول في فصله الثالث إلى نقطة بناء شخصية القرويين¹ التي عرفت فيها طوري النمو والازدهار، فبقت مرحلة أو طور التراجع ثم الإصلاح لجامعة القرويين في أيام الوطاسيين إلى غاية عهد العلويين، وهذا نتيجة ما أصاب البلاد المغربية من ضعف ضرب جل مفاصلها إلى جانب الاحتلال الأجنبي للسواحل المغربية، فوازاه نوع من الفتور العلمي.

أ. أسباب التراجع: تضافرت مجموعة من الأسباب في دفع التعليم بالقرويين إلى ذروته في التأزم خلال العهد العلوي، مما أوجب إخضاع هذه المؤسسة إلى التنظيم عن طريق المحاولة إصلاحها بالتخلص من النظام التقليدي بآخر جديد ومنها:

*. الركود الذي أصاب الحياة العلمية بالمغرب عامة، بسبب تلك الفتن والمحن التي أثرت على كافة المستويات من سوء الحالة الاجتماعية، مع أزمة مالية نتيجة أزمة العرش وإرتكاس مناهج التعليم في نظرة ضيقة وجمود وصل لحد تقديس أعمى لتراث السابقين².
*. التركيز في الدراسة على الجانب الفقهي في هذه المرحلة ككتاب "مختصر خليل" مع التعاليق كالزرقاني، دون الالتفات لأمّهات الكتب كـ "المدونة" التي لم تعد تدرس بالقرويين ونفس المصير عرفته كتب الحديث والتفسير والبلاغة التي أصابها التهميش من جراء هيمنة الفقه الذي كان يشغل غالبية حصص التعليم داخل القرويين، ففي تعليم النحو كانت الدراسة تدور حول ألفية ابن مالك والأجرومية مع شروحهما³.

*. سيطرة المختصرات واتخاذها عمدة وسندا في التدريس، والإعراض على الأمّهات التي هي أصل العلوم، وما صاحبها من إفقار المضمون في ثقافة القرويين، ومع سيطرة التقليد وأسلوب الحفظ، مع إتباع منهج الاختصار والحرص عليه في التأليف، وعدم مزج الفروع

¹. ينظر القسم الأول، الفصل الثالث، ص 109.

². العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج 1، ص 307.

³. العبادي، المقال السابق، ص 21.

بأصولها، مما أوجد تأليف مغلوقة العبارات تحتاج هي بدورها إلى حواشي لشرحها، كل هذا أدى إلى ما يعرف بأزمة القرويين¹.

*. من مميزات الفترة الحديثة سطوة وصوله الفكر الصوفي والطرقى على عقول الخاصة والعامة، حتى أصبحت جامعة القرويين تكون مثقفين من نوع فقهاء متصوفة، فانحلت عوارض الفكر وبدأت معالم انحطاطه، ليتفاهم الأمر في العهود المتأخرة حيث ساد نوع من العجز والفقر العلمى، أدى لإحجام كبار العلماء على تفسير القرآن، لاعتقادهم أن من يتصدره دون أن يكون كفاً له يؤدى لحدوث مصيبة بالبلاد وحتى موت السلطان ذاته².

*. انتشار الجهل في أوساط العامة، وجهلها لأمر دينها من فرائض وسنن، نتيجة الفتن الماحقة التي مرّ بها المغرب منذ ق 11هـ/17م وبعده، كما تصدر للعلم من ليسوا بأهله بالمدن، وانساققت البوادي وراء المبتدعة³.

ضف إلى ذلك فإن أساتذة القرويين اعتادوا أن يختاروا من الكتب ما يناسب أذواقهم من الفنون، واتبعوا طرقاً لتدريسها اتسمت بالتعقيد والترفع اللغوي والتعرض للاعتراضات والاستطرادات حتى مع المبتدئين⁴، مما أضر بالمستوى الثقافى المنشود بالقرويين.

ويذهب البعض الآخر في سبب الإصلاح إلى ما كان يعيشه ميدان التعليم بالقرويين من طرق عتيقة ومناهج جامدة مبنية على مخلفات سواء نافعة أو ضارة بحيث لا يفكر أحد في التطور الذي حصل في أوروبا في ميادين الصناعة والفنون ولا يحاول أي أحد أن يأتي بجديد يلهم به القديم فيصل الحاضر بالماضي، وانعكاس ذلك على الواقع⁵.

¹ أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تح وت: أحمد الناصري، ج7، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الدار البيضاء 2001، ص 90.

² عبد المجيد الصغير، "الموقف السياسى"، عن الإصلاح والمجتمع المغربى، أيام دراسية 20-23 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط 1983م، ص 391-392.

³ العمرانى، الحركة الفقهيّة... المرجع السابق، ج1، ص112-113.

⁴ نفسه، ص 113.

⁵ كنون، المرجع السابق، ج3، ص 1537.

ب. إصلاحها: إن أول من وضع الحجر الأساس لتنظيم القرويين السلطان محمد بن عبد الله (محمد الثالث) بفتح ملف خاص بها هدفه تنشيط الحياة الفكرية¹، فأصدر منشورا ملكيا سنة 1203هـ / 1788م إلى قاضي فاس وشيخ الجماعة بها التاودي ابن سودة²، وشيخ القرويين وعميدها بطلب العودة إلى أمهات الكتب بدل الاعتماد على المختصرات، رغم أن شيخ الجماعة قد رد عليه برسالة ينكر على السلطان تلك الإصلاحات إلا أنه سعى لتنفيذها³ واحتوى المنشور على عدة فصول:

فالفصل الأول منه يتعلق بأحكام القضاة وذلك بتحري الدقة والقول الصحيح للفقهاء: واهتم فيه السلطان بإصلاح جهاز العدالة من خلال مسألة الأحكام القضائية والقوانين الفقهية، في ظل المتفرعات والنظريات المذهبية على أقوال الفقهاء، المنعكس على الفتوى والتشريع فضاعت الحقوق وسطها، لذا أمر الفقهاء والعلماء بالعودة إلى جادة الصواب من خلال العودة إلى منابع الدين الصحيح، مع عدم الميل إلى الشذوذ والمذاهب المرجوحة والفتوى من كتب المتأخرين⁴.

ومنع الفتوى من كتب المتأخرين التي لا سند لها، إلا تلميحات المتفقيين، وأبحاث المتنطعين ونص بالخصوص على كتب الأجاهرة، والاعتماد عليها إلا ما وافق قول العلماء الأقدمين وهدد بالعقاب الصارم سواء كان مفتيا أو قاضيا⁵، وشدد على العدول والموثقين في تحرير الشهادات وطالبهم بالتحري فيها ما أمكن، وأمر بنبذ الشهادات التي تلوح عليها سمات البطلان والشك، وربطها بموافقة القاضي بسبب الاستهتار بحقوق الناس⁶، في أحوالهم الشخصية من الزواج والطلاق...⁷.

¹ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 329.

² حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 226.

³ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص 315.

⁴ ابن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام...، المصدر السابق، ج6، ص 121-123.

⁵ ابن زيدان، الدرر الفاخرة...، المصدر السابق، ص 60.

⁶ عبد الله كنون، " الملك العبقري محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع5، س10، ذو الحجة 1386هـ / افريل 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص 25.

⁷ ابن إبراهيم السملالي المراكشي، الإعلام...، المصدر السابق، ج6، ص 122-123.

والفصل الثاني خاص بإمام المسجد وسلوكه ومدى أهمية رضى أهل الفضل عنه، وإذا ظهر ما يزعجهم فيه يعزلونه في الحين ويأتون بغيره ممن يرضون إمامته¹.

أما الفصل الثالث فيتعلق بالمدرسين بجامعة القرويين وسائر فروعها: فحدد لكل علم تصانيفه، فأمر بتدريس كتاب الله تعالى وتفسيره وكتب الحديث والمسانيد والكتب المستخرجة منها كالبخاري ومسلم وغيرهما من الكتب الصحاح وكتب الفقه كالمدونة والبيان والتحصيل والمقدمة لابن رشد والجواهر لابن شاس وكتاب النوادر والرسالة لابن أبي زيد من كتب الأقدمين، ومن يدرس مختصر خليل بشرح بهرام الكبير، والمواق والحطاب والشيخ علي الأجهوري والخرشي الكبير لا غير، ما عدا هذه الشروح الخمسة كلها ينبذ ولا يدرس به ومن اعتمد عن الشراح كالزرقاني وأمثاله من شراح الشيخ خليل فإنه كمن يهرق الماء أو اتبع السراب، وعلى العلماء دراسة سيرة النبي (ﷺ) بالكلاعي وابن سيد الناس اليعمري².

والنحو على كتاب التسهيل والألفية وغيرهما، وعلم البيان بكتاب الإيضاح والمطول والأدب واللغة من المعلقات ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وأمثالها لفهم كلام العرب لأنها الوسيلة الوحيدة لفهم كتاب الله وحديث رسوله (ﷺ)، وعلم الكلام بعقيدة ابن أبي زيد كافية شافية، والفقهاء الذين يقرؤون الإسطرلاب وعلم الحساب فعليهم أخذ حظهم من الأوقاف لحفظ أوقات الصلاة والميراث³.

أما من أراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق والفلسفة وكتب غلاة الصوفية وكتب القصص فليتعاطى ذلك في منزله مع رفاقه، ومن تعاطى ذلك في المسجد ونالته العقوبة فلا يلومن إلا نفسه، أما الطلبة الذين تعاطوا العلوم المنهي عنها فما مرادهم إلا الظهور والسمعة وإضلال طلبة البادية، القادمين بنية التفقه في الدين وحديث رسول الله (ﷺ) فيتخلون عن

¹. ابن زيدان، الدرر الفاخرة...، المصدر السابق، ص 60.

². نفسه، ص 61.

³. نفسه، ص 62.

قصدهم لجهة تضرهم بتركهم للمجالس فيكون ذلك سببا في ضلالهم، وانتهى المنشور بأمر الفقيه السيد التاوردي أن يكون عمله على ما في هذا الكناش¹.

أوضحت هذه الكناشة الجوانب التي طالها الإصلاح في القرويين، فاهتم بالرجوع إلى أصول الشريعة وينابيعها والأخذ بالسلفية الصحيحة الأولى، وأيضا عند العودة لدراسة كتب الفروع بالرجوع لشرح معينة عرفت بالوضوح والاختصار والبيان، وهذا يبين الحرص على التكوين الديني والأدبي الكامل الذي يؤدي للفهم الصحيح للكتاب والسنة² كما أن نظريته المستقبلية كانت واضحة في الاهتمام بالرياضيات بدل علوم الفلسفة، وقد ظهرت صحة هذه الحقيقة في الحكومات اللاحقة، التي ترفع أصواتها بمراجعة برامج الكليات³.

ونلاحظ أن السلطان نزع وسائل العمل لأساتذة القرويين فجلبهم يستحضرون المختصرات عن ظهر قلب، وإذا بهم فجأة يستبدلونهم بكتب ربما يعرفون الاسم منها بدون الولوج فيها واستخراج مكنوناتها، لذا نقموا على هذا التغيير الجذري لمنهاج الدراسة⁴، ولربما لو كان تدريجيا لكانت له نتائج طيبة على المدرسين والطلبة على حد سواء، بإخراجهم بالتدريج من الحيز التعليمي الذي أصبح منضبطا ومغلوقا من جميع جوانبه بحيث لا يمكن الإخلال به لأنه طريقة اعتادوا عليها منذ أجيال، ولربما كانت في نظرهم الأمثل فيما وصل إليه التعليم على تلك المرحلة.

الأستاذ يدرس هذا أو ذاك الكتاب منذ نعومة أظافره وهو يذاكره بالدراسة ويتعهده بالحفظ لدرجة امتلاك ملكة استحضاره، ثم يتصدر التدريس لنفس الكتاب فيعيد اجتراحه مع التتميق في اللفظ والبيان والبديع والبلاغة والصور ما تجعل أعين الحضور تشخص فيه وتنسى حتى نفسها في إطار سياق حديث الأستاذ وصولاته وجولاته واستطرافاته وإفاداته وإنشاداته، ليكون في محل القدوة التي لا يجب الحياد عنها، وإذا بالسلطان يغير كل منهاجهم، مطالباً إياهم

¹. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص314-315.

². حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 227.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 724.

⁴. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص315.

أن يخوضوا في كتب جديدة مما يعني عليهم أن يفكوا رموزها ومغاليقها فعلى الأستاذ أن يعيد بناء نفسه من جديد.

ولإنجاح هذه العلمية فإن السلطان عمد إلى تنشيط حركة نسخ الكتب وعلى رأسها الحديث وتوزيعها حبسا على المساجد والمدارس المغربية لنشر الثقافة الحديثية بين رعاياه فقد أمر بنسخ كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، كما راسل المراكز العلمية مستفسرا عن وجود الكتب التي أشار إلى تدريسها من أجل النسخ عنها أو إرسالها وعلى ذلك أسس المجالس الحديثية¹.

ولشدة إيمانه بهذه الخطوة الإصلاحية فقد أرسل نسخة منها إلى علماء مصر مع وفد ترأسه الأمير عبد السلام يطلب منهم النظر في هذا الشأن، فإن كان صوابا عملوا به وإن كان فيه خطأ صوبوه وأشاروا عليه فيه ليرجع عنه²، ولكن العلماء القرويين لم يكونوا يؤمنون بفكرة التجديد والتحديث كما قلنا، فلم يخلصوا في تطبيقه، فبمجرد وفاة السلطان قام خلفه بالإذن لهم بالرجوع إلى ما كانوا عليه، فقد خالفه ابنه اليزيد في نهجه السياسي والإصلاحي³.

وفي عهد السلطان سليمان الذي عرف باعتكافه على العلم، حتى قيل في حقه أنه من ملازمي سواري القرويين، وبويع من طرف علمائها ومشايخها منذ الوهلة الأولى، ويؤثر عنه أنه شارك شخصا في تسيير الدروس والإشراف على الامتحانات وكان ولوعا بجمع المخطوطات⁴، فإنه رأى الانشغال ببعض الشروح والحواشي التي أقرها والده من شأنها أن تشذ الفكر وتنمي طاقة المناقشة لدى الطلاب، لكن فيما يخص مختصر الشيخ خليل الذي رأى فيه الوالد أسلوبا معيقا عن الفائدة، فإن الولد رأى عكس ذلك على أنه أسلوب مساعد على اختراق الغوامض وأضاف إليه العناية بمختصر ابن الحاجب⁵.

¹ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص 167.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 724.

³ كنون، ذكريات...، المرجع السابق، ج3، ص 1540.

⁴ السلطان سليمان، المصدر السابق، ص3.

⁵ الصحراوي، "المولى سليمان..."، المقال السابق، ص 59.

غير أن صاحب الاستقصا يري أن الرأي ما رآه السلطان محمد الثالث، معللاً تراجع ملكة العلم لانكباب الناس على المختصرات صعبة الفهم، والإعراض عن أمهات الكتب مبسطة المعاني، وهذا هو الوضع الذي استمر عليه التعليم لعصر الناصري، كما وافق سلطانه أيضاً في نهيه عن تداول كتب الأشعرية وحث الناس على الأخذ بمذهب السلف بالاكْتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة دون تأويل¹.

كلا السلطانين نادا بالعودة إلى السلفية ويتجلى ذلك من خلال رسائل الوهابية التي وصلتته مع ركب الحج بعد تولى آل سعود على الحرمين الشريفين، فجمع لها السلطان سليمان علماء القرويين لمدارستها والرد عليها، كما بعث ولده إبراهيم على رأس وفد كان فيه الفقيه ابن الكيران، العربي الساحلي... سنة 1226هـ/1811م وطلب منهم تجلي صحة الأمر بسبب ما وصل المغرب من آراء وأفكار وأقوال حولها، وقصد المناظرة وإحياء الصلات العلمية²، وقد نالت أجوبة آل سعود استحسان السلطان سليمان فجعل يحذر من الصوفية والمغلات فيها والتوسل بالأضرحة³.

ج. خطوة ثانية للتنظيم: لقد وصل عدد العلماء الذين عرفتهم المجالس العلمية في عهد السلطان سليمان بنحو 500 عالم⁴ فكانوا منارات يهتدي بهم في الحاضرة والبادية والسهل والجبل، فنشطت زوايا القرويين أيام هذا السلطان أيما نشاط حتى وصل صدهاء للمشرق وبعض جهات أوروبا، إلا أنهم حافظوا على نفس منهاج الدراسة بالقرويين التي بنيت على الاختصار والشروح والحفظ للجيل اللاحق، مما جعلها فيما بعد في حاجة إلى تنظيم، لذا فتح ملف القرويين ثانية في عهد السلطان عبد الرحمن بن هشام الذي وجه اهتمامه لتنظيم التعليم وترتيب الدروس⁵.

¹. الناصري، الاستقصا...، المصدر السابق، ج7، ص91.

². محمد إدريس العلمي، "النهضة العلمية على عهد العلويين قبل الحماية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، ص10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص179.

³. منصور، "الحركة الوهابية..."، المقال السابق، ص184.

⁴. ابن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج2، ص168-176.

⁵. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص223.

نقل لنا ابن زيدان ذلك الظهير أو الخطاب الملكي الذي توجه به إلى شيخ القرويين وقاضي القضاة المولى عبد الهادي في 12 محرم 1261هـ/21 جانفي 1885م شرح فيه سبب الإصلاح نتيجة كثرة الطلبة كعادتهم وحبهم لطلب العلم، ولكن الإخلال بالطريقة القديمة من حيث الكتب المدرسة وطرق الشيوخ في قراءتها أدى إلى قلة التحصيل والإفادة ببقاء الفقيه في دراسة كتاب خليل عشر سنوات والألفية عامين والثلاثة، وتطعيم الفقهاء دروسهم بالأقوال الشاذة والمعاني الغريبة الفاذة، في ظل كثرة التشعبات والاعتراضات، وعليه يختلط على المتعلم فلا يعلم الصحيح من السقيم حتى يقوم من مجلس الدرس أجهل مما كان، وبذلك تضييع الأعمار والأوقات بلا فائدة¹.

أمر السلطان التقصير في التقرير على حل كلام المؤلفين، وإفهامه للمتعلمين مع التنبيه عن الخطأ والتحريف، لأن المقصود هو حصول الفهم والإفادة وعدم مناقشة الألفاظ ولا يجاوز الفقيه في درسه للخليل مدة عام وإن طال في عامين والألفية في شهر أو شهرين تلك هي طريقة جهابذة العلم الذين يسردون الخليل في 40 يوما والألفية في أقل من ذلك ويحصل الطلبة في ذلك على علوم جمة، وكذا التقصير في الدرس وخفته فلا يتجاوز ساعة².

وكان صدى هذه الوثيقة مدويا بين أوساط العلماء والطلبة آنذاك فأصبحت الكفاءة العلمية تقاس بمقياس غير الذي كانت تقاس به سابقا، وقد كان العاهل المغربي من أنصار الطريقة المشدالية، لهذا نراه يطلب من العلماء أن ينزلوا إلى مستوى الطلبة، بدل تحليق الأستاذ في المدارج وترك طلبته في تقديراتهم يعمهون، وقد صحبت هذه التغييرات حركة علمية نشيطة، تجلت في ميدان الإفتاء، نظرا للتطورات التي جدت باحتلال فرنسا للجزائر وما صاحبه³.

ويعطينا الفقيه الحجوي نظرة عما آلت إليه القرويين في بداية القرن العشرين على أنه لا يزال يحافظ على نمطه القديم في جميع جوانبه، بدون أن يكون له نظام وترتيب معين

¹. ابن زيدان، الدرر الفاخرة...، المصدر السابق، ص 80-81.

². نفسه، ص 81.

³. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص224-225.

لتسيير دروسه ولا لموظفيه المتخرجين منه، مع بقاء رواتب الأساتذة زهيدة لا تكفيهم أنفسهم أمام تراجع قيمة العملة، وحال الطلبة أحلك، لذا بحث الأساتذة على عمل ثان لسد رمقهم فتعطلت الدروس وهملت الفنون، وأصبحت تقريبا أثرا بعد عين¹.

وربما يعود الأمر في عدم جدوى هذه الإصلاحات إلى نوعية الأساتذة، فقد قدم لنا بيرك (Berque) صورة حول ذلك اللقاء الهامشي بين السائح الفرنسي والأستاذ من جامعة القرويين اللذين دار النقاش بينهما حول بعض العلوم، أين ظهر حكم السائح على جهل أستاذ القرويين لعدة علوم كالفسفة والتاريخ والجغرافيا²، وهو الأمر الذي جعل الفرنسيين يطلقون على القرويين اسم البيت المظلم.

¹. الحجوي، المرجع السابق، ج4، ص 30-31.

². Berque, « Ville..., Op.cit, p 107-108.

ثانيا: الدراسة بالقرويين

1. التعليم والتدريس:

أ. التعليم الأولي: حافظ التعليم على هذه العهود عما كان سابقا، ولا يكاد يختلف عن باقي العالم الإسلامي¹، رغم محاولات الملوك في إصلاح وتنشيط التعليم الأولي خصوصا في العهد العلوي، فقد حث السلطان محمد بن عبد الله جميع القبائل على تعليم أبنائهم عن طريق "المشارطة"² في البداية التي فترت في عهده، وحدد فيها مهام العالم بتولي أمر الدين وتعليم الصبيان، مع إقامة الصلوات، والجماعة التي لا تمتثل تعاقب، وألف كتيباً في هذا الصدد بين فيه ما يجب على المعلم بثه في المتعلم وسماه "مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان" وحث الشباب والشباب على تعليم أمور دينهم³.

كما قام السلطان عبد الرحمن بأمر عماله بالأقاليم بأن يلزموا كل تجمع سكاني صغير أو كبير بتأسيس مسجد وكتاب قرآني، والقيام بمؤونة الفقهاء الذين يقومون بالتعليم، وكل من قصر يعتبر مذنباً يجب معاقبته، وهذه الإجراءات ساعدت لحد ما في انتشار الكتاب، فكانت منطلق الصبي في طلب العلم واكتسابه⁴.

ينطلق مشوار الصبي التعليمي من المسيد المؤسس بالقرب من المسجد، لينتقلوا منها للمساجد أو المدارس فجامعة القرويين، وكان لتلك الكتاب أوقاف مرصودة لها فقد صرح الد: السعيد بوركية في الحوالة الإسماعيلية المؤرخة في 10 رجب 1115هـ/19 نوفمبر 1703م تقييد عن كتاب فاس المعدة لتعليم الصبية وتأديبهم وأحصت ستة ومائة كتاب جزء منها له أوقاف خاصة لدعم المعلم الذي يستفيد من ذلك الوقف، وهو ما جعل القرويين عامراً على الدوام وحافظ بذلك على حفظ القرآن الكريم ودوام سنة رسوله الكريم (ﷺ)⁵.

¹ Gagne et Nejjar, Op.cit, P352.

² الشرط: في الاصطلاح أهل البداية بالمغرب عبارة عن مال معين وكمية من الطعام يدفعها أهل القرية أو المدشر للفقير الذي ينقطع لتعليم أبنائهم والإمامة بهم في الصلاة. (أنظر: حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 270).

³ السلطان محمد بن عبد الله، مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان، قابله وصححه: أحمد العلوي عبد اللوي الدعوة السلفية، المملكة المغربية، 1417هـ/1996م، ص 12.

⁴ إبراهيم الإلغي، المقال السابق، ص 58-59.

⁵ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 235-239.

وركز في طور الكتاب أساسا على القرآن الكريم، حفظا ورسمًا فيبدأ الطفل في سن مبكرة بحفظ الحروف الهجائية، قبل التعرف على رسمها في الألواح، ثم يحفظون فاتحة الكتاب فسورة الناس، فالفلق، فالإخلاص على ظهر قلب، وهكذا حتى يتم ختمه وتكرر الختمات إلى عشر أو أكثر، يحفظ المؤهلون من الأطفال أثناءها الروايات المختلفة في قراءة نافع وغيرها، ومجموعة من النصوص القصيرة والمنظومات والمنثورات المسماة "الكراريس" وتتعلق برسم القرآن وتجويده وقراءاته ومبادئ العقيدة والعبادات وقواعد اللغة العربية¹.

ب. المدارس: لم يكن للسعديين ولا للعلويين حظ كالمرينيين في بناء المدارس بفاس إلا أنهم بذلوا الجهد للمحافظة على ما وجدوه وسعوا في بقاءه، وزادوا فيه لكونهم من العلماء² لذا جعلوا التعليم كأولوية³، فقد دشن العلويون الأوائل دولتهم بإنشاء مدرسة بناها السلطان الرشيد وأتمها أخوه إسماعيل بشارع الشراطين 1081هـ/1670م⁴، وجاءت في غاية الحسن والجمال والإبداع، وحسب الحوالة الجديدة لأحباس فاس فقد رصد لها ثلاثة عشر عقارا⁵، وأنشأ السلطان عبد الله مدرسة بدار الديبغ سنة 1145هـ/1732م⁶.

كما أعطى اليوسي صورة في سكنى تلك المدارس بحيث ينزل كل في محله اللائق به حسب بيئته فهناك من يليق به صدر بيت المدرسة كالمصدرين للمصالح من تدريس، فتوى نظر رعاية...، ومن يليق به المكان المضيء كأهل النظر والنسخ، ومن يليق به العلو كأهل المدن والقرى ومن يليق به الأسفل كأهل البدو، ومن يليق به البعد عن مواضع الدرس كأهل الأصوات المرتفعة بتلاوة القرآن مثلا وغير ذلك⁷، وكان لكل مدرسة مرينية أو علوية مرتديها من الأفاقين، كالشراطين للجزائريين والفيلايين وأهل الريف⁸.

¹. Gagne et Nejjar, Op.cit, P354.

². الأفراني، المصدر السابق، ص 62.

³. ينظر الملحق الثالث الوثيقة رقم 24، الخاصة بأوقاف بعض المدارس الفاسية، ص 459.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 671.

⁵. بوركبة، المرجع السابق، ج 1، ص 241-243.

⁶. نفسه، ص 283.

⁷. اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 448.

⁸. Benoit, Op.cit, P96-98.

وبذلك يتدرج الطالب في هذا الطور على يد علماء وفقهاء يعملون على إصلاح لسانه ولغته ومعارفه في الفقه والتوحيد¹، كدراسة مختصر خليل، الرسالة، مقدمة ابن آجروم، ألفية مالك لامية الأفعال، علم الحساب، علم العربية...²، ما يعينه على الانتقال من مرحلة لأخرى ولا يكون تحصيلها إلا بعد أن يقطع الطالب شوطاً من حياته في التكوين فيقطف أزهار تلك الدروس وثمارها بالسمع والبصر والفؤاد، والتقاط درر العلوم ولآلئ الأحكام ما ينوء على ملء الحقائب الأثقال، وكذا الأخذ بالسماع من المرويات، مع المطالعات من السندات وما يتحصل عليه الطالب يكون بشق الأنفس، وكل هذا من أجل التألق والجمع³.

ومما كان يتحصل عليه الطالب من معارف في هذه المرحلة ليؤهله للطور الموالي ما ذكره الجلابي عندما أراد دخول القرويين فيقول: "قدمت من بنى زروال مع أخي وشقيقي سيدي أحمد للحضرة الفاسية بقصد القراءة والتعليم في شهر ربيع الأول من عام أربعة وتسعين وتسعمائة (1586م)... وكنت حفظت القرآن العظيم وألفية ابن مالك والكراريس بباديتي"⁴.

كما انتشر في هذه الفترة رجال جمعوا التصوف بالعلم، فبرزت الزاوية الصوفية كمدرسة أو مركز علمي⁵، مثل زاوية دلاء في تادلا ودورها الثقافي، والزاوية الفاسية فقد درس فيها أبو المحاسن الفاسي "قوت القلوب" و"الإحياء" و"الشريعة في آداب السلوك"...، كما كان الإمام الزقاق يدرس الفقه والحديث والتصوف، رغم معارضة البعض كعبد الله السوسي مفضلاً كتب السيرة على التصوف، وظهرت تأليف في هذا الفن ككتاب "دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"، وابن القاضي "درة الحجال"، و"الجدوة"...⁶.

إلى جانب ذلك فقد حافظت هذه الزاوية في نشاطها العلمي على بقاء تدريس الكتب الأصلية التي توقف عنها القرويين في النحو والأدب، بالعودة إلى الأمهات كسيبويه، وفي

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 420.

². الفشتالي، مناهل الصفاء، المصدر السابق، ص266.

³. كريم، المرجع السابق، ص 307.

⁴. نفسه، ص 327.

⁵. حجي، جولات...، المرجع السابق، ص 335.

⁶. السايح، "الثقافة المغربية..."، المقال السابق، ص 21-22.

الفقه إلى جانب مختصر خليل وابن الحاجب مدونة سحنون الكتاب الأصلي للمذهب المالكي¹، وأيضا مواصلة بعض العائلات التي صنعت لنفسها اسما باحتكارها لبعض المعارف والعلوم عن طريق الوراثة بالقرويين وخارجها² مثل آل إبراهيم الدكاليون³ الذين مهروا بتدريس المدونة بالقرويين⁴، فساهم هؤلاء في بقاء التكوين لبعض المعارف التي غابت عنه لمدة من الزمن لتعود إليه فيما بعد بأكثر قوة.

ج. بالقرويين: كان ولا يزال جامع أو جامعة القرويين من الجهات التي تشد إليها الرحال في طلب العلم من المشرق والمغرب، وفي هذه المرحلة من التاريخ لم يكن التعليم العالي مقرونا بشروط محددة، فقط يكون الطالب قد تحصل على معارف أساسية دينية ولغوية من الأطوار السابقة التي تؤهله لدخول جامعة القرويين، وكان انطلاق السنة الجامعية مع بداية الخريف وتعيين يوم افتتاحها من صلاحيات قيوم الأساتذة وعميدهم شيخ الجماعة بفاس بعد استشارة قاضي المدينة وكلاهما من هيئة التدريس به⁵.

وبالتحاق الطلبة من مختلف الجهات حاملين في صدورهم تلك المعارف الأولية، بحيث لم تكن هناك تسجيلات، فكل من أثبت نفسه يقبل فيها لأن التعليم مجاني، فيتقدم نحو الأساتذة الذين يرغب في التلمذ على أيدهم بحضور مجالسهم، فكانت الأوقات الصباحية في الغالب تخصص للمواد الدينية والشرعية والأمسيات لتدريس باقي العلوم، وعلى ذلك قسم النهار إلى ستة أجزاء تتمدد وتقتصر حسب الفصول، وينطلق الدرس بعد صلاة الصبح لغاية العشاء تتخللها فترات كمجال لراحة الطلبة، وأيضا إقامة الصلوات⁶.

من الأمور المهمة التي عرفت القرويين في بداية القرن 10هـ/16م، هي توسع نطاق المواد المدروسة بدخول المعقولات من رياضيات ومنطق وكلام وبلاغة، على يد كوكبة من

¹ حجي، جولات .. المرجع السابق، ص 336.

² العبادي، المقال السابق، ص 19-21.

³ آل إبراهيم: من مشنزة إحدى فروع قبيلة دكالة، بيتهم كبير بفاس شهير بالعلم، وهم من أعيانها قديما وحديثا، ومنهم جماعة من العلماء الفحول والجهابذة الأعلام. (ينظر: الكتاني، زهر الأس ...، المصدر السابق، ج1، ص 59-60).

⁴ حجي، جولات .. المرجع السابق، ص 336.

⁵ حجي، الحركة الفكرية.. المرجع السابق، ج1، ص 111.

⁶ لوطنو، المرجع السابق، ج2، ص 657-659.

العلماء كمحمد ابن غازي ومحمد اليعتيني، والعناصر الجديدة من علماء الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى، وأصبحوا من هيئة التدريس بجامع القرويين، فحملوا معهم أساليب علمية جديدة¹ غيرت المتعارف عليه سابقا، فأنتج هذا عناصر مغربية جديدة للقرويين، مع العودة لأمّهات الكتب الأصلية كمدونة ابن سحنون الكتاب الأصلي للمذهب المالكي وفقهه، وكتاب سيبويه في النحو والأدب...، لينتقل في ق11هـ/17م إلى المراكز العلمية القروية بسوس والزاوية الدلائية...، ليعم إشعاعها بعد ذلك أرجاء البلاد سهلا وجبلا².

وتحدث ابن القاضي في هذا الصدد على أنه ظهرت في أيام السلطان المنصور علوم وصناعات لم تكن قبل في المغرب، فأحيى علم الهندسة وفروعه، اللغة...، وعادت هذه المواد كبرامج في التدريس والتأليف³، حتى أصبح أبو زيد عبد الرحمن الفاسي يلقب بسيوطي زمانه لنبوغه في اللغة⁴، وأيضا محمد بن الطيب الشرقي⁵ الصميلي الفاسي ذائع الصيت بالمشرق الملقب بشمس الدين⁶، ونفس الشيء نجده ما بين ق17-19م في العهد العلوي بروز عدة علماء من أمثال اليوسي وابن زاكور...⁷.

وارتكز التكوين بالقرويين في هذه الفترة على الحفظ، فعلى الطالب حفظ "الأمّهات" من الألفية واللامية في النحو ومختصر خليل في الفقه، وحفظ "الشواهد" وهي الأبيات والفقرات التي يمثل بها في كتب اللغة والنحو والصرف والبلاغة وغيرها، بحيث يصبح للطالب عن كل مسألة يتعلمها نصا وشاهدا يؤيدانها حتى لا يتعرض لسخط شيخه وسخرية رفاقه

¹. Gagne et Nejjar, Op.cit, P354.

². حجي، جولات .. المرجع السابق، ص 336-337.

³. محمد المنوني، "أساتذة الهندسة ومؤلفوها في المغرب السعدي"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، س9، شعبان 1385هـ/

ديسمبر 1965م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1965م، ص 101.

⁴. محمد الفاسي، "تاريخ الدراسات اللغوية بالمغرب الأقصى"، عن مجلة دعوة الحق، ع10، س3، صفر 1380هـ/ يوليو

1960م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1960م، ص 38.

⁵. ابن الطيب الشرقي: ولد بفاس سنة 1115هـ/1698م ودرس بجامعتها أخذاً عن مشاهيرها كمحمد بن أحمد ابن السنائي الدراسات اللغوية وعن أحمد الوجاري...، ليقبل على التدريس، ويحج في سنة 1139هـ حيث لقي مشاهير علماء وقته، وبعد رجوعه انكب على التعليم والتأليف، وكان له علو كعب في شتى العلوم بفضل حافظته القوية التي أعانته على التبحر فيها وفي زيارته الثانية للمشرق استقر بالمدينة المنورة إلى أن توفي بها سنة 1175هـ/57-1756م، ومن أشهر تلامذته بالمشرق الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس، و بالمغرب أحمد بن عبد العزيز الهلالي العالم اللغوي، والزيادي صاحب الرحلة وله مؤلفات كثيرة أهمها حواشيه على القاموس (أنظر: محمد الفاسي، المقال السابق، ص 38-39).

⁶. الفاسي، "تاريخ الدراسات...، المقال السابق، ص 38.

⁷. بنعبد الله، "الثقافة والعلوم..."، المقال السابق، ص 29-30.

ويتجنب قول: "من لا يحفظ النص فهو لص"، فنجد بعضهم يحفظ "تسهيل بن مالك"، "ديوان المتنبي" "توضيح خليل"، بل بعض المدرسين من يستظهر "صحيح البخاري ومسلم وموطأ ومدونة سحنون" وغيرها من المؤلفات الطوال فأطلقوا عليهم لقب الحفاظ¹.

وقد أوضح اليوسي في كتابه القانون عن نظريته المنهجية في التكوين بالجامعة لأنه أحد أساتذتها في ق11هـ/17م وهو مخضرم بين العهدين، فيقر أن في زمانه قد قصرت الهمم وثار الفتن وفاضت، فانعكس على مراحل التكوين وأماكنه، وبين ما على الطالب تحصيله من علوم فيجب عليه أن يتمكن فيها فن بعد فن، فأول خطوة تحصيل القرآن حفظاً وإتقاناً وفهماً لأنه أم العلوم، مع عدم التغلغل في علومه أولاً، حتى لا يذهب عمره سداً، وبعدها عليه بالحديث فيتقنه رواية ودراية، من معرفة مسانده ورجاله، صحيحه وحسنه ولغته².

ثم يأخذ في القواعد اللغوية والعقلية حتى يتضلّع فيها، ويشرع في العلوم الشرعية دليلاً ومدلولاً، أصلاً وفروعاً، فإن أتم ذلك فنعم التجارة، مع عدم الإحاطة بكافة العلوم وإنما الأخذ من كل فن أحسنه³، ومنها يفرغ طاقته في الفن الذي يميل إليه وينكب عليه إن كان مهماً وتلك هي اليوم الطريقة اليابانية في التعليم.

وعلى طالب العلم في البداية الابتعاد عن الخلافات العقلية والسمعية، بل وعلى الفنون المختلفة حتى لا يذهب جهده شذر مذر، وقيل: "كثرة الفنون مضلة الفهم"، لذا عليه الاشتغال من الفنون على ما يطيق حتى يقوى على غيره، وكذا التدرج في الفهم من البسيط للمعقد، وعندما يكمل إدراكه يتوجه للعلوم الشرعية للاستعانة بها، وبعدها يلم بالباقي، لأن العلوم بعضها داخل في بعض، وحتى يتحصل على ذلك عليه بملازمة جميع مجالس شيوخه⁴، وبذلك يكون الطالب مؤهلاً لتسلم إجازته الخاصة بقراءاته للكتب خصوصاً الخمس

¹. علال الفاسي، "اهتمام الأسرة العلوية بحفظ القرآن"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س11، ذو القعدة 1387هـ/ فيفري 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 21.

². اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 393.

³. نفسه، ص 393.

⁴. نفسه، ص 394-395.

الأوائل من بخاري، مسلم، الترمذي...، لأن لها سند متصل إلى سيد الخلق رسولنا الكريم (ﷺ)¹.

إلا أن التعليم بالقرويين لم يستطع التخلص من ظاهرتين خطيرتين جثمت على عقول المدرسين والدارسين وعرقلت كل تطور فكري وهما:

ظاهرة الاختصار في الكتب وأشهرها مختصر خليل في الفقه وألفية بن مالك ولاميته في النحو والصرف وتلخيص المفتاح للقرويين في البلاغة وغيرها، وهذا الاختصار غلق باب الاجتهاد في الفقه أمام العلماء وضيق مجال عملهم، فتجمدت العلوم النقلية والعقلية، فبقي لهم في التأليف سوى تكرار ما قاله الأولون في شروح وذيول أو تجميع المسائل ونظمها أو تقليص الحجم للكتب المطولة وضغطها في مختصرات يصعب فهمها، مما أقصرهم في دراسة أمهات الكتب، فقام الشيوخ بتلخيصها لتحفظ بسهولة حتى إذا عجزوا عن فهمها وضعوا لها شروحا ثم حواشي فازداد الأمر تعقيدا².

والحفظ الذي ظل متفشيا قبل وأثناء وبعد الفترة الحديثة، فالصبي منذ نعومة أظافره ينطلق بالكتاب في حفظ الحروف والقرآن الكريم معا وحفظ المتون (الكراريس)³، لينتقل المتعلم بعدها إلى الطور الموالي لحفظ الأمهات من ألفية بن مالك ولاميته في النحو والصرف ومختصر ابن الحاجب وخليل في الفقه مع حفظ الشواهد، ويستمر الحفظ في المرحلة النهائية من الدراسة، فتكون سمته بعد في التدريس اجتراح ما حفظ بالاستظهار حسب ملكة كل طالب في الحفظ⁴، فكل الفن يجب حفظ نصوصه، ومن لم يستحضر النص عن مسألة ما في أي علم تكلم فيه، لا يلتفت إلى كلامه، ولا يعبأ به، ولا يحسبونه من طلبة العلم⁵.

¹. كريم، المرجع السابق، ص 308.

². Gagne et Nejjar, Op.ci, p353

³. الكراريس: وهي نصوص منثورة ومنظومة تتعلق بكيفية رسم القرآن وضبطه، وبمبادئ الدين واللغة العربية.(العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 150-160).

⁴. Gagne et Nejjar, Op.ci, p353

⁵. Berque, « Ville..., Op.ci, p79.

2. سير المجالس العلمية:

كانت المجالس العلمية ترتبط بدرجة كبيرة بالشخص الجالس على الكرسي في مدى تبحره في العلوم وسعة ملكته في اللغة التي تسحر العقول والطريقة والمنهج الذي يتبعه في تقرير وشرح وتشرح مادته بالسهل الممتنع مع الوضوح والدقة وغنى العبارات التي تنفذ إلى أذن المستمع بسلاسة فهذا مجالسه تغص بالطلبة كالمقري واليوسي والمساوي وابن سودة...، أما من به عجمة أو لثغة لا يكاد يوصل الفكرة أو مادة مغلوقة المفاهيم والعبارات فهذه مجالس ينفر منها الطلبة، كتونسي والقصار بالعهد السعدي.

أ. ضوابط الأستاذ والطالب بالمجلس: رغم أن لوطورنو يكاد يجزم أن الأساتذة المعتمدين بالتدريس في القرويين لا يجتازون مسابقة مثل نظرائهم بأوربا، يبقى معيار الإجازة الذاكرة للعلوم التي تمكن فيها، واجتماع الطلبة عليه بإحدى زوايا القرويين الشاغرة، بدون أن يتقاضى راتبا أو أجرة¹، وتكاد تكون أشبه بمرحلة التبرص حاليا، ليطلب دمج وتعيينه كأستاذ رسمي، بتزكية من أساتذة الجامعة²، فيرفع طلبه للسلطان الذي يصدر ظهيرا في حقه موجها للقاضي بضمه مع زمرة الأساتذة، ومنحه راتبا من ناظر أحباس القرويين³.

من التقاليد التي اتبعتها الأساتذة أو العلماء بالكراسي العلمية بالقرويين خلال مراحلها الطويلة، أنهم اهتموا بحسن مظهرهم الخارجي من لباس وأطايب كالتأنق في الهدام بلبس جلابة وبرنس ذات البياض وعمامة، وأن يجلس متربعا فوق الكرسي أثناء التدريس، باعتباره قدوة كما أن أي حركة شاذة تكون ملاحظة من طرف الحضور، لذا على الأستاذ أن يكون مترنا في مجلسه لأقصى درجة، حتى أن الكلاي استهجن جلوس شيخه المنجور على كرسيه كجلوس الإمام عند المنبر مخالفا غيره من الفقهاء، بوضع رجليه على درجة الكرسي ويتساءل الكلاي أهو لضرر أم عادة فقط؟ كما لاحظ أن طرف العمامة المحتك به النازل تحت ذقنه يقربه من فمه وربما هو تساؤل برئ يحمل في طياته إحياءات أخرى هل للشيخ

¹. لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 660.

². Louis Parunet, Au seuil de la vie Marocaine, Librairie Farairre, Casablanca, P17.

³. لوطورنو، المرجع السابق، ج2، ص 660.

عيوب في فمه؟ أم ذقنه؟ ويخشى أن تلاحظ؟ وإلا ما كانت تشد الطلبة للملاحظة، إلا أنها شاذة عما عهدوه عن سلوكات وتصرفات الأساتذة الذين تصدروا التدريس¹.

وأيضاً لحلقة العلم واحترام وآداب يراعيها الطالب كثيراً، فعليهم أن يمتنعوا إلى العالم، وأن يدونوا أقواله ويمنع عليهم الكلام أثناء الدرس، فبمجرد اللغو قد يتعرض صاحبه لغضب الأستاذ وسخطه، وكان السراج كثير الصياح على من يتكلم في مجلسه كما يستحسن عدم الأسئلة إلا بعد إذن الأستاذ².

ب. سير الدرس: فكانت حلقات العلم في الفترة الحديثة نفسها السابقة، وابتليت بمشكل الاختصار والنظم الذي زاد خطره بمرور الوقت، مع تعدد الطرق التعليمية فإنها اشتركت جميعها بنفس انطلاقة الدروس³، فكان المجلس يتألف من العالم الأستاذ الجالس على الكرسي أو على بساط فوق الأرض مسنداً ظهره للحائط أو السارية وحوله الطلبة متعلقون بتتابع في شكل نصف دائرة، ويجلس الأستاذ على كرسيه ينطق من البسمللة والصلاة على النبي (ﷺ) ومنه يعطي إشارة للسارد لقراءة النص المرغوب تفسيره أو شرحه أو إتمام ما تم الوقوف عنده في الحصة السابقة، ثم يشرع الأستاذ بالشرح والتفسير والتعليق عليه موضحاً ومنبهاً ومضيفاً من عنده ما يلقي الضوء على المشكل الغامض في الموضوع⁴.

وكانت المناقشة من صور الفهم والإفهام، فكان يطرح على الأساتذة أسئلة استفهامية يجيبون عليها مثل الشيخ المنجور مع تلميذه عبد الرحمن أعراب المراكشي الذي كان يسأله أثناء تقرير الدرس وكذا القاضي الحميدي، كما أن الأساتذة عادة ما يقابلون الأسئلة الباردة الغبية بمزيد من السخرية حتى يعودوا تلامذتهم ألا يستشكلوا إلا ما يستحق ذلك، وكانت علاقة الأستاذ بطلبته تبلغ درجة سامية من التقدير فقد رأوا فيهم صورة لأبنائهم ورفاقهم

¹. كريم، المرجع السابق، ص 313.

². نفسه، ص 312.

³. حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج 1، ص 94.

⁴. كريم، المرجع السابق، ص 312.

وخدامهم وهناك من وصل إلى درجة ربط علاقات اجتماعية كالمصاهرة، وهناك من كان يعيل طلبته فيشتري لهم في الشتاء الملابس ويوزعها عليهم¹.

كما كانت بعض المجالس من أجل زيادة الفهم والاستحضار يمزجون الدرس بالنكت والحكايات والنوادر والغرائب وهذا لبث جو المتعة والاستمرارية مع الأستاذ كشواهد النحو وبعض جزئيات الفقه مثلاً بالوقوف على النوادر لتكييف المناخ وقد نقل المقري عن الشيخ المازري كثرة حكاياته في المجلس ومثل الحميدي كثيراً ما يمازح طلبته والشيخ المنجور وهناك من يبث روح المنافسة بين الطلبة لإدراك أكثر وتحصيل أشمل².

ودروس تلك الكراسي كانت سبباً في مقصد سائر من يرغبون في تحسين معارفهم وتقوية زادهم وتعميق مداركهم، وأنها كانت مركزاً لتدريس سائر العلوم والفنون التي عرفت في ذلك العهد، وتتنافس العلماء والطلاب في مدارس كُتب فاهتموا بشرحها والتأليف فيها كأصول الفقه وما يشوبه من خلافات، علوم التفسير والقراءات السبع وتوابعها كشف الزمخشري والأدب وفنون البلاغة من معاني وبيان وبديع وكان عمدة العلماء في ذلك كتاب التلخيص للقرطبي وعلم التاريخ بكتاب ابن سيد الناس العمري، وعلم الحديث والتصوف، وفن الأوقاف وغيرها من ضروب وأصناف العلوم³.

ج. صور من تلك المجالس: ويستحسن بنا نقل صورة عن سير تلك المجالس فقد نقل العلامة محمد المنوني عن محمد بن الطالب بن حمدون بن الحاج صاحب رياض الورد الذي عرف بوالده أبي الفيض حمدون الذي ولاه السلطان سليمان تصدر كرسي الحديث في ظهر خصة العين بالقرويين ويذكر تدريس والده لصحيح البخاري فيقول: "كان - في إقرائه لهذا الكتاب - يأتي من التحقيق بما يشفي الغليل، فيهتم بالكشف عن المفردات: معنى، واشتقاقاً وتصريفاً، وبالإعراب في المركبات، مع تخصيص العموم، وتقييد الإطلاق، وتفصيل الإجمال، وبيان محل الخلاف والاتفاق، واعتبار مقتضيات الأحوال، والاقتدار على استخراج

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 430.

². نفسه، ص 431.

³. نفسه، ص 430-422.

جوامع التشبيهات البيانية، إلى براعة بيان الناسخ والمنسوخ، واستنتاج الحكم من العلل والأقضية، يضرب بسهام صائبة في رد شبهات أهل الأهواء والبدع لحسم مادة اعتقادهم، ويرد الفرع إلى أصله، ويبرهن على المطالب باعتبار كل المذاهب، ثم يبين ما به فتوى من مذهب مالك، ويبالغ في البحث مع أبي حجر والعيني والقسطلاني ومن فوقهم بالقبول والرد، هذا بعد القيام بالتعريف بالرجال، وتمييز اللقب الواقع في الحديث مثل الوقف والإرسال، وكثير ما كان ينتزع مضمن أحاديثه من الآيات القرآنية، ويبين في كل ترجمة أصلها من الكتاب¹. وترك لنا القادري في مثناه عدة صور عن ذلك نأخذ منها ما قاله على مجلس تدريس الشيخ محمد المسناوي الدلائي: "وكان في تدريسه إذا أخذ في تقرير مسألة يأتي على وجوه احتمالاتها، ولا يدع شيئاً مما تشتهي بيانه نفوس الحاضرين من أبحاثها، مع جودة التحقيق والتحرير بما يغبط به العقل من النقل، مع اختصار في العبارة، وسرعة في بيان الإشارة ويفهمه الحاضر والبادي".²

وهذه الطريقة تظهر مدى توغل العلماء في مغاور اللغة ومقاصدها بالبحث والتحقيق مع الشرح المستفيض في فنونها، لتوضيح الصورة من بلاغة المعاني والبيان والبدیع، فيكشفون عن جمالها ورونقها وكمال رصفها وتنسيقها انطلاقاً من القرآن والحديث، مع التعرف برجاله وهمهم وأحوالهم، وهذا لعمرى يجعل الطالب مشدوداً للدرس يلتقط فيه كل شاردة وواردة وبشخصية أساتذته ويحاكيها في جميع جوانبها، تلك بعض الملامح عن الدراسة والتدريس بجامع القرويين في الفترة الحديثة.

3. المناهج والطرق:

اتسمت الدراسة بالقرويين بنوع من الحرية فالأستاذ في اختيار نوع العلوم والطالب يختار على من يأخذ علمه، وللمحافظة على العلوم من الاندثار فقد خصصت هناك كراسي متخصصة، وجعلت الفترة الصباحية من الدراسة للعلوم الشرعية والمسائية لمختلف العلوم

¹. المنوني، "كرسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 94.

². القادري، نشر المثاني، المصدر السابق، ج 3، ص 273.

عموماً، وعليه فقد اختلفت المناهج المتبعة من عصر لآخر حسب متطلبات الأحوال وكفاءة الأساتذة، وحتى حسب الغاية من تدريس بعض الكتب¹.

تنوعت طرق التدريس بتنوع بيئة المعلمين والمتعلمين، بين الحاضرة والبادية، ولكن تعود في مجملها إلى طريقة المدرسة الأندلسية المغربية المتبعة منذ العصور الوسطى كمنهج الوسط بين الأسلوب العراقي والقيرواني والاختلاف بين التعمق والسطحية، فالأولى عنيت في الكتاب المدروس بالموضوع وأصوله وفروعه بدون التقيد بحرفية النص أو الألفاظ²، والثانية اهتمت بالكتاب كدرجة أولى فشرحوا الألفاظ وحققوا مدلولها وصححوا الروايات ونبهوا على ما فيها من اضطراب واختلاف أو تناقض³، في حين المدرسة الأندلسية المغربية خاضت الأمر في الوسط فعنيت بالموضوع أصوله وفروعه كعنايتها بالألفاظ والروايات ووجوه الاحتمال فيها⁴، فبرزت في العهد الحديث عدة طرق للتدريس منها:

أ. **طريقة التبسيط:** التي يعبر عنها بـ "طريقة حل المتن" ويقتصر فيها المدرسون على شرح النص المدروس بعباراتهم الخاصة دون الرجوع إلى كلام الشراح وأقوال أصحاب الحواشي ولكن يأخذون خلاصة قولهم، وطبقت ببراعة في الدروس العليا حيث ظهرت مقدرة المدرسين وإحاطتهم الشاملة بالموضوع⁵، وبرع فيها آل إبراهيم وكانت دروسهم الفقيهة العالية ملتقى الطلبة والمدرسين، وتخرج على يدهم جم غفير من الطلبة نشروا طريقتهم على مرّ الأجيال⁶.

ب. **طريقة التعقيد والتحليل:** المعبر عنها بـ "طريقة حك المسائل" وهي الطريقة السائدة والغالبة، ويهتم أصحابها ببحث المسائل وتقليب أوجه النظر فيها وإيراد المشكلات أو افتراضها، وجلب النقول المتناقضة ومناقشتها، لتتكون ملكة البحث عند المتعلمين⁷، وقال

¹. Benoit, Op.cit, P 92.

². حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 93.

³. شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تح وت: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ج3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1361هـ / 1924م، ص 22-23.

⁴. حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 93.

⁵. السلطان سليمان العلوي، المصدر السابق، ص ر.

⁶. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 225.

⁷. نفسه، ص 226.

فيها الشيخ محمد بن أحمد ميارة مقارنة بغيرها: "كنت أجلس بمجلس أحمد المقرئ فأجد العلم كله واضحا، فإذا جلست بمجلس الشيخ ابن عاشر كان كله مشكلا"، وعلق على هذه العبارة الافراني بقوله: "إلى أن المقرئ كان حافظا لا يتعقب المسائل، وابن عاشر كان نقادا يحك المسائل حتى يستنبط منها أمور تنشط الأنظار وتثير الأفكار"¹.

ج. طريقة المحاضرة: وهي طريقة نخبة المدرسين من المفسرين والمحدثين والعقليين يعتمدون لتنسيق العرض وحسن الأداء مع إبراز الآراء ومناقشتها والترجيح عند الاقتضاء² ومنهم المحدث المعقولي الإمام أحمد المنجور الذي كان له طول نفس في التدريس وسلاسة في التعبير، ففي محاضراته يقوم بتقرير السند ورجاله والمتن (إما مسلم أو بخاري) بالبحث في أحوال السند بمعرفة رجاله علما ودينا وحفظا وبلدا وزمانا لتبرئة ساحته، ليخوض بعدها في المتن لفظا ومعنى، وما فيه من روايات الموافقة والمعارضة من أهل الصحاح، ثم يأتي بأمثلة لإعانة الفهم من الأحاديث، قصد التقييد، التعميم، الجمع بين المتعارضين، ترجيح... وغيرها من فوائد الإعراب واللغة واستنباط الأحكام، ومن المحاضرين الشيخ محمد المسناوي الدلائي، أبو الفيض حمدون، الشيخ أحمد الزموري،...³.

هذه أشهر الطرق التعليمية بالعهد الحديث، رغم كثرتها وتنوعها باختلاف عقول المدرسين وأساليبهم في الفهم والتفهم، وعليها تكون حلقاتهم التي يؤمها الطلبة والعامّة⁴، كما كان لهؤلاء المحاضرين عدة كراسي ومجالس علم ليرتادوها لذا لم يقتصروا على جامع معين أو مدرسة وإنما طافوا عليها، ومنهم من يقوم بالتدريس والقضاء والفتوى والانتصاب للشهادة والإفتاء أو الخطابة والإمامة، كما امتلك أساتذة القرويين قاعة خاصة بهم للالتقاء والتذاكر فيما بينهم جهة باب الصفر على السبطين⁵.

¹. الافراني، صفوة...، المصدر السابق، ص 251.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, P356.

³. السلطان سليمان، المصدر السابق، ص ر.

⁴. Gane et Nejjae, Op.cit, P356.

⁵. كريم، المرجع السابق، ص 314.

ثالثاً. مؤثرات الحياة العلمية

1. نوعية الكتب المعتمد عليها:

لقد سيطر على هذه الفترة في حركة التأليف وحتى قبلها طريقة الاختصار في الكتب كاختصار أبي زيد القيرواني المدونة في أواسط ق4هـ في الفقه، وتلاه أبو سعيد البراذعي في ق5هـ فلخصها في التهذيب، وعمل الأندلسيون مثل ذلك في القراءات والتجويد والنحو والعروض وغيرها، وغلب عليها النظم لسهولة الحفظ، في حين المشاركة تعمقوا فيه وجعلوه رموزاً تحتاج إلى فتح في شروح وحواشي تزيد أضعافاً مضاعفة على الأصول المختصرة حجماً وتعقيداً¹ لذا من مظاهر التحول الذي طرأ على نوعية الكتب في العصر السعدي والذي يليه، أن الكتب التي كانت مستعملة في العصر المريني طرحت غالباً ولم يبق منها إلا القليل، وأخذت كتب أخرى مختصرة محلها، وظهر نشاط كثير تنافس في شرح تلك المختصرات والتعليق عليها².

انقسمت الكتب الدراسية إلى قديمة وأهمها المختصرات والأنظام والشروح والحواشي المؤلفة ما بين القرنين 6-9هـ/12-15م مما ألفه الأندلسيون والمغاربة، كأبي محمد الشاطبي صاحب الشاطبية في القراءات، الكلاعي البلنسي صاحب الاكتفاء في السيرة³، ابن عاصم الغرناطي صاحب أرجوزة تحفة الحكام في الفقه المالكي، ابن عرفة تونسي صاحب تفسير ابن عرفة في القرآن، محمد السنوسي التلمساني صاحب السنوسيات في العقائد وكتب الأصول في تفاسير القرآن لابن عطية الغرناطي، وكتب القاضي عياض والإمام السهيلي في الحديث والسير...⁴.

من المشاركة فلا بن الحاجب و خليل الجندي مختصره في الفقه المالكي، ابن حجر العسقلاني صاحب الفتح الباري في الحديث، السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن...

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 82.

² العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ص 65.

³ محمد المنوني، "استقرار كثير من أصول القومية المغربية في الفترة المرينية والوطاسية"، عن مجلة دعوة الحق، ع8

س11، ربيع الأول والثاني 1388هـ/جوان -جويلية 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م، ص 110.

⁴ Gagne et Nejjar, Op.cit, P353.

جار الله الزمخشري، وموطأ مالك في الحديث، والصحيحين والسنن وكتب العقائد وأصول الفقه وفروعه سحنون البراذعي، القشيري... وفي اللغة والأدب المعلقات العشر، سيبويه ومختصر العين للزبيدي... وفي علوم ابن سينا ابن اليازمين... وغيرهم، وعموما فإن العلماء ونظرتهم لهذه الكتب لم تكن دينية أو مذهبية أو جغرافية، ولا حتى لغوية وإنما ما يستفاد منها فقد درسوا كتب المذاهب من شافعية وحنبلية وغيرهم من السنن باستثناء كتاب الكشاف للزمخشري في تفسير القرآن الذين أعجبوا بمباحثه وبلاغته العقلية وتوسعوا فيه قولاً وكتابة في تزييف آراء المعتزلة، أما فروع الفقه فاكتفوا بما جاء في مذهب مالك¹.

أما الكتب الحديثة التي ألفها علماء السعديين والعلويين فكانت في كافة المواضيع الدراسية وفاقته الكتب القديمة وامتازت بالطابع التجريبي والتطبيقي حتى ظهر في ق18م اتجاهان الدراية والرواية² ومنها كتب مختصرة وضعها المدرسون لطلبتهم اختصاراً للكتب القديمة نثراً أو نظماً ومنها مؤلفات بن غازي، عبد القادر الفاسي، الحسن اليوسي...³.

والشروح والحواشي على الأمهات أو المتون وكتبت أثناء التدريس من قبل الطلبة، وكذا الحواشي على هامش النسخ المستعملة للتدريس فخرجها الطلبة وغيرهم، كحاشية أحمد القدومي على شرح المرادي لألفية بن مالك، وحاشية على شرح المكودي للألفية استخرجها تلاميذه، حواشي الحسن الزياتي أخرجها ابنه عبد العزيز، حاشية أحمد المنجور الكبرى على شرح كبرى عقائد السنوسي، كما اختصروا أعمالهم مثل اختصار أحمد المنجور لشروحه على المحصل المقاصد لابن زكري التلمساني، كتب عبد الرحمن الفاسي حاشيتين مطولة ومختصرة على العقيدة الصغرى للسنوسي، شرح العمل الفاسي لسجلماسي⁴.

واعتمدوا على النظم والمختصرات وهي من أحط أنواع التأليف التعليمي، عمد أصحابها لمختصرات معقدة فنظموها في آلاف الأبيات وزادوها تعقيداً معتقدين أنهم يبصرون بها

¹ حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 136-137.

² محمد الأفراني، المسلك السهل في توشيح ابن سهل، تح: الأستاذ: محمد العمري، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب 1418هـ/1997م، ص 11.

³ حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 138.

⁴ Gagne et Nejjar, Op.cit, P 359-360.

الطلبة وييسرون حفظها وتحصيلها، كنظم عبد الهادي الحسني السجلماسي جمع الجوامع لتاج الدين السبكي في أصول الفقه، وتلخيص المفتاح للخطيب القزويني في البلاغة¹.

ومما يلاحظ في الفترة الحديثة انتشار للمختصرات والمنظومات والشروح والحواشي التي ألّفت على منوال ما كتب ما بين القرنين 6-9هـ/12-15م في المغرب والمشرق، فنحا المتأخرون نحوهم كعبد الواحد بن عاشر، محمد ميارة، التاودي، الطيب كيران، محمد الرهوني عبد السلام العلمي²، فكانت ما بين مختصرة ومتوسطة ومبسوطة في مختلف العلوم العقلية والنقلية في العهدين السعودي والعلوي كما بسط فيها اليوسي في القانون³.

اهتم المغاربة بشرح النظم الشعرية في هذين العصرين بشروح حسب موضوع النص وغرضه فهناك شرح للنصوص الدينية كشرح البردة مثل محمد بن عبد السلام البناني (ت1163هـ/1750م)⁴، وشرح استهدفت غاية لغوية تعليمية كنيل الأماني في شرح التهاني للحسن اليوسي (ت1102هـ/1690م) ويكون هدف الشارح خدمة اللغة العربية وشروح ذات قيمة أدبية منها كاتحاف ذوي الأرب في مقاصد لامية العرب لسعيد الماغوسي والظاهرة البارزة التي تجتمع فيها أغلب العصور هي اتجاه الشراح إلى النصوص بعينها وعلى رأسها البردة، الهمزية، لامية العرب، ديوان الشعراء الستة، ديوان الحماسة...، وهذا ما جعل هذه الشروح مكررة وغير مجدية أحياناً، ويصعب التعرف على ما هو أصيل فيها، وما هو منقول، وقلّ تناول موضوعاً بأكراً بعمق وإجادة خصوصاً في العصور المتأخرة⁵.

لذا قام السلاطين العلويون بإصلاح التعليم بالقرويين، بمحاولة التخلص من تلك الكتب التي كانت تعيق النهضة الفكرية وتقني الأعمار بدون طائل، والعودة إلى الأصول من أمهات الكتب، وهذا حتى تسير هذه الدولة ما كانت تعيشه الضفة المقابلة من تطور ونمو

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 139.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, 360-361.

³. اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 363-370.

⁴. الأفراني، المسلك السهل...، المصدر السابق، ص 19.

⁵. نفسه، ص 20.

في المجال العلمي، في حين بقي طالب القرويين تأثها في روحانيات رسم فن الحرف وكسره (الجدول) بدون جدوى.

2. تنوع المواد المدرسة:

نتيجة كثرة الكراسي والمجالس العلمية بالقرويين والمدارس التابعة له بفاس، فإن المواد المدرسة بها أيضا تنوعت وتعددت بمرور الدول وتعاقبها، وقد ورثت كل من الدولة السعدية والعلوية في نطاق العلوم المتعارف عليها من تلك العصور السابقة، وزادوا فيها بإقامة دروس لكتب أخرى مع تحفيزها وتنشيطها بالعديد من الأوقاف المرصودة لها، فاستمرت تلك العلوم بتنوعها وتعددتها، وغدت مع الكتب الأصلية تدرس وتناقش بعقد المجالس، وكان الطلبة يختارون من المواد ما يلائم أذواقهم ويساير درجة إدراكهم، فتنوعت مواد الدراسة من فترة لأخرى وارتبطت بكفاءة الأساتذة وغاية تدريس تلك الكتب، ولذلك إذا أردنا عرضا أن نعدّها تهنا فيها، لذا سنقتصر على ذكر مواد الدراسة دون الإشارة إلى الكتب المقررة، ويمكن حصرها في المواد التالية:

أ. العلوم الشرعية: وتسمى علوم نقلية وهي مسندة إلى واضعها الشرعي، دون تدخل العقل ماعدا إلحاق الفروع بالأصول وتضم¹ التفسير من حيث معاني القرآن وأسباب النزول والقراءات السبعة أو العشرة وفيها التجويد والرسم والضبط، أما الحديث فيهتم بالسنة وما يتعلق بها²، لذا برع فيه علماء فاس إسنادا وضبطا (رواية ودراية) مع حفظ أسماء الرجال. وعلم أصول الدين (التوحيد، الكلام، العقائد والإلهيات) ويبحث في مسائل الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر القضاء والقدر³، أما الفقه من أحكام شرعية تفصيلية على أساس مذهب مالك المتوطن بالمغرب، وفيه العبادات والمعاملات، وأصوله الباحثة في الأدلة الفقهية الإجمالية من كتاب، سنة، إجماع، قياس، استدلال، تعديل وترجيح، وتوسعوا

¹ حجي، الحركة الفكرية، ج1، المرجع السابق، ص 85.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ص 421-423.

³ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 86.

في مباحث الاجتهاد والتقليد في الفتوى وبحثوا في أسس المذاهب الفقهية المختلفة ووجهات نظر الأئمة في مسائل الخلاف، في نطاق تشبثهم بالمذهب المالكي وتأييده¹.

وعلم اللغة ويسمى ابن خلدون بعلوم اللسان العربي وهي اللغة والنحو والبيان والأدب ومعرفتها ضرورية لأهل الشريعة، لأنها لغة القرآن والحديث، فهي ينبوع معرفة الأحكام الشرعية، فبحثوا في مدلولات الألفاظ كالمترادف والمشتراك²، وقد أسهم علماء القرويين فيها حتى سميت فاس بقلعة الأدباء والمتقنين، ومركز تجمع الحكماء العاملين بالأدب والشعر³.

أما التصوف الذي جعله ابن خلدون من العلوم الشرعية حديثة الظهور، وأصله طريقة الحق والهداية بالعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والزهد في الدنيا بالانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة⁴، وأصبح منها متبعا عرف بمجاهدة النفس في العبادة والأذكار وقد تركوا بصماتهم في الحياة السياسية والروحية بفاس على طريقة الجنيد كابن مشيش الشاذلي، إلا نماذج على هذا الفن ومن جاء بعدهم، كآل الفاسي والدلاء والناصري...

وعلم التاريخ من الفنون المتداولة بين الأمم والأجيال، وجعله ابن خلدون أصل للحكمة⁵ وقد اعتنى به علماء فاس، فكانت مؤلفات في السير وغيرها سوق نافقة في العهد الحديث⁶. فكانت القرويين قلعة العلوم الشرعية التي سادت بها خلال جل العصور مرتكزة على المذهب المالكي وفقهه.

ب. العلوم الأدبية: واعتنوا بالعروض وعلم الميزان (البحر الشعري) وبالقفائية، وتمرن الطلبة على تذوق الشعر واكتساب ملكة قرضه بالدراسة والحفظ للقصائد، مع الإنشاء (علم الكتابة) والخط فتعلموا قواعد الخط العربي بأشكاله المغربية والأندلسية والمشرقية⁷.

¹. أحمد طه، المرجع السابق، ص 283-284.

². ابن خلدون، المصدر السابق، ص 567-568.

³. بن القاضي، جذوة الاقتباس، المصدر السابق، ص 48.

⁴. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 462.

⁵. نفسه، ص 15-16.

⁶. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 89.

⁷. Gage et Nejjar, Op.cit, P 355.

ج. العلوم البحتية: من رياضيات استعملوا فيها الرقم العربي المعروف بحروف الغبار وأرقام أخرى سموها رسم الزمام (القلم الفاسي) إلى جانب الهندسة المتصلة بأبعاد الخط والسطح والجسم فكانتا الهندسة الميكانيكية والهوائية ببناء الرواحي، النواعير والنوافير... والهندسة المعمارية بيلات وخصات بجامع القرويين¹.

د. العلوم التجريبية: وهو فرع من العلوم الطبيعية عند ابن خلدون وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث مرض وصحة، ومداواتها بالأدوية والأغذية².

هـ. العلوم العقلية: من المنطق وارتبط بعلم الكلام وهو علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة والمنحرفين في الاعتقادات، وسر هذه العقائد هي التوحيد³.

هذه اللائحة لأسماء المواد الدراسية، تفاوتت في تقديمها من عصر لآخر، وحتى المادة الواحدة فقد درست بعدة كتب، فدرست أمهات الكتب كسيبويه في النحو ليعوض بالأجرومية وألفية بن مالك والشروح العديدة وكتاب التسهيل، وفي الفقه مدونة ابن سحنون بمختصر خليل ثم تحفة الأحكام لابن عاصم والعمل الفاسي لعبد الرحمن الفاسي وهكذا⁴.

تلك هي العلوم التي شغلها علماء المغرب رغم طابعها المتوارث فإنها لا تخلو من مظاهر التجديد والطابع المحلي⁵، تلك هي المستجدات العلمية في العهد السعودي والعلوي التي حافظت على ما وجدته من مناهج وبرامج وطرق للتدريس مع التركيز على المختصرات والشروح والحواشي، التي أفرغت التعليم بالقرويين، وأدخلته في غيابية الغموض والتعقيد وارتقاء الأساتذة عن طلبتهم في العبارات والألفاظ، وهو الأمر الذي جعل السلاطين يعمدون إلى إقامة إصلاح التعليم بالجامعة، ولكن النية غير السليمة لأساتذة القرويين، ساهمت في فشل المشروع الذي لم يحقق كل ما جاء به، ولكن غير في بعض المفاهيم والتوجهات.

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 91.

² ابن خلدون، المصدر السابق، ص 490.

³ نفسه، ص 440.

⁴ العمراني، المقال السابق، ص 167.

⁵ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 92.

الفصل الثاني: المجالس العلمية ورجالها بالقرويين (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

تعرضنا في القسم الأول من هذه الدراسة إلى ظهور تلك الكراسي العلمية بجامع القرويين وبفروعها بالمدارس التي أنشأها المرينيون، والتي جلس عليها جهابذة العلماء، فأجادوا وأفادوا وكانت ذات قيمة مادية ومعنوية لأصحابها إذا لم يعلتها إلا من أثبت نفسه في باب العلم وعليه سنحاول التعرف في هذا الفصل على التطورات التي عرفت تلك الكراسي في العهدين السعدي والعلوي ما اتصل بها من رجال وتقاليده.

أولاً. الكراسي والمجالس العلمية بالقرويين وتخصصها:

1. كراسي جامع القرويين:

ظهرت الكراسي العلمية بفاس مع المرينيين وزاد فيها السعديون والعلويون لأهميتها، ولم يعد تأسيسها وتخصيص الأوقاف لها قاصراً على رجال الدولة بل شاركهم العامة¹، وكانت ولاية الكراسي بالقرويين أمراً ذا بال وشأن بالغ الأهمية لأنه كان بمثابة ولاية حكومية لا تقل عن منصب القضاء والفتيا والوزارة لذا تولوها بظهير سلطاني وكان الجلوس عليها يستدعي عدة مؤهلات، كالأستاذية التي لا يصل إليها إلا بعد تدرجه في التدريس وارتقائه في الدرجات².

وقد أسندت كراسي متعددة لعالم واحد عند إنشائها أو بعد موت أصحابها، ونجد كرسي في فنون متعددة منسوبة لأعلام العصر كالورياغلي، الونشريسي، المنجور، بناني...، ولم تكن تسند هذه الكراسي إلا للبارزين من العلماء حسب تخصصهم، باستثناء الكراسي التي أنشأها العامة، فإنهم يعينون من يتولى التدريس عليها مع مادة الدراسة، وإذا تولى عالم كرسي بقي فيه ما حيى، إلا بتنازل لأحد أقرانه أو تلاميذته لعذر كسفر، مرض، عجز

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 120.

² الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 69.

مشقة¹، ووفرت هذه الكراسي العلمية لمتصديريها المال والجاه، حتى اكتفى بعض الأستاذة بالتدريس فقط وكانت إيراداتها متفاوتة، حتى تنافس وتسابق العلماء عليها، متطارحين على السلاطين لتوليها أحياناً².

واتفقت المصادر على أن مواضع الكراسي العلمية بالقرويين كانت أماكنها على الجدار الداخلي للقرويين، وأن المشايخ كانوا يتعهدون بمجالسهم المحراب، إما عن يمينه وشماله وتصف على طول الجدار الشرقي والغربي، ليكتمل عددها على الأروقة المرتفعة التي تحاذي الجدار الشمالي، ثم توزع الكراسي الباقية على طول البلاط الأوسط من المحراب إلى العنزة وتأخذ خطاً ذات اليمين والشمال عن العنزة على حدّ بداية قاعة الصلاة، وخير من وصفهم ابن الوزان وكذا وثائق التحبّيس الخاصة بالكراسي³.

وكما قلنا في القسم الأول بالفصل الثالث حول الكراسي العلمية فإننا نجد على هذه الفترة لا تزال غالبها موجودة لذا جاء وضع الكراسي العلمية وترتيبها في الجامعة على العهدين السعدي والعلوي، معتمدين في ذكرها على حسب الأهمية لا الموقع أو المكان أو مادة التدريس، باعتبار أن العلماء قد تنافسوا فيما بينهم حولها لعائدها المالي، ومن أهم هذه الكراسي العلمية المبنوثة بالقرويين نجد:

كرسي المحراب الذي قلنا كان من أعظم وأهم الكراسي العلمية، حيث تواتر عليه خيرة العلماء وأوقفت له كثير من الرباع⁴، ففي العهد السعدي والعلوي تولاه بعض الأشراف الصقليين، فجلس عليه سيدي العربي قسار سنة 1115هـ/1703م ثم أبو محمد عبد الله أبي يخلف الفاسي في 1162هـ/1749م، ثم الأشراف العراقيون أبناء المحدث أبو العلاء إدريس بن محمد بن إدريس العراقي الحسني الذين جلسوا عليه بين العشائين وبعد طلوع الفجر وتصدروه لأكثر من قرن، ومن الكتب الموقوفة المدرسة عليه: شرح الإمام ابن عباد على

¹. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 70.

². حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 121.

³. تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص 36-37.

⁴. بوركية، المرجع السابق، ص 164.

الحكم والصحيحين، إلى جانب الرسالة لابن أبي زيد، كتاب الاكتفاء للكلاعي...، كما تسارع الناس في البذل والعطاء على هذا الكرسي وتضمنت الوثائق الوقفية لوائح الأشياء الموقوفة والموهوبة من الأولين لمن يتأهل لشغل منصب كرسي المحراب¹.

ونافسه في الأهمية والمكانة كرسي الإمام الورياغلي أو كرسي أسفل الأسبوع الأعلى وهو الواقع بالصف الأول يسرة الخارج من باب مسجد الجنائز²، والموصوف بأنه كرسي مبارك جليل، وعرف فيما بعد بكرسي ابن غازي الإمام المشهور³، لينتقل إلى أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد الغزال ثم لأحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن جيدة المديوني الوهراني (951هـ/1544م) فالدكالي المشنترائي (962هـ/1555م) وتقلد القراءة عليه الشيخ المنجور (995هـ/1587م)، وأثناء وفاته صادف أن كان كل من أبي النعيم وابن سودة بمراكش، فقام السلطان أحمد المنصور السعدي بتوزيع بينهما ما كان لشيخهما المنجور، وفي نفس الوقت قام ولي عهده بفاس محمد الشيخ المأمون بمنح ما كان بيد المنجور للقاضي الحميدي (1003هـ/1595م) والشيخ السراج (1007هـ/1598م)⁴.

وبعودة الفقيهين إلى فاس وعرفا ما كان، اتفق المشايخ على أن يأخذ ابن أبي النعيم الكرسي القديم لشيخ يحي السراج، ويتوزع السراج وابن سودة كرسي الشيخ المنجور: فمجلس التفسير للسراج، ودرس مختصر الحاجب وصغرى الشيخ السنوسي لابن سودة فيما بعد الظهر ويستقل الشيخ الحميدي بكرسي الونشريسي⁵.

صار هذا الكرسي من نصيب أبي القاسم بن سودة (ت. 1004هـ/1596م)، بحكم توليته من المنصور السعدي بعد وفاة المنجور وعن طريق الترضية السابقة، فقد درس فيه بعد صلاة الظهر مختصر ابن الحاجب وصغرى السنوسي، مع السراج (ت. 1007هـ/1598م)

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 372.

² المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 96.

³ تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص 36.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 374.

⁵ نفسه، ص 374.

بتولية من الشيخ المأمون، ليتولاه القصار (ت. 1012هـ/1604م)، بعد وفاة السراج بأمر المنصور¹ وحازه جميع أحبابه².

ولما تولى أبو القاسم قضاء مراكش سنة 1003هـ/1595م، نفذه السلطان المنصور السعدي لولده أبي عبد الله محمد (ت. 1015هـ/1606م)³، ليخلفه عليه ابنه القاضي أبو عبد الله محمد (ت. 1076هـ/1666م)، ودرس التفسير والحديث والفقه وفروع الأحكام ونوازل الفتوى والتصوف⁴، وأبو محمد بن عبد الله المدعو ابن يخلف الأنصاري الأندلسي الفاسي (ت. 1062هـ/1652م)⁵.

ليصبح في العهد العلوي كرسي ذو شأن لتدريس علم الحديث، وممن تداول الدراسة به أبو عبد الله محمد بن أحمد القسنطيني المعروف بالكمد، نزيل فاس (ت. 1116هـ/1704م) وبعض أبنائه، ومحمد التاودي ابن سودة، بتولية من السلطان العلوي علي بن إسماعيل عام 1167هـ/1754م، ثم ولده أحمد (ت. 1235هـ/1820م) فحفيدة أبو الفضل العباس (ت. 1241هـ/1826م)، لينتقل بعده للقاضي محمد المهدي بن محمد الطالب ابن سودة المري (ت. 1294هـ/1877م)⁶.

وخصص هذا الكرسي بفن الحديث لهذه الفترة حيث تسميه الحوالة السليمانية: بـ "كرسي البخاري"⁷، ومن جملة الأوقاف عليه نحو 12 عقارا للذين يدرسون صباحا ونحو 7 عقارات وبعض الأرحية للذين يتصدرون له في الظهر وقرابة 6 بقاع لمن يتولى التدريس به في العصر والمساء⁸، وقد قدرت الرباع الموقوفة عليه بثمانية وسبعين عقارا فكان من أغنى الكراسي العلمية بالقرويين⁹، لذا كان بناء خلوة الأسبوع العليا عام 970هـ/1562م مشرفة

¹ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 95.

² بوركية، المرجع السابق، ج 1، ص 125.

³ تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص 36.

⁴ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 97.

⁵ الكتاني، المرجع السابق، ص 43.

⁶ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93-94.

⁷ نفسه، ص 97.

⁸ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 2، ص 374.

⁹ بوركية، المرجع السابق، ج 1، ص 123.

على هذا الكرسي باعتبار أن هناك نساء يحضرن إليه من الخلوة للاستماع لدروس مجالس العلم الكبرى التي عرفها هذا الكرسي¹.

وكرسي ظهر الصومعة وهو من أهم الكراسي العلمية بالجامع من حيث الشيوخ المتعاقبين عليه من عهد الموحدين للعلويين، ودرست عليه عدة كتب موقوفة²، وعبروا عنه بقولهم "كرسي ما بين باب الشماعين وباب الموثقين"، ومن أساتذته أحمد بن علي الزموري ثم الفاسي (ت.1001هـ/1593م)، ليتنازل عنه لتلميذه علي بن عمران السلاسي (ت.1018هـ/1609م)³، كما قام عليه القاضي سيدي علي البوعناني الشريف الحسيني، المهدي أبو عنان العربي قصارة، ثم لأبي الفضل أحمد بن الحاج (ت.1109هـ/1697م)، الأستاذ أبي محمد عبد الله بن يخلف الفاسي عام 1162هـ/1749م، وتولاه أبو عبد الله محمد التاودي بن محمد الطالب بن محمد بن سودة المري الفاسي (ت.1209هـ/1794م)، وكان يقرأ فيه بين العشاءين وتولاه عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلوى (ت.1324هـ/1906م)⁴.

وجمع هذا الكرسي بين التفسير والفقه والتاريخ والسير والوعظ، وخصصت أوقاف ليدرس عليه صحيح البخاري، رسالة ابن أبي زيد وتفسير القرآن للثعالبي (427هـ) وحلية الأولياء لأبي نعيم (430هـ) والشفاء لعياض (544هـ) والتحبير للسمعاني (615هـ) والاكتفاء للكلاعي (634هـ) والحكم العطائية (709هـ) والروض الفائق للحريش (801هـ) والتسهيل والتقريب للرصاص (894هـ) وغيرها من الكتب الموقوفة⁵.

واشترك هذا الكرسي مع كرسي المحراب في العقارات الموقوفة مشاركة متبادلة وفيها 11 مكانا كانت في عهد السلطان إسماعيل بيد سيدي العربي قصارة، مصرية شرقي الجامع وفندق التجار، بعض الحمامات وكتب تدرس يومي الخميس والجمعة⁶.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 375.

². بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 165.

³. القادري، نشر المثاني...، ج1، المصدر السابق، ص 37.

⁴. الكتاني، المرجع السابق، ص 43.

⁵. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 376.

⁶. نفسه، ص 377.

ومن أهمها أيضا كرسي مستودع باب الحفاة المتمركز يمنة الصاعد للمستودع الواقع عن يمين الداخل للقرويين من باب الحفاة، وكان يقصده العامة والخاصة، وعرف نشاطا علميا ملحوظا في العهدين السعدي والعلوي¹، وممن تولى فيه التدريس في العهد السعدي أحمد المنجور وكان يدرس فيه التوحيد "محصل المقاصد"-قصيدة ابن زكري التلمساني- صبيحة يومي الخميس والجمعة، وتداول على هذا الكرسي محمد بن قاسم القصار (1012هـ/1603 م) ليتحول لأبي النعيم الغساني (ت.1032هـ/1623م)، بتولية من المنصور السعدي بعد وفاة المنجور، ودرس فيه بين المغرب والعشاء "صغرى السنوسي" وبعض "الرسالة القيروانية"، وبعد صلاة صبح يومي الخميس والجمعة قصيدة ابن زكري² وكان من رجاله إمام القرويين يحي السراج المعروف بتعليقاته وتحقيقاته، بعد تنازله على كرسيه بالمستودع لابن أبي النعيم³.

ليصير بيد الفقيه عبد الرحمن الحريشي وأبو الحسن علي الحريشي (ت.1143هـ/1730م) وعبد الرحمن الشديد، وابن محمد الشديد، ومن أوقافه أرحية بواد العظام وعقاران وثلاث بقاع ومتجران⁴.

ومن الكراسي التي لقيت إقبالا كرسي الونشريسي والمعروف بكرسي الشتوي للتفسير أو كرسي البخاري بشرح فتح الباري لابن حجر وأنشأه السلطان أحمد الوطاسي بشرفي القرويين، وهو على يمين الخارج من الباب المقابل لدرب ابن حيون، اشتهر بكرسي الشيخ الأشقر ودرس فيه الإمام عبد الواحد الونشريسي ومنه اقتيد لحنقه⁵، ليتحول لعبد الواحد الحميدي درس علوم القرآن، التفسير ورسالة ابن أبي زيد، الحكم لابن عطاء الله، وفي الصيف يدرس مختصر ابن الحاجب⁶.

¹ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 166.
² المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 95.
³ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 60.
⁴ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 223.
⁵ تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص 36.
⁶ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 97.

وتحصل الحميدي على هذا الكرسي الذي يدرس فيه صباحا بعد وفاة الشيخ المنجور¹ على اثر تقاسم الشيوخ الأربعة لكراسي المنجور، وقصد هذا الكرسي الطلبة والفقهاء، لما فيه من مناظرات ومباحثات، ومن أساتذته الفقيه محمد بن أحمد الوهراني (1013هـ/1604م) وأحباسه موزعة في جهات المدينة بمجموع 49 موقوفا، وهو من أثرى الكراسي ماديا وعرف بكرسي القاضي².

وكرسي ظهر الخصة ويقع في الجهة التي تحمل هذا الاسم شرقي صحن القرويين ودرس عليه عدة كتب، وتصدره محمد بن علي بن محمد بن علي الشريف الحسني المريني التلمساني (ت. 1018هـ/1610م)، وساهم بمشاركته في إثراء الكراسي العلمية، فدرس فيه "الرسالة القيروانية" بعد صلاة الصبح كل يوم³، وفي العهد العلوي اهتم بدراسة التفسير والصحيحين وغيرهما كرسالة أبي زيد بعد صلاة الصبح كل يوم، والحلية لأبي نعيم قبل العصر والاكثفاء للكلاعي والترغيب والترهيب بعد العصر، وكانت تقصده فضليات المدينة ومن أساتذته الشيخ أبو الفضل أحمد بن العربي بن محمد بن الحاج السلمي المرداسي (1109هـ/1697م)، وابنه أبو عبد الله محمد (ت. 1128هـ/1717م)، وحفيده وسميه أبو العباس أحمد المدعو الحفيد (ت. 1133هـ/1729م)⁴.

ليتولاه محمد بن محمد بن الخياط بن أبي القاسم الدكالي المشنترائي (ت. 1184هـ/1770م)، ثم أبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي الفاسي (ت. 1232هـ/1817م) هذا الأخير الذي ولاه السلطان سليمان لتدريس الحديث ودرس عليه الصحيحين وغيرهما من الكتب الستة مع التفسير، فكانت له الحظوة والاحترام الكبيرين ثم صار لولده أبي عبد الله محمد (ت. 1274هـ/1858م)، ومن أوقافه في عهد السلطان

¹. بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 120.

². نفسه، ص 167.

³. نفسه، ص 126.

⁴. المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 92.

إسماعيل 22 بقعة و3رباع في ظهر غالب، وحانوت على قراءة ابن الجوزي، ونصف حانوت بالقبة البالية من القيسارية على الترغيب، وعدة أمكنة أخرى¹.

وكرسي الثريا الكبرى بالبلاط الأوسط، وكان يجمع مئات من الطلاب ودرست فيه كتب صحيح البخاري، نواذر الأصول في أحاديث الرسول للترميمي (295هـ)، الرسالة للقشيري (465هـ)، العمدة للمقديسي (600هـ)، الترغيب والترهيب للمنذري، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (900هـ)²، وممن جلسوا عليه بعد صلاة العصر الفقيه سيدي محمد الندرومي والفقيه سيدي حدّو حنيش، وأوقف عليه 12 مكانا معروفا³.

إلى جانب عدة كراسي تفاوتت في أهميتها العلمية والمادية، ومنها كرسي النحو الواقع بالبلاط الثاني يمين الداخل لهذا الجامع من باب السبطين، ومن أساتذته أبو عبد الله محمد بن إدريس بن أحمد المدعو حمدون الحسيني العراقي ثم الفاسي (ت. 1142هـ/1729م) المنعوت بـ"سيبويه زمانه" درس "لامية الأفعال" لابن مالك، وأيضا جلس عليه الفقيه أبو الحسن علي زين العابدين المدعو زيان بن هشام بن عبد الرحمن الحسيني العراقي ثم الفاسي (ت. 1194هـ/1780م) ودرس "لامية الأفعال"⁴، وتذكر وثائق الحبسية على هذا الكرسي لائحة العقارات المخصصة للعلماء ومنها 6 أماكن حددتها الوثائق العلوية⁵.

كرسي باب الصالحين (الأيمن) عن يمين الداخل من هذا الباب، وقف على قراءة شهاب الأخبار للقضاعي (554هـ) والعمدة للعيني (855هـ) كل يوم خميس وجمعة ومن أوقفه متجرين وطرارزا وكذا أربعة متاجر وبستانا فسيحا بناحية سيدي بوجيدة، وكرسي باب الرواح الأدنى عن يمين الداخل إلى جامع الجنائز، وجلس عليه عدة علماء منهم عبد السلام المري

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 378-379.

². بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 168.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 381.

⁴. المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 93.

⁵. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 375.

وأحمد بن جعفر الكتاني، ووقف عليه كتاب الشفاء للقاضي عياض وله ثلث غلة جنان النخلة من باب الجديد، وهي بقعة مرغوبة من طرف الناس¹.

وكرسي الشماعين على يمين المدخل الرئيسي للجامع على بلاطة مرتفعة قليلا من أرض الجامع، وأقام عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد، ليتحول إلى كرسي آخر في ظهر صومعة ومن أوقافه بعض الحمامات التابعة لممتلكات القرويين، وكرسي مستودع ابن عباد أو كرسي التعديل يقع على الرواق فوق المستودع يجاور خزانة أبي عنان وممن تصدروا التدريس به الحاج صالح التادلي ومن أوقافه عقاران وأرحيه حسب وثيقة التحبيس السليمانية².

وكرسي الركن الشمالي الشرقي يوجد على مقربة من باب ذي الخوخة الذي ينفذ إلى مصرية الإمام الخطيب، ودرست عليه رسالة الشيخ ابن أبي زيد في الشتاء وفي العهد الإسماعيلي جلس فيه الإمام الخطيب سيدي علي البوعناني (ت1153هـ/1740م) وكان يتصرف في ثلاثة عقارات موقوفة إلى جانب ثلاثة أرباع فندق رحبة الزرع، وكرسي العنزة عرف بدروس الفقه، واهتم بتدريس الرسالة مختصر خليل، ومن علمائه الشيخ منديل بن أجروم درس المقامات بين العشاءين زمن الصيف، الشيخ عبد الرحمن الدكالي (962هـ/1555م) ودرس بين العشاءين وبعد صلاة الصبح من الخميس والجمعة، والشيخ محمد ميارة قاضي فاس الشيخ العباس التازي، ومن أوقافه نصيبان من متجرين في المدينة إلى جانب وجود ثلاثة كراسي ما بين العنزة وخصه العين القديمة: أحدهم كرسي البلاط الأول لقراءة الكلاعي قبل صلاة العصر وبعدها، وثانيهم: كرسي البلاط الثاني وقف عليه كتاب الحلية لأبي نُعيم قبل وبعد صلاة العصر، وثالثهم: كرسي البلاط الثالث وهو من أقدمها كان بيد الفقيه سيدي محمد بن عبد الله اللايريني³.

ليضاف لها في العهد السعودي والعلوي بعض الكراسي الجديدة ولكن لم تصل إلى ما وصلت إليه الكراسي السابقة، مثل كرسي محصل المقاصد في التوحيد عن يمين الداخل

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 375.

². نفسه، ص 376-378.

³. نفسه، ص 380-381.

للقرويين من باب الحفاة، وهو من إنشاء السلطان المنصور، كرسي الشاطبية أو كرسي حرز الأمانى في التجويد القرآن الكريم بمسجد الشرفاء أنشأه ووقف عليه أبو القاسم الدرعي¹ الذي برع في القراءات ودرسها بفاس واستطاع جمع المال بفضله بعد سنين عمل في قومه فبعث بها لأستاذه الونشريسي بفاس ليشتري عقارا يوقف ويصرف غلته على من يقرأ حرز الأمانى في علوم القرآن للشاطبي ففعل، وأول من تولاه علي بن عيسى الراشدي (ت. 961هـ/1554م) ومحمد بن مجبر المساري (ت. 983هـ/1575م)².

وفي العهد العلوي أضيف كرسي الحديث الواقع شرقي القرويين بظهر خصة العين المحبس على أبي الفضل أحمد بن العربي بن الحاج السلمي وعلى عقبه، وقد ظل هذا الكرسي متوارثا بين علماء هذا البيت³، وممن تولى التدريس به أبو الفضل أحمد بن العربي بن محمد بن الحاج السلمي المرداسي ثم الفاسي (ت. 1109هـ/1697م)، ثم ولده أبو عبد الله محمد (ت. 1128هـ/1717م)، ليليه حفيده وسميه أبو العباس أحمد المدعو الحفيد (ت. 1133هـ/1721م)، وبعده محمد بن محمد الخياط بن أبي القاسم الدكالي المشنترائي (ت. 1182هـ/1770م)، فأبو الفيض حمدون بن عبد الرحمن بن حمدون بن الحاج السلمي المرداسي ثم الفاسي (ت. 1232هـ/1817م)، وقد أسند السلطان سليمان العلوي لأبي الفيض تدريس علم الحديث بجامع القرويين، وولاه هذا الكرسي، فدرس به الصحيحين وغيرهما التفسير، وجاء بعده ولده أبو عبد الله محمد (ت. 1274هـ/1858م) على هذا الكرسي محل والده بتوليته من السلطان العلوي⁴.

وكانت هذه الكراسي منها ما هو للوعظ أو ما عرف بالتوريق وأخرى موقوفة عليها كتب معينة إلا أن الشيء اللافت للانتباه هو غالبية الكتب كانت من العلوم الشرعية، ما يسمح لنا

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 120.

². بوركبة، المرجع السابق، ج 1، ص 111-112.

³. تقي الدين الهلالي، المقال السابق، ص 36.

⁴. المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 92-93.

بالقول إن القرويين في العهد السعدي والعلوي غلب عليها التكوين الديني، ورغم ذلك ظلت تلك الكراسي ملاذا للطلبة يتلقون علوما صرفة بها¹.

كما وجدت حول سواري وجدران القرويين بعض المجالس المنعقدة على الأرض والتي لم ترق إلى كراسي علمية رغم باعها وتوقيف الرباع عليها في هذين العهدين بالقرويين، ومن بينها مجلس لتدريس كتاب الإمام ابن الحاجب المعروف بالمختوم أو الفرعي الفقهي، وكان يضم حوالي سنة 997هـ/1588م عشرات من الأعلام أمثال الشيخ عبد العزيز الفيلاي الفقيه سيدي محمد الشريف التلمساني، محمد بكار، أبي القاسم بن أبي النعيم، أبي القاسم بن سودة إلى جانب جماعة من الطلبة أمثال إبراهيم الشاوي، القاضي الشاطبي والمفتي سيدي عبد الواحد الشريف².

ومنها مجلس وراء ظهر خصة العين عن يمين الداخل من باب العمدة وكان يجلس فيه الشيخ القاضي عبد الواحد الحميدي ليدرس العقيدة الكبرى للشيخ السنوسي، ومنها مجلس الشيخ يحي السراج كل صباح قرب مقصورته ليشرح مختصر الشيخ خليل ويسند ظهره إلى حائط القبلة من ناحية الخزانة ومن عادته أنه لا يجلس للإقراء به إلا ومفاتيح المقصورة بيده³، وفي الشتاء يضيف درسا في التفسير، سارده الفقيه عبد الرحمن بن عثمان المكناسي ومجلس إمام القرويين أحمد الزعري (ت1222هـ/1807م) في التفسير⁴.

مجلس بظهر خصة العين يقوم به الشيخ محمد الشريف التلمساني بإلقاء الصغرى والكبرى للسنوسي كما درس أحيانا ألفيه ابن مالك بشرح المكودي⁵، وأخرى بباب الرواح الأوسط بيد سيدي يعقوب البدي (999هـ/1590م) وحضر مجلسه الكلالي، وكذا مجلس على يمين الداخل للقرويين من باب الشماعين وكان هذا المجلس في عهد السعديين بيد الشيخ أبي زيد

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 382.

² كريم، المرجع السابق، ص 312.

³ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 123.

⁴ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 62.

⁵ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 126-128.

عبد الرحمن بن أحمد بن عثمان المكناسي وألقى دروس في مختصر الخليل¹، مجلس عنزة القرويين في حين هناك مجالس لسواري وزايا بالجامع جهلت أماكنها لعدم تخصيص المكان وضبطه من طرف الحوالات أو المصادر².

لذا تعددت المجالس التي قدرها التازي بـ 31 مجلسا، وقدمت دروس لمختلف العلوم في تجويد، وتدريس الرسالة القيروانية³، فقه وأصوله، نحو، بلاغة، تفسير، حديث، سيرة... ولكن غلب عليها الفقه بتدريس رسالة ابن زيد القيرواني، حيث كانت لها حصة الأسد في غالبية المساجد الصغيرة في دروس صباحية ومسائية بين العشاءين ما عرف بمجالس التوريق أو الوعظ الموجه لعامة الناس⁴، حتى شبهوا العلم الشائع بها كالماء النابع منها⁵.

2. أهم الكراسي العلمية بفروع القرويين وتخصصها:

لم تكن القرويين لوحدها كافية على تلك الوفود من الطلبة من مختلف الجهات، ولذلك وجد فروع لها في مدارس ومساجد المدينة، التي أصبحت بدورها مراكز للعلم تتمتع بالإمام والأستاذ وحتى بالكرسي العلمي والخزانة العلمية أيضا، وكان الأساتذة والقائمون فيها محسوبين على جامعة القرويين، مثل المدارس المرينية كالمصباحية... والعلوية كالشراطين ومساجد...⁶، ومن الكراسي التابعة للقرويين والمنتشرة في خلايا الأزقة وأعماق الدروب منها:

أ. كراسي الفقه والنحو:

لقد احتوت كل من مدرسة الحلفاويين(الصفارين)، والخصبة أو المدرسة المصباحية والصهريج والعطارين والوادي ومدرسة فاس الجديدة على كراسي للفقه والنحو، والمدرسة المتوكلية أضيف لها كرسي التفسير وقد أمّ تلك الكراسي كوكبة من الأساتذة كعبد الواحد الونشريسي، الشيخ يحي السراج، عبد الواحد الحميدي، أحمد بن محمد بن الحاج... بالعهد

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 383.

². بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 177-179.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 383.

⁴. بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 440.

⁵. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 40.

⁶. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 682.

السعدي، ومحمد بن عبد العزيز طاهر الحسني، محمد بناني، محمد القسنطيني المعروف بالكماد... في العهد العلوي¹، أما الأوقاف فكانت تقسم سوية بين الكراسي بعد إصلاحها وإصلاح الرباع الموقوفة عليها².

ودرس بجامع الشرفاء إلى جانب الفقه والنحو التفسير، وتعاقب على التدريس زمرة من الأعلام كمحمد المدعو الكبير بن محمد السرخيني (ت.1164هـ/1751م) ودرس فيه بعد صلاة الصبح تفسير القرآن العظيم، وثم يدرس المختصر الخليل، وبعد صلاة الظهر صحيح البخاري أما بعد صلاة المغرب يقرأ إما المرشد المعين أو الرسالة القيروانية، ليخلفه عام 1164هـ/1751م عبد الرحمن ابن إدريس بن محمد المنجرة (ت.1179هـ/1766م) في الإمامة والخطابة والتدريس لمدة خمسة عشر عاماً، ودرس به أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود البناني الفاسي (ت.1194هـ/1780م) ثم ولده أبو عبد الله محمد (ت.1245هـ/1829م)، ليتقدمه محمد الطالب بن حمدان بن عبد الرحمن ابن الحاج الفاسي (ت.1273هـ/1857م)، بتولية من السلطان عبد الرحمن ابن هشام³.

ب. التفسير والحديث:

منها كرسي بمسجد الأيارين وكان على مقربة من جامع القرويين ومدرسة العطارين مأوى للطلبة وكان التفسير بيد ابن الكماد (ت.1116هـ/1704م)، وعبد السلام بن زيان والحديث للقاضي أحمد بن القاضي (ت.1025هـ/1616م) ومن تلامذته عبد الواحد بن عاشر، أحمد بن يوسف الفاسي، أحمد المقرئ...، وممن درسوا أيضاً العلامة محمد ميارة الذي كان يتصرف في أوقاف معمل النسيج وقفاً لهذا الكرسي، وكرسي مسجد الارازين وقرأت فيه شهاب الأخبار في الحديث الشريف للقضاعي وشرح الحكم العطائية لابن عباد، وكرسي مسجد الأزدي أو الأصديع وهو أقدم الكراسي الفرعية درس التهذيب لابن البرادعي⁴.

¹. المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 94.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 3، ص 386-387.

³. نفسه، ص 94-95.

⁴. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج 2، ص 388-389.

وكراسي مسجد الأندلس وهو ثاني مركز مهم للتدريس بعد القرويين، وتناولت مختلف العلوم والفنون، ومن أهم الكراسي الصباحية التفسير الواقع في الجانب الغربي من المسجد وكان محل تنافس العلماء ومنهم الفقيه أحمد بن علي الزموري وكانت قراءته بتفسير الفخر الرازي موقوفا على رغبة المحبس، الذي حضر مجالسه أمثال عبد الواحد الحميدي، يحي السراج ليخلفه عليه محمد بن قاسم القصار، ثم تنازل عنه لغيره¹، وفي العهد العلوي تحول إلى يد الفقيه محمد الرندة وابن سودة...².

وكرسي آخر على الجدار الغربي في البلاط الثاني ليمين الداخل من باب أشنيخن، وكان مهتما برسالة ابن أبي زيد فيما بين العشاءين وعرف بكرسي العبسي (965هـ/1557م)، إلى جانب كرسي باب المحراب، وكانت له عدة أوقاف مع كرسي بباب مصرية الخطيب وقد تصدر فيه الشيخ المنجور في الفهرسة في ترجمة الرواية عبد الرحمن سقين³ ثم إلى الشيخ القصار، وبعدهم سيدي الكبير بن طالب بن سودة ومن المؤلفات التي درسها الشيخ سقين كتاب العمدة للمقدسي والموطأ للإمام مالك وهما من أوقاف الشيخ الورياغلي، وأيضا كرسي بالمستودع وكانت تستفيد نساء البلد منه، تصدره أحمد المزوار ودرس فيه كتاب الترغيب والترهيب للمنذري⁴.

وغيرها من الكراسي بالفروع ولكثرتها اكتفينا بذكر نماذج منها، فقد قدر الد. السعيد بوركية في دراسته حول دور الوقف مجموع الكراسي العلمية لجامع القرويين والأندلس والشرفاء والمدارس القديمة بنحو ثلاثة وأربعين كرسيًا، في حين بلغ عدد المبنوثة في المساجد الأخرى حسب الحوالة العبد الرحمانية التي اعتمدها نفس الدارس إلى حدود خمسة وثلاثين كرسيًا⁵ غير أن عبد الهادي التازي قد أسهب فيها، وقدرها بـ111 كرسي لدراسة مختلف العلوم وعلى رأسها الفقه والحديث والتفسير والنحو حسب ما تم توقيف العقارات عليها، كما اختصت عدة

¹ المنوني، "كراسي الأساتذة..."، المقال السابق، ص 97.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 390.

³ المنجور، المصدر السابق، ص 10.

⁴ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 390.

⁵ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 172.

كتب بالدراسة في غالبية الكراسي سواء داخل الجامع أو في فروع، وبالمجموع ما بين الفروع والجامعة الأم هناك أزيد من 140 كرسي كلها عملت على الوعظ والتعليم¹.

3. المكتبات العلمية في عهد الشرفاء:

لقد خلفت المكتبة المغربية تراثا خالدا، وكنزا ثميناً، ولا تزال حافلة بآلاف المخطوطات العربية، والأغلق النفيسة التي ربما لا توجد في غيرها من مكاتب العالم، حتى أنه ليذكر بعض المختصين في هذه الناحية أن خزائن المغرب من حيث قيمة مخطوطاتها ترقى للدرجة الثانية إن لم تكن في الدرجة الأولى، ولكن يجهل عنها كل شيء ولا يعرف ولو إحصائيات بما تملك من هذه المخطوطات وجل هذه الخزائن مبعثرة في شتى البقاع، مغمورة في زوايا الإهمال مقبورة في خزائن رثة وأماكن غير مناسبة، مهجورة من القريب والبعيد بل هناك قسط كبير على حالة يرثى لها، وخصوصا المكاتب الخاصة بالزوايا والمساجد².

فقد تراكم الغبار على رفوفها وأثرت الرطوبة في أكثرها، وعاثت فيها الأرضة فسادا، ولا نبالغ إذا قلنا أن أسعد الخزائن حظا ما كان الأمناء يتققدون أحوالها، وينفضون الغبار عن وجوهها وربما فتحوا لها الأبواب والنوافذ فتستنشق الهواء، وذلك غاية ما يستطيعون أما تنظيمها وفهرستها ودراستها ونشرها، لجعلها منار لإشعاع تنير السبيل أمام الباحث والدارس والقارئ والكاتب لا يزال بعيدا.

وكل هذا التراكم الثقافي نتاج ما خلفته دول الحقب السابقة للفترة السعدية والعلوية بالمغرب، وما أضيف إليه في عهديهما من أعمال في التأليف واقتناء للكتب من المشرق والنوادر، فتكونت مكتبات كبيرة للأفراد وللزوايا وللمساجد، وفي هذه الأخيرة وضع هيكلية إدارية لتنظيمها وضبطها منذ إنشاء المكتبات بفاس ووضع على أرسها محافظ الخزنة³.

¹. بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 391-402.

². سعيد أعراب، " المكتبة المغربية وذخائرها"، عن مجلة دعوة الحق، العدد التاسع، السنة الثالثة، ذو الحجة 1379 هـ /

جوان 1960م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1960، ص 38.

³. Gagne et Nejjar, Op.cit, P363.

أ. **خزانة القرويين في عهد الأشراف:** شهدت خزانة القرويين تضاعفا وثروة منذ العهد المرابطي والموحدي لتتضخم في العهد المريني، حتى عرفت جامعة القرويين وعدد من الخزائن العامة تردد الطلبة والعلماء عليها وهذا من خلال اهتمام الملوك بإثرائها بشتى ضروب الفنون من أنواع الكتب وأنفسها وأغربها حتى أقيمت سوق لبيع المخطوطات بالمزاد في العهد الوطاسي بالقرب من صحن جامع الجنائز، بين باب الخلفاء ومجلس القضاء¹ وتم ضبطها بقوانين تنظيمية من أوقات فتح واستعارة، تحت إشراف المحافظ².

وفي أواخر بني مرين سن قانون منع إخراج الكتب منها بسبب استغلال بعض النافذين لسلطتهم، مما جعل القيم يحرص عليها وعلى المطالع ألا يأخذ الكتاب خارج حرم الخزانة وعلى المستعير أن يعيد الكتاب في اليوم الموالي، وكانت مفتوحة أمام العموم طيلة الأسبوع من بعد الظهر³، كما أشار اليوسي في كتابه القانون إلى إنزال الكتب منازلها ويرجع ذلك إلى التساهل في عملية تصنيف الكتب في الخزائن وهذا ينطبق على واقعنا عند وضعها مكدسة في الخزانة بعضها على بعض، فلا بد من أن يرفع الشريف فوق غيره، وتكون أعلى الكتب كتاب الله وأجزأؤه ثم التفسير ثم الحديث ثم علوم الحديث ثم الفقه ثم الكلام ثم أصول الفقه ثم النحو والبيان وسائر علوم اللغة ثم المعقول وهكذا...⁴.

*. **في العهد السعدي:** وحتى يترك السعديون بصماتهم في القرويين، التفتوا لجانبه العلمي فعمدوا إلى إحداث توسيعات والقيام بعدة إجراءات منها تأسيس السلطان أحمد المنصور السعدي خزانة علمية (1010هـ/1601م) في جهة القبلة عن يسار خزانة المصاحف العنانية، وكان هذا العمل للحاجة المتزايدة من طلبة العلم، لذلك هي في مقام توسعة وسميت بالخزانة الأحمدية الشريفة نسبة لأحمد المنصور ومنهم من نعتها بالسعدية والإمام المقرئ يسميها "الخزانة العليا" وجعل للخزانة حرم كان المطالعون يجلسون عنده لمراجعة

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 450.

². بينبين، المقال السابق، ص 364.

³. نفسه، ص 454.

⁴. اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 371.

المخطوطات، التي وصل عددها إلى 32 ألف مجلد¹، وهو يفتح على جامع القرويين بمقربة من خزانة المصاحف العنانية ومن خوخة هناك لا يزال أثرها مشاهداً إلى الآن².

احتوت الخزانة على عدد وافر من المصاحف على مختلف الأحجام والأشكال ما بين المكتوب على الرق والكاغظ الشاطبي منها مصحف السلطان أحمد المنصور الموقوف عليها في 1011هـ/1602م وكذا عدد كبير من التفاسير وتم توشية حواشيها بتعليقات وتصحيحات منها: تفسير الإمام الطبري، الماوردي، القرطبي، الرازي، الشاطبي، السيوطي وكتب الحديث الشريف كسيرة ابن إسحاق، الموطأ، صحيح البخاري، صحيح مسلم... وكتب الفقه المالكي، التصوف، النحو، اللغة، التاريخ والأدب، الطب والتوقيت والحساب، كتب مترجمة في العهد العباسي فلسفة، رياضيات...³.

وهي موجهة للعلماء والطلبة وحتى العامة الراغبة في الإطلاع، أو النساخة أو المقابلة داخل الحرم المتصل بغرفة الكتب في أوقات معينة تحت نظر القيم مكتبة القرويين، وبها المكتبة المرينية والسعدية، وقد رشح السلطان أحمد المنصور أبناء الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي كقيمين عليها لكن هذا الأخير اعتذر عنهم، حتى لا يدقوا باب الحكام⁴.

*. **في العهد العلوي:** لقد اهتم السلطان الرشيد وإسماعيل بخزانة القرويين فعملاً على تنظيمها⁵ وترتيبها وإهدائها الكتب وجمع الخطاطين لنسخها⁶، كما استغل السلطان إسماعيل وقوع بعض الرهائن الأجانب تحت يده وطلب فديتهم من نفائس الكتب فطلب مقابل 50 أسيراً نصرانياً 5000 كتاب أي 100 على كل واحد، من كتب الإسلام الصحيحة المختارة والمحجوزة في خزائنهم بأشبيلية وغرناطة وغيرها من المدن فتجمعت بذلك أنواع الدفاتر وأسماء التأليف ما لم يكن في غيرها ووضعت لتلك المخطوطات فهارس خاصة بكل فن⁷.

¹. العمراني، المقال السابق، ص 174.

². ينظر الملحق الثاني، الصورة رقم 11 صورة لمدخل الخزانة السعدية من داخل القرويين، ص 445.

³. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 451-452.

⁴. حجي، الحركة الفكرية...، ج1، المرجع السابق، ص 184.

⁵. ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 8، تحبب السلطان الرشيد لكتاب العمدة، ص 441.

⁶. القادري، نشر المثاني...، ج2، المصدر السابق، ص 340.

⁷. Terrasse, Histoire, T2, Op.cit, P 271-272.

وقد اهتم السلطان عبد الله (1141-1171هـ/1728-1757م) بوقف الكتب على القرويين في مختلف العلوم¹، وقد تعرضت الحوالة العبدلوية لسنة 1156هـ/1743م لذكر لائحة من المخطوطات التي أهداها لهذه الخزانة وأحصاها الد. بوركبة على ما يربو عن ثلاثة وأربعين كتابا، من مصاحف وكتب تفسير وحديث وفقه وغيرها، ككتاب الصحاح في اللغة من جزأين للجواهري إسماعيل بن حماد الفارسي (ت339هـ/950م) كتاب البلنسي في التفسير، كتاب الجامع الصحيح المسند عن حديث رسول الله (ﷺ) وسننه ومغازيه وأيامه للإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل (ت256هـ/870م)، وغيرها من أمهات الكتب التي شحنت بها رفوف الخزانة في 20 رجب 1156هـ/1743م، وقد استطاع هذا السلطان أن يبعث الثقافة من مرقدتها رغم الفتن وخلعه وتنصيبه عدة مرات فكل هذا لم يثن من عزيمته في نشر العلم وإحياء مراكزه بالمغرب، ويكون ذلك من العوامل التي شحذت ذهن ولده السلطان محمد ومن بعده حفيده السلطان سليمان ليكونا خلفا صالحا وعالما².

وفي عهد السلطان محمد بن عبد الله (محمد الثالث) اهتم بها ووفر الناسخين لنسخ النادر وتحبيسه على الخزائن، كما جلب من المشرق أندر المخطوطات مثل المسند للإمام أحمد ومسند أبي حنيفة وغيرهما، ووقف على خزانة القرويين كتاب حاشية على عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد لليوسي، وكتاب الحواشي المفهمة لشرح المقدمة لابن الجزري أبي بكر أحمد بن محمد وحبسه عام 1175هـ/1761م³، وجدد خزانة القرويين، وشدد على نفائسها بتنظيم عملية الإعارة، وجعل فتحها على يد قائمين وبحضور القاضي والإمام وأمر ألا يخرج منها كتاب إلا بالإشهاد⁴.

كما اهتم خلفه بإثراء خزانة القرويين وهذا ما فعله الأمير علي بن محمد الثالث في ذي القعدة 1183هـ/1770م وأخوه اليزيد في أوائل شوال 1204هـ/1790م، ولكثرة تواتر الكتب

¹. ينظر الملحق الأول، الوثيقة رقم 9، تحبب السلطان عبد الله لكتاب الشمانل على خزانة القرويين، ص 442.

². بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 285-294.

³. الناصري، المصدر السابق، ج7، ص 89.

⁴. العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 294.

عليها في عهد السلطان سليمان أمر بتوسعتها وإضافة الخربة التي كانت بجوارها منسوبة لأولاد الغرديس¹، وممن تولى خزانة القرويين في العهد العلوي الفقيه محمد بن أحمد الفاسي في عهد محمد بن عبد الله والفقيه محمد الطيب القادري في عهد عبد الرحمن²، وقد لاحظ علي باي العباسي في رحلته لفاس أثناء ق19م تراجع في الكتب التي عاثت بها الرطوبة والزمن³ ويرجع البعض عددها في سنة1278هـ/1861م إلى خمسة آلاف مجلد⁴، ليرجعه آخر إلى 30 ألف مخطوط إلا أن عددها بعد هذا التاريخ تراجع إلى 8 آلاف مخطوط⁵.

ب. الخزائن الفرعية في مدينة فاس: إلى جانب خزانة القرويين الكبرى هناك ما يقارب 33 خزانة فرعية، توزعت بدقة على أطراف المدينة حسب الأهمية وتعداد السكان، توجد خمس عشرة خزانة غربي جامع القرويين كخزانة مسجد حمام القلعة، مسجد سيدي أحمد الشاوي حلق النعام الأعلى...، وسبعا شمالا في مسجد الأبارين، باب عجيسة، سيدي بناني... وخمسا شرقا كمسجد الأندلس، العباسية مسجد قميمة، مدرسة الصهرج...، وخمسا جنوبا كمسجد الحمراء بفاس الجديد الرصيف...، بإضافة خزانة دار الحسبة للعموم وخزانة مقصورة الفتيا يكون المجموع 33 مركزا فرعيا لجميع الناس قصد التثقيف والتعليم، إلى جانب خزائن خاصة في يد شخصيات كبرى كالمنصور السعدي، السلطان إسماعيل... والعلماء كالسراج، الحميدي، القصار، ابن القاضي، الدلائي...⁶.

فمن خلال هذه الكراسي والمجالس العلمية للقرويين التي أمها الأساتذة وتحلق عليها الطلبة فنهلوا منها مختلف الفنون وأهمها العلوم الشرعية، وتزودوا من خزائنها ما يحتاجون إليه من معارف ومدارك فتخرجوا على شاكلة أساتذتهم، وبرز هذا في تلك التصانيف التي ترجمت لرجال وطلبة القرويين.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 669.

². نفسه، ص 475.

³. El-Abbassi, Op.cit, T1, P117.

⁴. العمراني، المقال السابق، ص 174.

⁵. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 669.

⁶. الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 77.

ثانيا. رجال العلم في عهد الشرفاء :

إذا كانت القرويين تقام بها فريضة الصلاة والعلم مع التوريق، فمن الصعوبة بالمكان حصر كل من قام بالإمامة والخطابة والتدريس والتوريق والفتوى بالجامعة، ولربما جمعت تلك المناصب في يد شخص واحد، ليتداعها أحيانا لمعاهد أخرى تابعة لها، إلا أنها توزعت على آخرين أحيانا كثيرة، فرجالها من صميم أبناء مدينة فاس أو من الأفاقين¹، لذا تطول القائمة في إحصاء رجال العلم في عهد الشرفاء ولكن نركز على تلك الشخصيات الفذة التي عرفت القرويين سواء بالتدريس أو غيرها من المناصب العلمية.

1. رجال العلم في العهد السعدي :

ظلت فاس المدينة العلمية التي تستهوى العلماء فنزل بها أحمد الزروق (899هـ/1493م) ومحمد بن قاسم القروي (873هـ/1468م)...، الذين خرجوا طبقة لامعة من العلماء كابن غازي، علي الزقاق، عبد الله الزموري وسقين وغيرهم، وسيكونون بدورهم أساتذة لعلماء شكلوا طبقات متواترة² ويعتبرون بحق أساتذة المغرب ككل، ولذلك لم تراحمها مراكش ولا غيرها بما احتوت من فطاحل العلماء المتفرغين للتدريس، ولولا السياسة التي اقتضت تحويل العاصمة للجنوب في النصف الثاني من القرن 10هـ/16م وما نتج عن ذلك من انصراف رجال العلم والأدب عن مدينتهم إلى مراكش لابتغاء الرزق والحظوة والجاه لما نزلت فاس إلى الدرجة الثانية³، لتأفل شمعتهما بعد عام 1012هـ/1603م وتتوجه إلى زاوية دلاء حتى دخول السلطان الرشيد عليها⁴.

الطبقة الأولى: طبقة العلماء المخضرمين الذين عاشوا في نهاية القرن التاسع هجري وأدركوا القرن العاشر وتمثل هذه نقطة بداية في سلسلة علمية جديدة بالنسبة للعصر السعدي ومن

¹. العمراني، المقال السابق، ص 172-173..

². Berque, « Ville... », Op.cit, P 75.

³. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 263.

⁴. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب 1398هـ/1978م، ص 345.

بعده، بسبب انتهاء الدولة الإسلامية في الأندلس¹، والهجمة الأيبيرية الشرسة على السواحل والدخول العثماني إلى الجزائر الأمر الذي جعل فاس محط أنظار علماء تلك الأقطار واستطاعت فاس صهر تلك العناصر المتباينة في بوتقة العلم لتكون منها حلقة أولى في سلسلة طويلة ستتصل عبر قرون، ورغم تلك الانقلابات حافظت على أهم ميزات المرتكزة على التعمق في المذهب المالكي والعناية بعلوم القرآن وإدراج ما دخلها من علوم حديثة وعقلية²، ومن علمائها:

أحمد الونشريسي (ت914هـ/1508م) من أئمة المالكية، أسندت إليه عديد من الكراسي العلمية الوقفية في أهم مساجد فاس ومدارسها، درس المدونة وفرعي ابن الحاجب وغيرهما³ وصديقه محمد بن أحمد بن غازي المكناسي (ت919هـ/1513م) درس زهاء ثلث قرن بفاس وأسندت إليه الكراسي العلمية بالقرويين، حتى كان له كرسي باسمه، تخرج على يده خلق كثير بحيث كل من عاصره تتلمذ عنه، وتنوعت دروسه فشملت القراءات التفسير الحديث الفقه قواعد اللغة الحساب وقد ألف فيها⁴.

ومحمد بن إبراهيم الدكالي المشنترائي (ت921هـ/1515م) اختص في الفقه قراءة المدونة والرسالة لابن زيد، وأحمد بن علي الزقاق (ت932هـ/1525م) ابن ناظم ألفية الزقاق كانت له دروس فقهية عالية بالقرويين كتب شروحا على المدونة، مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد، وأحمد بن محمد الدقون (ت921هـ/1515م) درس بغرناطة وفي فاس درس بها الفقه قواعد اللغة العربية وقد رواوا عنه كتابه بداية التعريف في شرح شواهد الشريف، ومحمد بن بوجمعة الهبطي السماتي (ت930هـ/1524م) مختص في علم القراءات ومؤلفه رسالة الوقف التي نشرها تلاميذته ولا يزال المصحف المغربي يكتب ويطلع بوقفه⁵.

¹. Berque, « Ville..., Op.cit, P 75.

². حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 345.

³. بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 107.

⁴. بروفنصال، المرجع السابق، 157-158.

⁵. القادري، نشر المثاني..، المصدر السابق، ج1، ص 35.

الطبقة الثانية: ليخلف هؤلاء الأعلام خلف كثير أقاموا للعلم في فاس سوقا نافعا أسهم في إحياء الحياة العلمية أمام إفلاس السياسة والإقبال على العلم مع انحلال السلطة وعاشوا خلال القرن العاشر ومنهم:

عبد الرحمن بن علي سقين السفيناني (ت956هـ/1549م) درس على يد ابن غازي، وأتم تكوينه بالمشرق من تلاميذ الإمام ابن حجر أخذ الحديث وحذق فيه، وقد قضى سنوات في السودان استغنى فيها بعد إملاق، وعاد ممتلئ العقل واليد، ودرس بجامع الأندلس¹، كان يبقى فيه لوقت متأخر في انتظار سائل أو مستفيد أو راغب في الأخذ برواية الحديث²، لازم تدريس العمدة والموطأ بجانب مصرية الخطيب بالقرويين وهما من أوقاف الورياغلي³.

علي بن موسى بن هارون المطغري (ت951هـ/1545م) من المتخرجين على يد ابن غازي وسارده لكثير من الدروس من المدونة والموطأ والعمدة...⁴، كان ذا رغبة في التدريس⁵ ولم ينقطع عنه صيفا أو شتاء لأزيد من ثلاثين سنة⁶، أستاذ القراءات والفقهاء، وكان دائما يبتدئ عمله عند الفجر بالتجويد وتلقين القراءات السبع للطلاب، وبعد صلاة الصبح يصعد إلى الكرسي ليلقي درس الرسالة فيبسط فيه ليفيد عامة الحاضرين، ثم يتوجه إلى مدرسة العطارين حيث يلقي درسه الفقهي في المدونة يحضره الطلبة والعلماء، وينتهي عمله اليومي بإلقاء درس في الحديث بين العشاءين⁷.

عبد الواحد بن أحمد الونشريسي (ت955هـ/1549م) تلميذ ابن غازي، قام مقام والده فأجاد وأفاد في كراسي والده العلمية المسندة إليه بالقرويين وغيرها، درس الفقه التفسير

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 350.

² ابن القاضي، جذوة...، المصدر السابق، ج2، ص407.

³ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 109-110.

⁴ نفسه، ص 106.

⁵ حجي، الحركة الفكرية، ج2، المرجع السابق، ص 349.

⁶ المنجور، المصدر السابق، ص 21.

⁷ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 107.

الحديث قواعد اللغة، تضلع في الأدب ويجيد الكتابة¹، وكان كثير النشاط ينتقل بين القرويين ومسجد عقبة الزرقاء إلى المصباحية².

محمد بن أحمد اليستيني: ولد سنة 879هـ/1474م بفاس وأخذ عن ابن زكريا المغراوي الفقه وأصوله والعقائد وسمع عن سقين وأحمد الحباك، رحل للمشرق وأخذ عن أحمد بن موسى مفتى تلمسان وبمصر عن الأخوين ناصر الدين وشمس الدين اللقائيان صحيح البخاري ومسلم والموطأ وغيرها من العلوم وأخذ عن أبي الحسن البكري الصديقي وأخذ عنه كثيرون منهم المنجور³ محمد بن قاسم القصار وتوفي في 16 محرم 959هـ بفاس⁴.

درس بالقرويين لمدة طويلة، مخضرم وحظي بثقة السلطان محمد الشيخ السعدي، الذي حضر مجالسه للتفسير، فوسع عليه في العطاء⁵، وحلاه المنجور في فهرسته بـ "الشيخ الفقيه العلامة المحقق جامع بين المنقول والمعقول الحاج الرجال الخطيب المفتي الصالح...مجتهدا في طلب العلم يدرس أو يدرس ... نابذا للراحة ورفاهية العيش طارحا للتكلف في لباسه وطعامه وكلامه وجلوسه...حريصا على إفشاء العلم ونشره"⁶.

فكل تلك الألقاب دلالة على علو كعبه في العلم ورفعته بين علماء ذلك العصر، كما حلاه صاحب الفكر السامي على أنه أحيى علوما اندثرت بعد عودته من المشرق⁷، بكساد سوق المعقول بفاس، لاعتنائهم بالفقه والقرآن⁸، تولى خطة الفتوى بعد وفاة أبي العباس أحمد الونشريسي، وأخذ عنه عبد الواحد الحميدي والشيخ رضوان الجنوي...⁹.

¹ . القادري، المصدر السابق، ج1، ص 45.

² . المنجور، المصدر السابق، ص 26.

³ . بن القاضي، جذوة الاقتباس ...، المصدر السابق، ص 246-247.

⁴ . بن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج2، ص 203.

⁵ . حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 351.

⁶ . المنجور، المصدر السابق، ص29.

⁷ . محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف، الرباط 1340

ص102.

⁸ . المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، تص: مصطفى وهبي، ج4، المطبعة الوهبية، مصر 1284هـ

ص121.

⁹ . أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاذئة الأكياس بمن أقبر من الصلحاء والعلماء بفاس تح:

د.حمزة بن محمد الطيب الكتاني و د. محمد حمزة بن علي الكتاني، ج1، ط2، دار الأمان، الرباط1435هـ/2014م، ص76.

أبو محمد عبد الوهاب بن محمد الزقاق: (ت 961هـ/1554م) من أولاد الزقاق التجيبين وهم بيت قديم بفاس عرف فيهم العلماء ولد عام 905هـ/1499م¹ بفاس، وذكره المنجور بالفقيه الأستاذ العلامة المتقن الحافظ الفهامة، وكان لا يجارى في حفظ مختصر خليل وفهمه وظل مواظبا عليه حتى لا ينساه² فكان كثير الحفظ، وأخذ عن عبد الواحد الونشريسي وابن هارون، وأخذ عنه المنجور وأبو المحاسن الفاسي³.

له كراسي بالقرويين يلقي عليها كل صباح ثلاثة دروس متوالية في التفسير والفقه والتصوف كما له درس في المساء والليل⁴، تولى خطة القضاء والفتيا بمدينة فاس بعد وفاة الشيخ عبد الواحد الونشريسي، ليتهم بالميل للوطاسيين، ويرجح بن عسكر قتله لقوة شكيمته وأقواله⁵.

عبد الرحمن بن إبراهيم الدكالي: (ت. 962هـ/1554م) بيتهم كبير بفاس شهير بالعلم وهم من أعيانها، ولقب عبد الرحمن بأبي الرسالة لأنه كان أفقه الناس بها⁶، وقال فيه المنجور الفقيه الأستاذ الموثق العلامة الواعظ، وكان من شيوخ المدونة والرسالة، وأخذ عن أبيه وأبي عبد الله بن غازي والفقيه النحوي أبي عبد الله الهبطي، أحمد الزقاق، وكان له على الرسالة كرسي بين العشاءين في جامع القرويين ويحضر العامة مجلسه، وكان عمدتهم في نوازل المعاملات والمناكحة والمبايعة، لأنه زاول نشاط العدول لمدة طويلة مع تدريسه للمدونة والرسالة فبرع فيها، وحضر جنازته ولي العهد عبد الله السعدي⁷، وأخذ عنه صاحب الدوحة⁸ رضوان الجنوي، القصار، أحمد المنجور،...⁹.

¹ الشريف عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الأس في بيوتات أهل فاس، تح: علي بن منتصر الكتاني، ج 1، مكتبة الثقافة الرباط، 1421، ص 469.

² المنجور، فهرس، ص 57.

³ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج 1، ص 469.

⁴ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 2، ص 351.

⁵ محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي ط 2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977/1397، ص 55-56.

⁶ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج 1، ص 59-61.

⁷ المنجور، فهرس، ص 56-57.

⁸ بن عسكر، المصدر السابق، ص 56.

⁹ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج 1، ص 62.

محمد بن أحمد بن مجبر المساري: (ت983هـ/1575م) بيتهم معروف بفاس، أخذ عن شيخه النحوي أبي عمران موسى الزواوي، أبي زكريا يحيى السوسي¹، وعن عبد الواحد الونشريسي فرعى ابن الحاجب كما ختم عنه التفسير، وجوّد على أبي عبد الله ابن غازي بحرف نافع وكان حافظاً حذقاً للقراءات السبع وختم المنجور على يده القرآن، صاحب كرسي القراءات بالقرويين وكرسي النحو بمدرسة العطارين، والشاطبية الكبرى يلقيها بكرسي بين العشاءين بالقرويين²، وقال عنه ابن القاضي في الجذوة أنه كان سيّويه زمانه حافظ له طرر على ألفية بن مالك وهو شيخ الجماعة بمدينة فاس³، وأخذ عنه المنجور، أبو العباس القدومي أحمد بن علي الزموري، عبد الواحد بن أحمد الحميدي⁴.

محمد بن خروف التونسي: (ت.966هـ/1558م) الملقب بجار الله، المحدث ومجدد العلوم العقلية⁵، وله الفضل العميم في إحيائها ونشرها بفاس⁶، وحلاه صاحب زهر الآس بالإمام الفقيه النحوي البياني الأصولي الكلامي الأديب المشارك المتقن المتبحر المحقق حافظ الحجة، وكان من العدول المبرزين للشهادة⁷، وقال عنه في الجذوة أنه شيخ الجماعة بفاس⁸ وقال المنجور على أنه شيخه المعقولي، وتدبج معه، درس تلخيص المفتاح، الرسالة الشمسية في المنطق للكاتب، الأيسغوجي في المنطق وغيرها، وحضر مجالس شيوخ فاس للأخذ عنهم ومذاكرتهم، كابن هارون، الونشريسي، الزقاق⁹، وأخذ عنه عبد الله القصار والقاضي الحميدي وأحمد بن علي الزموري، رضوان الجنوي...¹⁰.

¹ الشريف عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، نح: الدكتور علي بن منتصر الكتاني، ج2 مكتبة الثقافة، الرباط، 1421، ص 154.

² المنجور، فهرس، ص 63-65.

³ بن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ص 250.

⁴ بن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج2، ص 222.

⁵ الحجوي، المرجع السابق، ص 102.

⁶ المحبي، المصدر السابق، ج4، ص 121.

⁷ بن هاشم الكتاني، زهر الآس...، المصدر السابق، ج1، ص 255.

⁸ بن القاضي، جذوة الاقتباس...، المصدر السابق، ص 322.

⁹ المنجور، المصدر السابق، ص 69-71.

¹⁰ بن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج2، ص 208.

أحمد بن محمد بن محمد المعروف بابن جيدة المديوني الوهراني: (ت 951هـ/1557م) تلميذ الإمام السنوسي صاحب العقائد الشهيرة والتزم بتدريس الإلهيات وبالأخص كتب أستاذه السنوسي، وأسند إليه كرسي بن غازي في القرويين، بعد وفاة محمد بن عبد الواحد الغزال درس العمدة في الحديث والرسالة القيروانية¹.

محمد بن عبد الرحمن بن جلال: ولد ابن جلال بتلمسان سنة 908هـ/1502م، أخذ عن أبي عبد الله بن موسى، أحمد بن زكريا المغراوي، وأحمد بن يوسف الملياني²، ورحل منها لفاس سنة 958هـ/1551م مع عبد الله السعدي³ وخطب بجامع الأندلس ثمان سنين ثم بجامع القرويين ثلاث عشرة سنة ومفتيها، وكان إمام الأئمة، وكان عمدة في تحرير عقائد التوحيد بفاس ماهرا بها بشهادة العامة والخاصة مثل اليستيني⁴، تولى القضاء بفاس في أواخر رجب 962هـ/1555م⁵، وحلاه المنجور في فهرسته بالفقيه الموحد المشارك المفتي الخطيب درس الفقه والحديث والعقائد والأدب، كان ذا تودة وسكون وهمة وسخاء⁶، له سمت حسن ووقار وحفظ مهجة⁷.

وكان يستدعى من طرف السلاطين السعديين في جملة أعيان العلماء إلى مراكش ويصحبونه معهم وقال عبد الرحمن التمنارتي في الفوائد الجمة أن ابن جلال قدم إلى سوس صحبة السلطان عبد الله الغالب عام 980هـ/1572م، فأقام بها معه مدة عام للإقراء بجامع تارودانت فأخذ عنه فقهاؤها⁸، وقال القادري في المثاني أنه قد طالت أيام رياسته العلمية بفاس حتى أسن وأثقله الهرم وانتفع الناس به⁹، وتوفي في 8 رمضان 981هـ/1573م¹⁰.

¹ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 105-106.

² بن القاضي، درة الحجال...، المصدر السابق، ج2، ص 214.

³ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 125.

⁴ أبي القاسم محمد الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي ابن سيدي إبراهيم الغول، تعريف الخلف برجال السلف، تح: الدكتور خير الدين شترة، ج3، ط3، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة 2013م، ص 1112-1114.

⁵ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج1، ص 284-285.

⁶ المنجور، المصدر السابق، ص 78.

⁷ بن عسكر، المصدر السابق، ص 123.

⁸ التمنارتي، المصدر السابق، ص 96.

⁹ حجي، جولات...، المرجع السابق، ص 269.

¹⁰ المنجور، المصدر السابق، ص 78.

الطبقة الثالثة: ومثلها العلماء الذين عاشوا في نهاية القرن العاشر وأدركوا حتى أوائل القرن الحادي عشر وهي ألع مرحلة تاريخية للعهد السعدي، حيث تراجعف فيها زعامة فاس العلمية، باعتبار أن بلاط السلطان المنصور السعدي قد جذب العلماء، فأصبحت مراكز مقصد العلماء والأدباء يشدون إليها الرحال، ويظهر ذلك في قلة المدرسين بفاس، بالنسبة لما كانوا عليه سابقا، إذ فئة منهم هاجرت للتدريس بمراكش أو العمل بالقصر البديع، وطائفة أخرى ألفوا رحلة الإيلاف إلى مراكز مللقى العلماء ومفرق الأرزاق والوظائف، فبقي بفاس من العلماء من هو أصلا منها¹، ومن علماء هذه الطبقة:

أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوبي (912-991هـ/1506-1583م) إمام الحديث وأحد مدرسي الفقه والقراءات وقواعد اللغة اشتهر بالزهد والصلاح تلقى تعليمه بفاس²، وأخذ عن محمد الطالب والشطبيي وعبد الرحمن سقين، تخرج عنه عديد العلماء مثل محمد بن قاسم قصار، المنجور، وطريقته في التعليم مبنية على المعاملة بالرفق ومتابعة الطالب حسب مستواه لرفعه، حاث على القراءة لترسيخ المفاهيم والترغيب في العلم وحضور مجالسه³. وأثناء الصراع الوطاسي السعدي فإن الشيخ التزم الحياد وارتحل لجبل بني بكار ابقاء للفتنة وبعودته كان أستاذًا لأحمد المنصور، اعتاش من تعليم الصبيان ونسخ الكتب، عارض كل أشكال الفساد والظلم، وكانت له جرأة ورباطة جأش في قول الحق في مجالس الحكام⁴.

أحمد بن علي المنجور المكناسي (ت995هـ/1584م) إمام فاس وعالمها المشارك المبرز في الفلسفة والرياضيات والقراءات فضلا عن التفسير والحديث والفقه والعقائد، قضى نصف قرن، متنقلا بين القرويين ومنزله، أو مرتحلا لمراكش، له قدرة على التدريس والتعبير⁵، أستاذ الإلهيات والمنطق والأدب والتاريخ، كان مجلسه يغص بالطلبة بالقرويين، لفصاحة عباراته وذلاقة لسانه ولما ذاع صيته استدعاه السلطان أحمد المنصور ليكون أستاذه الخاص، كانت

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 358.

² القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 89.

³ ابن القاضي، جذوة...، المصدر السابق، ج1، ص197.

⁴ بوشنتوف، المقال السابق، ص 56-58.

⁵ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 360.

له عدة كراسي ومجالس بالقرويين وغيرها ككرسي التفسير، كرسى الحديث لصحيح مسلم بين العشائين وكرسى الفقه بعد الظهر¹، وفرت له أوقاف تلك الكراسي موارد مالية جعلت من جاء بعده يتنافس عليها.

عبد الواحد بن أحمد الحميدي (ت1003هـ/1595م) حامل لواء المذهب المالكي، وقاضي جماعة فاس طوال ثلث قرن، وكان لا ينزل من منبر حتى يرتقي آخر، انقطع للتدريس بها سواء في أيام الدراسة أو العطل، يلقي يوميا دروسه ثلاثة في الصباح بالقرويين في التفسير والفقه والتصوف، وثلاثة بعد الزوال بالمدرسة المصباحية في تهذيب البرادعي ومختصر خليل ومغنى ابن هشام²، ويأتي في مجلسه بالنكت والغرائب، ويحضر ديوان السلطان يوم الأربعاء³، كان سليط اللسان وله عدة خصومات مع علماء عصره⁴.

أبو العباس أحمد بن علي الزموري (ت1001هـ/1593م) أستاذ القراءات والتفسير بكراسي القرويين وجامع الأندلس، امتازت دروسه بالعلو في التفسير لما ينقله من أقوال المفسرين⁵ وتأويلاتهم مناقشة وتحليل ويأتي بما يزيل الغموض والإشكال، ويقضي شهر رمضان بمراكش للصلاة بالسلطان المنصور في التراويح لحسن قراءته وتجويده، له كرسى التفسير بجامع الأندلس ومدرسة الوادي، مع كرسى السير بمدرسة العطارين والقرويين⁶.

أبو القاسم بن قاسم بن سودة (ت1004هـ/1596م) حلاه القادري بأنه الشيخ القاضي العالم المفتي النوازلي⁷، أستاذ الفقه والأصول والعقائد والمنطق، له كرسى بجامع القرويين وغيرها، وكان كثير ما يشد الرحال في الصيف والشتاء نحو مراكش⁸.

¹ بن هاشم الكتاني، زهر الآس...، المصدر السابق، ج2، ص 224.

² بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 120.

³ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 46-48.

⁴ بن هاشم الكتاني، زهر الآس...، المصدر السابق، ج1، ص 385.

⁵ حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 272.

⁶ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 37.

⁷ نفسه، ص 52.

⁸ بن هاشم الكتاني، زهر الآس...، المصدر السابق، ج1، ص 510.

يحيى بن محمد السراج (ت1007هـ/1598م) مفتي فاس وشيخ الجماعة بها وخطيب القرويين بعد ابن جلال، صاحب كراسي التفسير والفقه بالقرويين وجامع الأندلس درس المدونة بالطائرين والمختصر بالحلفاوين أقبل عليه الطلبة وعلماء المدينة¹، ولكنه كان كثير الصياح على من يتحدث في مجلسه، تولى الخطابة في الأعياد بالسلطان بعد وفاة القاضي الحميدي².

محمد بن قاسم القصار (ت1012هـ/1604م) وشحه القادري بقوله: "الشيخ الإمام قدوة الأنام حجة الإسلام، العالم العلامة المشارك الدراكة النسابة الواعية، الحافظ الحجة الرواية المحقق النظار أبو عبد الله سيدي محمد بن قاسم بن محمد بن علي الملقب بالقصار، الأندلسي الغرناطي القيسي الأصل الفاسي الدار"³، الذي خلف السراج في الإفتاء والخطابة والكراسي العلمية كما تولى كرسي التفسير بجامع الأندلس وكرسي المرادي بالطائرين بعد الزموري⁴، اشتهر بدقة التفكير والتعمق بالبحث، وكان مجلسه يحضره النجباء منهم فاستفادوا وأفادوا وسارت إليه كراسي التفسير والحديث والفقه في القرويين، وهو شيخ المحدثين في وقته⁵.

الطبقة الرابعة: ومثلها العلماء الذين عاشوا من بداية القرن الحادي عشر حتى منتصفه وفيها عرفت فاس بقاء أجيال من شيوخ امتدت حياتهم إليه وعلماء شباب تكونوا في المرحلة السابقة، وتحضير جيل جديد يخلفهم، رغم أن هذه الفترة عرفت ما بين (1012-1040هـ/1603-1631م) فتنا ومحنا بمدينة فاس والمغرب كانت من أحلك وأشنع فترات لما حدث فيها من تطاحن بين أبناء السلطان المنصور وأحفاده، وتطاول الطامعين وسقوط بعضهم صرعي بفاس وخارجها فهلك الجند والعباد ونفذت خزائن بيت المال⁶، في ظل هذا

¹. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 72.

². بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج1، ص 489.

³. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج1، ص 86.

⁴. بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 125.

⁵. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 270-271.

⁶. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص 363.

كثفت الحركة الصوفية نشاطها لإصلاح ما فسد سياسيا وحماية المؤسسات الدينية والعلمية ومنها الزاوية الدلائية والفاسية اللتان لعبتا أدوار مهمة وبروز شيوخ أعلام في هذه الطبقة:

محمد الشريف المريني التلمساني (ت1018هـ/1609م) أثرى الكراسي العلمية فدرس رسالة أبي زيد على كرسي ظهر الخصة بالقرويين بعد صلاة الصبح يوميا، وله مجلس لصغرى السنوسي ولكبراه، درس الألفية ابن مالك ملتزما بسيدي المكودي، تبرع بقراءاته بعد الفراغ من حبسه¹.

أحمد بن يوسف الفاسي (ت1021هـ/1612م) اشتهر بلقب الحافظ لحفظه للحديث، فكان أحد أحفظ الثلاث حفاظ بالمغرب إلى جانب أحمد المقري وعبد الله بن علي ابن طاهر السجلماسي لهذا العصر، فتعلم بزاوية والده وغيرها من مساجد فاس ودلاء ألف كتباً في الحديث والتصوف والأدب وكان من العلماء الذين تركوا فاس عندما استفتاها المأمون الشيخ بتقديم العرائش للأسبان ومات بالريف غرباً².

أحمد بن محمد المقري (ت1040هـ/1631م) وقد قرر الاستقرار بفاس بعد رحلته التي قام بها خلال 09-1010هـ/1600-1601م في أوج عطاء الدولة السعدية، وفي فتنه المأمون الشيخ ظل متخفياً ودخل زاوية دلاء، لتسند له بعدها الإمامة والخطابة بجامع القرويين بعد وفاة أبي عبد الله محمد بن محمد الهواري سنة 1022هـ³ وعاش بانسجام تام مع قاضي الجماعة بفاس، حتى أزعجته الفتنة بفاس فخرج للمشرق.

أبو القاسم ابن أبي النعيم الغساني (ت1032هـ/1623م) من الرجال النشطين المجدين بالتدريس بالقرويين، تزعم حركة محاربة استعمال دخان التبغ، وعقد مع سابقه مجالس مشتركة مملوءة بالمتعة العلمية وفيضان العلم بحضور نخبة الطلبة والعلماء والعدول وتحمل إليها الكتب الكثيرة المختارة، وبسبب الفتنة التي دخلت فاس فقد لفحت الشيخين فأزعج أحمد

¹. بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص 126-128.

². السلطان سليمان، المصدر السابق، ص 61-62.

³. القادري، نشر المثاني، المصدر السابق، ج1، ص 291.

المقري للمشرق تاركا الأهل والكتب بفاس ليموت بمصر غريبا كما تعرض أبو النعيم لاغتيال شنيع على قارعة الطريق بحي الزربطانة على إثر عودته من صلاة الجمعة¹.

محمد بن قاسم بن القاضي (ت1040هـ/1631م) أديب بارع في الكتابة وقرض الشعر طارت شهرته بالتدريس، إلا أن الفتنة الجارفة عصفت به فافتكته يد الغوغاء داخل القرويين إثر انتهائه من درس العشاء، لاتهامه بالموافقة على تمكين النصاري لشغل العرائش، لأنه شهد مع من استدعي من العلماء إليها من طرف محمد الشيخ المأمون².

عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري (ت1040هـ/1631م) كانت له دروس متنوعة في القرويين شملت القراءات وتخصص فيها، والفقه والعقائد والتصوف والسير والنحو والتوقيت وامتاز تعليمًا وتأليفًا يحسن التعبير والعرض مع الدقة والبحث والتثبيت³.

محمد بن أحمد أبي عبد الله ميارة: الفاسي الدار والقرار المالكي، (999-1072هـ/1591-1662م) كان له كرسي العنزة بالقرويين⁴، قال فيه صاحب نشر المثنائي هو الفقيه العلامة الدراكة الفهامة المختص بالإتقان النوازلي درس الفقه، ودرس شرحه الصغير على المرشد المعين في 1044هـ⁵، ليختصره في 1048هـ، وله شرح لامية الزقاق في 1066هـ، وتذييل عليها سماه تكميل المنهاج المنتخب⁶، له شرح على مختصر خليل في ثلاثة أسفار⁷.

وأخذ عن أبي محمد بن عبد الواحد بن عاشر، أحمد المقري، محمد العربي الفاسي، ابن أبي نعيم⁸، وكان من أوعية العلم ومن المتفهمين في علم الأحكام مستحضر للنقول الغريبة وذاكرا

¹ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج2، ص 59.

² القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج1، ص 288.

³ نفسه، ص 283.

⁴ بوركبة، المرجع السابق، ج1، ص161.

⁵ القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج2، ص120-121.

⁶ محمد بن الطيب القادري، كتاب التقاط الدرر في مستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تح: هاشم العلوي قاسم، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت 1403هـ/1983م، ص151.

⁷ بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج2، ص 236.

⁸ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي الفهري، الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر، تح: فاطمة نافع، ط1 دار

ابن حزم، بيروت 1469هـ/2004م، ص181.

للنوازل البعيدة والقريبة، معتتيا بالمطالعة والتقييد، وعاش متقشفا¹، دفن بدار بأقصى درب الطويل بالقرب من العطارين، من عدوة فاس القرويين².

محمد بن القاسم بن سودة: (ت. 1076هـ/1665م) الفقيه الكبير الفاضل العلامة القاضي أبو عبد الله محمد بن القاسم بن سودة المري، درس التفسير والرسالة والحكم العطائية وتحفة بن عاصم بشرحها لميارة، تولى قضاء فاس الإدريسية في 1057هـ/1647م³.

هذه باقة من تلك الروضة المنتخبة من علماء القرويين على العهد السعودي وقد امتد عطرها وعطاؤها لبناء الفترة اللاحقة في العهد العلوي لأجيال متلاحقة ومتواترة في السلسلة الذهبية.

2. رجال العلم في العهد العلوي:

بسبب ما عاشه المغرب من اضطراب في الفترة الأخيرة من عهد السعودي فإن الحركة العلمية خرجت من فاس ومراكش لتتوجه إلى البادية بحثا عن الأمن فاجتمع العديد من العلماء بطلبتهم في الزوايا محيية مجالس العلم، التي حولها الرشيد العلوي عندما تغلب على المغرب إلى فاس مما جعل تلك الزوايا تكون كحلقة وصل وربط بين العهدين في العلماء المخضرمين بين الدولتين واستمرار تلك النهضة التي كانت سلية للعهد السعودي.

الطبقة الأولى: وتشمل العلماء المخضرمين بين الدولتين السعدية والعلوية ومعظمهم كانوا من الزاوية الدلائية، ولمعوا بفاس وعاشوا في نهاية القرن الحادي وبدايات القرن الثاني عشر فالى جانب من سبق في الطبقة الرابعة للعهد السعودي فإننا نجد أيضا من برزوا أكثر في العهد العلوي الأول منهم:

عبد الرحمن بن أبي القاسم بن القاضي: (999-1082هـ/1590-1672م) الأستاذ المجود الكبير إمام القراء وشيخ المغرب الأقصى الشهير الحافظ الحيسوبي، ملأ مدارس ومساجد فاس علما وإرشادا فأحيي القراءات وكتب فيها عدة كتب⁴، صاحب جذوة الاقتباس، علامة

¹ .الافراني، صفوة...، المصدر السابق، ص 250-251.

² .القادري، كتاب التقاط الدرر...، المصدر السابق، ص152.

³ .القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج2، ص151.

⁴ .حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج2، ص369.

مشارك، له مكانة عند ملك زمانه المنصور السعدي، كما دل عليه فرمان التوقير والاحترام الممنوح لأبناء هذا العالم من عند السلطان عبد الملك، وجدده السلطان عبد الرحمن العلوي لحفدة عبد الرحمن بن القاضي، وكان من خواص المستشارين للسلطان الرشيد، كما له كتاب في تراجم صلحاء¹.

عبد الرحمن الفاسي: (1040-1096هـ/1631-1685م) الإمام العالم الحافظ المشارك المقرئ²، عرف بسيوطي زمانه، أكبر مؤلف مغربي ولد بفاس ودرس تحت إشراف والده فبعد حفظ القرآن، قرأ القراءات السبع، وترك تأليف تصل إلى مائتي كتاب في العقائد والفقه المالكي والقضاء المغربي التراجم والتاريخ وله من الكتب الأدبية والفقهية كتاب أقنوم في مبادئ العلوم وكتاب العمل الفاسي أرجوزة من 417 بيت من بحر الرجز، كان متجلدا في الحق لا يخفى شيئا مما اطلع عليه ولو اختلف مع الناس واقتتلوا عليه³.

الحسن بن مسعود اليوسي: (1040-1102هـ/1631-1692م) قال فيه القادري الإمام الكبير والمحقق الشهير أعجوبة الدهر، مهر في المعقول والمنقول⁴، كبير أدباء المغرب ومن بين أحد المؤلفين الذين ذاع صيتهم بالمشرق، وهو خريج الزاوية الدلائية قد أمكن لعلومه أن تتفجر بفاس رغم انحلال زاويته التي نهل منها وكرع من حياضها⁵، وقد قال فيه أبو سالم العياشي: من فاته الحسن البصري يصحبه **** فليصحب الحسن اليوسي يكفيه⁶.

درس بالقرويين وكانت مجالسه غاصة يستحضر ديوان أبي تمام والمعري، كان محققا للدراية والرواية له عارضة كبيرة في النقل والتحقيق⁷، وله عدة رسائل مع سلاطين زمانه.

عبد الواحد بن محمد أبي عنان (1106/1694م) الفقيه العالم المدرس المفتي الخطيب أبو محمد عبد الواحد بن محمد شهير بأبي عنان، ولي الخطبة والفتوى والتدريس بجامع القرويين

¹ .الأخضر، المرجع السابق، ص 84.

² .القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج2، ص328.

³ .السلطان سليمان، المصدر السابق، ص 62-65.

⁴ .القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج3، ص25.

⁵ .إدريس العلمي، المقال السابق، ص178.

⁶ .بروفنصال، المرجع السابق، ص 192.

⁷ .القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج3، ص48.

كما ولي قضاء فاس الجديد، ليعزل في 1102هـ/1690م ويولى الفتوى بفاس البالي، ووجه رسولا إلى الجزائر فلقى جماعة من مشايخها¹.

محمد المهدي بن أحمد الفاسي (1033-1109هـ/1624-1694م) ولد بالقصر الكبير أخذ عن والده وعمه عبد القادر، وبرع في عدة علوم اللغة، الفقه، التفسير، الحديث...، وكان حافظا محققا محدثا مجددا في التدريس والتأليف، ناقما على التقليد².

أحمد بن الحاج: (1042-1109هـ/1632-1697م) أبو العباس أحمد بن العربي بن محمد بن علي بن محمد بن الحاج الفاسي الحارثي المرداسي السلمي أحد العلماء في العلوم النقلية شهرة، ولد بفاس ودرس بها على يد أبي زيد بن القاضي، القاضي بن سودة، محمد ميارة الكبير، أحمد بن جلال التلمساني...، وفي عام 1078هـ/1667م حج ولقي خلالها زين الدين الطبري والبابلي والشهرزوري وعبد السلام اللقاني والخرشي، وأسندت له بعض الكراسي العلمية بالقرويين وأخذ عنه عدد كبير من الطلبة، مثل عبد السلام القادري وأخيه العربي القادري وعبد السلام جسوس وابن زاكور والمسنوي الدلائي وابن عبد السلام بناني، كما تولى منصب قضاء فاس عام 1105هـ/1693م فسار في الناس سيرة حسنة³.

وهؤلاء قليل من كثير من أولئك العلماء الذين تقدموا بالدرس في مختلف العلوم العقلية والنقلية في الكراسي العلمية لهذه الفترة.

الطبقة الثانية: وشملت العلماء الذين عاشوا حتى منتصف القرن الثاني عشر، وغطاها العلماء الذين نزلوا من دلاء مع من دخلها من العلماء في ركاب حاشية السلطان الرشيد العلوي سنة 1079هـ/1668م⁴ منهم:

محمد بن عبد القادر الفاسي: (1116هـ/1704م) الإمام الكبير العالم العلامة الشهير إمام المحققين ورئيس المحدثين الفقيه المشارك المتفنن الدراكة المتقن أبو عبد الله محمد بن عبد

¹. القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج3، ص72.

². السلطان سليمان، المصدر السابق، ص 65-67.

³. الأخضر، المرجع السابق، ص 136-137.

⁴. اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 62.

القادر الفاسي مهر في المنقول والمعقول، كان ممن يرجع إليه في الحوادث الفقهية والنوازل الدينية والدنيوية، ومدار كل المهمات عليه والمرجع إليه، له عدة تأليف¹.

محمد بن أحمد القسنطيني (ابن الكماد): (ت1116هـ/1704م) العالم العلامة الحافظ الفهامة، فارس المنقول والمعقول، درس في فاس فأفاد وأجاد، وأخذ عنه الجم الغفير، له ملكة في علم الكلام والمنطق والحفظ التام لعلم الحديث والفقه، وكان مرجع لحل مشكلاتهما².

محمد بن زاكور: (ت1708/1120م) محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن زاكور الفاسي عائلة مشهورة بفاس، فكان عالما أديبا نابغة بلده كاتباً شاعراً لغوياً مؤلفاً من أشهر مؤلفي الآداب من المغاربة³، نشأ ودرس بفاس على يد الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي، أحمد بن الحاج، القاضي بردلة، أبي عبد الله القسنطيني، عبد السلام القادري، اليوسي...، وبالجزائر عن الشيخ محمد بن سعيد قدورة، والشيخ عمر المنجلاتي⁴.

وله مشاركة في مختلف العلوم وكان ذا ملكة مطبوعة على الإنتاج وحافظة قوية، قال فيه القادري أنه كان يحفظ عدة تأليف منها: تلخيص المفتاح، جمع الجوامع، مختصر خليل كافية ابن مالك...⁵، فقام بإحياء العلوم العربية التي بقيت مهملة منذ قرن كامل، ولشيخه اليوسي بيتان يمدحه ويصف اجتهاده في طلب العلم:

لله دُرُّ بن زاكور وشيمته *** وما أعدَّ لجمع العلم من عُدِّ

تلقاه في كل ما وقت ولو سفرًا *** في جيبه آلة الكتاب أو بيد⁶.

عبد السلام بن أحمد جسوس: (ت1121هـ/1709م) تلميذ الحسن اليوسي، حلاه القادري بالعالم العلامة المحدث الصوفي الحاج الفقيه عبد السلام بن أحمد المدعو حمدون جسوس كان عالماً بال نحو واللغة والفقه والأصول والبيان وعلم الكلام والحديث، درس صحيح

¹ . السلطان سليمان، المصدر السابق، ص 69-72.

² . القادري، نشر المثاني، المصدر السابق، ج3، ص155.

³ . نفسه، ص202.

⁴ . كنون، ذكريات مشاهير...، المرجع السابق، ج2، ص 1267-1268.

⁵ . القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص202.

⁶ . كنون، ذكريات مشاهير...، المرجع السابق، ج2، ص 1274-1275.

البخاري، الشمائل، التنوير والحكم في التصوف، توفي قتيلا في سجن عام 1121هـ/ 1709م، بسبب رفضه الموافقة على تمليك العبيد، بدون وجود حق شرعي يبيح ذلك¹.

محمد بن أحمد بُرْدَلَّة (1042-1133هـ/1632-1721م)، إمام جامع القرويين، حلاه صاحب شجرة النور الزكية على أنه إمام فاس وفقهها وشيخ جماعتها وقاضيهما العادل وأستاذها الفاضل خاتمة العلماء المحققين الأفاضل، أخذ عن الشيخ عبد القادر الفاسي وأجازه واعتمده، وعن أبي عبد الله بن سودة وغيرهما، وأخذ عنه أبو الحسن الشريف العلمي، عبد السلام القادري، عبد الله المسناوي ومحمد بن عبد السلام البناني وغيرهم².

وقد ولي القضاء والفتيا بفاس عدة مرات وولي نظارة الأحباس، درس بالقرويين وكان على رأس مشيخة جماعة علمائها، ولم يكن من المنشغلين بالتأليف، وكانت له رسائل مع السلطان إسماعيل خصوصا فيما يتعلق بموضوع العبيد وتمليك الأحرار، وكان موصوفا بالعدل والنزاهة، درس المدونة و خليل والبخاري³.

محمد المسناوي الدلائي: (1072-1136هـ/1662-1724م)، الإمام الكبير العلامة الشهير الحافظ المتقن الدراكة المشارك المتقن العالم الحجة النقاد تاج الكراسي والمنابر شيخ الجماعة وخاتمة المحققين، أعطي ملكة التدريس فكانت مجالسه حافلة بالقرويين، تتلمذ له جميع أهل عصره وانفرد برئاسة التدريس والعلم في وقته، كان مرجوعا إليه في كل أمور العامة والخاصة في الفتوى وحل المشكلات والنوازل والمعضلات، فأذعن له مشايخ عامة عصره، ولا يسعهم فيما أفتى به إلا الإتياع⁴، كان يتصف بالهيبة والوقار ويغلظ القول على من يعتدي وقار وسكون مجلسه، فكانت له قوة العارضة وملكة وجرأة أدبية بتحديه للخصوم والدعوة والإصلاح⁵، ولما دنا أجله أنشد قصيدة رثى فيها حاله بعد موته ومطلعها:

يا رب عطفًا على مسيء *** قد ساقه القوم للمقابر

¹ . القادري، نشر المثنائي...، المصدر السابق، ج3، ص207-208.

² . مخلوف، شجرة النور...، المرجع السابق، ج1، ص480..

³ . الحجوي، المرجع السابق، ج4، ص118

⁴ . نفسه، ص265-267.

⁵ . كنون، ذكريات مشاهير...، المرجع السابق، ج1، ص606-607.

فجاء فردا بغير زاد *** وخلف الأهل والعشائر.

وجرى عمل أهل فاس إذا ساقوا الميت لقبره يلقون هذه القصيدة وهم مشاة أمامه¹.

محمّد بن أحمد بن محمد ميارة: (ت1144هـ/1731م) العالم المشارك المحقق الدراكة أحد أعلام الفقهاء وأكابر النبهاء، له تحقيق في العلوم العقلية، ودراية تامة بالعلوم النقلية وحفظ في النوازل، وكان إليه المرجع في فتاوى فاس وحوادثها، ولي شهادة أوقاف المساكين والنظر في محاسبة نظار سائر الأحباس، وكل ما كان يرجع للعلماء بفاس لا يجاوز².

محمد بن عبد السلام بناني: (1083-1163هـ/1672-1750م) الإمام الفقيه العالم العلامة المدرس النوازلي المفتي، الفاسي داراً ومنشأً وولادةً ومحتداً ومدفناً، درس مختصر خليل بالقرويين، يدرس الرسالة بين العشائين بالمصباحية، ودرس صحيح البخاري، له باع في العربية والبيان وعلم اللسان، وممن يرجع إليه في الفتوى، درس عند القاضي بردلة، أحمد بن الحاج، محمد القسنطيني، الحسن اليوسي، عبد السلام القادري، ابن زاكور، محمد المسناوي، عبد السلام جسوس، وفي المشرق بمصر عبد الرؤوف البشبيشي وتخرج عنه أحمد الهلالي إدريس العراقي، التاودي بن سودة، ابن الحسن بناني،...³.

محمد بن قاسم جسوس (1089-1182هـ/1678-1768) هو محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أحمد جسوس الفاسي، شيخ الجماعة بفاس، فقيهاً محققاً صوفياً مشاركاً، أخذ على أعيان علماء فاس كعمه عبد السلام جسوس ومحمد المسناوي وغيرهما، أجازة جماعة من شيوخ المغرب والمشرق عند الحج، قضى مدة طويلة في التدريس، فداوم على تدريس مختصر خليل وكذا الرسالة وصحيح البخاري، له عدة شروح وتقايد وفتاوى⁴.

الطبقة الثالثة: وتشمل العلماء الذين عاشوا في النصف الثاني للقرن الثاني عشر وأدركوا القرن الموالي له وعرفت الحالة السياسية عدة اضطرابات وصفت بأنها يشيب لها الولدان

¹. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص277-278.

². نفسه، ص353.

³. بن هاشم الكتاني، زهر الآس...، المصدر السابق، ج1، ص150-151.

⁴. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص465-468.

واعتلى فيها الملوك عدة مرات وغدوا ألعوبة في يد الجيش (القبائل) تارة و(العبيد) تارة أخرى، غير أن الحياة الفكرية واصلت دربها رغم كل تلك الظروف، وبروز علماء لامعين¹ لتستقر الأوضاع شيئاً في عهدي السلطان محمد بن عبد الله وسليمان، إذ كان كل منهما عالماً متضلعا، ومن علماء هذه الطبقة:

عبد القادر بوخريص: (1118-1188هـ/1706-1774م) هو عبد القادر بن العربي بن قاسم بن عبد العزيز بن عبد الخالق بوخريص، كان فقيها مشاركا في عدة علوم كال تفسير والحديث والنحو، تلقى علومه على كوكبة من علماء فاس من أمثال محمد العراقي، اللبناني المسناوي وغيرهم، اشتغل بالتدريس بالقرويين ودرس صحيح البخاري والتفسير والرسالة ومختصر خليل وألفية بن مالك، تخرج عليه عديد العلماء منهم سليمان الحوات، له عدة تأليف ذكرها تلميذه من أجوبة وشروح².

أبو مدين الفاسي (1112-1181هـ/1701-1788م) محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي، وكان فقيها وأديبا ولد بفاس، ولما تمكن من علوم الفقه والحديث والتفسير والتصوف والعقائد عين خطيبا وأستاذا بجامعة القرويين حيث ظل في منصبه مدة طويلة وله عدة تأليف³.

ادريس بن محمد العراقي: (1120-1183هـ/1705-1769م) برع في الحديث فلقب بسيوطي زمانه واعتبر أعلم من الحافظ ابن حجر واستدرك على هامش الجامع الكبير نحو عشرة آلاف حديث أغفلها مؤلفه السيوطي، وأُعترف له بالتفوق على جميع معاصريه، حتى المفتي الكبير الشيخ التاودي بن سودة أقر بسداد رأيه وقوة ملكته، بعد مناقشة فقهية جرت بينهما وألف العراقي كتبا عديدة في الفقه والحديث، وهي عبارة عن شروح وحواشي واختصارات⁴ ولي الوراقة بسرد كتب الحديث ووعظ بمسجد الأندلس لينتقل للقرويين فسرده بكرسي

¹ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص 269.

² أحمد الأمين العمراني، الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله، ج2، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م، ص 50-47.

³ السلطان سليمان، المصدر السابق، ص 83-84.

⁴ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص 478-484.

المحارب صباحا ومساء وبكرسي الحلية قبل العصر وبعدها بكرسي المنذري الموجودين في غرب جامع القرويين¹.

أبو حفص عمر الفاسي: (1125-1188هـ/1713-1774م) أخذ عن أبي عسرية محمد بن أحمد بن يوسف العلوم الشرعية ومحمد الوجاري ومحمد العراقي علماء اللغة والمنطق والأصول والبلاغة والجدل وتفسير القرآن الكريم على الشيخ أحمد بن المبارك اللمطي والفقه وأحكام القضاء والحديث على الشيخين محمد بن عبد السلام بناني ومحمد بن قاسم جسوس أما رواية الحديث عمدته فيها على الشيخ علي بن أحمد الحريشي وكان أبو حفص عالما مشاركاً وفقهياً مبرزاً وأديباً ماهراً، له مؤلفات عديدة في العلوم الشرعية، له كتاب لواء النصر في الرد على بعض أبناء العصر، لرد على من أجاز بيع العقارات الحبسية².

عبد القادر بن شقرون: (ت1219هـ/1804م) هو عبد القادر بن أحمد بن شقرون الفاسي فقيه مشارك في الحديث والأدب واللغة والنحو والمنطق، تلقى علومه على نخبة من علماء فاس كأحمد الهاللي، عبد الرحمن المنجرة وبوخريص وغيرهم، كما أخذ من أعلام المشرق لما حج، اشتغل بالتدريس بجامع القرويين وغيره من ملاحق هذه الجامعة، التفسير وصحيح البخاري وجمع الجوامع والشفاء، ومن تلاميذته السلطان سليمان وغيره³.

محمد التاودي بن الطيب بن سودة: (ت1209هـ/1795م) من أكبر علماء مدينة فاس استحق لقب شيخ الجماعة بورعه وتبحره في العلم والدين، ولقب بملحق الأحماد بالأجداد لكثرة ما احتوت عليه فهرسته من أعلام، وبها شيوخه الذين أخذ عنهم وأشهرهم محمد بن أحمد بن جلون، أحمد بن المبارك السجلماسي عمدته في رواية الحديث، وتخرج عنه الكثير كابنه محمد محمد بن الحسن الجنوبي، الطيب بن كيران...⁴.

¹. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج4، ص195.

². السلطان سليمان، المصدر السابق، ص84-91.

³. بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج1، ص550-551.

⁴. أبي عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس، تح: حمزة محمد الطيب الكتاني ومحمد حمزة بن علي الكتاني، مج1، ط2، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط 1435هـ/2014م، ص150-151.

محمد الطيب ابن كيران (1172-1227هـ/1758-1812م) فقيه شهير متضلّع في أصول الفقه وفروعه، عارف بالكليات والجزئيات، وأخذ عن أبي حفص الفاسي، محمد بن الحسن بناني، محمد التاودي بن سودة، ابن شقرون الفاسي وغيرهم، وتخرج عنه جمهرة من العلماء مثل ابنه أبي بكر، حمدون بن الحاج، أبي عبد الله بن منصور، السلطان سليمان¹، درس بجامع القرويين صحيح البخاري والتفسير ومختصر خليل وغيرها².

حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج: (1174-1232هـ/1761-1817م) يكنى أبا الفيض ولد بفاس، وهو أديب متضلّع في الفقه والتفسير والتصوف وجعله محمد الطيب بن كيران في درجة الإمام البوصيري لمدحه للنبي (ﷺ)، وفي درجة لسان الدين بن الخطيب في الأمداح السلطانية وأخذ عن الشيخ الطيب بن كيران، محمد بن الحسن بناني، التاودي بن سودة وغيرهم، قام بأعباء الحسبة بفاس خير القيام³، من المقربين للسلطان سليمان الذي ولاه تدريس علم الحديث بجامع القرويين والصحيحين، وغيرهما من الكتب⁴.

أحمد بن التاودي بن سودة: (1153-1235هـ/1740-1819م) هو أحمد بن محمد التاودي بن سودة المري الفاسي، فقيه علامة نوازلي، نشأ وتعلم في حجر أبيه وهو عمده في كثير من العلوم كالتفسير والحديث وغيرها، أخذ عن محمد بن الحسن البناني وبوخريص وغيرهم وعرف بتمكنه في الفتوى والتدريس وبالصرامة في الحق وبالنصح للسلطين⁵.

الطبقة الرابعة: وتشمل العلماء الذين أدركوا وعاشوا في القرن الثالث عشر يظهر في هذه المرحلة الخطر الأجنبي بشكل جديد وأكثر فتكا من السابق في ظل وضع داخلي ينبئ بتراجع كبير شجع العدو في وضع الوثوب عليها، فبذل ملوك هذه الفترة جهودا للرفع من المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للبلاد، بتعميق الإصلاح في جامعة القرويين

¹ الأخضر، المرجع السابق، ص 345.

² بن هاشم الكتاني، زهر الأس...، المصدر السابق، ج2، ص 127-128.

³ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 98.

⁴ بوركية، المرجع السابق، ج1، ص 61-62.

⁵ الكتاني، سلوة الأنفاس...، المصدر السابق، مج1، ص 155-156.

لمواجهة الغرب المسلح بالعلم، خصوصا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر في 1830م وتلا ذلك معركة إيسلي عام 1844م وما صاحبها من تطورات¹، ومن علمائها:

محمد بن محمد بن إبراهيم المشنترائي: (ت 1241هـ/1825م) اشتهر بابن إبراهيم شيخ الإفتاء بالمغرب وحافظ المذهب، قاضي فاس ومفتيها، سلمت له الرياسة في الفتوى من معاصريه فسارت فتاويه في أقاصي البلاد ودانيها².

عبد الهادي العلوي: (ت 1272هـ/1855م) القاضي شيخ الإسلام عبد الهادي بن عبد الله العلوي المدغري، وإليه وجه السلطان عبد الرحمن ظهير إصلاح نظام التدريس بالقرويين ضليع في المذهب المالكي ضابط لقواعده، عارف بصناعة الأحكام وجامع للدواوين³.

محمد بن حمدون ابن الحاج السلمي: (ت 1274هـ/1857م) الفقيه العلامة الأديب، ولد بفاس ونشأ في حجر أبيه، حتى بلغ الأرب في العلوم النقلية والعقلية، فكان أستاذا مشاركا له باع وعارضة في العلوم⁴.

محمد كنون: (ت 1302هـ/1885م) شيخ جماعة فاس درس على يد محمد بن عبد الرحمن الفيلاي الحجرتي وعبد السلام بوغالب وبدر الدين الحمومي وغيرهم، أجمع عليه أنه مجدد العلوم الشرعية بالمغرب وكان يدعو للمعروف وينهى عن المنكر يحارب البدع وكان لا يخاف في الحق لومة لائم حتى الحكام مما أدى به إلى الزج بالسجن، لكن بسبب الطلبة أطلق سراحه⁵.

ذلك قيض من فيض العلماء الذين تداولوا على الكراسي العلمية بالقرويين والمدارس والمعاهد التابعة لها، ولكن من الكثرة ما لا يمكن حصره في هذه الصفحات، لهؤلاء الجهابذة من العلماء الذين وقفت عليهم عقارات وأراضي من أجل أداء مهمتهم على خير وجه.

¹ الناصري، المصدر السابق، ج8، ص 390.

² الحجوي، المرجع السابق، ج4، ص 131.

³ الكتاني، سلوة الأنفاس...، المصدر السابق، مج1، ص 156-157.

⁴ نفسه، ص 213-214.

⁵ الأخضر، المرجع السابق، ص 451.

ثالثاً. التقاليد العلمية:

لقد أوجدت القرويين أثناء مسيرتها الطويلة في بناء شخصيتها ميراثاً توارثته الأجيال لتكون كطقوس لحياتها العلمية، لها درجتها من القداسة والأهمية لتتحول وتصير تقليداً لا يقبل المخالفة، لذا بقيت العديد من العادات التعليمية على العهد المدروس استمراراً للقرون السابقة، إلا أنها اصطبغت بنوع من الأنية الخاصة، ومن تلك التقاليد نذكر:

1. شروط العالم والمتعلم:

تعددت في الفترة الحديثة كتب التربية والتعليم المؤلفة كأحمد بن عرضون في كتاب "مقنع المحتاج في آداب الأزواج" ومختصره، وكتاب "الأقنوم في مبادئ العلوم" لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت1096هـ/1685م)¹ وكتاب بلوغ أقصى المرام للطرنباطي (ت1214هـ/1799م)²، وكتاب الابتهاج بنور السراج لأحمد بن المأمون البلغيثي (ت1348هـ/1929م) شرح فيه أرجوزة سراج طلاب العلوم للعربي بن عبد الله المساري (ت1240هـ/1824م)³، واهتمت كلها بالصفات الواجب إقرارها في العالم والمتعلم. وأهمهم كتاب القانون لليوسي (ت1102هـ/1692) باعتباره أحد أساتذة القرويين وكان من العلماء المبرزين الذي تخرج على يده طبقة من العلماء في العهد العلوي طار صيتهم في الأفاق، فمن الأمور التي أوجبها اليوسي في الأستاذ وألزمها عليه: خشية الله الظاهرة والباطنة في أداء مهمته⁴، مع طهارة البدن والثياب، لتعظيم العلم وتبجيل الشريعة لا رياء أو فخر، أداء تحية المسجد والتسليم على الحاضرين، ويجلس مستقبلاً بسكينة وتواضع متربعا أو كجلسة التشهد أو غيرها، ولا يجلس جلسة تؤذن بالاستخفاف بالجلساء أو طيش كالعبث بالحية، أو إدارة الخاتم، وفرقة الأصابع وتشبيكهم، وكثرة الضحك والالتفات...⁵.

¹ حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 214.

² الطرنباطي، المصدر السابق، ص 223 وما بعدها.

³ بن المأمون البلغيثي، الابتهاج بنور السراج، ج1، طبعة حجرية لسنة 1313هـ، دون دار ومكان النشر، ص 8.

⁴ اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 326.

⁵ نفسه، ص 330-332.

كما يعطي لنا صورة عن سير الكراسي العلمية والتقاليد الواجب على الأستاذ إتباعها فيه كالتعوذ ثم البسملة فالحمدلة ثم التصلية والدعاء للجميع وللواقف إذ كان شرط المحبس، مع جهورية الصوت واسترساله باعتدال لا مسرع ولا مبطئ مغل، بحيث يفصل في كلامه ويقف ويعيد عند الحاجة، بعبارات مفهومة لمراعاة الحضور ومستواهم، ويصون مجلسه من اللغظ ويزجر المشتغل عنه، كما نبه على أمر مهم وهو قول: "لا أدري حين لا يدري" وهذا ليس خطأ من قدره وإنما إحاطة متعذرة، إذ هناك أشياء مجهولة وهي محل لا أدري¹.

ومن يتصدر أي فن يجب أن يكون من أهله لا مدعية وإلا صح عليه قول الشبلي: "من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه"، وعلى المدرس الإصغاء للقارئ في القدر المحتاج إليه ثم ينطلق في الاستفتاح فالتقرير والتصوير والتحرير، مع عدم القفز على البحث والإيراد، أو التسرع في الرد، حتى يكون كلام المدرس لو سطر لكان تصنيفا حسن الرصف².

أما الطالب فعليه بالاستعداد الظاهري والباطني لأنه الوعاء الذي يصب فيه العلم، الذي ينفعه في دينه ودنياه وآخرته، مع استغلال فترة الشباب بالتحصيل والمبالغة في الاجتهاد لطلب العلم، بتجنب ما يشغله عن طلبه بالرحلة مع الاكتفاء باليسير والقناعة والرضى بالقليل ولو بالضيق، ويستغل كل وقت بما يناسبه: "فأجود الأوقات للحفظ الأسرار وللبحث الأبحاث وللكتابة وسط النهار وللمطالعة والمذاكرة الليل"³.

2. أيام الدراسة والعطل بالقرويين:

كانت عادة انطلاق الدراسة بالقرويين في العهد الحديث مع بداية الخريف وفي المراكز التعليمية الدنيا يتولى افتتاح الدراسة الشيوخ والطلبة، أما في المراكز الكبرى فإن افتتاحها من صلاحيات شيخ الجماعة هو الذي يعين في الواقع ذلك، فهو بمثابة قيوم الأساتذة وعميدهم بعد استشارة قاضي المدينة الذي يكون غالبا من رجال التدريس⁴، وكانت بعض الدروس لا

¹ اليوسي، القانون...، المصدر السابق، ص 333.

² نفسه، ص 334-337.

³ الطرنباطي، المصدر السابق، ص 406-408.

⁴ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 111.

تتعطل في الصيف، بحيث يظل بعض الأساتذة على تدريسهم من حضر من الطلبة، ولكن الدراسة كانت تقوي خلال الفصل الدراسي الذي يستمر طوال فصل الشتاء والربيع، أي من نوفمبر إلى غاية ماي، فينتظم حضور الطلبة ويلقي الشيوخ دروسهم الوقفية (الرسمية) المأجورين عليها من مال الوقف¹، حتى أن القاضي الورياغلي عزل عن التدريس في القرويين بسبب اقتصاره على التدريس طوال شهرين أو ثلاثة معتمدا على أنه يستطيع أن يلهب نشاط الطلبة خلالها فيحصلون على ما لا يحصله غيرهم في تسعة أشهر، لذا عزل وولي مكانه الونشريسي².

ويعملون خمسة أيام في الأسبوع ويعطلون يومي الخميس والجمعة، ومن العلماء المتطوعة من يعقد مجالس إضافية في عطلة الأسبوع، كانت الدروس خاضعة في مجالها الزمني إلى توقيت الصلاة، لوقوعها بالمساجد وقاعات الدرس بها، وتنتطق الدراسة بعد صلاة الصبح وتنتهي بعد صلاة العشاء³، أي بعد طلوع الشمس بنحو ساعة إلى ما بعد الغروب بساعة وتفتح المكتبات العامة أبوابها بين صلاتي الظهر والعصر ليتمكن الطلبة من قراءة الكتب بين يدي القيم، ولم يكن يسمح لإعارة الكتب إلا للعلماء⁴.

العطل في القرويين: لقد أورد ابن زيدان في مصنفه العز والصولة رزنامة العطل التي كانت عليها المدارس والمعاهد آنذاك، وارتبطت العطل بالأعياد وسميت بالعواشر، فمن عطل القرويين عطلة عيد الفطر تبدأ من عشرين رمضان إلى السابع من شوال، وعيد الأضحى تبدأ من فاتح ذي الحجة حتى السابع عشر منه، وفي عاشوراء من صبيحة يوم العاشر إلى غروب اليوم الثالث عشر، وفي المولد النبوي من فاتح ربيع الأول إلى التاسع عشر منه يقام له احتفال كبير بالجامع، مع ثلاثة أيام من شعبان⁵، هذا إلى جانب العطلة الأسبوعية يومي الخميس بعد الزوال وكامل يوم الجمعة، وأربعين يوما في الصيف (الصمائم)، مع

¹. Gagne et Nejjar, Op.cit, P357.

² التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 436.

³ الوزان، المصدر السابق، ج1، ص 224.

⁴. Gagne et Nejjar, Op.cit, P357.

⁵. بن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج1، ص 77.

تعطيل ثلاثة أيام لوفاة شيخ، طالب متفوق، تهديد أمن البلاد فتن داخلية، ورغم تلك العطل فإن بعض من الأساتذة كانوا يلقون فنونا خفيفة على من حضر من الطلبة كالعروض مبادئ الحساب¹، والكتب كالسيرة، الحديث والتفسير على مستوى يتوافق والطبقة التي تؤوم مجالس من لا يعطلون².

إلى جانب تقليد عرف بعطلة سلطان الطلبة في منتصف أفريل وتدوم لأسبوعين على وادي الجواهر بفاس ويمرح فيها الطلبة وأساتذتهم مع سكان المدينة ويشاركهم حتى الملوك³ وهناك من يرجع هذا التقليد إلى الموحدين ليعرف نظام العطل تميزا في عهد بني مرين بترؤس ملوكهم للاحتفالات التي تقام تكريما للطلاب المتفوق غير أن صورة هذا المرح لم يكتس طابع النظام إلا في عهد السلطان الرشيد العلوي حيث كافأ طلبة القرويين لمساعدتهم في القضاء على إقطاعية ابن مشعل⁴، بتتصيب أحد منهم يكون سلطانا على رأس كل ربيع تقديرا منه لتضحياتهم، فدخل ذلك جامع القرويين وأصبح للطلبة عطلة الربيع لمدة أسبوعين من الضحك والبهجة في ظل نزاهات ربيعية⁵، مع تحقيق طلب أو رجاء يتقدم به سلطان الطلبة لسلطان المملكة يحاول إجابهته مهما كان نوعه⁶.

هذه أهم تلك العطل التي عرفت وأقرتها جامعة القرويين كتقليد في مسيرتها التكوينية للطلاب خلال السنة الجامعية، لترويح وشحذ الهمم ورفع المعنويات، والاستمرارية في طلب العلم من خلال هذه الفترات من الراحة التي حرم بعض الأساتذة والطلبة أنفسهم منها أحيانا.

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 437.

². حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 113.

³. Maclair et Bouchor, Op.cit, P161-162.

⁴. الأخضر، المرجع السابق، ص 69.

⁵. Benoit, Op.cit, P102-106.

⁶. العمراني، المقال السابق، ص 175.

3. الإجازات والختمات: ومن التقاليد التي احتوتها القرويين الإجازات والختمات

أ. الإجازة: هي دوام ما قد روي وذكر، بقاء ما قد كتب ونشر، فهي أنساب الكتب، ولولاها "لقال من شاء ما شاء"¹، وانطلقت مع سند الحديث هي أن يقول المحدث لغيره أجزت لك أن تروي عني كتابي أو هذا الكتاب، مبينا سنده بالشيوخ الذين أخذ عنهم وشيوخهم متسلسلين إلى غاية واضع العلم أو مؤلف الكتاب، ليتوسع المتأخرون من علماء المسلمين في إطلاقها على كل أنواع الرواية وشملت سائر العلوم النقلية والعقلية².

وتلك الإجازات أو الشهادات المؤرخة تعد بمثابة شهادات عليا مسلمة من قبل المعاهد المتخصصة اليوم، وتتميز الإجازات بأسلوبها البديع المبني على العبارات المختارة مع تواضع الشيخ المجيز والثناء على المجاز، وهي وثيقة تعترف بكفاءة المجاز، وتمنحه الثقة بالنفس للوصول إلى مرحلة التحصيل والإقراء، والاعتراف بتحصيل العلم، وساهمت هذه الإجازات في المحافظة على الأمانة العلمية وبث العلم ونشره، المحافظة على الإسناد خاصة رواية الحديث³، فكانت إجازات خاصة وأخرى عامة جامعة لعدة علوم⁴.

كما يحتفظ بها المستجيز ليستطيع أن يسلم للراغب نظيرتها في رواية كتاب معين عندما يصبح مقصودا بالأخذ والتلقي، ولكن التساهل سرى فيها مما جعل البعض يقرنها بشروط فكان اليوسي عند الإجازة يختم بقوله:

على شرطها المعهود في كل دورة***من الفهم والتحصيل والصدق في الذكر⁵.

والإجازات قد تبقى على حالها مكتوبة في ورقة أو وريقات، أو ينظمها صاحبها تنظيما حسب تواريخها والبلدان التي رحل إليها أو حسب أسماء المشايخ، وهذا التنظيم يأخذ شكل

¹ ذياب بن سعد آل حمدان الغامدي، الوجازة في الإثبات والإجازة، ط1، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1428هـ/2007م، ص 13.

² Gagne et Nejjar, Op.cit, P357.

³ أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709-1710م، تح: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي 2011م، ص 24.

⁴ Gagne et Nejjar, Op.cit, P357.

⁵ أبو المحاسن، "أعلام المغاربة - أبو علي اليوسي- 1014-1120هـ(1)" عن مجلة المغرب الجديد ع4، س1، جمادي الثاني 1354هـ/سبتمبر 1935م، تطوان 1354هـ/1935م، ص 24.

التأليف يسمى فهرسة أو معجماً أو ثبثاً أو مشيخة، فتضم أسماء شيوخ من مستوى علمي عال في العلوم الشرعية والأدبية مع التفصيل فيهم¹.

ب. التدبج: وهو نوع آخر من الإجازة، ويتمثل في أخذ العلماء عن بعضهم أو الطلبة فيما بينهم، أو ما بين الفئتين في علم أو عدة علوم رواية أو غيرها وهذا يعرف بالتدبج، فابن القاضي تدبج مع عدد منهم كعبد الواحد السجلماسي ومع محمد بن أبي بكر التواتي، فأخذ الحساب والفرائض وابن القاضي أخذ منه صحيح البخاري، ومع الأمير زيدان بن المنصور فقد أجاز ابن القاضي جميع ما يحتوي عليه فهرسته "رائد الفلاح"، وروي هذا الأخير عن الأمير أشعاره وأخباره، كما تدبج مع يحيى بن علي بن يحيى الخصيبي²، كما تدبج علماء المغرب مع علماء المشرق مثل الشيخ محمد التاودي بن سودة (ت1209هـ/1795م) عندما حج في 1191هـ/1777م مع كل من محمد بن عبد الكريم السمان المدني...، وبمصر مع أحمد الدمنهوري وعلي الصعيدي³.

ج. حفل الختم: وتتكلل مجالس العلم والدروس بيوم عظيم مشهود يسمى "يوم الختمة" وهذا اليوم الذي يتم فيه الشيخ ختم الفن أو الكتاب، ويختار الأستاذ درس الختمة حتى يكون له أكثر التأثير ويؤديه أمام المشايخ والعلماء وحتى أمام الملوك والأمراء في حفل مشهود، فهذا الدرس كأطروحة يتقدم بها الشيخ أمام منافسيه وأصدقائه، فعليه بالحرص على الشمولية الكاملة، ويتكون الدرس الختم من ثلاثة عناصر:

*. ترجمة وافية لمؤلف الكتاب الذي يحتفل بختمته، كدراسة مؤلفاته وأسانيده المتصلة بالرسول (ﷺ)، أو بإمام مذهب أو غيرها.

*. استعراض الشيخ ماله من إجازات وروايات في الموضوع مع قراءة أسانيده المختلفة المتسلسلة إلى مؤلف الكتاب.

¹. بن محمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 24.

². بن القاضي، المنتقى المقصور...، المصدر السابق، ص 755.

³. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج 1، ص 416.

*. تحليل مفصل للموضوع، وعادة من يركز على نص صغير من سورة، حيث، يفرغ الشيخ جهده في الشرح والتأويل والتخريج والتعليل¹.

وكأمثلة على ذلك يوم الشيخ الحافظ أبي العباس أحمد بن علي الزموري عندما تقدم لختمة تفسير الإمام الرازي، فقد حضرها ولي عهد السلطان المنصور السعدي الأمير محمد الشيخ المأمون فكان يوما عظيما، وحضره الإمام السراج، القاضي الحميدي وغيرهما، وذكر شيخ المجلس ثلاثة وعشرين تأويلا² في تفسير الآية: "وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا"³.

وكختمة القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي في قبة من دار السلطان إسماعيل يوم الأربعاء 9 جمادي الأول 1099م/1688م ودعا السلطان علماء فاس لحضورها وهيا لهم من رفيع الفراش وأنواع الطعام، وفرق المال فكانت مشاهدة جليلة وصناعة جميلة⁴ وبإنهاء الختمة يحمل الطلبة صاحب الختمة على أكتافهم نحو بيته وتقام المآدب ويقدم الحليب والتمر للزوار الذين يتوالون على الشيخ بهداياهم وعطاياهم فيكون حديث المجلس بالمدينة⁵.

ليرتبط هذا التقليد بختمة أي كتاب ففي نهاية رمضان تتم ختمة قراءة صحيح البخاري في ليلة السابع والعشرين وتجزل فيها العطاءات والصلات من طرف السلاطين، وتلقى القصائد لتهنئ بختم الكتاب، كما يمنح لهؤلاء العلماء مختلف الإنعامات والكساوي لهم ولذويهم⁶.

تلك بعض الصور من التقاليد المتعارف عليها في الحقبة الحديثة والتي تقريبا لا تزال ولكن بصور أخرى، وهذا يؤكد على أن هذا الصرح ما كان ليطلق عليه إلا اسم الجامعة، لها مجالسها العلمية ورجالها الذين يرتادونها وتقاليدها التي يجب إتباعها.

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 114.

². التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج2، ص 431.

³. سورة البقرة، الآية 275.

⁴. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج2، ص 357.

⁵. Gagne et Nejjar, Op.cit, P358.

⁶. بن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج1، ص 183.

الفصل الثالث: القرويين والقضايا الدينية والعلمية (10-13هـ/16-19م)

تمهيد:

لقد تفاعلت جامعة القرويين فكانت طرفا في نصرة الحق في مختلف القضايا العلمية والدينية التي طرحت على المستوى المحلي أو الإسلامي في الفترة الحديثة، وكان للقرويين موقفها المبني على توجهها في إطار المذهب المالكي الوسطي، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه في هذا الفصل من خلال العلاقات التي ربطتها القرويين مع العرب والغرب، وموقفها من بعض النوازل العلمية والدينية التي شغلت حيزا زمنيا ومكانيا.

أولا. صلات علماء القرويين بالخارج:

لقد ظلت فاس المركز الثقافي لغاية الوقت الحاضر ولم يكن المغاربة وحدهم الذين يقصدون مدينة مولاي إدريس بقصد التعلم، بل نافسهم فيها جيرانهم لنفس الغرض¹، وليس من طبيعة ديننا الاقتصار على الروحية وحدها، فلقد جمع بينها وبين المادية التي تصلح للمرء في معاشه ومعاده، وذكر المؤرخون أن الطب والرياضة والجغرافيا والتاريخ... كانت ضمن العلوم التي تدرسها تلك الجامعة، فقد أثنى الرحالة البلجيكي كليتار الذي زار فاس مدينة العلم والنور عام 948هـ/1541م وتحدث عن جامعتها، وعن أساتذتها وطلابها وتطرق إلى العلوم المدرسة بها، من علوم دينية وفروعها، والعربية ببلاغتها وفقهها، إلى الطب والرياضيات والجغرافيا والتاريخ...².

1. صلات القرويين مع المشرق:

إن الاتصال بين المغرب والمشرق لم ينقطع منذ الفتح خصوصا مع بروز جامعة القرويين وتواصل إلى هذا العهد، فقد دخلها الأندلسيون القادمون من الشمال على إثر قرار

¹. روم لاند، المقال السابق، ص 28.

². إبراهيم الجمل، "اتجاه جديد بجامعاتنا الدينية"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، ص5، جمادي الأولى 1381هـ/نوفمبر 1961م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1961م، ص 19.

فيليب الثالث في 1018هـ/1609م وحملوا معهم ألوانا من الثقافة لم تكن جديدة فقط بل نادرة كعلم القراءات والطب والموسيقى والترجمة، وشاركوا في بعثها من جديد كعلم القراءات من التلقين الشفوي لمختلف القراءات والروايات وتجويد القرآن ورسمه وضبطه، وتعاليم الأطباء فأحيوا الدراسات الطبية والصيدلانية بالمغرب خاصة بفاس ومراكش، حتى أن ملوك السعديين قربوا أطباء الأندلسيين واتخذوهم أطباء القصر، ما شجع نشاط هذا الجانب من تطبيب وصنع أدوية وتأليف فيها، مع شغفهم بالموسيقى والطرب فطوروا اللحن والأشعار والأزجال¹.

وقد دخل من تلمسان ووهران والجزائر وقسنطينة وعنابة وتونس علماء استقروا بفاس وأدخلوا معهم علم الكلام الذي برز فيه بتلمسان الإمام محمد بن يوسف السنوسي (ت895هـ/1490م) وأنتج عقيدة أهل التوحيد في العقيدة الكبرى والوسطى وأم البراهين (العقيدة الصغرى)، والمقدمات (صغرى الصغرى)، فنشر تلاميذته هذه الكتب فاعتمدها علماء فاس والعامّة، وراجت بينهم وكتبت عليها شروحا وتعليق عديدة وعقيدة السنوسي كانت محط اهتمام الدارسين بالفترة الحديثة، فأحيوا أبواب علم المنطق ومباحثه الفلسفية التي كادت أن تنطمس معالمه، ونشروا أساليب علم البلاغة وقواعدها فأمسى طلبتهم أئمة هذا الفن ومؤلفاتهم مراجع².

فدخلها أحمد بن محمد بن جيدة الوهراني (ت955هـ/1548م) وتولى كرسي ابن غازي للحديث بالقرويين ودرس الفقه والعقائد، وعلي بن عيسى الراشدي (ت961هـ/1554م) الذي دخل فاس عام 911هـ/1506م، وألقى دروسا في مبادئ النحو والقراءات، وأسند له كرسي القراءات والسير بمسجد الشرفاء، وأكثرهم شهرة ومقام لدى العلماء والولاطين السعديين محمد بن عبد الرحمن بن جلال التلمساني (ت981هـ/1547م) المتولي للفتوى والإمامة والخطابة

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 65-67.
² نفسه، ص 68-69.

والتدريس بالقرويين، ومن تونس محمد بن أبي الفضل بن خروف (ت966هـ/ 1559م) الذي وقع إقبال عليه داخل القرويين¹.

وفي نفس الوقت كان يقوم علماء القرويين في التردد على تونس ومصر والحرمين الشريفين لربط أواصر الصلة مع زملائهم بتلك الديار، فقد ظل اسم أحمد المقرئ متولي الفتوى بفاس والمتوفى بمصر (1041هـ/1632م) يرد على كل لسان ذاكراً للمغرب الإسلامي، فقد أُملى الحديث بالمدينة المنورة عام 1037هـ/1627م وصحيح البخاري بالجامع الأموي بدمشق عام 1039هـ/1629م²، كما ظل اسم الرحالة العياشي(ت1090هـ/1679م) منقوشاً على كل عتبة بالمشرق بما سجله من انطباعات وما حققه من لقاءات، وما قام به الشيخ الجامعي(ت1144هـ/1731م) من ربط بين جامعة القرويين والزيتونة، وكذا زيارة محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي(ت1144هـ/1731م) والنقاشات الجادة مع علماء الأزهر وخاصة مسألة شرب الدخان³، وعند احتلال الأسبان تونس فإن عالمها أبا الطيب الظريف التونسي واعظ جامع الزيتونة قد رحل لفاس ورحب به قاضي الجماعة بفاس أبو الحسن علي بن هارون⁴.

وما تركه أبو الحسن علي بن مسعود اليوسي(ت1102هـ/1690م) على اثر حجه في 1101هـ/1689م من ملاحظات جعلته يلقي عصا التسيار، ويقتنع بعدم وجود من يستحق بأن تشد إليه الترحال بالمشرق للأخذ عنه، مفضلاً المغرب على أنه أحسن وأفضل البيئات للقيام بدوره العلمي⁵ وما تحدث عنه العلامة أبو محمد الشرقي الإسحاق(ت1151هـ/1738م) في رحلته على حواراته مع علماء المشرق بمختلف طبقاتهم ومذاهبهم، مفضلاً حالة المغرب باقتصارها على المذهب المالكي في الفروع والإمام الأشعري في العقيدة، كما

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 356-357.

² بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص 538.

³ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 730.

⁴ الافرائي، نزهة الحادي...، المصدر السابق، ص 121.

⁵ أبو المحاسن، "أعلام المغاربة - أبو علي اليوسي- 1014-1120هـ(1)" عن مجلة المغرب الجديد ع4، س1، جمادي الثاني 1354هـ/سبتمبر 1935م، تطوان 1354هـ/1935م، ص 24.

حضر الإسحاقى مجالس العلم فى الأزهر الشريف، ولاحظ أن ما يقدم فى هذا الأخير لا يرقى إلى ما كان عليه نظيره بالقرويين من فطاحلة الرجال والعلماء¹.

وكذا الشيخ أبو العباس المكودي (ت1170هـ/1756م) الذى ربط صلات قوية مع علماء الزيتونة، فكان قدوة مغربية لرجال الفكر التونسيين وأبو القاسم العميري (ت1178هـ/1764م) قاضى الركب الأميرى الذى كان له فى كل بلاد مجلس ومناقشة وترك أصدقاء له هناك ومحمد بن سودة المري الذى نزل مصر سنة 1178هـ/1764م فأقام درسا حافلا بالأزهر برواق المغاربة فى الفقه المالكي، وكذا البعثات الرسمية للمشرق كبعثة السلطان سليمان كرد فعل على الرسائل الحجازية التى أرسلها الأمير عبد الله بن سعود حول الوهابية إلى بلاد المغرب والعراق والشام ومصر وحملت معها بعثة من العلماء الأجلاء مثل القاضى أبي الفضل العباس بن كيران، الفقيه أبي عبد الله محمد العربي الساحلي وكثيرا من غير هؤلاء فى معجم أعلام القرويين وعليه لم تتوقف الاتصالات على الإطلاق بالرجال فى الخارج حتى فى أحلك الظروف وأكثرها تدهورا².

لتهتز فاس لمقدم العلامة أبي إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي³ فى 1218هـ/1803م على رأس وفد للسلطان سليمان الذى وجهه لزيارة القرويين للتعرف على علمائها وفيهم الشيخ الطيب بن كيران وراج بينهم من مباحث علمية، ما أبان فضله وغيرة علمه وكانت له مناظرة مع الشيخ عبد السلام حركات⁴، وابن السنوسي (ت1276هـ/1859م) الذى ورد على القرويين طالبا، ليعود إليها بعد رحلته للمشرق مقتنعا بالدعوة للإصلاح فاتصل برجالها وحضر السلطان الحسن الأول دروسه الحديثية بمدينة فاس بحيث طالب بوجوب إصلاح العقيدة وفتح باب الاجتهاد والأخذ برأي الدعوة السلفية وكانت بمكان علماء القرويين وطلبته تقبل مثل هذه الأفكار الواردة⁵.

¹ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 730.

² منصور، "الحركة الوهابية..."، المقال السابق، ص 184-488.

³ الرياحي: (ت1266هـ/1849م)، شيخ الجماعة بتونس. (ينظر: التازي، جامع القرويين، مج3 ص 811).

⁴ بن عبد الرحمن السائح، المنتخبات العبقريّة، المرجع السابق، ص 87.

⁵ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 726-734.

غير أن ثمارها ستظهر فيما بعد عودة الشيخ أبي شعيب الدكالي من المشرق وتأثره برجال الجامعة الإسلامية، فدعا لتحرير الفكر وفهم الدين على طريق السلف، والقضاء على الخرافات والبدع ودعوى الصوفية مع إصلاح كتب العلم وطرق التعليم، فدرس القرآن والتفسير، فتمكن خلال ثلاث سنوات من تكوين مدرسة لأفكاره وعليه ظهرت حركة تدعو القرويين إلى القيام على البدع وتدعو بوضع نظام إصلاحي للتعليم بالقرويين¹.

2. صلات القرويين مع الغرب

استقبل المغرب عدة بعثات أجنبية علمية من خلال الرحلات لتعلم العربية أو طليعة الاستشراق²، وأسهم بعض العلماء الذين وقعوا في الأسر مثل الوزان المعروف بـ "ليون الإفريقي" في مساعدة طلبة "بولونيا" بإيطاليا على التعرف على العربية وتقاليد الإسلام والمسلمين، وكتابه "وصف إفريقيا" ضمنه تلك النواحي، وما قام به كوبيس خوليس الهولندي أثناء زيارته لفاس وحمل منها من نفائس المخطوطات النادرة كان لها أثر في جامعة هولندا كما أرسلت جامعة لوفان (بلجيكا) نيكولا كليمار في 1535م لفاس لتحسين معارفه ومعلوماته ليعود أستاذا قويا في اللغة العربية ورغم عدم عودته فإن رسائله نشرت في ثلاثة مجلدات وكذا سيلفستر الثاني الذي أدخل الأرقام العربية لأوروبا³، ومنهم:

كيوم بيرار (ت 999هـ/1591م) الطبيب الجراح الذي تعرف بعبد الملك باسطنبول، أصبح طبيبه الخاص، وعين قنصلا لفرنسا، أتقن العربية وقد أخذ عن أبي القاسم الوزير الغساني وعبد الغني الزموري وعلي بن إبراهيم الأندلسي، وطلب كتب الطب العربية كابن سينا ورشد وابن زهر، والطبيب و"ارنولت دوليست" (Arnoult de Liste) (ت 1022هـ/1613م) خلفا لسابقه كطبيب للمنصور ما بين 1588-1599م، تزلع في اللغة العربية، فكان أول أستاذ للغة العربية بالمعهد الفرنسي (College de France) بباريس، والطبيب و"إتيان هومبارت" (Etienne Humbert) (ت 1023هـ/1614م) جاء أيضا خلفا لسابقه في 1006هـ/1598م

¹. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 735.

². حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 71.

³. Berque, « Ville..., Op.cit, P67.

في بلاط أحمد المنصور، تعلم العربية وأخذ معه عددا كبيرا من المخطوطات، وعين أستاذاً في كلية الطب بجامعة باريس¹.

يعقوب كولبوس (ت1071هـ/1667م) الهولندي أخذ العربية عن أربانيوس واهتم بدراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية عند العرب، وصحب سفير بلاد هولندا للمغرب² خلال 1622-1623م رغبة لإتقان اللغة العربية، وحمل معه عدة كتب نادرة عن العلوم الرياضية والاسبانية وأسند إليه كراسي اللغة العربية بجامعة "لايد" بعد وفاة أستاذه أربانيوس، وكان ملازماً للسفارة المغربية التي أقامت بلاهاي خمسة أشهر عام 1069هـ/1659م وألف وترجم عدة كتب من أهمها معجم عربي لاتيني ظل مدة مرجعاً للمستشرقين³.

كما دخلها باديا ليليش (D.Badiay. Leblich) المعروف باسم "علي باي العباسي" في عهد السلطان سليمان عام 1217هـ/1802م اعتبر فاس مثل أثينا بأوروبا لكثرة أساتذتها واكتظاظها بالمدارس والطلبة، وكان لمشايخ علماء القرويين تأثير في تدريسهم بالمجالس العالية التي عرفت بها العهود الأولى، فقد كانوا يتعبون طلبتهم من أجل حملهم على أخذ الطريق الأصعب⁴.

ليكن الابتعاث العلمي في القرن التاسع عشر ميلادي بعد الهجمة الشرسة على الجزائر وتداعياتها على المنطقة، فقام السلطان محمد الرابع بأول تجربة للابتعاث إلى مصر القاهرة في أيام محمد سعيد، واقتفى الملك الحسن الأول أثار والده في ذلك بإرسال بعثات علمية معتمدة نحو أوروبا (انجلترا، فرنسا، اسبانيا، إيطاليا)⁵، إلا أن طبيعة البلاد الإسلامية ونظرتها للمغرب فوتت عليها نهضتها.

¹. Caillé, Op.cit, 1^{er} série, P109-113.

². حجي، الحركة الفكرية، المرجع السابق، ج1، ص 73.

³. عبد الهادي التازي، " من التاريخ الدبلوماسي حول الشريف العباسي"، عن مجلة دعوة الحق، ع7، ص15، ذو الحجة 1392هـ/ جانفي 1973م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1973، ص 141.

⁴. El-Abbassi, Op.cit, T1, P15.

⁵. التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 731-732.

ثانيا. القرويين والمسائل الفقهية:

شغل علماء وفقهاء القرويين بعدة مسائل ظهرت بين الناس مرتبطة بالحقل العلمي وبالخصوص بالجانب الفقهي، لارتباطها بالعبادات والسلوكات والمعاملات بين الأفراد، لذا تدخلت القرويين في هذا الباب من الجهة الشرعية، وبعض المسائل التي كان لها صدى واسع بتحولها من المغرب نحو المشرق أو في الاتجاه المعاكس، لذا سنحاول أن نقف على نماذج من تلك المسائل الفقهية وموقف علماء فاس وغيرهم منها.

1. على المستوى المغربي:

أ. العمل المغربي:

العمل عند الفقهاء يعنى العدول عن القول المشهور أو الراجح في بعض المسائل المذهبية إلى القول الضعيف فيها، مراعاة لمصلحة الأمة¹، فكان أول عمل أهل المدينة المالكيين ثم عمل أهل العراق الحنفيين وعمل أهل مكة الشافعيين... غير أن أولهم أكثر شهرة²، وقد انتشر هذا العمل وذاع، فغطى تأليف العلماء والفقهاء منذ ق5هـ/11م³ كالوليد الباجي في كتابه "مناهج الأحكام" وعيسى بن سهل النوازلي (ت486هـ/1093م)، إلى ابن عاصم (ت829هـ/1425م) وعلي بن قاسم الزقاق (ت912هـ/1506م) في لاميته واقتبس فيها عمل أهل الأندلس⁴.

ثم جاء أحمد بن القاضي (ت1025هـ/1616م) فألف كتاب "نيل الأمل فيما به بين الأئمة جرى العمل" وبعده العربي الفاسي (ت1052هـ/1642م) في كتيب حول شهادة اللفيف ليؤلف بعده الشيخ ميارة (ت1072هـ/1661م) "رسالة تحفة الأصحاب والرفقة، ببعض مسائل بيع الصفقة"، فتتابع ذلك بتأليف الشيخ عبد الرحمن الفاسي منظومة فيها ثلاثمائة مسألة مما جرى به العمل بفاس جامعة لما سبق⁵، لذا فالعمل اقتبسه المغاربة منذ ق8هـ/14م عن

¹ حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 210.

² بن عبد الكريم الجدي، المرجع السابق، ص 341.

³ Berque, Essai..., Op.cit, P37.

⁴ بنعبد الله، فاس منبع ...، المرجع السابق، ج2، ص 641.

⁵ نفسه، ص 641.

الأندلسيين، وطوره ليتوافق مع ما تعارفت عليه فاس في غير المشهور في المعاملات وغيرها، بناء على المذهب المالكي الذي شغف المغاربة بفقهه ومسائله، ليتحول للعمل المطلق¹ بتأليف أبي القاسم السجلماسي².

ولا يصبح عملاً إلا إذا جرى بقول راجح أو من قاض مجتهد الفتوى بين وجه ترجيح، ما عمل به لتمييز المصلحة من المفسدة وسد الذريعة إليها، ويقف على ما هو في الضروريات والحاجيات والتحسينات³، وجمع قضاياه عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي في كتابه الشهير "العمل الفاسي" ومنها:

*. شهادة الابن مع أبيه: المشهور في المذهب المالكي أن شهادة الأب والابن تعتبر كشهادة شخص واحد لكن الأندلسيين خالفوا ذلك، وظهرت في المغرب على أيام السلطان المنصور عندما جلس ابن أحد الفقهاء المدرسين بالقرويين مع أبيه في حانوته بسماط العدول، بإذن من قاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي مستندا لقول ابن عاصم في تحفته:

وشاع أن يشهد الابن في محل *** مع أبيه وبه جرى العمل.

وابن عاصم قال أن شهادتهما جائزة ولا يتهم أحدهما يريد إتمام شهادة الآخر وبهذا القول جرى العمل، واتبع في ذلك صاحب المفيد عن مطرف وابن ماجشون⁴، وقد عارضهم المفتي السراج، وكان دأبه الوقوف على المشهور في المذهب بالاختصار على ما في خليل وتصاعد الخلاف بين القاضي والمفتي فرفع للسلطان المنصور في ديوان القصر بفاس الجديد اجتمع الفقهاء من فاس ومراكش وتناظروا حول هذه المسألة ورجحوا رأي القاضي لعلمه بصناعة التوثيق وتدربه عليها بالمباشرة بالعمل والممارسة، مادام كل من الأب والابن

¹. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 210-211.

². محمد بن أبي القاسم: كان فقيها محررا وناقدا واسع الاطلاع، توفي بالوباء في 1214/1800م. (ينظر: الحجوي المرجع السابق، ج4، ص127-128).

³. Berque, Essai..., Op.cit, P38.

⁴. السجلماسي، المخطوط السابق، و 74.

متوفر على شروط المسألة المنصوص عليها، وحتى أمر تعديل العدول أو تجريحهم واقع تحت نظر القاضي، فانفصلوا على رأي فقهاء الأندلس فجرى العمل به بالمغرب¹.

وليس السراج الوحيد الذي قال بالمنع، فأيده القاضيان أبو فارس عبد العزيز الفيلاي وأبو القاسم ابن النعيم عن السجلماسي نقلا عن شيخه ابن سودة، غير أن ما انفصل عليه المجلس السابق جرى به العمل بوقوع شهادتهما إلى وقت صاحب العمل الفاسي الذي قال:

الإبن مع أبيه في محل *** قد يشهد أب مع قبول كل.

وعلق عليها شارحه على أن جملة من العلماء قد أجازوا ذلك كابن ماجشون مطلقا واشترط مطرف عدم التبريز، وابن فرحون وصاحب التحفة وابن سلمون وابن رشد في اللباب وميارة في شرح التحفة، كما ذكر في معين الحكام بأن القول بكون شهادة الأب مع ابنه شهادتين أعدل من القول بأنها شهادة واحدة، غير أنه هناك من كان يقول بالمنع كأبي الحسن والمتيطي في نهايته²، ورغم ذلك فإن هذا العمل اعتمد عليه في فاس وجرى به العمل

*. شهادة اللفييف: قال فيها صاحب العمل الفاسي ما نصه:

بينة اللفييف منها بادية *** فيها كفى استفسارها عن تركية

وعلق عليه شارحها السجلماسي على أنها شهادة كثير من الناس لا تتوفر فيهم شروط العدالة المقررة بحيث يحصل بها العلم على وجه التواتر، وصورتها أن يأتي رجل باثني عشر رجلا³ إلى عدل منتصب للشهادة، فيؤدون شهاداتهم عنده ويضع أسماءهم عقب تاريخه، ثم يكتب رسما آخر أسفل الرسم نفسه ثم يضع عدلان إمضاءهما في أسفل الرسم الثاني وسميت باللفييف لاجتماع من يصلح للشهادة من اختلاط الناس فكأنما لف بعضهم إلى بعض⁴، وعددهم تغير بتغير الزمن ليصل إلى أربعين أحيانا ويكتفي باثني عشر غالبا واستقر العمل بهذا الأخير⁵.

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 317.

². السجلماسي، المخطوط السابق، و 74-75.

³. الونشريسي، المصدر السابق، ج10، ص 156.

⁴. Berque, « Ville... », Op.cit, P94.

⁵. السجلماسي، المخطوط السابق، و 104.

وشهد العربي الفاسي في أوائل ق11هـ/17م، مناظرة حول شهادة اللفيف بمجلس قاضي الجماعة بفاس علي بن عبد الرحمن بن عمران وحضره أحمد المقرري وإبراهيم الكلالي وعبد الواحد بن عاشر، وخرجوا بقول القاضي ابن عمران أن اللفيف لا مستند له، وإنما شيء اصطلاحه المتأخرون لتعذر وجود العدول كما هو الشأن في البداية وبعض الحالات الخاصة الحاضرة واعتبر لا أصل له¹.

وقد انتقد الفقهاء هذا العمل ولم يكونوا جميعاً راضين عليه، وقال الجلالى أنه أدرك أشياء منعوا من قبول شهادة اللفيف مطلقاً في كل المعاملات حتى اشتكى الناس من ضياع الحقوق والأموال، إلا أن هناك من أجازها كالقرافي وابن هلال وأجيزت هذه الشهادات عند الضرورة، رغم تمايز أحكامها وشروطها مما ذهب إليه المتقدمون من استحسان وما ألحقه بها المتأخرون من قياس².

فهي تقام في حالة عدم حضور العدول أو لا يقصد حضورهم، وكانت في البداية على الأموال وتقرن باليمين، حيث قال صاحب العمل:

وشاع فيما ذكر الجلالى *** تخصيص ذا اللفيف بالأموال

وعنه تحليف الذي شهد له *** مع اللفيف قد وجدنا عملـه

لتنعدها فيما بعد شهادة اللفيف للنكاح والطلاق والرضاع والتسفيه والترشيد وغيرها... مع المحافظة على اليمين كقرينة في تحقيق الشهادة، لضمان حقوق الناس، حيث قال صاحب العمل:

وحلف ابن سودة الشهودا *** في اللفيف ليحوز زيد³

وشيوع هذا النوع من الشهادة ليس مرده إلى قلة العدول فقط، بل لأنهم لا يهتمون بالتوثيق بقدر اهتمامهم بالمال وجمعه فارتكبوا أفضع الجرائم وشهادة الزور فأصبحوا مثل العامة⁴ وعلى ذلك نجد الونشريسي في معياره يجعل لكل زمن عدوله، مستدلاً بعدم قياس عدالة

¹. السجلماسي، المخطوط السابق، و 103.

². Berque, Essai..., Op.cit, P 39-40.

³. السجلماسي، المخطوط السابق، و 105-106.

⁴. Berque, Essai..., Op.cit, P 53.

الصحابة والتابعين بعدول الوقت لتباينهم في الاتصاف بالتقوى والمروءة، ومنه لابد من اعتبار عدول كل زمان بحسبه¹.

وبسبب تهاون هؤلاء العدول الذين طلبوا المال ضاعت الحقوق، فإن السلطان محمد بن عبد الله العلوي في منشوره قد شدد على العدول والموثقين في تحرير الشهادات والاعتماد على التحري فيها ما أمكن، وأمر بعدم الأخذ بشهاداتهم في كثير من المسائل التي تلوح عليها سمات البطلان ويحوم حولها الشك، إلا أن تكون تلقيت بمحضر القاضي وموافقته بسبب الاستهتار بحقوق الناس، وكل هذا من أجل أن تؤدي الشهادة على وجهها²، فعمل على حفظ حقوق الناس، ولاسيما في الأحوال الشخصية كعقد الزواج بالفاخرة وعدم الحكم بالطلاق إلا بعد التحري من وقوعه فعلا، مما يهدف إلى صيانة العلاقة الزوجية من التلاعب والمحافظة على بناء الأسرة من الانهيار³.

إلى جانب هذا هناك الكثير من المسائل العلمية الفقيه التي تجاذبها علماء فاس وغيرهم من علماء المسلمين، والتي أوردها شارح العمل الفاسي وجري بها العمل وحكم بها قضاة فاس بالاعتماد على غير المشهور بجواز الضعيف منها خدمة للمصلحة العامة، من تلك المسائل كالحبس والهبة وما يلحقهما، القضاء واليمين والشهادة، الصيد والجلسة والجزاء والخلو والزينة والمفتاح وقد تطرقنا لهذه الأخيرة في القسم الثالث من هذه الدراسة في قضية الوقف وطرق تنميته واستغلاله فأنظرها فيه⁴، ومسائل الوصايا وأحكام الأوصياء والمحاجير وغيرها⁵.

¹ أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب

ج10، إخراج جماعة فقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1401هـ/1981م، ص 204.

² عبد الله كنون، " الملك العبقري محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع5، س10، ذو الحجة 1386هـ/ أفريل 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م، ص25.

³ كنون، ذكريات...، المرجع السابق، ج3، ص 1536.

⁴ ينظر حولها في: القسم الثالث، الفصل الثالث، ثانيا. المسائل الاقتصادية، قضية الوقف، ص307.

⁵ ينظر لمزيد من التفاصيل ينظر: السجلماسي، المخطوط السابق.

وقد دافع أبو حامد الفاسي على هذا العمل وأظهر مزاياه وفوائده¹، وهو الأمر الذي جعل من بعض الكتاب المتأخرين كالفقيه الحجوي (ت1376هـ/1956م) في تأليفه الفكر السامي يبيث أسباب تراجع الفقه بالمغرب الأقصى وهو التحول عن الأصول للفروع المبنية على التقليد ومنها إلى فقه العمليات التي أجهزت عليه، باعتماد القضاة الحكم به مقلدين القول الضعيف مخالفين للراجح والمشهور لأمر اقتضاه².

ب. مفهوم كلمة الإخلاص:

ومن المسائل التي شغلت العامة والخاصة وكثر الحديث فيها وألفت كتب حولها تأييدا أو ردا، حتى أقيمت لها مناظرات كلامية فقهية حول "مفهوم كلمة الإخلاص" وانطلق الخلاف عندما كتب العالم محمد الخروبي الجزائري رسالة عنوانها "رسالة ذي الإفلاس إلى خواص مدينة فاس" وألفها عند وفادته إليها، فاعترض المتكلمون من فاس عليها وخاصة الشيخ عبد الله الهبطي كان بها لدعوة السلطان محمد المهدي الشيخ له، وكتب فيها ردا التمس العذر فيه للخروبي³.

كما اعترض محمد اليستيني على كلام الخروبي، فكتب الهبطي رسالة مطولة إلى اليستيني ينتقده فيما ذهب إليه حول كلمة الإخلاص، ما جعل اليستيني يغضب ويتهم الهبطي بالزيغ فاحتدم الخلاف بين الطرفين وتحزبوا لكل طرف، فوصل الخبر لمسامع السلطان محمد الشيخ فأمر بعقد مناظرة بحضوره بين الهبطي واليستيني، وقد كاتب محمد بن عيسى التملي وقائد شفشاون وابن راشد للسلطان، ووشوا بالهبطي عنده زاعمين أنه ممن يخشى منه على ملك⁴.

كما اتصل هؤلاء الثلاثة بالفقهاء الذين يحضرون المناظرة وأوهموهم أن السلطان عازم على إهلاك الهبطي، حتى لا ينتصرون له أو يستصوبون رأيه، اجتمع المجلس بالقصر الملكي بفاس بحضور السلطان، وتولى الكلمة محمد اليستيني بشرح المسألة من وجهة نظره

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 305.

². الحجوي، المرجع السابق، ج4، ص 4-5.

³. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 282.

⁴. نفسه، ص 283.

والفقهاء الحاضرون يدعمونه حتى انتهى إلى عرض الهبطي دون ترك مجال له بالكلام فأصدر عبارات موهمة من كلامه يؤولها كيف شاء وانتهى باستنتاج أن الهبطي قائل بثبوت المعبودات الباطلة ورماء بالكفر وأفتى بوجوب قتله، فلم يجد الهبطي سوى خروجه مسرعا من المجلس إلى مسجد المشور أو القصر وقد ألح اليستيني على السلطان في قتله، وحملت إلى الهبطي وهو بالمسجد رقعة كتب فيها أنه يتخلى عما قاله، فوقعها بعد أن كتب عبارة: "قلدت في ذلك السلطان واليستيني".

ثم رجع إلى قريته فلم يغادرها حتى مات، وقد ألف الهبطي عدة كتب في معنى كلمة الإخلاص منها: الإشادة بمعرفة مدلول كلمة الشهادة، رسالة في معنى لا إله إلا الله، تقييد في الهيلة، ولم ينته الجدل حول هذا الموضوع طوال العصر السعدي وحتى في عصر العلويين، مما جعل الحسن اليوسي يؤلف كتابه الشهير: مشرب العام والخاص في كلمة الإخلاص" جامعا فيه خلاصة ما قيل في الموضوع ما لدن مناظرة الهبطي واليستيني إلى أيامه¹ منهيًا ذلك الجدل.

2. على مستوى العالم الإسلامي:

أ. مناظرات فقهية: مسألة القبلة في فاس: لقد شغل أمر قبلة فاس عديد العلماء وفقهاء فاس، التي ترجع إلى فترة تأسيسها، حين بنى إدريس الثاني محراب مسجدي الأشياخ والأشراف جهة الجنوب بدل الشرق، واتبعت عدة مساجد نفس تلك الجهة كمحراب جامع القرويين والأندلس، ما أدى إلى تقليد جهة² القبلة المنحرفة، وقد عزم المرابطون على تصحيحها لولا وقوف الفقهاء أمامهم في ق6هـ /12م³.

وكذا في العهد المريني عندما بنى يعقوب بن عبد الحق المريني في أواخر القرن السابع الهجري مدرسة الصفارين بجوار القرويين، فقد استخرج الفلكيون قبلتها عن طريق الحساب

¹. حجي، جولات ..، المرجع السابق، ص 264.

². الجهة: هي المطلوبة في القبلة، وهي ربع من أرباع الدائرة، وكل ربع فيه تسعون درجة (ينظر: العربي بن يوسف الفاسي المصدر السابق، ص 109).

³. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 290.

والقياسات الهندسية المدققة، فتبين الاختلاف الكبير بين القبلتين، وظهر أن سمت قبلة محراب القرويين منحرفة عن الكعبة بـ 78° أي لم يبق سوى 6° للخروج إلى ربع الدائرة التي تنتهي باستدبار القبلة تماما، ومع ذلك فقد عارض الفقهاء تغييرها وصار المصلون في المسجدين المتجاورين يتوجهون اتجاهين مختلفين، وكل هذا بسبب شيوع خطأ في تحديد الجهات الأربع، فأطلق مصطلح الجوف على الشمال والقبلة على الجنوب¹، مما أدى في الأوساط العامة إلى التساؤل عن سبب الاختلاف في الوجهة، وعندما لم يجدوا جوابا عند فقهاءهم، طار سؤالهم لاستفتاء شيوخ الإسلام بالمشرق حولها.

ومن بين الذين اهتموا بمسألة انحراف القبلة بفاس عالم عبد الرحمن بن محمد التاجوري الطرابلسي² (ت 960هـ/1552م) وكان شيخ الجماعة في الفلك والتوقيت وله عدة تأليف في هذا الفن³، بعث التاجوري عام 955هـ/1548م لأحمد الوطاسي رسالة شرح فيها خطأ توجه المصلين بالمغرب إلى الجنوب ما دامت الكعبة في الشرق معتمدا على أدلة عقلية وعقلية مصرحا بأن ذلك منكرا يجب تغييره، ونبه الأمير إلى أن عليه تقع تبعه هذا الضلال، إن لم يأمر بسد المحارب المنحرفة وإقامة أخرى توافق سمت الكعبة، فجمع أحمد الوطاسي الفقهاء والمحدثين في قصره، فتدارسوا فحوى الرسالة وارتأى الشيوخ السكوت، وتحمس للرد على التاجوري كل من محمد اليستيني وعبد الوهاب الزقاق ولكنهما ليس بفلكيين⁴.

ويذكر اليستيني عندما رد على التاجوري أن بالقرويين هناك عشرون منبرا معدة بمختلف العلوم والوعظ وعليها أوقاف وأحباس من الملوك وغيرهم والأمير أحمد الوطاسي قام بتحبيس على قراءة صحيح البخاري بابن حجر والتفسير وابن الحاجب، وقد أورد الأستاذ محمد حجي

¹ محمد داود، تاريخ تطوان، مج 1، معهد مولاي حسن، تطوان 1379هـ/1959م، ص 285.
² عبد الرحمن التاجوري: الفقيه العالم الناسك، علامة الزمان في الميقات، أخذ عن شمس والناصر اللقائين، وعنه أحمد التنيكتي وبدر القرافي، توفي حوالي 960هـ/1552م. (ينظر: مخلوفي، شجرة النور...، المرجع السابق، ج 1، ص 405).
³ عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التاجوري، رسالة في علم الميقات والفلك، مخطوطة مصورة تحت رقم 1635، بمكتبة جامعة هارفرد، أمريكا، ص 9.
⁴ الكتاني، فاس...، المرجع السابق، ص 62.

نص الرسالتين للشيخين والتي قام التاجوري على إثرهما بالرد عليهما، بعدما مكناه من نفسيهما عندما خاضا فيما هو خارج عن دائرة اختصاصهما في معرفة القبلة والأوقات¹.

وكان لهذين الردين ضجة بالمشرق، لذا ألف التاجوري تعقيبا عليهما في كتاب "تنبيه الغافلين عن قبلة الصحابة والتابعين" استفتى علماء مصر في النازلة بعد أن عرض عليهم الردان ثم تطرق لنقض الرأيين بالاعتماد على المعطيات الفلكية والجغرافية والأحكام الفقهية والحديثية². واعتمد التاجوري في الرد على أهل فاس بالزاوية الصغرى 45 درجة بدل الجهة الكبرى لضبط سمت الكعبة أكثر، وسانده السجلماسي في شرحه للعمل³، كما كتب التاجوري رسالة أخرى في نفس الموضوع لفقيه درعة محمد بن علي التمكروتي يطلعه على تصلب فقهاء فاس في أمر القبلة، ويطلب منه التدخل لدى السلطان السعدي محمد الشيخ ليقوم بتغيرها بما له من نفوذ، مما جعله أيضا يؤلف رسالة أخرى سماها: "ورقات في معرفة القبلة والأوقات"⁴.

وتحدث محمد العربي الفاسي عن قبلة فاس في كتابه مرآة المحاسن عند تأسيس الزاوية الفاسية الأولى في مطلع ق11هـ/17م ونصب قبلتها جهة المشرق بحضور المعدلين وتحدث عن انحراف قبلة مساجد فاس، ونقل كلام التاجوري في تخطئة القائلين بأن قبلة فاس بين المشرق والمغرب وأيده في رأيه، وقد ذكر أن أباه الشيخ أبا المحاسن ومحمد القصار كانا يتجنبان صلاة الجمعة بالقرويين⁵.

كما ينقل السجلماسي عن شارح الدادسية المسمى "إكمال فتح المغيث في شرح المواقيت" أنه رأى الشيخين علي بن هارون وأبي العباس أحمد الماواسى في صلاتهما ينحرفان جهة مشرق الشمس في زمن الشتاء في محراب القرويين، وعندما سئل الثاني عن ذلك قال: "إنه

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 293.

² نفسه، ص 294-295.

³ السجلماسي، المخطوط السابق، و 159-160.

⁴ نفسه، ص 295.

⁵ العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 95.

الحق الذي لا بد منه"، كما كان يصرح الموقت محمد المدعو الصغير بن الحاج ببطلان الصلاة فيها لأنها وضعت بتخمين لا باجتهاد الأئمة¹، وقال فيها صاحب العمل الفاسي: وجهة القبلة في شرق الجنوب*** واتسعت بين الشروق والغروب.

وعلق عليها السجلماسي شارح العمل وبين الجهة التي يجب على الفاسين استقبالها وهي الربع الشرقي الجنوبي من دائرة الأفق، ويوافق الشارح مع صاحب العمل على ما هو مشهور باستقبال جهة القبلة، في حين ظهر معارضون كالشيخ أبي القاسم بن السراج الذي دعا إلى السميت جهة مكة، على إثر إقامة قبلة جامع الأندلس، على وسط الربع الشرقي الجنوبي وكان الاختلاف حول من لم يعاين جهة مكة فهل يجب استقبال الجهة؟ وهو المشهور عند المذهب المالكي والشافعي وقول جمهور العلماء كأبي حنيفة وابن حنبل، أو يجب طلب السميت؟ وهو قول ابن أبي القصار والباجي وبعض الشافعية، واستشكل المازري هذا القول ورأى أن السميت لا يرى بالجسم مع البعد، فكان الخلاف بين العين والجهة، وبإستحالة رؤية الكعبة بالعين، ولا يمكن تحديد الجهة بالظن، فأجمعوا على الإبقاء على الجهة التي يغلب الظن أنها جهة الكعبة فيتم استقبالها فتكون الجهة هي الواجب في حين السميت غير المكلف به، لأن عين الكعبة البعيدة عن الأبصار².

ورغم تلك الضجة التي أحدثها التاجوري ومن معه ومن جاء بعده، كان على جامع القرويين الانتظار لمدة قرن من الزمن ليشهد تغيرا في القبلة ليس عن طريق الهدم وإنما أصدر محمد الشيخ الصغير السعدي أمرا برسم علامة في جدار محراب القرويين تحدد جهة الكعبة التي على الإمام الاتجاه نحوها، وتنبيه المؤذن للمصلين بعد إقامة الصلاة لينحرفوا إلى اليسار بانحراف الإمام³.

وفي العهد العلوي أسند السلطان الرشيد مهمة إقامة قبلة محراب مدرسة الشراطين إلى الشيخ عبد القادر الفاسي مع أعيان من الفقهاء والموقتين كالقاضي أبي عبد الله المجاصي

¹. السجلماسي، المخطوط السابق، و 160.

². نفسه، و 159-160.

³. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 297.

والموقت سيدي علي الدادسي، وبعد اجتهد في استخراج قبلتها الصحيحة كتب القاضي المجاصي ناقلا عن ابن السراج في الموضوع وقال أن قبلة هذه المدرسة أقوم بكثير من مساجد فاس خاصة القرويين، وأيده في ذلك الشيخ عبد القادر الفاسي.

كما ينقل السجلмасي حل هذه المسألة الذي أورده التاجوري في مقدمته عن القبلة لإخراج العلماء من ذلك النزاع باعتبار أن الشمس تسامت الكعبة مرتين في السنة، يوم السادس عشر من مايو واليوم التاسع من يوليو (جويلية) في وقت استوائها في كبد السماء حيث لا يكون للكعبة ظل أثناءها، وعن طريق الاستدلال بظل الأشياء من عود أو خيط مثقل أو سوارى يمكن تحديد جهة سمت¹.

كما أثّرت هذه القضية من جديد في عهد السلطان إسماعيل عندما قرر إعادة بناء جامع الشرفاء، باعتباره كان أساس لقبلة القرويين وبحث قبلته الموقت العربي بن أحمد الفاسي الذي أثبت أمر انحرافها وبعدها عن سمت الكعبة²، وعليه اجتمع عدة موقتين كالشيخ محمد المسناوي، أبي علي بن الرحال المعداني، أبي عبد الله ميارة الصغير، محمد بن حمدون بناني وابن عمه محمد بن عبد السلام بناني والأستاذ علي الشداوي وعميد الموقتين العياشي الخلطي، والمؤقت أحمد بن شنوف والأستاذ العربي قسارة موقت منار القرويين للبت في أمر القبلة في مجلس الأحكام الشرعية بمحضر القاضي أبي الحسن بن عبد الواحد أبي عنان الشريف وعامل المدينة الرئيس أبي علي الروسي³، واتفقوا على صحة الملاحظة وأن المحراب يبعد كثيرا عن الكعبة، ولكنهم رفضوا مجمعين على تهديم قبلة المسجد المذكور ويمكن التفضي عنه بانحراف المصلي كما جرى العمل به في القرويين بتتبيه المؤذن على ذلك منذ زمان⁴.

¹ التاجوري، المخطوط السابق، ص 25.

² عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج5، ص218-219.

³ التازي، جامع القرويين...، المرجع السابق، مج3، ص 659.

⁴ القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج3، ص242.

وقد تأثرت مساجد المغرب به مثل تارودانت كانت محاربها شطر الجنوب عوض الشرق وربما بسبب تقليد أبنائها الذين درسوا في فاس، ونجد في الوثائق والتعبير العام بالمغرب خاص بتحديد الجهات الأربعة للأملاك الموقوفة فإنها تطلق مصطلح الجوف على الشمال والقبلة على الجنوب¹، ورغم ذلك فمنذ العهد المريني حتى العلوي مرورا بالسعدي فإن عملية سد المحارب الخاطئة وإقامة الجديدة وما تكلفه من موارد وجهد ووقت وتغيير الطابع العام لتلك المساجد التي تجاوزت كلها عدة قرون، لتدخل في تراث البلد، فعوض نقض بنائها كلف شخص ينادي في الناس بالتحول إلى القبلة مع الإمام، وتم وضع في المحارب الجهة التي على الإمام استقبلها²، وكل هذا بوقف مخصص حول المحارب³، وهو ما عليه الآن.

ب. قضية التبغ: دخل العالم الإسلامي مواد استهلاكية رأى فيها العلماء نوع من الضرر على صحة الإنسان، فتصدوا لها بالفتوى ومنها شرب الشاي والقهوة والدخان هذا الأخير الذي كان أشد وطأة ولا يزال لحد اليوم، وأقيمت له أماكن خاصة به شرقا وغربا، فهذه النبتة الخبيثة التي أدت لعدة عيوب أنتنت الأفواه وأفلست الجيوب وأفسدت العقول، فاختلفت آراء العلماء حولها بين محل ومكره ومحرم⁴.

وقد دخلت نبتة التبغ التي عرفت تحت عدة أسماء: الطابة، الطباقي، الدخان...، المغرب عن طريق السودانين الذين رافقوا الفيلة إلى مراكش عامي 05-1006هـ/97-1598م ثم دخلوا بها إلى فاس مع الفيلة أيضا عام 1007هـ/1599م، وانتشرت بسرعة وأقبل الناس عليها من مختلف الطبقات⁵، وزعموا أن فيها منافع فشاعت في بقاع المغرب⁶، ورأى فيها العلماء بدعة سيئة يتعين محاربتها ومنكرا يجب تغييره⁷.

¹ محمد داود، المرجع السابق، ص 285.

² بنعلة، المرجع السابق، ج 1، ص 275-276.

³ العربي بن يوسف الفاسي، المصدر السابق، ص 109-110.

⁴ Gagne et Nejjar, Op.cit, P366.

⁵ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج 1، ص 246.

⁶ الناصري، المصدر السابق، ج 5، ص 131.

⁷ الافراني، نزهة الحادي...، المصدر السابق، 248.

وبسبب سوقه الرائجة وكثرة الإقبال عليه بالتجارة والشراء بالمدن والقرى من خلال ما تحمله قوافل السودان والسفن الانجليزية والهولندية، ضج المصلحون منه ووصل ذلك للسلطان أحمد المنصور فاستفتى العلماء حين توجه لفاس لآخر مرة في جمادي الأولى 1011هـ/1602م فأفتاه كل من مفتي فاس محمد بن قاسم القصار والفقيه عبد الله بن حسون بسلا بتحريم التبغ ووجوب إتلافه، فأمر السلطان بنزع التبغ من باعة فاس الذين كان أغلبهم من اليهود¹ وكدسه في الديوان وأحرقه فضاعت أموال كثيرة بسبب ارتفاع ثمنه².

ليدخل مناقشاته حتى مجالس التدريس، فقد وقعت حادثة في مجلس شيخ الجماعة عبد القادر الفاسي الذي حرم تعاطي الدخان، فأنكر بعض الطلبة، فأنكر عليهم فلم ينتهوا، فقال لهم: "إن زعمت أنها مباحة فاشتر منها رطلا³ وتصدق به على والدك"، فبكمو⁴، حتى أن قراءة ورد من كتاب "دلائل الخيرات" للجزولي كان يحضر تعاطي الدخان حتى لا يتم إفساد المجلس بها، لأن مجالسهم تعبق فيها روائح المسك⁵.

ولكن بعد وفاة السلطان المنصور وكثرة الفتن، عاد لرواجه بأكثر حدة خصوصا بالصحراء وممن أباحوه أحمد بن عبد الله الفيلاي المحلي وكان مدمنا عليه، فأراد أن يقنع أكبر قدر من المفتيين أثناء زيارته للمشرق، حتى قال الشيخ السنهوري أن أبا المحلي أول من أدخل هذه العشبة لأرض مصر حاملا منها أحمالا⁶ سنة 13-1014هـ/04-1605م مع كتيب يستفتيه فيها حول تدخينها وبيعها وغرسها⁷، غير أنه فشل في مسعاه عبر تلك المراسلات لعلماء المشرق والمغرب التي عادت عليه دون جدوى ومنهم سعيد المقري، في حين أفتى

¹. العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج1، ص131.

². حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص247.

³. الرطل: اسم وحدة وزنية التي كانت مستعملة في المغرب قبل بدء التعامل بالكيلو، وفيه 16 أوقية، وكان ثقل الرطل يساوي 20 ريالاً حسيانية وزناً، وفيه الرطل الكبير وبه رطلان (40 ريالاً) لوزن الصوف، اللحم، البصل، والرطل القشاشي وفيه رطل ونصف (30 ريالاً) لوزن الزيت والسمن والفواكه...، والرطل العطارى وهو الرطل العادي (20 ريالاً) لوزن السكر والشاي والتوابل. (ينظر: ابن زيدان، العز والصولة...، المصدر السابق، ج1، ص407).

⁴. النجمي، المقال السابق، ص109-110.

⁵. حسن جلاب، مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994م، ص92.

⁶. الزباني، الروضة السليمانية...، المخطوط السابق، ص40.

⁷. Gagne et Nejjar, Op.cit, P363.

قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي بأحليته مع أحمد بابا التنبكتي لإدماهما عليه، وهذا الأخير جاءت فتواه في كتاب سماه "اللمع في الإشارة إلى حكم طبغ" في 19 جمادي الثانية 1016هـ/11 أكتوبر 1607م، وكان قد أجاب قاضي فاس علي بن عمران وقاضي درعة السابق بالحلية عند استفتائه¹، فأحدثت ضجة في المشرق والمغرب بين محرم ومحل.

حتى ساد في فاس خلال عامي 1026-1027هـ/17-1618م جو مشحون على انتقاد المدخنين والتشنيع عليهم لعودتهم إليه بعد زجر، وبدأ حملة الانتقاد بسؤال أديب الفقهاء علي بن أحمد الشامي في أواسط رمضان 1026هـ/سبتمبر 1617م وجهه إلى قاضي فاس أبي القاسم ابن أبي النعيم الغساني ومفتيها أحمد المقري، وإلى سائر الفقهاء تعرض إلى ما وصل إليه أمر التدخين ويستفتيهم فيما يجب عمله، مركزا على مقايضة التبغ الأوروبي بمواد محرمة على الحربين كالفقوت والسلاح والأنعام من المغاربة².

وقد أجاب على سؤاله القاضي والمفتي وسبعة عشر فقيها بفتاوى تختلف من حيث الطول والقصر وجمعت في كتاب بعنوان "فتاوى علماء فاس في الدخان" ولم تأت في أغلبها بالجديد لانعدام النص الصريح، فقد جاء في جواب القاضي أبي النعيم إشارة إلى اعتبار رائحة التبغ الكريهة تؤذي الزوجة مما يعطيها حق طلب الخلع، ومن خلال هذه الفتاوى لإضافة الصبغة الرسمية تمت كتابة رسمان لعدلي شهود رسميان عقب الفتاوى التسعة عشر نص أولهما على صحة نسبة كل فتوى إلى صاحبها، والتعريف به وإثبات كتابتها بخطه وسجل الرسم الثاني حكم قاضي فاس بتحريم التبغ اعتمادا على الفتاوى المذكورة³، ولكن الاضطرابات الخطيرة التي شهدتها المغرب لم تتح الفرصة لإنجاح هذا الإصلاح، ففرقت جماعة الفقهاء فخرج المفتي المقري مغاضبا ولقي القاضي ابن النعيم بعد سنوات معدودات حتفه على يد غوغاء المفسدين.

¹. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 247-251.

². Gagne et Nejjar, Op.cit, P367.

³. حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص 260.

وقد كتب محمد العربي الفاسي في 1035هـ/1625م بعنوان "سهم الإصابة في حكم الطبابة" تأمل هذا المشكل الاجتماعي الذي كثر الحديث عنه دون طائل، وبذلك شغل رجال الفكر أنفسهم بمسألة التدخين عقودا عديدة لاعتبارها مشكلا دينيا واجتماعيا وسياسيا وألغوا عدة كتب وعشرات الفتاوى والأجوبة والمناظرات فنصحوا وفتحوا عيوننا وعقولنا إلا أنهم لم يتمكنوا من إيقاف تيار التدخين الجارف¹.

كما أدلى علماء الجزائر بدلوهم في هذه القضية التي أخذت أبعاد دولية للعالم الإسلامي ومنهم عبد الكريم الفكون القسنطيني (988-1073هـ/1588-1662م) بتأليفه في تحريم الدخان سماه: محدد السنان في نحور إخوان الدخان" يشتمل على أجوبة عدة علماء وهذا لكثرة خوض العلماء فيه من المتأخرين ما بين مبيح ومحرم والأكثر على التحريم، الشيخ اللقاني وشيخه سالم السنهوري، ومن ألف في إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهوري ورد عليه الشيخ الفكون في ذلك فأطال وأجاد².

وبسبب رواج سوق الدخان في ق12هـ/18م بالمغرب وعائذاته المادية، فقد وظف السلطان محمد بن عبد الله على متعاطي تجارة هذه العشبة وكان غالبيتهم من اليهود ضريبة بعد استنقائه رجال العلم بفاس كعبد الرحمن المنجرة وعبد القادر بوخريص، فوفرت مدخولا قدره الد. بنعبد الله بخمسائة مثقال وجهت للخدمة العسكرية من مؤونة وكسوة وسلاح وغيرها مع تزويد دور السلطان وما يتصل بها بما تحتاج حتى أنه عادل مال المراسي، ليسقطه خلفه السلطان سليمان³، كما أصدر هذا الأخير أوامره للعمال في كل البلاد بحرق هذه النبتة الخبيثة سنة 1214هـ/1799م⁴.

¹ حجي، الحركة الفكرية...، المرجع السابق، ج1، ص261-266.
² فاطمة الزهراء طوبال، "ظاهرة التدخين في كتابة التاريخية في العهد العثماني - مخطوط (محدد السنان) لابن الفكون أنموذجا"، عن مجلة الراصد العلمي، ع5، ماي 2008، تصدر عن مخبر تحليل تنميط وتصميم المنتجات الإعلامية في الميادين الاقتصادية الاجتماعية والسياسية، جامعة أحمد بن بلة، وهران 2008، ص87-89.
³ بنعبد الله، فاس منبع...، المرجع السابق، ج2، ص524-525.
⁴ العمراني، الحركة الفقهية...، المرجع السابق، ج2، ص202.

ويعطينا علي باي في رحلته في ق19م أن هذه النبتة الربيعية أصبحت تزرع بالمغرب ويتم تناولها إما أوراقا أو معالجتها لتصبح في شكل عجينة أو سائل للإدمان، ويظهر على صاحب الرحلة أنه من معاقريها لاعتبارها منشطة للفرد¹، لذا كانت نقاشات ومناظرات جادة بين علماء المشرق والمغرب مثل زيارة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن زكري الفاسي (ت1144هـ/1731م) ومناقشته لعلماء الأزهر في مسألة شرب الدخان حيث أسكتهم وأكد حرمة²، وسانده القادري مستدلا بأنها تغيب الحواس³، ونفس الشيء عند الناصري في استقصائه على أنها من الخبائث⁴ كل هذا أدى إلى وقوع خبط كثير منذ ظهور هذه العشبة التي تطورت عملية معالجتها ومعاقرتها، لتكون اليوم وبالا على المجتمعات قاطبة.

فكانت بذلك القرويين من خلال علمائها الذين تخرجوا منها أو كانوا من بين إطاراتها قد تفاعلوا مع قضايا العصر مهما كان نوعها، بإيجاد الحكم الشرعي فيها على أساس الكتاب والسنة، باتخاذ المذهب المالكي المنهج المؤدي إلى تشریح تلك القضايا وإبراز مختلف أوجهها وما احتوته من متشابه ومختلف، كل هذا لضمان حقوق الفرد من أي غصب أو اعتداء.

ومن خلال ما سبق فالقرويين أول جامعة من حيث المواصفات الخاصة بها بوجود مكتبات وأماكن لإيواء الطلبة، مع كثرة الإنتاج العلمي والأدبي والفكري، خصوصا منه الفقهي، فقد زوجت الدراسة بالقرويين بين العلوم في برامجها وبين ما هو نقلي متعلق بالعقائد والأحكام والعبادات والسلوك والأخلاق المبني على المذهب المالكي وفقهه وباقي العلوم العقلية، فساهم ذلك في إرساء أركان الدولة الإسلامية وبناء الحضارة المغاربية.

وكل ذلك تسنى لها بما احتوته جامعة القرويين من كراسٍ ومجالس علمية تدرج فيها جم غفير من الطلبة الذين أصبحوا من العلماء الأعلام بالمغرب وغيره، فنهلوا من تلك المجالس

¹. El-Abbassi, Op.cit, T1, 139-140.

². العمراني، الحركة الفقهية، المرجع السابق، ج1، ص 245.

³. القادري، نشر المثاني...، المصدر السابق، ج2، ص130.

⁴. الناصري، المصدر السابق، ج5، ص131.

وتزودوا من خزائنها بمختلف المعارف والمدرّك، كما ساروا على تقاليدھا في التكوين، وبنوا أفكارھا في الأفاق، فكانوا كحلقات متسلسلة تربط بعضها البعض من خلال الدرس والإجازة. كما أثبتت جامعة القرويين على نضج شخصيتها من خلال مواقف علمائها في القضايا العلمية والفقهية على المستوى المغربي أو الإسلامي، وريادتها في التكوين الديني المبني على مصادر التشريع بالوقوف على حدود الشرع في إطار الفقه المالكي.

فجامع وجامعة القرويين هي اليوم أمانة الأجيال، وخصوصا علماؤها لينفضوا عنها غبار الزمن، ففي عزتها عزتهم والعكس، وهذا للعمل على خلودها كتراث إسلامي ثم إنساني فبقاؤها ليس مقصورا على جهة أو شعب أو دولة معينة بل يجب علينا جميعا الدفاع عنها لأنها اليوم إرث مشترك بين جميع المسلمين شرقا وغربا، وإذا وسعنا المفهوم الحالي للتراث فهي مخلف إنساني يمس جميع البشرية، وخير دليل زوارها المتردّدين والمتطفلين عليها يوميا.

الخاتمة

الـخـاتـمـة:

ونأمل من خلال هذا العمل المتواضع أننا غطينا جانبا من حياة جامع وجامعة القرويين بمدينة فاس من مختلف جوانبها على العهدين السعدي والعلوي، كما نأمل أننا أجبنا على تساؤلاتنا التي طرحناها في الإشكالية، وما توصلنا إليه لا يعد أحكاما نهائية وإنما هي استنتاجات لمقاربة في إبراز دور هذا الصرح الحضاري، حتى يكون منطلقا لدراسات أكاديمية وعلمية وجامعية جديدة أخرى، وقد وجدنا أنفسنا أمام مجموعة من الاستنتاجات خلصنا إليها في عدة جوانب تمثلت في:

1. الجانب العمراني:

*. مدينة فاس تلك المتاهة المتداخلة من العمارة الدالة على النمط العمراني الإسلامي للمدن ذات الشوارع الضيقة والسبل والدروب المتعرجة في مختلف الاتجاهات بعضها مسقف ومغطى وبعضها الآخر مفتوح، اشتملت على عناصر البقاء من التدفق الدائم للماء ونقاوة الهواء، بين أحضان سهل مترامي الأرجاء، لتحفظ في طياتها جامع القرويين.

*. يعتبر جامع القرويين اليوم تحفة معمارية فنية فريدة تعهدته أيادي مغربية بالترميم والإصلاح حتى صار من بين المعالم المهمة في المدينة، والتي تمتلك هيكلًا خارجيًا يتربع على مساحة كبيرة في وسط عدوة القرويين بفاس، يعطي نموذجًا على بناء المساجد وتطورها فكان كمثال حي على ذلك، كامتلاكه لصومعة تعود إلى 11 قرنا وهي مثال لمآذن المساجد بفاس وباقي المغرب، حتى أنها جعلت الآن كرمز وطني عمراني معماري لمساجد المغرب الأقصى وما تفردوا به، وخير نموذج عصري هو مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء الذي احتوى على مئذنة مربعة سلية لمئذنة القرويين.

*. كما زود في جانبه الداخلي بنفائس وذخائر مهمة تعود لحقب متواترة على فاس أرخت سدولها على الجامع، من طراز معماري وهندسي، برز في رصف السواري، البرشلة المحراب الشماسيات، التبليط، النقوش، الزخرفة...، وإنارة من ثريات ونواقيس... مع وجود المضيئات، الساعات المائية والرملية والإسطرلاب فكان القرويين مكانا لتباري العلماء في

التدريس والموقتين في ترتيبه وتزويده بما يحتاج لضبط الوقت والموقيت، كما حوى على أقدم منبر وهو تحفة فنية رائعة ونادرة من عمل فناني فاس الذي تنافس في اعتلائه كبار العلماء من أجل الخطبة.

*. كما تعكس تلك الهندسة المعمارية لقباب الجامعة المضلعة والمقربصة والدائرية وعلى أكاليل سواربها وعقود أقواسها وأفاريز أبوابها، وخصاتها التي تقور بالمياه، لصورة عن عبقرية المهندسين والفنانين الذين أبدعوا فيها، فزودت بخمسة مصادر للماء لسد حاجاته طيلة العام، واحتوت على 18 بابا تميزت برونقها وعظمتها فمنها الذي ضرب بنحاس مطرز بنقوش حاملة عبارات الشكر والثناء، وفي بعضها ذكر أسماء صانعيها، كباب الشماعين الحفاة، الخلفاء،...، مع تركيز عديد النشاطات الاقتصادية بجوارها، وهي داخلة فيها وإليها مما جعل المنطقة مهوى لسكن القضاة، العدول، المفتيين، الخطباء، العلماء....

*. تم تشيد إلى جانب القرويين عدة مدارس داخلية للطلبة وطعمت بروائع الإبداع العمراني فنعتت بأعجوبة فاس، التي أوت آلاف الطلبة الأفاقين ومن مختلف البيئات ولعدة العصور وهذه المدارس التي بنيت غالبيتها في العهد المريني، كانت كمعاهد تابعة للقرويين يزاول فيها الطلبة دروسهم التي لا يمكن إقامتها في الجامع الأم كالعلوم التجريبية التي تستلزم استعمال أدوات ووسائل خاصة، فكانت تلك المدارس من متمات التكوين بالقرويين كالمصباحية المتوكلية،...، لذا تعهد بها السعديون والعلويون بالترميم والإصلاح مع إضافة مدرستين في العهد الأخير وهما الرشيدية والعبدلاوية.

2. الجانب السياسي:

*. وجه الحكام اهتمامهم وعنايتهم بالقرويين في جميع مراحلها التاريخية الطويلة لذا ارتبطت سياسة هؤلاء الملوك والأمراء المتعاقبين بمواقفها، فأهدوا لها من غنائم الحرب، فكان بلاطها الأوسط مزدانا بأجراس تم اقتلاعها من كنائس قشتالة، ليتم تحويلها إلى ثريات رائعة الجمال تنير المساجد ومرتاديها وغيرها من الأشياء، ورغم أن الوقف تكفل بتشيد أماكن العبادة وصيانتها وأداء أجور العاملين بها، إلا أن السعديين والعلويين تركوا مساهمتهم فيها فالأوائل

أضافوا الخزانة الأحمدية والخصّة بصرى القرويين مع القبتين المتناظرتين، في حين العلويين قاموا بتبليط الصحن مع ترميم وإصلاح العنزة والثريا الكبرى، وتزويده بالنوادر من الآلات والكتب.

*. نقل فقهاء فاس عن فقهاء الأندلس صراحتهم وحديثهم وتدخلهم في سياسة الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر، ولم يكن فقهاء الشرق يبلغون في موقفهم فقهاء الغرب وشدتهم، ولكن هذا التدخل لم يكن دائما لصالح الفقهاء فقد كان أحيانا على حساب حياتهم كعبد الواحد الونشريسي وعبد الوهاب الزقاق في القرن السادس عشر وأبي النعيم بن القاسم وجسوس في القرن السابع عشر... وغيرهم، ولم تزعزعه حوادث السنون، والزوابع التي هبت عليه من مختلف الجهات، فبقي صامدا مع الزمن، متمسك بالحق داعيا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بالوقوف في وجه المبتدعة والمحدثين للأمور في الدين، حتى يضيء للبشرية بنوره طريق العلم والعرفان.

*. ارتبط تاريخ المغرب السياسي بهذه الجامعة، فلا تكاد تجد حركة فاصلة في ماضي المغرب دون أن نجد لعلماء القرويين فيها اليد الطولى، وكان أهم دور هو إنشاء البيعة التي كان يقدمها علماء جامعة القرويين للسلطين عند تولية العرش، وهذه البيعة هي الكافل للشرعية، كما ظل لمدة تزيد عن ألف سنة، كمصنع للدولة المغربية، فهو المكان الذي تستورد منه الرجال والإطارات لأجهزتها، لذا فمن داخل جامع القرويين تخرج ملوك الدولة مستشاروها، وزرأوها، حكامها وقوادها وغيرها من المناصب المخزنية.

*. كما تجند علماء القرويين عند الأزمات وتعرض البلاد لمخاطر الغزو الخارجي، فتدخلوا في إقامة الصلح بين السعديين الوطاسيين على يد الشيخ عبد الواحد الونشريسي في 1536م، وشاركوا في معركة وادي المخازن بالنفوس والقلم في رفع الهمم سنة 1578م، وردوا حجة السلطان محمد المتوكل والشيخ المأمون في تسليم الثغور للأسبان... وموقفهم الراض لتملك العبيد في عهد السلطان إسماعيل وكان كبش فداء فيها الفقيه عبد السلام جسوس

وحتى السلطان سليمان عندما وصلته بعثة من الحجاز تدعو للسلفية فقد ناظرها علماء فاس وأرسل جملة منهم للنظر فيها بمكة والمدينة مثل الفقيه ابن الكيران، الساحلي...

*. سعى السلاطين العلويون لإصلاح نظام جامعة القرويين، فاصطدموا بجدار الرفض من قبل فقهاءها وعلمائها الذين سيطر عليهم الفكر الصوفي الطرقي، فهذا السلطان محمد بن عبد الله حاول إدخال إجراءات جديدة على نظام التعليم بالقرويين في البرامج والمناهج والكتب ولكن بمجرد وفاته تحول هؤلاء العلماء إلى ما كانوا عليه، ليأتي بعده السلطان سليمان في محاولة تطهير المجتمع من البدع والطرقية المطنبة ذات الطقوس والعادات الشاذة الخارجة عن الدين، مستغلا ظهور فكرة الوهابية بالحجاز، إلا أنه جوبه بقوة وتعنّت التيار الطرقي الجارف الرافض لكل تجديد، أما السلطان عبد الرحمن بن هشام الذي نسج إصلاحا على شاكلة السلطان الأول في تغيير برنامج القرويين في ظل متغيرات خارجية تنذر بالخطر المحقق ولكن يبقى عدم إيمان رجال هذا الصرح في تنفيذ مشروعه كافيا لإعاقته.

3. الجانب الديني:

*. يعتبر جامع القرويين القلعة الحصينة التي احتوى بها المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي، وأينع من جديد وازدهر بمدينة فاس، من خلال تلك الكراسي المبنوثة في ثنايا جامعة القرويين والمعاهد التابعة لها كالمحارب، الورياغلي...، والتي ركزت على الفقه المالكي ومسائله كالموطأ، المدونة، رسالة أبي زيد القيرواني، مختصر الخليل، الحاجب... لارتباطه بحياة الناس اليومية، فحاضوا في فروعه وأصوله وأثروه بتلك الشروح والحواشي ومنها عاد إلى المشرق في صدور رجال حملوا لواءه في الحجاز فكانوا كأساتذة في المسجد الحرام والمسجد النبوي كالمقري، وأبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي، اليوسي...

*. وبالرغم من أهمية النقطة السابقة، فإن الأمر اللافت فيها التصاق الفقه المالكي في العالم الإسلامي حتى قبل فترة الدارسة بظاهرة أضرت به ولا تزال ألا وهي ارتكازه على طابع التقليد أمام غلق باب الاجتهاد مما أدخل الفقه في طابع الاجترار ما سبق في مختلف أبوابه مع اصطباغ تلك الحركة بالاختصار الذي أوصلها إلى شروح وحواش كانت أطول من

الأمهات أصلا، لتكبل أيضا بظاهرة الحفظ الذي كان تقريبا معيارا للتفقه بدليل المقالة: "من لا يحفظ النص فهو لص"، ليجهز على ما بقي من فقه العمليات المتأخر، فساهمت تلك العوامل في تحويل الفقه من الجانب الواقعي إلى التقديري.

*. جامع القرويين لم يكن مكان لأداء الفرائض والصلوات فقط، وإنما كمنتدى للفكر الإسلامي ومركز الإشعاع العلمي والمعرفي، الذي أنار على مختلف جهات بلاد المغرب وتجاوزه لبعض بلدان المشرق وحتى الأندلس وأطراف إفريقيا، فشددت إليه الرحال لطلب العلم وخاصة التفقه في المذهب المالكي الذي برز فيه، ومنها عاد الطلبة لبلدانهم يحملون ما يقدرون من علم، كما عمرت خزائنه بأندر المخطوطات والتصانيف لمختلف ضروب العلم.

4. الجانب الاجتماعي-الاقتصادي

*. دخلت فاس بالتواتر عدة عناصر بشرية أثينية، وامتزجت كلها بها مكونة مجتمعا متميزا وخصبا، فمن الأصول الأولى لسكان المدينة العربية والأمازيغية التي تقاطرت معظمها من الأندلس وخصوصا من قرطبة والقيروان، ومن الدواخل كمصمودة وغيرها، بالإضافة إلى هجرات أخرى في عهد الأدارسة والزناتيين ومن جاء بعدهم، وقد ورثت عن الأصول العربية لكنه لسانهم، لتمتزج مع الأمازيغ من مصامدة وزناتة ولمطة...، وفرس وعراقيين وأندلسيين جزائريين، تونسيين، حجازيين وشاميين.

*. إن التجاء العناصر العربية من الأندلس إلى فاس جعلها تشكل مجموعة لها من المقومات والخصائص ما تمتاز به عن باقي المناطق المغربية، وهكذا شكلت الصناعات والعلوم والفنون التي نقلت عن الأندلس نوعا من التركيز في فاس، التي طبعت أهلها رفاة الحس والثقة المفرطة بأنفسهم، مما جعلهم ينظرون إلى أنفسهم نظرة اعتزاز وتفوق، وبرز من خلال مواقف المدينة السياسية في مناصرة السلاطين وخلع بيعتهم، فلا يكاد سلطان سعدي أو علوي إلا وحاصرها لفرض نفسه عليها، ففي إذعانها تخضع باقي الجهات.

*. احتل علماء القرويين بفاس والمغرب مكانة محترمة لدورهم على كافة الأصعدة، فشكّلوا طبقة متميزة لها امتيازاتها ومكانتها، فتميزوا بلبس البياض منذ عهد بني مرين، وحافظوا عليه

لمدة قرون، وبجلهم المجتمع الفاسي بعبارات وسلوكات الاحترام والإكبار كفسح الطريق لهم وتقبيل طرف الثياب إن أمكن أثناء مرورهم وعدم التعرض لهم في أسفارهم، فكانوا من بين الشفعاء لأهل فاس عند السلاطين، كما زادهم السلاطين من جهتهم الإنعام عليهم بظواهر الاحترام والتوقير التي وفرت لهم عدة امتيازات مادية ومعنوية.

*. كل من كتب عن جامع القرويين إلا ونبه على ثروته المالية الضخمة التي كان يمتلكها من مداخل العقارات والأراضي والغابات الموقوفة عليه، حتى تكاد تكون جل مدينة فاس وأحوازا أوقافا له، وكل ذلك تأتى بدور الفرد المغربي الذي أوقف أملاكا مرصودة لجهات عمومية أو معينة، بغية إنهاض وبقاء تلك المؤسسات الدينية والتعليمية، فاحتوت ميزانيته على أموال وافرة، جعل لها جهاز إداري منظم خاص بتسيير نفقات أحباسه أحدهما خاص بتقديم رواتب هيئة التدريس، والثاني خاص بهيئة الإشراف، لتنفيذ على جهات أخرى، ما جعل الدولة أحيانا تستند إليه لتسديد ديونها وتغطي عجزها، كالوطاسين والسعديين.

*. استعمل المغاربة الاحباس الخيرية والمعقبة كجهة يفرون منها من غصب الملوك والحكام لعقاراتهم على ما يعرف بالحبس المعقب أو الذري وهذا الأخير الذي انتشر في هذه الفترة تقريبا في كافة المنطقة المغربية كالجزائر في العهد العثماني مثلا، وإن انتشار هذا النوع من الأوقاف الذرية وكثرتها تعتبر كظاهرة تحتاج إلى دراسة على مستوى المنطقة المغربية ككل، إلا أن السؤال الذي يبقى مطروحا: هل وصلت تلك الأوقاف الخيرية المعقبة إلى نهاية شرط المعقب وهي تحولها على الجهة المستفيدة أو المرجع، بعد نهاية عقب المحبس؟.

*. ساهمت أموال الأوقاف بتغطية نفقات عدة مرافق وجهات، والتي بدورها نشطت الحياة الثقافية ونمتها بالبلاد، فمن قيمة غلاة الأوقاف كان يعيش الأساتذة في ظروف مريحة وزاولوا نشاطهم، فكانت تلك المرتبات المقدمة من مال الأوقاف بمثابة تحرير العلماء والفقهاء من قبض المرتبات الرسمية فتحرروا بذلك من التبعية والقيود واستطاعوا أن يصدعوا بكلمة الحق ليعطوا للإسلام ذاته واعتباره الحقيقي ويمثل ذلك أحمد المنجور رضوان الجنوي، ميارة

ابن جسوس...، غير أن هذه القاعدة غير قارة على جميع الفقهاء والعلماء في العهدين السعدي أو العلوي.

*. إن إتباع ناظر الاحباس في تنمية أوقاف المساجد، المدارس، كراسي علمية... على الكراء أو المعاوضة، قد أدخل بعض الممارسات والأعمال والاختلاسات التي أضرت بها وعمقتها الفتن أكثر، فظهر حق الجلسة والجزاء والمفتاح...، وهي أمور لا أصل شرعياً لها إلا أنها قومت كعمل عرفي بفاس، وقد عارضها العلماء واعتبروها خارجة عن الشرع، فغلب العرف على الشرع، مما أضر عموماً بالأوقاف، وأخل بأركانها وشروطه وتحول من المنفعة الخيرية للمصلحة الفردية، فانعكس سلباً على الحالة العلمية.

*. تدارك السعديين للأوقاف التي ضاعت في العهد الوطاسي، في حين تدارك العلويين الأوقاف التي ضاعت في العهد السعدي، فأرجعوها إلى أصولها، كالسلطان أحمد المنصور السعدي والسلطين الرشيد وإسماعيل وسليمان وعبد الرحمن العلويين وزادوا فيها، كما أقاموا لها زمام أو سجل واحد عرف باسم الحوالة كالحوالة الإسماعيلية والسليمانية...، حتى أن السلطان إسماعيل العلوي جعل الأوقاف كمادة تدرس بالقرويين والمعاهد التابعة لها، حتى لا تضيع تلك الأوقاف ويتم تتبع كل حالاتها واستشكالاتها ومقاصد أصحابها، لذا احتوت كتب النوازل العديد من قضاياها كالونشريسي، العلمي، المهدي الوزاني...

*. مثل الوقف بالصندوق الأسود لارتباطه بالسلطة ما بين قوة وخمول وأمن واضطراب فالإلى جانب تطور الوقف واتساعه كماً، فإنه لم يتم ربطه بقوانين ضابطة وقارة فكان محل اضطراب ونزاع وظهر في فتاوى بين العلماء والفقهاء، ما جعل الملوك يصلون إلى مال أوقاف القرويين كأخذ السلطان أبي حسون الوطاسي في دفع تكاليف الحملة الجزائرية والسلطان أحمد المنصور في دعم حملاته الداخلية وبناء بعض الهياكل القاعدية كالجسور دون وجه حق، ليتعمق في العهد العلوي بنظام المعاوضة للأفراد.

5. الجانب الحضاري:

*. حمى جامع القرويين الدين الحنيف واللغة العربية، ولعب دورا فعالا في التاريخ، فغير معالمه وحمل بيديه معولا يهدم به الجهل، ووضع الأسس الأولى للتعليم، وللنظم الجامعية بتقاليدها العلمية، وتجاربها الفكرية، فكانت المناظرات تعقد في أرجائه الفسيحة، والمننديات حافلة بشتى العلوم وكانت المناقشات تقام في جو علمي، مزدان بالعقول النيرة، والنفوس الزكية، تحف بها المحبة والإخاء والتواضع المحبب إلى النفس، فانبعث من قلبه نور الإيمان، وامتد شعاعه إلى جميع أرجاء الغبراء.

*. ارتبط دور القرويين بمعطيات منها الارتباط والتلازم بين القرويين كمؤسسة علمية ومدينة فاس كمركز للثقافة الحضرية، فأنتج علماءها تأليفا حول مختلف أنواع الفنون وبينوا ما كان لها من عهد زاهر ومجد غابر، فبرهن هؤلاء العلماء على أنهم علماء موسوعيون جمعوا بين عدة فنون فهو فقيه متمكن ومحدث دراية ورواية ومفسر واسع وأديب بارع وفرائضي واثق وصوفي متعلق ومؤرخ وناسخ...

*. كما احتوت جامعة القرويين في رفوف مكتباتها على خزائن علمية كبرى بها عيون المخطوطات ونوادر الموضوعات، ونفائس العلوم في وقتها، ونفقت سوق الوراقة وما صاحبها من استنساخ لأمهات الكتب والتصانيف، وازدهرت الحياة الفكرية بها حتى عقدت سوق أسبوعية للمزاد العلني للمخطوطات جهة باب الخلفاء، وأنشئت 33 فرعا للخزانة بعدد المساجد الصغرى التي كانت تابعة لها.

*. عرف القرويين نظاما دقيقا من حيث أيام الدارسة والعطلة، وكذا نظام حلقاتها في الدروس، فكانت حلقة ذات أستاذ وأستازين، وحلقات لا يحضرها الأحداث، كما أصبح جامع القرويين تتبعه مئات الفروع المنبثة في المدينة ويتوفر على 140 كرسيًا للعلوم يغشاها الناس من مختلف الطبقات، وبرزت عدة كراسٍ علمية ذات أوقاف كثيرة وعديدة ككرسي المحراب والونشريسي والورياغلي وظهر الخصة والصومعة... والتي أقيمت عليها دروس في التفسير

والفقه والحديث وغيرها من العلوم النقلية، كما اشتهر بهذه الكراسي العديد من الشخصيات العلمية كالمنجور، بناني، بن سودة، آل الفاسي، الحاج حمدون،...

*. اعتماد العلماء في البداية على مؤلفات المشرق، ليتحولوا إلى دراسة مؤلفاتهم بعد أن ظهرت المدرسة المغربية، أخذت تبعث بمؤلفاتها إلى المشرق، كما اختار المغاربة المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية وتلاوة ورش ورواية ابن سعادة، وابتكارهم للعمل الفاسي ومحافظتهم على السند والإسناد بالمغرب وسن نظام القيم على الفنّ والمشرق على الكتاب والحفاظ على تقاليد الإجازة العلمية.

*. التواصل بين علماء المشرق والمغرب ظل متوتراً إما لتبادل المشورة أو طلب العلم والإجازة أو البحث عن الفتوى في مستجدات الأحداث منذ أيام الدولة الإسلامية حتى العلويين، وشكلت النقاط العلمية بكل من الجزائر، تونس، طرابلس والإسكندرية مناطق لقاء العلماء والتبادل بينهم، كما دخل القرويين من الشرق فقد دخلها من الغرب أفراد المستشرقون وتكونوا بها وأصبحوا كسفراء للقرويين في دولهم أو جهاتهم مثل سلفستر الثاني وكليمنار وكوليوس وقد درّسوا العربية بالجامعات الأوروبية.

*. إن تكوين الطالب خريج جامعة القرويين يرتكز على عدة جوانب منها دينية مبنية على المذهب المالكي وقضاياه ونوازل ومواقفه من خلال الكتب المدروسة من موطأ، مختصر خليل، المدونة، الرسالة وغيرها من كتب المذهب، وعلمية من حساب وفرائض...، مع طريقة مباحكة القضايا والنوازل التي أخذها الطالب من أساتذته في التعامل مع النوازل بالتحقيق مع الرواية والدراية، من خلال تلك الكراسي والمجالس التي اكتسب فيها الطلبة المفاهيم المختلفة، فكانوا خير خلف لخير سلف، وما تركوه من كتب تراجم تحكي عن مناقب هؤلاء الأساتذة وما برعوا وتفننوا فيه، لدلالة على انطباع شخصيات أساتذتهم فيهم، ككتب تراجم ابن القاضي، والقادري والكتاني...

*. نجد الطلبة يبحثون عن الأستاذ المبرز والضليع للأخذ عنه وطلب الإجازة منه، فكانت جامعة القرويين تكوّن الأطر التي تحتاجها الدولة، في تقلد عديد المناصب الدينية والمخرنية

بالبلاد، فنجد الزياني يقترح اكنسوس وابن ادريس وهما من طلبة القرويين، في البلاط السليمانى ويكون لهما دور كبير فيه.

*. سيطر في التكوين العلمى لجامعة القرويين في العهدى السعدى والعلوى على الجانب الدينى من علوم الشريعة واللغة، إلى جانب علم التصوف الذى وجد مكانا له بهذا الصرح فأصبح علماء القرويين في تكوينهم فقهاء وصلحاء، فلبسوا رداء الصوفية وزاروا الأضرحة... مما ساعد على اتساع الفكر الصوفى الطرقى على الجانب العلمى، وما احتوته كتب التراجم لخير دليل، مما أدى إلى تكوين وتخرج طبقات من علماء القرويين كفقهاء متصوفة يأخذون عن شيوخهم مختلف العلوم، مع الطريقة فيكونون عمدتهم فيها وسبيلهم إليها، وهو ما ادخل المجتمع مدينة وبادية في حياة ومنهج الصوفية وزاد في صولتها على العامة بانتشار الطريقة من عيساوية، ريسونية، درقاوية وزانية... ولكل أتباع وطقوس تمارس أمام هؤلاء العلماء المتصوفة بدون إنكار منهم عليها، لذا فإن محاولة بعض السلاطين في إصلاح القرويين والمجتمع كانت فاشلة لإطباق هذه المظاهر على المجتمع فى المدنية والريف.

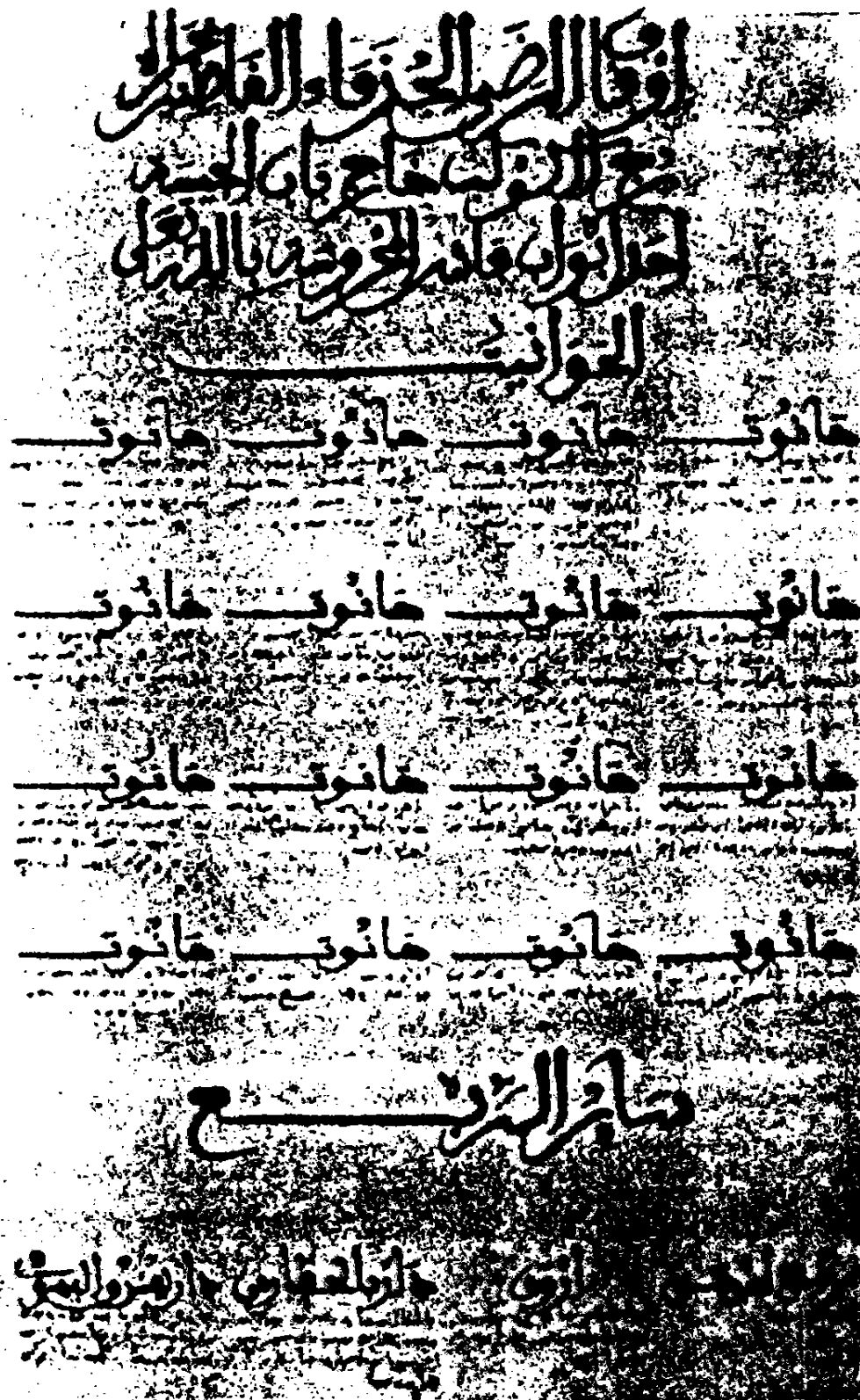
*. كانت جامعة القرويين منبع العلوم ومختلف المعارف والحرية، ففي وقت كانت عديد بلدان العالم تسبح فى ظلمات الجهل، تسعى وتتلهف لبصيص من نورها الساطع، كانت الركبان تتحدث عن علمائها العباقرة، وكانت كتبهم منتشرة بالمواد المختلفة فى كل مكان حينها كانت أوروبا تحت أبناءها للاعتراف من منهله العذب، ولكن بعد قرون قليلة سنجد الأمر ينقلب جملة وتفصيلا، وهو ما يطرح إشكالا حول كيفية تراجع جامعة القرويين فى ق13هـ/19م لتصبح تعرف باسم البيت المظلم؟، رغم أن المغرب من أولى الدول التى قامت بالابتعاث نحو أوروبا وتوازت فى ذلك مع اليابان، إلا أنها لم تشهد نهضة علمية ابتكاره فعلية تواكب تلك التى عرفتة اليابان؟.

الملحــلــاحق

1. الملحق الأول: الوثائق الأرشيفية
2. الملحق الثاني: الصور
3. الملحق الثالث: الجداول الإحصائية
4. الملحق الرابع: الخرائط والتصاميم

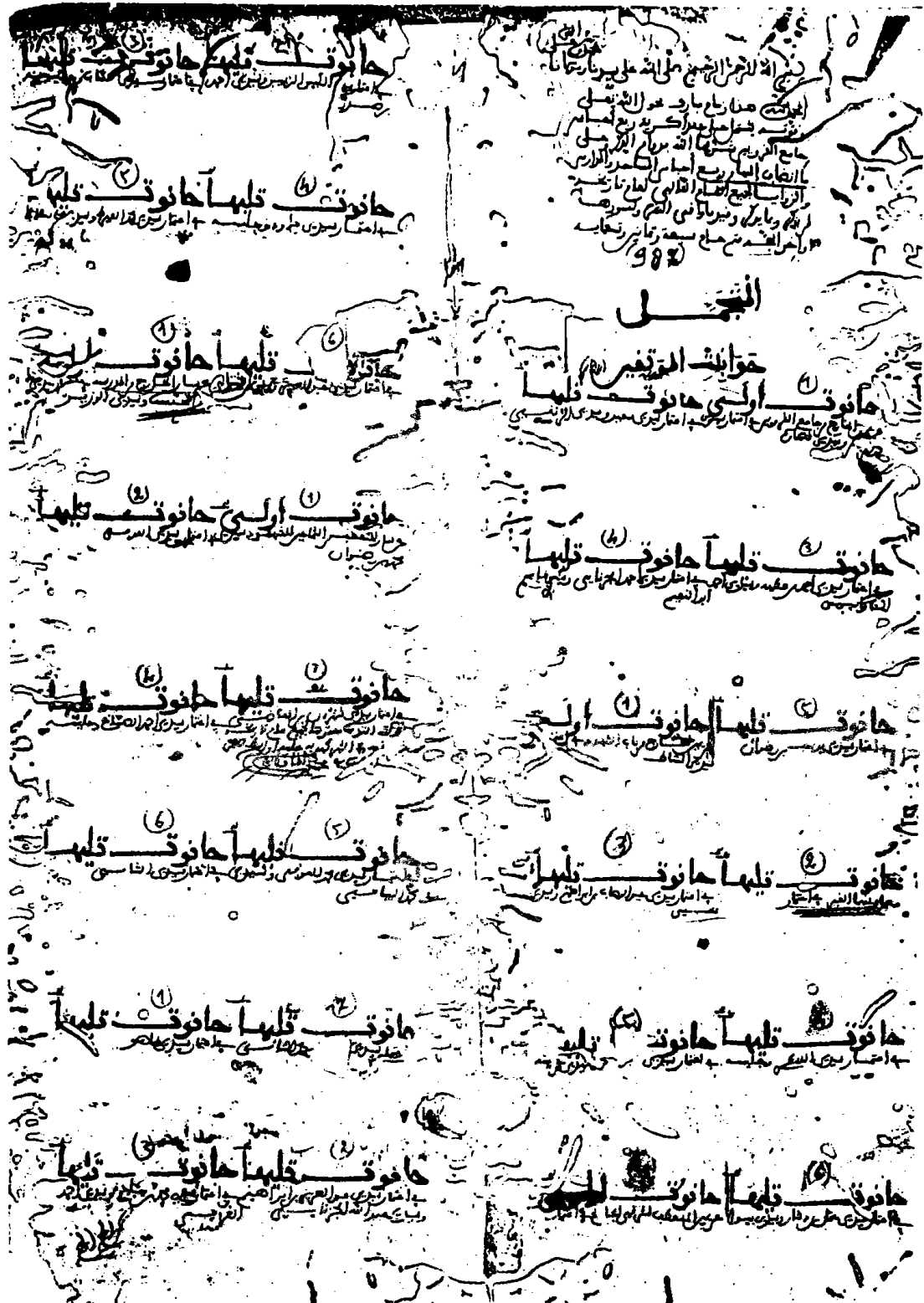
الملحق الأول

- الوثيقة رقم 1. الحوالة السليمانية لسنة 1219 هـ.
- الوثيقة رقم 2. حوالة من زمام الأكرية لأحباس القرويين وما انضاف إليها (987 هـ).
- الوثيقة رقم 3. زمام للأوقاف المضافة لجامع القرويين على الأسرى والمساكين في 994 هـ.
- الوثيقة رقم 4. حوالة لأكرية احباس القرويين وما انضاف إليها (1059 هـ).
- الوثيقة رقم 5. تقرير أهل البصر في تحديد أثمان غلاة الزيتون 998 هـ (استعمال الرقم الغباري)
- الوثيقة رقم 6. تقرير أهل البصر عن جياحة أصابت الجنان المحبسة على القرويين 991 هـ.
- الوثيقة رقم 7. ظهير سلطاني لمحمد زغودة حول الوضعية المزرية لأحباس القرويين 1037 هـ
- الوثيقة رقم 8. نص تحبيس للسلطان الرشيد العلوي لكتاب العمدة.
- الوثيقة رقم 9. وقف السلطان عبد الله لكتاب شمائل المصطفى على خزانة القرويين 1156 هـ.



المصدر/ الحوالة السليمانية، مخطوط رقم 50، قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة
بالرباط. نقلا عن بوركبة، دور الوقف...، المرجع السابق، ج1، ص 353.

الوثيقة رقم 2. حوالة من زمام الأكرية لأحباس القرويين وما انضاف إليها (987هـ).



المصدر/ قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط. نقلا عن بوركية، دور

الوقف...، المرجع السابق، ج1، ص 124.

الوثيقة رقم 3. زمام للأوقاف المضافة لجامع القرويين على الأسرى والمساكين في 994هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

وَمِنْ بَيْنِ مَا يَشْتَمِلُ عَلَىهِ الدِّينُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَ الرِّبَا وَإِذَا

وَأَوْفِ بِمَا لَمْ يَفُوتْ وَأَجْمِعْ الْغُرُوبِ

سَمِعْنَاكَ اللَّهُ نَجَّاهُ وَالْخَلْقَ فَاطْمَنَةً

البلد خاجعاً واخراجه في رعيته كذا في كتابها

والجميع على الجوار التام وعرض الفريد القديم

بتأخير في المصارف العظمى وتسييرها

وَفِيهِ مَنَّا أَوَامِلٌ لِّلْجَنَّةِ الْخَرَاءِ مَرَّحًا غَضَبَةً سَاحَتًا

وَأَنْتَ وَاللَّهُ وَفِرْعَوْنُ مَا أُرْسِلَتْكَ إِلَيْهِ.

[illegible]

وَصِيَّةُ الْفَقِيرِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْمَلِكِ حَيُّوهُ الْإِسْلَامُ خَيْرُهُ الدِّمْعَةُ

الثلاثاء الاثنا عشر والثلث في المصادرة غدا السبع ثلثا الـ

هَوَانُ الشُّكَايَةِ وَالسُّمُوْدُ وَالْإِعْيَا

[illegible]

وہابیہ کے عقائد کے خلاف لکھی ہوئی کتابیں اور ان کے مؤلفین کے بارے میں تفصیلی معلومات کے لیے اس کتاب کے آخر میں ایک اضافی باب درج کیا گیا ہے۔

خُلُوعًا نَوْتِ اِطْلَعَانِمْ اِضَاعَانِمْ اِضَاعَانِمْ

طریقہ دوم

وَصِيَّتَنَا عَلَى الْأَمَامِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصِيَّتَنَا

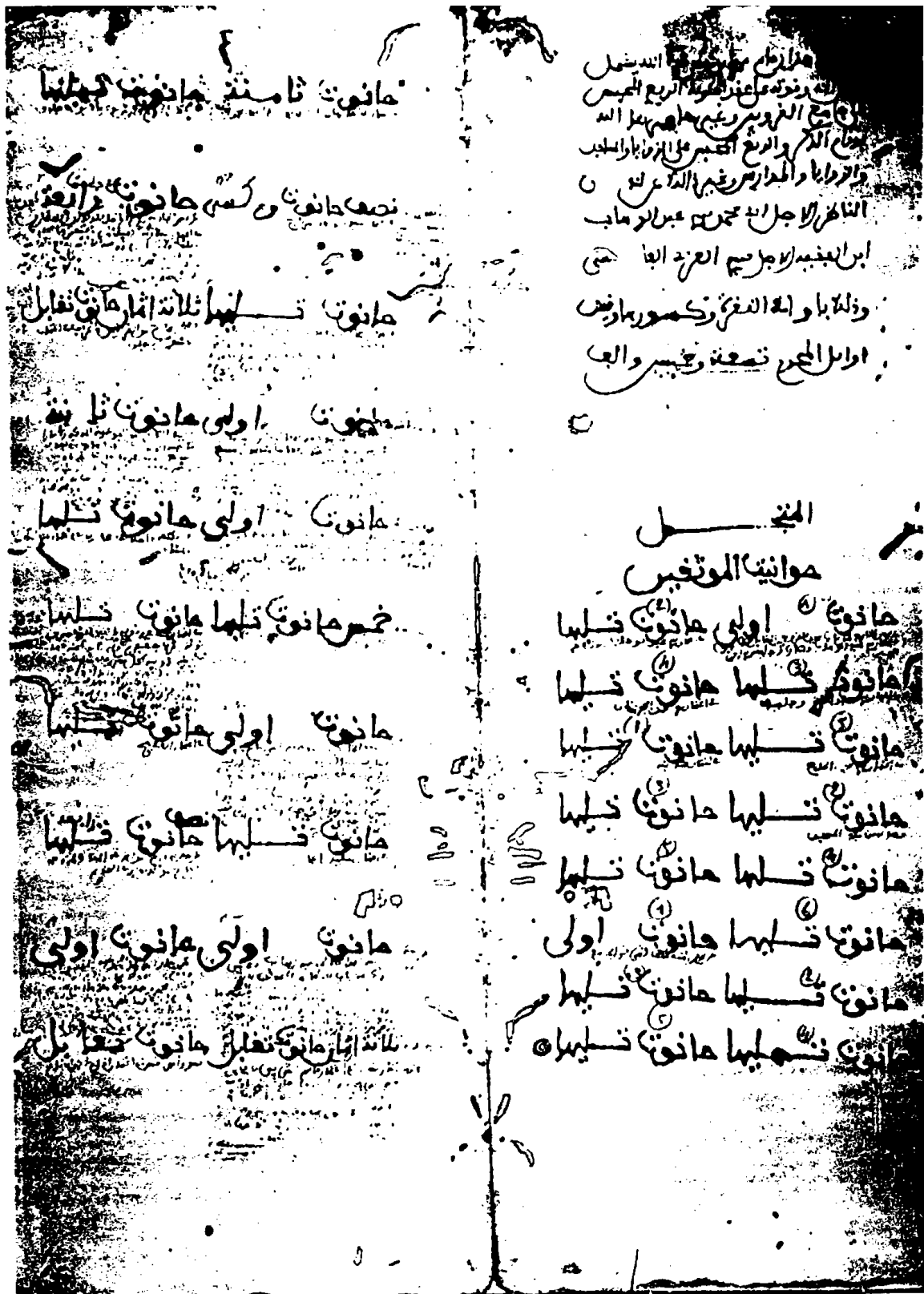
وَمِنْهُمْ هَازُوتٌ

[illegible]

المصدر/ الحوالة السليمانية، رقم 162، قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط.

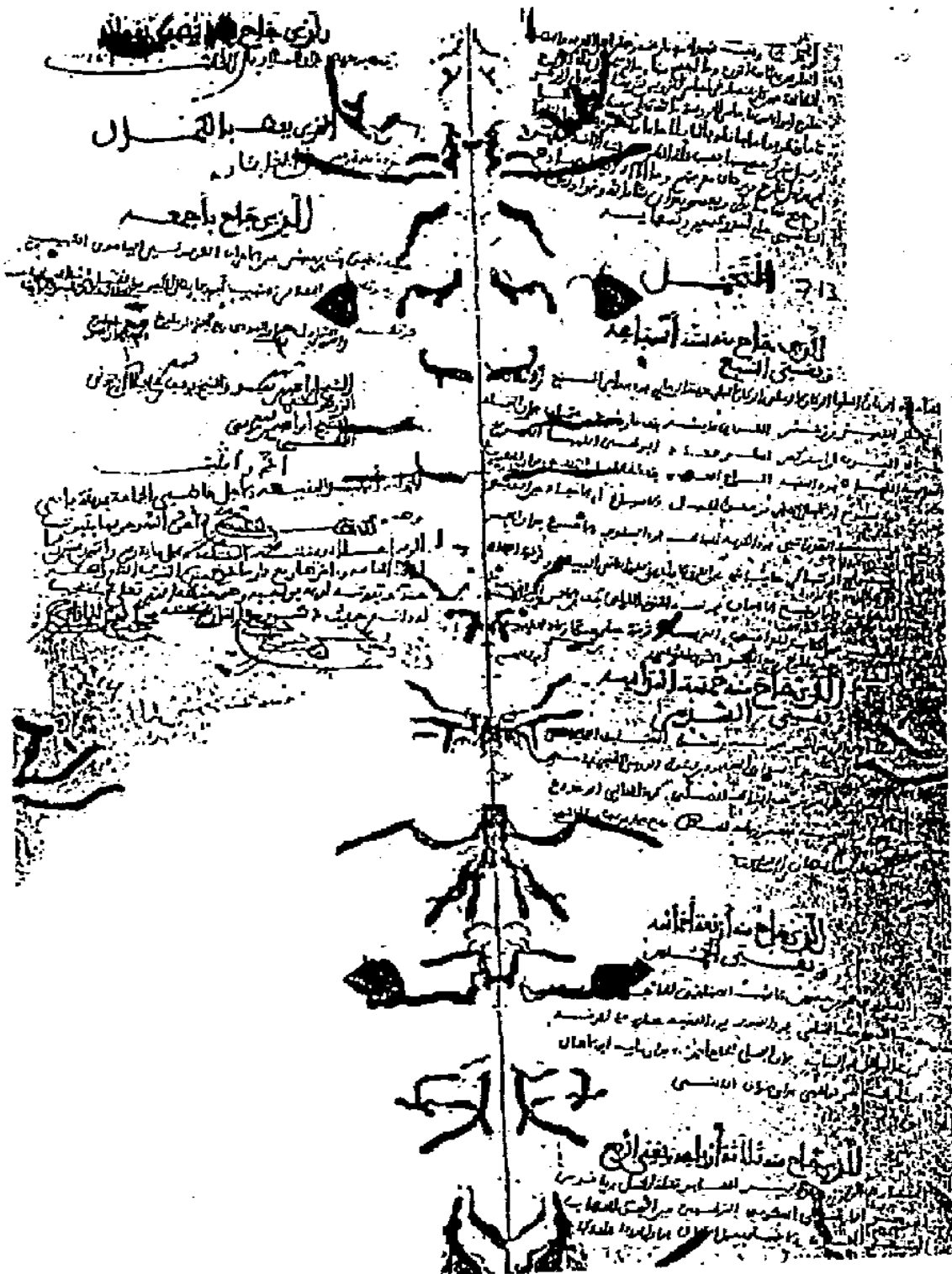
نقلا عن بنعلة، تاريخ الوقف...، المرجع السابق، ج2، ص 284.

الوثيقة رقم 4. حوالة لأكرية أحباس القرويين وما انضاف إليها (1059هـ).



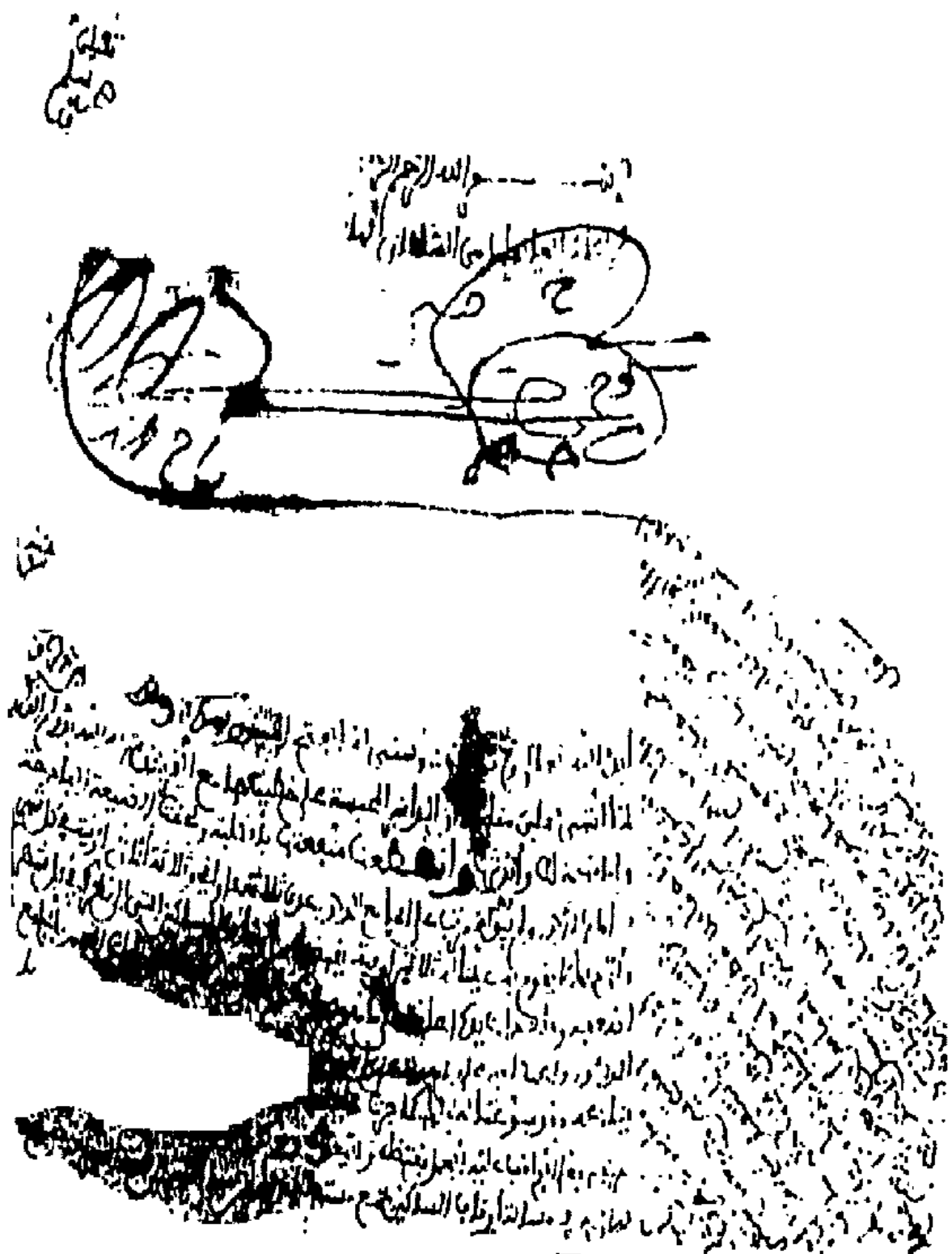
المصدر/ قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط. نقلا عن بوركبة، دور الوقف...، المرجع السابق، ج1، ص 158.

الوثيقة رقم 6. تقرير أهل البصر عن جياحة أصابت الجنان المحبسة على القرويين 991هـ



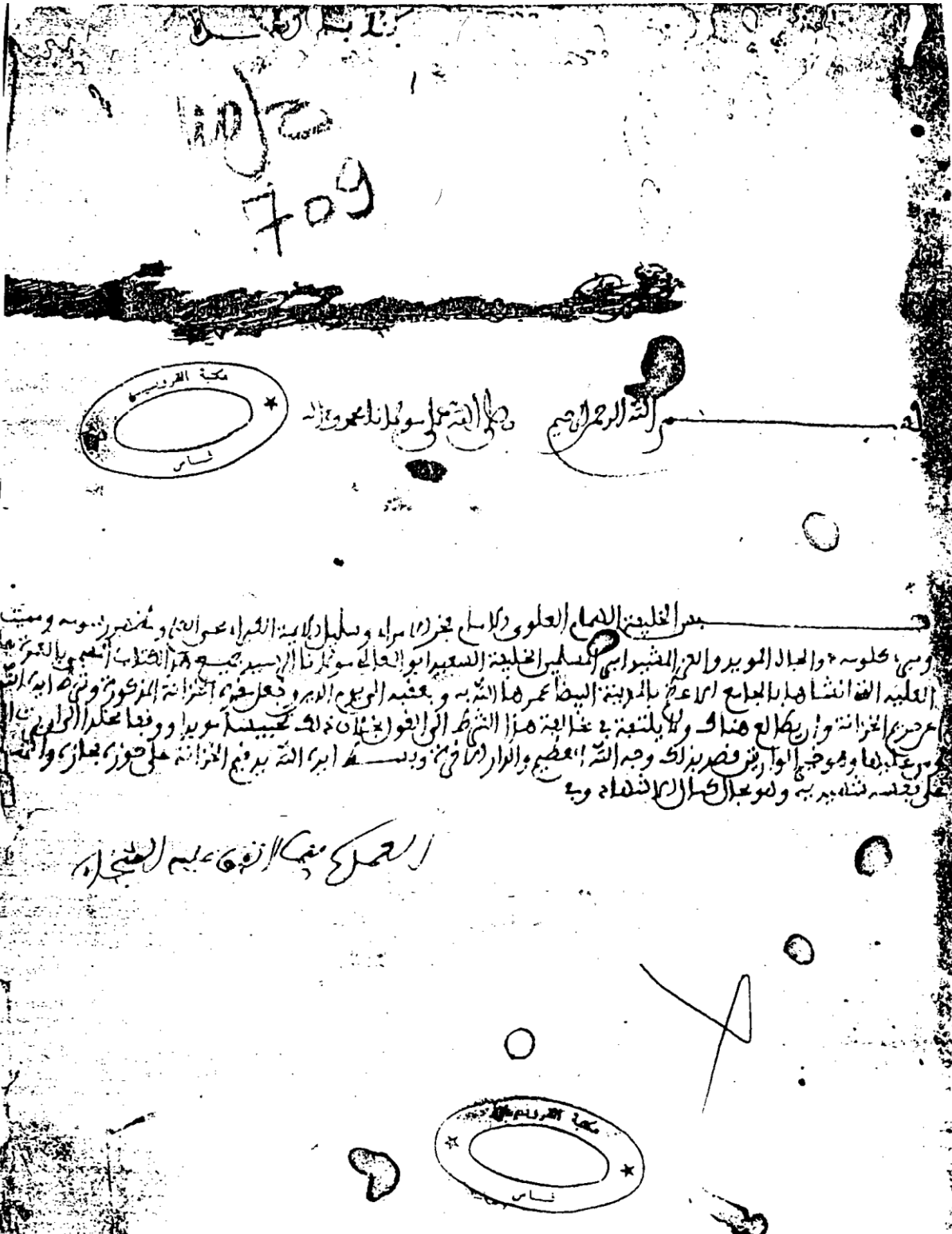
المصدر/ حوالات فاس، رقم 176، قسم الوثائق والمخطوطات بالخرانة العامة بالرباط. نقلًا عن بنعة تاريخ الاوقاف...، المرجع السابق، ج2، ص 314.

الوثيقة رقم 7. ظهر سلطان محمد زغودة حول الوضعية المزرية لأحباس القرويين 1037هـ



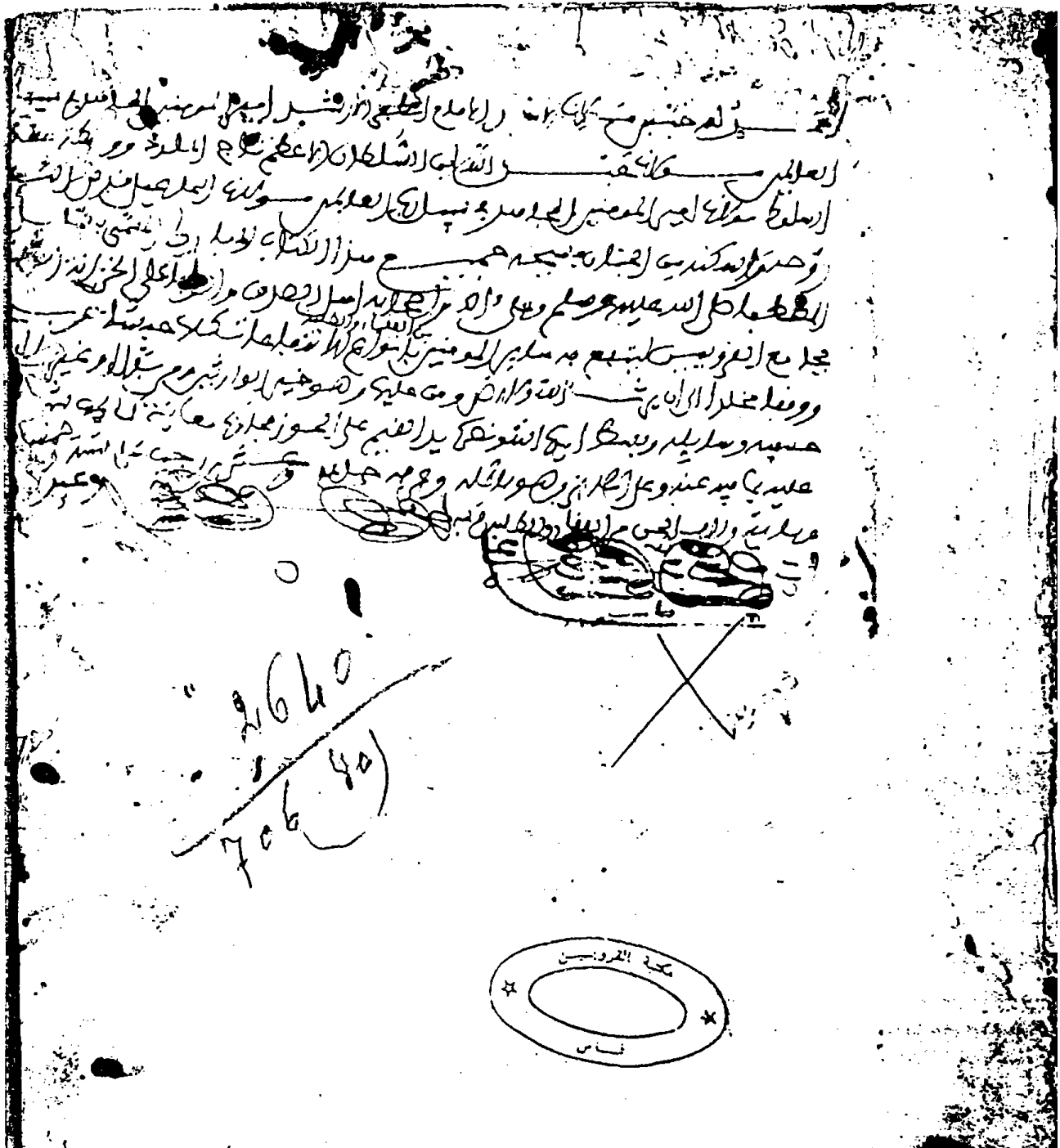
المصدر/ قسم الوثائق والمخطوطات، رقم F54 بالخزانة العامة بالرباط. نقلا عن بنعلة، تاريخ الاوقاف...، المرجع السابق، ج2، ص 319.

الوثيقة رقم 8. نص تحييس للسلطان الرشيد العلوي لكتاب العمدة.



المصدر/ قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط. نقلا عن بوركية ، دور الوقف...، المرجع السابق، ج1، ص 198.

الوثيقة رقم 9. وقف السلطان عبد الله لكتاب شمائل المصطفى على خزانة القرويين 1156هـ

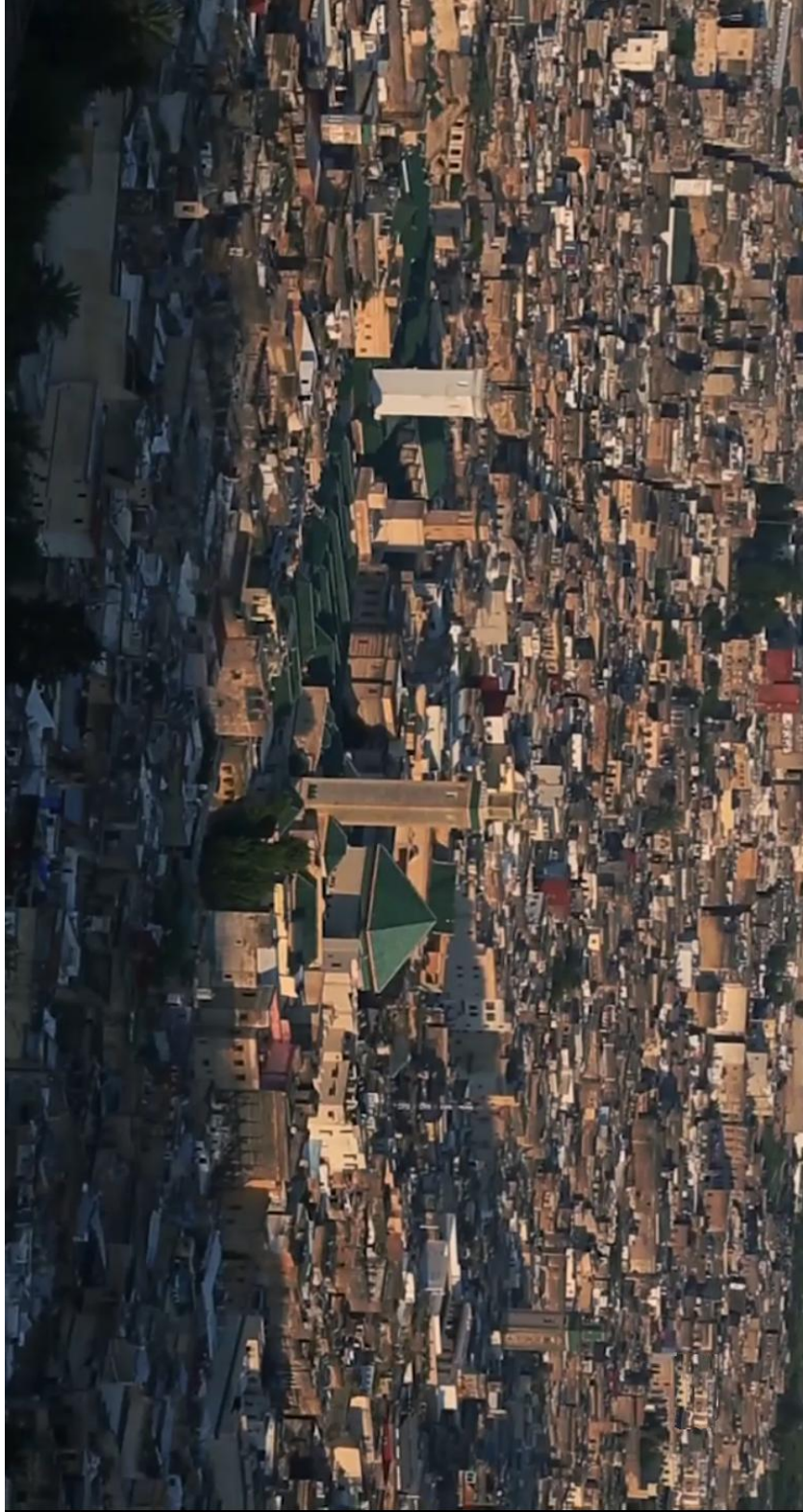


المصدر/ قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط. نقلا عن بوركية، دور الوقف...، المرجع السابق، ج1، ص 287.

الملحق الثاني

- الوثيقة رقم 10 . صورة بانورامية لفاس وجامع القرويين.
- الوثيقة رقم 11. صور داخلية للقرويين.
- الوثيقة رقم 12. نفائس للقرويين.
- الوثيقة رقم 13. صورة داخلية وخارجية لعنزة القرويين.
- الوثيقة رقم 14. صور لأبواب القرويين.
- الوثيقة رقم 15. بلاطات وأساكيب القرويين.
- الوثيقة رقم 16. صور عن بعض المرافق الخارجية القرويين.
- الوثيقة رقم 17. نماذج عن فن الزخرفة والخرط والنقش.
- الوثيقة رقم 18. صور من حرف فاس.
- الوثيقة رقم 19. صورة من المحلات المجاورة ولصيقة بالقرويين وهي من أحباسه.
- الوثيقة رقم 20. صورة للطلبة متوجهين للدراسة بجامع القرويين.

الوثيقة رقم 10. صورة بانورامية لفاس وجامع القرويين.



من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 11. صور داخلية للقرويين.



من إعداد الطالب على اليمين مقصورة الخطيب ثم الخزانة العنانية فكري علمي ثم الخزانة السعدية

الوثيقة رقم 12. نفائس للقرويين



المنبر والمحراب



ساعة مائية وإسطرلاب

من إعداد الطالب

الوثيقة رقم 13. صورة داخلية وخارجية لعنزة القرويين.



من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 14. صور لأهم أبواب القرويين.



باب الورد بجانب باب الحفافة



باب الجنائز



باب ابن عمر



باب الشماعين

من إعداد الطالب

الوثيقة رقم 15. بلاطات وأسكيب القرويين



أسكوب المحراب



بلاط المحوري (المحراب)



من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 16. صور عن بعض المرافق الخارجية القرويين.



الخصّة الغربيّة وقبتها



الخصّة الشرقيّة وقبتها مع الصومعة



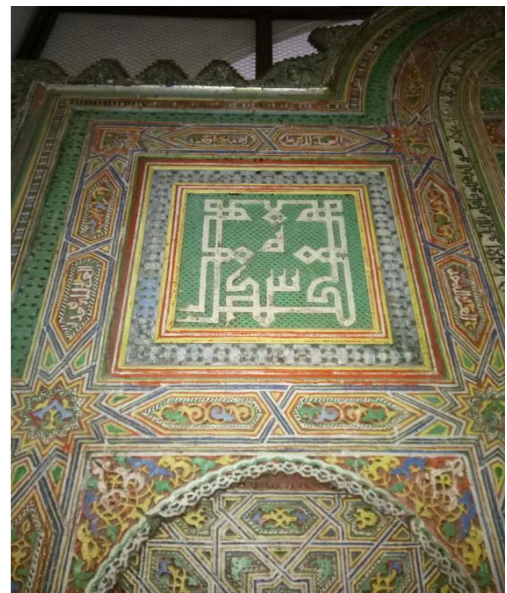
القبة الخارجيّة لباب الشماعين



صحن القرويين

من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 17. نماذج عن فن الزخرفة والخرط والنقش.



من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 18. صور من حرف فاس.



من إعداد الطالب

الوثيقة رقم 19. صورة من المحلات المجاورة ولصيقة بالقرويين وهي من أحباسه.



من إعداد الطالب.

الوثيقة رقم 20. صورة للطلبة متوجهين للدراسة بجامع القرويين.



من إعداد الطالب.

الملحق الثالث

الوثيقة رقم 21. بعض الأوقاف المعوضة مباشرة بفاس بنظر القاضي عبد الواحد الحميدي ما بين 959هـ و 979هـ.

الوثيقة رقم 22. من حوالة أحباس جامع القرويين فاس لعام 998هـ/89-1590م
الوثيقة رقم 23. لائحة بأسماء الحمامات والأرحية والأراضي المحبسة على القرويين ومداخلها لـ 961هـ/1554م

الوثيقة رقم 24. المداخل الشهرية لبعض العقارات المحبسة للقرويين لعام 962هـ/1555م
الوثيقة رقم 25. لائحة لأسماء الجنان و غابات الزيتون والأراضي المحبسة للقرويين 998هـ
الوثيقة رقم 26. لائحة أحباس القرويين بالعهد السعدي حسب حوالات فاس والخزانة العامة لـ 961-975هـ.

الوثيقة رقم 27. من أوقاف بعض المدارس الفاسية خلال النصف الثاني من ق 10هـ/16م
الوثيقة رقم 28. أوقاف الكراسي العلمية.

الوثيقة رقم 29. جدول يوضح قنوات صرف مال أحباس القرويين

الوثيقة رقم 21. بعض الأوقاف المعوضة مباشرة بفاس بنظر القاضي عبد الواحد الحميدي
ما بين 959هـ و 979هـ.

الملك المعوض	مكانه	الملك المعوض به	مكانه	صاحب الملك المعوض به
دار	سبع لويات فاس	7/8 حانوت	سماط الحرارين من القيسارية	سيدي الشريف الحرار التونسي
دار	مسيد الكهف عن يمين الخارج عن مسجد القفص	1/2 حانوت	التقاطير	حمو الطنجي النجار
دار	الشباكين	حانوت	أولى عن يمين الداخل السبطيين	غير مذكور
نصف دار	زنقة بن الأشعل بالعدوة	حانوت	السمارين	الأندلسي وشريكه يحيى
دار	الشاطة	3/8 حانوت	أولى عن يمين الداخل السبطيين	قاسم النجار
فندق	تابع لجامع القرويين	حسانوت - 1/2 حانوت	- الفخارين - الصفارين	محمد بن بكار
دار	العقبة الزرقاء	1/2 حانوت	- الحزاين	محمد مجبر
دار	درب الخرازين	ربع طراز	جنريز	يحيى الحاكم
دار	- جنريز - خميس	حانوت	القواسين من باب السلسلة	الرايس العامري

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف....، المرجع السابق، ج1، ص 372.

الوثيقة رقم 22. من حوالة أحباس جامع القرويين فاس لعام 998هـ/89-1590م

عدد الحوانيت	أماكن وجودها حسب الحوانات	عدد الحوانيت	أماكن وجودها حسب الحوانات
11	ساباط المهدي	76	المرتقين
6	يمين المدرسة العنانية	38	العطارين
68	تقابل المدرسة	10	الحرارين
9	الحدادين	34	الحرارين
10	يسار الخارج من المدرسة	14	سوق الغزل
20	اللزازين	4	الخم
11	الوشاين	20	قبة البالي
38	قرب سي يعلي	20	زنقة الشرفاء
12	التعيم حلق النعم	28	القراعين
32	السراجين	28	السبطين
5	الرصاصين	28	السبطين
18	درب بن صافي	24	الشماعين
24	القطنين	24	الحمين واللبانين والبراطلين
16	الشراطين	5	الفراشين
12	القبابين	16	البلاغيين
40	الصواقين	20	الفخارين
10	الحلفاوين	5	العشابين
16	الصفارين	5	الخضارين
4	باب العقبة	4	الفلاحين
10	دقاقين باب السلسلة	14	السقاطين
14	الصفليين	9	النحارين
20	السلسلة	74	عين علوف
64	البردعين	10	الجوطية
64	قم الرصيف	11	القاصين
6	الرصيف	14	الصاغة
8	باب الرصيف	56	قبيب الناقص
12	الرصيف	6	سوق الكتان
15	قنطرة باب السلسلة	31	سويقة الأصدع
11	العوادين	44	الحية
34	النخالين	42	الشناكين
62	صفاح العودة		قنطرة بروسن
24	سائر المواضع		

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 392.

الوثيقة رقم 23. لائحة بأسماء الحمامات والأرحية والأراضي المحبسة على القرويين ومداخلها لـ 961هـ/1554م

اسم الحمام	الملتزم بكرانه	وجيبة الكراء بالواقية	اسم الارض	وجيبة كرائها سنويا بالواقية
القلعة	الشيخ العفان	8	ملت اربغيش	70
البرجة	أحمد بن الحسن	50	ارزغيش	70
زقاق الماء	المرايط أبو بكر الحامي	6	المنجليق	40
شهوة	الشيخ العفان	7	فرد الحياتي	40
الذهب	أحمد بن محمد المهدي	6	فرد الكدية	60
			أتوه الصنهاجي	100
			العلي	40
			الزجان	68
			الدكان السفلي	50
			عينه الرجل	80
			فرد توارين	40
			فرد الصاريوي	48
			أتوه الجنان	130
			الديوني	135
			فرد عمر بن الحسن	43
			إبن نجد	140
			فرد دلايت	60
			اتوه الغز	120

اسم الارحى	الملتزم بكرانه	وجيبة الكراء شهريا بالواقية
القصابين	منصور بن بوعباد	4
ارحى ثانية له	محمد الزقاق	7
الفلل	محمد بن الفقيه مسعود بن محمد	3
الزليج	محمد بن عبد الوهاب العالمي	5
العجم	الزقاق المدعو بن أبي بوجمعة	6.5
الرطل الأولى	علي	3
الصهرج	علي موييد	7
1/2 أرحى الفنادق	محمد بن عويد الزقاق	1.5
المشروع	محمد الزقاق	6

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 400-403.

الوثيقة رقم 24. المداخل الشهرية لبعض العقارات المحبسة للقرويين لعام 962هـ/1555م

نوع العقار	مكان وجوده	مقدار مداخله بالآوقية
حوانيت	القطارين	38
حوانيت	السبطيين	37
حوانيت	عين حلوف	21
حوانيت	سوق الكتان	22
حوانيت	البقعة	30
الأطرزة	غير مذكور	95
الأفران	غير مذكور	25
حوانيت	الخضارين	17
"	الشماعين	30
"	القيسارية	75
"	القرافين	26
"	الحفاوين	22
"	القبابين	7
"	الفخارين	25
"	السقاطين	28
"	عين حلوف	36
"	الصباغين	5
الفنادق	عين الشماعين	66

المصدر/ بنجلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 405.

الوثيقة رقم 25.لائحة لأسماء الجنان وغابات الزيتون والأراضي المحبسة للقرويين 998هـ

الجنان	غابات الزيتون	أراضي الحرث
الحضر	راشبيبي	جبل القمح بفدان
بوجلود	دار الدبيبغ	رضوان
العدود	المدمة	بذمة السلطان
الزيتون	العقاب	عين الكلاب
رأس الوجلة	التفليح	دار بلحوح
بوخش	رقم مؤخر	دار العامة
بن جعفر	البساتين	داراسيار
باب الحديد	بلكبيرابقال	دواراشيخن
المومنانى	المرحام	العيون الزرق
الرقايع	ظهر النيابة	دار هارون
عبد الوهاب	عين أحجام	بني قرمود
سكيرج	يويارس	دوار السلوم
الوجلة الثانية	القسيبة	سدراة
القديم	ايت مرزوقة	تاروريت
العداوي	الوقدوح	دوار غبراون
البصليوي	بومعار	كف المان
ولجة جبل السوق	بولجمال	المنعر
الدكان	قنطرة الرمان	فرد الكدية
الطراري	جبل الغزال	الفواسح
ولجة مريم	الإشبيلي	الفداق
ولجة السبطي	ميمونة	بني ياقوس
هارون	المهتر	مدشر بن سعادة
ولجة جبل النخلة	الحول	خولان
بن يعيش	الدواور	الطبيح
المساون	مرج القطار	عين الشجرة
الحديد	روح بن خلوف	تارطونت
ولجة اكوفارين	المستوفى	الكدية المخالي
ولجة فندق الشرافعلي	مريد للمومني	بوعجول
	مجارللروان	
	عين الرومي	
	بين القناطر	

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 422.

الوثيقة رقم 26. لائحة أحباس القرويين بالعهد السعودي حسب حوالات فاس والخزانة العامة
٩61-975هـ.

عدد الاجنة والعرصات المعينة	الجهة التي تقع فيها	اسماؤها
22	خارج باب الحديد	النارحمة - الجبيل - الدوب والسروال - غزوز - ابن زمور - خبيزة - صبور بن عباد - الوجبة ورأسها - ابن عبد الأدرع - بن قرتاجة - بن زينب - بن علي - ابن الشراط - الفياطي - الزيتون - بن بخوت - الزيات المؤذنين - عريصات.
5	خارج باب الشريعة والجيسة	3 / 2 جنان خلوف - 4 / 3 جنان بن كشوط - الوجبة بوفارس - وجبة بن بوشتي - غرس ابن راشد -
23	داخل البلد	الوادي - بن عبد الله - الزيات الجلالية - بوجلود - حوض السفرجل - البهلوسية - دار الدرا - 3 / 1 عرصة دارد البقر - بنت اللبة - البطحة - الحرينة - 8 / 3 بن موشيشة - ساسن - جندوزة - الميساوي - الصومعة - حبيل بودلاع - الرغادة - بن مقور - سوق الغزل - بن جندور - عرصة المقدم سليمان -
31	خارج باب المسافرين	العسوي - الحارة - بوطاعة - حجة - بودينار - نصف ابن الزواق - بن مليل - أنجاد - ابن فنزاز - نصفه الزهراء - بوطاطو - المنشية - الفتيان - الغماري - العسال - بن حنين - بن غيلان - النهار - الحراز - العبردية - الحامة - الكاك - دالية الشماعين - دالية الشهود - بن زاكور - القاضي والعباس للزيتون - القاضي والعباس لابن جلون - سيدي عاصم - بن عمود - السراج العمودية
18	خارج باب الفتوح	بليطة - خطوط سبعة - ابن عين الناس - للبلاد - الملي - 7 / 1 ابن الفرج - الماجر - القزوي - التحونيسية - عظيمة - الحراز - العبردية - عقوبة - الحامة - الحصان - حضارة - بن دافزاز - الشريف العبردي.

المصدر / بنعلة، تاريخ الاوقاف...، المرجع السابق، ج 1، ص 207.

الوثيقة رقم 27. من أوقاف بعض المدارس الفاسية خلال النصف الثاني من ق 10هـ/16م

السنة	اسم المدرسة	نوع العقارات الوقوفة عليها
962 هـ	الوادي	7 حوانيت - 3 / 1 حانوت 2 / 1 حانوت - 4 / 3 حانوت 6 / 1 حانوت - 2 / 1 حانوت - جنان - 3 / 1 جنان مصرية
973 هـ	العطارين	حانوت - فندق 8 / 7 فندق
	أبي عنان	2 حوانيت
	الخصّة	مصرية - أرحى أرض - أرض
	الحلفاوين	حانوت
	الصهريج	دار - حمام - أورا
	الوادي	مصرية - جنان

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 258.

الوثيقة رقم 28. أوقاف الكراسي العلمية.

اسم الكرسي	موضعه	العالم المدرس عليه	تاريخ وفاته	بتولية من
مستودع باب الحفاة	المستودع الواقع عن يمين الداخل للقرويين من باب الحفاة	أحمد المنجور أبو القاسم ابن أبي النعيم	995 هـ 1032 هـ	لم يذكر أحمد المنصور
السير	خلف ظهر الصرمعة	أحمد بن علي الزموري أبو الحسن بن عمران السلالي	1001 هـ 1018 هـ	لم يذكر لم يذكر
التفسير	يسار الداخل للقرويين من باب الموثقين	أحمد المنجور يحيى السراج	995 هـ 1007 هـ	لم يذكر محمد الشيخ المامون
صحيح مسلم	قرب باب	محمد بن قاسم القصار أحمد المنجور	1012 هـ 995 هـ	أحمد المنصور لم يذكر
كسري ثاني للتفسير	بمنه الداخل للقرويين من باب عقبة السبطيين	ع. الواحد الحميدي يحيى السراج	1003 هـ 1007 هـ	محمد الشيخ المامون لم يذكر
أسفل الأسبوع الأعلام	الصف الأول يسرة الخارج من باب مسجد الجزائر	أحمد المنجور أبو القاسم ابن سودة المري عبد الله محمد بن أبي القاسم المري	995 هـ 1004 هـ 1015 هـ	لم يذكر أحمد المنصور أحمد المنصور
الشتوي للتفسير	يسرة الداخل للقرويين من باب المقابل لدرب ابن حيون	عبد الواحد الحميدي	1003 هـ	لم يذكر
ظهر الحصة المدونة	شرقي صحن القرويين يقابل وجه الداخل لقبة المدرسة	محمد بن علي الحسني المري يحيى السراج محمد بن القاسم القصار	1018 هـ 1007 هـ 1012 هـ	لم يذكر لم يذكر لم يذكر
المرادي	مجهول	أحمد بن علي الزموري محمد بن القاسم القصار	1001 هـ 1012 هـ	" "
التفسير بجامع الأندلس	مجهول	أبو العباس أحمد بن علي الزموري محمد بن القاسم القصار	1001 هـ 1012 هـ	" "

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج 1، ص 268.

الوثيقة رقم 29. جدول يوضح قنوات صرف مال احباس القرويين.

الباقى 200 أوقية = 1/5 = 20%						80% أي 4/5 منها		نفترض أن مجممل المداخل في الشهر هو	
توزع على المكلفين بتسيير الأحباس بالشكل الآتي :						800 أوقية		1000 أوقية تصرف في اللقباض مصالح الحبس ومنافع المسجد	
100 أوقية = 50%					50%				
توزع بالشكل الآتي توزع بالشكل الآتي					100 أوقية				
20 أوقية		20 أوقية		20 أوقية		تصرف في اللقباض مصالح الحبس ومنافع المسجد			
1/5		1/5		1/5					
2/5=		2/5=		4 أواق					
40= أوقية		40= أوقية		16 أواق					
للاظر		للسهود		لصاحب الزمام الأكبر					

طريقة التقسيم			الباقى	الباقى	ما يطرح لاحتياجات المسجد	نفترض أن المدخول الشهري هو
21 مثقال ÷ 7			على 5			
4/7			3/7			
12= مثقال ÷ 5			9= مثقال	10 مثقال	10 مثقال	115 أوقية
1/5	2/5	2/5	للقباض والكتاب المكلف بالزمام الأكبر			
2= مثقال	4= مثقال	4= مثقال				
و 4 أواق	و 8 أواق	و 8 أواق				
للكتاب	للاظر	للسهود				

ملحوظة: المثقال = 10 أواق

المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 514-515.

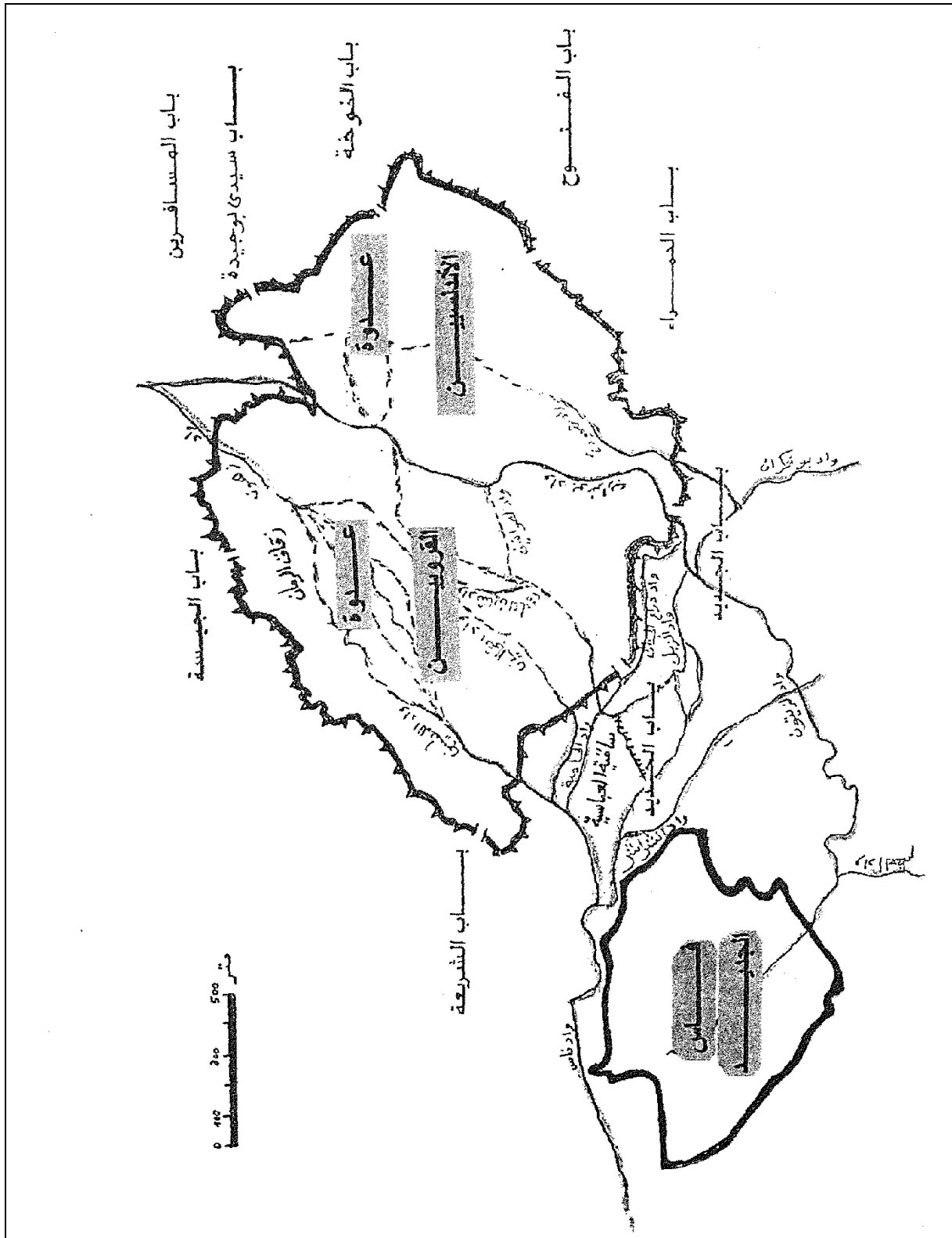
الملحق الرابع

الوثيقة رقم 30. خريطة أقسام مدينة فاس

الوثيقة رقم 31. خريطة لأحياء عدوتي فاس البالي

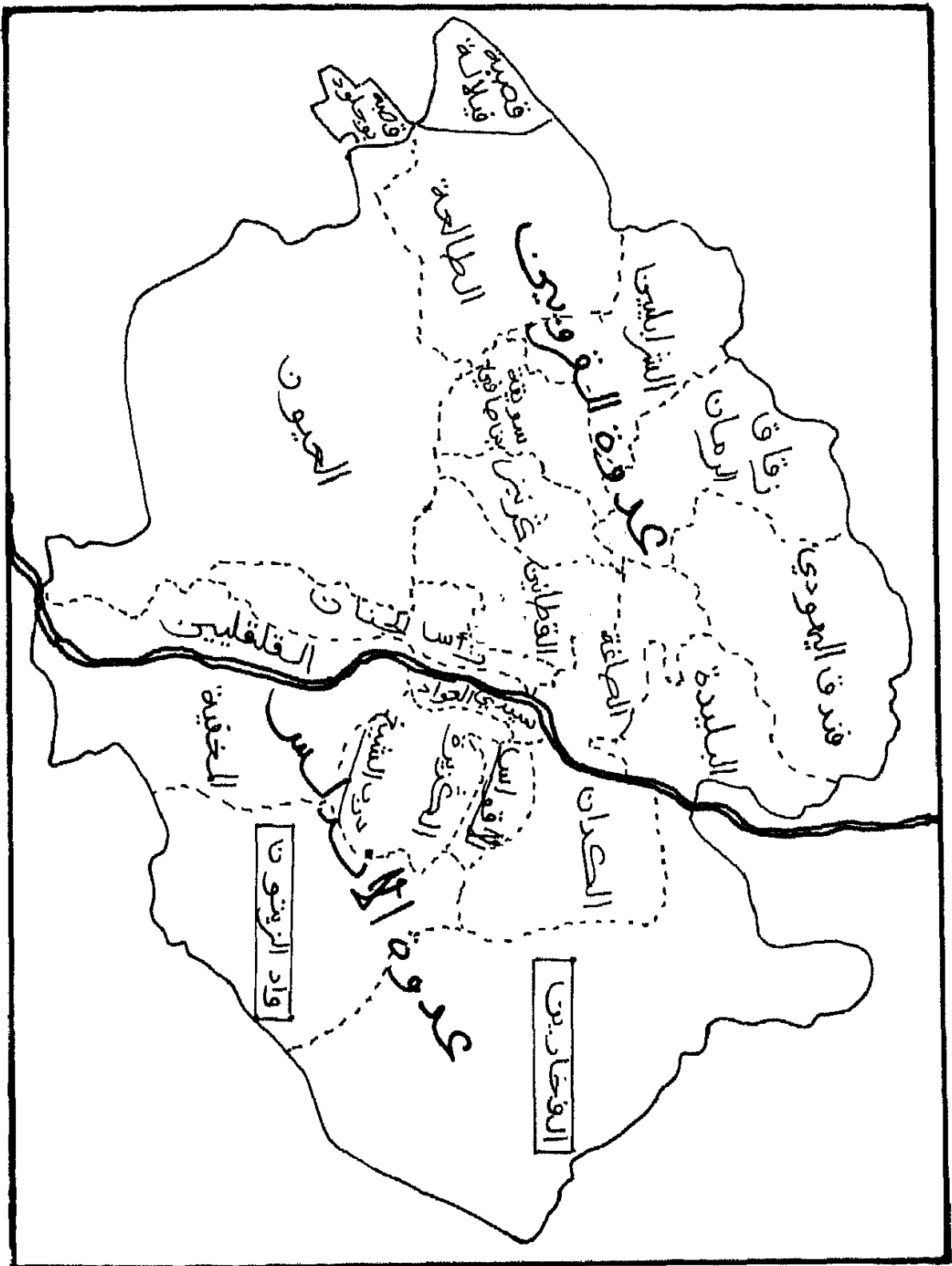
الوثيقة رقم 32. مخطط معماري نهائي لجامع القرويين.

الوثيقة رقم 30. خريطة أقسام مدينة فاس.



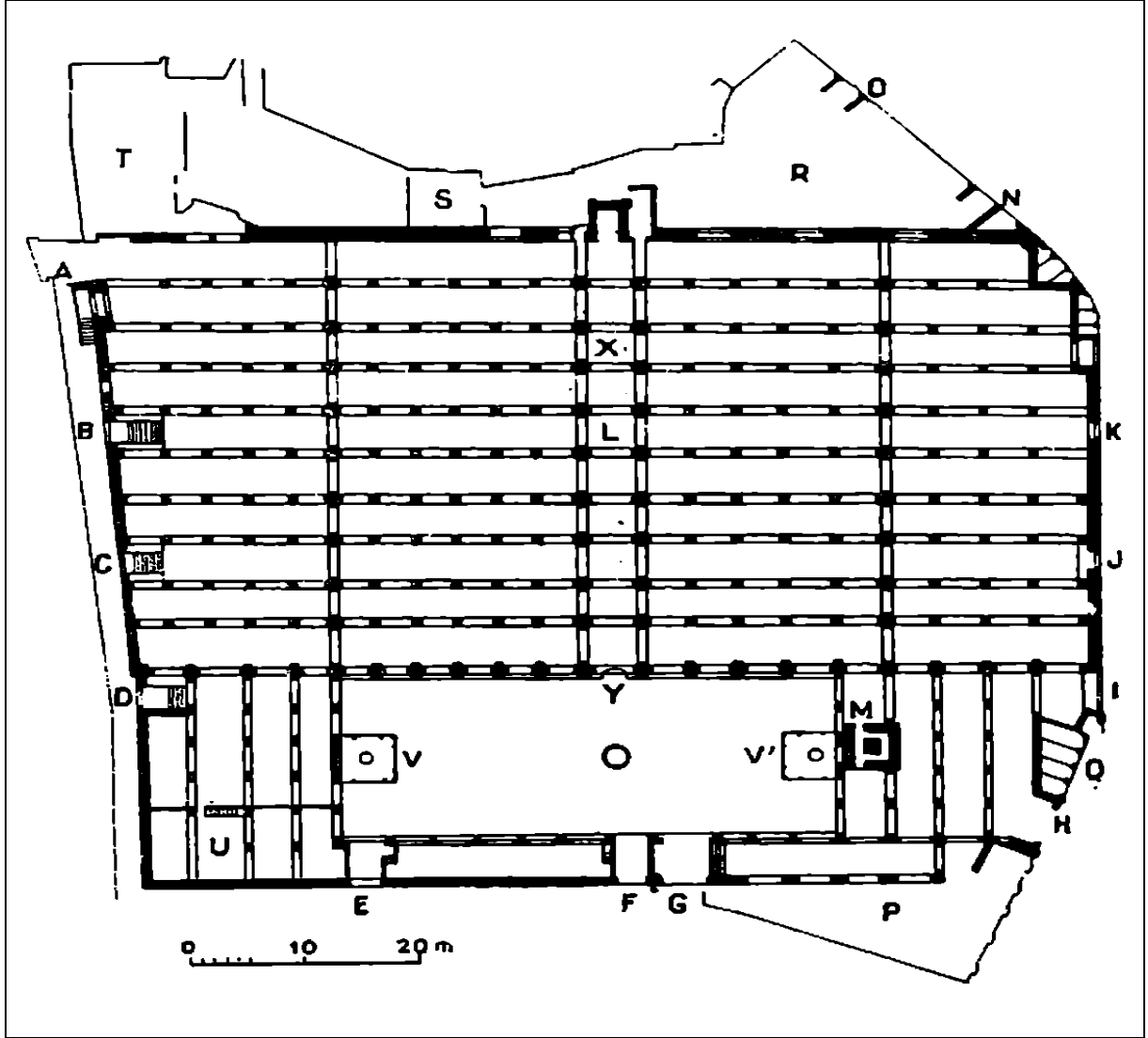
المصدر/ بنعلة، تاريخ الأوقاف...، المرجع السابق، ج1، ص 449.

الوثيقة رقم 31. خريطة لأحياء عدوتي فاس البالي.



المصدر/ روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، المرجع السابق، ص180.

الوثيقة رقم 32. مخطط معماري نهائي لجامع القرويين.



تخطيط جامع القرويين بعد الزيادة المرابطية التي استقر عليها المسجد إلى اليوم

G باب الحفافة L موضع الثريا الكبرى M الصومعة

R جامع الجنائز S خزانة الكتب T مسكن القاضي

U مصلى النساء Y العنزة

V - V' قبة الحصة بكل من جانبي الصحن من بناء السعديين ق 16 و 17 م

نقلا عن/ عثمان إسماعيل، تاريخ العمارة الإسلامية...، المرجع السابق، ج2، ص 136.

القائمة البيبليوغرافية

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الحديث النبوي الشريف:

- *. بن الأشعث الأزدي السجستاني، الإمام الحافظ أبي داود سليمان ، سنن أبي داود، ج6
تح: شعيب الارناؤط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، دمشق 1430هـ/2009م.
- *. البخاري، الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، طبعة جديدة
ط1، دار ابن الكثير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1463هـ/2006م.
- *. البيهقي، الإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي، السنن الكبرى، تح: محمد عبد القادر
ط3، ج8، دار الكتب العلمية، لبنان 2003.
- *. الترمذي، الإمام الحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير، مجلد1، ط1، تح
وتع: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996م.
- *. الترمذي، الإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة، سنن الترمذي، باب ما جاء في ابتداء
القبلة، رقم 344، اعتنى به: العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف
للنشر والتوزيع، الرياض.
- *. بن أبي بكر الهيثمي، الحافظ نور الدين علي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج2، تحرير
الحافظين: العراقي وابن حجر، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت.
- *. بن أحمد العيني، الشيخ الإمام العلامة بدر الدين أبي محمد محمود، عمدة القارئ شرح
صحيح البخاري، ج4، تص وتع: مجموعة علماء، دار الفكر.
- *. بن الحجاج القشيري النيسابوري، الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم، صحيح مسلم، اعتنى
به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع، الرياض 1998.
- *. بن حجر العسقلاني، الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي، فتح الباري بشرح
صحيح البخاري، ج2، تح وتغ وتغ: عادل مرشد وسعيد اللحام، ط1، دار الرسالة العالمية
دمشق 1443هـ/2013م.
- *. المنذري، الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي، مختصر سنن ابن داود، ج1، تخ وض
وتع وترقيم: محمد صبحي حسن حلاق، ط1، مكتبة المعارف، الرياض 1431هـ/2010م.

*. بن الناصر السعدي، الشيخ عبد الرحمان، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ج18، تح: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط2، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض 1422هـ/2002م

*. النووي، الإمام الحافظ محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج شرح النووي على صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية، الأردن. الأرشيف:

*. قسم الوثائق والمخطوطات بالخزانة العامة بالرباط:

- الحوالة السليمانية، مخطوط رقم 50، رقم 162.

- حوالات فاس، رقم 176.

المخطوطات:

*. التاجوري، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد، رسالة في علم الميقات والفلك، مخطوطة مصورة تحت رقم 1635، بمكتبة جامعة هارفرد، أمريكا.

*. الزباني، أبو القاسم، الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية ون تقدمها من الدول الإسلامية، مخطوط مصور بمكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء.

*. السجلماسي، محمد بن القاسم، شرح العمل الفاسي، مخطوط مصور بمكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات تحت رقم 5288ت 3/1131 بالرباط المغرب الأقصى.

المصادر العربية المحققة والمطبوعة:

*. الافراني، محمد، المسلك السهل في توشيح ابن سهل، تح: الأستاذ: محمد العمري مطبعة فضالة المحمدية، المغرب 1418هـ/1997م

*. الافراني، محمد، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1998م.

*. التمارتي، أبي زيد عبد الرحمن، الفوائد الجمة في إسناد علماء الأمة، تح: اليزيد الراضي، ط2، دار الكتب العلمية، لبنان 2007م

*. الجزنائي، علي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة مدينة، تح: عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1411هـ-1991م.

*. بن أبي جمعة المغراوي، أحمد ، جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تح وت: أحمد جلولي البدوي ورايح بونار، الشركة الجزائرية للنشر والتوزيع الجزائر.

*. بن خالد الناصري، احمد ، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح وت: أحمد الناصري، ج4، ج5، ج6، ج7، ج8، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2001م.

*. ابن أبي الزرع، علي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1972م.

*. بن زيدان، عبد الرحمن، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك بفاس الزاهرة، المطبعة الاقتصادية الرباط 1356هـ/1937م.

*. بن زيدان، عبد الرحمن، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج1، المطبعة الملكية الرباط 1381هـ/1961م.

*. بن زيدان، عبد الرحمن، العز والصولة في معالم نظم الدولة، ج 2، المطبعة الملكية الرباط 1382هـ/1962م.

*. بن زيدان، عبد الرحمن، المنزع اللطيف في مخافر المولى إسماعيل ابن الشريف، وت: عبد الهادي التازي، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء 1413هـ/1993م.

*. أبو زيد ولي الدين ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة العلامة ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، نسخة محققة لوان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1424هـ/2004م.

*. الزياتي، أبو القاسم ، البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف، القسم الأول، تح: الأستاذ رشيد الزاوية، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992

*. السلطان المولى سليمان العلوي، عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد، تح: د.خالد بن احمد صقلي، ط1، دار الأمان، الرباط 1440هـ/2019م.

*. سعيد الماغوسي، أبي جمعة، إيضاح المبهمة من لامية العجم، تح: الد.محمد مسعود جبران، ط1، دار المدار الإسلامي، بنغازي 2009م.

*. الطرنباطي الفاسي، محمد بن مسعود، بلوغ أقصى المرام في شرف العلم وما يتعلق به من الأحكام، تح: عبد الله رمضان، ط1، مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث، الرباط 1429هـ/2008م.

*. طوريس، ديبكو دي، تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء.

*. بن عبد الله الزركشي، محمد، إعلام الساجد بأحكام المساجد، تح: أبو الوفا مصطفى المراغي، ط4، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1426هـ/1996م.

*. بن علي المراكشي، أبي محمد عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتني به الد: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، صيدا 1426هـ-2006م.

*. الفشتالي، أبي فارس عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح: د. عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية.

*. بن القاضي، أحمد، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تح: محمد زروق ج1، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط 1986م.

*. بن محمد المقرئ، أحمد، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1403هـ/1989م.

*. بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي، الحسن، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م.

*. بن محمد بن ناصر الدرعي، أبو العباس أحمد، الرحلة الناصرية 1709-1710م، تح: عبد الحفيظ ملوكي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي 2011م.

*. مجهول، قضية المهاجرين المسمون اليوم البلديين، تح: محمد فتحة، ط1، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط 2004

*. بن مسعود اليوسي، أبي علي الحسن، رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، تح: فاطمة خليل القبلي، ج2، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1401هـ/1981م.

*. المهدي الوزاني، أبي عيسى، النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى، ج8، قابله وصححه: عمر بن عباد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1419هـ/1998م.

*. بن موسى الريفي، عبد الكريم، زهر الأكم، تح: آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992.

*. الناصري، محمد بن عبد السلام، المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا، تح: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1424هـ/2002م.

*. الونشريسي، أبي العباس أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج7، ج8، ج10، إخراج جماعة فقهاء، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية 1401هـ/1981م.

*. بن يوسف الفاسي الفهري، أبي حامد محمد العربي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (نبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب)، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، المغرب 2002م.

كتب التراجم

*. بن إبراهيم السملالي المراكشي، العباس، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام مر: عبد الوهاب ابن منصور، ج3، ج6، ط2، المطبعة الملكية، الرباط 1993م.

*. بن أحمد الحضيكي، محمد، طبقات الحضيكي، تح: أحمد بومزكو، ج1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1427هـ/2006م.

*. بن أحمد الكنسوسي، أبي عبد الله محمد، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، ج1، تح: أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش 1336هـ/1918م.

*. الافراني، محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تح: عبد المجيد خيالي، ط1، مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء 1425هـ/2004م.

*. بن جعفر بن إدريس الكتاني، الشريف أبي عبد الله محمد، سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس بمن قبر من علماء وصلحاء بمدينة فاس، تح: د. حمزة بن محمد الطيب الكتاني ود. محمد حمزة بن علي الكتاني، مج3، ط2، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط 1435هـ/2014م.

- *. ابن زيدان، عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، تح: علي عمر، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1429هـ / 2008م.
- *. بن الشيخ بن أبي القاسم الديسي ابن سيدي إبراهيم الغول، أبي القاسم محمد الحفناوي تعريف الخلف برجال السلف، تح: الد. خير الدين شترة، ج3، ط3، دار كردادة للنشر والتوزيع، بوسعادة 2013م.
- *. بن الطيب القادري، محمد، كتاب التقاط الدرر في مستفاد المواعظ والعبر في أخبار واعيان المائة الحادية والثانية عشر، تح: هاشم العلوي قاسم، ط1، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت 1403هـ/1983م.
- *. بن عسكر الحسني الشفشاوني، محمد، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي، ط2، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1397هـ/1977م.
- *. القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج1، ج2 ط1، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب لنشر والتوزيع، الرباط 1402هـ/ 1982م.
- *. القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3، ج4 ط1، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب لنشر والتوزيع، الرباط 1407هـ/ 1986م.
- *. بن القاضي المكناسي، أحمد، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973م.
- *. بن القاضي المكناسي، أحمد، درة الحجال في أسماء الرجال، تح: الدكتور محمد الأحمد أبو النور، ج2، ط1، مكتبة دار التراث، القاهرة 1391هـ-1971م.
- *. المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، صححه: مصطفى وهبي، ج4 المطبعة الوهبية، مصر 1284هـ.
- *. بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي الفهري، عبد الله، الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر، تح: فاطمة نافع، ط1، دار ابن حزم، بيروت 1469هـ/2004م.

- *. بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، خرج حواشيه وعلق عليه: عبد المجيد خيالي، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003.
- *. المنجور، أحمد، فهرس أحمد المنجور، تح: محمد حجي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1396-1976م.
- *. بن هاشم الكتاني، الشريف عبد الكبير، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، تح: الدكتور علي بن منتصر الكتاني، ج1، ج2، مكتبة الثقافة، الرباط، 1421هـ.
- *. بن يوسف الفاسي الفهري، أبي حامد محمد العربي، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (نبذة عن نشأة التصوف والطريقة الشاذلية بالمغرب)، تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، المغرب 2002م.

المراجع:

- *. أحمد طه، جمال، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (448هـ/1056م إلى 668هـ/1269م) دراسة سياسية وحضارية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية 2001.
- *. بن عبد الله، عبد العزيز، فاس منبع إشعاع في القارة الإفريقية، ج2، المطبعة الملكية الرباط 2001م.
- *. بنعلة، مصطفى، تاريخ الأوقاف الإسلامية بالمغرب في العصر السعدي من خلال حوالات تارودانت وفاس، ج1 وج2، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية 1428هـ/2007م.
- *. بوركية، السعيد، دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في العهد الدولة العلوية، ج1 مطبعة فضالة، المغرب، 1417هـ/1996م.
- *. التازي، عبد الهادي، جامع القرويين المسجد والجامعة بمدينة فاس، مج1، مج2 ومج3 ط2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط 2000م.
- *. حجي، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب 1396هـ/1976م.

- *. حجي، محمد، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، ط2، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، المغرب 1409هـ/1988م.
- *. حجي، محمد، جولات تاريخية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995م.
- *. حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج2، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1420-2000م.
- *. بن الحسن الحجوي الثعالبي، محمد، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مطبعة إدارة المعارف، الرباط 1340هـ.
- *. جلاب، حسن، مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي، ط1، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994م.
- *. بن خروف، عمار، العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2006.
- *. داود، محمد، تاريخ تطوان، مج1، معهد مولاي حسن، تطوان 1379هـ/1959م.
- *. بن سعد آل حمدان الغامدي، ذياب، الوجازة في الإثبات والإجازة، ط1، دار قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1428هـ/2007م.
- *. السنوسي، محمد المختار، سوس العالمية، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب الأقصى 1380هـ/1960م.
- *. الشيخ محمد المكي الناصري، الأحباس الإسلامية في المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المغرب 1412هـ/1992م.
- *. صالح سالم، عبد العزيز، روائع الفنون الإسلامية في المغرب الأقصى، مركز الكتاب للنشر، القاهرة 2010م.
- *. ضريف، محمد مؤسسة الزوايا بالمغرب، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992م.
- *. بن عبد الكريم الجيدي، عمر، العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومها لدى علماء المغرب، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب 1982م.
- *. عثمان إسماعيل، عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى ج1، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1992م.

- *. عثمان إسماعيل، عثمان، تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى ج2، ج3، ج4 و ج5، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1993م.
- *. العمراني، أحمد الأمين، الحركة الفقهية في عهد السلطان محمد بن عبد الله، ج1، ج2 مطبعة فضالة، المحمدية 1996م.
- *. القبلي، محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، ط1، دار توبقال للنشر المغرب 1987م.
- *. الكتاني، علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005م.
- *. الكتاني، محمد المنتصر بالله، فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى، ط2، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002م.
- *. كرار، عزت شحاتة، الوقف القرآني وأثره في الترجيح عند الحنفية، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة 1424هـ/2003م.
- *. كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط 1427هـ/2006م.
- *. محمد المغراوي، عمر أفا، الخط المغربي تاريخ وواقع وأفاق، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1428هـ/2007م.
- *. المنوني، محمد، تاريخ الوراقة المغربية (صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة)، ط1، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط 1412هـ/1991م.

الترجمات:

- *. بروفنصال، ليفي، مؤرخو الشرفاء، تع: عبد القادر الخلافي، دار المغرب، الرباط 1977م.
- *. توريس، بالباس وبولد، ليو، الفن المرابطي والموحدي، تر: د. سيد غازي، ط1، توزيع دار المعارف، مصر 1971م.
- *. لوطورنو، روجي، فاس قبل الحماية، ج1 و ج2، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1416هـ/1996م.

المقالات والمجلات:

- *. الإلغي، رضا الله إبراهيم، "التعليم القرآني"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س11، شوال 1387هـ/ جانفي 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م.
- *. الامري، محمد، "رائد السلفية: المولى سليمان"، عن مجلة دعوة الحق، ع5 و6، س13 ربيع الأول 1390هـ/ ماي 1970م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1970.
- *. بغدادي القادري، جمال، "الأثر النفسي للمسجد"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س6، رجب 1382هـ/ ديسمبر 1962م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م.
- *. بنسودة، عبد السلام، "حول أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس"، عن مجلة دعوة الحق، ع1 و2، س14، ذو القعدة 1390هـ/ جانفي 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1971م.
- *. بينبين، محمد شوقي، "وظيفة القيم في تاريخ الخزنة المغربية"، عن في النهضة والتراكم دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية مهداة إلى الأستاذ محمد منوني، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب 1986م.
- *. الجراري، عبد الله، "الأوقاف الإسلامية ونظامها بالمغرب في عهد الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س9، رمضان 1385هـ/ جانفي 1966م، صدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م.
- *. الجراري، عبد الله، "العلويون في تحرير التراب وتهذيب الأفكار"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س13، ذو القعدة - ذو الحجة 1389هـ/ فيفري - مارس 1970م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1970م.
- *. حجي، محمد، "تأملات حول الفترة التي سبقت تأسيس الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1967م.
- *. حجي، محمد، "ملاحع عن المغرب العربي وقيام الدولة العلوية -2-"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س14، صفر 1391هـ/ افريل 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971م.

*. الخلادي، عبد القادر، " الشيخ عبد الرحمن المجذوب"، عن مجلة دعوة الحق، ع9 و10، س11، جمادي الأولى 1388هـ/أوت 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م.

*. الخلادي، عبد القادر، "من مظاهر الإصلاح الاجتماعي في عهد الملوك العلويين"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م.

*. خالص، عبد اللطيف، " الإصلاح والتجديد في عهد الدولة العلوية"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1968م.

*. التازي، عبد الهادي، "القبائل العربية بالمغرب" عن مجلة مجمع اللغة العربية، ج84 ماي 1999م، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة 1999م.

*. التازي، عبد الهادي، " من التاريخ الدبلوماسي حول الشريف العباسي"، عن مجلة دعوة الحق، ع7، س15، ذو الحجة 1392هـ/ جانفي 1973م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1973م.

*. تقي الدين الهلالي، الشريف، "عناية الملوك المغاربة بالحديث الشريف"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1967م.

*. الريسوني، محمد المنتصر، " المولى سليمان بين شعراء عصره"، عن مجلة دعوة الحق ع3، س14، ذو الحجة - محرم 1391هـ/ فيفري - مارس 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971م.

*. الريسوني، محمد المنتصر، " المولى محمد بن عبد الله بين شعراء عصره"، عن مجلة دعوة الحق، ع3، س13، ذو القعدة - ذو الحجة 1389هـ/ فيفري - مارس 1970م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1970م.

*. زمامة، عبد القادر، "الوزيران صاحبان: ابن إدريس وأكنسوس"، عن مجلة دعوة الحق ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م.

- *. السايح، الحسن، " الثقافة المغربية في عصر السعديين"، عن مجلة دعوة الحق، ع3 س7، رجب 1383هـ/ ديسمبر 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م،
- *. السائح، حسن، "مجتمع فاس في القرن الحادي عشر الهجري"، عن مجلة دعوة الحق ع2، س11، رمضان 1387هـ/ ديسمبر 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م.
- *. بن سودة، عبد السلام، " حول أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس -2-"، عن مجلة دعوة الحق، ع2، س15، صفر 1392هـ/ افريل 1972م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف الرباط 1972م.
- *. الصحراوي، عبد القادر، "على هامش رسائل الحسن اليوسي إلى المولى إسماعيل"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م.
- *. الطنجي، محمد، " موقف ملوك الدولة العلوية وفخرها المولى إسماعيل من مؤسسة الاحباس"، عن مجلة دعوة الحق، ع7، س6، ذو القعدة 1382هـ/أفريل 1963م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1963م.
- *. الطنجي، محمد، "المولى محمد بن عبد الله العلوي: العالم المفكر مفخرة المغرب"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1388هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م.
- *. طيراس، هنري، "الفن المعماري في المساجد المغربية عبر العصور"، تر: عبد اللطيف ملين، عن مجلة دعوة الحق، ع1، س6، جمادي الأولى 1382هـ/ أكتوبر 1962م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1962م.
- *. العبادي، محمد، "دور جامع القرويين في تكوين الشخصية الثقافية المغربية التقليدية"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م.
- *. الفاروقي، الرحالي، " الدولة العلوية وعنايتها بالثقافة العامة ومجالس التفسير والحديث" عن مجلة دعوة الحق، ع4، س12، ذو الحجة 1389هـ/ مارس 1969م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1969م.

- *. الفاسي، علال، "اهتمام الأسرة العلوية بحفظ القرآن"، عن مجلة دعوة الحق، ع4، س11 ذو القعدة 1387هـ/ فيفري 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م.
- *. الفاسي، محمد، "الملك المصلح سيدي محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع4 س10، ذو القعدة 1386هـ/ مارس 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م.
- *. الفلاح العلوي، محمد، "القرويين وأصول السلفية بالمغرب"، محمد كنون أنموذجاً، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م.
- *. كنون، عبد الله، "الملك العبقري محمد بن عبد الله"، عن مجلة دعوة الحق، ع5، س10 ذو الحجة 1386هـ/ أفريل 1967م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1967م.
- *. لاند، روم، "جامعة القرويين بفاس"، تعريب محمد الخطيب، عن مجلة دعوة الحق، ع1 س2، ربيع الأول 1378هـ/ سبتمبر 1958م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1958م.
- *. مجهول، "تاريخ الوقف في الإسلام واهتمام العلويين به"، عن مجلة دعوة الحق، ع3 س9، رمضان 1385هـ/ جانفي 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م.
- *. أبو المحاسن، "أعلام المغاربة - أبو علي اليوسي - 1014-1120هـ(1)" عن مجلة المغرب الجديد ع4، س1، جمادي الثاني 1354هـ/ سبتمبر 1935م، تطوان 1354هـ/ 1935م.
- *. مصطفى، نشاط، "المرينيون وجامع القرويين"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م.
- *. منصور، محمد، "مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع ق19: كناشة المشاط"، عن متنوعات محمد حجي، ط1، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م.
- *. المنصوري، عثمان، "الانتصار للتصوف ولمتصوفة الشمال من خلال دوحة الناشر لابن عساكر"، عن محطات في تاريخ المغرب الفكري والديني، سلسلة ندوات ومحاضرات لأعمال مجموعة الأبحاث في التاريخ الديني، مطبعة فضالة، المحمدية 1996م.

- *. المنوني، محمد، "استقرار كثير من أصول القومية المغربية في الفترة المرينية والوطاسية" عن مجلة دعوة الحق، ع8، س11، ربيع الأول والثاني 1388هـ/جوان -جويلية 1968م تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م.
- *. المنوني، محمد، "أوقاف بدون كرسي على مواضع معينة بجامعي القرويين والأندلس"، عن مجلة دعوة الحق، ع6 و7، س9، ذو الحجة-محرم 1386هـ/أفريل-ماي 1966م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1966م.
- *. المنوني، محمد، "ملاح عن الحياة المغربية في رمضان"، عن مجلة دعوة الحق، ع9 س14، شوال 1391هـ/نوفمبر 1971م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1971.
- *. المنوني، محمد، "المولد النبوي الشريف في المغرب المريني"، عن مجلة دعوة الحق، ع1 س12، شعبان 1388هـ/نوفمبر 1968م، تصدرها وزارة عموم الأوقاف، الرباط 1968م.
- *. النجمي، عبد الله، "الإفادات والإنشادات لمحمد الصغير الأفراني"، عن متنوعات لمحمد حجي، ط1، نشرت بمناسبة صدور موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م.

الموسوعات والمعاجم:

- *. حجي، محمد، موسوعة أعلام المغرب (1101-1120هـ)، ج5، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1417هـ/1996م.
- *. خدوشي، رابح وآخرين، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، ح: أ، ج1، منشورات الحضارة، الجزائر 2004م.
- *. بن عبد الكبير الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيكات والمسلسلات، اعتني به: الدكتور إحسان عباس، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402/1982م.
- *. كنون، عبد الله، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة، ج3، ط1 دار ابن حزم، بيروت 1430هـ/2010م.

Sources :

- *. El-Abbassi, Ali Bey, Voyage d'Ali Bey El-Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années (1803-1807), T1, Imprimerie de P. Didot l'aîné, Paris.
- *. Inconnu, Histoire du Muley Raxid, Roy de Tafilet, Gervais clovzier M.DC.LXX, Paris.

Références :

- *. Bel, Alfred, Inscriptions arabes de Fès, Extrait du journal asiatique (1917-1919), Imprimerie National, Paris.
- *. Benoit, Fernand, L'Empire de Fès de Maroc du Nord, Librairie de la Revue Française, Paris 1931.
- *. Berque, Jacques, Essai sur la méthode juridique Maghrébine, Imprimer par Macel le Forestier, Rabat 1944.
- *. Berque, Jacques, Ulémas, fondateurs, insurgés du Maghreb XVII^e siècle Editions Sindbad, Paris 1982
- *. Caillé, Jacques, La Petite histoire du Maroc, 1^{ère} série, Chérifienne d'édition et publicité, Casablanca 1950.
- *. Caillé, Jacques, La Petite histoire du Maroc, 2^{ème} série, Chérifienne d'édition et publicité, Casablanca 1950.
- *. Champion, Pierre, Le Maroc et ses villes d'art, H. Laures-Edition, Paris 1927.
- *. De La Véronne, Chantale, Documents inédites sur l'histoire du Maroc (1726-1728), T1, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris 1975.
- *. De la Véronne, Chantale, Vie de Moulay Ismâ'îl, Roi de Fès et de Maroc Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1974.
- *. Drague, Georges, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, T2, J. Peyronnet et Cie. Edition, Paris 1951.
- *. Khort, Pierre, En colonne au Maroc, Librairie Académique, Paris 1931.
- *. Levi-provençal, Evariste, Extraits des Historiens arabes du Maroc, 2^{ème} édition Librairie coloniale et orientaliste Larose, Paris 1929.
- *. Levi-provençal, Evariste, La Fondation de Fès, Librairie Larose, Paris 1938.
- *. Maslow, Boris, Les Mosquées de Fès et du Nord du Maroc, Les Editions d'Art et d'Histoire, Paris 1934.
- *. Mauclair, Camille et Bouchor, J.F., Fès ville Sainte, Henri Laurens Editeur Paris 1933.
- *. Parunet, Louis, Au seuil de la vie Marocaine, Librairie Farairre, Casablanca.
- *. Terrasse, Henri, Histoire du Maroc, T1, Editions Atlantides, Casablanca 1950.
- *. Terrasse, Henri, Histoire du Maroc, T2, Editions Atlantides, Casablanca 1950.
- *. Terrasse, Henri, La Mosquée Al-Qarauiyin à Fès, Librairie C. Klincksieck Paris 1868.

Articles :

- *. Berque, Jacques, « Ville et Université. Aperçu sur l'histoire de l'Ecole de Fès », in Revue Historique de droit français et étranger, Librairie du Recueil Sirey, Paris 1949.
- *. Bressolette, Henri et Delarozière, Jean, « Fès-jdid de sa fondation en 1276 au milieu du XX^{ème} siècle », in R.H.T, Vol.xx-xxi, A1982-83,Imprimerie Nadjah El-Jadida, Casablanca 1983.
- *. Gagne, Jacques et Nejjar, Said, « Le Maroc Sa^cdite a travers une étude récente », in R.H.T ,Vol xx-xxi, A1982-83, imprimerie Najah el-djadida Casablanca 1983.
- *. Kenbib, Mohammed, " the Mallah society, Jewish community life in Sherifien Morocco", in R.H.T, Vol. xxxiii,A 1995, imprimerie Najah el-jadida, Casablanca 1995.

الفهرس

فهرس السلاطين والأعلام

فهرس الأماكن والبلدان والدول

فهرس الموضوعات

فهرس السلاطين والأعلام:

السلاطين:

الإمام إدريس الأول: 13، 14، 15، 36، 110، 113، 318.

الإمام إدريس الثاني: 14، 15، 16، 18، 20، 28، 58، 164، 193، 214، 217، 218، 234، 300، 399، 411.

السلطان أبو عنان المريني: 27، 41، 52، 84، 91، 100، 108، 112، 143، 359.

السلطان أبي يعقوب بن عبد الحق: 27، 28، 29، 44، 52، 59، 81، 86، 107، 112، 149، 225، 261، 272، 300، 302، 411.

السلطان أحمد المنصور : 89، 117، 124، 125، 132، 140، 143، 144، 176، 177، 178، 186، 187، 191، 197، 198، 199، 209، 210، 221، 229، 241، 254، 263، 264، 303، 320، 353، 356، 366، 367، 377، 428.

السلطان إسماعيل: 154، 158، 163، 164، 166، 167، 168، 169، 170، 181، 182، 183، 190، 191، 193، 195، 200، 209، 210، 219، 231، 245، 266، 269، 270، 306، 355، 357، 367، 386، 398، 415، 424، 428.

السلطان الرشيد: 159، 162، 163، 168، 182، 199، 200، 209، 210، 224، 230، 265، 280، 305، 306، 320، 333، 367، 370، 384، 395، 414.

السلطان زيدان: 125، 126، 128، 130، 135، 136، 166، 178، 186، 187، 189، 210، 221، 238، 264، 287، 313، 314، 397.

السلطان سليمان: 156، 161، 163، 164، 167، 169، 192، 204، 205، 207، 210، 231، 233، 250، 257، 267، 270، 279، 298، 328، 329، 341، 357، 360، 368، 369، 389، 390، 402، 404، 419، 425.

السلطان عبد الرحمن بن هشام: 156، 167، 169، 184، 193، 207، 231، 240، 267، 269، 297، 329، 332، 391، 425، 428.

السلطان عبد الله السعدي: 124، 188، 263، 313، 376.

السلطان عبد الله العلوي: 155، 159، 160، 164، 169، 192، 245، 267، 333.

السلطان محمد الشيخ المأمون: 125، 126، 127، 135، 137، 175، 178، 179، 189، 210، 226، 285، 303، 353، 354، 380، 389، 398، 424.

السلطان محمد الشيخ المهدي: 30، 121، 122، 123، 125، 132، 133، 172، 175
189، 196، 229، 246، 259، 263، 285، 302، 312، 318، 373.

السلطان محمد بن عبد الله: (محمد الثالث): 155، 160، 164، 166، 169، 174، 182
192، 202، 208، 237، 240، 267، 296، 325، 332، 368، 388، 404، 425.

الأعلام:

ابن القاضي: 17، 41، 56، 108، 113، 117، 142، 186، 215، 226، 241، 263
283، 334، 336، 369، 375، 397، 430.

ابن خلدون: 15، 76، 77، 81، 87، 96، 185، 349، 350.

أبي القاسم القصار: 125، 136، 187، 191، 245، 246، 255، 247، 303، 339
354، 364، 369، 373، 374، 375، 379، 413، 414، 416.

جسوس: 160، 181، 192، 194، 195، 215، 296، 321، 384، 387، 424، 428.

أحمد المقري: 82، 104، 117، 127، 139، 143، 145، 177، 189، 220، 232
264، 296، 321، 339، 341، 344، 363، 380، 408، 418، 425.

أحمد المنجور: 102، 176، 197، 198، 199، 229، 264، 286، 298، 303، 305
320، 339، 340، 344، 351، 356، 373، 375، 426، 427، 430.

أحمد بابا التنبكتي: 82، 135، 176، 417.

أحمد بن محمد بن جيدة المديوني: 101، 353، 376.

الافراني: 117، 122، 123، 133، 134، 137، 148، 156، 177، 197، 229، 240
295، 344.

التاودي بن سودة: 181، 192، 202، 205، 238، 387، 388، 390، 397.

الجزنائي: 14، 17، 21، 25، 27، 35، 41، 45، 55، 56، 61، 62، 107، 113، 159
225، 235، 261، 262، 272.

الحسن الوزان: 15، 17، 20، 55، 74، 82، 98، 236، 238، 239، 242، 243، 255
261، 271، 274، 275، 276، 284، 352، 403.

الورياغلي: 59، 86، 99، 100، 106، 113، 172، 301، 318، 351، 364، 425.

الونشريسي: 99، 101، 104، 106، 113، 215، 238، 243، 248، 259، 261، 273، 279، 311، 312، 351، 353، 356، 360، 371، 373، 428، 429.
 اليستيني: 141، 196، 229، 302، 336، 373، 376، 410، 411، 412.
 بن أبي زرع: 13، 15، 16، 17، 21، 24، 25، 31، 35، 37، 39، 40، 55، 56، 62، 92، 113، 235، 236، 260، 271.
 بن جلال التلمساني: 246، 322، 376، 379، 384، 400.
 بن غازي: 99، 100، 105، 179، 223، 256، 318، 321، 336، 346، 353، 370، 371، 372، 374، 375، 376، 400.
 رضوان الجنوي: 173، 305، 232، 312، 373، 374، 375، 427.
 عبد الرحمن الفاسي: 157، 238، 321، 336، 346، 350، 383، 405.
 عبد الرحمن سقين: 232، 321، 322، 364، 377.
 عبد القادر الفاسي: 152، 180، 191، 224، 230، 266، 346، 386، 414، 417.
 عبد الواحد الحميدي: 125، 177، 188، 198، 199، 229، 230، 232، 240، 286، 309، 312، 340، 353، 357، 361، 364، 369، 373، 375، 398، 406، 455.
 عبد الواحد الونشريسي: 101، 104، 122، 133، 141، 172، 173، 246، 302، 304، 356، 362، 372، 374، 379، 424.
 علي اليوسي: 153، 181، 182، 183، 191، 195، 200، 224، 228، 230، 231، 248، 295، 320، 322، 333، 336، 337، 346، 347، 366، 383، 385، 387، 392، 396، 401، 411، 425.
 قاسم بن أبي النعيم الغساني: 125، 136، 199، 220، 287، 303، 356، 380.
 مارمول: 15، 21، 134، 174، 236، 261، 274.
 محمد بن الكماد: 284، 354، 363، 385.
 محمد ميارة: 180، 192، 215، 247، 286، 304، 305، 306، 309، 321، 344، 347، 359، 363، 381، 382، 384، 387، 405، 407، 415، 427.
 يحي السراج: 198، 214، 215، 232، 242، 246، 255، 309، 321، 340، 353، 354، 356، 361، 362، 364، 369، 392، 398، 406، 407، 413، 414.

فهرس الأماكن والبلدان والدول:

الأماكن:

القرويين: 11، 12، 19، 22، 23، 31، 34، 35، 37، 39، 41، 44، 45، 49، 51، 58، 61، 65، 69، 83، 84، 86، 90، 91، 92، 98، 100، 102، 103، 107، 108، 110، 111، 112، 116، 132، 138، 140، 141، 144، 163، 166، 167، 171، 172، 185، 186، 188، 196، 204، 208، 212، 217، 221، 223، 228، 235، 237، 242، 245، 247، 254، 263، 266، 268، 272، 175، 281، 290، 311، 314، 318، 320، 322، 323، 325، 329، 331، 323، 335، 339، 344، 350، 351، 354، 361، 362، 364، 367، 375، 378، 380، 383، 385، 388، 389، 391، 394، 400، 402، 406، 412، 420، 422، 424، 425.

جامع القرويين: 11، 12، 20، 23، 24، 27، 28، 29، 31، 32، 33، 38، 44، 45، 46، 50، 55، 58، 61، 69، 70، 81، 83، 86، 89، 91، 92، 98، 103، 104، 113، 114، 116، 133، 135، 136، 143، 144، 147، 165، 166، 167، 168، 170، 173، 187، 188، 191، 212، 218، 221، 223، 224، 235، 237، 239، 243، 246، 247، 254، 260، 265، 269، 175، 281، 297، 319، 336، 342، 349، 351، 360، 363، 364، 367، 369، 374، 380، 383، 389، 390، 395، 414، 421، 422، 425، 429.

جامعة القرويين: 11، 66، 89، 92، 97، 99، 108، 114، 133، 163، 207، 239، 254، 261، 314، 322، 326، 332، 362، 388، 399، 401، 420، 424، 425.
عدوة الأندلس: 16، 17، 18، 19، 27، 32، 138، 152، 157، 217، 219، 236.
عدوة القرويين: 16، 17، 18، 19، 23، 31، 138، 152، 216، 217، 218، 219، 220، 275، 422.

البلدان والدول:

الأسبان: 91، 119، 122، 126، 128، 130، 153، 155، 183، 196، 401، 404
الأندلس: 13، 14، 15، 16، 23، 25، 27، 38، 40، 42، 43، 44، 45، 48، 52، 73، 76، 81، 87، 90، 95، 96، 108، 110، 112، 120، 149، 214، 258، 261، 288، 290، 319، 230، 336، 345، 400، 403، 405، 411، 426.

البرتغال: 119، 120، 122، 124، 175، 176، 179، 188، 189، 196.

الجزائر: 30، 119، 122، 123، 126، 134، 135، 139، 163، 183، 193، 197
208، 214، 236، 237، 262، 278، 288، 302، 321، 371، 384، 385
400، 404، 418، 427، 428، 430.

الدولة الأموية: 13، 21، 22، 23، 36، 60، 110، 218، 261.

الدولة السعدية: 89، 101، 114، 116، 117، 118، 120، 121، 123، 125، 129
130، 132، 133، 134، 138، 139، 141، 143، 142، 145، 147، 148، 154
158، 165، 166، 169، 172، 173، 175، 179، 182، 188، 189، 197، 198
199، 210، 214، 215، 221، 237، 254، 259، 260، 263، 269، 280، 289
303، 313، 314، 318، 319، 345، 347، 360، 364، 365، 366، 375، 379
381، 399، 423، 424، 427، 428.

الدولة العبيدية: 21، 22، 23، 60، 90، 110، 218.

الدولة العلوية: 32، 114، 116، 118، 129، 130، 131، 139، 148، 149، 151
150، 154، 157، 160، 162، 163، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 182
183، 190، 192، 194، 196، 199، 201، 202، 209، 210، 214، 221، 225
237، 245، 254، 256، 259، 260، 264، 265، 268، 280، 289، 296، 318
319، 322، 324، 332، 339، 345، 347، 361، 364، 381، 410، 423، 346
350، 428، 430.

الدولة المرينية: 20، 21، 26، 29، 30، 34، 43، 44، 48، 52، 53، 57، 58، 59، 65
81، 82، 87، 88، 91، 96، 98، 100، 104، 111، 139، 149، 165، 173، 213
214، 218، 255، 260، 263، 272، 300، 308، 317، 344، 350، 365، 394.

الدولة الموحدية: 21، 24، 25، 26، 27، 29، 31، 39، 40، 44، 47، 60، 64
83، 87، 102، 107، 109، 111، 114، 168، 213، 260، 256، 265، 394.

الدولة الوطاسية: 26، 29، 30، 48، 87، 99، 104، 113، 114، 121، 122، 123
128، 132، 135، 139، 172، 175، 188، 264، 272، 301، 322، 424، 427.

العرائش: 126، 127، 136، 153، 175، 179، 183، 189، 210، 226، 249، 379.

المغرب: 12، 13، 14، 15، 16، 17، 18، 20، 21، 23، 24، 26، 28، 30، 31، 35، 36، 41، 42، 43، 45، 61، 65، 66، 72، 81، 82، 88، 91، 96، 107، 111، 112، 116، 118، 122، 124، 126، 13، 132، 135، 139، 149، 154، 155، 156، 161، 163، 164، 166، 172، 174، 179، 184، 194، 196، 198، 200، 203، 207، 208، 210، 214، 218، 219، 223، 227، 232، 233، 242، 253، 256، 259، 265، 276، 284، 287، 288، 290، 292، 298، 306، 312، 313، 318، 320، 327، 329، 333، 334، 346، 347، 349، 364، 378، 382، 390، 393، 400، 404، 405، 412، 415، 416، 417، 419، 420، 422، 425، 426، 431.

بغداد: 12، 13، 17، 71، 80، 81، 84، 86، 87، 98،

تونس: 17، 30، 35، 76، 236، 288، 320، 399، 400، 426، 430.

درعة: 117، 129، 130، 150، 151، 318، 417.

سجل ماسة: 18، 83، 129، 130، 148، 149، 151، 155.

فاس: 11، 12، 13، 14، 15، 16، 17، 19، 20، 22، 24، 28، 30، 31، 32، 34، 35، 38، 40، 41، 44، 48، 51، 52، 59، 62، 64، 79، 80، 84، 86، 87، 90، 92، 95، 99، 103، 104، 109، 113، 116، 117، 122، 125، 126، 130، 132، 134، 136، 138، 146، 151، 152، 158، 163، 168، 172، 177، 180، 181، 187، 191، 195، 200، 203، 206، 210، 212، 214، 218، 219، 222، 230، 237، 240، 243، 244، 247، 248، 257، 261، 266، 268، 272، 277، 282، 285، 286، 289، 290، 298، 301، 304، 306، 308، 312، 318، 320، 330، 334، 337، 340، 345، 349، 351، 354، 357، 358، 362، 367، 370، 372، 375، 378، 379، 381، 383، 386، 389، 401، 404، 405، 409، 410، 413، 415، 422، 423، 424، 425، 426.

قرطبة: 17، 20، 44، 82، 109، 113، 196، 426.

مراكش: 24، 25، 80، 83، 90، 95، 118، 212، 124، 15، 126، 128، 129، 130، 132، 135، 136، 139، 142، 126، 127، 152، 153، 160، 164، 177، 179، 187، 191، 198، 210، 256، 260، 290، 318، 339، 353، 369، 376، 381، مكناسة: 24، 94، 121، 132، 135، 163، 164، 165، 173، 174، 201، 210.

فهرس الموضوعات

كلمة الشكر

الإهداء

المقدمة.....1

قائمة المختصرات.....9

القسم الأول: جامع القرويين بفاس والتعليم حتى ق10هـ/16م

تمهيد:.....11

الفصل الأول: مدينة فاس من التأسيس حتى ق10هـ/16م

تمهيد:.....12

أولاً: مدينة فاس:.....12

1. تأسيس فاس:.....12

2. فاس الإدريسية:.....16

ثانياً. التطور السياسي والتاريخي لمدينة فاس:.....21

1. في عهد العبيديين والأمويين:.....21

2. في عهد المرابطين والموحدين:.....24

3. في عهد المرينيين والوطاسيين:.....26

الفصل الثاني: جامع القرويين من التأسيس حتى ق10هـ/16م

تمهيد:.....31

أولاً. تأسيس الجامع القرويين:.....31

1. تأسيس القرويين:.....31

2. التوسيعات والزيادات التي عرفها القرويين حتى ق10هـ/16م:.....35

3. الطراز المعماري والفني للعمارة في المغرب الأقصى:.....42

ثانياً: مرافق القرويين حتى ق16م:.....49

1. مرافق خارج الجامع:.....49

2. مرافق داخل الجامع:.....57

الفصل الثالث: مراكز التعليم الأولي بالمغرب الأقصى حتى ق10هـ/16م

تمهيد.....	66
أولاً. المسجد والجامع:	66
1. التعريف:	66
2. دور المسجد والجامع:	69
ثانياً. الكتاب أو المسيد:	72
1. تأسيسها.	72
2. نشاطها:	73
3. منهج التعليم في الكتاب وطرقه:	75
ثالثاً. المدارس العلمية:	80
1. نشأتها:	80
2. المدارس وتطورها بالمغرب الأقصى:	83
الفصل الرابع: التعليم العالي بالقرويين حتى القرن 10هـ/16م:	

تمهيد.....	89
أولاً. نشأة جامعة القرويين:	89
1. نشأتها:	89
2. العلوم المدرسة بالقرويين:	94
3. منهج وطرق التدريس:	96
ثانياً. نشأة الكراسي العلمية بالقرويين:	98
1. أهم الكراسي العلمية بالجامعة:	98
2. أهم الكراسي العلمية بفروع القرويين وتخصصها:	103
ثالثاً. الحياة العلمية بالقرويين:	107
1. خزانة القرويين وفروعها:	107
2. بناء شخصية القرويين الفكرية:	109

القسم الثاني: القرويين والواقع السياسي (ق 10-13هـ/16-19م)

تمهيد.....	116

الفصل الأول: فاس والقرويين في العهد السعدي (10-11هـ/16-17م)

تمهيد.....	117
أولاً. الدولة السعدية:.....	117
1. التعريف بالشرفاء السعديين:.....	117
2. مراحل تكوين دولتهم:.....	119
ثانياً. السعديون وفاس:.....	132
1. فاس السعدية:.....	132
2. أهم منجزاتهم بها:.....	139
ثالثاً: السعديون والقرويين:.....	141
1. التحسينات الداخلية:.....	141
2. التحسينات الخارجية:.....	144

الفصل الثاني: فاس والقرويين في العهد العلوي: (11-13هـ/17-19م)

تمهيد.....	148
أولاً. الدولة العلوية:.....	148
1. التعريف بالشرفاء العلويين:.....	148
2. مراحل تأسيس دولتهم:.....	150
ثانياً. العلويين وفاس:.....	157
1. فاس العلوية:.....	157
2. أهم منجزاتهم بها:.....	162
ثالثاً: العلويين والقرويين:.....	165
1. التحسينات الداخلية:.....	166
2. التحسينات الخارجية:.....	169

الفصل الثالث: القرويين القضايا السياسية القائمة (10-13هـ/16-19م)

تمهيد.....	171
أولاً. القرويين ونصرة الحق:.....	171
1. في العهد السعدي:.....	172
2. العهد العلوي:.....	180

185.....	ثانيا. القرويين والنشاط السياسي:
185.....	1. في العهد السعدي:
190.....	2. العهد العلوي:
196.....	ثالثا. الملوك العلماء لهذه الفترة:
196.....	1. العهد السعدي:
199.....	2. العهد العلوي:
	القسم الثالث: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس والقرويين (10-13هـ/16-19م)
212.....	تمهيد:
	الفصل الأول: الواقع الاجتماعي-الاقتصادي بفاس (10-13هـ/16-19م)
213	تمهيد:
213	أولا. الجانب الاجتماعي:
213	1. المجتمع الفاسي:
224	2. المركز الاجتماعي لعلماء القرويين:
234.....	ثانيا. الحياة الاقتصادية:
234	1. الواقع الاقتصادي بفاس:
237	2. المركز الاقتصادي لعلماء القرويين:
241.....	ثالثا. الهيكل العامة لإدارة وتسيير القرويين:
241.....	1. القائمون بالوظائف الإدارية:
246.....	2. القائمون بالوظائف الدينية والتعليم:
	الفصل الثاني: الوقف والقرويين (10-13هـ/16-19م):
251.....	أولا. الوقف:
251.....	1. تعريفه:
253.....	2. أنواعه:
260.....	3. تطور الوقف بالمغرب الأقصى:
263.....	ثانيا. الشرفاء والوقف:
263.....	1. السعديين والوقف:

264.....	2. العلويين والوقف:
268.....	3. الحوالات الحبسية:
271.....	ثالثا. الوقف والقرويين:
271.....	1. تطور أوقاف القرويين:
274.....	2. مداخيل جامع القرويين:
280.....	3. أوقاف الكراسي العلمية والمواضع والجهات:
الفصل الثالث: القرويين والقضايا الاجتماعية والاقتصادية (10-13هـ/16-19م):	
284.....	تمهيد.....
284.....	أولا: النوازل الاجتماعية:
285.....	1. مسألة الطائفية: (المهاجرون، الأشراف، الأندلسيون):
290.....	2. مسألة التصوف والطرقية:
300.....	ثانيا: المسائل الاقتصادية:
300.....	1. قضية البلديين: (المهاجرون، الإسلاميون):
307.....	2. قضية الوقف:
القسم الرابع: رسالة القرويين الحضارية والروحية (10-13هـ/16-19م)	
316.....	تمهيد.....
الفصل الأول: الحياة العلمية على عهد الشرفاء (10-13هـ/16-19م):	
317.....	تمهيد.....
317.....	أولا. النهضة العلمية:
317.....	1. عوامل قيامها:
322.....	2. الحركة الإصلاحية بالقرويين:
331.....	ثانيا: الدراسة بالقرويين:
331.....	1. التعليم والتدريس:
338.....	2. سير المجالس العلمية:
341.....	3. المناهج والطرق:
344.....	ثالثا. مؤثرات الحياة العلمية:

344.....	1. نوعية الكتب المعتمد عليها:
347.....	2. تنوع المواد المدرسة:
الفصل الثاني: المجالس العلمية ورجالها بالقرويين (10-13هـ/16-19م)	
350.....	أولاً. الكراسي والمجالس العلمية بالقرويين وتخصصها:
350.....	1. كراسي جامع القرويين:
361.....	2. أهم الكراسي العلمية بفروع القرويين وتخصصها:
364.....	3. المكتبات العلمية في عهد الشرفاء:
369.....	ثانياً. رجال العلم في عهد الشرفاء:
369.....	1. رجال العلم في العهد السعودي:
381.....	2. رجال العلم في العهد العلوي:
391.....	ثالثاً. التقاليد العلمية:
391.....	1. شروط العالم والمتعلم:
392.....	2. أيام الدراسة والعطل بالقرويين:
395.....	3. الإجازات والختمات:
الفصل الثالث: القرويين والقضايا الدينية والعلمية (10-13هـ/16-19م):	
398.....	تمهيد
398.....	أولاً. صلات علماء القرويين بالخارج:
398.....	1. صلات القرويين مع المشرق:
402.....	2. صلات القرويين مع الغرب:
404.....	ثانياً. القرويين والمسائل الفقهية:
404.....	1. على المستوى المغربي:
410.....	2. على مستوى العالم الإسلامي:
422.....	الخاتمة:
433.....	الملاحق:
470.....	قائمة الببليوغرافية:
487.....	الفهارس: